منتدى مكتبة الاسكندرية

ستاندال

الأحمر والأسود

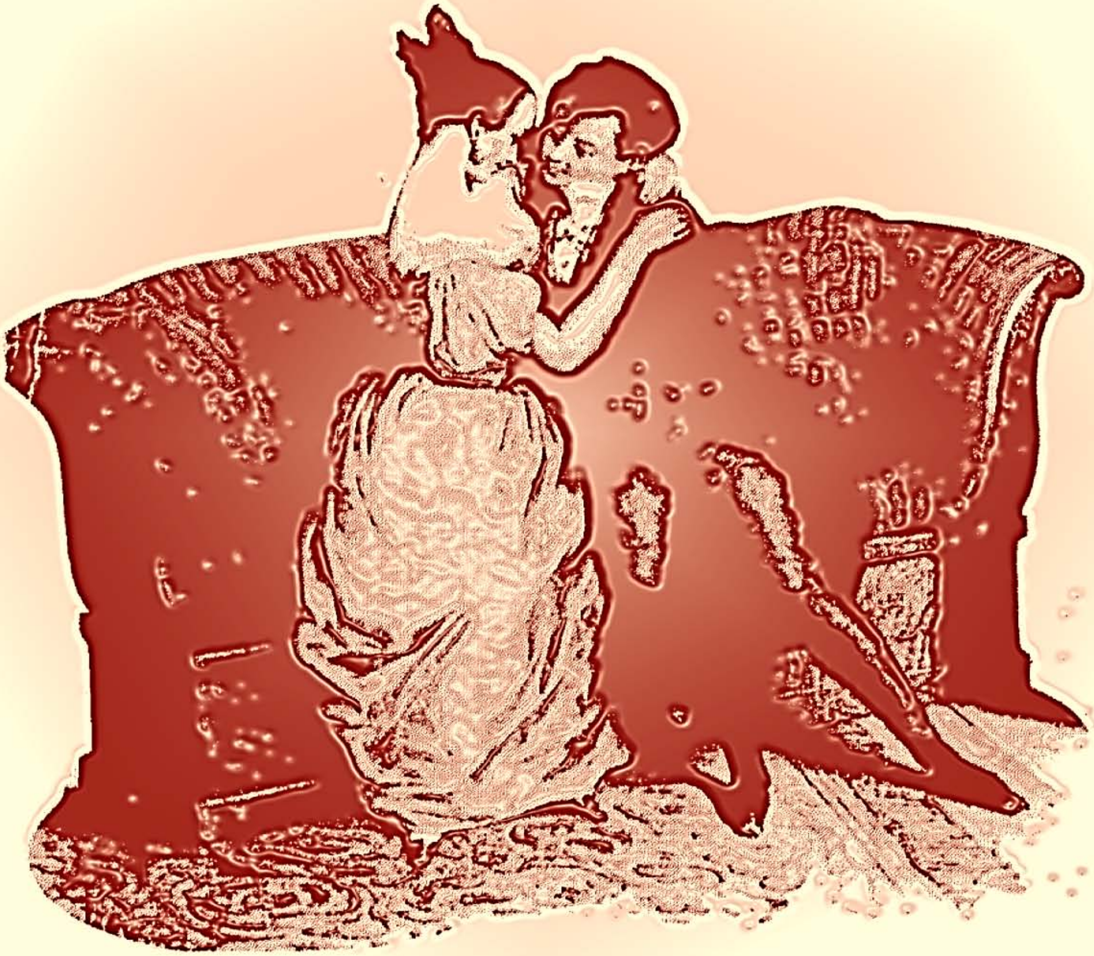

ماريان

روائع الأدب والفكر منقولة إلى العربية

حقوق لوحة الغلاف الأصلية محفوظة
لمنشورات عويدات بموجب عقد مع دار غاليمار

ستاندال

الأَحمَر والأَسوَد

ترجمة جديدة مع ملف وملاحق
بإشراف

منذر زغيب

عويدات

© منشورات عويدات - بيروت
جميع حقوق الطبعة العربية في العالم وفي البلدان العربية
خاصة محفوظة لدار منشورات عويدات - بيروت

الطبعة الأولى: نيسان (ابريل) ١٩٦٢
الطبعة الثانية: آذار (مارس) ١٩٧٥

ترجمة
غياث حجار

الطبعة الثالثة ١٩٨٣

تقديم

كلود روى

إن سعادة مرتقبة تنتظر قارىء هذا الكتاب. فقراءة ستاندال، أو إعادة قراءته، وقراءة «الأحمر والأسود»، أو إعادة قراءته، لمن هو مهيّأ كفاية وناضج كفاية، على بعض براءة (بمعرفة تكفي لمجاراة الكاتب، ونضارة كافية لمجاراة نضارته)، عمليـة وعد بسـويعات قـراءة ليست تمضية وقت، بـل سويعـات يضيفها العبقري على ساعات حياتنا.

ولتحذر أن تتسلّل منك هذه السعادة، كما كاد الكاتب يهرب من ستاندال نفسه قبل قرنين. فثمة أدباء، عصرئذ، كما ميريميه وبلزاك وغوته، أدركوا أن «الأحمر والأسود» رواية ناجحة. لكن معـظم الباقـين حاولـوا طمسها. فمجلة «لا ريفـو ده باري» (مؤرخة ١٨٣٠) كتبت: «هوذا رجل متخاصم مع البساطـة. والجهـد الذي يبـذله، بـادي التصنّـع». وكتبت «لا غـازيت ليتيرير»: «حين ستاندال يقصد، يكتب كتاباً أفضل». وكتبت «لو

جورنال دي ديبا»: «يمكن قطف نجاح من هذا الكتاب المليء بالأحلام، ولكن لا يمكن أن يحبّ أحد كاتبه». وكتبت «لا ريفو انسيكلوبيديك»: «إنه كتاب ارستقراطية، نجاحه يلمع لكنه لا يدوم». وكتبت «لا غازيت ده فرانس»: «آن للسيد ستاندال أن يغيرّ اسمه مرّة بعد، ولكن فليغيرّ مرّة أخيرة، أسلوبه وقلمه».

هذا بعض المقتطفات الصحافية التي طالعت هنري بيل بين آخر ١٨٣٠ ومطلع ١٨٣١. وبهذا، سقط رأسان: رأس جوليان سوريل بشفرة المقصلة، ورأس ستاندال بشفرة النقد.

وكان ستاندال، عصرئذ، وحيداً كما لا من قبل، بعيداً عن باريس، منفرداً. ولم تدافع عنه جريدة ولا مدرسة أدبية ولا تيار ولا فريق ولا حزب. كان غريباً منفرداً، كما أكثر العباقرة الذين يفاجئون عصرهم بغير مألوف العصر. وهكذا، لم تعجب الرواية عصرها. كانت، كما أعلن هو: «تأريخاً». وكانت رواية سياسية: قصة رجل من الشعب يبدّد لاطاعته تحت مظاهر خبيثة من الطاعة، وتعـذّب، حتى انتهى إلى التحدّي، مستحقّـاً الموت وساعياً إليه، بتحدّيه ما يسمّيه الأغنياء: المجتمع. من هنا هاج الجميـع، نقـاداً ومحللين، محـافـظين أو معتـدلـين، (وجميعهم احتقرهم الكتاب والكاتب)، فحكموا على رأس جوليان سوريل وعلى قدر بيـل الأدبي، الذي أهملتـه ثورة ١٨٣٠ فلم تقبله مسؤولاً، ونفته إلى روما، ضائعاً ثقباً نكرة في الأمواج الايطالية.

ولكن الذين اعتقدوا انهم يفكّرون «مثل ستاندال»، والذين كانوا يفكّرون أن بيل «يفكر جيّدا»، (وهم مخطئون، لأن ستاندال كان يفكّر عن الجميع، لصالح الإنسانية العام، إنما وحده يفكّر، عن جماعة دون أن ينخرط في حزب أو جماعة)، جاءت الرواية أكمل وأتمّ مما يظنون. من هنا ما يشرحه رومان كولومب، نسيب ستاندال وصديقه: «إن الرواية، التي بدأها الكاتب في عهد حكومة الإصلاح، لم يكملها إلا بعد أربعة أشهر من انتهاء ثورة تموز ١٨٣٠. (وهذا خطأ فاضح، لأن الرواية انتهى طبعها خلال الثورة، لكنها لم تصدر إلا بعد الثورة). على أنّ هذا أضرّ بها نجاحاً: لأن التنين الشعبي كان قلب مفاهيم وأفكاراً، كان الكاتب قلبها قبلاً».

وإذا ستاندال في موقف حرج: أخصامه يخطّئونه، فلا هم من رأيه ولا يؤيّدون ايجابياته، وأصدقاؤه يسلبونه حق أنه كان على حق في موضوع آنيّ راهن. ولكن، بما أن التاريخ أنصفه، فلا كلام، بعد، على ما كان، إذ أن رواية «الأحمر والأسود» مرّت شهباً، في البدء حدسياً نبوئياً، ثم تجاوزه الزمن، حتى لم يعد سوى «تأريخ ١٨٣٠»، مع اطلالة ١٨٣١، انخسف ألقه.

مع أن هذا الكتاب، منذ قرن ونصف، وبعيداً عن القول إن الزمن تجاوزه، ورغم النقمة عليه لدى صدوره، يبدو لا ينتهي الكلام عليه. فمن نعمه أنه يثير الآراء المتناقضة، والأقل تشنّجاً

من قبل: فهذان بول بورجيه وليون بلوم، وآراؤهما غالباً متباينة، أجمعا على أهمية الكتاب. وأراغون يقرأه قراءة ماركسية، والنازيون الجدد الفرنسيون يجدون فيه «أول مهزومي التحرير». وهو مثار تقليد وتباه لدى أقصى اليمينيين، كما روجيه نيمييه، وأقصى التقدميين كما روجيه فايّان. وكذلك النقاد التقليديون يقتبلونه، كما جان ديتور، والنقاد الطليعيون كما جان بيار ريشار وجورج بوليه. أما جان جيونو فيقف منه موقفاً حذراً، فيما مانديارغ يتحمّس له سوريالياً. وإذا اسم ستاندال، محط لغط اعلامي لافت، حول رجل طالما أشاح عن أضواء الاعلام، وسخر من المتعارف عليه ظاهراً اجتماعياً.

على أن الأسماء الشهيرة ليست هنا سوى عوابر، لأن الشجرة تتجذر في الخلود. فستاندال وجوليان سوريل ما تزال تخفق لهما قلوب الملايين، وطبعات «الأحمر والأسود» تتواصل، وترجماته تستمر. فحين نحب، نجد الحبيب لا يكبر عن العشرين. فجوليان، الكان في العشرين حين مات، لا يزال حتى اليوم في العشرين، ولم يسقط في بزانسون. ما زال حيّاً بيننا. وأظنني التقيته مرة عام ١٩٦٨، في الربيع، شاحباً، وقحاً، متمرداً، وفي بركلي وباريس وبراغ وموسكو ومدريد نافراً، يهودياً ضالاً، مختبئاً عادة وراء أحمر آخر وأسود آخر، ليسا في الأعلام. من هنا أن جان بيار ريشار يغالي قليلاً حين يرى ستاندال اكتشف أن

«الشكل الحديث الوحيد للاطاعة، هو الخبث». لكن أشباه جوليان سوريل يملّون سريعاً من هذه الحداثة. ينفد صبرهم، فيكشفون القناع. وعن سان جوست، ناسياً «تارتوف»، قوله: «هي ذي جريمتي، يا سادة، وستنال العقاب الأقسى، لأن الحكم ليس من أشباهي بل من بورجوازيين أهينوا». وإذا الشاب العاقل ينتهي مقاوماً شرساً، والاكليريكي يقضي فوضوياً.

وإذا كان كتاب «الأحمر والأسود»، كالهرة، بسبع أرواح، فلأن فيه حلم رجل هو الحياة كلها. ثمة اعتقاد بأنّ الحياة زائلة، إذ لا أحد يشفى منها. ويظن البعض أن نقيض الموت: الخلود. ولكن يجب التحفظ من التناقض المستمرّ، وكلام الصحف والغوص في الشؤون السياسية. يجب الوقوف رخاماً أو غيمًا: خارج الزمن للهرب من الزمن. ستاندال لم يكن يؤمن بكل هذا. كان يسخر منه، ولا يؤمن إلا بما يعيشه هو. ولم يرعو من عنونة رواية من ١٨٣٠: «تأريخ ١٨٣٠»، منطلقاً من وقائع حسية ومن أخبار صدرت في الصحف. فقضية أدريان لافارغ حدثت عام ١٨٢٩، ودعوى انطوان برتيه ظهرت في شباط ١٨٢٨ في جريدة المحاكم. وأثيرت فضيحة رحيل ماري ده نوفيل مع عشيقها إلى لندن، فيما ستاندال يكتب قصة جوليان وماتيلد. وهكذا، فثمة تفاصيل في الرواية، كانت تحدث في

اليوم نفسه الذي يكتب خلاله ستاندال، أو قبل ذاك بيوم، فيدخلها في سياق روايته. لذا، حين كان ستاندال يترك طاولته ويلتحق بأصدقائه، لم يكونوا يتكلّمون إلا على الأحداث السياسية خلال الأسبوع. من هنا، جاء هذا الكتاب قصة شاب حمله تلهّف الثورة، وكان يظنها بعيدة، وهو فقير، إلى التطرّف، تطرّف المقصلة، حتى أن الصفحات الأخيرة منه بقيت عشرة أيام تنتظر في المطبعة، لأن عمال المطبعة، من ٢٥ تموز إلى ٤ آب ١٨٣٠، تركوا مراكزهم ونزلوا إلى الشارع. وهذه ظاهرة لافتة: التوقف عن صفّ الكتاب، للولوج في إحدى نهاياته المحتملة.

المعاصرون، ومنهم كولومب، ارادة أن يكون الكاتب ابن عصره ومؤرخ فترة منه، هي المخاطرة بالكتابة يومياً، في كتاب سقطت قيمته قبل صدوره من المطبعة. لكن ستاندال جازف. وها هو يكتب على هامش إحدى النسخ: «هل الرواية عملية زائلة فعلاً؟ وهل من الضروري، للنجاح اليوم، أن تصير مثار ضحك بعد ٢٠ عاماً». ومهما يكن من إحساس ستاندال عصرئذ، فهو ترك لنا كتاباً عصرياً اليوم أكثر من عصره نفسه، وهو لا يزال يزداد نضارة مع مرور الزمن. ربما كان ستاندال يعرف، أنه ليخلد، كان يجب ألاّ يعجب ذوي عصره. كان يعرف أن الاهتمام بالشؤون السياسية لم يكن رائجاً، فاهتمّ. كان يريد أن يكون مرافقاً عصره، مع التيار أو ضدّه، لا فرق. على أن هذا «المؤرّخ» يعرف أيضاً قلق الزائل المؤقّت. من هنا،

نجت روايته من ذلك. فإن «الشهداء» قضوا، حيث شاتوبريان كان يراهن على خلود هذا الشكل، ولا يهتم للشؤون السياسية (عكس ستاندال). بل انصرف إلى شهداء المسيحية الأوائل. فمن زال بعد عشرين عاماً. فيليدا نعم. أما جوليان، فلا.

حين وصل ستاندال إلى أواخر كتابه، توقّف عن السياق، وتناول هو الكلام: «السياسة حجر في عنق الأدب، ويغرقه في أقل من ستة أشهر. إنها طلقة مسدس وسط حفلة كونشرتو. وهذه السياسة ستلوثّ، قاتلة، نصف القرّاء، وتسئم النصف الآخر». من هنا، ردّ الناشر: «إذا أشخاصك لا يحكون في السياسة، فلن يكونوا مرآة عصرهم».

ولكان هان الأمر على ستاندال، لو كانت السياسة، هي ما يحدث عصرئذ في الوسط السياسي، في قاعات مجلس الشعب أو المحاكم أو الأزمات الوزارية أو المواكب التي تمر في الشوارع أو الاصطدامات أو الثورات. وكان ستاندال، فعلاً، يخشى على قرائه من الملل أمام وصف كل هذا، إذ يكونون قرأوه في الصحف الصباحية: وإذا الرواية الخالدة كانت فقط، كما يقول ستاندال، مرآة كبرى تتمشى في الشارع وتلتقط صوراً وأحداثاً، لكانت مملّة حقاً. لكن المرآة تنعكس، وتتعاكس في ما بينها المرايا. وتعكس مسافة الطريق، ومسافات الداخل، تعكس الذات على الغير والعكس. فالمرايا تعكس المرايا. وفي النهاية ليس سوى مرآة تامّة، لأنها ناقصة: العين البشرية.

في هذا الكتاب، حيث لا سطر واحداً مملاً، إذ لا سطر واحداً بارداً أو غير شخصي، سنلاحظ أن ستاندال لم يكتف بسرد ما حدث لجوليان سوريل عام ١٨٣٠، بل كل ما حدث في حياة هنري بيل. فثمة بينه وبين جوليان علاقة حميمة جداً.

وكما مخرجو السينما يتسلّون أحياناً بإظهار أشباح غامضة في أفلامهم، هكذا ستاندال يرسم نفسه، ببعض الغموض، في الفصل الأول من القسم الثاني، وراء اسم سان جيرو، الصديق الذي يلتقيه فالكوز في المحطة بين جنيف وباريس. وسان جيرو ليس سوى بيل منهزم على رغبة في الانسحاب من المجتمع. على أن جوليان، وعلاقة ستاندال به علاقة أبوية وأخوية وشراكية، ليس له أن يأخذ من بيل شيئاً. المهم أن يأخذ الشاب منه ما هو أساسي. وكما العبارة الشهيرة: «مدام بوفاري هي أنا»، يمكن ستاندال أن يقول: «سان جيرو هو أنا». (أو جزء مني). ولكن عن جوليان سوريل لا يمكن ستاندال أن يقول إلاّ: «كنت جوليان، في إحدى تلك الفترات الماضية الممكنة التي جعلها الماضي الحقيقي غير ممكنة».

في مذكراته عام ١٨١١، كتب ستاندال: «إنني أجمع، إلى فضيلة الرهافة، فضيلة الارادة أن أكون خبيثاً، مع أنني عكس هذا الطبع تماماً. كانت تنهشني أحاسيس الرهافة والخجل، وكنت فخوراً ومجهولاً». والفرق في التشابه بين سان جيرو

وبيل، وبين قرابة العصب الجامعة سوريل وستاندال، هو الفرق بين انعكاس الذات على الرغبات والهوى، وبين الـ «أنا» الآخر الذي تحفل به هواجسنا. سان جيرو له تجاعيد بيل وملامحه. جوليان له ملامح المزاج وانطواءات النفس وانشغالات ستاندال. وهو يعيش العلاقة الثلاثية التي عاشها طفلاً، باحثاً عن والد يرفضه، وعن والدة أخذوها منه. وغير مرّة سجّلت، خطأً، تشبيهات بين هنري وشيروبان (إضافة إلى ربطه بعقدة أوديب)، كما بين جوليان والأب سوريل. وسرعان ما بان أن الأب بيرار هو الكان يحلم به جوليان وبيل، وأنّ السيدة ده رينال (كما السيدة ده وارنس) هي صورة الأم المفقودة. وقليلون لاحظوا التكرار المقصود للرموز في آثار ستاندال، وخاصة في «الأحمر والأسود». بين هؤلاء: جورج بوليه، جان بيار ريشار، بياتريس ديدييه. وإلى دراساتهم، يمكن أن نضيف موضوع المغارة، الفجوة الدافئة الهانئة، حيث يفكّر جوليان قبل أن يقدم على مغامرة الحياة. وحيث يتمنى أن يرتاح. ويمكن التعمّق أكثر في المعنى، الذي طالما ضلّله المظهر الخارجي، إذ ليس سهلاً ما كان لجوليان من حمل لمقاومة المرأة العشيقة، لدى شباك ماتيلد، ثم في فيريير لمقاومة السيدة ده رينال. (يمكن القول هنا إن التعبير الرمزي قويّ حيث يخفف واقعية الروائي: فحين امتلك جوليان للمرة الأولى ماتيلد، كانت ليلة صاخبة حتى أن ستاندال نسي تماماً بأن السلّم بقي ملقى على الحائط، وبأن أيّاً كان، قد

يمرّ ويفسد على العاشقين هناءتهما).

قلت قبل أسطر، إن هذه رواية لا تنفد. وهذا واضح من الحبر الذي أسالته ولا تزال. وكل قارىء ينظر إليها من وجهة شخصية مختلفة. شخصياً، قرأت هذا الكتاب خمس عشرة مرة حتى الآن، مكتشفاً ذاتي فيه كل مرة، ومكتشفاً كل مرة رموزاً كانت فاتتني في القراءة السابقة. إذا الحب يموت، فلأننا نكون توهمّنا أننا امتلكنا كائناً. وإذا الحب يخلد، فلأننا نعي أن كل حي لا إلى امتلاك. هكذا الكتب الخالدة: نصل إلى نهايتها، لكنها، هي، لا تنتهي.

المنبع الدافق أبداً، لرواية «الأحمر والأسود»، ليس في أن كل قراءة له تكشف جديداً، بل لأن كل اكتشاف يؤدي إلى أبعد. يمكنني، مثلاً، أن أروي القصة، انطلاقاً من خطاب جوليان في القضاة، أو من وجهة صراع الطبقات، أو المعارك، أو السقوط أو آخر انتصار لمتمرّد في العشرين. ويمكنني تفسيره على أنه صدى لقضية واعية صوتها آت من اللاوعي. هل هي رواية سياسية؟ طبعاً. رواية تحليل نفساني؟ أكيداً. رواية مأساوية وما ورائية؟ يقيناً. وليس فقط أن كل واحد من هذه الوجوه ليس يلغي الآخر، بل كل واحد يؤدّي إلى الآخر، ويبرره أو يمهد له.

ذلك أن الكتاب الخالد، كالسيرة الخالدة، لا إلى انتقاص.

فليس في العالم، ربما، سوى غلطة واحدة مطلقة: أن نبدأ عبارتنا بالقول: «ما إلاّ...». وربما ليس سوى وهم واحد مطلق: توهمّنا أننا مزّقنا الحجاب الأخير، وأننا لفظنا كلمة من التاريخ، نظنها هي الكلمة الأخيرة.

نلتقي كل يوم في النقد الاجتماعي، والنقد الأدبي والنقد التاريخي، مكتشفاً يصرخ: «مفتاح السرّ ما إلاّ في...». وإذا كانت الثورة الفرنسية حدثت، فلأن الأنوار كانت جعلت أضواء في العيون، أو لأن روبسبيير كان معقّداً، أو ما إلاّ لأن نظام التغذية لدى الفلاحين الفرنسيين كان تعدل بين ١٦٠٠ و١٧٨٩. من هذا المنطلق، كتب ستاندال «الأحمر والأسود» و«صومعة بارما»(*). كان يكره الملوك لأنه كان يكره أباه. كان ذا منحى ليبرالي، لأن طفولته لم تكن ليبرالية. وأطباء العائلات والمجتمع، الذين يدّعون تطبيب أمثال جوليان سوريل اليوم، يعزلون هؤلاء الشباب المتمرّدين، بحجة أنهم مرضى بعقدة أوديب، ويقترحون نفيهم إلى مصحّات. لكنهم لا يحلّون، بذلك، شيئاً، كما لم تنفع ردود حقد ستاندال على الارستقراطيين، وهو من حقد هنري بيل على شيروبين. ليس ما يردّ إلى شيء. الفكر البشري قد يحلّ مسألة حسابية، لكنه لا

(*) راجعه بالعربية لدى منشورات عويدات ـ سلسلة ماريان.

يحلّ الفكر البشري. وستاندال نفسه (الحنون والقاسي، الحالم والمنطقي، العاشق والمتمرد) ليس كاملاً ويقع في تناقضات. لكنه منسجم مع ذاته. متعدد الوجوه، ويبقى ذا حصيلة واحدة. وهكذا هذه الرواية التي أدعك معها، أيها القارىء، بثقة وحريّة، وبعض الحسد، إذ لا أخفيك أنني أتمنى قراءتها، مرة أيضاً، معك، فربما قراءتها تمحو كل ما قلته في هذه المقدمة، أو. تؤكده. فستاندال كان يحلم بستاندال، ونحن نحلم معه به. ولنحرص، حين نضع مفاتيح الأحلام في أبواب غرف السحر الرائعة، أن لا نوقظ النائم فيها قبل أن ينتهي حلمه، كما هنريْ سوريل قبل أن يقضي على المقصلة، ويفيق جوليان بيل في السابعة والأربعين. متى يكون الدخول؟ اليوم؟ غداً؟ هل حدث أمس؟.

إن من شّباك غرفة النائم، وهو مفتوح، ستخترق نومه «الأحمر والأسود»، يتسلّل صوت غراب ينعق: «هوذا كتاب سيعرف نجاحاً لامعاً، إنما غير طويل»... «فليقطع رأسه»... كما ستقول الملكة لأليس، وكما سيقول وكيل جوليان لهيئة المحكمة.

كلود روى

الأَحمَر والأَسوَد

تنبيه

كان هذا الكتاب جاهزاً للصدور، عندما جاءت حوادث تموز وأعطت الأذهان اتجاهاً لم يعد يتفق مع الخيال الروائي. لذلك نميل إلى الاعتقاد أنه كُتب عام ١٨٢٧.

القسم الأول

الحقيقة، الحقيقة اللاذعة.

دانتون

KEEPSAKE FRANÇAIS

1831

١
مدينة صغيرة

ضع الألوف معاً بدونه، ينقص
القفص المرح.
هوبس

قد تكون مدينة فيريير الصغيرة، إحدى أجمل مدن فرانش كونتيه. بيوتها البيضاء بسطوحها القرميدية الحمراء المحددة تمتد على صخور تلة تبدو أشجار الكستناء النشيطة فيها بأقل تعرجاتها، بينما يجري نهر الدّو، على مئات من الأقدام، تحت تحصيناتها الاسبانية التي باتت اليوم أطلالاً.

ويحمي فيريير من الجهة الشمالية، جبل عال هو أحد تفرعات جبال الجورا، وتكتسي قمم فرّا المتطربشة بالثلوج عند أولى النسمات الباردة في تشرين الأول، وينحدر من الجبل سيل مخترقاً فيريير، قبل مصبه في الدّو ويعطي الدفع لعدد كبير من مناشر الخشب. وهذه الصناعة، الكثيرة البساطة، تؤمن لغالبية

السكان ويغلب عليهم الطابع الفلاحي، بعض الرفاهية. ولم تكن مناشر الخشب هي التي أغنت هذه المدينة الصغيرة، بل صناعة الأقمشة المسماة «ملهوز» سبب البحبوحة العامة التي أعادت تعمير واجهات أكثر بيوت فيريير منذ سقوط نابليون.

ولا يكاد السائح يدخل المدينة، حتى تصم آذانه قعقعات آلة مخيفة المظهر. عشرون مطرقة ثقيلة تهوي بضجة تهز الأرض، يرفعها دولاب يحركه ماء السيل. وكل واحدة من هذه المطارق، تقوم بصنع آلاف لا تحصى من المسامير. وتقوم صبايا جميلات، بتقديم قطع الحديد الصغيرة إلى هذه المطارق الهائلة فتتحول بسرعة إلى مسامير.

هذا العمل، مهما كان خشناً في مظهره، هو أحد الأعمال التي تدهش المسافر المجتاز للمرة الأولى الجبال التي تفصل فرنسا عن سويسرا. وإذا سأل عند وصوله إلى فيريير، عن صاحب معمل المسامير الذي يصم آذان من يجتاز الشارع الكبير، فالجواب سيأتيه بلهجة ممطوطة: إنه للسيد العمدة.

ومهما كانت وقفة المسافر قصيرة في هذا الشارع الكبير الذي يبدأ صعداً من ضفة الدوّ حتى قمة التلة، فسيرى رجلاً كبيراً يدل مظهره على الانهماك والأهمية.

عند مرآه ترتفع كل القبعات بسرعة. شعره رمادي، يلبس

بذلة رمادية عليها أوسمة عديدة. جبهته واسعة وأنفه أعقف. ولا يخلو وجهه من بعض التناسب إذ يجمع بين وقار عمدة القرية، وهذا النوع من السماحة التي تبقى في الثامنة والأربعين أو في الخمسين. ولكن سرعان ما يصدم المسافر الباريسي نوعٌ من الإعجاب بالنفس والاكتفاء، الممزوج بقلّة الذكاء. ثم يحس أخيراً أن مؤهلات هذا الرجل في أنه يجعل الناس تدفع له ما عليها، فيما يدفع هو ما عليه للناس، في أبعد وقت ممكن.

هكذا كان عمدة فريير، السيد ده رينال، بعد أن يجتاز الشارع بخطوات وقورة ليدخل إلى مقر عمله ويختفي عن عين المسافر الذي، إذا ما تابع نزهته، يرى، على مئة خطوة، بيتاً ذا مظهر جميل، ومن خلال قضبان السور الذي يحيط بالبيت، يرى الجنائن الغنّاء. وفي ما وراء ذلك، خط الأفق الذي تكوّنه تلال بورغونيا كأنما صنع لمتعة النظر. وهذا المنظر الخلاب ينسي المسافر ذاك الجو المحشوّ بالمصالح المادية الصغيرة، التي بدأ يختنق بها.

هذا المنزل البديع المصنوع من الحجارة الأنيقة، اكتسبه السيد ده رينال من الأرباح التي جناها له مصنع مساميره الضخم. وهو ينهي في الوقت الحاضر بناءه. ويقال أن عائلة العمدة، اسبانية قديمة، استقرت في المنطقة قبل أن يغزوها لويس الرابع عشر.

وكان قبل ١٨١٥ يخجل من كونه صناعياً: وجاءت تلك السنة فجعلت منه عمدة فريير. وهذه الحيطان، التي تسند أسطح الجنائن البديعة، وتصل إلى الدوّ جلاً جلاً، هي أيضاً مكافأة على نشاط السيد ده رينال في تجارة الحديد.

ولا تنتظر في فرنسا أن ترى هذه الجنائن الرائعة التي تحيط بالمدن الصناعية في المانيا: ليبزغ، فرانكفورت، نورمبرغ أو غيرها. ففي فرانش كونتيه، كلما عمر المرء حائطاً، وقف في الأرض حجارة مصفوفة فوق بعضها بعضاً، واكتسب الحق في احترام جيرانه. وجنائن السيد ده رينال مليئة بالحيطان وتثير الإعجاب، لأنه اشترى بعض القطع الصغيرة منها، بوزن تربتها ذهباً.

عند دخولك فريير، تلاحظ منشرة الخشب ذات الموقع الفريد على ضفة الدوّ، وتحمل اسم سوريل مكتوباً بأحرف عملاقة على لوحة تشرف على السطح. كانت هذه المنشرة تحتل قبل ست سنوات، المكان الذي يشيّد عليه السيد ده رينال، حالياً، حائط السطح الرابع في حدائقه.

ورغم كبرياء العمدة، اضطر للقيام بالعديد من المحاولات، مع العجوز سوريل، وهو فلاح صلب عنيد، وأن يَعُدّ له ليرات ذهبية ثمينة ليحصل على نقل معمله لمكان آخر. أما الساقية التي كانت تحرك المنشار، فاستحصل السيد ده رينال ـ بما له من نفوذ

في باريس ـ على أمر بتحويلها، وتمّ له ذلك عام ؟١٨٢.

أعطى لسوريل أربعة دنمات مقابل دنم واحد، على عمق خمس مئة خطوة على ضفاف الدوّ. ورغم أن هذا الموضع، كان أكثر ملاءمة لتجارته في خشب الصنوبر، استطاع الوالد سوريل، كما صار يدعى منذ إن أصبح غنياً، ان يستحصل على ستة آلاف فرنك، لأنه اكتشف فراغ صبر جاره وحب التملك عنده.

الرجال الأذكياء في المدينة انتقدوا هذا التدبير. وذات يوم أحد قبل أربع سنوات، كان السيد ده رينال عائداً من الكنيسة بلباس العمدة، فشاهد من البعيد، العجوز سوريل، يحيط به أولاده الثلاثة، ويضحكون لدى رؤيتهم له. فأصابت هذه الضحكة يومها مقتلاً في أعماق السيد ده رينال. وصار، عندئذٍ، يعتقد أنه كان يستطيع الحصول على المقايضة بأرخص.

وكان ضرورياً، لمن يريد أن يلفت الأنظار في فريير، أن لا يتبنى، في تشييده حيطانا كثيرة، أيّ تصميم من ايطاليا، بواسطة هؤلاء البنائين الذين يعبرون، كل ربيع، طرق جبال الجورا متجهين إلى باريس. إذ أن هذا، كان يكسب الساقي سمعته كرجل عاقل، ويصبح ساقطاً بالنسبة للناس العاقلين والمعتدلين الذين يتقاسمون الاعتبار في فرانش كونتيه.

وفي الـواقع، يمـارس هؤلاء العقلاء في فـريير أكـثر أنواع الاستبداد إزعاجاً. فبسبب هذه الكلمة البشعة تصبح الاقامة في المدن الصغيرة غير محتملة، لمن عاش في هذه الجمهورية الصغيرة المدعوّة باريس. قسوة الرأي، وأيّ رأي! هي الحماقة في مدن فرنسا الصغيـرة، وهي تماماً كالحمـاقة في الـولايات المتحـدة الأميركية.

٢

عمدة

الأهمية! سيدي، تستسهلها؟ احترام المساطيل واندهاش الأطفال وحسد الأغنياء واحتقار العاقل.

بارناف

نَعِمَت سمعة السيد ده رينـال، كإداري، بضـرورة تشييد حائط يحمي الطريق العام، بمحاذاة التلة على علو مئة متر فوق مجرى الدو. وهذه التلة مدينة لهذا الوضع الرائع بأطراف مناظر فرنسا قاطبة. ولكن المياه تثلم الطريق، في كل ربيع، وتحفر فيها سواقي يتعذر اجتيازها. وهذا العيب الذي أحس به الجميع،

أوجد للسيد ده رينال الفرصة الذهبية لتقوية مؤسسته في بناء حائط ارتفاعه عشرون قدماً وطوله نحو ستين أو ثمانين متراً.

والقسم الأعلى من هذا الحائط علا أربعة أقدام عن مستوى الأرض. واضطر السيد ده رينال للقيام بثلاث رحلات إلى باريس، من أجله، لأن وزير الداخلية السابق أعلن أنه خصمٌ لطريق فريير، فيما الحائط ازدان، بقطع من الحجارة المصقولة متحدياً كل الوزراء الحاليين والسابقين.

وكم مرة، وأنا أفكر بحفلات باريس، وأكون تركتها في العشية، وأنا متكىء بصدري على هذه الكتل الكبيرة من الحجارة الرمادية المائلة للزرقة، وأغرق عينيّ في وادي الدوّ. في البعيد، على الضفة اليسرى خمسة أو ستة أودية في أعماقها عدد لا يحصى من الجداول الصغيرة، تركض من شلال إلى آخر، وتصب في الدوّ. وتحتمي هذه التلة من شمس الظهيرة بفيء أشجار الكينا الرائعة المدينة بنموها السريع وخضرتها الحلوة للتربة التي وضعها السيد ده رينال وراء حائطه الفخم لأنه، رغم معارضة المجلس البلدي، وسّع الطريق العام أكثر من ستة أقدام (مع أنه رجعي وأنا تقدمي، إنما أهنئه على ذلك) ولهذا فإن هذه الأرض في رأيه ورأي السيد فالينو المدير السعيد لمأوى الفقراء في فريير، تجوز معها المقارنة بسان جرمان آن لاي.

ولا أجد، أنا، شيئاً لأعيد ذكره سوى «ممر الأمانة»، التعبير الرسمي المكتوب على خمسة عشر أو عشرين لوحة رخامية، كانت السبب في منح السيد ده رينال وساماً جديداً. وما أنتقده في «ممر الأمانة» هذا، الطريقة الهمجية التي تلجأ إليها السلطة في تشذيب وتقطيع أشجار الكينا النشيطة. وبدلاً من أن تشابه برؤوسها المنحنية الدائرية المسطحة، أكثر الأشجار البيتية ابتذالاً، كان يجب أن تترك لتحوز على تلك الأشكال الرائعة التي نراها لها في بريطانيا. ولكن إرادة السيد ده رينال استبدادية. لذلك، فإن هذه الأشجار التي تخص البلدية تشذب دون رحمة مرتين كل سنة. ومتحررو المنطقة، يدّعون مبالغين، أن يد البستاني الرسمي أصبحت أشد قسوة، منذ أصبح من عادة الكاهن ماسلون الاستيلاء على إنتاج الثمار...

ورجل الدين الشاب هذا، أُرسل من بزانسون قبل بضع سنوات ليراقب القسيس شيلان وبعض قساوسة الجوار. وكان ضابط جرّاح قديم في جيش ايطاليا، انسحب إلى فريير، يعقوبياً وبونابرتياً، كما يزعم العمدة، تجرأ ذات يوم واشتكى له من التكاثر الدوري لهذه الأشجار الجميلة. فأجاب السيد ده رينال بلهجة تليق بجرّاح، عضو في جوقة الشرف:

- إنني أحب الظلال. إنني أقص «أشجاري» لتعطي الظل.

وأنا لا أستطيع أن أتصور الشجرة خلقت لغير هذا، إذا لم يكن لبها مفيداً، وليست «تعطي أي مدخول».

ها هي العبارة الكبيرة التي تقرر كل شيء في فريير: «إعطاء مدخول». وهي وحدها تمثل القاسم المشترك لأكثر من ثلاثة أرباع السكان.

«إعطاء مدخول» هي العقل الذي يقرر كل شيء، في هذه المدينة الصغيرة التي تبدو جميلة جداً. والمسافر الذي يصل، مسحوراً بجمال الوديان المنعشة العميقة التي تحيطها، يتصور في بادىء الأمر، أن سكانها يقدّرون الجمال. فهم يتحدّثون كثيراً عن جمال منطقتهم كما يتحدثون عن المعجزات، لأن ذلك يجتذب بعض الأجانب، الذين يغني مالهم أصحاب الفنادق، مما يعطي المدينة بعض المدخول.

ذات يوم خريفي جميل، كان السيد ده رينال يتنزه في ممر الأمانة وامرأته تستند إلى ساعده، تصغي إليه يتكلم بلهجة وقورة، وعينها تتابع باضطراب حركات ثلاثة صبيان صغار، كبيرهم يبلغ أحد عشر عاماً، يقترب من الحائط كمن يريد الصعود إليه. وعندئذ يتلفظ صوت رخيم باسم ادولف، فيتخلى الصبي عن مشروعه الطموح. كانت السيدة ده رينال تبدو، رغم سنيها الثلاثين، جد جميلة. قال السيد ده رينال، بلهجة

قاسية ووجه أكثر شحوباً من العادة:

ـ سيندم كثيراً على ذلك، هذا الوسيم الآتي من باريس. لست ممن لا أصدقاء لهم في القصر..

ولكنني مهما أطلت الحديث عن المقاطعة، لن أكون أجعلك تحتمل حوار الريف بطوله وحذلقته.

هذا الوسيم الآتي من باريس، المزعج عمدة فريير، لم يكن سوى السيد أبّير الذي وجد قبل يومين طريقة للتدخل، ليس في السجن ومأوى الفقراء في فريير فحسب، بل في المستشفى الذي يديره العمدة، مجاناً، مع الملاكين الكبار في المنطقة.

وتجيبه زوجته ببلادة:

ـ ولكن، لا يمكن هذا السيد أن يسبب لك أي إزعاج ما دمت تدير أملاك الفقراء بأكثر ما يمكن من النزاهة.

ـ لم يأت إلا ليثير القلائل ثم ينشر بعد ذلك في جرائد المتحررين بعض المقالات.

ـ ولكنك لا تقرأها مطلقاً.

ـ الناس يحدثوننا عن هذه المقالات اليعقوبية. وسوف يشغلنا هذا، ويمنعنا من عمل للخير. لن أغفر ذلك مطلقاً للقسيس.

٣
خير الفقراء

القسيس الصالح الصريح نعمة إلهية للقرية.
فلوري

قسيس فريير، وهو عجوز في الثمانين مدين لمناخ تلك الجبال بصحة قوية كالحديد، له الحق في زيارة السجن والمستشفى بل وملجأ الفقراء في كل وقت. كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحاً عندما وصل السيد ابّير هذه البلدة الصغيرة التي تثير الفضول، حاملاً توصية من باريس إلى القسيس. ذهب إلى الدير، وبقي الخوري شيلان هادئاً، عند قراءته الرسالة التي بعثها إليه المركيز ده لامول أكبر ملاكي المقاطعة.

أخيراً قال بصوت خافت: إنني عجوز ومحبوب هنا، ولن يتجرأوا على ذلك. ثم تابع متلفتاً بسرعة نحو هذا الآتي من باريس، بعينين تلمعان، رغم سنه، ببريق النار المقدسة التي تبشر بالسرور لدى القيام بعملية رائعة، فيها بعض المجازفة:

ـ تعال معي يا سيدي، وأرجوك عدم البوح بشيء، عما سنراه، أمام السجان والمشرفين على مأوى الفقراء. وفهم السيد

ابّير أنه يتعامل مع رجل شجاع، فتبع الخوري وزار السجن والملجأ والمأوى وطرح الكثير من الأسئلة، ولم يظهر أدنى إشارة تدل على اللوم رغم الاجابات الغريبة التي سمعها.

دامت هذه الزيارة ساعات. ودعا الخوري السيد ابير للغداء، فتعلل هذا الأخير بأن لديه تحارير يريد كتابتها. والواقع: لم يكن يريد أن يزعج رفيقه الكريم أكثر من هذا. نحو الساعة الثالثة توجها لينهيا تفتيش مأوى الفقراء، ومن ثم عادا إلى السجن. وهناك، على الباب، وجدا بانتظارهما السجان وهو رجل عملاق طوله ستة أقدام، ذو ساقين مقوستين. وجهه الخسيس استحال، بفعل جذله، إلى وجه مرعب. ولم يكد يرى الخوري حتى بادره.

- آه يا أبتي، هذا السيد معك، أليس السيد ابّير؟

وجاوبه الخوري:

- وهل لهذا أهمية؟.

- لأنني تلقيت أمس أمراً حازماً، من سعادة المحافظ الذي أرسل دركياً اضطر للسير طول الليل، بأن لا أسمح للسيد ابّر بالدخول إلى السجن.

ورد الخوري: أتسمح لي يا سيد «نوارو» أن هذا المسافر الذي يرافقني هو السيد ابير. ولي الحق في أن أدخل السجن، في أية ساعة من الليل أو النهار، يرافقني في زيارتي من أريد.

وأجاب السجان بصوت منخفض محنياً رأسه كالكلب عندما يطيع خوفاً من العصا: «ولكن عندي يا أبتِ زوجة وأولاداً، فإن وشي أحدهم بي فسوف يطردونني. وأنا لا أملك إلا وظيفتي أعتاش منها».

وأجاب الخوري الطيب بصوت بدأ فيه الانفعال:

ـ وسأنزعج مثلك تماماً عندما أفقد مركزي، أنا أيضاً.

وسارع السجان باندفاع: أي فرق بيني وبينك! الكل يعرف أن لك دخلاً قيمته ثمانمائة ليرة من قطعة الأرض التي تملكها.

هذه الحوادث، هي التي تحرك، منذ يومين، كل نزعات الحقد في المدينة الصغيرة: تُفسَر ويبالغ فيها عشرات المرات. وفي هذه اللحظة كانت موضوع المناقشة الصغيرة التي دارت بين السيد ده رينال وزوجته. عند الصباح، ذهب العمدة، يتبعه السيد فالينو مدير مأوى الفقراء، إلى بيت الخوري ليعبر له عن شديد الإنزعاج. ولما لم يكن السيد شيلان يعتمد على حماية أحد، أحس تماماً بوقع ما يسمع.

ـ وبعد، أيها السادة! سأكون الخوري الثالث الذي يجرد، وهو في الثمانين، في هذه الجوار. إنني هنا منذ ستة وخمسين عاماً. عمّدتُ كل سكان المدينة تقريباً، ولما تكن إلا قصبة

عندما وصلتهـا. وأقوم اليـوم بتزويـج شبان، كنتُ زوجتُ، جدودهم. إن فريير عائلتي ولكنني قلت عندما رأيت الغريب: «هذا الآتي من باريس قد يكون في الواقع متحرراً، الأمر الذي لم يعـد نادراً، ولكن مـاذا يسـتطيـع أن يفعـل بفقـرائنـا أو بمساجيننا؟».

اشتدّت انتقادات السيد ده رينال والسيد فالينو مدير مأوى الفقراء، ليصرخ الخوري بصوت مرتجف: وبعد أيها السادة! جردوني إذن، ولكنني لن أترك البلاد. أنتم تعرفون أنني ورثت حقلاً يعطي ثمانمائة ليرة. وسأعيش من هذا الدخل. لا أقوم بالتجارة في مركزي، أيها السادة، وقد يكون هذا هو السبب الذي يجعلني لا أخاف من خسارته.

كان السيد ده رينال يعيش بهناء مع زوجته. وعندما رددت له زوجته هذه الفكرة: «وماذا يستطيع هذا الآتي من باريس أن يفعل بالمساجين»، ولم يعرف كيف يجيبها، أوشك على الغضب، لولا صراخ زوجته. تسلق الولد الثاني رأس الحـائط وركض فوقه، رغم أنه يعلو أكثر من عشرين قدماً عن الكروم الواقعة إلى الجهة الأخرى. لكن خوف أمه منعها من إخافته وإيقاعه إذا ما وجهت إليه الكلام. أخيراً قفز الولد، وهو يضحك، بعد أن نظر إلى أمه ورأى شحوبها وأتى إليها، فوبّخته كثيراً على ذلك.

وكان هذا الحادث الصغير كافياً لتغيير مجرى الحديث إذ قال السيد ده رينال:

ـ أريد أن أستعين في البيت بسوريل ابن صاحب منشرة الخشب. سيراقب الأولاد الذين أصبحوا لا يطاقون. إنه قسيس شاب، أو شيء من هذا القبيل، ويجيد اللاتينية وسيساعد الأولاد على إحراز بعض التقدم بطبعه الحازم، حسب زعم الخوري. سأعطيه ثلاثمائة فرنك إضافة إلى الطعام. كان لدي بعض الشك في أخلاقيته: كان الطفل المدلل لذلك الجراح العجوز، عضو جوقة الشرف، الذي سكن عند عائلة سوريل على أنه نسيبهم. وكنت أعتقد هذا الرجل عميلاً سرياً للمتحررين، ولكنه كان يقول دائماً أن هواء جبالنا يخفف كثيراً من حدة رَبْوه، مما لم يكن يثبت شيئاً. اشترك في جميع معارك بونابرت في ايطاليا، وقال: «لا» في الاستفتاء على الامبراطورية. كان هذا المتحرر يعلّم ابن سوريل اللاتينية، وترك له تلك الكمية من الكتب التي أحضرها معه. لم أفكر في إمكانية وضع أطفالنا مع ابن النجار هذا، لكنّ الخوري، عشية هذا الحادث الذي عكّر صفونا للأبد، قال لي إن سوريل يتابع دراسة اللاهوت منذ ثلاث سنوات، وهو يعتزم الدخول إلى الدير. إنه إذن ليس متحرراً، بل لاتيني». ويتابع السيد ده رينال وهو يتطلع إلى زوجته بعين دبلوماسية: «... وبالإضافة إلى هذا،

للتـدبير فـائدة أخـرى، إذ أن فـالينـو جـدّ فخـور بجـواديـه النورمانديين الجميلين اللذين اشتراهما لعربته، إنما ليس لديـه مدرّس لأطفاله».

ـ وإنما يستطيع أن ينتزع هذا منا.

وقال السيد ده رينال شاكراً امرأته بابتسامة على الفكرة الرائعة التي قالتها:

ـ توافقين إذن على مشروعي؟ إذن تم القرار.

ـ آه! يا لله! لكم تتّخذ قراراتك بسرعة!.

ـ هذا من طبعي ولاحظ الخوري ذلك. يجب أن لا نخفي أيّ شيء، فنحن محاطون بالمتحررين هنا. كل تجار الأقمشة هؤلاء يكنّون لي الحسد. إنني واثق من هذا. اثنان أو ثلاثة أصبحوا أغنياء، وبعد، أحبهم أن يروا أولاد السيد ده رينال يتمشّون على الطريق تحت إشراف مربيهم. إن في هذا ما يوطد نفوذي. غالباً ما كان جدّي يروي لنا أنه في شبابه، كان لديه مربٍّ. قد يكلفني هذا مائة دوقية. نعتبر هذا المصروف في باب الضروريات، للحفاظ على مستوانا.

هذا القرار المفاجىء ترك السيدة ده رينال في تفكير عميق. وهي امرأة ممتلئة الجسم حسنة التكوين، وأجمل بنات المقاطعة، كما يقال في تلك الجبال. هيئتها تنم عن البساطة، والشباب

يطل من حركاتها. وهذا الجمال البسيط، المليء بالبراءة والحيوية، يذكّر الباريسي بأفكاره عن النشوة اللطيفة الناعمة. ولو وَعَت السيدة ده رينال هذا النوع من النجاح لكانت جدّ خَفِرةً به، فالعاطفة وأساليب الإغراء النسائية لم تقرب قط من هذا القلب. السيد الغني فالينو، مدير مأوى الفقراء حاول أن يغازلها، دون نجاح، مما ألقى على فضيلتها بريقاً خاصاً، لأن السيد فالينو كان من تلك المخلوقات الفظة المزعجة التي تسمى في تلك الجبال بالرجال الجميلين بقامته الضخمة وعضلات وجهه الملون وعيونه السوداء الكبيرة.

وأكثر ما كان يصدم السيدة ده رينال، الكثيرة الخفر، وذات الطبع المتقلّب ظاهرياً: حركات السيد فالينو ورنات صوته. وهي مدينة لبُعدها، عن ما يسمى في فريير، سروراً، بانتحارها في محتدها، لم تكن هي تفكر في هذا، ولكنها كانت مسرورة جداً، لأن سكان المدينة لم يكونوا يزورونها إلاّ قليلاً. كانت حمقاء في نظر نساء المدينة، لأنها بعدم سيرها على سياسة تجاه زوجها، أضاعت أجمل الفرص لشراء القبعات الجميلة من باريس أو من بزانسون. ولم تكن تشتكي من أيّ شيء، شرط أن يتركوها ترتاد هائمة حدائقها الجميلة.

كانت روحاً ساذجاً لم ترتفع مرة لتحكم على زوجها، وتعترف أنه كان يضايقها. بل كانت تظن أن لا علاقات أكثر نعومة بين

الزوج وزوجته، وكانت تحب في زوجها كلامه عن المشـاريع المتعلقة بأولادهما: الأول كان يعدّه للجيش، والثاني للقضاء، والثالث للكنيسة. وعلى الإجمال كانت ترى أن زوجها، السيد ده رينال، أقلّ الرجال، الذين تعرفهم، ازعاجاً.

وهذا الحكم الزوجي كان عاقلاً. فعمدة فريير كان مشهوراً بخفة دمه، وخصوصاً بلهجته الحلوة عندما يروي تلك النكات الست التي ورثها عن أحد أعمامه، الكابتن ده رينال، وهو خدم في الثورة بفرقة المشاة التابعة لدوق اورليان، وعندما يذهب إلى باريس، كان مقبولاً في صالات الأمير. ورأى هناك مدام ده مونتسان، ومدام ده جنليس الشهيرة، والسيد ده كريه، مصمّم القصر الملكي. وكانت هذه الشخصيات تتردد في حكايات السيد ده رينال. ولكنّ هذا التذكر للأشياء، بهذه الدقة، لم يلبث إن أصبح بالنسبة له، رويداً رويداً، عملاً، ولم يعد يردد حكاياته، المتعلقة ببيت أورليان، إلا في المناسبات الكبرى. وإذ هو جدّ مهذب، إلاّ حين يدور الحديث عن المال، كان، عن حق، يعتبر أكثر الشخصيات ارستقراطية في فريير.

٤
والد وولد

ستكون هذه خطيئتي عندما تصبح كذلك؟
مكيافلي

في السادسة من صباح اليوم التالي، قال عمدة فريير لنفسه، وهو ينحدر إلى منشرة الوالد سوريل: «إن امرأتي ذات عقل راجح. لم أفكر أبداً في أنني إذا لم آخذ هذا الراهب الصغير سوريل، وهو يحسن اللاتينية كالملاك، كما يقولون، فإن مدير المأوى قد ينتزعه مني. وبأية لهجة من الارتياح كان عندئذ سيتكلم على مربي أولاده!... ترى هل سيلبس لباس الكهنوت عندما يصبح عندي؟».

كان السيد ده رينال مستغرقاً في شكه هذا، عندما أبصر، في البعد، فلاحاً طوله ستة أقدام بان عليه منذ الصباح الباكر الانهماك في قياس قطع الخشب المصفوفة على طول الدرب المحاذي لمجرى النهر. ولم يظهر على الفلاح الارتياح لرؤية السيد العمدة وهو يقترب، لأن قطع الخشب، في وضعها الذي يسدّ الدرب، كان مخالفاً للقانون.

ودهش الوالد سوريل، مسروراً من الاقتراح الفريد الذي يعرضه السيد ده رينال على ابنه جوليان. ولكنه مع ذلك استمع إليه، بهذه الهيئة الحزينة اللامسرورة اللامبالية التي تكتسيها، بسهولة، نعومة سكان تلك الجبال الذين احتفظوا، حتى الآن، بطابع الفلاح الساذج في مصر، نتيجة السيطرة الاسبانية وعبوديتهم للزمن.

لم يكن جواب سوريل في البداية، إلا ترديد عبارات التبجيل والاحترام التي يحفظها. وأثناء هذا الترديد لهذه الكلمات المعسولة، كان ذهنه النشيط يحاول أن يستكشف السبب الذي جعل رجلاً معتبراً، كالعمدة، يأخذ ولده الذي لا يساوي شيئاً. وزادت ضحكة عرجاء نعومة وجهه المتغضن الذي يدل على ذكائه الفطري. كان جد متضايق من ولده جوليان، وها السيد ده رينال يعرض عليه ربحاً غير،منتظر: ٣٠٠ فرنك سنوياً، بالإضافة إلى الطعام والكساء. وهذا الأمر الأخير، الذي طلبه الوالد سوريل في بداية الحديث، قبِل به السيد ده رينال أيضاً.

وأثار هذا الطلب شكوك العمدة: فسوريل ليس مسروراً ولا مغتبطاً باقتراحي، كما كان يجب أن يكون، فلا بد إذن أن أحدهم قدم له عروضاً أخرى. ومن أين يمكن أن تأتي هذه العروض، إن لم يكن من السيد فالينو؟ حاول السيد ده رينال، عبثاً، أن يدفع سوريل لاتخاذ قراره فوراً، ولكن حنكة الفلاح

العجوز كانت ترفض ذلك بصرامة. فقال العمدة لنفسه: ربما يريد أن يستشير ابنه. كأنما يمكن في الريف لوالد غني أن يستشير، إلاّ شكلياً، ابنه الذي لا يملك أي شيء.

المنشرة المائية تتألف من مستودع على ضفة جدول، يستند السقف فيها على هيكل تحمله أربعة عواميد ضخمة من الخشب. وعلى ثمانية أو عشرة أقدام، في وسط المستودع، منشار يعلو ويهبط، في الوقت الذي تقوم آلة جد بسيطة، بدفع قطع الخشب نحو المنشار. هذه الآلة نوع من الدولاب يحركه الجدول الذي يدير هذه العملية المزدوجة: عملية ارتفاع المنشار وهبوطه، وعملية دفع قطع الخشب نحو المنشار الذي يقطعها إلى ألواح.

وعندما اقترب الوالد سوريل من مصنعه، نادى جوليان بصوته الجهوري، فلم يجبه. لم ير سوى أولاده الكبار العمالقة، الذين يتسلحون بفرّاعات ثقيلة وينقضّون على جذوع الصنوبر التي ستُحمل للمنشار. والكل مهتم، تماماً، بملاحقة العلامة السوداء على قطع الخشب. وكل ضربة من ضرباتهم كانت تفصل عنها بعض القطع الضخمة. ولكن أحداً منهم لم يسمع صوت والده فتوجّه، صوب المستودع، وفتش عبثاً عن جوليان في المكان الذي كان عليه أن يعمل فيه، قرب المنشار. وأخيراً رآه، على علو خمسة أو ستة أقدام، يركب إحدى قطع هيكل السقف، يقرأ في أحد الكتب بدلاً من القيام بمراقبة الحركة

كلها، الأمر الذي كان بالنسبة للوالد أكثر الأمور ازعاجاً. كان من الممكن أن يغفر لجوليان قامته النحيلة واختلافها عن قامة أشقائه الآخرين وعدم استعداده للأعمال الشاقة، ولكنّ عادة القراءة هذه، كانت تثير قرفه، لأنه لم يكن يعرف القراءة.

ناداه مرتين أو ثلاثاً دون جدوى. فالانتباه الشديد كان لكتابه، بالإضافة إلى ضجيج المنشار. لم يسمع صوت والده المنادي، وأخيراً قفز الوالد بتثاقل، رغم كبر سنه، إلى جذع الشجرة المعرض للمنشار، ومنه إلى الجسر الأفقي الذي يستند إليه السقف؛ وبضربة قوية واحدة رمى في الماء الكتاب الذي كان جوليان يمسك به. وكانت ضربة ثانية، بقبضة يده على الرأس، كافية لإفقاد جوليان توازنه فكاد يسقط من ارتفاع اثني عشر أو خمسة عشر قدماً وسط عتلات الآلة العاملة التي كانت ستحطمه لولا إن تداركته يد والده اليسرى ومنعته من السقوط.

ـ وبعد أيها الكسول! بدل أن تراقب المنشار تقرأ في كتبك اللعينة؟ اقرأها في المساء عندما تذهب لإضاعة وقتك عند الخوري...

ورغم دوخة جوليان من الضربة، نهض واقترب، وهو دامٍ، من مكانه المعتاد إلى جانب المنشار. لم تكن الدموع في عينيه من الألم الجسدي فحسب، بل لفقدانه الكتاب الذي يعبد.

ـ انزل أيها الحيوان لأكلمك.

حال ضجيج الآلة بين جوليان هذه المرة أيضاً، وبين سماع صوت والده، ولم يرد والده أن يكلف نفسه مشقة ارتقاء الآلة مرة أخرى، فأحضر عصاً طويلة، لإسقاط الجوز، وضربه بها على كتفه. وما كاد جوليان يبلغ الأرض حتى ساقه والده، بقسوة، أمامه، يدفعه نحو البيت.

ـ الله يعلم ماذا سيفعل بي! قال الشاب في نفسه. وفي مروره، تطلع بحزن إلى الجدول حيث سقط كتابه، وهو واحد من الكتب التي كان يحبها كثيراً: «سيرة القديسة هيلانة».

وجوليان، شاب نحيل الجسم، بين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. خداه أحمران وعيناه ناعستان، ضعيف في مظهره، ملامحه رقيقة ولكن غير منتظمة وأنفه أعقف. عيناه الكبيرتان السوداوان كانتا، في هذه اللحظة، تعبران عن أقسى آيات الحقد القاتل، رغم أنهما في الساعات الهادئة، تنمان عن شعلة من التفكير والذكاء. شعره الكستنائي القاتم يغطي أعلى جبينه فيتركه ضيقاً، ويعطيه في ساعات الغضب، هيئة الخبث. ومن بين التنوعات الهائلة في الوجوه البشرية، مما يتميز به وجه جوليان: قامة ممشوقة مربوعة تبشر بالخفة، أكثر مما تدل على الحيوية. وكانت هيئته المفكرة وشحوبه الزائد، منذ طفولته، توحي لوالده

أن ابنه لن يعمّر طويلاً، أو أنه سيكون دائمًا عبئاً على عاتق عائلته. وكان الجميع في المنزل يحتقرونه، ولذلك كره والده واخوته. أما خلال ألعاب يوم الأحد، في الساحة العامة، فكان دائمًا يخرج مهزوماً.

ولم يمض عام واحد حتى بدأت هيئته الحلوة تلفت إليه الأصوات الصديقة بين الشابات. وكان جوليان يعبد الضابط الجرّاح العجوز الذي تجرأ ذات يوم وتكلم مع العمدة، بخصوص أشجار الكينا، لأنه، هو نفسه، كان محتَقَراً بين الجميع ككائن ضعيف.

وكان هذا الجرّاح يدفع للوالد سوريل أجرة عمل ابنه اليومية، ويعلمه اللاتينية والتاريخ، ما كان يعرفه من التاريخ: معركة ١٧٩٦ في ايطاليا. وعند موته، وهبه صليب جوقة الشرف وأقساط تعويضاته وثلاثين أو أربعين مجلداً، ذهب الآن أثمنها في الساقية العامة التي حُوِّل مجراها بنفوذ السيد العمدة.

ما كاد جوليان يدخل البيت حتى أحس بكتفه تتجمّد، تحت يد والده القوية، وارتجف منتظراً بعض اللطمات، وضجّ في أذنيه صوت الفلاح العجوز القاسي، بينما كانت يده تديره كطفل صغير يحرك جندياً من الرصاص:

ـ أجبني دون كذب...

والتقت عيناه الكبيرتـان السوداوان المليئتـان بالـدموع عيني النجار العجوز الصغيرتين الرماديتين الخبيثتين، وهيئته تدل على أنه يريد قراءة أعماقه.

٥
مفــاوضة

ـ أجبني إن كنت تستطيع دون كذب، أيها الكلب، كيف تعرفت إلى السيدة ده رينال، ومتى تحدثت إليها؟.

أجـاب جوليـان: لم أتحدث إليهـا مطلقـاً. لم أرها إلا في الكنيسة.

ـ ولكنك تطلعت إليها، أيها الكافر البشع.

ورد جوليان، بلهجة فيها بعض الخبث الذي كان كافياً في رأيه لينفي الشبهة:

ـ مطلقاً، أنت تعرف أنني لا أرى، في الكنيسة، إلا الله.

وأجاب الفلاح الخبيث:

ـ ولكن شيئاً ما تحته. ثم صمت قليلاً وأضاف: لن أستطيع أن أعرف منك شيئـاً، أيها الأنـاني الملعون. سـأتخلص منك

وسيسير منشاري على أحسن ما يرام. ضممت إلى صفك الخوري، أو أي واحد آخر كان السبب في تأمين منصب محترم لك. اذهب واجمع حقائبك بسرعة وسأقودك إلى منزل السيد ده رينال حيث ستكون مربياً لأطفاله.

ـ وماذا مقابل ذلك؟.

ـ الطعام والكساء وثلاثمائة فرنك سنوياً.

ـ لا أريد أن أكون خادماً.

ـ أيها الحيوان، من يحدثك عن الخدم؟ هل تظنني أقبل أن يكون ابني خادماً؟.

ـ مع من سآكل؟.

ثبط هذا السؤال من عزائم العجوز سوريل وأحس أنه قد يرتكب في كلامه بعض الهفوات. فتحامل على جوليان وأغرقه بشتائمه متهمًا إياه بالشراهة. ثم تركه ليستشير بقية أولاده.

ما رآهم جوليان مجتمعين. كل متكىء على فرّاعته؛ تطلع إليهم طويلاً، وعرف أنه لن يستطيع تخمين أي شيء. ذهب واستقر في الجهة الأخرى من المنشرة، ليتجنّب كل مفاجأة. كان يريد أن يفكر بهذا الخبر اللامتوقع الذي غيّر مصيره. كان يشعر بالعجز عن أن يكون عاقلاً. إذ كان خياله محصوراً في تصور ما

سيراه في بيت السيد ده رينال الفخم.

يجب أن أرفض كل هذا، قال في نفسه، أشرف من أن أقبل بتناول الطعام مع الخدم. أبي يريد إجباري على ذلك ولكنني أفضل الموت. معي خمسة عشر فرنكاً وثمانية قروش اقتصدتها، وسأهرب هذه الليلة، وفي مدى يومين، على الطرق (القادومية) حيث لا خوف من أي دركي، أصل إلى بزانسون وهناك أنخرط في الجيش، وإذا اضطر الأمر، أذهب إلى سويسرا ولكن أخسر كل تقدم أو طموح، وحالة الراهب الجميلة التي تقود إلى كل شيء.

هذا الرعب الذي أصاب جوليان، لتصوّره أنه سيأكل مع الخدم، لم يكن طبيعياً إذ كان على استعداد للقيام بأقسى من هذا الأمر، ليصل إلى الثروة. استقى هذا الاشمئزاز من روسو في «الاعترافات»، الكتاب الوحيد الذي تَصَوَّرَ العالم من خلال صفحاته. وكانت مقتطفات من صحائف الجيش الكبير وسيرة القديسة هيلانة تكمل إنجيله. وهو على استعداد للموت في سبيل هذه الكتب الثلاثة، ولم يؤمن بأي واحد غيرها. وهو يعتبر جميع الكتب الأخرى، كما كان يعتقد الجراح العجوز، كتباً كاذبة كتبها بعض المنافقين للحصول على بعض المكاسب.

وكانت ذاكرة جوليان مدهشة، من تلك التي نراها غالباً من

صفات الحمقى. فليكسب الخوري العجوز، وهو يعـرف أن مستقبله مرهون به، انصبَّ على حفظ العهد الجديد باللاتينية وأتمّه. وكان يعرف أيضاً كتاب «البابا» لمؤلفه ده متر ولكنه لم يكن يعتقد بالأول أكثر من اعتقاده بالثاني.

لم يتبادل سوريل وابنه، طوال هذا اليوم، أية كلمة، كأنما الأمر بينهما اتفـاق متبادل. وعنـد الغروب ذهب جـوليان إلى الخوري ليأخذ درس اللاهوت، ووجد من الأنسب أن لا يقول له شيئاً عن الاقتراح الغريب الذي قُدم لوالده. وقال في نفسه: «قد يكون في الأمر فخ، ويجب أن أتظاهر أنني نسيته».

في الغد، منذ الصباح الباكر، بعث السيد ده رينال في طلب العجوز سوريل الذي وصل أخيراً بعد أن جعله ينتظر ساعة أو ساعتين، وأخذ منذ تخطيه البـاب بترديـد مئات الاعتـذارات مشفوعة بما يماثلها من التبجيلات. وبعد مناقشات واعتراضات طويلة، فهم سوريل أن ابنه سيجلس على المائدة مع رب البيت وربته، وعندما يكون زوار، سيأكل في غرفة مستقلة مع الأولاد. وزيادة في إطالة الوقت وخلق المشاكل، طلب سوريل بلهجة حذرة مليئة بالتعجب، وهو يحس أكثر فأكثر باستعجال السيد العمدة، أن يرى الغرفة التي سينام فيها ولده. كانت كبيرة، أثاثها جد نظيف، وسكان البيت منهمكون في نقل أسرّة الأولاد الثلاثة إليها. وكانت هذه المناسبة للفلاح العجوز كخيط من

النور. طلب بكل اطمئنان أن يرى البذلة التي سيلبسها ابنه، ففتح السيد ده رينال مكتبه وأخرج مئة فرنك:

ـ بهذا المال سيذهب ابنك إلى السيد دوران تاجر الجوخ ويفصّل بذلة كاملة سوداء.

وقال الفلاح الذي نسي فجأة أساليب التبجيل: وعندما أسحبه من عندك، هل تبقى هذه البذلة السوداء له؟.

ـ دون شك.

وبصوت مطاط، قال العجوز:

ـ أوه، حسناً! لم يبق إذن إلا أن نتفق على شيء أخير: المال الذي ستعطيه له.

وصرخ السيد ده رينال مشمئزاً:

ـ وكيف ذلك؟ تم الاتفاق منذ الأمس: ثلاثمائة فرنك. أظن أن هذا كثير، بل أكثر من الكثير.

أجاب سوريل العجوز على مهل، وبضربة ذكاء لا تدهش إلا أولئك الذين لا يعرفون فلاحي فرانش كونتيه: كان هذا عرضك وأنا لا أنكره؛ ثم أضاف وهو يتطلع حاداً إلى السيد ده رينال: قد نجد من يدفع أكثر في غير هذا المكان.

وعند هذه الكلمات، انقلب وجه العمدة، ولكنه تمالك نفسه. وبعد محادثة رزينة دامت ساعتين كاملتين، لم تجر فيها أية كلمة خارج الموضوع، تحددت جميع المواد التي تتعلق بتسوية حياة جوليان الجديدة، فلم ترتفع أجرته إلى أربعمائة فرنك فحسب، بل وافق العمدة على دفعها سلفاً في الأول من كل شهر.

ـ سأعطيه خمسة وثلاثين فرنكاً.

وقال الفلاح العجوز بصوت رخيم: لكي ندوّر الرقم فإن رجلاً غنياً وكريماً، كالسيد عمدتنا، سيقبل برفع المبلغ إلى ستة وثلاثين فرنكاً.

ـ ليكن، ولننته من هذا.

كان الغضب أعطى لهجته، في هذه اللحظة، بعض الحزم. ورأى الفلاح أن عليه التوقف. وعندها قام السيد ده رينال ببعض التقدم: لم يكن يريد على الاطلاق أن يدفع ستة وثلاثين فرنكاً عن الشهر الأول إلى العجوز سوريل الذي كان مستعجلاً لقبضها نيابة عن ابنه؛ ووجد السيد ده رينال أنه سيضطر لرواية الدور الذي لعبه، في هذه المفاوضة، إلى زوجته، فقال بلهجة فخمة:

ـ أعد لي المئة فرنك التي أعطيتك إياها. فالسيد دوران مدين

لي ببعض المال وسأذهب مع ابنك لتفصيل الجوخ الأسود.

بعد حركة القوة هذه، عاد سوريل، بتعقل، إلى أساليبه التبجيلية التي استغرقت ربع ساعة كاملة. وفي النهاية، عندما رأى أنه لن يستطيع نيل ربح أكبر، انسحب. وكانت آخر عبارات التبجيل التي قالها تنتهي بهذه العبارة:

- سأرسل ابني إلى القصر.

هكذا كان السكان يدعون بيت العمدة، عندما كانوا يريدون نيل رضاه.

بحث سوريل عن ابنه عبثاً، عند عودته إلى مصنعه، كان خرج عند منتصف الليل، خوفاً مما يمكن أن يحدث. وأراد أن يؤمن كتبه وصليب جوقة الشرف فنقلها، كلها، إلى بيت تاجر أخشاب شاب يدعى فوكيه، صديق له يسكن الجبل العالي الذي يشرف على فريير. وعندما عاد قال له والده:

- الله يعلم إن كان فيك كفاية من الشرف لتدفع لي ثمن طعامك، الذي كنت أدفعه منذ أعوام عديدة! خذ حوائجك واذهب إلى بيت السيد العمدة.

سارع جوليان في الرحيل، مدهوشاً لأنه لم يُضرب، ولكنه لم يكد يختفي عن أنظار والده، حتى أبطأ خطاه، وارتأى أن يمر لبعض الوقت على الكنيسة.

تـدهشك هـذه الكلمة؟ إن روح الفـلاح الشاب سـارت طويلاً، قبل أن تصل إلى هذه الكلمة المرعبة.

منذ طفولته، رأى بعض فرسان الجيش السادس، بمعاطفهم البيضاء الطويلة ورأسهم المغطى بالخوذات ذات الريشات السود الطويلة، وهم راجعون من ايطاليا. ومنذ رآهم يربطون خيولهم في حديد نوافذ بيت والده، وهو مولّه بالحياة العسكرية.

بعد مدة كان يستمع بانشداد إلى حكايات معارك جسر لودي واركول وريفولي، التي كان يرويها له الضابط الجراح العجوز. وكان يلاحظ النظرات الملتهبة التي كان العجوز يتطلع بها إلى صليبه.

وعندما بلغ جوليان الرابعة عشرة، بوشر في فريير ببناء كنيسة رائعة بالنسبة لمدينة في صغرها. وكان أبـرز ما فيهـا، أربعة عواميد رخامية لفتت جوليان، جد مشهورة في البلاد، للحقد القاتل الذي أوجدته بين حاكم الصلح والمبعوث الرسولي الآتي من بزانسون، والذي كان في نظر الجميع جاسوس محاكم روما. وكانت الفكرة السائدة أن الحاكم يوشك أن يفقد مركزه. ألم يتجرأ على الاختلاف مع قسيس يذهب كل خمسة عشر يوماً تقريباً إلى بزانسون حيث يرى، كما يقولون، غبطة المونسنيور؟.

وبناء على هذه التقولات أصدر حاكم الصلح، وهـو ربّ

عائلة كبيرة، عدة أحكام قاسية كانت كلها موجهة إلى من يقرأ جريدة «الدستوري» من السكان. وانتصر الحق أخيراً. صحيح أن الأمر لم يكن يتعلق إلا بأحكام لا تتعدى قيمتها ثلاثة أو خمسة فرنكات، ولكن إحدى هذه الغرامات الصغيرة أصابت عرّاب جوليان، وهو عامل في مصنع المسامير. وصرخ الرجل بغضب:

ـ «أيّ تغيير! كنت أعتقد، منذ أكثر من عشرين يوماً، أن حاكم الصلح كان رجلاً شريفاً».

وكان الجراح الضابط، صديق جوليان، مات.

فجأة، كف جوليان عن التحدث حول نابليون، وأعلن اعتزامه دخول الكهنوت. وكان في منشرة والده مشغولاً بحفظ التوراة غيباً باللاتينية، استعاره من الخوري. ودهش هذا العجوز الطيب من تقدمه، فصار يمضي أمسيات بكاملها يعلّمه اللاهوت. ولم يكن جوليان يظهر أمامه سوى العواطف المتدينة. ومن كان يظن أن هذا الوجه الشاب الكثير الشحوب، الكثير النعومة، يمكن أن يخفي العزيمة القاهرة، في أن يتعرض للموت عن أن لا يجمع الثروة!.

بالنسبة لجوليان، تجميع الثروة كان معناه الخروج من فريير؛ كان يرتعب من مسقط رأسه. وكل ما كان يراه فيه يجلّد خياله.

ومنذ طفولته، كانت تمر به بعض لحظات النشوة، وعندها كان يحلم بسرور أنه سيقدَّم ذات يوم إلى سيدات باريس الجميلات، وسيعرف كيف يلفت أنظارهن ببعض لمعات الفكر.

ولم لا تحبه إحداهن، كبونابرت عندما أحبته مدام ده بوهارنيه وهو بعد فقير؟ منذ سنوات عديدة، لم تمر ساعة من حياة جوليان دون أن يقول لنفسه أن بونابرت، وهو الملازم المنسي الفقير، جعل نفسه سيد العالم بسيفه. وكانت هذه الفكرة تعزّيه من تعاسته التي كان يعتقد أنها كبيرة وتضاعف فرحه عندما يأتي.

كان بناء الكنيسة، وأحكام قاضي الصلح عاملاً هداه فجأة. وجاءته فكرة أخذته لعدة أسابيع، واستولت عليه أخيراً، بكل قوة الفكرة الأولى التي يعتقد هذا الروح الحساس أنه اخترعها: «عندما كان الناس يتحدثون عن بونابرت، كانت فرنسا في خوف من الغزو، وكان الاستحقاق العسكري ضرورياً ودارجاً. واليوم نرى قساوسة لا يبلغون الأربعين ولا تقل مرتباتهم عن مئة ألف فرنك أي ثلاثة أضعاف ما كان يأخذه جنرالات فرقة نابليون المشهورون، وهم بحاجة إلى أناس يسندونهم. وها هو قاضي الصلح هذا، وهو مفكر لا بأس به ورجل شريف، وجدّ عجوز، يشوه سمعته خوف أن لا يعجب مبعوثاً شاباً عمره ثلاثون سنة! يجب أن أكون قسيساً».

بينما هو مستغرق في عزمه الجديد، بعد مضي سنتين على

دراسته اللاهوت، أصيب بصدمة زعزعته. كان ذلك عند السيد شيلان في إحدى ولائم القساوسة. قدم الخوري لهم جوليان كتلميذ خارق، إذ كان يحدث له أن يمدح نابليون بحماس. فربط يده اليمنى إلى صدره، مدعياً أنه كسرها عند تحريكه لجذع صنوبرة وحملها شهرين في هذا الوضع المزعج. وبعد هذا العقاب القاسي، سامح نفسه. وها الآن شابّ التاسعة عشرة، الضعيف البنية، الذي لم يكن أحد يظنّ أنه قد يبلغ السابعة عشرة، متأبطاً صرّة صغيرة تحت يده، وداخلاً كنيسة فريير الرائعة.

وجدها قاتمة وموحشة، وبمناسبة أحد الأعياد كانت أخشاب النوافذ مغطاة بالقماش الأرجواني. ونتج عن ذلك، كانعكاس لأشعة الشمس، نور يخطف النظر من أكثر الألوان إثارة للرهبة، ومن أشدها دلالة على الدين. ارتجف جوليان وجلس بمفرده على أجمل مقعد في الكنيسة، وكان يحمل اشارات السيد ده رينال.

وعلى المصلّى، لاحظ جوليان قطعة من الورق المطبوع، كأنما كانت مسطحة لتُقرأ، فأجال بصره عليها وقرأ: تفاصيل التنفيذ وآخر لحظات لويس جنريل، الذي أعدم في بزانسون يوم...

كانت الورقة ممزقة وعلى الصفحة الأخرى كانت كلمات من أول أحد السطور ظاهرة: الخطوة الأولى...

ـ من وضع هذه الورقة هنا؟ ثم أضاف متنهداً: يا للمسكين التعس! إن اسمه ينتهي كاسمي... ثم فرك الورقة. وعند خروجه خال جوليان أنه يرى بعض الدم قرب الجرن. ولا بد أن أحدهم نشر بعضاً من الماء المقدس، ثم أتى انعكاس الستائر الحمراء التي تغطي النوافذ فأظهره كالدم. وأخيراً خجل جوليان من خوفه الخفي.

ـ هل أنا جبان! «إلى السلاح»!.

هذه الكلمة، التي كثيراً ما ترددت في حكايات معارك الجراح العجوز، كانت بطولية بالنسبة لجوليان. فنهض ومشى سريعاً نحو بيت السيد ده رينال.

ورغم هذه التحليلات الجميلة، لم يكد يصبح على عشرين خطوة حتى أصابه حياء لا يقاوم. وكان سور الحديد مفتوحاً ورائعاً في منظره، وعليه أن يدخل منه.

ولم يكن جوليان، الشخص الوحيد الذي يضطرب قلبه لدى وصوله إلى هذا المنزل. فحياء السيدة ده رينال الزائد اضطرب لوجود غريب بينها وبين أولادها، بحسب وظيفته. فهي معتادة على رؤية أطفالها ينامون في غرفتها. ذرفت الكثير من الدموع، عند الصباح، لدى رؤيتها نقل أسرّتهم الصغيرة إلى الشقة المعدّة للمربي. وطلبت، دون جدوى، أن يُرجع إلى غرفتها

سرير ستانيسلاس ـ كزافييه، أصغرهم.

وكانت رهافتها الأنثوية رفيعة جداً. فكانت تتصور أبشع الهيئات لكائن فظ، شعره أشعث، مهمته توبيخ أولادها، لأنه يعرف اللاتينية، هذه اللغة البربرية، التي بسببها سيجلد أولادها.

٦
الضجر

إنني لا أعرف من أنا ولا ماذا أفعل.
موزار (الفيغارو)

كانت السيدة ده رينال بحيوية ولطف، هما من طبيعتها عندما تكون بعيدة عن نظرات الرجال، خارجة من باب الصالة التي تطل على الجنينة، عندما رأت قرب باب الدخول وجه فلاح شاب، يكاد لا يزال طفلاً، كثير الشحوب كما لو أنه انتهى لتوّه من البكاء. قميصه أبيض كالثلج، يحمل تحت ذراعه بذلة جدّ نظيفة من الجوخ البنفسجي.

جال في ذهن السيدة ده رينال الخيالي، أن هذا الفلاح

الشاب، بلونه الأبيض وعينيه اللطيفتين، يمكن أن يكون صبيّة متنكرة أتت لتطلب بعض المساعدات من السيد العمدة. وأحسّت بالشفقة على هذا المخلوق المسكين الواقف على المدخل، لا يجرؤ على رفع يده إلى الجرس؛ واقتربت منه متناسية الحزن المرّ الذي يسببه لها وصول المربي. أما جوليان فإنه لم يرها تتقدم وهو ملتفت صوب الباب، وارتجف عندما سمع صوتاً ناعمًا يقول قريباً من أذنه:

ـ ماذا تريد هنا يا بني؟.

التفت جوليان بسرعة ونسي بعض بلادته مأخوذاً بالحنان الذي في نظرة السيدة ده رينال. وسرعان ما أخذ بجمالها، فنسي كل شيء، حتى الذي جاء من أجله. وأعادت السيدة ده رينال سؤالها.

وأجابها جوليان أخيراً، وهو خجل من دموعه التي كان يحاول مسحها:

ـ أتيت لأكون مربياً يا سيدتي.

بقيت السيدة ده رينال ساكنة، وكانا جد قريبين يتطلعان ببعضهما بعضاً. لم يكن جوليان رأى في حياته مخلوقاً أنيقاً بهذا الشكل، وخصوصاً امرأة ذات جمال رائع، تتحدث إليه بهذا اللطف. وكانت السيدة ده رينال تتطلع إلى دموعه الكبيرة التي

توقفت على خديه الشاحبين فالموردين. وسرعان ما أخذت في الضحك بكل ما تمكله الشابة من مرح مجنون. وسخرت من نفسها إذ لم تكن تعرف من أين أتت سعادتها. إذن ها هو هنا، هذا المربيّ الذي صورته لنفسها قسيساً وسخاً قذر الملبس، يأتي ليوبخ ويجلد أولادها!.

وأخيراً قالت: ماذا، أيها السيد، هل تعرف اللاتينية؟.

وأثارت عبارة «أيها السيد» دهشة جوليان الذي فكر لهنيهة وقال ببلادة:

ـ نعم سيدتي.

وكانت السيدة ده رينال جد سعيدة حتى تجرأت وقالت لجوليان:

ـ أظنك لن توبخ هؤلاء الأولاد المساكين كثيراً..

وقال جوليان مدهوشاً: أنا أوبّخهم، ولماذا؟.

أضافت السيدة ده رينال، بعد صمت قصير، وبصوت تزيده انفعالاً كل دقيقة تمر:

ـ ستكون طيباً معهم. هل تعدني بذلك أيها السيد؟.

كان فوق كل احتمالات جوليان أن يدعى «أيها السيد» مرة أخرى، ومن سيدة جد أنيقة: ففي كل قصور أحلام شبابه كان

يقول دائمًا لنفسه أن أية سيدة تحترم نفسها لن تتنازل وتكلمه إلا عندما يحوز على بذلة عسكرية جميلة. وبالمقابل، كانت السيدة ده رينال مأخوذة تماماً بجمال بَشَرَته وعينيه الكبيرتين السوداوين وشعره الذي يلمع أكثر من العادة، إذ كان أغرق جوليان رأسه، وهو في الطريق، في حوض العين العامة ليتبرد. وسرّت السيدة ده رينال كثيراً عندما وجدت في هذا المربي، هيئة فتاة شابة حيية، وكانت تخشى من شدّته وهيبته القاسية على أولادها. واعتبرت أن في هذا التضادّ، بين خوفها وبين ما رأته، حدثاً كبيراً. وأخيراً عادت إلى رشدها وتنبّهت لوجودها قرب باب بيتها مع هذا الشاب وهي لا تلبس تقريباً إلا قميصها، فقالت له بصوت يظهر فيه الإحراج:

ـ فلندخل أيها السيد.

لم تعرف السيدة ده رينال، في حياتها، إحساساً صافياً ناعمًا هزّها، كهذا الحدث، ولا ظهوراً رائقاً كهذا، أتى بعد تخوفات مزعجة جداً. إذن فإن الأولاد الذي اعتنت بهم كثيراً لن يقعوا بين يدي قسيس قذر قاس. وما كادت تدخل حتى التفتت إلى جوليان، وكان يتبعها بحياء. وكان مظهره الذي يدل على الاندهاش من بيت بهذا الجمال، نعومة أخرى وجدتها فيه السيدة ده رينال. فهي ظنت من الضروري في المربي أن يلبس بذلة سوداء. ووقفت مرة أخرى وقالت له وهي تخشى أن تكون

واهمة أو أن تزول سعادتها:

ـ ولكن. . . أصحيح أنك تعرف اللاتينية يا سيدي؟.

صدمت هذه الكلمات كبرياء جوليان وطردت النشوة التي كان يعيش فيها طوال ربع ساعة وقال محاولاً أن يأخذ هيئة البرود:

ـ أجل يا سيدتي. أعرف اللاتينية كما الخوري بل أحياناً أحسنها أكثر منه.

ووجدت السيدة ده رينال أن هيئة جوليان تدل على الخبث، إذ وقف على بعد خطوتين منها. فاقتربت وقالت بصوت خفيض: لن تضربهم بالسوط في الأيام الأولى، حتى عندما لا يعرفون دروسهم، أليس كذلك؟.

هذه اللهجة اللطيفة، التي تكاد أن تكون مترجية، تقولها سيدة بهذا الجمال كانت كافية لأن تنسي جوليان، فجأة، ما هو مدين به لشهرته كلاتيني. كان وجه السيدة ده رينال قريباً من وجهه، وعبقت في أنفه رائحة ملابسها الصيفية، مما كان غريباً بالنسبة لفلاح مسكين. وكسى الاحمرار وجهه، وقال وهو يتنهد بصوت فَضَحَه: لا تخشي شيئاً يا سيدتي. سأطيعك في كل شيء.

عند هذه اللحظة فقط، زال كل خوفها على أطفالها ولفت

نظرها جمال جوليان: فشكله شبه النسائي وهيئة الاحـراج لم يكونا يظهرنا مضحكين بالنسبة لامرأة، هي نفسها كثيرة الوجل. أما هيئة الرجولة التي تكون، عادة، ضرورية لجمال الرجل فإنها كانت ستخيفها. وقالت لجوليان:

ـ ما عمرك يا سيدي؟.

ـ تسعة عشر عاماً تقريباً.

وتابعت السيدة ده رينال، مطمئنة تماماً:

ـ بكري عمره أحد عشر عـاماً. سيكـون لك شبـه رفيق وستكلمه بالعقل. أراد والده مرة أن يضربه فسقط مريضاً، لمدة أسبوع كامل، مع أن ضربته جد صغيرة.

وفكّر جوليان: أي فرق بيني وبينه؟ أمس، أنا أيضاً ضربني والدي، شدّ ما هم سعداء هؤلاء الأغنياء!.

كانت السيدة ده رينال تلاحظ أقل تعبير على وجه المربي. وفسّرت حركة الحزن هذه بأنها الخجـل، وأرادت أن تشجّعه فقالت بلهجة ذات نعومة، أحس جوليان بكل النشوة فيها دون أن ينتبه لذلك:

ـ ما اسمك أيها السيد؟.

ـ جوليان سوريل يا سيدتي. وأنا أرتجف عند دخولي للمرة

الأولى في حياتي بيتاً غريباً. إنني بحاجة إلى حمايتك وتسامحك على أشياء عديدة في الأيام الأولى. فأنا لم أذهب مطلقاً إلى المدرسة إذ كنت جد فقير، ولم يسبق لي إن تكلمت مع رجال سوى ابن عمي الضابط الجراح، عضو جوقة الشرف، والسيد الخوري شيلان، وسيقول عني لك كل خير. كان اخوتي يضربونني باستمرار فلا تصدقيهم إذا قالوا لك عني سوءاً. اغفري لي أغلاطي يا سيدتي لكنّ نيتي لن تكون مطلقاً سيئة.

استراح جوليان خلال هذه المداخلة إذ كان يتأمل السيدة ده رينال. ورأى أن هذا كان بدافع النعومة الكاملة، عندما تكون طبيعية غير متكلفة، وعندما لا يكون الشخص الذي تحلّيه مهتمًا بحيازتها. وكان يعرف تماماً جماله النسائي، وعلى استعداد ليقسم على أنها لما تبلغ العشرين. وخطرت على باله فكرة جريئة: أن يقبّل يدها. وسرعان ما خاف من فكرته. بعد برهة قال في نفسه: سأكون جباناً إذا لم أنفذ هذه الحركة التي قد تفيدني وتقلل من الاحتقار الذي تحس به هذه السيدة الجميلة، إزاء عامل فقير لم يكد يخرج من المنشرة. وقد تكون هذه الشجاعة جاءته، من هذا التعبير الذي كان يسمعه يتردد على لسان بعض الفتيات، منذ أكثر من ستة أشهر، أيام الأحد. وخلال هذا الصراع الداخلي، كانت السيدة ده رينال توجه إليه كلمتين أو ثلاثاً تستفهم منه عن الطريقة التي سيعتمدها، في البداية، مع

الأولاد. وجعله العنف الذي كان يعامل به في صغره، شاحباً من جديد، فقال بلهجة مضغوطة:

ـ لن أضرب أولادك مطلقاً يا سيدتي. أقسم على ذلك أمام الله.

قال هذه الكلمات، وتجرأ على أخذ يد السيدة ده رينال ورفعها إلى شفتيه. دهشت هي، لهذه الحركة، ثم صُدمت بعد تفكير. الطقس كان حاراً، وذراعها عارية تحت شالها، وأتت حركة جوليان فكشفت ذراعها كله. ومدى بضع لحظات، وبخت نفسها، إذ أحست أنها لم تشعر فوراً بالاهانة.

السيد ده رينال، الذي سمع الصوت، خرج من مكتبه وقال لجوليان بلهجة فخمة أبوية كالتي عندما يقوم بمراسم الزواج في مقرّه «يجب أن أتحدث إليك قبل أن يراك الأولاد». وأدخل جوليان غرفته وأبقى امرأته التي كانت تريد تركهما وحيدين. وما إن أغلق الباب حتى قال السيد ده رينال وهو يجلس بوقار: «قال لي الخوري أنك عنصر طيب، وسيقابلك الكل هنا باحترام. وإذا سررت منك، فسأساعدك، في المستقبل، على إنشاء مؤسسة صغيرة. أريد أن لا ترى أيّ قريب أو صديق، فأخلاقهم لا تناسب أطفالي. وهاك ستة وثلاثين فرنكاً عن الشهر الأول. لكنني أشترط أن تعدني بالاّ تعطي أي قرش لوالدك.

وكان السيد ده رينال تضايق من العجوز لأنه كان أكثر ذكاء، في العملية، منه.

ـ والآن أيها السيد، لأن جميع من في البيت تلقوا أوامري، وسينادوك بـ «أيها السيد»، ستحس بحسنات الدخول إلى بيت أناس رفيعين، وليس من المناسب أن يراك الأولاد بسترتك هذه. هل رآها الخدم؟.

وأجاب السيد بهيئة تدل على التفكير: كلا.

ـ حسناً. ثم أعطاه إحدى بذلاته وقال له:

ـ البس هذه ولنذهب إلى السيد دوران، تاجر الجوخ.

وعندما عاد السيد ده رينال، برفقة المربي الجديد لابساً بذلة سوداء، بعد أكثر من ساعة، وجد امرأته جالسة في المكان نفسه. أحست بالطمأنينة لحضور جوليان. ولما تأملته زال خوفها منه. أما جوليان فلم يكن يفكر فيها، إذ رغم عدم ثقته بالقدر والناس، فإن روحه لم تكن في هذه اللحظة روح طفل. كان يخيل إليه أنه عاش أعواماً بطولها، منذ اللحظة التي كان فيها يرتجف في الكنيسة قبل ثلاث ساعات. ولاحظ هيئة السيدة ده رينال الجامدة وفهم أنها غاضبة لتجرّؤه على تقبيل يدها. لكن هذا الاحساس بالكبرياء وهو بهذه الملابس المختلفة عن تلك التي كان يلبسها، كان يخرجه عن طوره لدرجة بعيدة. كان في

أشد الرغبة لإخفاء فرحه؛ ولكن حركاته كانت ترتدي طابع المفاجأة والجنون، فيما السيدة ده رينال تتأمله بعينين مندهشتين.

ثم قال السيد ده رينال:

ـ بعض الوقار أيها السيد، إذا كنت تريد أن تكون محترماً من أولادي ومن معارفي.

وأجاب جوليان: إنني متضايق من هذه الملابس الجديدة يا سيدي، فأنا فلاح فقير لم ألبس إلا السترات. سأذهب، إذا سمحتم، للانفراد في غرفتي.

وسأل السيد ده رينال زوجته: ما قولك بهذا الكسب الجديد؟.

وبحركة شبه غريزية، لم تنتبه لها السيدة ده رينال حتمًا، أجابت وهي تخفي الحقيقة عن زوجها:

ـ لست مسرورة مثلك بهذا الفلاح الصغير. إن تدليلاتك له ستجعل منه شقياً، وسوف تضطر لطرده قبل شهر واحد.

ـ سوف نرى. لن يكلفني أكثر من مئة فرنك. وستعتاد فرييr على رؤية مربٍّ مع أولاد السيد ده رينال. وما كنتُ أستطيع الوصول إلى هذا الهدف لو تركت لجوليان ملابس العمال. وعندما سأطرده فسوف أحتفظ، طبعاً، بالبذلة السوداء الكاملة

التي اشتريتها له من تاجر الجوخ، ولن يتبقى له إلا ما وجدته جاهزاً عند الخياط، وما كسيته به.

وخالت السيدة ده رينال أن الساعة التي أمضاها جوليان في غرفته لم تكن سوى لحظة. أما الأطفال الذين أُخبِروا عن المربي الجديد، فأمطروا أمهم وابلاً من الأسئلة. أخيراً ظهر جوليان. كان رجلاً آخر: وقوراً فحسب، بل كان الوقار بذاته. وقُدِّم للأطفال ثم تكلم معهم بلهجة أدهشت السيد ده رينال نفسه. ثم قال لهم وهو يختم حديثه:

ـ إنني هنا، أيها السادة، لأعلمكم اللاتينية. تعلمون ما معنى تسميع الدرس. هذه هي التوراة المقدسة، وأظهر لهم مجلداً ذا غلاف أسود، من القطع الصغير، إنه تاريخ سيدنا يسوع المسيح، وهذا القسم هو ما يدعى بالعهد الجديد. سوف أستمع لدروسكم في المستقبل فخذوا الآن واستمعوا لدرسي.

وكان ادولف، الابن البكر أخذ الكتاب. فتابع جوليان قائلاً:

ـ افتحه أينما تريد وقل لي الكلمة الأولى في أي مقطع، وسأقرأ عليك، غيباً، الكتاب المقدس، قانون سلوكنا جميعاً، حتى توقفني أنت.

فتح أدولف الكتاب وقرأ كلمة، فأكمل جوليان الصفحة

بالسهولة التي يتكلم بها الافرنسية. وتطلع السيد ده رينال إلى امرأته بنظرة انتصار. فتح الأولاد أعينهم عندما رأوا دهشة والديهم. وكان جوليان يتابع الكلام باللاتينية، عندما أتى خادم إلى باب الصالة، وتوقف ساكناً لأول وهلة، ثم اختفى. وسرعان ما ظهرت على الباب وصيفة السيدة والطبّاخة. وكان أدولف فتح الكتاب في ثمانية مواضع مختلفة، وجوليان دائمًا يقرأ بالسهولة نفسها. وقالت الطباخة وهي فتاة ساذجة متدينة بصوت عال:

- يا إلهي! يا للقسيس العظيم!.

وأصيبت كرامة السيد ده رينال بالخيبة، إذ كان كل همه التفتيش، في ذاكرته، عن بعض الكلمات اللاتينية. وأخيراً استطاع أن يتذكر بيت شعر لهوراس. ولما لم يكن جوليان يعرف من اللاتينية إلا التوراة، أجاب مقطباً جبينه: السلك المقدس، الذي أعدّ نفسي له، منعني من قراءة شاعر مبتذل كهذا.

وأنشد السيد ده رينال أبياتاً عدة نسبها لهوراس، وشرح لأولاده عن هوراس. ولكن الأطفال الذين ملكهم الإعجاب، لم ينتبهوا لما قاله، بل كانوا يتطلعون إلى جوليان.

وإذ كان الخدم لا يزالون على الباب، اعتقد جوليان أنّ عليه أن يسترسل في الإثبات، فقال لأصغر الاولاد:

ـ يجب أن يعين السيد ستانيسلاس ـ كزافيه مقطعاً من الكتاب المقدس.

وبكثير من الفخر قرأ ستانيسلاس الصغير بشكل رديء كلمة من مقطع، فأتمّ جوليان الصفحة بكاملها. ولكي يتمّ انتصار السيد ده رينال، دخل السيد فالينو، صاحب الجوادين النورمانديين الجميلين، والسيد شاركو ده موجيرون نائب محافظ المنطقة. وكان هذا المشهد كافياً لإعطاء جوليان لقب «السيد» وحتى الخدم لم يتجرّأوا على رفض ذلك.

عند المساء توافدت فرير، بكاملها، إلى بيت السيد ده رينال لتشهد المعجزة. وكان جوليان يجيب الجميع بلهجة غامضة تبقيهم على مسافة منه. وعمّ مجده، بسرعة، المدينة، حتى اقترح السيد ده رينال عليه، بعد أيام، أن يوقّع عقداً لسنتين خوفاً من أن يُنتَزَع منه. وأجاب جوليان ببرود:

ـ كلا يا سيدي، إذا أردت طردي فسوف أضطر للخروج. أما العقد الذي يربطني دون أن يجبرك على شيء فإنه ليس عادلاً، وأنا أرفضه.

وعرف جوليان كيف يتصرف، حتى أصبح السيد ده رينال نفسه، بعد مضي أقل من شهر، يحترمه. وبعد اختلاف الخوري مع السيد ده رينال والسيد فالينو، لم يعد يتحدث أحد عن حبّ

جوليان القديم لنابليون، وصار الخوري نفسه لا يتحدث عنه إلا برعب.

٧
الصلات الانتخابية

إنهم لا يعرفون كيف يلامسون القلب
دون عصره
معاصر

كان الأطفال يعبدونه، ولم يكن هو يحبهم. كانت أفكاره في مكان آخر. وكلّ ما كان هؤلاء الأشقياء يفعلونه، لم يكن يخرجه عن صبره أبداً. كان مربياً جيداً، بارداً، عادلاً، لا مجال لانتقاده، وأكثر: محبوباً لأن قدومه طرد، نوعاً ما، الضجر من البيت. أما هو فلم يكن يحس إلا بالكراهية والحقد نحو المجتمع الراقي. الذي قُبِل فيه، أو على الأصح، في أدنى درجاته. وهذا الأمر قد يفسّر هذه الكراهية وهذا الحقد. وأقيمت بعض ولائم المناسبات، واستطاع بصعوبة أن يخفي حقده على كل ما يحيط به. وذات يوم من أيام سان لويس، كان السيد فالينو يلعب النرد عند السيد ده رينال، وأوشك جوليان على كشف نفسه،

لكنه أنقذ الموقف هرباً إلى الحديقة، بحجة أنه يريد رؤية الأولاد. أي مديح للنزاهة! قال صارخاً، كأنها الفضيلة الوحيدة. ومع ذلك أي اعتبار، وأيّ احترام دنيء، لرجل ضاعف مرتين أو ثلاث مرات ثروته منذ أصبح يدير أملاك الفقراء! أراهن أنه يربح من الأملاك المرصودة للأولاد اللقطاء، الذين قدست تعاستهم أكثر بكثير من الآخرين! آه! أيتها الوحوش! أيتها الوحوش! وأنا أيضاً نوع من الأولاد اللقطاء. كنت مكروهاً من أبي واخوتي وكل عائلتي.

قبل أيام من عيد سان لويس، كان جوليان يتنزه وحيداً، في غابة صغيرة تسمى بلفدير تشرف على «ممر الأمانة»، يطالع في كتاب صلواته، فرأى، في البعيد، شقيقيه قادمين من درب منفردة، وحاول، عبثاً، تجنبهما. وأثارت بذلة جوليان السوداء وهيئته النظيفة والكراهية الصادقة التي يكنها لهما، غيرة هذين العاملين الفظّين، فضرباه حتى أغمياه وأدمياه. وصلت السيدة ده رينال، وكانت تتنزه صدفة مع السيد فالينو ونائب المحافظ، ورأت جوليان ممدداً على الأرض، فظنت أنه مات. وأخذها الحزن حتى أثارت غيرة السيد فالينو.

كانت السيدة ده رينال جميلة في نظره ولكنه كان يكرهها لجمالها، إذ كادت تكون أول عقبة في طريقه لجمع الثروة. ولذلك كان يكلمها أقل ما يمكن، لينسيها العاطفة التي حملته

على تقبيل يدها في يومها الأول.

وإذا إليزا، وصيفة السيدة ده رينال تحبّ، المربي الشاب، حتى راحت تتحدث عنه كثيراً إلى سيدتها. وكان حبها له سبباً في حقد واحد من الخدم لجوليان. وذات يوم سمعه يقول لإليزا: «لا تريدين التحدث معي، منذ دخل هذا المربي القذر إلى البيت». ولم يكن جوليان مطلقاً يستحق هذه الاهانة، ولكنه غريزياً ضاعف من اهتمامه بشخصيته، كما تضاعف حقد السيد فالينو الذي كان يصرّح علناً بأنّ خفّة كهذه لا تناسب أبداً قسيساً شاباً. وكان جوليان يلبس ما يشابه ملابس الرهبان.

لاحظت السيدة ده رينال أنه يتكلم مع إليزا أكثر من المعتاد، ثم علمت أن سبب هذه المحادثات كان قلة ملابس جوليان، مما يضطره خجلاً إلى غسلها، غالباً، خارج المنزل. ولذلك كان بحاجة إلى الآنسة إليزا.. هذا الفقر المدقع، انفطر له قلب السيدة فأحست بالرغبة في أن تقدم له بعض الهدايا، ولكنها لم تجرؤ. وكانت هذه المقاومة الداخلية أول احساس مؤلم يسبّبه لها جوليان. فحتى الآن كان اسمه واحساسها بالسرور الصافي المحض الروحاني، صنوين بالنسبة لها. وتحدثت مع زوجها، بعد أن عذبتها فكرة فقر جوليان، وحثته على أن يقدم له بعض الثياب هدية. فأجابها زوجها:

ـ أي تـدليل هـذا! ماذا؟ أقـدم الهدايـا إلى رجـل، نحن مسروورون منه تماماً، وهو يخدمنا جيداً؟ الهدية تقدم عندما يهمل هذا الإنسانُ عمله، لنشجعه ونثير حماسه!.

امتعضت السيدة من وجهة النظر هذه، ولم تكن لتلاحظها قبل جوليان. فهي لم تر قبلاً نظافة ثياب القسيس الشـاب، البسيطة، دون أن تقول: «هذا الولد المسكين ماذا يستطيع أن يفعل؟».

وشيئاً فشيئاً أصبحت تحس بالشفقة لكل ما ينقص جوليان، بدلاً من أن تحس بالصدمة.

وهي كانت واحدة من تلك النساء الريفيات، اللواتي يظهرن غبيات لفترة الخمسة عشر يوماً الأولى، فلم يكن لديها أية تجربة في الحياة، ولم تكن تهتمّ مطلقاً بالأحاديث لها. روح حساسة منعزلة، وجعلتها غريزة السعادة الطبيعية العامة بين البشر لا تنتبه، إلا نادراً، إلى حركات هذه الشخصيات الفظّة التي رمتها في وسطها الصدف.

وكان من الممكن أن تلفت بطبيعتها وحيوية ذهنها، لو تلقت بعض التربية، ولكنها وارثة غنية، وربيت عند راهبات يعبدن بحـرارة قلب يسـوع المقـدس، ويغـذّيهن حقـد عنيف عـلى الفرنسيين، أعداء اليسوعيين. وكان لدى السيدة ده رينال كفاية

من الاحساس، لتنسى بسرعة كل السخافات التي تعلمتها في الدير، لكنها لم تضع أي شيء في مكانها، وانتهى الأمر بها إلى عدم معرفة أي شيء. وجعلتها الكلمات المعسولة المبكرة التي سمعتها، بصفتها وارثة غنية، وميل طبيعي للإخلاص اللامتناهي، تميل نحو طريقة في العيش باطنية. وكانت، بمظهرها في تحقيق رغبات زوجها بكاملها وبتضحيتها بارادتها، مضرب مثل لكل أزواج فريير، ومدعاة لفخر السيد ده رينال. كان تصرفها نتيجة لكثير من عزة النفس. ولكن الحق أن هذه الأميرة، التي كان يضرب بها المثل لكبريائها، لم تكن تعير انتباهاً لتصرفات هذه الشخصيات حولها، بقدر ما كانت تنتبه لكل ما يقوله أو يقوم به زوجها. لم تكن قبل مجيء جوليان تهتمّ إلاّ بأولادها. كانت أمراضهم الصغيرة، آلامهم، أفراحهم البسيطة، تشغل كل حساسيّة هذه المرأة التي لم تعبد في الحياة غير الإله، عندما كانت في بزانسون في مدرسة القلب المقدس.

ودون أن تخجل في قول ذلك لأحد، كان ارتفاع بسيط في حرارة أحد أولادها يجعلها تقريباً في الحالة نفسها التي تنوجد فيها إذا مات. وكان زوجها، عندما تضطر للتنفيس عن عاطفتها في السنوات الأولى لزواجهما، يقابل ذلك بضحكة قوية فظة ويهز أكتافه ويمزج ذلك ببعض الأمثال السخيفة عن جنون النساء. وكان هذا النوع من المزاح يعيد الخنجر إلى قلب السيدة ده

رينال، خصوصاً عندما يكون موضوعه أمراض أطفالها. وكان هذا ما وجدته مكان تلك الكلمات المعسولة المائعة، التي كانت تسمعها في الدير اليسوعي، حيث أمضت صباها، وحيث تمت تربيتها. وكانت من الكبر بحيث لم تتحدث عن هذا النوع من الحزن حتى لصديقتها السيدة درفيل. وكانت تتصور أن جميع الرجال، كزوجها وكالسيد فالينو ونائب المحافظ شاركو ده موجيرون: فظاظة وعدم حساسية زائدة بكل ما لا يمتّ بصلة للمال والترقية والدين. فالحقد يعميهم جميعاً إذا ما عارضهم أحد. كل هذا وجدته طبيعياً في هذا الجنس، تماماً كما يلبسون الأحذية ويضعون قبعة الجوخ.

وبعد مرور سنوات طويلة، لم تعتد السيدة ده رينال على هؤلاء الناس الماديين الذين كان عليها أن تعيش بينهم.

ومن هناك كان بهار الفلاح الصغير جوليان. وجدت ملذات ناعمة، كلها براقة من سحر التجديد، في تواصلها مع هذا الكائن النبيل الفخور. وسرعان ما وجدت نفسها مضطرة لتغفر له جهله المطبق الذي كان في نظرها نعومة أخرى، وقسوة حركاته التي توصلت إلى تقويمها. ووجدت أنه يستحق الاستماع إليه حتى عن أكثر الأشياء اعتيادية، كأن يتعلق الأمر بكلب مسكين دهسته، وهو يعبر الشارع، عربة فلاح مسرع. وكان مشهد الألم هذا يسبب لزوجها انفجارَ ضحكه الكبير، فيما ترى

انزواء حواجب جوليان السوداء المقوسة الجميلة. ورويداً رويداً، أصبحت تظن أن الكرم ونبل الروح والإنسانية لا توجد إلا عند هذا القسيس الشاب، فأحست نحوه بكل العطف بل والاعجاب كما تثيرها فضائل كائن حسن النشأة.

ولو حدث هذا الأمر في باريس لكان وضع جوليان بالنسبة للسيدة ده رينال أمراً آخر. إذ أن الحب في باريس هو ابن الروايات؛ ولكان وجد المربي الشاب وعشيقته الخجولة نوراً يعرّفهما على وضعهما في ثلاث أو أربع روايات بل لوجدا ما يتوقان إليه في أشعار «جيمناز» ولرسمت لهما الروايات الدور الذي عليهما القيام به ودلتهما على الطراز الذي ينبغي لهما تقليده؛ وللاحظ جوليان، عاجلاً أو آجلاً، ودون أدنى لذة، إن عليه اتباعه لإشباع كبريائه. أما في المدن الصغيرة، في أفيرون أو البيرينيه فإن أبسط حادث يمكن أن يكون حاسماً نظراً لحرارة المناخ: فتحتَ سماواتنا القاتمة، شاب فقير، كل ما يملكه طموحه، لأن قلبه الحساس يُشعره بالحاجة إلى بعض هذه الملذات التي يؤمنها المال، طبيعي أن يرى كل يوم امرأة في الثلاثين مخلصة، عاقلة، مشغولة بأولادها، ولا تأخذ من الروايات مثالاً لسلوكها. كل شيء يسير متمهلاً، وينشأ رويداً رويداً في الأرياف. وهذا طبيعي أكثر.

وغالباً ما كانت السيدة ده رينال تبكي عندما تفكر بفقر المربي

الشاب، حتى فاجأها جوليان ذات يوم تبكي فعلاً:

ـ أوه! سيدتي، هل أصابتك مصيبة؟.

ـ كلا يا صديقي، ناد الأولاد لنذهب في نزهة.

أخذته من يده واتكأت عليها بطريقة ظنّها جوليان متعمدة. وكانت هذه هي المرة الأولى تناديه: يا صديقي. وعندما قاربت النزهة على الانتهاء، لاحظ جوليان وجهها يحمرّ كثيراً ثم أبطأت وقالت له دون أن تتطلع به:

ـ حدثوك عني بأنني الوريثة الوحيدة لعمّة غنية تسكن بزانسون، وتغرقني بالهدايا... إن أولادي يتقدمون... بشكل مدهش... لدرجة أحب معها أن أرجوك قبول هدية صغيرة مني علامة اعترافي بالجميل. ليس الأمر سوى بعض الليرات لتشتري بعض الملابس. ولكن... وازداد احمرار وجهها، ثم توقفت عن الكلام.

ـ ماذا سيدتي؟.

فتابعت وهي تخفض رأسها:

ـ وجدت من غير المفيد أن يعرف زوجي بهذا.

واستأنف جوليان كلامه متوقفاً وعيناه تلمعان ببريق الغضب وهو يمط كل طوله:

ـ إنني صغير، سيدتي ولكنني لست خسيساً. هذا أمر لم تفكري فيه كما يجب. سأكون أقل من خادم إذا أخفيت ما يتعلق بحالتي المالية عن السيد ده رينال.

ودهشت السيدة ده رينال.

وتابع جوليان:

ـ أعطاني السيد العمدة خمس مرات ستة وثلاثين فرنكاً منذ سكنت بيته. وأنا على استعداد لأن أريه دفتر مصروفاتي ولأري أياً كان، حتى السيد فالينو الذي يكرهني.

وبعد هذا المَخرَج، بقيت السيدة ده رينال شاحبة مرتجفة وانتهت النزهة دون أن يجد أحدهما حجة لاستئناف الحديث. وأصبح حب السيدة ده رينال أكثر استحالة في قلب جوليان المتكبر. أما هي فاحترمته وأعجبت به ولامت نفسها على ما فعلت. وبحجة أنها تريد التكفير عن الغضاضة سببتها له عن غير قصد، سمحت لنفسها بأن توليه عناية فائقة. وخلال ثمانية أيام كان اهتمامها الجديد سبباً لسعادتها ولتخفيف غضب جوليان جزئياً. وكان لا يرى هو في ذلك شيئاً معيّناً يمكن أن يدل إلا على ذوق شخصي.

وقال في نفسه: هكذا الناس الأغنياء. إنهم يهينون ثم يظنون أنهم يستطيعون إصلاح كل شيء ببعض التقليدات.

وكان قلب السيدة ده رينال جد مليء وجد بريء لدرجة أنها رغم تصميمها، لم تقل لزوجها إلا قصة العرض الذي قدمته لجوليان والطريقة التي ردت بها. وأجابها بسرعة شاعراً بالاهانة:

ـ كيف تسامحت في أن تتلقين رفضاً من خادم؟.

ولما رآها تحتج على هذه الكلمة تابع: اتكلم يا سيدتي كما تكلم المرحوم صاحب السمو أمير كونديه وهو يقدم حاشيته إلى زوجته الجديدة: «كل هؤلاء الناس خدم لنا». سبق وقرأت لك هذا المقطع من مذكرات بزانفال الأساسية في البروتوكول: «كل الذين ليسوا أسياداً، ويعيشون عندك ويقبضون أجرتهم، هم خدمك». سأقول لجوليان هذا كلمتين وأعطيه مائة فرنك.

وقالت السيدة ده رينال وهي ترتجف:

ـ آه، وليكن هذا في معزل عن الخدم!.

وأجاب زوجها وهو يبتعد مفكراً في المبلغ:

ـ أجل قد يغارون لهذا، وعن حق.

وسقطت السيدة ده رينال على كرسي شبه مغمّي عليها من الألم! سيحقّر جوليان وبسببي. وأثار زوجها فيها الرعب فأخفت وجهها بين يديها وقطعت على نفسها عهداً ألاّ تقوم بعد الآن بأيّ اعتراف.

وعندما رأت جوليان كانت ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها وصدرها متقلص لدرجة لم تستطع معها أن تقول كلمة واحدة. وأمسكت بيده مرتبكة وضغطت عليها.

ـ هل أنت مسرور من زوجي أخيراً؟.

وأجاب جوليان وهو يضحك بمرارة:

ـ وكيف لا أكون مسروراً وهو أعطاني مئة فرنك؟.

فقالت له بلهجة متشجعة لم يرها جوليان عندها في السابق:

ـ أعطني ذراعك.

وتجرأت وذهبت هكذا حتى صاحب مكتبة فريير رغم سمعته المخيفة كمتحرر. وهناك انتقت بعشر ليرات، كتباً أعطتها لأولادها، وكانت تعرف أن جوليان يتمناها. واشترطت عليهم أن يكتب كل واحد من أولادها اسمه على الكتب التي كانت من نصيبه، في المكتبة.

وبينما السيدة ده رينال سعيدة بطريقتها هذه في التعويض عن شجاعتها مع جوليان، كان هذا الأخير مندهشاً من كمية الكتب التي رآها في المكتبة. فهو لم يتجرأ مطلقاً على الدخول إلى مكان كهذا، لأن قلبه يرتعش. ولم يكن يفكر في ما يدور لدى السيدة ده رينال، بل في الطريقة التي تتيح لطالب لاهوت أن يحوز على

بعض هذه الكتب. وأخيراً أتته فكرة قد يستطيع ببعض الحذق أن يقنع بها السيدة ده رينال: من الواجب أن يكون موضوع دراسة أولادها تاريخ الرجال الكبار الذين ولدوا في المقاطعة. وبعد شهر من التأني رأى جوليان نجاح هذه الفكرة لدرجة تجرأ معها بعد وقت قصير أن يلمّح للسيد ده رينال في حديث معه، عن عملية صعبة على السيد العمدة. وكان الأمر يتعلق بالمساهمة في زيادة ثروة أحد المتحرّرين بالاشتراك لدى صاحب المكتبة. ووافق السيد ده رينال على أن يعطي ابنه فكرة عن التآليف العديدة التي سيسمع بها عندما يصبح في المدرسة الحربية. ولكنّ جوليان رأى أن السيد العمدة لا يتنازل ويذهب إلى أبعد من هذا. وشك في سبب خفيّ ولكنه لم يستطع أن يحدده.

وذات يوم قال جوليان للسيد ده رينال:

ـ أظن يا سيدي أنه لا يليق برجل محترم مثلك أن يوجد اسمه في السجلات القذرة لصاحب المكتبة.

ووضح جبين السيد ده رينال. فتابع جوليان بلهجة أكثر تواضعاً:

ـ وسيكون أيضاً من العلامات السيئة بالنسبة لطالب لاهوت فقير أن يكتشف ذات يوم أن اسمه كان موجوداً على سجل رجل يؤخر الكتب. بل إن المتحررين قد يتهمونني بأنني طلبت

أكثر الكتب المهينة. ومن يدري إن لم يتوصلوا أيضاً إلى كتابة الألقاب الموجودة في هذه الكتب الخبيثة وراء اسمي؟.

لكن جوليان ابتعد على الفور. رأى تعبير الإحراج والوقار عاد إلى وجه العمدة. فسكت وقال في نفسه: إنني أمسك رَجُلي.

وبعد أيام قليلة، قام أكبر الأولاد بحضور السيد ده رينال وسأل جوليان عن الكتاب الذي أعلن عنه في جريدة «لا كوتيديين»، فقال المربي الشاب:

ـ حتى نتجنب كل ما يمكن أن يقال عن انتصار الحزب اليعقوبي، وفي الوقت نفسه، حتى تعطيني الوسائل التي تكفل إجابتي على السيد أدولف، من الممكن أن نأخذ اشتراكاً باسم آخر من أحد حاشيتك.

فقال السيد ده رينال بلهجة بان فيها السرور:

ـ لا بأس.

وقال جوليان بتلك اللهجة الوقورة شبه التعيسة التي تناسب بعض الناس عندما يرون نجاح أعمالهم التي طالما تمنوها:

ـ ولكن يجب أن نحدد للخادم ألا يُحضر أية رواية. فهذه الكتب إذا ما وصلت إلى البيت، ستكون سبباً في إفساد وصيفات السيدة والخادم نفسه.

وأضاف السيد ده رينال بلهجة متعالية:

ـ أنت تنسى أيضاً الانتقادات السياسية.

وكان، بهذا، يريد أن يخفي إعجابه بهذا الحل النهائي الموفق الذي اكتشفه مربي أولاده.

وهكذا كانت حياة جوليان عبارة عن سلسلة من المفاوضات الصغيرة التي كان نجاحها يشغله أكثر بكثير من عاطفة التفضيل الزائد الذي تميّز به في قلب السيدة ده رينال.

وكان وضعه المعنوي يتجدد دوماً في بيت عمدة فريير. فهنا أيضاً، كما في المنشرة، كان يكره من يعيش معهم وكانوا يكرهونه. يسمع كل يوم القصص يرويها نائب المحافظ والسيد فالينو وباقي أصدقاء المنزل بمناسبة أشياء حدثت تحت أنظارهم. وكان يرى كيف لا تتشابه أفكارهم والواقع إلا قليلاً. والعملية التي يراها عظيمة هي التي تجتذب انتقادات الناس الذين يحيطون به. أما جوابه الداخلي فكان دائماً: أية وحوش أو أي بُلَهاء! وكان أكثر ما يثير العجب في غرور جوليان، أنه لم يكن يفهم غالباً مواضيع الحديث.

لم يتحدث جوليان في حياته بإخلاص إلا مع الطبيب الجراح العجوز، والأفكار القليلة التي يملكها تتعلق بمعارك نابليون في ايطاليا أو بالجراحة وكانت شجاعته الفتية تسر بحكايات مناسبة

عن العمليات المؤلمة. فكان يقول لنفسه: «لم يكن ليرفّ جفني».

وعندما حاولت السيدة ده رينال أن تحدثه في موضوع آخر غير تربية الأولاد، كان يبدأ في الكلام عن العمليات الجراحية فيشحب لونها وترجوه أن يتوقف.

لم يكن جوليان يعرف غير هذا. وهكذا يخيّم صمت على سويعاته مع السيدة ده رينال عندما يكونان في خلوة. ومهما كان سوء تصرفه عند استقبال الزوار، كانت السيدة ترى في عينيه ما يدلّ على تفوق معنوي بالنسبة لجميع من يأتي بيتها. وكانت، عندما يكونان على انفراد، تلاحظ اضطرابه الظاهر وتتضايق لأن غريزتها الأنثوية جعلتها تفهم أنّ هذا الاضطراب يخلو من الحنان.

من إحدى حكايات الطبيب العجوز المتعلقة بالمجتمع الراقي، استقى جوليان فكرة أنه عندما يسكت وهو بصحبة امرأة، يحس بالضعة كأنما هذا السكوت خطأه الخاص. وهذا الاحساس كان أقسى مئات المرات على جوليان عندما يكون لوحده معها فلا يسعفه خياله المليء بالمبادىء المبالغ فيها والأوهام، إلا بأن عليه التكلم عندما يكون في خلوة مع امرأة. وكان هذا يسبب له مزيداً من الضيق وبعض الأفكار التي لا يمكن القبول بها. كان روحه بين السحاب ولم يكن يستطيع

الخروج من الصمت الذي يلفه بالحقارة. وكانت هيئته القاسية تزيد في قساوتها بسبب آلامه القوية وهو يتنزه مع السيدة ده رينال والأولاد فكان يكره نفسه بقوة. وإذا اضطره سوء حظه للكلام، كان يقول أشياء مضحكة، وفوق كل هذا كان يرى سخافاته ويبالغ فيها. ولكن ما لم يكن يراه: تعبير عينيه الجميلتين اللتين تدلان على كائن دافىء. وهذا التعبير الذي يشبه به كبار الممثلين، كان يعطيه بعض الأحيان معنى ساحراً لم يكن عنده. ولاحظت السيدة ده رينال أنه عندما يكون وحيداً معها، لا يتوصل إلى التلفظ بشيء جيد في حين أنه لا يفكر بتحويل أية كلمة طيبة عندما يتسلى بحادثة غير متوقعة. وبما أن أصدقاء المنزل لم يكونوا يمتدحونها عند تقديمهم للأفكار الجديدة اللامعة، كانت تسر أيما سرور من خطرات فكر جوليان.

منذ سقوط نابليون، كانت كل مظاهر الغزل منفية تماماً من عادات الريف. فالكل يخاف العزلة. وكان الدجالون يفتشون عن سند في محاكم روما؛ وانتشر الخبث وأحرز تقدماً عظيمًا حتى في صفوف الطبقات المتحررة. وتضاعف الضيق ولم يبق من الملذات إلا القراءة والزراعة.

ولما تزوّجت السيدة ده رينال أحد النبلاء، وهي في السادسة عشرة، وريثة لعمة غنية متدينة، لم تكن عرفت شيئاً يشبه الحب في قليل أو كثير. ولم يحدثها عن الحب إلا معرّفها الخوري

الطيب شيلان بمناسبة ملاحقات السيد فالينو. وقد صوره لها بصورة كريهة حتى لم تعد هذه الفكرة تمثل لها إلا العربدة والانحلال. وكانت تنظر إلى الحب كما وجدته في بعض الروايات التي وقعت صدفة بين يديها، كشذوذ أو شيء خارج عن المألوف. وبفضل هذا الجهل، كانت السيدة ده رينال أبعد من أن توجه لنفسها أدنى انتقاد على سعادتها التامة أو على اهتمامها بجوليان.

٨
أحداث صغيرة

ثم كانت تنهدات أقوى من أن تخمد،
ونفحات خفية، ناعمة تغري بالحرام،
وخجل محرق يمحو كل خطيئة.

دون جوان

لطف السيدة ده رينال الملائكي، مدينة به لطبعها. ولم يكن ينغص عليها سعادتها سوى تفكيرها في وصيفتها إليزا. أتاها ميراث وذهبت للخوري شيلان للاعتراف، وصرحت له عن تفكيرها بالتزوّج من جوليان. وسرّ الخوري سروراً حقيقياً لسعادة صديقه. ولكن اندهاشه كان كبيراً عندما قال له جوليان بلهجة قاطعة أن عرض الآنسة إليزا لا يناسبه. فقال الخوري

وهو يقطب حاجبيه:

ـ احذر يا بني مما يدور في قلبك. أهنئك على استعدادك إذا كنت تريد أن ترفض ثروة أكثر من كافية، وتكرّس نفسك لله. مضت ست وخمسون سنة وأنا كاهن فريير ومع ذلك تدل كل المظاهر أنني سوف أجرّد. وهذا يفجعني. ولكنّ لي مورداً قدره ثمانمائة ليرة. أصارحك بهذه التفصيلات لكي لا تعيش في أوهام ما ينتظرك في حالة كونك قسيساً. إذا كنت تفكر بأن تساير الرجال الذين يملكون القوة، فإن ضياعك يصبح أكيداً. تستطيع أن تجمع الثروة، ولكنّ عليك عندئذ أن تلحق الضرر بالبؤساء وتمدح نائب المحافظ والعمدة والرجل المعتبر وأن تخدم أهواءهم. هذا السلوك الذي يسمى في الدنيا تذوق الحياة، يمكن أن لا يكون، بالنسبة لعلماني، متناقضاً مع الخلاص. أما في حالتنا، فإن من الواجب الاختيار: الثروة في هذا العالم أو في العالم الآخر. وليس من حل وسط. هيا، يا صديقي العزيز وفكّر، ثم عد إليّ بعد ثلاثة أيام لتعطيني جوابك النهائي. أكاد ألمح في شخصيتك حماساً قاتماً لا يبشرني بالاعتدال والتخلي التام عن الملذات الأرضية اللازمَين للكاهن. اعرف جيداً أفكارك ولكن أن أقول لك: في حالة كونك كاهناً فإنني سأرتجف لخلاصك. قال ذلك والدمع في عينيه.

وخجل جوليان من انفعاله. فهو يرى نفسه، للمرة الأولى في حياته، محبوباً. وبكى بنشوةٍ وذهب يخفي دموعه في الغابات الكبيرة التي تعلو فريير.

وأخيراً قال لنفسه: لماذا أنا في هذه الحالة؟ أحس أنني على استعداد لأن أعطي حياتي مئة مرة فداء لهذا الخوري الطيب شيلان. ولكنه مع ذلك أثبت لي أنني أبله. هو بالذات من يهمني أن أخدع، وعرفني. هذا الحماس الخفي الذي كلمني عليه، هو مشروعي لتكوين ثروة. وهو يظن أنني متعلّق بأن أكون كاهناً، لأنني تصورت التضحية بمورد مقداره خمسون ليرة ستعطيه اسمى فكرة عن شفقتي واستعدادي.

وتابع جوليان: في المستقبل لن أعتمد إلا على الأشياء التي أحس بها. من كان يظن أنني سأجد لذة في البكاء! وأن أحب الذي أثبت لي أنني أبله؟.

بعد ثلاثة أيام وجد جوليان الحجة التي كان عليه أن يتذرع بها منذ اليوم الأول. كانت مختلفة ولكن ما يهم؟ اعترف للخوري بكثير من التردد، إن سبباً لا يستطيع التصريح به، لأنه يمس شخصاً ثالثاً، حوّل أنظاره عن الزواج. وكان معنى هذا اتهام إليزا في سلوكها. ووجد الكاهن، في تصرفاته حميّة للحياة، تختلف عن تلك التي يجب أن تعيش في أعماق قسيس شاب.

ـ يا صديقي، كن مواطناً عـادياً طيبـاً في الريف، محترماً ومتعلمًا، بدل أن تكون قسيساً دون دعوة.

وأجاب جوليان عن هذه التعابير الجديدة أجوبة حسنة فوجد كلمات لا يقولها إلا راهب شاب متحمس. ولكن اللهجة التي استعملها عند تلفظه بها، ورغباته التي لم يحسن اخفاءها فأطلت من عينيه، حذّرت الكاهن شيلان.

كان جوليان، بصدق، يخترع الكلمات التي تدل على خبث حذر ذكي. وهذا ليس سيئاً في سنه. أما لهجته وحـركاتـه، فطبيعية لمن كان يعيش مع أمثاله، محروماً من رؤية الشخصيات الكبيرة. ومن ثم، ما كاد يقترب من هؤلاء، حتى كان رائعاً في حركاته كما هو رائع في كلامه.

دهشت السيدة ده رينال لأن الثروة الجديدة التي هبطت على وصيفتها لم تجعلها أكـثر سعادة. كـانت تراهـا تذهب، دون انقطاع، إلى الخوري، وتعود والدموع في عينيها. وأخيراً حدّثتها عن زواجها.

وظنّت السيدة ده رينال نفسها مريضة؛ كان نوع من الحمى يمنعها من النوم؛ ولم تكن تحس بالحياة إلا عندما كان نظرها يقع على وصيفتها أو على جوليان. ولم تعد تستطيع التفكير إلا بهما، وبـالسعادة التي سيجـدانها في عشّهما. كـان فقـر هـذا البيت

الصغير، حيث عليهما أن يعيشا بمردود قدره خمسون ليرة، يخيل إليها بألوان ساحرة. قد يستطيع جوليان ببساطة أن يصبح محامياً في «براي» عاصمة المحافظة، على بعد فرسخين من فريير، وفي هذه الحالة قد تراه من آن لآخر.

واعتقدت السيدة ده رينال أنها، فعلًا، ستصبح مجنونة؛ وقالت ذلك لزوجها ثم سقطت مريضة. وفي المساء نفسه، لاحظت أن وصيفتها، التي كانت تخدمها، تبكي. أحست أنها تكره، في تلك اللحظة، إليزا. فاجأتها بذلك، فاعتذرت إليها. وتضاعفت دموع إليزا، واستأذنت سيدتها كي تخبرها قصة تعاستها. فأجابت السيدة ده رينال: تكلمي.

ـ سيدتي، إنه يرفضني. قال له بعض الخبثاء أشياء سيئة عني، وهو يصدّقهم.

وقالت السيدة ده رينال، وهي لا تكاد تتمالك نفسها:

ـ من الذي يرفضك؟.

وأجابت الوصيفة وهي تبكي:

ـ ومن، يا سيدتي، غير السيد جوليان؟ لم يستطع الخوري أن يقهر مقاومته، بألّا يرفض فتاة شريفة لأنها كانت وصيفة. وبعد، والد جوليان ليس إلا نجاراً، ولا شيء غير ذلك، وهو نفسه، كيف كان يربح قوته قبل أن يأتي لبيت السيدة؟.

لم تكن السيدة ده رينال، في هذه اللحظة، تسمع شيئاً. فسعادتها الزائدة انتزعت منها استخدام عقلها. وألحت على وصيفتها لتسمع منها عدة مرات، وتتأكد من أن جوليان رفضها بشكل واضح، ولا يترك مجالاً للعودة إلى قرار أعقل. فقالت لوصيفتها:

- سأقوم بمجهود أخير، وأحدث السيد جوليان.

صباحَ الغد، بعد الافطار، انتشت السيدة ده رينال في الدفاع عن قضية غريمتها، واستمعت لجوليان، مدة ساعة، وهو يرفض يد إليزا وثروتها.

ورويداً رويداً، خرج جوليان من اجاباته المتضايقة، وتوصل أخيراً للاجابة بذكاءٍ عن عروض السيدة ده رينال المعقولة. ولم تستطع، هي، أن تقاوم سيل السعادة الذي كان يغمر روحها بعدَ أيام من اليأس. كانت في أسوأ الأحوال. وعندما أصبحت في غرفتها، واستقرّت فيها، صرفت الجميع. كانت مندهشة في أعماقها.

هل أحبُّ جوليان؟ قالت أخيراً لنفسها.

هذا الاكتشاف، الذي كان حرياً أن يلقيها، في أية لحظة إلى تأنيب الضمير والانفعال العميق، لم يكن لها، إلا منظراً فريداً، ولكن كأنه لا يعنيها. ولم يعد لدى روحها، المتعبة من جراء ما

عانته، أيّ احساس بنزعات الهوى.

وأرادت السيدة ده رينال أن تعمل، ولكنها غرقت في نوم عميق. ولما استيقظت، لم تخف كما كان يجب أن تخاف. كانت سعيدة لدرجة لم تكن لديها القدرة على أن تأخذ أيّ شيء على محمل السوء. ولم تحاول هذه الريفية الطيبة البسيطة، أن تعذب روحها لتحاول انتزاع قليل من الاحساس ببعض الاختلافات الجديدة في العواطف أو التعاسة. كانت، قبل مجيء جوليان، مستغرقة، بعيداً عن باريس، في هذا العمل الذي هو نصيب والدة نشيطة طيّبة. ولم تكن تفكر في الهوى إلا كما نحن باليانصيب: خداع أكيد، وسعادة يفتش عنها المجانين.

قرع جرس الغداء. واحمرّ وجهها كثيراً، عندما سمعت صوت جوليان يقود الأطفال. منذ أحبّت، أصبحت، لا تحسن التصرف، فلم تعرف كيف تفسر احمرارها، وشكت من وجع شديد في رأسها.

وأجابها السيد ده رينال وهو يطلق ضحكة كبيرة:

ـ هذه حال النساء. ثمة دائمًا نصائح يجب توجيهها لهذه الآلات.

ورغم أن السيدة ده رينال معتادة على لهجته هذه في الضحك، فإن صوته أصابها بصدمة. ولكي تتسلىّ، تطلعت إلى

وجه جوليان. كان لا بد أن يعجبها في هذه اللحظة، ولو كان أبشع الوجوه.

استقر السيد ده رينال في «فرجي» أوائل الربيع، مقلداً في ذلك عادات سكان القصر. وهذه القرية اشتهرت بمغامرة مأساوية قامت بها «غبريال». وعلى بعد مئات الخطوات، كانت تقوم أطلال الكنيسة القوطية القديمة الطريفة. كان السيد ده رينال يملك قصراً قديماً بأبراجه الأربعة وحديقة مرسومة على طريقة حدائق «التويلري» يسوّرها حاجز كثيف من العليق وممشى تحوطه أشجار الكستناء التي تشذب مرتين في السنة. المنتزه، كان يقوم مقامه حقل مجاور مغروس بأشجار التفاح. وفي آخر المرعى، ثماني أو عشرة أشجار جوز رائعة، ترتفع قريباً إلى ثمانين قدماً.

وعندما كانت السيدة ده رينال تبدي اعجابها بهذه الأشجار، كان زوجها يجيب:

ـ كل واحدة من هذه الأشجار الملعونة كلفتني محصول نصف دونم، فالقمح لا ينبت تحت ظلالها.

وخيل للسيدة ده رينال أنها ترى الريف للمرة الأولى. وإعجابها شمل وسائل النقل. وكان الشعور الذي تحس به يعطيها الذكاء والمقدرة على التقرير. وبعد يومين من وصولها

لفرجي، عاد زوجها إلى المدينة لأعماله. فاستأجرت السيدة ده رينال عمالاً على حسابها، وأعطاها جوليان فكرة إنشاء طريق رملي يجري في المرعى وتحت شجرات الجوز الكبيرة، يتنزه فيه الأطفال منذ الصباح دون أن تتبلل أحذيتهم بالندى. بدأ تنفيذ الفكرة قبل أقل من أربع وعشرين ساعة على ولادتها، وأمضت السيدة ده رينال طوال النهار، مع جوليان، توجه العمال بمرح.

عندما عاد عمدة فريير عند العشية، كانت دهشته كبيرة لما رأى الممر قائمًا. وأدهش مجيئه أيضاً السيدة ده رينال. كانت نسيت وجوده. وأمضى شهرين يتحدث بمرح عن الشجاعة التي نفذت فيها امرأته، دون استشارته، تصليحاً كبيراً كهذا. ولكن السيدة ده رينال قامت به على نفقتها، وهذا ما كان يعطيه بعض التعزية.

أمضت نهاراتها في الركض مع أولادها في المرعى وفي صيد الفراشات. صنعوا قبعات كبيرة من القماش الناعم الشفاف كانوا يأخذون فيها هذه «الليبيدوبتير». وهذا هو الاسم البربري الذي قاله جوليان للسيدة ده رينال. وكانت أرسلت في طلب كتاب السيد غودار الرائع من بزانسون وكان جوليان يروي لها عن العادات الفريدة عند هذه الحيوانات المسكينة.

وكانوا يعلقونها، بدبابيس، دون شفقة، في اطار كبير من الورق المقوى أعده أيضاً جوليان.

وإذا أخيراً، بين جوليان والسيدة ده رينال موضوع حديث، ولم يعد معرّضاً للعذاب البشع الذي كانت تسببه له، في السابق، فترات السكوت.

كانا يتكلمان دون انقطاع، وباهتمام كبير، رغم أن الحديث كان يدور عن أشياء بريئة. هذه الحياة النشيطة، المليئة المرحة، كانت من حظ الجميع باستثناء الآنسة إليزا التي كانت منهمكة في العمل، وهي تفكّر: السيدة ده رينال لم تهتم مطلقاً في الكرنفال بزينتها كهذه المرة، عندما يكون احتفال في فريير؛ أصبحت تغير ثوبها مرتين أو ثلاثاً في اليوم.

وفعلاً: السيدة ده رينال، ذات البشرة الرائعة، لم تكن توصي على أثواب تكون فيها عارية الصدر والذراعين. كانت مخلوقة حلوة، وهذه الطريقة في اللباس تناسبها إلى أبعد حد. وقال لها أصدقاؤها في فريير عندما كانوا يأتون للغداء في فرجي:

ـ لم تظهري مطلقاً بهذا التألق والشباب.

لكن السيدة ده رينال لم تكن تتعمد بصورة مباشرة هذه العناية. كانت تشعر باللذة، وبدون تفكير كانت الأوقات التي لم تكن تتنزه فيها أو تصطاد الفراشات مع جوليان والأولاد، تمضيها مع إليزا بتفصيل الأثواب. وكان سبب ذهابها الوحيد إلى فريير هو الرغبة في شراء أثواب صيفية جديدة وصلت حديثاً من «ميلهوز».

وأحضرت معها إلى فرجي امرأة شابة من قريباتها: السيدة درفيل التي كانت زميلة لها في «القلب الأقدس».

وكانت السيدة درفيل تضحك كثيراً، مما كانت تدعوه الأفكار المجنونة عند ابنة عمها:

ـ «لو كنت وحدي، لما فكرت مطلقاً في ذلك».

وهذه الأفكار التي لا تخطر في بال، وتدعى في باريس شاذة، كانت تخجل السيدة ده رينال إلى حد الحماقة، عندما تكون مع زوجها. ولكن قرب السيدة درفيل كان يعطيها الشجاعة. كانت تقول له أفكارها بصوت حَيِيّ أولاً؛ وعندما تكون هاتان السيدتان منفردتين، ينتعش ذهن السيدة ده رينال؛ ويمر صباح طويل كاللحظة فيترك الصديقتين مرحتين. ولكن في هذه الرحلة، وجدت السيدة درفيل العاقلة أن ابنة عمها أقل مرحاً من السابق وأكثر سَعَادةً.

وجوليان، من جهته، عاش كطفل حقيقي منذ وصوله إلى الريف، ويسرّ، كتلاميذه، في الركض وراء الفراشات. رمى نفسه في لذة احساسه بوجوده، وهو أشد ما يكون حيوية في هذا السن، بعد طول ضغط وقسوة، فانطلق، وسط أجمل جبال في العالم، وحيداً، بعيداً عن أنظار الرجال، ولم يعد بغريزته خائفاً من السيدة ده رينال.

وأحس جوليان، منذ قدوم السيدة درفيل، أنها صديقته؛ فسارع وأراها مختلف المناظر في طرف الممر الجديد الذي يصل أشجار الجزر الكبيرة؛ وفي الواقع، تعادل هذه الجمالات، إن لم تكن تزيد عما في سويسرا أو عما يمكن أن تعطيه جمالات بحيرات ايطاليا. فبعد المنحدر السريع الذي على بعد خطوات أودية سحيقة تحدها غابات السنديان التي تتقدم حتى النهر. وكان جوليان السعيد الحر، بل وأكثر: كأنه رب البيت، يقود الصديقتين إلى قمم هذه الصخور الحادة ويسر من إعجابهما بهذه المناظر الرائعة.

وقالت السيدة درفيل: إن هذا بالنسبة لي كموسيقى موزار.

شوّه جمالَ هذه الجبال التي تجاور فريير، في رأي جوليان، حسدُ اخوته ووجود أب قاس مستبد. أما في «فرجي» فإنه لم يلاق أية ذكرى مريرة؛ ولم يعد يرى، للمرة الأولى في حياته، أي أعداء. وعندما يكون السيد ده رينال في المدينة، وهذا ما يحدث غالباً، كان جوليان يتجرأ على القراءة مبكراً بدل أن يقرأ في الليل، مخبئاً مصباحه في قعر وعاء زهور مقلوب؛ وصار باستطاعته أن يستمتع بالنوم. وفي النهار، في الفترات التي تفصل بين درسٍ ودرسٍ للأطفال، كان يأتي إلى هذه الصخور مع الكتاب، القاعدة الوحيدة لسلوكه، وموضع اهتمامه. وكان يجد، في الوقت نفسه السعادة والنشوة والعزاء في ساعات اليأس.

وللمرة الأولى، عرف جوليان بعض الأمور التي تتعلق بالنساء، والتي كان يجب أن يعرفها شاب في عمره منذ زمن، وكانت هذه المعرفة نتيجة لبعض ما كان نابليون يقوله عن النساء، وبعض المناقشات الكثيرة عن مستوى بعض الروايات المنتشرة أيام حكمه.

وبدأ الطقس الحار. فأصبح من العادة أن تُقضى السهرة تحت شجرة كبيرة تبعد بضع خطوات عن البيت، حيث كان الظلام شديداً. وذات مساء، كان جوليان يتكلم بحماس ويستمتع بلذة اتقانه للكلام إلى نساء فتيّات؛ وبينما هو كذلك لمست يده، وهو يحركها، يد السيدة ده رينال التي كانت متكئة على ظهر أحد هذه الكراسي الخشبية المدهونة التي توضع عادة في الحدائق.

وانسحبت هذه اليد بسرعة. ولكن جوليان رأى من واجبه أن يحظى ببقاء هذه اليد عندما يلمسها. وأبعد السرور عن قلبه، تفكيره في احساس بالنقص سيُتَّهَم به إن لم يتوصل إلى ذلك.

٩
سهرة في الريف

عندما رأى السيدة ده رينال، في صباح الغد، كانت نظراته إليها، كعدّو عليه أن يتعارك معه. وهذه النظرات، التي تختلف كثيراً عن نظراته في السهرة، أفقدت السيدة ده رينال عقلها: كانت طيبة معه وها هو غاضب. ولم تعد تستطيع أن ترفع عينيها عن عينيه.

وكان وجود السيدة درفيل يتيح لجوليان أن يتكلم قليلاً وأن يهتم أكثر بما في خاطره. وكان همه الوحيد، طوال ذاك النهار، أن يتقوى بقراءة الكتاب الملهم الذي يعيد الهدوء إلى روحه.

اختصر دروس الأطفال كثيراً، ثم ذكّره وجود السيدة ده رينال بما سيحقق مجده، وقرر أن لا بد تسمح له، هذا المساء، بابقاء يدها في يده.

هبوط الشمس، الذي يقرّب اللحظة الفاصلة، جعل قلب جوليان يدقّ بصورة غريبة. وأتى الليل. ولاحظ، بفرح أزاح عن صدره ثقلاً كبيراً، أنه سيكون حالك الظلام، فالسماء المغطاة بالغيوم الكبيرة، يحركها هواء ساخن جداً، وتبشّر بعاصفة. تنزهت الصديقتان حتى وقت متأخر. كل ما كانتا

تفعلانه كان يظهر لجوليان غريباً. كانتا تستمتعان بهذا الوقت، الذي يزيد من لذة الحب، بالنسبة لبعض الأرواح الحساسة.

وجلسوا أخيراً: السيدة رينال حدّ جوليان، والسيدة درفيل حدّ صديقتها. ولم يجد جوليان شيئاً يقوله، لاهتمامه بما يزمع القيام به، فشحّ الحديث.

وقال جوليان لنفسه: أأكون مرتجفاً وتعيساً في المبارزة الأولى التي أمر فيها؟ كان عديم الثقة بنفسه أو بالآخرين لدرجة تمنعه من رؤية حالة نفسه.

وفي ضجره المميت، كانت كل الأخطار الأولى تظهر لعينيه أفضل مما هو فيه. وكم مرة تمنى أن يرى حدوث شيء ما للسيدة ده رينال يجبرها على دخول البيت وترك الحديقة! وكان العنف الذي يفرضه جوليان على نفسه، قوياً لدرجة جعلت صوته مضطرباً. وسرعان ما ظهر على صوت السيدة ده رينال الارتجاف، ولكن جوليان لم ينتبه له أبداً. فالمعركة البشعة التي كان الواجب يعلنها على الخجل، كانت أقسى من أن تتركه في حالة يلاحظ فيها أيّ شيء خارج نفسه. ودقت في القصر الساعة التاسعة وخمسة وأربعون دون أن يجرؤ على القيام بأي شيء. تضايق جوليان من جبنه، فقال في نفسه: في اللحظة التي تدق الساعة العاشرة سأنفذ ما اعتزمت، طوال اليوم، القيام به هذا المساء، وإلا فسأصعد إلى غرفتي وأحرق دماغي.

بعد برهة أخيرة من الانتظار والقلق، كان الانفعال الكبير يخرج جوليان عن طوره، عندما دقت الساعة العاشرة فوق رأسه. وكانت كل دقة من الجرس تجد صداها في صدره فتحدث فيه اضطراباً كبيراً.

أخيراً، والدقيقة العاشرة لا تزال ترن، مد يده وأمسك يد السيدة ده رينال التي سحبتها بسرعة؛ وأخذها جوليان ثانية دون أن يعرف تماماً ما يقوم به. ورغم شدة انفعاله صدمته البرودة الجليدية في اليد التي كان يمسك بها، فضمّها بقوة، وقامت اليد بحركة أخيرة، ثم استقرّت أخيراً في يده.

وأحس بالسعادة الفياضة. لا لأنه كان يحب السيدة ده رينال، بل لأن عذاباً بشعاً توقف. ولكي لا تلاحظ السيدة درفيل أي شيء، خيل إليه أنّ عليه أن يتكلم، وكان صوته عندئذ رائقاً قوياً، بينما كان صوت السيدة ده رينال، على العكس، يفضح كثيراً من الانفعال، فظنتها صديقتها مريضة واقترحت عليها الدخول. أحس جوليان بالخطر: لو دخلت السيدة ده رينال إلى الصالة فإنه سيعود إلى الوضع البشع الذي أمضى فيه النهار. «أمسكتُ بهذه اليد فترة قصيرة لا يمكن أن أعدها غُنمًا».

وفي اللحظة التي كانت السيدة درفيل تجدد اقتراحها للدخول

إلى الصالة، شد جوليان بقوة على اليد التي أعطيت له. فعادت السيدة ده رينال للجلوس، وكانت تهم بالوقوف، وقالت بصوت مختنق:

ـ أحس، في الحقيقة، إنني متوعكة قليلاً ولكنّ الهواء الطلق يفيدني.

هذه الكلمات ثبّتت سعادة جوليان التي كانت، في هذه اللحظة خارقة: فتكلم، ونسي الحذر، وظهر أمام الصديقتين، اللتين كانتا تستعمان إليه، من أحب الرجال. ومع ذلك كان قليل الشجاعة في هذه الفصاحة التي أتته فجأة. كان يخشى بشكل مميت، أن تتضايق السيدة درفيل من الرياح التي بدأت تهبّ، تسبق العاصفة، فتقرّر الدخول بمفردها، ويبقى عندئذ منفرداً مع السيدة ده رينال. ووجد، صدفةً، الجرأة التي مكّنته من القيام بما قام به، ولكنه كان يشعر من غير الممكن أن يقول أية كلمة. ومهما كان لومها خفيفاً، فسيهزم، ويزول الانتصار الذي أحرزه.

من حسن حظه، أعجبت أحاديثه الرقيقة الفخمة السيدة درفيل التي غالباً ما كانت تراه سيّىء التصرف كالطفل الذي يسليّ كثيراً. أما بالنسبة للسيدة ده رينال فإن وجود يدها في يده أنساها كل شيء، فتركت نفسها تعيش، وكانت سعادة لا توصف، خلال الساعات التي أمضتها تحت هذه الشجرة الكبيرة، التي تقول أساطير المنطقة أن «لويس ده تمرير» غرسها.

كانت تستمع إلى زمجرات الريح عبر أوراق الشجرة الكثيفة، وصوت بعض نقاط المطر النادرة بدأت تسقط على أقرب الأوراق إلى الأرض. ولم يلاحظ جوليان مناسبة كانت حريّة أن تطمئنه، إذ اضطرت السيدة ده رينال إلى سحب يدها من يده لأنها نهضت لتساعد ابنة عمها في رفع وعاء زهور قلبه الريح تحت أقدامهم. ولم تكد تجلس حتى أعطته يدها دون تكلف، وكأن الأمر بينهما متّفق عليه مسبقاً.

مضى على دقة منتصف الليل وقت طويل، وبات من الواجب ترك الجنينة، فافترقا. وكانت السيدة ده رينال مأخوذة بالسعادة فلم تلم نفسها أبداً. كانت جدّ جاهلة، ولم تستطع أن تنام من سعادتها. أما جوليان فأخذه نوم عميق، بعدما أتعبته فيه المعارك التي قامت في قلبه بين حيائه وكبريائه طوال النهار.

وفي الغد، استيقظ جوليان عند الخامسة صباحاً؛ مما يكون قاسياً على السيدة ده رينال لو عرفت به، ولم تكن لتفكر فيه أبداً. قام بواجبه، في شكل بطولي. وأغرقه هذا الاحساس بالسعادة فأغلق على نفسه باب غرفته بالمفتاح، وانخرط بسرور جديد في قراءة اكتشافات بطله.

وعندما قرع جرس الغداء، كان نسي كل نجاحات السهرة وهو غارق في قراءاته لصفحات الجيش الكبير. وقال لنفسه، بلهجة خفيفة، وهو ينزل إلى الصالة: «يجب أن أقول لهذه المرأة،

إنني أحبها».

وبدلاً من أن يلاقي النظرات المشبعة بالعطف، كما كان ينتظرها، لاقى وجه السيد ده رينال القاسي لم يخف امتعاضه، منذ وصل قبل ساعتين لأن جوليان أمضى طوال قبل الظهر دون أن يهتم بالأولاد، ولم يكن أبشع من هذا الرجل الخطير، الذي يملك الجاه ويعتقد أنه يستطيع إظهاره.

كانت كل كلمة من كلمات الزوج القاسية، تخترق قلب السيدة ده رينال. أما جوليان، فكان مستغرقاً في النشوة وجدّ مشغول بالأشياء الكبيرة التي مرت معه، خلال ساعات، لدرجة استطاع معها بجهد أن يتنازل وينتبه إلى الكلمات القاسية التي كان يوجهها إليه السيد ده رينال.

وأخيراً قال له فجأة:

ـ كنتُ مريضاً.

وكانت لهجة هذه الاجابة كافية لاهانة رجل أقل فظاظة من عمدة فريير. وكان ممكناً أن يردّ على جوليان ثم يطرده تواً. ولم يمسكه عن ذلك إلا الحكمة التي اتخذها لنفسه وهي أن لا يتسرع مطلقاً عندما يتعلق الأمر بالأعمال.

وقال في نفسه بسرعة: هذا الأحمق الشاب، كوّن نوعاً من

الشهرة في بيتي. ومن الجائز أن يأخذه فالينو إليه، أو قد يتزوج إليزا. وفي كلتا الحالتين، يمكنه أن يضحك مني في أعماق قلبه.

ورغم تعقل هذه الأفكار انفجر امتعاض السيد ده رينـال بسلسلة من الكلمـات القاسيـة أثارت جـوليان شيئاً فشيئاً. وأشرفت السيدة ده رينال على البكاء. وما كاد الغداء ينتهي حتى طلبت إلى جوليان أن يعطيها ذراعه للنزهة، فاستنـدت إليها بصداقة. ولم يجد جوليان رداً على كل ما قالته السيدة ده رينال إلا أن يقول بصوت خفيض:

ـ هؤلاء هم الأغنياء!.

كان السيد ده رينال يسير بالقرب منهم؛ وكان وجوده يزيد من غضب جوليان. وتنبه فجأة إلى أن السيدة ده رينال تتكىء على ذراعه بطريقة معينة. أرعبته هذه الحركة، فردّها بعنف وخلّص يده.

ولحسن الحظ، لم ير السيد ده رينال هذه الحركة الجديدة، ولم تنتبه لها سوى السيدة درفيل؛ وأغرقت صديقتها بالبكاء. كان السيد ده رينال، في هذه اللحظة، يقذف فلاحة صغيرة بالحجارة لأنها اتخذت طريقها، من غير حق، وعبرت زاوية المرعى.

وقالت السيدة درفيل بسرعة:

من فضلك سيِّد جوليان، كن معتدلاً؛ فكر في أننا جميعاً لنا مزاجنا.

وتطلع إليها جوليان ببرود، وفي عينيه أعمق آيات الحقد.

أدهشت نظرته السيدة درفيل، وكانت تفاجأ أكثر لو اكتشفت معناها الحقيقي: أمل غامض في أقسى أنواع الانتقام. ولا شك في أن لحظات كهذه من الحقارة أوجدت الطريقة الروبسبيرية.

وقالت السيدة درفيل بصوت منخفض إلى صديقتها:

ـ جوليان هذا عنيف. يخيفني.

وأجابتها هذه الأخيرة:

ـ لديه الحق في أن يغضب. بعد تقدم ملموس أحرزه الأولاد، ماذا يهم لو أمضى طوال قبل الظهر دون أن يكلمهم. يجب الاعتراف أن الرجال جدّ قساة.

وأحست السيدة ده رينال، للمرة الأولى في حياتها، ببعض الرغبة في الانتقام من زوجها. وقارب الحقد الكبير، الذي يكنه جوليان للأغنياء، أن ينفجر. ولحسن الحظ نادى السيد ده رينال بستانيّة، وبقي مشغولاً معه في سد الطريق التي عبرت منه الفلاحة، بواسطة رزم من الشوك. لم يعلق جوليان بكلمة على كل الأحاديث التي وجهت إليه طوال وقت النزهة. وما كاد

السيد ده رينال يبتعد حتى ادعت الصديقتان التعب وطلبت كل منهما يده.

كان شحوب جوليان وهيئته القاتمة الحازمة، تُكَوِّن تضاداً غريباً مع الاحمرار الذي كسا وجه السيدتين، وهو بينهما، من الخجل والاحراج والاضطراب. كان يكره هاتين السيدتين، وكل العواطف الحنونة.

ماذا! قال في نفسه. حتى ولا خمسمئة فرنك تتيح لي انهاء دروسي! آه! سأعرف كيف أنتقم...

وكان، لانهماكه في هذه الأفكار القاسية، يجد أن القليل من الكلمات التي يفهمها من كلمات التبجيل كانت الصديقتان تقولانها، فارغة من المعنى، كريهة ضعيفة، وبكلمة مختصرة «نسائية».

ونتيجة لاستغراق السيدة ده رينال في حديثها ولبحثها عن ابقاء المحادثة حية، قالت إن زوجها حضر من فريير لأنه قام بصفقة، من قش الذرة، مع أحد فلاحيه. (وفي هذه البلاد، تعبأ الفرش بقش الذرة).

وأضافت:

ـ لن يلحق بنا زوجي، وسيهتم وهو في رفقة البستاني والخادم، بانهاء تجديد أسرّة المنزل. قام هذا الصباح بوضع

القش في كل أسرّة الطابق الأول، والآن انتقل للثاني.

وتغير لون جوليان، وتطلع إلى السيدة ده رينال بطريقة غريبة، وسرعان ما انفرد بها مضاعفاً خطواته. وتركتهما السيدة درفيل يبتعدان.

ـ انقذيني، أنتِ الوحيدة التي تستطيعين. هذا الخادم يكرهني حتى الموت. اعترف لك سيدتي، إن معي صورة أخفيتها في قش سريري.

وعند هذه الكلمة شحب لون السيدة ده رينال بدورها.

ـ أنتِ وحدك، سيدتي، تستطيعين، في هذه اللحظة، الدخول إلى غرفتي. فتّشي، دون أن تظهريها، في أقرب زوايا الفراش إلى النافذة، ستجدين علبة صغيرة من الورق المقوّى الأسود اللماع.

وتقول السيدة ده رينال وهي تكاد تقع:

ـ صورة!.

ولاحظ جوليان هيئتها التي تدل على الخيبة، فاستغل ذلك:

ـ إن لي رجاءً ثانياً أرجو أن تحققيه لي، سيدتي، أتوسل إليك أن لا تتطلعي إلى هذه الصورة. إنه سرّي الخاص.

ورددت السيدة ده رينال بصوت خافت:

ـ إن في الأمر سراً.

ورغم أنها ربيت بين أناس يفتخرون بثرواتهم، ولا يشعرون إلا بالمصالح المادية، كان الحب وضع بعض الكرم في روحها. وبحركة تدل على الاخلاص اللامتناهي رغم جرحها القاسي، وجهت السيدة ده رينال الأسئلة الضرورية لتستطيع أن تنهي مهمتها على أكمل وجه.

قالت له وهي تبتعد:

ـ هكذا إذن، علبة صغيرة دائرية من الورق المقوى الأسود اللماع.

وأجابها جوليان بلهجة قاسية يُكسبها الخطر للإنسان:

ـ أجل سيدتي

وارتقت الطابق الثاني من القصر، شاحبة كأنها ذاهبة للموت. وأحست أنها على وشك أن تفقد قواها كأنما الأمر ليزيد في بؤسها. ولكن رغبتها في تأمين خدمة لجوليان أعادت إليها قواها. وقالت لنفسها وهي تسرع الخطى:

ـ يجب أن أحظى بهذه العلبة.

سمعت زوجها يتكلم مع الخادم في غرفة جوليان نفسها. ولحسن الحظ دخل الجميع غرفة الأطفال. ورفعت الفراش

وأغرقت يدها في القش بعنف كبير حتى جرحت أصابعها. ورغم حساسيتها الكبيرة بالآلام البسيطة كهذه، لم تشعر بها، لأنها أحست في الوقت نفسه بنعومة علبة الكرتون. فأخذتها واختفت.

ما كادت تنجو من خوفها في أن يفاجئها زوجها، حتى أوشك الرعب الذي سببته لها هذه العلبة، أن يوقعها مريضة حقاً.

ـ «إن جوليان إذن عاشق، وأنا أمسك بين يدي صورة المرأة التي يحبها»!.

وجلست السيدة ده رينال على كرسي بين غرفتي الشقة، فريسة لكل رعب الغيرة. وكان جهلها مفيداً لها في هذه اللحظة أيضاً. فالاندهاش كان يخفف الألم. وظهر جوليان، وأخذ العلبة. ودون أن يشكرها بكلمة، هرع إلى غرفته حيث أشعل النار وأحرقها. كان شاحب اللون، مرهقاً، يبالغ في مدى الخطر الذي اجتازه.

وقال في نفسه وهو يحرك كتفيه:

ـ «أن توجد صورة نابليون مخبأة عند رجل يعد نفسه لمهنة تكنّ مثل هذا الحقد للمغتصب! ليس هذا فقط، بل أن يجدها السيد ده رينال، الرجعي الكبير، المتحمس الكبير! وزيادة في قلة الحذر، أن يوجد على ورق الصورة الأبيض، خلفها، سطور

كتبت بخط يدي لا تترك أي شك في إعجابي الكبير! وكل سطر منها مؤرخ! بعضها كتبته أول أمس.

وهكذا أخسر سمعتي وأهدمها في لحظة! وسمعتي هي كل ما أملك، إنني لا أعيش إلا بها... وأية عيشة! أيها الإله الكبير!».

قال جوليان هذا وهو ينظر إلى العلبة تحترق.

وبعد مضي ساعة، جعله التعب والشفقة التي يحس بها على نفسه، مستعداً للحنان. ولاقى السيدة ده رينال وأخذ يدها وقبّلها بإخلاص لم يشعر به من قبل. فاحمرت وجنتاها من السعادة، وفي الوقت نفسه، ردّته بغضب الغيرة. وإذا كبرياؤه، التي لم يمض وقت طويل على اهانتها، جعلت منه أحمق هذه اللحظة. لم ير في السيدة رينال إلا امرأة غنية، وترك يدها تقع باحتقار وابتعد. وذهب يتنزه مفكراً في الجنينة، وسرعان ما ارتسمت على شفتيه ضحكة مريرة.

ـ أتنزّه هنا، هادئاً كرجل سيد يتصرّف بوقته! لا أهتم بالأولاد! أعرض نفسي للكلمات المهينة التي يقولها، عن حق، السيد ده رينال.

وركض إلى غرفة الأولاد.

هدّأت ملاطفات أصغرهم، وكان يحبه جداً، قليلاً من ألمه القاسي.

وفكر جوليان:

ـ هذا لا يكرهني بعد. ولكنه سرعان ما سيلوم نفسه على تخفيف آلامي كأنما الأمر ضعف جديد. إن هؤلاء الأطفال يلاطفونني، كما كلب الصيد الصغير الذي اشتروه أمس.

١٠
قلب كبير وثروة صغيرة

ولكن سرعان ما تنكشف الأهواء المكتومة، ولو كانت قاتمة كظلام السماء، فتنبىء عن أسعد عاصفة.

دون جوان

كان السيِّد ده رينال يتتبع العمل في كل غرف القصر، فعاد إلى غرفة الأولاد مع الخدم الذين كانوا يحضرون القش. وكان دخوله المفاجىء، بالنسبة لجوليان، كنقطة الماء تطفح الكيل.

اندفع جوليان نحوه بوجه أكثر شحوباً وتجهمًا من المعتاد. توقف السيد ده رينال وتطلع إلى الخدم فقال جوليان:

ـ هل تظن يا سيدي أن أولادك كانوا يحرزون التقدم نفسه مع غيري من المربين؟ وتابع دون أن يترك للسيد ده رينال الوقت للكلام:

ـ إذا أجبت بالنفي فكيف تتجرأ وتوجه لي اللوم في أنني أهملهم؟.

لم يكد السيد ده رينال يتمالك نفسه، حتى فكر في أن اللهجة الغريبة التي اتخذها هذا الفلاح الصغير، لأن في جيبه بعض العروض المغرية وأنه يوشك على تركه. وازداد غضب جوليان وهو يتكلم:

ـ بتّ أستطيع العيش بدونك يا سيدي.

وأجاب السيد ده رينال وهو يغمغم قليلاً، وكان الخدم على بعد عشر خطوات منهما منهمكين في تسوية الأسرة:

ـ إنني متضايق فعلاً لأنك مضطرب.

ردّ جوليان وهو خارج عن طوره:

ـ ليس هذا ما أريده يا سيدي، فَكِّر في الكلمات المهينة التي وجهتَها إليّ، وبحضور امرأتين...

لم يكن السيد ده رينال يفهم تماماً ما يريده جوليان. ومزّق روحه صراع قاس وحدث إن جوليان صرخ من الغضب:

ـ إنني أعرف أين أذهب يا سيدي، إذا خرجت من عندك.

ورأى السيد ده رينال، عند هذه الجملة، جوليان مستقراً في بيت السيد فالينو. فقال له أخيراً وهو يتنهد وباللهجة التي يوافق فيها الجرّاح على اجراء عملية مؤلمة:

ـ أيها السيد! أوافق على طلبك. واعتباراً من بعد غد، المصادف أول الشهر، سأعطيك خمسين فرنكاً شهرياً.

أحس جوليان برغبته في الضحك ووقف مشدوهاً: اختفى كل غضبه.

قال في نفسه:

ـ لم أكن أحتقر هذا الحيوان كفاية. إن هذا، ولا شك، أكبر اعتذار يمكن أن يجود به هذا الكائن الدنيء.

وإذا بالأولاد الذين كانوا يستمعون بأفواه فاغرة، يركضون إلى الحديقة ليقولوا لأمهم أن السيد جوليان غاضب، ولكنه سيحصل على خمسين فرنك في الشهر.

تبعهم جوليان، كالعادة. ودون أن يتطلع إلى السيد ده رينال، تركه في أشد حالات الضيق.

قال العمدة فى نفسه:

ـ كلفني السيد فالينو حتى الآن مئة وستة وثمانين فرنكاً. لا بد أن أقول له كلمتين حازمتين حول مؤسسته الخاصة باللقطاء.

وبعد لحظة، كان جوليان مرة أخرى أمام السيد ده رينال:

ـ أنا أريح ضميري عند الخوري شيلان، ولي الشرف أن أعلنك أنني سأتغيب لبضع ساعات.

قال السيد ده رينال وهو يضحك ضحكة متصنعة:

ـ ولو يا عزيزي جوليان. تغيّب كل النهار إذا أردت، كل نهار غد يا صديقي الطيب، خذ حصان البستاني في ذهابك إلى فريير.

وقال السيد ده رينال لنفسه:

ـ ها هو الآن ذاهب ليعطي الجواب للسيد فالينو. لم يعدني بشيء، ولكن يجب أن أترك رأس هذا الشاب يهدأ.

تخلّص جوليان بسرعة وصعد للغابات الكبيرة التي تقود من فرجي إلى فريير. لم يكن يريد مطلقاً أن يصل سريعاً إلى الكاهن شيلان. ولم يكن يرغب في حديث نصائح آخر، بل كان بحاجة إلى رؤية صافية لما في أعماقه، وأن يستمع إلى تلك المجموعة من العواطف التي تثير اضطرابه.

ولم يكد يرى الغابات ويصبح في معزل عن البشر حتى قال

في نفسه:

ـ ربحت معركة. ربحت إذن معركة!.

لوّنت هذه العبارة بالجمال كلّ وضعه، وأعادت لروحه بعض طمأنينتها.

ها أنذا أقبض خمسين فرنكاً في الشعر. لا بد أن السيد ده رينال أصابه خوف مداهم. ولكن ممّ؟.

وارتاح جوليان لهذا التأمل في ما يمكن أن يخيف الرجل السعيد القوي الذي كان، لساعة خلت، يغلي من الغضب أمامه. وأحس بجمال الغابة الرائع حيث كان يمشي؛ كانت الصخور الضخمة العارية التي سقطت قديماً وسط الغابة من جوانب الجبل، بينما ارتفعت أشجار كبيرة إلى ما يقارب علوّ هذه الصخور، ويعطي ظلها انتعاشاً ناعمًا على ثلاث خطوات من الأمكنة التي كانت حرارة الشمس تمنعه من التوقف فيها.

استراح جوليان بعض الوقت في فيء هذه الصخور الكبيرة، ثم استمر صاعداً. وسرعان ما وجد نفسه في درب ضيق لا يكاد يبان، يستخدمه رعاة الماعز، واقفاً على صخرة هائلة، وهو واثق من انفصاله عن الناس. وهذا الوضع أثار ضحكه، وصور له الوضع الذي يتحرق للوصول إليه من الناحية المعنوية. وأوصل الهواء النقي في هذه الجبال العالية الصفاء، بله اللذة،

إلى روحه. كان عمدة فريير دائمًا في نظره ممثل كل الأغنياء والمختالين على الأرض، ولكن جوليان أحس أن الحقد الذي كان يثيره منذ وقت، رغم حركاته القاسية، لم يكن فيه شيء شخصي. فلو امتنع ثمانية أيام، عن رؤية السيدة ده رينال، لما ظلّ في ذاكرته، هو وقصره وكلابه وأولاده وكل عائلته. وفكّر: أجبرتُهُ، ولا أدري كيف، على القيام بأكبر التضحيات. ماذا! أكثر من خمسين ليرة ذهبية في السنة! ومنذ لحظة مضت، تخلصتُ من أكبر الأخطار. انتصاران في يوم واحد، والثاني دون عناء، ويجب أن أفتش عن سببه. ولكن فلأترك للغد الأبحاث الصعبة.

تطلع جوليان نحو السماء وهو واقف على صخرته الكبيرة، تَلفُّهُ شمس آب. وكانت الصراصير تغني في الحقل فوق الصخرة، وعندما سكتت كان كل ما حوله في صمت وسكون. وكان يرى، تحت أقدامه، عشرين فرسخاً من المنطقة، وبعض الصقور انطلقت من الصخور، فوقه، ترسم، من وقت لآخر، وبسكون، دوائر كبرى في الجو. ولفتت نظراته حركاتها الساكنة القوية وحَسَدَها على هذه القوة وعلى هذا التحرّر.

وفكّر: كان هذا مصير نابليون، فهل يكون مصيري أيضاً؟.

١١
سهرة

لم تزل جوليا، رغم برودتها، لطيفة، ويدها الصغيرة الناعمة لا تزال ترتجف. سحبتها من يده، ولكنها خلفت وراءها ضغطاً خفيفاً، مرتجفاً وجد ناعم، استخفافاً كبيراً بما هو التعقل، وبعض الشك فيه.

دون جوان

كان لا بد من الظهور في فريير، رغم كل شيء. وعند خروج جوليان من الدير، كانت صدفة سعيدة أن يرى السيد فالينو. وسرعان ما أخبره عن ازدياد مرتبه.

بعد عودته إلى فرجي، لم ينزل جوليان إلى الحديقة إلا بعد أن أرخى الليل سدوله. كان تعباً من تزاحم الانفعالات القوية هزته طوال هذا النهار.

ـ ماذا أقول لهما؟.

قالها بحزن وهو يفكر في السيدتين. وكان أبعد من أن يرى نفسه في مستوى الأحداث الصغيرة التي تشغل عادة كل اهتمام السيدات. وغالباً ما كان مستعصياً لا يُفهم، بالنسبة للسيدة

درفيل، بل وبالنسبة لصديقتها، التي لم تكن تفهم بدورها، إلا نصف ما كان يقوله. وكانت هذه نتائج القوة، إذا صح التعبير، إزاء تحركات الأهواء التي كانت تقلب روح الطَموح الشاب رأساً على عقب. فبالنسبة لهذا الكائن الفريد كان كل يوم يمر، عاصفة في حياته.

وعندما دخل ذاك المساء إلى الحديقة، كان مستعداً لاختراق أفكار هاتين السيدتين، وهما كانت تنتظرانه. اتخذ مجلسه الاعتيادي، حدّ السيدة ده رينال، وسرعان ما ازداد الظلام أراد أن يمسك بيد بيضاء كان يراها منذ أمد طويل حدّه، مستندة إلى أحد الكراسي. ترددت اليد قليلاً قبل أن تنسحب من يده بطريقة تدل على الوقار. وكان هو مستعداً أيضاً للقبول بذلك ومتابعة الحديث بمرح، عندما سمع السيد ده رينال يقترب.

كانت الكلمات القاسية التي سمعها جوليان هذا الصباح، لا تزال ترن في أذنه، فقال في نفسه:

ـ أليست هذه طريقة للسخرية من هذا المخلوق الغارق في النعمة، أن آخذ يد امرأته، وفي حضوره؟ أجل، سآخذها، لأثبت له مقدار احتقاري.

وتراجع جوليان بسرعة عن لحظة الهدوء هذه، الغريبة عن

أطباعه؛ كان يرغب بشدة، دون أن يفكر في شيء آخر، أن تقبل السيدة ده رينال بترك يدها في يده.

وتكلم السيد ده رينال في السياسة بغضب:

ـ اثنان أو ثلاثة صناعيين في فريير باتوا أكثر غنى منه، وهم يريدون مزاحمته في الانتخاب.

استمعت إليه السيدة درفيل. ضجر جوليان من هذه الأحاديث، وقرّب كرسيه من كرسي السيدة ده رينال. وكانت الظلمة تخفي كل الحركات. وتجرأ على وضع يده قريباً جداً من الساعد الجميل الذي كان الثوب يتركه عارياً. واضطرب: خانه تفكيره، فقرّب خده من هذا الذراع الجميل وتجرأ فوضع عليه شفتيه.

ارتجفت السيدة ده رينال، فأسرعت وأعطت جوليان يدها، وفي الوقت نفسه أبعدته قليلاً: كان زوجها على أربع خطوات منها. ولما كان السيد ده رينال يتابع شتائمه للناس الذين لا يساوون شيئاً ولليعاقبة الذين يغتنون، أغرق جوليان اليد التي أعطيت له، بوابل من القبلات الحرى، أو على الأقل هكذا ظنتها السيدة ده رينال. ومع ذلك كانت المرأة المسكينة من حادثة النهار، تثبتت أن الرجل الذي تعبده، دون أن تعترف لنفسها بذلك، يحب غيرها!.

كانت طوال غياب جوليان فريسة لتعاسة كبرى جعلتها تفكر.

ماذا! سأحب! قالت في نفسها:

ـ سأحس بالحب! أنا، المرأة المتزوجة، سأصبح عاشقة! وفكرت:

ـ لم أحس أبداً نحو زوجي بهذا الجنون الذي يجعلني لا أستطيع التفكير في غير جوليان. ليس أكثر من طفل يملؤه الاعجاب بي! سيكون هذا الجنون عابراً. فماذا تهمّ زوجي العواطف التي يمكن أن أحس بها نحو هذا الشاب؟ سينزعج من أحاديثي التي تتعلق بأشياء خيالية مع جوليان. ويبقى يفكر في أعماله. لا أنتزع منه شيئاً وأعطيه لجوليان.

ولم يعكر صفاء هذا التفكير الساذج، الذي أضاعه هوى لم تشعر به في حياتها، أية أنانية أو خبث. كانت مخدوعة، ومع ذلك أحست فضيلتها بالجزع. وكانت هذه هي الأزمة التي تعانيها، عندما ظهر جوليان في الحديقة، وسمعته يتكلم، تقريباً في اللحظة نفسها التي رأته يجلس فيها حدّها. وأحست أن السعادة الرائعة التي تدهشها منذ خمسة عشر يوماً، تنتزعها دون أن تغريها. كان كل شيء جديداً بالنسبة لها. ومع ذلك، قالت لنفسها بعد قليل:

ـ يكفي أن يكون جوليان قريباً حتى تهدأ كل هواجسها؟ وارتعبت. وعندها انتزعت منه يدها.

القبلات المليئة بالهوى، والتي لم تتلق في حياتها مثيلاً لها، أنستها فجأة أنه قد يكون مغرماً بامرأة أخرى، ثم سرعان ما عاد بريئاً في نظرها. وكان زوال الألم وليد الشك، ووجود سعادة لم تحلم بها من قبل، يعطيانها من الحب والسرور المجنون. وكانت هذه السهرة رائعة للجميع باستثناء عمدة فريير جناحين الذي لم يستطع أن ينسى صناعييه الأغنياء. لم يفكر جوليان في طموحه الأسود، ولا في مشاريعه الصعبة التنفيذ. ولأول مرة في حياته، قادته سلطة الجمال. كان يستمع إلى حفيف أوراق الشجرة التي تحركها نسمات رائقة في هذا الليل، وهو ضائع في أحلامه العذبة الغامضة الغريبة عن طباعه، ويضغط على هذه اليد التي تعجبه بجمالها الخارق. وكان كلاب طاحونة الدوّ تنبح في البعيد.

لكن هذا الانفعال كان لذة وليس غراماً. وعند دخوله إلى غرفته، لم يفكر إلا في سعادة واحدة: أن يأخذ كتابه المفضل. ففي سن العشرين، كانت فكرة الكون تتغلب على كل شيء.

لكنه سرعان ما ترك الكتاب. ولكثرة ما كان يفكر في انتصارات نابليون، رأى جديداً في انتصاراته: «ربحتُ معركة،

ولكن يجب أن أستفيد منها، لأسحق كبرياء هذا الرجل الفخور في عزلته. هذا ما قام به نابليون. يجب أن أطلب اجازة ثلاثة أيام لأذهب لرؤية صديقي فوكيه؛ فإذا رفض، أترك له البيت. ولكنه سيقبل».

ولم تستطع السيدة ده رينال أن تنام. خيل إليها أنها لم تكن تعيش قبل هذه اللحظة. ولم تكن تستطيع أن تشغل فكرها عن السعادة التي سببتها قبلات جوليان الحرى غمرت يدها.

وفجأة ظهرت أمامها كلمة: الخيانة. كل ما كان التهتك الوضيع يصوره من قرف وحب للجسد تَتَابع في مخيلتها. وكانت كل هذه الأفكار تريد أن تلطخ الصورة الحنونة الإلهية التي كوّنتها عن جوليان، وعن السعادة في حبه. تخيلت المستقبل على هذه الصورة المخزية المرعبة، ورأت كم ستكون حقيرة.

كانت هذه اللحظة رهيبة، إذ وصلت روحها إلى بلاد مجهولة. ذاقت في العشية سعادة لا توصف، ولكنها الآن فجأة، تجد نفسها غارقة في تعاسة قاسية. لم يكن عندها أية فكرة عن آلام كهذه، كانت كفيلة بأن تفقد رشدها. وفكرت لحظة أن تعترف لزوجها بأنها تخشى أن تحبّ جوليان. ولكنّ هذا معناه أن تتحدث عنه. ولحسن الحظ، تذكرت نصيحة عمتها، عشية زواجها، وفيها حذرتها من أخطار الاعترافات للزوج، الذي

هو، في النهاية، سيّد البيت. وفي غمرة آلامها، كـانت تشد بأسنانها على يديها.

وراحت صور متناقضة مؤلمة تجرها دون هدف. فطوراً كانت تخاف أن لا تكون محبوبة، وطـوراً آخر كـانت فكرة الجـريمة تعذبها، كأنما ستتعرض للرجم، غداً في ساحة فريير العامة، وفي رقبتها معلقة ورقة للناس تشرح خيانتها.

لم يكن لدى السيدة ده رينال أية تجربة في الحياة؛ ورغم أنها استيقظت تماماً وتستطيع أن تستخدم عقلها، لم تستطع أن ترى أيّ فاصل بين أن تكون مذنبة في عين الله وأن تكون مرهقة بعلامات الاحتقار القاسي التي سيشار إليها بها.

وعندما تتركها فكرة الخيانة، والمضاعفـات التي ستتبع، في رأيها، هذه الجريمة، ترتاح قليلاً، وتفكر في نعومة العيش مع جوليان، ببراءة كالسابق، ثم تأتيها فكرة مرعبة هي أن جوليان يحب امرأة أخرى.

ما زالت ترى شحوبه عندما أخذه الخوف في فقدان صورتها، أو في احراجه لو رأتها. فـاجأت للمـرة الأولى، هذا الـوجه الهادىء النبيل في أوج خوفه. لم يظهر مطلقاً بهذا الانفعال في ما يتعلق بها أو بالأولاد. وكان هذا المزيد من الألم يصل إلى أقوى ما يستطيع الإنسان أن يحتمله من تعاسة. ودون أن تدري،

أخذت في اطلاق صرخات أيقظت وصيفتها. وفجأة وجدت عند سريرها ضوءاً، ثم تعرفت إلى وجه إليزا. وصرخت في حمى جنونها:

ـ هل يحبكِ؟.

ودهشت الوصيفة من الحالة البشعة التي فاجأت فيها سيدتها، ولم تُعِر، لحسن الحظ، أي انتباه لهذه الكلمة الطريقة، وأحست السيدة ده رينال بغلطتها:

ـ إنني مصابة بالحمى، أعتقد أنه ضيق نفس. خليكِ حدّي.

بعد أن استيقظت تماماً نتيجة لتماسكها، وجدت نفسها أقل تعاسة. وعاد عقلها للعمل بعد أن أبعده نومها المضطرب. ولكي تتخلّص من نظرة وصيفتها المحدّدة، أمرتها بقراءة الجريدة. وكان صوت هذه الفتاة الرتيب، تقرأ مقالاً طويلاً من جريدة «الكوتيديان» مناسبة اتخذت فيها السيدة ده رينال قراراً حاسمًا بمعاملة جوليان ببرودة كاملة عندما تراه ثانية.

١٢
رحلة

إن في باريس أناساً أنيقين، وقد يكون في الريف أناس أذكياء.

سييس

في اليوم التالي، وقبل أن تظهر السيدة ده رينال، كان جوليان حصل منذ الساعة الخامسة، من زوجها على إجازة ثلاثة أيام. ورغم استعجاله، أحسّ جوليان بالرغبة في رؤيتها: كان يفكر في يدها الجميلة. نزل إلى الحديقة، وطال انتظاره. ولو كان جوليان يحبها، حقاً، لشاهد خلف النافذة النصف مغلقة في الطابق الأول، جبينها المتكىء على الزجاج. كانت تتطلع إليه. وأخيراً، ورغم قراراتها، اعتزمت الظهور في الحديقة. كان شحوبها زال لتحل محله ألوانها الرائعة. كانت هذه المرأة البسيطة، ولا بد، مضطربة؛ كان إحساس بالضغط بل بالغضب يشوّه تعبير الصفاء العميق الذي كان يعطي هذا الوجه السماوي كل هذا السحر، كأنما الأمر فوق كل المصالح الدنيئة في هذه الحياة.

اقترب جوليان منها بسرعة، وأُعجب بساعديها الجميلين تركهما ظاهرين شالٌ كانت وضعته بسرعة. وكان هواء الصباح المنعش يزيد في وهج لونها الذي جعله انشغالها طوال الليل أكثر

حساسية لتلقي الانطباعات. وهذا الجمال المتواضع المؤثر، جعل جوليان يكتشف في نفسه قدرة لم يشعر بها مطلقاً في حياته. ولم يفكر وهو يتطلع بعينيه المشتاقتين لهذا السحر الذي رآه، في الاستقبال الودي الذي كان ينتظره. وكانت دهشته كبيرة من هذه البرودة الجليدية أحسّ فيها إعادته إلى حجمه.

احتضرت ابتسامة اللذة على شفتيه، وتذكر الطبقة التي ينتمي إليها في المجتمع، وخصوصاً في نـظر وريثة غنيـة. وفي هذه اللحظة، لم يعد يرى في وجهه إلا معالم الكبر والغضب من نفسه. وأحس بندم كبير لأنه أخرّ رحيله أكثر من ساعة ليتلقى هذا الاستقبال المهين.

«مغفّل من يغضب من الآخرين»، قال في نفسه.

ـ الصخرة تهبط لأنها ذات ثقل. فهل سأبقى طفلاً أبداً؟ متى إذن أكوّن في نفسي عادة إعطاء هؤلاء الناس من روحي بمقدار نفوذهم؟ إذا كنت أريد أن أكون محترماً منهم، ومن نفسي، فلأثبت لهم أن فقري وغناهم في الميدان، أما قلبي فإنه على ألف فرسخ من إهاناتهم، وإنه موضوع في كرة أعلى من أن تطالها إشاراتهم الصغيرة من الاحتقار أو الاعجاب.

وبينما كانت هذه العواطف تتتالى كلها في روح المربي الشاب، أخذ وجهه المتحرك تعبير الكبرياء المتألم والقسوة. واضـطربت

لذلك السيدة ده رينال. وحل مكان البرودة المفتعلة التي اعتزمت لقاءه بها، تعبير الاهتمام، يحركه كل المفاجأة من التغير الذي شاهدته يحدث. واضمحلت من الاثنين معاً الكلمات الفارغة التي يتبادلها الناس عادة في الصباح، حول الصحة والطقس. أما جوليان، الذي لم يكن يعكّره أيّ هوى، فوجد بسرعة طريقة يعبر بها للسيدة ده رينال أنهما غير متلاقيين في طريق الصداقة. ولم يقل لها شيئاً عن رحلته الصغيرة التي سيقوم بها. وحياها وانصرف.

وفيما تتطلع إليه ذاهباً، هزّها التعالي القاتم الذي قرأته في نظرته، الصديقة بالأمس، وقال لها ولدها الأكبر وكان يركض نحوها، ويقبّلها:

ـ لدينا عطلة. ذهب السيد جوليان في رحلة.

وعند هذه الكلمة، أحست السيدة ده رينال أن برودة مميتة تأخذها. كانت تعيسة بفضيلتها، وأكثر تعاسة أيضاً بضعفها.

شغل هذا الحدث الجديد كل خيالها. وقادتها عواطفها إلى أبعد مما قررته ليلة البارحة الرهيبة التي أمضتها. لم يعد الأمر إذن، مقاومة هذا الحبيب الرقيق، بل فقدانه إلى الأبد.

كان لا بدّ من حضور الغداء. وزيادة في الايلام، لم يتحدث السيد ده رينال والسيدة درفيل إلا عن رحيل جوليان. ولاحظ

نوعاً من الإهانة في اللهجة التي طلب بها جوليان هذه الاجازة:

ـ لا شك في أن هذا الفلاح الصغير يحمل في جيبه عروضاً من أحدهم. ولكن هذا الواحد، حتى ولو كان السيد فالينو نفسه، سيجد نفسه مصاباً بخيبة أمل عندما يعلم أن المبلغ ستماية فرنك في السنة. بالأمس، في فريير، كان يطلب إجازة ثلاثة أيام. وفي هذا الصباح، لكي يتجنب هذا السيد الصغير إعطائي الجواب، يذهب للجبل. ما أتعس أن أكون في مستوى هذا العامل البائس الذي يقوم بدور المتعالي! ها هي الدرجة التي وصلنا إليها!

وقالت السيدة ده رينال في نفسها:

إذا كان زوجي، الذي يجهل كيف أهان جوليان بعمق، يفكر في أنه سوف يتركنا، فماذا أقول أنا إذن؟ آه! تقرر كل شيء!

ولكي تستطيع على الأقل أن تبكي بحرية، وتتجنب الاجابة عن اسئلة السيدة درفيل، زعمت أن بها صداعاً هائلاً اضطرها إلى السرير.

وردّد السيد ده رينال:

ـ هذه حالة السيدات. ثمة دائماً شيء مختل في هذه الآلات المعقدة. وانصرف مجعجعاً.

وبينما كانت السيدة ده رينال فريسة لأقسى آلام الهوى المرعبة دفعتها الظروف إليها، كان جوليان يتابع طريقه بمرح وسط أجمل المشاهد التي يمكن أن تقع عليها عين في هذه الجبال. كان لا بد له من اجتياز السلسلة الكبرى التي تقع شمالي فرجي. وكان الدرب الذي يتبعه يتسلق رويداً رويداً غابات البلوط الكبرى بشكل متعرج لا ينتهي على منحدر هذا الجبل العالي الذي يرسم في الشمال وادي الدّو. وسرعان ما تلامس أعين من يمر فوق الهضاب القليلة الارتفاع، التي يجري فيها الدّو نحو الوسط، سهول بورغونيا وبوجوليه الخصبة. ومهما كانت روح هذا الشاب الطموح قليلة الاحساس بهذا النوع من الجمال، لم يكن يستطيع منع نفسه من التوقف، من وقت لآخر، ليملي عينيه من مشهد واسع وأخاذ.

أخيراً وصل إلى قمة الجبل الكبير الذي كان عليه اجتيازه ليبلغ، بهذه الدرب الجانبية، الوادي الموحش الذي يسكنه فوكيه، تاجر الخشب الشاب، صديقه. ولم يكن جوليان متعجلاً لرؤيته، أو رؤية أي رجل آخر؛ كان يستطيع، وهو مختبىء كعصفور الصيد، وسط صخور عارية تكلل الجبل الكبير، رؤية أي رجل يقترب، من البعيد، نحوه. واكتشف مغارة صغيرة وسط منحدر شبه عمودي في أحد هذه الصخور. أسرع نحوها واستقر في هذا الملجأ. وقال في نفسه بعينين تلمعان من الفرح:

ـ هنا لا يستطيع البشر أن يسببوا لي أي ضرر. وفكر في أن يترك نفسه تستمتع بكتابة مشاعره، الأمر الخطير بالنسبة له في أي مكان آخر. وقام مقام الطاولة، حجر كبير مربع. وحلقّت ريشته: فلم يعد يرى شيئاً مما حوله. ولاحظ أخيراً أن الشمس تغيب خلف جبال بوجوليه البعيدة.

وقال لنفسه:

لِمَ لا أقضي الليل هنا؟ معي بعض الخبز وأنا حر! وانتشت روحه عندما سمع رنّة هذه الكلمة الكبيرة: خبثه جعله يرى أنه ليس حراً، حتى عند فوكيه. وبقي جوليان في هذه المغارة، رأسه مستند إلى يديه، أسعد منه في أي وقت مضى، تحلّق به أحلام يقظته وسعادته بحريته. ورأى كل أشعة الغروب، شعاعاً بعد آخر، تنطفىء دون أن يفكر فيها. ووسط هذه الظلمة الكبيرة، غرقت روحه في تأملٍ ما كان يتصور أنه يلاقيه في باريس. فأولاً امرأة أكثر جمالاً وذكاءً من كل من استطاع رؤيتها في الريف، وأحبها بوله، واحبته. وإذا ما كان ينفصل عنها، لحظات عدة، فإنما ليكلل بالغار والفخار لتحبه أكثر فأكثر.

ولو افترضنا أن خيالاً، كخيال جوليان، كان من طباع شاب ثري في وسط الحقائق المحزنة لمجتمع باريس، كان لا بد أن يستيقظ عند هذه اللحظة من روايته بالسخرية الباردة؛ فستختفي كل هذه الخيالات أمام وقع الحكمة المعروفة: «إذا

تركت عشيقتك، فإنك تجازف للأسف بأن تُخدع كل يوم مرتين أو ثلاثاً!» ولم يكن الفلاح الشاب يرى بينه وبين تحقق هذه الخيالات إلا فقدان الفرصة.

ولكن ليلاً حالكاً حلّ محلّ النهار، وكان على جوليان أن يجتاز مسافة فرسخين ليصل إلى حيث يعيش فوكيه. اشعل ناراً، قبل أن يترك المغارة الصغيرة، وأحرق فيها بعناية، جميع ما كتبه.

وأدهش جوليان صديقه عندما قرع الباب في الواحدة صباحاً. ووجد فوكيه منهمكاً في تدوين حساباته. وفوكيه طويل القامة، سيء التكوين، هيئته تدل على القسوة وأنفه طويل، ويختفي تحت هذا المظهر المنفرٌ كثير من الطيبة.

- اختلفت مع السيد ده رينال حتى تأتيني دون إشعار؟

وحكى له جوليان، ولكن كما يجب، أحداث العشية. فقال له فوكيه:

- إبق معي، أرى أنك تعرف العمدة والسيد فالينو ونائب المحافظ موجيرون والخوري شيلان، وفهمتَ نعومة إطباع هؤلاء الناس، وها أنت الآن في حالة يمكنك معها الدخول في المناقصات. تعرف الحساب أكثر مني، وستمسك حساباتي. أربح جيداً من تجارتي. ولكنني لا أستطيع أن أقوم بكل شيء وحدي وأخشى أن يكون شريكي الذي سآخذه رجلاً نصاباً،

وهذا يمنعني من أن ألتزم اشغالاً رائعة. لم يمض شهر واحد ربح فيه ميشو ده سان أميان، الذي لم أره منذ ست سنوات، ورأيته في سوق «بونترلييه» ربح بواسطتي، ستة آلاف فرنك، ولم لا تربح أنت هذه الآلاف الستة، أو على الأقل، آلافاً ثلاثة؟ لو كنت معي في ذلك اليوم، لزدت في هذه الأخشاب، ولتركها لي الجميع. كن شريكي.

كان هذا العرض سبباً في تهدئة جوليان، والعودة به إلى التعقل. وخلال العشاء، الذي حضَّره الصديقان كأبطال هوميروس، إذ أن فوكيه كان يعيش وحيداً، أطلعه على حساباته وأثبت له ما في تجارته من مكاسب. وكان فوكيه يعرف، أكثر من أيٍّ آخر، أهداف جوليان وطباعه.

وعندما أصبح هذا الأخير وحيداً، في غرفته الصغيرة المبنية بأخشاب الصنوبر، قال في نفسه:

ـ صحيح، أستطيع أن أكسب هنا بضعة آلاف فرنك. ثم أستأنف، بأفضلية، مهنة الجندي أو القسيس، حسب الجو الذي تكون فيه فرنسا. وستحلّ النقود القليلة التي أكون جمعتها، كل العقبات التفصيلية. وسأكون في وحدتي في هذه الجبال، فرجت عن جهلي المطبق لكثير من الأشياء التي تهمّ رجال الصالونات هؤلاء. ولكن فوكيه لن يتزوج، وهو يردد أمامي أن الوحدة

تجعله تعيساً. وإذا ما اتخذ شريكاً لا يملك مالاً يوظفه في تجارته، إنما يقوم بذلك أملاً في أن يكون له رفيقاً لا يفارقه قط.

وصرخ جوليان مفكراً:

ـ هل أخدع صديقي؟

كان خلاصه الوحيد في خبثه وفقدانه لكل عاطفة، فلم يستطع أن يتحمل هذه المرة فكرة القيام بأي حركة ولو صغيرة تجرح هذا الرجل الذي يحبه.

ولكن جوليان أحس بالسعادة فجأة: وجد سبباً وجيهاً للرفض. ماذا! أنني سأفقد، بجبن، سبع أو ثماني سنوات! وأصل إلى الثامنة والعشرين؛ ولكن بونابرت، حقق في هذه السن، أعظم أعماله! قد أفقد هذه النار المقدسة التي تدفعني لتكوين اسمي، عندما أربح بعض المال في الركض وراء بيع الأخشاب وفي استحقاق شكر بعض النصابين الصغار؟

في الصباح الباكر، رد جوليان، بهدوء أعصاب، على فوكيه الطيب، الذي اعتبر أن قضية الشراكة تمت، وقال له إن نذره للكنيسة المقدسة لا يسمح له بالقبول. ولكن فوكيه لم ييأس:

ـ فكر أنني أشركك، أو إذا أحببت، أعطيك أربعة آلاف فرنك في السنة! ومع ذلك تريد أن تعود إلى بيت السيد ده

رينال الذي يحتقرك كالوحل على حذائه! وعندما يكون لديك مئتا ليرة ذهبية، من يمنعك من دخول الدير؟ بل أكثر: سأتكفل بإعطائك أحسن ابرشية في المنطقة.

وأضاف فوكيه وهو يخفض صوته:

ـ أنا أعطي خشب التدفئة للسيد ال. . . والسيد الـ. . والسيد. . خلاصة السنديان، من الدرجة الأولى وهم يدفعون لي ثمنه كأنه خشب أبيض، لا يمكن أن يستثمر المال في أحسن من هذا.

ولكن شيئاً لم يكن يستطيع إقناع جوليان. ظنّه فوكيه مجنوناً. وفي صباح اليوم الثالث، ترك جوليان صديقه مبكراً ليقضي سحابة يومه ن صخور الجبل الكبير، ورجع إلى مغارته الصغيرة، ولكن راحة نفسه لم تعد إليه: انتزعتها منه عروض صديقه. ووجد نفسه، كهرقل، لا بين الرذيلة والفضيلة، بل بين الوضاعة التي يتبعها رخاء مضمون، وبين كل أحلام شبابه البطولية. «لا أملك إذن تصميًا حقيقياً».

وكان هذا الشك هو الذي يسبب له الألم الأكبر: «لست الطينة التي يصنع منها الرجال العظام، لأنني أخاف من سنوات ثمان، أقضيها في السعي وراء اللقمة، تنتزع مني هذه الطاقة الرائعة التي تحقّق الأشياء الخارقة.

١٣
جوارب

الرواية: مرآة نحملها معنا طوال الدرب الطويل.

سان ريال

عندما رأى جوليان أطلال كنيسة فرجي القديمة الطريفة، تنبّه إلى أنه، منذ يومين، لم يفكر مرة واحدة بالسيدة ده رينال.

ـ ذكرتني هذه المرأة، ذلك اليوم عندما رحلت، بالمسافة الشاسعة التي تفصلنا. عاملتني كإبن عامل. وأرادت أن تظهر لي ندمها على ترك يدها داخل يدي في العشية... وهذه اليد، مع ذلك، جد جميلة! أيّ سحر! وأي نبل في نظرات هذه المرأة!

كانت إمكانية تجميع ثروة مع فوكيه تعطي استنتاجات جوليان بعض السهولة، فلم يعد يعكرها كثيراً الخجل والشعور القاسي بالفقر والوضاعة في نظر الناس. لكأنه كان واقفاً على منصة عالية، يستطيع منها أن يحكم، ويسيطر، إذا صح التعبير، على فقره المدقع وبحبوحته التي لا يزال يسميها غنى. كان أبعد من أن يفكر في وضعه كفيلسوف، ولكنه كان من بعد النظر بحيث أدرك أنه «مختلف» عنه في السابق، بعد هذه الرحلة القصيرة في الجبل.

دهش للاضطراب الكبير الذي استمعت به السيدة ده رينال إلى حكاية رحلته الصغيرة، وهي طلبتها منه.

فكر فوكيه بالزواج، ومر في حب تعيس. وملأت هذه الاعترافات الطويلة حول هذا الموضوع محادثات الصديقين. وبعد أن وجد فوكيه السعاده مبكراً، اكتشف أنه ليس الوحيد. هذه الحكايات المدهشة أثارت جوليان، وتعلّم منها أشياء جديدة. وكانت حياته الوحيدة، التي صنعها الخيال والحذر، أبعدته عن كل ما يمكن أن ينيره.

في غيابه، لم تكن حياة السيدة ده رينال إلاّ سلسلة من العذابات المختلفة، وغير المحتملة. كانت فعلاً مريضة.

وعندما رأت السيدة درفيل وصول جوليان، قالت لصديقتها:

ـ عليك، في الحالة التي أنت فيها، ألاّ تذهبي للحديقة، فسيزيد الهواء الرطب في إنزعاجك.

ورأت السيدة درفيل بتعجب، أنّ صديقتها، وكان السيد ده رينال يلومها دائمًا على إهمالها في الاعتناء بزينتها، تلبس جوارب وحذاءين صغيرين ساحرين وصلت من باريس. ومنذ ثلاثة أيام، كانت تسلية السيدة ده رينال الوحيدة: خياطة ثوب صيفي، من قطعة جميلة آخر طراز، بمعونة اليزا وبأقصى سرعة. ولم يكد هذا الثوب ينتهي، بعد وصول جوليان بلحظات، حتى

لبسته السيدة ده رينال. وزالت شكوك صديقتها:

- أنها تحب، هذه التعيسة الحظ!

وفهمت عندئذ كل المظاهر الغريبة في مرضها.

رأتها تتحدث مع جوليان. ويخلف الشحوب في وجهها إحمرارها المشرق. وارتسم الظمأ في عينيها المتعلقتين بعيني المربي الشاب. وكانت السيدة ده رينال تنتظر في كل لحظة تفسيره، وإعلانه عن تركه البيت أو البقاء فيه. ولم يكن على جوليان أن يقول شيئاً في هذا الموضوع إذ لم يكن يفكر فيه. وبعد هذا الصراع القاسي، تجرأت السيدة ده رينال وقالت له، بصوت مرتجف ارتسم فيه كل غرامها:

- هل ستترك تلاميذك وتستقر في مكان آخر؟

دهش جوليان لصوتها المرتبك ولنظراتها. وقال لنفسه:

- هذه المرأة تحبني. ولكنها بعد لحظة الضعف العابرة هذه، سوف تلومها عليها كبرياؤها، وعندما لا تخشى من رحيلي ستعود إلى تعاليها.

لمعت هذه الرؤية في خاطر جوليان كالبرق الخاطف، فقال متردداً:

- سيكون شاقاً علي أن أفارق أطفالاً أحباء وطيبي المنبت،

ولكن قد يكون من الواجب أن أفعل. على المرء واجبات نحو نفسه أيضاً. وعندما لفظ كلمة: طيبي المنبت (وهي إحدى الكلمات الارستقراطية التي تعلّمها قبل وقت قصير) أحس بشعور عميق من الكراهية ينتابه.

وقال في نفسه:

ـ لستُ طيب المنبت في أنظار هذه السيدة.

وكانت السيدة ده رينال، تستمع إليه، وتعجب بذكائه وجماله، وأحست بقلبها تجرحه إمكانية رحيله التي أشار إليها.

في غياب جوليان، كان كل الأصدقاء، الذين أتوا من فريير للغداء في فرجي، يتحدثون بإعجاب عن الرجل المدهش الذي كان لزوجها حظ اكتشافه. ولم يكن هذا بسبب فهمهم لتقدم الأطفال؛ بل حفظ التوراة عن ظهر قلب، وباللاتينية أيضاً، أذهل سكان فريير إعجاباً قد يدوم قرناً كاملاً.

جوليان، الذي لم يكن يتكلم مع أحد، كان يجهل كل هذا. ولو كان لدى السيدة ده رينال بعض التعقل لكالت له هذا المديح وأشارت إلى هذه السمعة التي حاز عليها، ولأصبح، بعد أن يطمئن كبرياؤه، سلساً طيباً معها، خصوصاً وإن هذا الثوب الجديد يسحره. فالسيدة ده رينال، وهي سعيدة بثوبها وبما يقوله لها جوليان، أرادت أن تقوم بجولة في الجنينة؛ وسرعان ما

اعترفت إنها لا تستطيع أن تتمالك قواها. فاتكأت على ذراعه، وبدل أن تسترد قواها، كان احتكاكها بهذا الذراع ينتزعها منها تماماً.

وجاء الليل. ولم يكد جوليان يجلس حتى تجرأ وقرّب شفتيه من ذراع جارته الجميلة وهو واثق من نفسه، ثم أخذ يدها. كان يفكر في الجرأة التي أثبتها فوكيه مع عشيقاته. لم يكن يفكر في السيدة ده رينال، إذ كانت كلمة: «طيبي المنبت» لا تزال تثقل عليه. وضغطت اليد على يده فلم يشعر بأية لذة. كان أبعد من أن يحس بالفخر، أو على الأقل بالاعتراف بالجميل، للشعور الذي أظهرته السيدة دي رينال هذا المساء بعلامات واضحة. كان لا يحسّ بالجمال والأناقة والنعومة. ولا شكّ في أن صفاء الروح وانعدام كلّ انفعال كريه يطيل فترة الشباب. فالوجه هو الذي يشيخ أولاً عند غالبية النساء الجميلات.

كان جوليان متجهمًا طوال السهرة، متضايقاً من القدر والمجتمع؛ ولكنه منذ عرض عليه فوكيه طريقة سريعة للوصول إلى الثروة، أصبح في غضب من نفسه. كان مستغرقاً في أفكاره، رغم أنه كان من وقت لآخر، يقول بعض الكلمات إلى السيدتين. وانتهى الأمر بجوليان، دون أن يشعر، بترك يد السيدة ده رينال. وأثارت هذه الحركة اضطراب أعماق المرأة المسكينة: رأت فيها قدرها.

ولو كانت واثقة من عواطف جوليان، لكان من الممكن أن تعينها فضيلتها في التغلب عليه؛ ولكن خوفها من فقدانه إلى الأبد وهواها الجارف، أضاعاها حتى أمسكت من جديد يد جوليان التي تركها، في تفكيره، مستندة إلى ظهر كرسي. وأفاقت هذه الحركة الشاب الطموح:

كان يريد أن يشهد كل هؤلاء النبلاء الفخورين يتطلعون إليه وهو يدرّس الأطفال، والضحكة على أفواههم. فقال في نفسه:

ـ هذه المرأة لا يمكن أن تحتقرني. وفي هذه الحالة، علي أن أحس بجمالها. علي أن أكون عشيقها. ولم تكن فكرة كهذه لتخطر في ذهنه قبل الاعترافات الجريئة التي قام بها صديقه.

قراره المفاجىء الذي اتخذه، سبّب له شعوراً بالرضى. كان يقول في نفسه:

ـ يجب أن أحصل على إحدى هاتين المرأتين. وعرف أنه كان يفضّل أن يقوم بمغازلة السيدة درفيل؛ ليس لأنها أجمل من صديقتها، بل لأنها عرفته دائمًا، المربي الذي يُحترم لعلمه، وليس عاملاً نجاراً يحمل سترة من الكتان مطوية تحت أبطه، كما ظهر أمام السيدة ده رينال.

كان هذا المشهد بالضبط، مشهد فلاح شاب، يحمرّ حتى بياض عينيه من الخجل، واقف على باب البيت لا يتجرأ على

قرع الجرس، هو الذي بدا للسيدة ده رينال مليئاً بأكثر ما يمكن من السحر.

وفي متابعةٍ لاستعراض وضعه، رأى ألّا يفكر في غزوة السيدة درفيل التي تلاحظ، ولا شك، الاعجاب الذي تكنّه السيدة ده رينال له. وقال في نفسه وهو يرى أنه مضطر للرجوع إليها:

ـ ماذا أعرف من أطباع هذه المرأة؟ لا شيء سوى أنها، قبل رحلتي، كانت تسحب يدها من يدي عندما أمسكها، والآن تمسك بيدي وتضغط عليها عندما أفلت يدها. مناسبة رائعة لأرد لها كل الأحتقار الذي أحسّته نحوي. الله يعلم كم كان لديها من العشاق! قد لا تكون اتخذت قرارها إلا لتسهيل المقابلات.

وهذه هي للأسف تعاسة الحضارة الزائدة! ففي العشرين، تكون نفس الشاب، إذا تربى قليلاً، على ألف فرسخ من الاستقرار الذي، بدونه، يصبح الحب أكثر الواجبات خلقاً للضجر.

وتابعت كبرياء جوليان الصغيرة تخاطبه:

ـ يجب أن أنجح مع هذه المرأة، حتى إذا كوّنتُ ثروة وانتقدني أحدهم على وظيفة المربي الوضيعة، أقول إن الحب هو الذي أوردني هذا المورد.

أبعد جوليان، من جديد، يده عن يد السيدة ده رينال، ثم

عاد فأخذها وشدّ عليها. وعند دخولهم الصالة، نحو منتصف الليل، قالت له بصوت خفيض:

ـ ستتركنا؟ سترحل؟

وتنهد جوليان وهو يجيب:

ـ يجب أن أرحل، لأنني أحبك بقوة. إنها غلطة... وأية غلطة بالنسبة لقسيس شاب.

فاتكأت السيدة ده رينال على ذراعه وتركت نفسها بين يديه لدرجة أحس خدها بحرارة خد جوليان.

وراحت ليالي هذين المخلوقين تختلف تماماً. السيدة ده رينال منتشية بأحساسها باللذة المعنوية السامية. والفتاة الصغيرة التي تحبّ باكراً تتعوّد على اضطراب الحب؛ وعندما تصبح في سن الهوى الحقيقي، لا تحس بسحره الجديد. ولما لم تكن السيدة ده رينال من قرّاء الروايات، كل إحساساتها بالسعادة كانت جديدة. ولم تعكر صفو هنائها أية حقيقة حزينة، حتى ولا ظلّ من ظلال المستقبل. كانت ترى أنها ستكون سعيدة بعد عشر سنوات، السعادة نفسها التي تحس بها في هذه اللحظة. وفكرتا الفضيلة نفسها والاخلاص اللتان أرقتا السيدة ده رينال في الأيام القليلة السابقة كانتا تبعدان كضيفين غير مرغوب بهما. وقالت السيدة ده رينال لنفسها:

ـ لن أمنح أي شيء لجوليان. سنعيش في المستقبل كما نحن نعيش منذ شهر. سيكون لي صديقاً وحسب.

١٤
المقصّ الانكليزي

فتاة في السادسة عشرة، موردة الخدين،
تضع أحمر الشفاه.

بوليدوري

انتزع عرض فوكيه من جوليان كل سعاده، إذ لم يكن يستطيع أن يقر على قرار:

ـ يا للأسف! ترى هل ينقصني الحزم. كنت ولا شك أكون جندياً سيئاً عند نابليون.

وأضاف: أو على الأقل، ستسلّيني مغامرتي الصغيرة مع سيدة المنزل بعض الوقت.

ولحسن حظه، كانت أعماق روحه تتماشى بصعوبة مع لهجته الفروسية التي يخاطب بها نفسه داخلياً. خاف من السيدة دو رينال بسبب ثوبها الجميل. كان هذا الثوب في نظره طليعة

باريس. ولم ترد كبرياؤه أن تترك شيئاً للصدفة ولايحاء اللحظة. رسم لنفسه مخططاً مفصلاً للمعركة، استناداً لما سمعه من فوكيه والقليل الذي قرأه عن الحب في توراته. ولما كان جد مضطرب، دون أن يعترف بذلك، وضع المخطط خطياً.

صباح اليوم التالي وُجدت السيدة ده رينال وحيدة معه للحظة، فقالت له:

ـ أليس لك اسم آخر غير جوليان؟

افتقد جواباً عن هذا السؤال المليء بالمديح. فهذه الحادثة لم تكن واردة في مخططه. ولولا هذه الحماقة في كتابة المخطط لأسعفته بداهة فكره، ولما زادته المفاجأة إلاّ حيوية في نظراته.

كان مضطرباً بل متطرفاً في اضطرابه. ولكن السيدة ده رينال غفرته له. رأت في ذلك تأثيرَ خفر ساحر. ما ينقص هذا الرجل، الممتلىء ذكاء، في نظرها، كان طابع الخفر.

وكانت السيدة درفيل تقول لها في بعض الأحيان:

ـ مربيك الصغير لا يوحي لي بالثقة على الاطلاق. المح عليه دائمًا هيئة الذي يفكر دائمًا، ولا يتصرف إلا بسياسة. إنه كتوم.

وظلّ جوليان يحسّ بالحقارة القاسية لأنه لم يعرف كيف يرد على السيدة ده رينال.

على رجل مثلي أن يصلح هذا الفشل. وظن مناسباً أن يقبّلها فيما كان يمر من غرفة لأخرى.

ولم يكن أقل دراية ولذة من هذا الأمر الذي كان بالنسبة إليها عملاً طائشاً. وكاد أمرهما ينفضح، وظنت السيدة ده رينال أنه مجنون. خافت بل صُدِمَت من هذه البادرة. وذكّرتها هذه الحماقة بالسيد فالينو فقالت لنفسها:

- ماذا يحدث لي إذن لو كنت وحيدة معه؟ وعادت إليها فضيلتها، بعد أن تراجع الحب. وتدبرت أمرها بطريقة جعلت احد أولادها يبقى دائماً إلى جانبها.

كان النهار مضجراً بالنسبة لجوليان: قضاه كله في تنفيذٍ مضطربٍ لمخططه في إغرائها. ولم يتطلع مرة إلى السيدة ده رينال، إلا ولاحظ في نظراتها ما يدل على أنها تطلب تفسيراً لما قام به. ولكنه لم ير أنه يفشل في أن يكون محبوباً، وبدرجة أقل، ساحراً.

ولم تزُل دهشة السيدة ده رينال إذ رأته مضطرباً، وفي الوقت نفسه جريئاً. وقالت لنفسها:

- إنه خجل الحب عند الرجل المفكر!

واضافت بفرح كبير:

ـ من الممكن أنه لم يكن محبوباً من غريمتي!

بعد الغداء، دخلت السيدة ده رينال الصالة لتستقبل السيد شاركو ده موجيرون نائب محافظ بـراي، وهو أتى في زيـارة. وكانت تشغل يديها بنوع من اشغال الابـرة، والسيدة درفيـل بجانبها. ووجد جوليان أنه من المناسب أن يقرّب رجله، في وضع كهذا وفي وضح النهار، ويضغط على قدمها الجميلة التي كانت ولا شك تلفت أنظار نائب المحافظ بجوارها وحذائهـا الجميل الباريسي.

انتاب السيدة ده رينال خوف طاغ، فأوقعت مقصها وخيوط الصوف والابر بشكل تظهر فيه حركة جوليان كمحاولة فاشلة كانت تهدف إلى منع سقوط المقص وهو رآه يوشك أن يقع.

ـ رأيتَ سقوط المقص قبلي وكان عليك أن تمنعه، بدلاً من اريحيتك التي لم تنجح إلا في إعطائي ضربة قوية برجلك.

خـدع ذلك نـائب العمـدة، ولكن ليس السيـدة درفيـل. وفكرت:

ـ هذا الفتى الجميل له تصرفات حمقاء! وليس من الممكن أن تغفر له عاصمة الريف هذه الغلطة. ووجدت السيدة ده رينال الفرصة لتقول له:

ـ كن عاقلاً. آمرك.

ولاحظ جوليان سوء تصرفه. وفكر كثيراً إذا كان عليه أن يغضب من هذه الكلمة: آمرك.

وكان جد مغفل فاتجه تفكيره نحو كونها كانت تستطيع القول أنها «تأمر بهذا» لو كان الأمر يتعلق بتربية الأطفال، ولكنها، كردّ على حبه، تفترض المساواة. فالحب غير ممكن دون مساواة. وضاع فكره في البحث عن نظريات مشتركة حول المساواة. وكان يردد لنفسه بغضب إحد أبيات «كورناي» قالته له السيدة درفيل قبل أيام:

.... الحب
يخلق المساواة ولا يفتش عنها

واستمر جوليان في إصراره على القيام بدور دون جوان، هو الذي لم تكن له يوماً عشيقة، وكان على أشد ما يكون من البلاهة طوال اليوم. ولم يفكر بروية إلا عندما أحس بالخوف من السهرة حين سيجلس حدّ السيدة ده رينال في الظلام. وكان جد متضايق من نفسه ومنها. فقال للسيد ده رينال أنه سيذهب ليرى الخوري. وذهب بعد الغداء ولم يرجع إلا بعد حلول الظلام.

في فريير، وجد جوليان الخوري شيلان مشغولاً في الانتقال. انتهى الأمر بتجريده، وحل مكانه المبعوث ماسلون. وساعد جوليان الخوري الطيّب. ثم خطرت على باله فكرة الكتابة إلى

فوكيه، يخبره أن النذر الذي كان يشعر به للكنيسة المقدسة كان منعه من قبول عروضه المغرية في السابق، ولكنه الآن، بعد أن رأى هذا الحدث الظالم الذي حدث أمامه، يظن أنه قد يكون من الأفضل لخلاصه، ألّا يدخل في هذا السلك المقدس.

وسرّ جوليان لاستخلاصه هذا الدرس من تجريد خوري فريير، واقتحام باب التجارة، لو أنتصر في ذهنه التعقل الحزين على البطولة.

١٥

صياح الديك

لو كان لدى جوليان بعض المهارة التي كان يدّعيها فيه، لسرّ، في اليوم التالي، من الأثر الذي خلفته رحلته إلى فريير بالأمس: غيابُه محا سوء تصرفه. ولكنه كان اليوم كذلك جد متجهم. وعند المساء، أتته فكرة مضحكة فنقلها للسيدة ده رينال بغرابة نادرة.

لم يكد يجلس في الحديقة، ودون أن ينتظر ظلمة كافية، حتى قرّب فمه من أذن السيدة ده رينال، وجازف بمضايقتها إلى أبعد حد وهو يقول:

- سأذهب إلى غرفتك، سيدتي، في الثانية من هذه الليلة. لا

بد أن أقول لك شيئاً مهمّا.

كان جوليان يرتجف خوفاً من رفض طلبه. دور الاغراء الذي يقوم به يثقل عليه تماماً. ولو اتبع ميوله لانسحب إلى غرفته عدة أيام، ولما رأى هاتين السيدتين. وكان يعرف أنه، بتصرفه الرائع أمس، أفسد كل المظاهر الجميلة في اليوم السابق، وإنه لا يعرف حقاً ما يريد.

ردّت السيدة ده رينال باشمئزاز حقيقي غير مبالغ فيه، على التصريح المغرور الذي تجرأ جوليان وخاطبها به. وأحسّ الاحتقار في جوابها القصير، وكان متأكداً أن كلمة «هكذا إذن!» وردت في جوابها. وذهب جوليان بحجة أن يقول شيئاً للأولاد، ثم عاد وجلس حدّ السيدة درفيل، بعيداً عن السيدة ده رينال. وهكذا انتزع من نفسه كل إمكانية في أخذ يدها. وكان الحديث رزيناً، وتدّبر جوليان أمره بلباقة، لولا بعض لحظات الصمت التي كان يحكّ فيها ذهنه:

ـ ليتني استطيع اختراع بعض المغامرات الجميلة لاجبر السيدة ده رينال على أن تظهر لي علامات الحنان الصريحة التي تركتني اعتقد منذ ثلاثة أيام، أنها لي!

كان جوليان خائباً في الحالة اليائسة، التي أوصل إليها أموره. ولكنه كان سيضطرب أكثر لو حالفه النجاح.

وعندما تم الفراق في منتصف الليل، كان تشاؤمه يدفعه للاعتقاد أنه مواجه باحتقار السيدة درفيل، وإن حالته لم تكن أحسن مع السيدة ده رينال.

وفي غمرة مزاجه السيء والغضاضة التي يحس بها، لم ينم جوليان مطلقاً. كان أبعد ما يكون عن التخلي عن محاولاته ومشاريعه والاكتفاء بالعيش يوماً بعد يوم مع السيدة ده رينال، قانعاً، كالطفل، بالسعادة التي يأتي بها النهار.

وكان يتعب دماغه في اختراع المناورات اللبقة، ثم يجدها، بعد لحظة واحدة، سخيفة؛ كان، بكلمة واحدة، جد تعيس عندما دقت ساعة القصر الثانية فجراً.

ايقظه هذا الصوت، كما صياح الديك القديس بطرس. ووجد نفسه في لحظة من أعسر اللحظات. لم يعد يفكر في اقتراحه الغريب منذ اللحظة التي قام به؛ ولا في الكيفية التي استقبل بها!

قال لنفسه وهو ينهض:

ـ قلت لها أنني سآتي إليها في الثانية. قد أكون قليل الخبرة، عديم الذوق، كما يكون ابن الفلاح، وكما لمحت لي السيدة درفيل عدة مرات. ولكنني، على الأقل، لن أكون ضعيفاً.

كان جوليان على حق في سروره من شجاعته، فهو لم يفرض

على نفسه قبلاً، ضغطاً شاقاً كهذا. وعندما فتح باب غرفته، كان يرتجف حتى أحس أن رجليه لا تستطيعان حمله، فاضطر للاستناد إلى الحائط.

كان حافياً؛ وذهب إلى باب غرفة السيدة ده رينال وسمع صوت شخيره. فأحس بالأسف، إذ لم يعد لديه من حجة لكي لا يذهب إليها. ولكن يا الله! ماذا سأفعل هناك؟ لم يكن لديه أي تصميم، بل حتى لو لديه، كان مضطرباً لدرجة تمنعه من أن يقوم بتنفيذ أي شيء.

اخيراً دخل الممشى الذي يقود إلى غرفة السيدة ده رينال، وهو يحس أنه يتألم أكثر مما لو كان يمشي نحو الموت؛ وفتح، بيد مرتجفة، بابها الذي أطلق صريراً مخيفاً.

كان فيها بعض الضوء: مصباح ليلي يشتعل تحت المدفأة. لم يكن ينتظر هذه المفاجأة. وعندما رأته السيدة دة رينال داخلاً، قفزت بسرعة خارج سريرها، وهي تقول:

ـ أيها التعيس!

قامت بعض الفوضى.

نسي جوليان مشاريعه الجزافية، وعاد إلى دوره الطبيعي؛ كانت أقسى تعاسة عليه ألا يعجب امرأة جد ساحرة. فلم يرد

على لومها إلا بأن أكب على أقدامها مقبلاً ركبتيها. ولما كانت تكلمه بقسوة شديدة، ذاب في البكاء.

بعد ساعات، عندما خرج من غرفة السيدة ده رينال، كان نال كل ما يتمناه. فهو مدين فعلاً بانتصاره، إلى الحب الذي أوحى به وإلى المشاعر اللامتـوقعة التي أحس بهـا من السحر الرائع، وليس إلى مهارته العرجاء التي مـا كانت لتقـوده إلى شيء.

ولكنه، وسط اللحظات الهانئة الرائعة، بقي ضحية لكبريائه الغريبة: كان يصر على تمثيل دور الرجل المعـتاد على فـراش النساء: قام بمجهودات خرقاء أفسدت ما كان يجب أن يحس به من لذة. وبدلاً من أن ينتبه إلى الملذات التي يخلفها، والتأنيب الذي يظهر روعتها، كانت فكرة «الواجب» تتماثل أمام ناظريه. كان يخاف من تأنيب بشع وأبدية مضحكة، لو ابتعد عن المثل الأعلى الذي فرض على نفسه اتباعه. وبكلمة كان ما يجعل من جوليان مخلوقاً فوق البشر، ما بالضبط يمنعه من تذوق السعادة التي أتت إليه. كان كفتاة السادسة عشرة، المورّدة التي ترتكب حماقة وضع الأحمر، وهي ذاهبة إلى الحفلة.

خافت السيدة ده رينال، حتى الموت، من ظهور جوليان، ولكنها سرعان ما أمست فريسة لأقسى الآلام: كان بكاؤه ويأسه يثيران اضطرابها القوي.

وحتى عندما لم يعد عندها ما تمنعه عنه، أبعدته عنها باشمئزاز حقيقي، ثم ارتمت بين يديه. لم يكن في حركاتها أي دليل على أي تصميم. كانت تظن نفسها حكمت بالشقاء الابدي دون أي أمل بالطهارة، وكانت تريد أن تخفي مشهد الجحيم بمنح جوليان أقصى آيات الحنان. ولم يوقف ذهاب جوليان، الآلام التي كانت تعانيها، رغم إرادتها، والصراع مع تأنيب الضمير الذي كان يمزقها.

وكانت أولى أفكار جوليان، عندما دخل إلى غرفته:

ـ يا إلهي، هل هذا أن يكون الإنسان سعيداً ومحبوباً؟ كان في تلك الحالة من الاندهاش والاضطراب الحزين الذي يقع فيها المرء من ما ينال ما تمناه طويلاً. كان معتاداً أن يتمنى، وهو الآن لا يجد شيئاً يتمناه، ومع ذلك فإنه لم يكوّن بعد مادة الذكريات. وانشغل جوليان، كالجندي الذي يعود من الاستعراض، في استعادة كل تفاصيل تحركاته بانتباه:

ـ ترى هل قصرت في شيء مما يجب أن أقوم به مع نفسي؟ هل قمت بدوري كما يجب؟

وأي دور؟ دور رجل اعتاد أن يكون لامعاً في علاقاته مع النساء.

١٦
اليوم التالي

وأدار شفته لشفتها، وارجع بيده إلى الوراء
خصلات شعرها الجميلة المتشابكة.
دون جوان

نَعِمَ انتصار جوليان، بأنّ السيدة ده رينال كانت مضطربة جداً ومندهشة جداً فلم تتنبّه إلى حماقة الرجل الذي، في لحظة معينة، صار كل الدنيا بالنسبة إليها.

وعندما رأت انبثاق النهار دفعته للذهاب:

ـ أوه! يا إلهي، لو سمع زوجي أيّ صوت، قضي عليّ.

وردّ جوليان، وكان يملك الوقت ليقول بعض الجمل، وهو يتذكر هذه الجملة:

ـ آه! كثيراً في هذه اللحظة! ولكنني لن أندم لأنني عرفتك.

ووجد جوليان كرامته تفرض عليه أن يعود في وضح النهار، وبدون تبصّر. وكان الانتباه الدائم الذي يدرس به كل حركاته، والفكرة المجنونة في الظهور كرجل ذي خبرة اعطياه حسنة واحدة: كان رصيناً عندما رأى السيدة ده رينال عند الغداء.

وبالنسبة لها، كانت لا تستطيع أن تتطلع إليه دون أن تحمرّ

حتى بياض عينيها، ولكنها لم تكن تستطيع لحظة دون أن تتطلع إليه. وانتبهت إلى اضطرابها، ولكن جهودهـا لاخفائـه كانت تضاعفه. ولم يرفع جوليان نظرة إليها إلا مرة واحدة. وقبلت السيدة ده رينال في أول الأمر تصرفه الحذر. ولكن سرعان ما استغاثت عندما رأت هذه النظرة لم تتكرر:

ترى ألم يعد يحبني، يا للأسف، إنني كبيرة بالنسبة إليه. أكبره بعشر سنوات.

وعند مرورهما من غرفة الطعام للجنينة، شدّت على يده.

في دهشة جوليان من هذه الحركة النادرة في التعبير عن حبها له، تطلع إليها بـوله: رآها جميلة ساعة الغداء، وبينها كـان يخفض عينيه، كان يتذكر تفاصيلها الساحرة. وعزّت هذه النظرة السيدة ده رينال لكنها لم تزل كل مخاوفها التي أبعدت عنها تماماً تأنيب الضمير نحو زوجها.

لم يلاحظ زوجها عند الغداء أيّ شيء، ولا السيدة درفيل التي ظنت أن السيدة ده رينال على وشك الوقوع في التجربة. وطوال النهار، كانت صداقتهـا الشجاعـة والمخلصة، تـدفعها للتلفظ ببعض التلميحات التي تهدف إلى تصوير الخطر الذي تتعرض له السيدة ده رينال بأبشع المظاهر.

كانت السيدة ده رينال تتحرّق للانفراد بجوليان كي تسأله عما

أذا كان لا يزال يحبها. وأوشكت، رغم نعومتها التي لا تجارى، أن تُسمع صديقتها بأن وجودها معهما غير مناسب.

عند المساء في الجنينة، تدبرت السيدة درفيل أمرها جيداً فجلست بين جوليان والسيدة ده رينال التي تصورت اللذة العارمة عند لمس يد جوليان وحملها إلى شفتيها، لكنها لم تستطع أن تقول له شيئاً.

وزادت هذه المناسبة في اضطرابها: كان الندم يفترسها. وبخت جوليان كثيراً على حماقة زيارته لها في الليلة الفائتة، وخافت أن يأتي هذه الليلة أيضاً. فتركت الجنينة في ساعة مبكرة، واستقرّت في غرفتها. ولكنها لم تستطع الصبر، فقامت ووضعت أذنها على باب غرفة جوليان. ولم تتجرأ على الدخول، رغم الشك، والهوى الذي يفترسها. وأحست أنها بهذه الحركة تصل إلى أسفل درك من الدناءة.

واضطرها الحذر أخيراً إلى العودة إلى غرفتها، فلم يكن جميع الخدم ناموا بعد. وانتظرت ساعتين كاملتين كأنها انتظرت دهرين من العذاب.

لكن جوليان كان جد مخلص، لما كان يسميه واجبه، فلا يخلف في تنفيذ ما رسمه لنفسه بنداً بنداً: عندما دقت الساعة الواحدة، ترك غرفته بهدوء، واطمأن إلى أن سيد البيت في

سبات عميق، وظهر في غرفة السيدة ده رينال. ليلتها، أحس أكثر من الأمس، بالسعادة قرب صديقته، لأنه كان قليل التفكير في الدور الذي يقوم به. كانت له عينان ليرى، وأذنان ليسمع. وكان ما قالته السيدة ده رينال عن عمره يزيد في اطمئنانه. رددت له مرات عديدة، دون أن يكون في صوتها أي تعبير عن شيء سوى فزعها من فقدانه:

أكبرك بعشر سنوات، فكيف تستطيع أن تحبني؟

لم يكن جوليان يفهم هذا النوع من التعاسة، ولكنه رأى أنها حقيقية، فنسي تقريباً كل خوفه من أن يكون مضحكاً.

وزالت الفكرة الحمقاء التي كانت تراوده أحياناً: أن تنظر إليه كعشيق خادم، نتيجة لنشأته المتواضعة. وعاد إليها قليل من السعادة والقدرة في الحكم على عشيقها، بعد أن اطمأنت إلى كلمات جوليان. ولحسن الحظ، لم يكن لديها تلك الليلة، هذا الطابع الذي جعل من موعد الأمس، انتصاراً في عين جوليان، وليس لذة. فهي لو عرفت انشغاله في لعب دور معين، لانتزع منها هذا الاكتشاف الحزين كل سعادتها. لكنها لم تستطع أن ترى إلا تأثيراً حزيناً لفرق السن بينهما.

ورغم أنّ السيدة ده رينال لم تفكّر مطلقاً بنظريات الحب، كان فارق السن، بالاضافة إلى فرق الثروة، القاسم المشترك

لسخريات أهل الريف، عندما يدور الحديث عن الحب.

وبعد أيام قليلة استسلم جوليان لكل نزعات سنّه وأصبح يعشقها بجنون. يجب الاعتراف، قال في نفسه، أنّ لها طيبة قلب ملائكية ولا يمكن أن تقع عين على أجمل منها.

نسي تماماً فكرة تمثيل أي دور. بل، في بعض لحظات الضعف، كان يعترف لها بأحزانه وهمومه. وزادت هذه الاعترافات الغرام الذي يوحي به، اشتعالاً. فكانت السيدة ده رينال تقول، بلذة:

ـ لم تكن لي إذن أية غريمة سعيدة!

وتجرأت فسألته عن الصورة التي كان جوليان يبدي حولها هذا الاهتمام، فأقسم لها أنها صورة رجل.

وعندما كان يتبقى للسيدة ده رينال شيء من التعقل لتفكّر، كانت لا تعود عن دهشتها من التفكير في هذه السعادة التي كانت دائمًا تشكّ بوجودها.

ـ آه! ليتني عرفت جوليان قبل عشر سنوات، عندما كان يصح أن أسمى جميلة!

لكن جوليان جد بعيد عن هذه الأفكار. كان حبه، أيضاً، نوعاً من الطموح. إنه لذّة الاستيلاء، وهو الفلاح التعيس

الحقير، على امرأة بهذا النبل وهذا الجمال. وكانت حـركات التدله، والكلمات التي يتلفظ بها عندما يرى جمالات صديقته، طمأنت هذه الأخيرة قليلاً في ما يتعلق باختلاف السن. ولكنها لو كان لديها بعض حب الحياة الذي تتمتع به منذ وقت طويل امرأة الثلاثين، لارتجفت من هذا الحب الذي يعيش، كما يظهر، من المفاجآت وسحر حب الذات.

وكان جوليان، في لحظات النسيان التي كانت تنتابه، يعجب إلى آخر حد بكل ما عند السيدة ده رينال، حتى أثوابها. ولم يكن يستطيع الاستغناء عن لذة الشعور برائحتها؛ فكان يفتح خزانتها الزجاجية ويبقى ساعات بكاملها، معجباً بجمال وترتيب كل ما يجده فيها. أما عشيقته فكانت تحدّق به مستندة إليه، بينما يتطلع هو إلى هذه الحلي والأثواب تملأ، عشية الزواج، صندوق العرس.

وكانت السيدة ده رينال تقول في نفسها أحياناً:

ـ كنت أستطيع الزواج من رجل كهذا! أية روح من نار! أية حياة ساحرة أحياها معه!

أما جوليان، فلم يكن وجد نفسه سابقاً في مواجهة آلات مخيفة من الأسلحة النسائية. كان يقول لنفسه:

ـ ليس من الممكن أن يكون لدى نساء باريس أبهى وأجمل!

وعندئذ لم يكن يعكر صفو سعادته شيء. وكان الاعجاب الصادق، والتعبيرات التي تتلفظ بها عشيقته، غالباً ما تنسيه نظريته السخيفة السالفة التي جعلته مضحكاً وعصبياً في بدء العلاقة. ومرت لحظات كان يجد فيها سروراً لا يوصف، رغم أنانيته المتعالية، في أن يعترف لهذا القلب الكبير بجهله الكثير من الأصول. كانت طبقة عشيقته ترفعه فوق نفسه. والسيدة ده رينال كانت تجد، من وجهتها، أنعم وأحلى الملذات الروحية في إطلاع هذا الشاب المليء بالعبقرية، الذي كان عليه أن يقوم، في نظر الجميع، بأعمال جد مهمة؛ ولم يستطع حتى نائب المحافظ والسيد فالينو إلا أن يعجباً به. أما السيدة درفيل فكانت أبعد من أن تحسّ الإحساس نفسه. بعد أن يئست مما ظنت أنها اكتشفته، وبعد أن رأت أن النصائح لم تعد مجدية مع امرأة «فقدت عقلها» كما كانت تقول، تركت فرجي دون أبداء أي سبب، فتحفظ الجميع ولم يسألوها عنه. وذرفت السيدة ده رينال، على انفراد، بعض الدموع ثم سرعان ما بانت لها سعادتها مضاعفة: أصبحت على انفراد شبه دائم مع جوليان.

وغرق جوليان في مجتمع صديقته الناعم حتى كان عرض فوكيه يعود إليه فيثيره عندما يبقى طويلاً على انفراد مع نفسه. وفي الأيام الأولى من هذه الحياة الجديدة، وجد، هو الذي لم يحب أحداً، ولم يكن محبوباً من أحد في حياته، لذة ناعمة في

العيش باخلاص لدرجة أوشك معها على الاعتراف للسيدة ده رينال بالطموح الذي كان حتى الآن جوهر وجوده بالذات. كان يريد استشارتها في الاغراء الغريب الذي يثيره فيه اقتراح فوكيه، ولكن حدثاً صغيراً حال دون أية صراحة من ذلك.

١٧
المعاون الأول

اوه، لكم يشابه ربيع الحب هذا، مجداً مضطرباً في يوم من أيام نيسان الذي يرى الآن كل جمال الشمس تأخذه الغيمات تترى تباعاً.

رجلان من فيرونا

في إحدى الأمسيات، عند غياب الشمس، كان يحلم عميقاً وهو جالس حذ صديقته، في آخر المرعى، بعيداً عن المتطفلين. وفكر: ترى هل تدوم هذه اللحظات الهانئة إلى الأبد؟ كان فكره مشغولاً بالصعوبة في اتخاذ حالة ما؛ كان يندب هذا المزيد من التعاسة التي ينهي مرحلة الطفولة ويعكر السنوات الأولى من شباب المعوزين.

وصرخ جوليان قائلاً:

ـ آه! كان نابليـون، ولا شك، الـرجل الـذي أرسله الله للشبيبة الفرنسية! فمن ذا الذي سيحل مكانه؟ ماذا يفعل بدونه التعساء، حتى ولو كانوا أغنى مني، ويملكون الليرات القليلة التي تكفيهم ليحصلوا على تربية جيدة، ولكنهم لا يملكون كفاية من الماء لشراء رجل في العشرين والانطلاق في تكوين مستقبـل! واضاف وهو يتنهد بعمق: ومهما نفعل، هذه الذكرى ستمنعنا من أن نكون سعداء!

ورأى جـوليان فجـأة السيدة ده رينـال تقطب حـواجبها، وأصبحت هيئتها تدل على البرودة والاشمئزاز: كان يخيل إليها أن هذه الطريقة في التفكير تليق بأحد الخدم. ولما كانت نشأت في كنف بيت غني، كان يخيل إليها أن جوليان أيضاً في غناها. كانت تحبه ألف مرة أكثر من الحياة ولم تكن تعير أدنى اهتمام لمسألة الغنى.

وكان جوليان أبعد من أن يدرك ما يدور في ذهنها: عاد إلى واقعه عندما رأى تقطيب حواجبها. وكان لديه كفاية من سرعة البديهة ليصلح جملته ويقول للسيدة النبيلة التي كانت تجلس حدّه على بساط العشب الأخضر، إن الجمل التي انتهى من ترديدها، كان سمعها عند زيارته لصديقه تاجر الاخشاب. وكـان هذا منطق المبتذلين.

فردت السيدة ده رينال وهي تحتفظ بنوع من تلك الهيئة

الجامدة التي خلفت فجأة أحلى تعبيرات الحنان الرائق:

ـ لا تعد للاختلاط بهؤلاء الناس.

كان تقطيب الحواجب هذا، أو بالأحرى هذا التأنيب الذي تلقّاه نتيجة لاستغراقه في أحلامه، أول فشل يمنى به جوليان. قال في نفسه:

ـ طيبة ولطيفة. تحبني جداً، ولكنها ربيت في معسكر العدو، حيث يشعر الجميع بالخوف، من طبقة رجال القلب هؤلاء، الذين يتلقون تربية جيدة، ولا يملكون كفاية من المال ليدخلوا الحياة. ترى ماذا يحل بهؤلاء النبلاء لو استطعنا أن نحاربهم بأسلحة متكافئة! لو كنت أنا مثلاً، عمدة فريير، وقمت بنية طيّبة ومسلك شريف كما حال السيد ده رينال في أعماله! كنت أنتزع المبعوث ماسلون والسيد فالينو وكل كذبهم! كانت العدالة تعمّ فريير! ليست مواهبهم تشكل العقبة أمامي! أنهم يتخبطون دون انقطاع.

وكادت سعادة جوليان في هذا اليوم تصبح دائمة. ولكن كان ينقصه الشجاعة في الاخلاص. كان ينبغي التحلي بشجاعة إعلان المعركة، ولكن على التو؛ وأصابت الدهشة السيدة ده رينال أثر كلمة جوليان، لأن رجال مجتمعها كانوا يرددون أن رجوع روبسبير كان ممكناً بسبب شباب تلك الطبقات الدنيا من

المثقفين. وبقيت هيئة السيدة ده رينال باردة لفترة طويلة وخيل لجوليان إنها ذات دلالة كبرى. ذلك لأن خوفها من أن تكون قالت له، بطريقة غير مباشرة، شيئاً مزعجاً، حلّ مكان نفورها من كلماته السيئة. فانعكست هذه التعاسة بقوة في ملامحها الصافية الساذجة التي كانت لها في سعادتها، بعيدة عن المزعجين.

لم يعد جوليان يتجرأ على أن يحلم بحرّية؛ وفكّر، وهو أكثر هدوءاً وأقل عاطفة، إنه كان متسرعاً غير عاقل عندما ذهب لرؤية السيدة ده رينال في غرفتها، وكان من الأفضل لو أتت هي إليه. إذا رآها أحد الخدم تركض في المنزل، فإن عشرين سبباً معقولاً يفسر هذا التصرف.

ولكن هذا الترتيب له أيضاً مساوئه. كان جوليان تلقى من فوكيه كتباً، لم يكن ليستطيع، بصفته طالب لاهوت، أن يطلبها من أي صاحب مكتبة. لم يكن يجرؤ على القراءة فيها إلا ليلاً. وغالباً ما كان يحس بالراحة عندما لا يقاطعه أحد بزيارة كان انتظارها يمنعه من القراءة.

وهو مدين للسيدة ده رينال في تفهّمه للكتب بطريقة جديدة. تجرأ وسألها جملة اسئلة عن أشياء صغيرة، كان جهله بها يوقف مجرى تفكير شاب خلق بعيداً عن المجتمع، مهما كانت العبقرية التي تفترض فيه.

وتربية الحب هذه، قامت بها امرأة جاهلة، كانت سعادة له. وتوصل جوليان مباشرة إلى رؤية المجتمع كما هو في الوقت الذي يعيش فيه. ولم يعد ذهنه مغلقاً على قصة ما كان المجتمع في السابق، منذ الفي سنة أو منذ ستين سنة فقط أيام فولتير ولويس الخامس عشر. وسرّ لسقوط هذه الغشاوة عن عينيه، إذ فهم أخيراً ما كان يحدث في فريير.

وظهرت أمام محافظ بزانسون، منذ سنتين، محاولات معقدة واعتبرت مهمة بالنسبة للجميع. وكانت هذه المحاولات مسندة بعدة رسائل من باريس، كتبها أكبر رجالات البلاد. كان الأمر يتعلق بتعيين السيد ده موارو ـ أكثر رجال المنطقة تديناً ـ معاوناً أول، لا ثانياً، لعمدة فريير.

وكان خصمه صناعياً غنياً، ومن الواجب إرجاعه إلى مركز المعاون الثاني. وفهم جوليان أخيراً الكلمات الخفية التي كان يفاجأ بسماعها عندما يكون المجتمع الراقي في المنطقة يأتي للغداء، إلى مائدة السيد ده رينال. كان هذا المجتمع منهمكاً كل الانهماك، في اختيار المعاون الأول، الذي كان النصف الآخر من المدينة، وخصوصاً المتحررون، لا يشكون مطلقاً من إمكانية وقوعه. وسبب الاهمية فيه، كان كما يعرف الجميع، أن الجهة الشرقية من الشارع الكبير في فريير يجب أن تتراجع أكثر من تسعة أقدام، لأن هذا الشارع أصبح طريقاً ملكياً.

فإذا استطاع السيد موارو، الذي يملك ثلاثة بيوت، في حالة التراجع، أن يكون معاوناً أول، وبالتالي عمدة، وإذا اختير السيد ده رينال ليكون نائباً، فإنه سيغضّ النظر، ويصبح بالإمكان القيام بإصلاحات لا ترى في تلك البيوت التي تتعدى الطريق العام، وهكذا تستطيع تلك البيوت أن تعمر طويلاً. ورغم أن السيد موارو كان معروفاً بنزاهته واخلاقيته، كان الجميع واثقين أنه سيكون سهلاً، لأنه رب عائلة كبيرة، وبين البيوت التي عليها أن تتراجع، تسعة يملكها أحسن سكان فريير.

كانت هذه المناقشات، أكثر أهمية، في نظر جوليان، من تاريخ معركة فونتنوى التي رأى للمرة الأولى في كتاب أرسله له فوكيه. كان فيها أشياء تدهش جوليان منذ خمس سنوات عند ذهابه للخوري شيلان في المساء. وبما أن التكتم وصفاء الذهن هما أولى صفات طالب اللاهوت، كان من غير الممكن، بالنسبة إليه، أن يوجه الأسئلة.

ذات يوم، أعطت السيدة ده رينال أمراً لخادم زوجها، خصم جوليان، فأجاب الرجل بهيئة غريبة:

ـ ولكن اليوم، سيدتي، آخر يوم جمعة في الشهر.

وأصرّت السيدة ده رينال:

ـ إذهب.

وقال جوليان:

ـ سيذهب الآن إلى مخزن التبن، الذي كان كنيسة، ثم أعيد إليها مؤخراً، ولكن ماذا ليفعل هناك؟ هذا هو السر الذي لم أعرفه بعد.

واجابت السيدة ده رينال:

ـ إنها مؤسسة مسالمة، ولكنها غريبة؛ لا تقبل النساء: وكل ما أعرفه عنها أن الجميع هناك متساوون. فمثلاً، هذا الخادم سيجد هناك السيد فالينو، الذي لن يغضب وهو الفخور الابله، عندما يكلمه هذا الخادم، وسيجيبه باللهجة نفسها. وإذا كنت تصرّ على معرفة ما يدور فيها فسأطلب من السيد ده موجيرون والسيد فالينو التفاصيل. ندفع عشرين فرنكاً عن كل خادم حتى لا يذبحونا في يوم من الأيام.

طار الوقت بسرعة، فنسي جوليان طموحه التعيس ولم يتذكر سوى محاسن عشيقته. وكان عدم محادثتها بالأمور الحزينة والمعقولة، يزيد، دون أن يشعر، في السعادة التي هو مدين لها بها وفي خضوعه لها.

في اللحظات التي كان يضطره وجود الأولاد الأذكياء للتحدث بلهجة عقلية صرفة، كان يستمع بطاعة كاملة، وهو يتطلع إليها بعينين يلمع فيهما الحب، إلى أحاديثها عما يجري في

العالم. وغالباً ما كانت السيدة ده رينال تضيع فجأة حتى الهذيان وهي تقص حكاية عن بعض الفصول والأحداث التي مرت بها، وجوليان يشعر بالحاجة إلى توبيخها، إذ كانت تسمح لنفسها أمامه بالقيام بحركات حميمية كما مع أولادها. كانت تحس، بعض الأيام، أنها تحبه كولدها. أليس عليها دوماً أن تجيب عن اسئلته الساذجة حول آلاف الأشياء البسيطة التي لا يجهلها صبي حسن النشأة في الخامسة من عمره؟ وبعد لحظة، تُعجَبُ به كسيّدها، فعبقريته كانت تثير مخاوفها أحياناً. كان تظنّ أنها ترى، بوضوح أكثر، الرجل الكبير الذي سيخرج من هذا القسيس الشاب. كانت تتصوره بابا، وكانت تراه رئيس وزراء كما ريشليو.

وكانت تقول له:

ـ ترى هل أعيش حتى أرى مجدك؟ المكان معه لرجل كبير، والملكية، والدين بحاجة إلى مثل هذا الرجل الكبير.

١٨

ملك في فريير

ألست صالحاً إلا لان ترمي كجثة من الشعب، دون روح، لا تجري في عروقها الدماء؟

خطاب الكاهن
في كنيسة القديس كليمان

العاشرة مساء الثلثاء ٣ أيلول، أقلق احد أفراد الدرك راحة كل فريير، وهو يصعد الشارع الكبير على جواده خبباً. كان يحمل خبر أن صاحب الجلالة ملك... سيصل إلى فريير الأحد التالي، وأشار المحافظ، بتأليف حرس شرف وبذل كلّ الجهود الممكنة. وأُرسِلَ مبعوثٌ إلى فرجي. وصل السيد ده رينال إلى فريير ليلاً ووجد كل المدينة في هياج. كان لدى كل فرد مشاريعه، وأصحاب الأعمال القليلة كانوا يؤجرون الشرفات لمن يريد رؤية دخول الملك.

من يقود حرس الشرف؟ سرعان ما رأى السيد ده رينال من المهم جداً، لمصلحة البيوت المعرضة للتراجع، أن يتسلم السيد موارو هذه القيادة، مما قد يساعد على إعطاء لقب المعاون الأول بعض الأهمية. ولم يكن من شكٍّ حول إخلاص السيد موارو. كان فوق كل الشبهات.

لكنه لم يمتط حصاناً في حياته. كان رجلاً في السادسة والثلاثين، خجولاً في معظم الأحوال، يخشى السقطات والسخرية.

استدعاه العمدة منذ الخامسة صباحاً:

ـ أنت ترى يا سيدي أنني أطلب رأيك في المركز الذي يحملك إليه جميع الناس الشرفاء. ففي هذه المدينة التعيسة تزدهر الصناعة، ويصبح الحزب المتحرر من أصحاب الملايين، وهو يطمح للسلطة وسيعرف كيف يجابهنا بأسلحة من كل نوع. فلنستشر مصلحة الملك والملكية وقبل كل شيء مصلحة ديننا المقدس. إلى من تظن يا سيدي، يمكننا نعهد بقيادة حرس الشرف؟

رغم الخوف الهائل الذي كان السيد موارو يشعر به من الحصان قبل أخيراً هذا الشرف كشهيد. فقال للعمدة:

ـ سأعرف كيف آخذ الطابع المناسب.

ولم يكد يتبقى من الوقت ما يكفي لترتيب البذلات العسكرية التي استخدمت منذ سبع سنوات عند مرور أحد الأمراء.

الساعة السابعة: وصلت السيدة ده رينال من فرجي مع جوليان والأولاد. ووجدت صالتها مليئة بالنساء المتحررات الداعيات لوحدة الأحزاب، واللواتي أتين للتوسل إليها أن تقنع

زوجها بإعطاء بعض المراكز لذويهن في حرس الشرف. وادعت إحداهن إنه إذا لم يكن زوجها بين المختارين فسيدفع به الحزن إلى النصب والاحتيال؛ وبسرعة صرفت السيدة ده رينال كل هؤلاء القوم، وبان عليها الانهماك.

دهش جوليان، واحتدّ، إلى درجة أن السيدة ده رينال أبدت استياءها لما يشغله. فقال بمرارة:

ـ توقعت هذا، إن حبها سيغيض أمام سعادة استقبال ملك في بيتها. كل هذا الضجيج يبهرها. وستعود لحبي من جديد عندما لا يعكر دماغها أفكار انتمائها إلى طبقة معينة.

ومع ذلك أحبها أكثر من السابق. شيء مدهش.

وبدأ أصحاب السجاد يملأون البيت، وتحينّ الفرصة طويلاً ليقول لها كلمة واحدة. أخيراً وجدها تخرج من غرفته، هو، حاملة إحدى بذلاته. كانا وحيدين. أراد أن يكلمها، فهربت ورفضت الاستماع إليه.

ـ لا بد أنني أبله حتى أحب امرأة كهذه. الطموح يجعلها أكثر جنوناً من زوجها.

كانت أكثر من هذا، فإحدى رغباتها الكبرى، التي لم تستطع أن تعترف بها لجوليان خوفاً من أن تصدمه، أن تراه يترك، ولو

ليوم واحد، ملابسه الحزينة السوداء. واستطاع في أول الأمر، بمهارة تثير الاعجاب، وبالنسبة لامرأة طبيعية، أن تنال من السيد موارو ومن ثم من نائب المحافظ ده موجيرون أن يكون جوليان عضواً في حرس الشرف، مفضلاً بهذا عن خمسة أو ستة شبان من أبناء المصانع الميسورين، كان بينهم اثنان على الأقل ممن يشهد لهم بالاخلاص للملك. السيد فالينو، الذي كان يعتزم أن يفرغ جعبته في تصويب السهام نحو أجمل سيدات المدينة، وأن يثير إعجاب الناس بجواديه النورمانديين، وافق على إعطاء أحدهما إلى جوليان، هذا المخلوق الذي يكرهه أكثر من غيره. ولكن جميع حراس الشرف كانوا يملكون أو يستطيعون استعارة أحد هذه الأثواب الجميلة الزرقاء ذات الأكتاف الفضية من رتبة كولونيل، والتي لمعت قبل سبع سنوات. وكانت السيدة ده رينال تريد بذلة جديدة، ولم يبق سوى أربعة أيام لتطلبها من بزانسون وتأتيها البذلة والسلاح والقبعة. الخ... وكل ما يلزم حارس الشرف. وما كان مسلياً في الأمر: إنها كانت ترغب في أن تكون بذلة جوليان من صنع مدينة غير فريير. كانت تريد مفاجأة جوليان والمدينة.

وعندما انتهى عمل حرس الشرف وتحضير الرأي العام، كان على العمدة أن يهتم باحتفال ديني كبير، فالملك لم يكن يريد المرور في فريير دون أن يزور مزار القديس كليمان الشهير في

براي العليا، على فرسخ من المدينة. وكان المفروض أن يكون رجال دين عديدون، وكانت هذه أصعب القضايا. فالسيد ماسلون، الخوري الجديد، كان يريد اقصاء شيلان، بأي ثمن. وعبثاً حاول السيد ده رينال أن يقنعه بما في عمله من تسرع. كان السيد المركيز ده لامول، الذي حكم أجداده المقاطعة زمناً طويلاً، من مرافقي الملك، وهو يعرف الخوري شيلان منذ ثلاثين عاماً. وسيسأل حتمًا عن أخباره عندما يصل إلى فريير، فإذا وجده غائباً فسيذهب إليه ويجده في بيته الصغير الذي اعتكف به، مصحوباً بكل الحاشية التي يستطيع السير معها. أية صفعة نتلقاها آنذاك!

وأجاب الأب ماسلون:

ـ سأكون مهاناً هنا، وفي بزانسون، إذا ظهر هو بين رجالي. جانسيني! يا إلهي!

ورد السيد ده رينال قائلاً:

ـ مهما قلت يا عزيزي الأب ماسلون، لن أجازف بتعريض إدارتي في فريير لمجابهة السيد ده لامول. إنك لا تعرفه: يفكر بهدوء في القصر، أما هنا، في الريف، فإنه نقادة لأذع ساخر لا يفتش إلا عن إحراج الناس. وقد يغرقنا في سخرية المتحررين، ليتسلى ليس إلا.

ولم يتراجع كبرياء الأب ماسلون أما خوف العمدة، الذي انقلب إلى شجاعة، إلاّ بعد ثلاثة أيام من المناقشات والمفاوضات، في مساء السبت والأحد. وكان من الواجب كتابة رسالة ناعمة إلى الخوري شيلان ليتفضل بحضور الاحتفال في مزار براي العليا، إذا كانت سنُّه وضعفه يسمحان له بذلك. وطلب شيلان بطاقة دعوة لجوليان الذي كان عليه أن يرافقه ككاهن مرافق فقُبل الطلب.

ومنذ صباح الأحد، وصل آلاف الفلاحين من الجبال، واحتلوا الشارع الكبير في فريير. كان الطقس في غاية الروعة. وأخيراً، نحو الساعة الثالثة، ماج الجمهور: على فرسخين من المدينة، دخان كثيف. وكانت هذه العلامة ان الملك اجتاز حدود المقاطعة. وسرعان ما الاجراس والطلقات المتعددة من مدفع أسباني قديم تملكه المدينة، أعلنت عن فرحتها بهذا الحدث الكبير. فصعد أكثر من نصف سكان المدينة إلى السطوح، وكانت كل النساء على الشرفات، وتحرّك حرس الشرف. وأثارت البذلات اللماعة إعجاب الجميع، وكان كل واحد يتعرف بينها على قريب أو صديق. وسخر الجميع من خوف السيد ده موارو، الذي كانت يده الحذرة على استعداد دائم للامساك بمقود حصانه. لكّن إشارة واحدة أنست الجميع كل شيء: فالفارس الأول من الصف التاسع، كان فتى رائع الجمال، كثير النحافة،

لم يعرفه أحد لأول وهلة. وسرعان ما علت صرخة الاشمئزاز عنـد البعض، بينما كـان سكون البعض الآخـر يبشر ببهجـة عارمة. عرف الجميع هذا الشاب الذي يمتطي أحـد جوادي السيد فالينو النورمانديين، إنه سوريل الشـاب، ابن صاحب المنشرة. ولم يعد إلا صراخ واحد ضد العمدة، خصوصاً بين المتحررين. ماذا، الآن هذا العامـل الشاب المتخفي في زي قسيس، مـرب لأولاده، يتجرأ في تعيينـه حارس شـرف على حساب السادة فلان وفلان من أغنياء الصناعيين!

وأعلنت إحدى السيدات على هؤلاء أن يسيئوا علناً إلى هذا الشاب المدّعي، المولود في الوحل.

وأجابها أحد مجاوريها:

ـ إنه متخفّ، وهو يحمل رمحاً، فيه من الخيانـة ما يكفي لتقطيع وجوههم.

آراء المجتمع النبيل، كانت أشدّ خطورة. وتساءلت السيدات عما إذا كان هذا التصرّف غير اللائق من صنع العمدة وحده. وعلى وجه الاجمال كان هؤلاء يبررون احتقارهم بولادته الحقيرة.

وبينما كان جوليان موضع تساؤلات كثيرة، كان هو يحس أنه أسعد الرجال. مظهره أحسن من غالبية شبان المدينة الجبلية، لشجاعته الطبيعية، وكان يرى في أعين النساء ما ينبئه عن أنه

موضع حديثهن.

اكتاف بذلته الفضية أكثر لمعاناً من غيرها لكونها جديدة. أما جواده فكان يقف بين وقت وآخر على قوادمه الخلفية. كان في أوج فرحه.

أحس بسعادة لا متناهية عندما مرّ قرب السور القديم، فأثار صوت المدفع حصانه وجعله يقفز خارج الصف. وبعامل الصدفة لم يسقط. وأحسّ في تلك اللحظة أنه بطل، إنه ضابط في حاشية نابليون وكان يقود فرقة مدفعية.

وكان ثمة أسعد منه: رأته أول الأمر ماراً بالقرب من ساحة البلدية، ثم رأته يمتطي الحصان، وبعد أن قامت بدورة كبيرة، وصلت في الوقت المناسب لترتعش من الفرح لدى رؤيتها جواده يخرج من الصف. وأخيراً توصلت إلى الطريق التي كان على الملك أن يمرّ فيها، ورأت عربته تخرج من باب المدينة الآخر مسرعة، واستطاعت أن تتابع بنظرها حرس الشرف على عشرين خطوة، وسط الغبار.

وصرخ عشرة آلاف فلاح: عاش الملك! عندما تشرف العمدة بلقاء صاحب الجلالة. وهمّ الملك بدخول المدينة، بعد ساعة من استماعه إلى كل الخطب، وعادت بذلك أصوات المدفع تدوي من جديد. لكن حادثاً وقع، لا للمدفعيين الذين اثبتوا جدراتهم في ليبزغ ومونميراي، ولكن للمعاون الأول

المرشح، السيد ده موارو: رماه حصانه في حفرة الوحل الوحيدة التي كانت في الطريق الكبيرة، مما سبب مشادة كبيرة إذ كان من الواجب رفعه منها لكي تمر عربة الملك.

نزل جلالته في الكنيسة الجميلة الجديدة التي كانت، ذلك اليوم، مزيّنة بكل ستائرها الأرجوانية. وكان على الملك أن يتغذّى ثم يسرع بالصعود إلى عربته ليذهب ويزور مزار القديس كليمان المشهور. ولم يكد الملك يدخل الكنيسة حتى هرول جوليان على ظهر جواده إلى منزل السيد ده رينال. وهناك نزع، وهو يتنهد، بذلته الجميلة ذات اللون الأزرق السماوي، ورمحه واكتافه الفضية ليعود إلى ارتداء ثوبه الصغير الأسود المهترىء. وعاد في لحظات إلى براي العليا، التي تحتل قمة تلة في منتهى الجمال.

وفكر جوليان: الحماس يضاعف هؤلاء الفلاحين. من الصعب على الفرد أن يتحرك في فريير، وها هم عشرة آلاف فلاح يحيطون بهذا الدير الأثري، أعيد إصلاحه، بعد أن هدمته غزوات الفاندال، بشكل رائع تحت حكم «الاصلاح»، وبدأ الناس يتحدثون عن المعجزات. لحق جوليان بالخوري شيلان الذي وبخه كثيراً واعطاه المبخرة واللباس الأبيض الخاص، فلبسه بسرعة ووقف قرب مكان قسيس «أغد» الشاب. وهذا الأخير ابن اخ للسيد ده لامول، رُسم أخيراً وكلف بإقامة قداس

الملك. ولكن لم يكن بالإمكان العثور على هذا الكاهن.

فرغ صبر رجال الإكليروس: كانوا بانتظار رئيسهم في قصر الدير القديم القاتم الغوطي. وتمكّن المبعوث ماسلون، من أن يجمع أربعة وعشرين قسيساً. لأن براي العليا، كانت قبل ١٧٨٩ من أربع وعشرين أبرشية. وبعد تفتيش ثلاثة أرباع الساعة، فكر القساوسة في أن من المناسب ذهاب عميدهم إلى المونسنيور ليخبره أن الملك في طريقه إليهم وأن اللحظة حانت ليكون بين الجوقة. وكان كبر سن الخوري شيلان جعل منه عميد الكهنوت. ورغم العبوس الذي كان يُظهره لجوليان، أشار إليه أن يتبعه، وكان جوليان يلبس ملابسه بشكل لا بأس به، وجعل شعره الجميل المجعّد، مسطحاً جداً مستعيناً بإحدى طرق التصفيف الديني الخاصة، ولكنه نسي المهمازين تحت جبته، مما ضاعف غضب الكاهن شيلان.

وعند وصولهما إلى شقّة الكاهن، استطاعا بصعوبة أن ينتزعا من فم الخدم المحتشمي اللباس، جواباً مفاده أن المونسنيور غير موجود. وسخروا منه عندما أصرّ على عميد الكهنوت النبيل في براي العليا، ويتمتع بأفضلية استقباله في أي وقت من قبل الكاهن.

صُدم كبرياء جوليان المتعالي من إهانات الخدم. فأخذ في اجتياز ممرات الابرشية العتيقة، محركاً كل الأبواب التي يصادفها.

وفتح باباً صغيراً فوجد نفسه في غرفة صغيرة وسط خدم المونسنيور الذين يلبسون الأسود والصلبان في أعناقهم. وعند مرآه ظن هؤلاء أنه مفوض من قبل الكاهن، نظراً لهيئته المسرعة، فتركوه يمر. وقام ببعض الخطوات ووجد نفسه في قاعة فسيحة غوطية قاتمة، جدرانها من خشب السنديان الأسود، باستثناء النوافذ ذات الشكل البيضاوي في قسمها الأعلى والتي كانت مسدودة بالقرميد. وهذه الطريقة الفظة في البناء ظاهرة لا يخفيها أي شيء وتشكل تضاداً محزناً مع روعة الخشب القديمة. وكانت جوانب هذه القاعدة مزينة بأخشاب كثيرة الزخرفة، وهي مشهورة بين أثريي بورغونيا، عمّرها الدوق شارل الشجاع سنة ١٤٧٠ تكفيراً عن بعض الخطايا. وكان فيها كل أسرار هذا الفن القديم، بألوان الخشب المتنوعة هذه.

هذا الجمال الحزين، يشوهه القرميد العالي والكلس الذي لا يزال على لونه الأبيض، لامس قلب جوليان، فتوقف صامتاً. وفي الجانب الآخر من القاعة، قرب النافذة الوحيدة التي يدخل منها ضوء النهار، رأى مرآة متحركة من الآبنوس. كان شاب يلبس ثوباً بنفسجياً ورداء أبيض من الدانتيلا، عاري الرأس، يقف على ثلاث خطوات من المرآة. وكان مشهد هذه المرآة غريباً في هذا المكان، كأنها احضرت خصيصاً من المدينة. ووجد جوليان أن هيئة هذا الشاب تدل على الاضطراب: كان يعطي

بركاته، صوب المرآة، بيده اليمنى.

وفكّر جوليان: ماذا يمكن أن يعني هذا؟ هل احتفال تحضيري يقوم به القسيس الشاب؟ قد يكون أمين سر المونسنيور... وقحاً كالخدم... «يا إلهي... فلنجرب».

اجتاز ببطء كبير طول القاعة، وهو يتطلع باستمرار إلى النافذة الوحيدة، وإلى هذا الشاب يتابع اعطاء بركاته ببطء، تكراراً، ودون أن يستريح لحظة.

وكلما كان يقترب منه، كان يرى أكثر، هيئته تدل على الغضب. روعة اللباس الأبيض المزين بالدنتيلا، أوقفته على خطوات من المرآة الرائعة.

وأخيراً قال لنفسه: من واجبي أن أتكلم.

ولكن جمال القاعة أثار انفعاله، وكانت ترن في أذنه الكلمات القاسية التي تخيّل إنه سيسمعها.

رآه الشاب في صفحة المرآة، فالتفت، وقال له بأرقّ لهجة، بعد أن زال عنه العبوس:

ـ أيها السيد، هل انتهى الأمر بتسويتها أخيراً؟

بقي جوليان مندهشاً. فعندما التفت هذا الشاب نحوه، رأى الصليب على صدره: كان هو نفسه كاهن «اغد».

وفكر جوليان: أنه شاب، يكاد لا يكبرني بأكثر من سبع سنوات أو ثماني.

وخجل من مهمازيه، وأجاب بحياء:

- مونسنيور، إنني مرسل من عميد الكهنوت، الأب شيلان...

وقال الكاهن بلهجة مهذبة زادت في سرور جوليان:

- آه، الجميع يوصونني به. استميحك عذراً أيها السيد، ظننتك الشخص الذي كان عليه احضار قبعتي. كان لفها سيئاً في باريس، فأثنت جوانبها الفضية بشكل مزعج من الناحية العليا. وأضاف الكاهن الشاب بهيئة حزينة: لهذا أبشع التأثيرات. إنهم يضطرونني للانتظار.

- مونسنيور، سأذهب لإحضار قبعتك، إذا سمحت نيافتكم.

كان لعيني جوليان الجميلتين تأثير ساحر. وأجاب الكاهن بتهذيب رائع:

- إذهب أيها السيد، إنني بحاجة إليها في الحال. وأنا آسف لأنني جعلت سادة الكهنوت ينتظرون.

عندما وصل جوليان وسط القاعة، والتفت نحو الكاهن، فرآه يعود إلى منح بركاته. وتساءل: ماذا يمكن أن يكون هذا؟

تحضير كهنوتي للاحتفال الذي سيجري. ولما وصل إلى الغرفة التي يقف فيها الخدم، ورأى القبعة بين أيديهم، أعطاه هؤلاء قبعة المونسنيور، بعد أن رأوا نظرته الآمرة.

أحس بالفخر وهو يحملها: ومشى ببطء وهو يجتاز القاعة. كان يمسكها باحترام، ووجد الكاهن جالساً أمام المرآة، يقوم، من وقت لآخر، بيده اليمنى المتعبة بمنح البركة. ساعده جوليان في تركيز قبعته. وحرّك الكاهن رأسه. فقال لجوليان بلهجة مغتبطة:

ـ آه! ستتركز. تريد أن تبتعد قليلاً؟

تراجع الكاهن بسرعة إلى وسط القاعة، ثم اقترب من المرآة بخطوات بطيئة، واتخذ طابع الغضب وصار يعطي بركاته بوقار.

جمد جوليان من الاندهاش، كان يحاول الفهم ولكنه لم يكن يتجرّأ. توقف الكاهن وتطلع إليه بهيئة فقدت بسرعة خطورتها.

ـ ماذا تقول في قبعتي، أيها السيد، حسنة الوضع؟

ـ رائعة أيها المونسنيور.

ـ أليست مائلة كثيراً إلى الوراء؟ إن في هذا ما يعطي هيئة البلاهة، ولكن أيضاً يجب أن توضع محنية إلى الامام كقبعة الضابط.

ـ يخيل إلي أنها في أحسن وضع.

ـ إن الملك... معتاد على كهنوت فخم ووقور. وأنا لا أريد أن أظهر بمظهر الخفّة خصوصاً بالنسبة لسني.

وعاد الكاهن من جديد إلى السير معطياً البركات. وقال جوليان وهو يتجرأ على الفهم أخيراً:

ـ هذا واضح: يتمرن على إعطاء البركات.

وبعد لحظات قال الكاهن:

ـ إنني على استعداد. أذهب أيها السيد واعلم السيد العميد وبقية رجال الاكليروس.

وسرعان ما دخل الخوري شيلان، يتبعه قسيسان عجوزان، من الباب الكبير ذي النقوش البديعة، لم يره جوليان. ولكنه هذه المرة، بقي في صفه، آخر الجميع، ولم يعد باستطاعته رؤية الكاهن إلا من فوق أكتاف رجال الدين الذين اسرعوا، جميعهم، نحو هذا الباب.

عبر الكاهن القاعة ببطء، وعندما وصل إلى العتبة، شكل القساوسة صفاً. وبعد فترة من الفوضى، بدأ الصف في السير مرنماً إحدى التراتيم الدينية، فيما الكاهن يتقدّم في آخر الصف بين السيد شيلان وأحد القساوسة الهرمين. انسلّ جوليان قريباً

من المونسنيور بصفته تابعاً لشيلان. واجتاز الجميع ممرات الدير الطويلة الرطبة القائمة رغم الشمس المشرقة، ووصلوا إلى باحة الدير المسقوفة. كان جوليان مأخوذاً بروعة هذا الاحتفال، يغلي طموحه الذي أيقظه عمر الكاهن الشاب، والحساسية والتهذيب الساحر عند هذا الرجل المهم؛ هذا التهذيب، كان شيئاً آخر غير تهذيب السيد ده رينال، حتى في أحسن ساعاته. وقال جوليان لنفسه. كلما ارتفع الفرد في سلم المجتمع، وجد الكثير من هذه العادات الساحرة.

دخل الجميع الكنيسة من باب جانبي، وفجأة هزّت القناطر القديمة قرقعة هائلة. وظنّ جوليان أنها ستتهدم. وكانت هذه الضجة آتية من هذا المدفع الصغير، جرته ثمانية أحصنة راكضة. ولم يكد يصل حتى أطلقه مدفعيو ليبزغ، خمس طلقات في الدقيقة، كأنما الجنود البروسيون أمامه.

هذه الضجة الرائعة لم تؤثّر على جوليان، فلم يعد يفكر في نابليون وبالمجد العسكري. بل بهذا العمر الشاب، وكاهن «أغد»! ولكن أين «أغد»؟ وماذا يربح؟ مئتين أو ثلاثمئة فرنك تقريباً.

وظهر خدم المونسنيور يحملون خيمة رائعة. أخذ السيد شيلان أحد عواميدها، كان جوليان حمله، ووقف الكاهن تحتها. نجح في الظهور أكبر من سنه، وزاد إعجاب بطلنا به إلى أبعد

الحدود، ففكّر: أي شيء لا يمكن القيام به مع المهارة؟

دخل الملك، وكان من حظ جوليان أنه رآه عن قرب. باركه الكاهن بخشوع، بمسحة من الاضطراب مهذبة.

احتفالات براي العليا، ملأت أعمدة صحف المقاطعة خمسة عشر يوماً، وفهم جوليان من موعظة الكاهن أن الملك من سلالة شارل الشجاع.

وبعد وقت، أخذ جوليان يدقق في تكاليف الحفلة. اراد المركيز ده لامول، بعد أن أمَّن أبرشيته لابن أخيه، أن يتكفل بكل تكاليفها، التي قدّرها جوليان بثلاثة آلاف وثمانمئة فرنك.

بعد موعظة الكاهن، وجواب الملك، وقف الملك تحت الخيمة ثم ركع على طنفسة قرب المذبح، وكانت الجوقة محاطة بسور خشبي مزخرف، يعلو درجتين عن أرض الكنيسة. وعلى الدرجة الأخيرة كان جوليان يجلس قرب الخوري شيلان، في وضع يقارب وضع الكاهن بالنسبة لكاردينالة داخل كنيسة مار بطرس في روما. وكان الفلاحون سكارى من السعادة والتقوى. هذا النهار يدحض لوحده، مئة عدد من إعداد الجرائد اليعقوبية.

وكان جوليان على ست خطوات من الملك، الذي كان يصلي فعلاً بصدق وحرارة. ولاحظ فيه، للمرة الأولى، رجلاً صغيراً ذا نظرة روحانية، يلبس بذلة دون تطريز تقريباً. ولكن

شريطاً في زرقة السماء كان فوق هذه البذلة البسيطة. كان يرى نفسه أقرب إلى الملك من الأسياد الذين كانت أثوابهم مطرزة بالذهب يغطي الجوخ، كما لاحظ جوليان. وعلم بعد فترة من الزمن أن أحدهم كان المركيز ده لامول، وجده جوليان متعالياً متعجرفاً بل وقحاً.

وفكّر: هذا المركيز لن يكون مهذّباً ككاهني الجميل. آه! إن حالة رجل الدين تجعل المرء لطيفاً وعاقلاً. ولكن ألم يأتِ الملك ليزور المزار؟ لا أرى أي مزار. أين القديس كليمان؟

واخبره قسيس صغير، كان حدّه، أن المزار المقدس في أعلى البناء.

ومن أصول البروتوكول أنه عندما يزور الأمير الحاكم الكنيسة، فالابرشيات لا ترافق الكاهن. لكن مونسنيور «أغد» نادى الخوري شيلان وهو يهم بالسير وتجرأ جوليان فتبعه.

بعد أن صعد الجميع سلّماً طويلاً، وصلوا إلى باب صغير، أطراف قوسه الأعلى مذهبة، رائعة الجمال. لكأنما انتهى الصناع منه في العشية.

كان أربع وعشرون فتاة شابة راكعات على ركبهن أمام الباب، وهن من أكثر عائلات فريير نبلاً. وقبل أن يفتح الكاهن الباب، ركع وسط الصبايا يصلي بصوت عالٍ، وهنّ

يتطلعن إليه كأنما لا يستطعن الاحاطة بجمال ثوبه ونعومته الطيبة ووجهه اللطيف الشاب. وأفقد هذا المشهد صواب جوليان فقرر الانضمام إلى هذا السلك. وفجأة انفتح الباب عن كنيسة صغيرة يغمرها الضوء. على المذبح أكثر من ألف شمعة في ثمانية صفوف يفصل بين الواحد والآخر باقات من الزهور. وكانت الرائحة الذكية لأصفى أنواع البخور تتصاعد حلقات من باب الدير. الكنيسة المذهبة البراقة صغيرة عالية السقف. ولاحظ جوليان أن على المذبح شمعات يبلغ طول الواحدة منها أكثر من خمسة عشر قدماً. ولم تستطع الفتيات أن يحبسن صيحة إعجاب. ولم يبق في قاعة الكنيسة الصغيرة إلا الفتيات وقسيسان وجوليان.

جاء الملك، يتبعه السيد ده لامول وكبير ياورانه. وبقي حرسه أنفسهم خارج الكنيسة راكعين، تحت أهبة السلاح.

لم يرتم الملك على المصلّى بل وثب إليه وثباً. ومن فوق ذراع عار لاحدى الفتيات رأى جوليان تمثال القديس كليمان، وكان مخبأ تحت المذبح بثياب جندي روماني شاب، في رقبته جرح كبير كأن الدم يسيل منه. ابدع المثّال في ذلك. عيناه الغائمتان نصف مطبقتين، ولكنهما مليئتان بالسماح. وكان شارب يزين هذا الوجه الساحر نصف المطبق، كأن صاحبه لا يزال يصلي. وأمام هذا المنظر شهقت الفتاة التي تجاور جوليان وبكت بدموع حرى،

وسقطت إحدى دمعاتها على يده.

وبعد لحظة من الصلاة، في صمت مطبق، كان يعكره فقط أصوات بعيدة من أجراس القرى على عشر فراسخ، طلب كاهن «اغد» من الملك الأذن في الكلام. وألقى موعظة صغيرة مؤثرة بكلمات كثيرة البساطة، مما زاد في تأثيرها وقوته.

ـ لا تنسوا أيتها المسيحيات الشابات، إنكن رأيتن ملكاً من أكبر ملوك الأرض راكعاً أمام خدم الاله القوي القدير. وهؤلاء الخدم الضعفاء المضطهدون الذين قتلوا على هذه الأرض، كما ترون في جرح القديس كليمان الدامي، هم الذين سينتصرون في السماء. هكذا أيتها المسيحيات ستتذكرن هذا اليوم إلى الأبد! إنكن تكرهن الالحاد؛ وستكونن مخلصات إلى الأبد لهذا الرب الكبير المخيف، والطيب.

وعند هذه الكلمات نهض الكاهن بوقار، وقال وهو يمد يده بهيئة تدل على الالهام:

ـ تعدنني بذلك؟

وقالت الفتيات وهن يذرفن الدمع:

ـ نعدك.

وأضاف الكاهن بصوت رنان:

ـ أتلقى نذوركن باسم الاله العظيم!

وانتهى الاحتفال.

وكان الملك نفسه يبكي. وسأل جوليان، بعد وقت عن مكان عِظام القديس التي أُرسلت من روما إلى فيليب الطيب، دوق بورغونيا. وعلم أنها مخبأة في تمثال الشمع الساحر.

وأراد الملك أن يتيح لتلك الأنسات، اللواتي رافقنه إلى الكنيسة، بحمل شريط أحمر، طرزت عليه هذه الكلمات: يسقط الكفر، عبادة مستمرّة.

ووزع السيد ده لامول عشرة آلاف زجاجة من الخمر على الفلاحين. وهكذا، وجد المتحررون في فرييير، سبباً جديداً ليسرّوا أكثر من الملكيين. وقبل أن يغادر الملك المدينة، قام بزيارة السيد ده موارو.

١٩
التفكير يوجع

إن سخف الأحداث اليومية تخفي تعاسة الحب الحقيقية.

برناف

فيما كان جوليان يعيد وضع الأثاث العادي في الغرفة التي احتلها السيد ده لامول، وجد قطعة مطوية من الورق القوي. وقرأ في أدنى الصفحة الأولى:

إلى صاحب السعادة المركيز ده لامول، حامي فرنسا وفارس جيش الملك. الخ... الخ... وكانت الرسالة مكتوبة بخط كبير.

سيدي المركيز،

كان لي، طوال حياتي، مبادىء دينية. كنت في ليون، معرضاً للقنابل أيام الحصار عام ١٧٩٣ الذكرى المرعبة. وكل أحد أذهب إلى القداس في كنيسة الابرشية. ولم أخلف مرة واجبي في أعياد الفصح، حتى في ١٧٩٣ الذكرى المرعبة. وكانت الطباخة تجعل من يوم الجمعة يوم صيام، وكان يأتيني قبل الثورة بعض الناس. وأنا في فريير موضع احترام عام، اجرؤ وأقول إنني

جدير به. وأنا أمشي تحت الخيمة في الاحتفالات الدينية إلى جانب الخوري والعمدة. وأحمل، في المناسبات الكبرى، شمعة ضخمة اشتريتها من مالي الخاص. وعلى كُل هذا تشهد سجلات وزارة المالية في باريس. أطلب من السيد المركيز أن يمنحني مكتب يانصيب فريير، الذي لا بد أن يشغر بطريقة أو بأخرى، فرئيسه مريض، وهو على كل حال لم يحسن التصرف اللائق في الانتخابات. الخ...

«ده شولان»

وعلى هامش هذه الرسالة كانت حاشية موقّعة من ده موارو، وتبدأ بهذا السطر:

«كان لي الشرف أن أحدث سعادتكم عن الرجل الطيب الذي قدّم هذا الطلب» الخ...

وقال جوليان:

ـ هكذا إذن، حتى هذا الابلة شولان يريني الطريق الذي عليّ أن أتبعه.

بعد ثمانية أيام على مرور الملك في فريير، ساد كذب كثير، وتفسيرات بلهاء ومناقشات مضحكة كان موضوعها على التوالي: الملك والكاهن والمركيز ده لامول والعشرة آلاف قنينة من الخمر

والمسكين موارو الذي وقع في الحفرة ولم يخرج من منزله إلا بعد شهر من سقطته آملاً بذلك أن يحصل على وسام؛ وكان الحديث يدور حول دخول جوليان سوريل، ابن صاحب المنشرة، إلى حرس الشرف. وكان من الواجب سماع الصناعيين الأغنياء الذين كانوا يدعون للمساواة صباح مساء في المقهى. وكانت المرأة المتعالية، السيدة ده رينال، موضع كراهيتهم. لأيّ سبب؟ عيون القسيس الصغير سوريل وخداه الطريان كانت تتكفل بالباقي.

بعد قليل من العودة إلى فرجي، أصابت الحمى ستانيسلاس - كزافييه، أصغر الأطفال؛ وفجأة وقعت السيدة ده رينال في أبشع أنواع تأنيب الضمير. وكانت تلوم نفسها على حبها، للمرة الأولى وبشكل متواصل. وبان عليها أنها فهمت، وكأنما في معجزة، الغلطة الفظيعة التي تركت نفسها تنجرّ إليها. فهي حتى الآن، رغم تدينها العميق الأصيل، لم تفكر في فظاعة جريمتها في نظر الرب.

عندما كانت في مدرسة القلب الأقدس، أحبت الله بوله؛ وكانت تخشاه. وكان الصراع يمزّق روحها لأنّ مخاوفها كانت دون سبب مهم. وأحس جوليان أن أي تفسير منطقي يكفي لاثارتها، فترى في ما كان يجب أن يهدئها، لهجة من الجحيم. ومع ذلك وجد جوليان، وهو متعلق بستانيسلاس الصغير، من الأفضل أن

يحدثها عن مرضه: وسرعان ما اتخذت الطابع الوقور. كان التأنيب ينتزع من السيدة ده رينال قدرتها على النوم، وأصابها صمت قاتل: لو استطاعت أن تفتح فمها، لاعترفت بجريمتها للرب وللناس جميعاً.

كان جوليان يقول لها وهما على انفراد:

ـ أتوسل إليك أن لا تكلمي أحداً. أنا وحدي شريك آلامك، لا تتكلمي إن كنت لا تزالين تحبينني: كلامك لن يستطيع تخفيف الحمى عن ستانيسلاس.

لم يكن لعزائه أي تأثير: لم يكن يعرف أنّ السيدة ده رينال صمّمت لتستطيع تخفيف غضب الرب أن تكره جوليان أو أن ترى ولدها يموت. ولما كانت تشعر أنها لا تستطيع أن تكره عشيقها، كانت تعاستها تزداد.

وقالت له ذات يوم:

ـ اتركني، بحق الرب، إترك هذا البيت، وجودك يقتل ابني.

وأضافت بصوت منخفض:

ـ الله يعاقبني، إنه عادل وأنا أعبد عدالته. جريمتي بشعة، وسأعيش دون ندم! كانت هذه أولى علامات الاله يتخلى عني، ولذلك يجب أن أعاقب مضاعفاً.

تأثر جوليان كثيراً. لم يكن يستطيع أن يرى أي خداع أو مبالغة. هي تعتقد أنها تقتل طفلها بحبها لي، ومع ذلك تحبّني أكثر من طفلها. هذا هو التأنيب الذي يقتلها، لا أستطيع أن أشك في ذلك. هذه هي العواطف الكبيرة. ولكن كيف استطعت، أنا الفقير السيء التربية، الفظ التصرفات أحياناً، إن أوحي بعاطفة كهذه؟

ذات يوم كان الصغير في أسوأ حالاته. وأتى السيد ده رينال لرؤيته الثانية صباحاً. ولم يستطع الولد الذي تفترسه الحمى أن يتعرف إلى أبيه. وفجأة ارتمت السيدة ده رينال على قدمي زوجها: ورأى جوليان أنها ستقول كل شيء لزوجها وستفقد نفسها للأبد.

ولحسن الحظ لم يهتم السيد ده رينال بهذه الحركة الغريبة، وقال وهو ذاهب:

ـ الوداع! الوداع!

وصرخت امرأته وهي راكعة أمامه تحاول إبقاءه.

ـ لا، اصغِ إليّ. إعرف كل الحقيقة. أنا التي تقتل ابنها. أعطيته الحياة والآن أسحبها منه. السماء تعاقبني فأنا في نظر الرب مذنبة بجريمة قتل. يجب أن أخسر نفسي وأن أحقر نفسي بنفسي، قد تخفف هذه التضحية من غضب الرب.

ولو كان السيد ده رينال صاحب خيال لَعَرَف كل شيء. ولكنه قال وهو يبتعد عن امرأته التي كانت تحاول تقبيل ركبتيه:

ـ افكار وهمية. إن كل هذه أفكار وهمية! استدع الطبيب يا جوليان عند انبثاق الفجر.

وعاد لينام. ووقعت السيدة ده رينال على ركبتيها، نصف مغميّ عليها، وهي بحركة قوية تدفع جوليان الذي أتى ليساعدها.

بقي جوليان مندهشاً، ثم قال لنفسه:

هذه هي الخيانة إذن! ترى أيمكن أن يكون هؤلاء القساوسة البُلَهاء على حق في ما يقولونه؟ هل يمكن لهؤلاء الذين يرتكبون كثيراً من الخطايا أن يكونوا عرفوا النظرية الحقيقية عن الخطيئة؟ أية غرابة!

بعد انسحاب السيدة ده رينال التي أحبّها متكئة برأسها، قبل عشرين دقيقة على سرير ابنها، فرآها دون حراك شبه مغمي عليها. فقال في نفسه: ها هي امرأة مستوى ذكائها عالٍ، تعيش في أقصى التعاسة لأنها عرفتني.

وتتقدّم الساعات بسرعة. ماذا أستطيع أن أفعل من أجلها؟ يجب أن أقرر. الأمر لا يتعلق بي هذه المرة. ماذا يهمني في

الـرجـال وجـوههم المضحكـة؟ مـاذا أستـطيـع من أجلهـا؟ أَترُكُها...؟ ولكنني بذلك أتركها وحيدة في مواجهة أكثر الآلام بشاعة. وهذا الزوج الآلي يؤذيها أكثر مما يفيدها. وسيقول لها بعض الكلمات القاسية، فهو تعوّد الفظاظة، وقد تصبح مجنونة وتلقي بنفسها من النافذة.

وإذا تركتها، لا أستطيع السهر عليها، وستعترف له بكل شيء. ومن يدري، قد يسبب لها فضيحة رغم الإرث الذي تعطيه له. ولكن قد تقول كل شيء، إلى هذا ... الخوري ماسلون الذي ينتهز فرصة مرض طفل في السادسة فلا يغادر البيت أبداً، وعن قصد. فالسيدة ده رينال كانت في غمرة آلامها وخوفها من الله، تنسى كل شيء عن الرجل ولا ترى فيه إلى القسيس.

وقالت له السيدة ده رينال فجأة وهي تفتح عينيها:

ـ إذهب.

وأجاب جوليان:

ـ اعطي حياتي ألف مـرة لأعرف مـا يمكن أن يكون لـك مفيداً: لم أشعر بحبك، يا ملاكي الغالي، كما في هذه اللحظة أعبدك العبادة التي تستحقينها. ماذا اصبح بعيداً عنك، وأنا أعرف أنني سبب تعاستك! لا تهتمي بآلامي. سأرحل يا حبي،

أجل. ولكن إذا توقفت عن السهر عليك، وإذا لم أكن دائمًا بينك وبين زوجك، ستقولين له كل شيء، وتفقدين نفسك. فكري في أنه سيطردك من البيت والعار يجللك، وسيتكلم على والفضيحة أهالي فريير وبزانسون. سيتهمونك بكل المساوىء، ولن تعودي للارتفاع ثانية فوق هذا العار...

صرخت وهي تنهض واقفة:

ـ هذا هو ما أطلبه. سأقاسي وأرضى بذلك.

ـ ولكنك بهذه الفضيحة، ستكونين سبب تعاسته هو!

ـ ولكني أحقرّ نفسي، سأمرغ نفسي في الوحل، ولكن بهذا قد انقذ ولدي يكون هذا التحقير في نظر الجميع عقاباً علنياً. أليست هذه أكبر تضحية، يستطيع ضعفي أن يتصورها، ويمكن أن أقدمها للرب؟ قد يقبل تحقيري ويأخذه ويترك لي ولدي. أرني تضحية أكبر من هذه حتى انفذها!

ـ دعيني أعاقب نفسي، أنا أيضاً مذنب. هل تريدين أن أنسحب إلى دير «تراب»؟ قد تلطف قسوة الحياة هناك من غضب إلهك. آه! بحق السماء! لو كان مرض ستانيسلاس يحل بي لأتحمّله بنفسي!

ونهضت السيدة ده رينال، وارتمت بين ذراعيه وهي تقول:

ـ آه! أنت تحبه أيضاً.

وفي اللحظة نفسها، صدته عنها بعنف ورعب وعادت للركوع:

ـ اصدقك! أصدقك! أوه! يا صديقي الوحيد! لو كنت والد ستانيسلاس! إذن لما كان حبي لك، أكثر من ولدي، خطيئة كبرى.

ـ هل تريدين السماح لي بالبقاء؟ لن أحبك إلا كأخ بعد الآن! هذا هو التكفير المعقول الوحيد. وقد يخفف من غضب الربّ.

وصرخت وهي تنهض وتأخذ رأس جوليان بين يديها، وتطلعت إليه بعينيها:

ـ وأنا، أنا، هل أحبك كأخ لي؟ هل في قدرتي أن أحبك كأخ؟

اغرق جوليان في البكاء، وقال وهو يرتمي على قدميها:

ـ سأطيعك، سأطيعك في كل ما تأمرينني به؛ هذا كل ما عليّ أن أقوم به. أصاب العمى بصيرتي، فلم أعد استطيع اتخاذ أي قرار. إذا تركتك، فستقولين كل شيء لزوجك وتخسرين نفسك، وتجرّينه معك للهاوية، وبعد هذه الفضيحة لن يعينّ

مطلقاً ناثباً عن فريير. وأذا بقيت، ستعتقدين أنني سبب عذاب طفلك وتموتين من الألم. هل تريدين أن تجربي تأثير ذهابي؟ إذا أردت، سأعاقب نفسي على غلطتنا بالابتعاد عنك ثمانية أيام. سأذهب لقضائها في مكان منعزل حيث تشائين، في أبرشية براي العليا، مثلاً؛ ولكن أقسمي لي أنك لن تعترفي بشيء لزوجك. فكّري في أنني لن أستطيع الرجوع لو تكلمت.

وعدته، فانصرف، ولكنه استدعي بعد يومين:

ـ كان محالاً عليّ بدونك أن أحفظ قسمي، سأعترف لزوجي إذا لم تكن هنا لتأمرني بالسكوت بنظراتك. كانت كل ساعة، من هذه الحياة المخيفة، تمرّ عليّ كيوم كامل.

وأخيراً، رقّت السماء لحالة هذه الأم الشقية. ورويداً رويداً تعدّى ستانيسلاس مرحلة الخطر. ولكن المرآة كانت انكسرت، وعرف عقلها مدى خطيئتها، فلم تعد تستطيع أن تعيد التوازن. وبقي الندم كما يجب أن يبقى، في قلب مخلص كقلبها. وأمست حياتها السماء والجحيم: الجحيم عندما لا ترى جوليان، والجنة عندما تكون على قدميه. كانت حتى في اللحظات التي تتجرأ فيها على ترك العنان لحبها تقول له:

ـ لا، لا أحاول أن أخدع نفسي. حكم عليّ بالشقاء الأبدي، دون أي أمل بالعفو أو السماح. أنت صغير. أغويتك

أنا. من الجائز أن تغفر لك السماء، أما أنا فمحكومة بالشقاء الأبدي. أعرف ذلك من علامة أكيدة. إنني خائفة: ومن لا يخاف من رؤية الجحيم؟ ولكنني في أعماق نفسي، لا آسف على شيء. إنني حرية بأن أرتكب من جديد غلطتي إذا كان لا بد منها. فلتؤجّل السماء عقابي إلى العالم الآخر وتترك أطفالي، وأنا على استعداد لأن أتلقى أكثر مما استحق.

وكانت في بعض الأحيان تضيف:

ـ ولكن أنت، على الأقل، جوليان، هل أنت سعيد؟ هل تجد أنني أحبك كفاية؟

ولم يستطع حذر جوليان وكبرياؤه المتألم الذي كان بحاجة فعلاً إلى حب وتضحية، أن يصمدا أمام تضحية كبيرة غير مشكوك فيها، تمارس في كل لحظة. إنه يعبد السيدة ده رينال. فلتكن نبيلة ما شاءت، ولكنها تحبني، أنا ابن العامل... لست خادماً بالنسبة إليها، مكلفاً بوظائف العشيق. وبعد أن بَعُد هذا الخوف سقط جوليان في جنون الحب، وفي شكوكه المميتة.

وكانت تصرخ عندما ترى شكوكه في حبها:

ـ عليّ أن أجعلك سعيداً، على الأقل، في الأيام القليلة التي بقيت لنا! لنسرع إذن، فقد لا أكون لك في الغد. إذا رزأتني السماء بأولادي، سأبحث عبثاً كي لا أعيش إلا لحبّك، وكي لا

أرى فيه الجريمة التي تقتلهم. لن أستطيع العيش بعد هذه الضربة. حتى عندما أريده، لن أستطيع؛ سأصبح مجنونة.

ـ آه! لو كنت أستطيع أن آخذ لنفسي خطيئتك، كما عرضت عليك بكرم، أن آخذ حمى ستانيسلاس!

غيرت هذه الأزمة الأخلاقية الكبرى من طبيعة الشعور الذي يربط بين جوليان وعشيقته. فلم يعد حبه إعجاباً بالجمال وحبَّ تملك فحسب.

واصبحت السعادة منذ ذلك الحين ذات جوهر اسمى، والشعلة التي تفترسهما صارت أقوى، فكانت لهما ساعات مليئة بالجنون.

وظهرت سعادتهما في عيون الناس أكبر وأحلى، ولكنهما لم يجدا ثانيةً هذا الصدق البديع، والهناء الصافي الرائق، والسعادة السهلة التي أحسّا بها في فِترات حبهما الأول، عندما كان الخوف الوحيد الذي ينتاب السيدة ده رينال هو أن لا تكون محبوبة من جوليان بالقدر الذي ترغبه. بل كانت سعادتهما تتخذ أحياناً مظهر الجريمة.

وفي أسعد الساعات وإهدئها ظاهرياً، كانت السيدة ده رينال تصرخ فجأة، وهي تشد على يد جوليان بحركة قوية، وتتعلق به كالنبات المتسلق بالحائط:

ـ آه! يا إلهي! أرى الجحيم! أية عذابات مرعبة! استحققتها كلها!

وكان جوليان يحاول دون جدوى أن يهدىء هذا الكائن المعذّب. كانت تأخذ يده وتغرقها بالقبل، ثم تقع فريسة لحلم يقظة قاتم فتقول:

ـ الجحيم، الجحيم سيكون رحمة لي، لي بعض الأيام سأقضيها معه على الأرض، ولكن الجحيم في هذا العالم هو موت أولادي... قد تكون جريمتي مغفورة بهذا الثمن... آه! أيها الربّ الكبير! لا تمنحني عفوك بهذا الثمن. هؤلاء الأولاد المساكين لم يهينوك قط؛ أنا، أنا المذنبة الوحيدة: أحب رجلاً غير زوجي.

بعد ذلك يرى جوليان أن السيدة ده رينال كانت تَخْلُصُ إلى فترات هادئة في ظاهرها. كانت تحاول أن تتمالك آلامها، خوفاً من أن تسمم حياة حبيبها.

كانت الأيام تسير بسرعة البرق مع هذه الانتقالات من الحب إلى الندم والفرح، وفقد جوليان عادة التفكير.

ذهبت الآنسة أليزا إلى فريير لتتابع دعوى لها هناك. ووجدت السيد فالينو جد متضايق من جوليان. كانت تكره المربي، وتتحدث لفالينو عنه كثيراً.

وذات يوم قالت للسيد فالينو:

ـ قد تخسرني يا سيدي، إن قلت الحقيقة!... الأسياد كلهم على اتفاق بينهم، عندما يتعلق الأمر بالأشياء المهمة... ولا يغفرون مطلقاً بعض الاعترافات التي يقوم بها الخدم المساكين... وبعد هذه الجمل التقديمية استطاع السيد فالينو، أن يجد الطريقة لاختصارها، عرف اشياء مخيفة تنال من كرامته.

فهذه المرأة، أحسن نساء المقاطعة مركزاً، وهو أحاطها خلال ست سنوات بكل العناية، هذه المرأة الفخورة، التي كانت كلماته تثير احمرارها، على مرأى ومسمع الجميع اتخذت لنفسها عشيقاً هذا العامل الصغير المتخفي بثوب المربي. ولكي لا ينقص لوعة السيد فالينو أيّ شيء، السيدة ده رينال تعبد هذا العشيق.

وأضافت الوصيفة وهي تتنهد:

ـ جوليان لم يكلف نفسه أية مشقة للحصول على هذا الكسب، فهو لم يخرج عن برودته الاعتيادية بالنسبة للسيدة.

ولم تتأكد إليزا من ذلك إلا في فرجي، ولكنها تشك في أن هذه القصة تعود إلى أبعد من هذا الانتقال، وأضافت بلوعة:

ـ هذا هو السبب الذي من أجله رفض جوليان أن يتزوجني.

وأنا البلهاء، ذهبت لاستشارة السيدة ده رينال، وتوسلت إليها أن تحدّث المربي في الأمر.

في المساء نفسه، تلقت السيدة ده رينال، مع جريدتها، رسالة طويلة مغفلة تعلمها بتفاصيل وافية عما يدور عندها. ورأى جوليان لونها يشحب وهي تقرأ هذه الرسالة المكتوبة على ورق أزرق، وتلقي إليه بنظرات خبيثة. وعبثاً حاول جوليان أن يغازلها وهو يطلب منها بعض التفسيرات حول أصول أعرق العائلات في بورغونيا.

٢٠

الرسائل المغفلة

فيما هما خارجان من الصالة، وجد جوليان الوقت كي يقول لصديقته:

ـ فلنبعد عن بعضنا البعض هذه الليلة. لدى زوجك بعض الشكوك، وأنا اقدّر أن هذه الرسالة الطويلة التي كان يقرؤها متنهداً هي رسالة مغفلة.

ولحسن الحظ، أغلق جوليان باب غرفته بالمفتاح. وجالت في خاطر السيدة ده رينال فكرة مجنونة: هذا التحذير ليس إلا ذريعة

للتهرب منها. فقدت عقلها تماماً، وعند الساعة المعتادة كانت على باب غرفته. وكان أطفأ مصباح غرفته عند سماعه الضجة في الممر. حاول أحدهم أن يفتح باب غرفته: هل هي السيدة ده رينال، أم هو الزوج الغيور؟

في ساعة مبكرة من اليوم التالي، أحضرت الطباخة، وكانت تعطف على جوليان، كتاباً قرأ على غلافه كلمات بالايطالية: «أنظر الصفحة ١٣٠».

وارتجف جوليان من قلة الحذر، وفتش عن الصفحة المائة والثلاثين فوجد فيها رسالة مكتوبة بسرعة، معلقة بدبوس بين أوراق الكتاب، مغمورة بالدموع ودون أي توقيع. وكان من عادة السيدة ده رينال أن تمهرها بامضائها، وأثرت فيه هذه البادرة، ونسي بعض الشيء قلة احترازها المخيفة. وراح يقرأ:

«لم تشأ استقبالي هذه الليلة؟ لحظات يخيل إليّ أنني لم أصل في معرفتي لك حتى أعماق نفسك. نظراتك تخيفني. أخاف منك. بحق السماء! هل احببتني حقاً؟ وفي هذه الحالة، فليكتشف زوجي علاقتنا، وليحبسني في سجن أبدي، في الريف بعيداً عن أطفالي. قد تكون هذه إرادة الله؛ أفضل الموت. ولكنك بهذا تصبح وحشاً.

«ألا تحبني؟ هل تعبت من جنوني، وندمي؟ هل تريد أن

تخسرني؟ أدلك على طريقة هينة. هيا، أطلع كل فريير على هذه الرسالة، أو بالأحرى أرها للسيد فالينو وحده. قل له إنني أحبك، ولكن لا، لا تتلفظ بهذا التجديف، قل له إنني أعبدك وأن الحياة ابتدأت بالنسبة لي منذ اليوم الذي رأيتك فيه، قل له إنني لم أحلم، في أشد ساعات شبابي جنوناً، بهذه السعادة التي أنا مدينة لك بها، وإنني ضحيت بحياتي، وإنني على استعداد لأعطيك روحي، وأنت تعرف أنني أضحي لك بأكثر من هذا.

«ولكن هل يعرف التضحية مثل هذا الرجل؟ قل له، قل له، لتثيره، إنني أتخطى كل الخبثاء، وإنه لم يعد إلا تعاسة واحدة أحس بها: أن أرى تبدّل الرجل الوحيد الذي يشدّني للحياة. أية سعادة لي أن أخسرها، أن أضحي بها وأن لا يعود ما أخشى منه على أطفالي!

«لا أشك مطلقاً، يا صديقي، إذا كان من رسالة مغفلة، إنها آتية من هذا المخلوق المزعج الذي لاحقني، خلال ست سنوات، بصوته الضخم، وقصة قفزاته على الحصان، وتعداد أبديّ لخصاله الحميدة.

«رسالة مغفلة؟ أيها الخبيث، هذا ما كنت أريد أن أناقشك فيه، ولكن لا، أحسنت التصرف. لم أكن لأستطيع أن أناقش الأمر بهذه البرودة التي أحس بها وأنا وحدي، لو كنت أضمك

بين ذراعيّ. منذ هذه اللحظة، لم تعد سعادتنا سهلة. هل في هذا معاكسة لك؟ أجل، الأيام التي لم نتلق فيها من السيد فوكيه، بعض الكتب المسلية. نُفِّذت التضحية، وفي الغد، سأقول لزوجي، سواء ثمة رسالة مغفلة أم لا إنني تلقيت رسالة مغفلة، وإن من الواجب، فوراً، أن أجعلك جسراً ذهبياً لأبرىء نفسي، وإن من الواجب أن نجد أية ذريعة شريفة ودون تأخير لإرسالك إلى ذويك.

«للأسف، يا صديقي، سنفترق خمسة عشر يوماً، شهراً، من يدري؟ هيا، إنني أحكم عليك بالعدل.

«ستقاسي مثلما أقاسي! ولكن، على كل حال، هذه هي الطريقة الوحيدة لتعطيل مفعول هذه الرسالة المغفلة. ليست الأولى يتلقاها زوجي، وتتعلق بي أيضاً، للأسف! لكم كانت تثير ضحكي!»

«الهدف من تصرفي هذا، أن أفهم زوجي بأنّ الرسالة مرسلة من السيد فالينو. لا أشك في أنه هو كاتبها. فإذا تركت البيت، لا تنسى أن تذهب وتستقر في فريير. وسأعمل جهدي لكي تخطر على بال زوجي فكرة قضاء خمسة عشر يوماً هناك لأثبت للأغبياء أن كل شيء على ما يرام بيني وبينه. وعندما تصبح في فريير، صادق جميع الناس، حتى المتحررين؛ أنا واثقة

أن كل تلك السيدات يفتشن عنك.»

«لا تتنازع أنت والسيد فالينو، ولا تقطع أذنيه كما قلت ذات مرة، بل، على العكس، كن ناعمًا لطيفاً معه. وليظن الجميع في فريير أنك ستدخل في خدمة فالينو أو أي واحد آخر لتربية الأطفال.

«وهذا ما يثير ألم زوجي، ولن يجازف في الأمر، حتى ولو قرره. وبعد! ستسكن فريير على الأقل وسأراك في بعض الأحيان. وسيذهب أولادي، الذين يحبونك، لرؤيتك. يا إلهي! أحس أن حبي لأولادي يزيد لأنهم يحبونك. أيّ ندم! ترى كيف سينتهي كل هذا؟ آه! إنني أضل. أخيراً أحسن سلوكك. كن لطيفاً مهذباً ولا تكره هؤلاء الأشخاص الفظين. أطلب منك وأنا راكعة: سيكونون حُكّام مصيرنا. لا تشك أبداً في أن زوجي سيتّبع تجاهك ما يمليه عليه الرأي العام.

«ستزوّدني أنت بالرسالة المغفلة. تسلح بالصبر وبزوج من المقصات. أقطع من كتاب الكلمات التي ستراها. الصقها بعد ذلك على الورقة الزرقاء التي أرسلتها لك، وهي اتتني من فلينو. حضّر نفسك لاستجواب في غرفتك. أحرق صفحات الكتاب التي قصصتها. إذا لم تجد الكلمات مركبة جاهزة، فتذرع بالصبر وكوّنها حرفاً حرفاً. للأسف! إذا لم تعد تحبني، كما أخشى، فستجد أن رسالتي طويلة!».

رسالة مغفلة

«سيدتي

«كل تصرفاتك الصغيرة مكشوفة. ولكن الأشخاص الذين يهمهم الأمر حذرون. اقترح عليك أن تتركي الفلاح الصغير، تدفعني إلى ذلك بقية من صداقة. فإذا كنت عاقلة كفاية، سيعتقد زوجك أن الإشعار الذي تلقاه كاذب، وستتركه في أوهامه. فكّري في أنّ سرّك بحوزتي. إرتجفي أيتها الشقية، يجب بعد الآن أن تمشي مستقيمة أمامي».

«وعندما تنتهي من إلصاق الكلمات التي تؤلف الرسالة (هل تعرفت فيها على طريقة كلام المدير؟) أخرج من البيت وسألاقيك.»

«سأذهب إلى القرية وأعود بوجه مضطرب. وسأكون كذلك بالفعل. يا إلهي! ماذا أفعل، كل هذا لأنك اعتقدت أن ثمة رسالة مغفلة. وأخيراً، سأعطي زوجي، بوجه متغير هذه الرسالة التي أعطانيها مجهول. وأنت، إذهب وتنزّه على طريق الغابات الكبيرة مع الأطفال، ولا تعد قبل موعد الغداء».

«ومن أعالي الصخور، تستطيع أن ترى برج كولومبييه، فإذا سارت قضايانا على ما يرام، سأعلق فيه منديلاً أبيض. أما في الحالة العكسية، فلن ترى أي شيء.

«هل يجد قلبك الجاحد، طريقة لتقول لي إنك تحبني، قبل الذهاب في هذه النزهة؟ ومهما حدث، كن على ثقة من شيء واحد: لن أعيش يوماً واحداً بعد فرقتنا النهائية. آه! يا للأم السيئة! كلمتان فارغتان، عزيزي جوليان. لا أحس بهما، لا أستطيع أن أفكر إلا بك في هذه اللحظة، وأنا لم أكتبهما إلا لكي أتجنب لومك. أما الآن وأنا أرى أنني سوف أخسرك، فإنني لا أجد فائدة في التمويه. أجل! فليظهر ذكري لك قاسياً، ولكنني لا أستطيع أن أكذب على الرجل الذي أعبده! وأنا، كما تعلم، لم أخدع أحداً طوال حياتي. هيا، اذهب، أسامحك ولو لم تكن بعد تحبني. ليس لدي الوقت لاعيد تلاوة رسالتي. إنه لشيء بسيط في نظري أن أدفع حياتي ثمناً للأيام السعيدة التي أمضيتها بين ذراعيك. وانت تعرف أنها ستكلفني بعد الكثير».

٢١

محاورة مع سيد

للأسف! ضعف إرادتنا هو السبب وليس
نحن: وسنكون تماماً، كما خلقنا.
الليلة الثانية عشرة

بلذّة طفل صغير انكب جوليان، على جمع الكلام خلال ساعة. ورأى لدى خروجه من غرفته تلاميذه وأمهم، وأخذت

الرسالة ببساطة وشجاعة أخافه هدوءهما. ثم قالت له:

ـ هل جف الصمغ جيداً؟

وفكر في نفسه: هل هذه هي المرأة نفسها التي جعلها الندم مجنونة؟ ما مشاريعها في هذه اللحظة، وكان أشد فخراً من أن يسألها، ولكنها لم تعجبه أكثر مما تعجبه الآن.

واضافت باللهجة الباردة نفسها:

ـ إذا دارت الدورة علي، فسينتزعون مني كل شيء. أدفن هذا الوعاء في مكان من الجبل. ربما يكون في يوم، موردي الوحيد. وأعطته وعاء زجاجياً أحمر مليئاً بالذهب وبعض قطع الماس وقالت له:

ـ والآن. . . إذهب.

قبّلت أطفالها وخصت الصغير بقبلتين. ووقف جوليان ساكناً. فتركته بخطوات سريعة دون أن تتطلع إليه.

ومنذ اللحظة التي فتح فيها السيد ده رينال الرسالة المغفلة، أصبح في حالة لا تطاق. لم يشعر بمثل هذا الانزعاج منذ مبارزة كاد يقوم بها سنة ١٨١٦. كان احتماله لتلقي طلقة يجعله أقل تعاسة. تفحّص الرسالة من جميع الجهات. قال في نفسه: أليس هذا خط امرأة؟ وفي هذه الحالة، من المرأة التي كتبتها؟ وراجع

في ذهنه جميع النساء اللواتي عرفهن في فريير، دون أن يستطيع أن يجدد شكوكه. هل املاها عليها أحد الرجال؟ من هـذا الرجل؟ وبقي هنا في شكوك متشابهة. كان أكثر الذين يعرفونه يغارون منه ويكرهونه. يجب أن استشير امرأتي، قال هذا كعادته وهو ينهض من الكرسي الذي كان غارقاً فيه.

ولم يكد ينهض حتى قال وهو يضرب رأسه: يا إلهي! يجب أن أحذّرها هي. إنها عدوتي في هذه اللحظة. ولشدة غضبه، أحس بالدموع في عينيه.

وكمعادلة صحيحة لجفاف القلب الذي يشكل في الـريف الحكمة العملية، كان الرجـلان اللذان يشك فيهـما السيد ده رينال، أحسن أصدقائه وأقربهم إليه.

وبعد هذين، قد يكون ثمة عشر أصـدقاء، وراجعهم في ذهنه، مقدراً في كل منهم درجة العزاء التي يستطيع الأمل فيها. وصرخ بغضب: ستكون هذه المغامرة البشعة سبباً في سرور كبير عند الجميع، عند الجميع. ولحسن الحظ كان يظن أنه محسود، لا دون سبب. فبالاضافة إلى منزله الرائع في المدينـة، الذي شرّفه الملك للأبد عندما قضى فيه ليلة واحدة، رتب قصره في فرجي، وطلى الواجهة بلون أبيض والنوافذ بلون أخضر رائع. وواسته، لفترة من الوقت، فكرة هذا الجمال. فالواقع أن قصره كان يُرى عن ثلاثة أو أربعة فراسخ، على حساب كل بيوت

الريف، أو القصور المزعومة المجاورة، ترك لها هذا اللون الرمادي المتواضع أعطاها إياه الزمن.

وكان السيد ده رينال يستطيع الاعتماد على شفقة واحد من أصدقائه: عضو مجلس الابرشية، ولكنه كان أبله يبكي لكل شيء. ومع ذلك كان هذا الرجل أمله الوحيد.

وصرخ قائلاً بغضب:

ـ أية تعاسة كتعاستي! أيّ انعزال! وقال هذا الرجل الذي يثير الشفقة فعلاً: هل من الممكن أن لا يكون لي، في محنتي أي صديق أطلب نصيحته؟ فكري يضيع. أحس بذلك. وصرخ بمرارة: آه! فالكوز! آه دو كرو! وكان هذا الاسمان لصديقي طفولته، أبعدهما بمداخلاته سنة ١٨١٤. كان يريد أن يغيرّ طابع المساواة الذي كانا يعيشان به معه منذ الطفولة، مع أنهما ليسا من النبلاء.

أحدهما، فالكوز، رجل فكر وانسانية، وتاجر ورق في فريير، اشترى مطبعة في عاصمة المقاطعة، وأصدر جريدة. ولكن المجلس الكنسيّ قرر خرابه: فحكم على جريدته وسحبت منه رخصة الصدور. وحاول، في هذه الظروف السيئة أن يكتب للسيد ده رينال، لأول مرة منذ عشر سنوات، وظنّ عمدة فريير أن عليه الاجابة كروماني عتيق: «لو شرفني الوزير أو الملك

واستشارني، لقلت له: خربٌ دون شفقة كل مطابع الريف، واجعل الطباعة احتكاراً للدولة كالتبغ». وتذكر السيد ده رينال برعب كلمات هذه الرسالة إلى صديق حميم كانت كل فريير تحترمه. من كان يقول أنني سأندم على ذلك يوماً رغم طبقتي وثروتي وأوسمتي؟ وأمضى ليلة بشعة بهذه الأوهام، يثور غضبه على نفسه حيناً، وطوراً آخر على كل ما يحيط به. ولكنه لحسن الحظ، لم يفكر مطلقاً في مراقبة زوجته خِفَيةً.

قال في نفسه: إنني معتاد على لويز، تعرف كل أعمالي، سأكون حراً غداً في أن أتزوج، ولكنني لن أجد من يحل مكانها. كان يدغدغ نفسه بفكرة براءة امرأته. وكانت هذه الطريقة في مواجهة الأمر لا تضعه في ضرورة القيام بحركات تدلّ على الغضب وترتب الأمور جيداً. وكم هكذا من النساء المخادعات بقيت دون أن تكتشف!

فجأة صرخ السيد ده رينال وهو يمشي بعصبية:

ـ ولكن ماذا! هل أقاسي كما لو أنني رجل لا أساوي شيئاً، وتسخر مني مع عشيقها؟ أمن الواجب أن تدفىء كل فريير حناجرها في التحدث عن سذاجتي وعماي؟ قالوا كل شيء عن شارميه (زوج كان يُخْدَع علناً)؟ عندما يلفظ أحدهم اسمه، أرى الابتسامة في جميع الوجوه. محام جيد، ولكن من يتكلم على

موهبته في الكلام؟ آه! شارمييه! كانوا يسمونه شارمييه ـ برنار، باسم الرجل الذي كان يشاركه زوجته!

لحسن الحظ ليس عندي بنات، والطريقة التي سأُعاقِب بها الأم، لن تؤثر في استقرار أولادي. أستطيع ضبط هذا الفلاح الصغير مع امرأتي، واقتلهما معاً، وفي هذه الحالة، قد يمحو الطابع المأساوي عن هذه المغامرة بعضاً من السخرية. سرّته هذه الفكرة، فتتّبعها بكل تفاصيلها. القانون الجزائي يناسبني، ومهما حدث فإن المجمع الكنسيّ وأصدقائي المحلفين سينقذونني. تفحّص سكين الصيد وهي قاطعة، ولكن تَخَيل الدّماء أثار رعبه.

استطيع أن أضرب هذا الفلاح الوضيع ثم أطرده. ولكن أيُّ صدى سيكون لذلك في فريير، وفي كل المقاطعة! لبعد الحكم على جريدة فالكوز، وعندما خرج رئيس تحريرها من السجن، ساهمتُ في حرمانه من وظيفته التي كان يربح منها ستمائة فرنك. يقال أن هذا الكاتب يتجرأ الآن على الظهور في بزانسون، وقد يسخر مني بمهارة، وبطريقة تجعل من المستحيل احضاره أمام المحاكم. احضاره إلى المحاكم!... سيحاول هذا الحقير جهده ويثبت بألف طريقة أنه قال الحق. رجلٌ حسن النشأة، يشرّف طبقته، مثلي، مكروه من كل أفراد الشعب. سيرونني في هذه الجريدة البشعة في باريس، اوه! يا إلهي! يا للمفارقات! اسم رينال العريق تلوكه الألسنة إلى حد السخرية... وأذا رحلت،

عليّ أن أغيرّ اسمي، ماذا! أترك هذا الاسم الذي كان سبب مجدي وقوتي؟ أي درك من التعاسة أنا فيه!

وإذا لم أقتـل زوجتي، وطـردتهـا بحقـارة، لهـا عمتهـا في بزانسون، وستعطيها، نقداً وعدّاً، كل ثروتها، وستذهب امرأتي لتعيش في باريس مع جوليان، وسيذاع ذلك في فريير، وسيجد الجميع أنني أبله؛ وأرى الرجل التعيس، في شحوب مصباحه، أن النهار بدأ في الطلوع، فذهب يفتش عن قليل من الهواء الطلق في الحديقة. في هذه اللحظة، كان قرر أن لا يثير أيّ ضجة، ذلك أن أي تصرف من هذا النوع سيغرق أصدقاءه «الطيبين» في فريير وسط فرح غامر.

في الحديقة هـدأت أعصابه قليلاً، لا. لن أُحـرَمَ امرأتي مطلقاً، فهي مفيدة لي. كان يتصور برعب ماذا البيت بدونها؛ فلم يكن لديه قريبة سوى المركيزة ده رينال، العجوز البلهاء الخبيثة.

خطرت في ذهنه فكرة معقولة، ولكن تنفيذها يتطلب قـوة خُلقٌ أكبر من القليل الذي يملكه هذا الرجـل المسكين. إذا احتفظت بامرأتي سأجد نفسي ذات يوم في لحظة تثير ضجري، وسألومها على غلطتها. وبما أنها فخورة سوف نختلف. وهذا سيحدث قبل أن ترث من عمتها. وعندئذ، لكم سيضحـك الناس عليّ! فامرأتي تحب أطفالها، وسينتهي معها الأمر بالرجوع

إليهم. ولكنني سأكون أنا موضع تنادر في فريير. ماذا؟ سيقولون إنني لم أعرف كيف أنتقم من امرأتي! أليس الاجدر بي أن أكتفي بالظنون وأن لا أحقق في أيّ شيء! وعندئذ أقيّد يدي، ولا أستطيع في المستقبل أن ألومها على أي شيء.

بعد برهة، عاد إلى السيد ده رينال إحساسه بكرامته المجروحة وتذكّر كل الوسائل التي كانت تروى داخل قاعة البليار في الكازينو، أو في حلقة نبلاء فريير، عندما كان بعض المتحدثين اللبقين يقطعون اللعب ليتسلّوا بالثرثرة عن زوج مخدوع. لكم كانت هذه النكات، في ذلك الوقت، تظهر له قاسية!

يا لله! لو ماتت امرأتي! أكون في منأى عن السخرية. لو كنت أرمل. لكنت أذهب لتمضية ستة أشهر في باريس بين أحسن المجتمعات. بعد هذه اللحظة من السعادة التي سبّبتها له فكرة الترمل، عاد ذهنه إلى التفتيش عن الوسائل التي تنير له الحقيقة. هل بعد أن ينام الجميع، يرش في منتصف الليل، طبقة رقيقة من النشارة أمام باب غرفة جوليان، وسيرى عند الصباح، في اليوم التالي، انطباع الأقدام؟

صرخ فجأة بغضب: هذه الطريقة لا تساوي شيئاً. وستنتبه لها الملعونة إليزا. وسيعرف جميع من في البيت بسرعة أنني غيور.

في رواية أخرى سمعها في الكازينو، أنّ أحد الأزواج تأكد من خداع امرأته، بإلصاق شعرة خفيّة، بشمع أحمر، على باب غرفة زوجته وغرفة عشيقها.

بعد ساعات من الحيرة، وجد أن هذه الطريقة هي الوحيدة الفضلى، وفكر في استخدامها، عندما في منعطف أحد الممرات صادف هذه المرأة التي كان يريد أن يراها ميتة.

كانت عائدة من القرية. ذهبت لسماع القداس في كنيسة فرجي؛ تقليد مشكوك فيه بنظر الفيلسوف البارد، ولكنها أضافت عليه الايمان حين قالت أن الكنيسة الصغيرة التي تتردد إليها الآن كانت كنيسة قصر أمير فرجي. وأفزعت هذه الفكرة السيدة ده رينال طوال الوقت الذي كانت تعتزم قضاءه بالصلاة في تلك الكنيسة. كانت تتخيل زوجها قتل جوليان في الصيد، كأنما الأمر مجرد حادث، ثم في المساء يجعلها تأكل قلبه.

مصيري يتعلق بما سيفكر به وهو يسمعني. بعد هذا الربع ساعة الحاسم، قد لا أجد مناسبة أخرى لأحدثه. ليس كائناً عاقلاً يقوده العقل. ولو كان كذلك، لاستطعت بمعونة عقلي الضعيف، أن أتنبأ بما سيفعل أو سيقول. هو الذي سيقرر مصيرنا المشترك. لديه القدرة، ولكن هذا المصير يتعلق بمهارتي وبفنيّ في توجيه أفكار هذا المتبجح، يعميه غضبه، ويمنعه من

رؤية نصف الأشياء. بحق السماء! لا بد لي من الموهبة والهدوء، ومن أين لي بهما؟

عاد إليها هدوءها وهي مغتبطة بدخولها الحديقة وعند رؤيتها زوجها من بعيد. كان شعره وثيابه غير المرتبة توحي بأنه لم ينم.

أعطته رسالة مفتوحة ولكنها مطوية، وتطلع إليها بعينين مجنونتين دون أن يفتح الرسالة.

وقالت له:

- إليك بهذا الافتراء. رجل بشع الهيئة، يدعي أنه يعرفك وإنه مدين لك بالعرفان بالجميل، اعطاني إياها عندما كنت مارّة وراء حديقة كاتب العدل. اصرّ على شيء واحد: أن ترسل هذا السيد جوليان إلى أهله دون أي تأخير.

وأسرعت السيدة ده رينال في التلفظ بهذه العبارة، قبل أوانها، لتتخلص من تفكيرها البشع في ما عليها أن تقوله.

غمرها الفرح وهي ترى وقع كلامها على زوجها. ومن خلال النظرات التي حدجها بها أدركت أن جوليان أحسن التنبؤ، بدلاً من أن ينغص عيشه بهذه التعاسة الحقيقية؛ أية عبقرية! أي حس كامل في هذا الشاب وهو بعد دون أية تجربة! أي شيء يصعب عليه في المستقبل! يا للأسف! سيدفعه نجاحه عندئذ لينساني.

وكان هذا العمل إعجاباً بالرجل الذي تعبده خلصها تماماً من ضيقها.

حمدت نفسها على خطتها. وقالت لنفسها برقة ناعمة حميمة: كنت جديرة بجوليان.

لم يقل السيد ده رينال أي شيء خوفاً من أن يلتزم بما يقوله. وتفحّص الرسالة المغفلة الثانية (المركبة من كلمات مطبوعة ملصقة على ورقة تميل إلى اللون الأزرق). وقال إذ أرهقه التعب:

ـ الجميع يسخرون مني بكل الوسائل. إهانات جديدة عليّ، وكلها ناجمة بسبب امرأتي!

وأوشك على إغراقها بسيل من الاهانات الفظة، ولكن تصوره لإرث بزانسون أوقفه بألم. ومزق ورقة هذه الرسالة المغفلة الثانية، في غمرة تحرقه للقيام بأي شيء، وأخذ يتمشى بخطوات كبيرة. كان بحاجة للبعد عن امرأته. وبعد لحظات، عاد إلى قربها أكثر هدوءاً، ولكنها سارعت وقالت له:

ـ عليك أن تتخذ قرارك وأن تطرد جوليان. إنه، في النهاية، ليس إلا ابن عامل. ستعوض عليه ببعض الليرات الذهبية، وعلى كل حال، هو متعلّم وسيجد بسهولة مكاناً يعمل فيه، عند السيد فالينو مثلاً، أو عند نائب المحافظ ده موجيرون، وكلاهما

عنده أطفال. وهكذا لن تسبب له كثيراً من الضرر.

وصرخ السيد ده رينال بصوت مرعب:

ـ تتكلمين كالحمقاء، أي تفكير صحيح يمكن أن يوجد عند امرأة؟ لا تعيرين اهتمامك لكل ما هو معقول، كيف تستطيعين معرفة أي شيء؟ لا مبالاتك، وكسلك لا يعطيانك النشاط إلا لصيد الفراش. مخلوقات ضعيفة. لكم نحن تعساء لأن في عائلاتنا منكنّ!

وتركته السيدة ده رينال يتكلم. تكلم كثيراً، نفسّ عن غضبه كما يقال في المنطقة. وأخيراً أجابته:

ـ اتكلم يا سيدي كامرأة مهانة في شرفها، أي في أغلى ما تملكه.

كانت السيدة ده رينال في غاية الهدوء خلال كل هذه المحادثات الشاقة، التي تترتب عليها إمكانية العيش أيضاً مع جوليان تحت سقف واحد. وكانت تبحث عن الأفكار التي تعتقدُها أكثر مواصفةً لتقود غضب زوجها الأعمى. لم تحس بكل التعابير الجارحة التي وجّهها إليها، ولم تكن تستمع إليه، بل كانت تفكر عندئذ بجوليان. «هل يكون مسروراً مني»؟ وأخيراً قالت:

ـ قد يكون بريئاً هذا الفلاح الصغير الذي أغرقناه بالنعمة،

بل وبالهدايا، ولكن ذلك لا يمنع أنه كان السبب في أول تحقير أتلقاه... عندما قرأت هذه الورقة البشعة يا سيدي، قررت أن يخرج أحدنا من بيتك.

ـ تريدين القيام بفضيحة تحقرني وتحقرك في الوقت نفسه؟ إنك تثيرين شهية الكلام لدى كثير من الناس في فريير.

ـ صحيح: الجميع يحسدونك على حالتك المزدهرة إذ عرفتْ حكمة إدارتك أن تضعك أنتَ وعائلتك والمدينة... وبعد! سأجبر جوليان على أن يطلب منك إجازة ليذهب ويقضي شهراً عند تاجر الخشب في الجبل، وهو الصديق الجدير بهذا العامل الصغير.

ورد السيد ده رينال بهدوء:

ـ إياك والتصرفات. ما أطلبه منك أولاً الاّ تكلّميه. ستغضبينه، وسأتخاصم معه، وأنت تعرفين أن هذا السيد الصغير موضع الأنظار الآن.

وأجابت:

ـ ليس لدى هذا الرجل أية لباقة. قد يكون عالماً. تعرفه أكثر مني، ولكنه فلاح حقيقي. بالنسبة إلي، لم أكوّن مطلقاً عنه فكرة طيبة منذ رفض أن يتزوج إليزا. كانت له ثروة مضمونة،

ورفضها بحجة أنها تقوم بعض الأحيان بزيارات سرية للسيد فالينو.

رفع السيد ده رينال حاجبيه بطريقة غير متناسبة:

ـ ماذا، هل قال لك جوليان هذا؟.

ـ كلا، ليس هذا تماماً. حدثني عن تعلقه بما يسميه الكنيسة المقدسة. ولكن صدّقني: أول تعلق لهؤلاء الناس الصغار هو الخبز. كان يسمعني دائمًا أنه لا يجهل أخبار هـذه الزيـارات السرية.

عاد إلى السيد ده رينال كل غضبه، وهو يفكر بهذه الكلمات صارخاً:

ـ وأنا، أنا كنت أجهلها! ثمة إذن أشياء تحدث في بيتي وأنا أجهلها... كيف! هل حدث شيء بين إليزا وفالينو؟

فقالت السيدة ده رينال وهي تضحك:

ـ هيه! إنه التاريخ القديم يا صديقي العزيز. من الجائز أنه لم يحدث أي شيء سيء. كان ذلك في الوقت الذي كان صديقك الطيب لا ينزعج مطلقاً لو عُرف في فريير أن حباً صغيراً أفلاطونياً نما بيني وبينه.

وصرخ السيد ده رينال وهو يضرب رأسه بغضب سائراً من

اكتشاف لاكتشاف:

ـ خطرت في بالي هذه الفكرة ذات مرة، ولكنك لم تقولي شيئاً عن ذلك قط!.

ـ وهل من الضروري أن أفرّق بين صديقين بسبب حفنة صغيرة من الكبرياء عند مديرنا العزيز؟ أين المرأة التي لم يوجه لها بعض الرسائل المسلية، بل الغزلية؟

ـ هل كتب لك؟

ـ يكتب كثيراً.

ومد السيد ده رينال كل طوله وهو يقول:

ـ أرني هذه الرسائل على الفور. آمر بذلك.

وردت عليه بنعومة أقرب إلى الدلع:

ـ احتفظ بها. وسأريك إياها ذات يوم، عندما تصبح عاقلاً أكثر.

وصرخ السيد ده رينال وهو في فورة من الغضب، ومع ذلك أكثر سعادة مما كان قبل اثنتي عشرة ساعة:

ـ الآن، في هذه اللحظة.

فقالت السيدة ده رينال بوقار كبير:

ـ تقسم لي ألا تقيم معركة مع مدير المأوى بخصوص هذه الرسائل؟

ـ معركة! استطيع أن أنتزع منه الأطفال اللقطاء، وتابع بغضب:

ـ ولكنني أريد هذه الرسائل على الفور، في هذه اللحظة: أين هي؟

ـ في أحد أدراج مكتبي. ولكنني لن أعطيك المفتاح طبعاً.

وصرخ وهو يركض نحو غرفة زوجته:

ـ سأعرف كيف أكسره.

وكسر فعلاً، بواسطة قضيب حديدي رفيع، مكتباً ثميناً أحمر مرصعاً من صنع باريس، كان غالباً ما يمسحه بطرف أكمام بذلته عندما يرى عليه أي بقعة.

وصعدت السيدة ده رينال راكضة الدرجات المئة والعشرين في برج كولومبيه، وعلّقت في أحد عواميد الحديد في النافذة الصغرى منديلاً أبيض.

كانت أسعد النساء. وتطلعت إلى الغابات الكبيرة في الجبل، بعينين ملؤهما الدمع، وقالت لنفسها: جوليان ولا شك، ينتظر تحت إحدى السنديانات المتشابكة هذه الاشارة السعيدة.

وأصاخت بسمعها طويلاً، ثم لعنت هذا الضجيج الرتيب الذي يصدر عن الصراصير، وغناء الطيور. إذ لولا هذا الضجيج، لتناهت إليها صرخة فرح، عبر الصخور الكبيرة، وكانت عينها المشتاقة تفترس هذا المنحدر الهائل من الخضرة القاتمة، المتشابكة كحقل واحد تؤلّفه رؤوس كلّ هذه الاشجار. وقالت بحنان غامر: لَم لم تخطر على باله فكرة اختراع إشارة ليقول لي إن سعادته مساوية لسعادتي؟ ولم تترك البرج إلا عندما خافت أن يأتي زوجها ويجدها هناك.

وجدته في فورة الغضب. كان يتصفح جمل فالينو المنمقة التي لا تجدي قراءتها بهذا الانفعال.

وكانت تنتهز الفرص التي يتركها لها تعجب زوجها فتقول له:

ـ أعود لفكرتي. من المناسب أن يقوم جوليان برحلة. ومهما كانت موهبته في اللاتينية، هو فلاح فظ، تنقصه غالباً اللباقة. في كل يوم يوجه لي، وهو يعتقد أنه مهذب، مدائح مبالغاً فيها، قليلة الذوق، يتعلّمها غيباً من بعض الروايات...

وقاطعها السيد ده رينال:

ـ إذا لم يكن يقرأ في مكانٍ ما هذه المدائح المضحكة، لا بد يخترعها، وعلى كل حال، الويل له. من الجائز إنه حكى عني بهذه اللهجة في فريير...

وقالت السيدة ده رينال وكأنها تكتشف اكتشافاً:

ـ قبل أن نفكر بعيداً: من الجائز أنه حكى هكذا إلى إليزا، وهذا معناه أنه تقريباً حكى للسيد فالينو.

وصرخ السيد ده رينال وهو يضرب على الطاولة أقوى ضربة ضربها:

ـ آه! الرسالة المغفلة المطبوعة، ورسائل فالينو مكتوبة على ورق واحد.

وارتاحت السيدة ده رينال وأظهرت أنها متضايقة من هذا الاكتشاف، ودون أن تجد الشجاعة لاضافة أية كلمة، ذهبت وجلست بعيداً على الديوان، في آخر الصالة.

أصبحت المعركة رابحة منذ الآن. وبذلت مجهوداً كبيراً لتمنع زوجها من الذهاب والتحدث مع الكاتب المفترض للرسالة المغفلة.

ـ كيف يمكن أن تفكر بتحقير السيد فالينو دون براهين كافية؟ هذا أكبر دلائل قلّة المهارة! إذا كان الناس يحسدونك يا سيدي، فإن الخطأ خطأ من؟ مواهبك، إدارتك الجيدة، بيوتك الملأى بالذوق، المهر الذي أعطيك إياه، وخصوصاً الإرث العظيم الذي نأمل فيه من عمتي الطيبة، الإرث الذي نبالغ تماماً في أهميته، كل هذا يجعل منك الشخصية الأولى في فريير.

وقال السيد ده رينال وهو يبتسم قليلاً:

- تنسين المحتد.

وسارعت السيدة ده رينال:

- إنك واحد من الاشراف المميزين في المقاطعة، ولو كان الملك حراً، وكان باستطاعته أن يعيد الحقوق إلى أهلها، لكنت دون أدنى شك عضواً في غرفة حماة فرنسا، فهل تريد وأنت في هذا الوضع الرائع إعارة هذا الأمر اهتماماً كبيراً؟ إذا تكلمت مع فالينو عن رسالته المغفلة، تكون تعلن في كل فريير، في كل بزانسون، في كل المقاطعة أن هذا البورجوازي الصغير، الذي قُبل بتسرع في صالون واحد من عائلة «رينال»، وجد طريقة لاهانته. وعندما تثبت لك هذه الرسالة التي عثرت عليها إنني احببت عن حب السيد فالينو، عليك أن تقتلني، وسأكون مستحقة لذلك مئة مرة. ولكن عليك أن لا تظهر له الغضب. فكر في أن كل جيرانك لا ينتظرون إلا ذريعة للانتقام من تفوقك، فكر في أنك عام ١٨١٦ اشتركت في بعض الاعتقالات. وهذا الرجل الملتجىء تحت سقفك...

صرخ السيد ده رينال بكل المرارة التي تحييها ذكرى من هذا النوع:

- أفكر في أنك لا تكنين لي أي احترام أو صداقة. لم أكن

من حماة فرنسا!...

وقاطعته السيدة ده رينال وهي تضحك:

- أقصد أنني سأكون أغنى منك، وإنني رفيقتك منذ اثني عشر عاماً، وإنني لكل هذا يجب أن يكون لي موقف من كل القضايا، وخصوصاً في قضية اليوم.

وأضافت باحتقار لم تحسن إخفاءه:

- إذا كنت تفضّل السيد جوليان، فإنني مستعدة للذهاب وتمضية شتاء كامل عند عمتي.

قيلت هذه الكلمة بنجاح كبير. فكان فيها رنّةٌ من حزم تريد إحاطته بالتهذيب، وقرّر السيد ده رينال في الأمر. ولكنه، كعادة الارياف، تكلم طويلاً بعد ذلك وعاد إلى جميع الحجج، وتركته امرأته يقول كل شيء إذ كان الغضب لا يزال يشوب لهجته. وأخيراً، قوى هذا الرجل الذي عانى غضباً فظيعاً طوال الليل، استهلكت ساعتين من الثرثرة. وحدد المنهج الذي سيتّبعه تجاه فالينو وجوليان، بل وحتى إليزا.

واوشكت السيدة ده رينال، مرة أو مرتين، خلال هذا المشهد، أن ترق للتعاسة الحقيقية التي يحس بها هذا الرجل الذي كان، طوال اثنتي عشرة سنة، صديقها. ولكن العواطف

الحقيقية دائمًا أنانية. وعلى كل حال كانت في كل لحظة تنتظر اعترافاً بالرسالة المغفلة التي تلقاها في العشية. هذا الاعتراف لم يأت. وكان ينقص ثقة السيدة ده رينال معرفة الأفكار التي يمكن أن توحيها هذه الرسالة للرجل الذي يتعلق به مصيرها، لأن الزوج في الريف هو سيّد الأمور دائمًا، والزوج الذي يشكو، يغرق نفسه في السخرية، مما يصبح أقل خطراً في فرنسا، يوماً بعد يوم؛ ولكن امرأته تسقط إلى مرتبة العاملات بأجر خمسة عشر قرشاً في اليوم اذا امتنع عن إعطائها بعض النقود، بالاضافة إلى أن الأغنياء يقيمون العراقيل في طريقها.

قد تستطيع إحدى خادمات السراي أن تحب السلطان بكل قواها، فهو قوي، وهي لا تملك الأمل في أن تسرق منه سلطته بسلسلة من الحركات الناعمة الصغيرة. فانتقام السيد مرعب دموي، ولكنه عسكري كريم: ضربة خنجر تنهي كل شيء. وكان ما يدفع الزوج لقتل زوجته في القرن التاسع عشر: خوفه من الاحتقار العام، ومن سدّ جميع أبواب المجتمع بوجهه.

وعاد للسيدة ده رينال شعورها بالخطر، بصورة قوية، بعد أن رجعت إلى غرفتها. وصدمتها الفوضى التي وجدتها فيها. كانت كل إقفال صناديقها الرائعة الصغيرة مكسرة، وعدة ألواح في أرض الغرفة منتزعة من مكانها. فقالت في نفسها: كان سيكون دون شفقة علي! يخرّب هذه الألواح الخشبية الرائعة التي يحبها

كثيراً. كان يثور حمقاً وغضباً عندما يدخل أحد أولاده ويطأها بأقدام مبتلة. وها هي الآن تشوهت إلى الأبدا وعند رؤيتها لهذا العنف، أبعدت بسرعة، آخر ما كانت تحس به من لوم لنفسها على انتصارها السريع.

وقبل قرع جرس الغداء بقليل، عاد جوليان مع الأولاد. على المائدة، قالت له السيدة ده رينال بجفاف كبير، بعد أن انسحب الخدم:

ـ قلت لي مرة أنك ترغب في الذهاب لقضاء خمسة عشر يوماً في فريير. والسيد ده رينال يريد أن يمنحك هذه الاجازة. تستطيع أن ترحل عندما ترغب. ولكي لا يضيع الأولاد وقتهم، سنرسل لك، كل يوم، فروضهم لتصلحها.

وأضاف السيد ده رينال بلهجة حادة:

ـ طبيعي أنني لا أمنحك أكثر من أسبوع.

ووجد جوليان في وجهه حزن رجل معذب، فقال لصديقته في اللحظة التي بقيا فيها منفردين في الصالة:

ـ لم يثبت على قرار بعد.

وحكت السيدة ده رينال له باختصار كلّ ما قامت به منذ الصباح. وأضافت وهي تضحك:

ـ التفاصيل في الليل.

وفكّر جوليان: يا لدهاء النساء. أية لذة، أية غريزة تدفعهن لخيانتنا؟

وقال لها ببعض البرود:

ـ أجد أن حبك يفتح عينيك ويعميك في الوقت نفسه. كان تصرفك اليوم رائعاً. ولكن هل من التعقل أن نحاول اللقاء الليلة؟ البيت مليء بالاعداء؛ فكّري بالحقد الذي تكنّه إليزا لي.

ـ هذا الحقد يشبه كثيراً اللامبالاة الزائدة التي قد تظهرها أنت لي.

ـ حتى ولو كنت لا مبالياً، عليّ أن أنقذك من خطر أغرقتك أنا فيه. فإذا أراد السيد ده رينال صدفة أن يحدث إليزا، قد تقول له كل شيء قد يختبىء قرب غرفتي وهو يحمل السلاح...

وقالت السيدة ده رينال بكل تعالي الفتاة النبيلة:

ـ ماذا، حتى ولا الشجاعة!

ورد جوليان ببرود:

ـ لن أتدنى لأتحدث عن شجاعتي. هذه دناءة. فليحكم

الناس على الوقائع. وأضاف وهو يأخذ يدها: ولكنك لا تعرفين مدى تعلقي بك، ولا مقدار سروري في أن أودعك قبل هذا الفراق القاسي.

٢٢
من تصرّفات ١٨٣٠

اعطي الانسان النطق ليخفي أفكاره.
ر. ب. مالاغريدا

ولم يكد جوليان يصل إلى فريير حتى لام نفسه على حكمه الظالم بحقّ السيدة ده رينال. كنت حرياً بأن أكرهها لو لم تقم بما قامت به تجاه زوجها، نتيجة لضعفها! تخلصتُ من المأزق كالدبلوماسي، ولكنني أشعر بالعطف على المغلوب الذي هو عدوي. أن في هذا دناءة بورجوازية: صُدمتْ كبريائي لأن السيد ده رينال رجل! عضو في هذه الجمعية الواسعة الهائلة التي أتشرف بالانتساب إليها: لستُ إلا أحمق.

رفض الخوري شيلان كل المساكن التي قدمها إليه أكثر المتحررين إعتباراً في المنطقة، إذ اضطّر للخروج من الدير بعد تجريده. وكانت الكتب تشغل مساحة الغرفتين اللتين

استأجرهما. وأراد جوليان أن يُري فريير ماذا باستطاعة القسيس أن يكون، فذهب وأخذ من منشرة والده دزينة الواح الخشب، وحملها بنفسه على ظهره مجتازاً كل الشارع الكبير. ثم استعار بعض المعدات من رفيق قديم، وسرعان ما بنى نوعاً من الرفوف، رتّب عليها كتب الخوري شيلان.

قال له العجوز وهو يبكي من الفرح:

- ظننت كبرياء العالم أفسدتك. وما يعوّض عن هذه الطفولة لباسك بذلة حرس الشرف اللماعة التي كانت السبب في خلق أعداء كثيرين لك.

وكان السيد ده رينال أمره بالبقاء عنده. فلم يشكّ أحد في ما حدث. وفي اليوم الثالث لوصوله، رأى السيد ده موجيرون بذاته يصعد حتى غرفته. وبعد ساعتين من الثرثرة الفارغة والتعابير القاسية عن خبث الناس وقلة نزاهة الرجال المكلفين بإدارة الأملاك العامة، وعن الأخطار التي تتعرض لها فرنسا المسكينة. الخ.. حتى عرف موضوع الزيارة. وكانا أصبحا على قمة الدرج، والمربي المسكين يقود، باحترام لائق، محافظ المستقبل لاحدى المحافظات السعيدة، عندما خطر لهذا أن يهتّم بثروة جوليان، وأن يمتدح اعتداله في المسائل التي تتعلق بالأعمال المفيدة. الخ... الخ... وأخيراً عرض عليه السيد ده

موجيرون وهو يشدّه إليه بأبوية ظاهرة، أن يترك السيد ده رينال وأن يدخل في خدمة موظف عنده أولاد للتربية، يشكر السماء، كالملك فيليب، لا لأنها أعطته الأولاد فحسب، بل لأنهم وجُدوا في جوار السيد جوليان. وسيقبض مربي هؤلاء ثمانمائة فرنك لا تُدفع شهراً فشهراً بل على أربعة أقساط سلفاً.

جاء دور جوليان الذي انتظر الكلام بضجر، ساعة ونصف. وكان جوابة كاملاً، طويلاً كأنه أطروحة. تحدث فيه عن كل شيء ومع ذلك لم يقل أي شيء بوضوح. كان فيه الاحترام للسيد ده رينال، والامتنان لجمهور فريير والاعتراف بالجميل لنائب المحافظ المشهور. ودهش نائب المحافظ أن يجده يسوعياً أكثر منه، فحاول أن ينال شيئاً دقيقاً. وانتهز جوليان هذه الفرصة منتشياً ليتدرب، وأعاد جوابه بتعابير مختلفة. وإن أيّ وزير بليغ يريد أن يستخدم انتهاء جلسة مجلس النواب الذي يريد أن يستيقظ، لم يحدث أن قال أقل شيء في كلام أطول من جواب جوليان. ولم يكد السيد ده موجيرون يخرج، حتى أخذ جوليان في الضحك كالمجنون. وحتى يستفيد من بلاغته اليسوعية كتب رسالة، من تسع صفحات، إلى السيد ده رينال يخبره فيها عن كل ما قيل له، وطلب فيها نصيحته بتواضع. «ولكن هذا الملعون لم يقل لي اسم الشخص الذي يقدم العرض! لا شك في أنه السيد فالينو الذي يرى في نفيي إلى

فريير، نتيجة رسالته المغفلة».

وبعد أن أرسل جوليان رسالته، مسروراً كالصياد الذي في السادسة صباحاً من أيام الخريف الرائعة، يجد نفسه في سهل مليء بالطرائد، خرج وذهب يطلب نصيحة الكاهن شيلان.

وقبل أن يصل إلى بيت الخوري الطيب، أرادت السماء أن تزيد في سعادته فصادف السيد فالينو، ولم يخف عنه أنّ قلبه ممزق. كان على مسكين مثله أن يكّرس نفسه للنذر الذي وضعته السماء في قلبه. ولكن هذا النذر ليس كل شيء في هذا العالم. فلكي يعمل الإنسان بجدّ في كرمة الربّ، ولكي لا يكون غير جدير بكثير من العلماء المساهمين، يجب أن يتثقف، بتمضية سنتين في دير بزانسون باجتهاد، فيصبح من الضروري التقشف مما كان أسهل براتب ثمانماية فرنك تدفع على أقساط أربعة، بدل راتب ستماية فرنك تصرف شهراً فشهراً. ومن جهة أخرى، حين وضعته السماء قرب الصغار، أولاد السيد ده رينال، وضعت في نفسه تعلقاً خاصاً بهم، ألا يظهر من هذا أنها لا تريده يترك تربيتهم للذهاب إلى آخرين؟

بلغ جوليان في هذا النوع من التفكير، درجة الكمال التي حلت مكان سرعة العمل في ظل الامبراطورية، وانتهى الأمر به إلى الضجر من صدى كلماته.

عند عودته، التقى واحداً من خدم السيد فالينو، وفهم أنه كان يبحث عنه في كل أنحاء المدينة حاملاً إليه دعوة للغداء في اليوم نفسه.

ولم يكن سبق لجوليان أن ذهب إلى بيت هذا الرجل. بل، قبل أيام، لم يكن يفكر إلا في الوسائل التي يستطيع بها ضربه بالقضيب دون أن يسبب لنفسه احتكاكاً مع الشرطة الجزائية. ورغم الغداء كان معيناً في الواحدة، رأى جوليان أن يحضر في الثانية عشرة والنصف زيادة في الاحترام، إلى غرفة عمل السيد مدير المأوى. وجده غارقاً وسط كومة من الكرتون. ولم يحس جوليان بالاعجاب في عينيه، وكمية الشعر الهائلة، وقبعته اليونانية الموضوعة باعوجاج في أعلى رأسه، وغليونه الضخم وحذائه المطرز والسلاسل الذهبية الضخمة التي تتقاطع على صدره؛ بكلمة واحدة، لم يحس بالرهبة وهو يرى كل هذه الآلات عند متموّل ريفيّ يعتقد أنه رجل سعيد الحظ. ولم يفكر إلا بالحاح أكثر، في ضربات العصي التي يجب أن ينهال بها عليه.

وطلب أن يتشرف بالتعرف إلى السيدة فالينو، ولكنها كانت تقوم بزينتها ولا تستطيع استقباله. أسعده الحظ، على العكس، بحضور زينة السيد مدير المأوى. وانتقلا بعد ذلك إلى غرفة السيدة فالينو التي قدّمت له أولادها والدمعُ في عينيها. وكان

لهذه السيدة، وهي من أكثر السيدات اعتباراً في فريير، وجه كبير كوجوه الرجال، دلكته بالمساحيق لهذه المناسبة الكبرى.

فكر جوليان بالسيدة ده رينال. ولم يكن حذره، في السابق، يتركه معرضاً لهذا النوع من الذكريات التي يخلقها التناقض، ولكنه أحس عند ذلك بتأثيرها وشعر بالحنين. وازداد هذا الشعور عند رؤية بيت مدير المأوى، وهو تجوّل فيه برفقتهم. كان كل شيء فيه رائعاً جديداً، وكانوا يقولون له عن ثمن كل قطعة. ولكن جوليان كان يجد في ذلك شيئاً وضيعاً يحس الانسان فيه برائحة المال المسروق. كان الجميع، بما فيهم الخدم، يظهرون وكأنهم اخذوا احتياطاتهم حتى لا يُحْتَقَروا.

ووصل محصل الضرائب، ورجل الرسوم غير المباشرة، وضابط الدرك وموظفان أو ثلاثة، ومعهم زوجاتهم، وتبعهم بعض المتحرّرين الأغنياء. وبدأ الغَدَاء، وأخذ جوليان، إذ تضايق إلى آخر حد، يفكر أن، في الجهة الأخرى من حائط غرفة الطعام، بعض المعتقلين المساكين يشعرون، ولا شك، بالجوع، ليصار إلى شراء كل هذا الترف القليل الذوق يراد إغواءه به.

قد يكونون جائعين في هذه اللحظة. انقبضت حنجرته. ولم يعد باستطاعته أن يأكل، أو أن يتكلم. وبعد أقل من ربع

ساعة، سمع في البعيد لحن أغنية شعبية، مبتذلة نوعاً، يغنيها أحد المعتقلين. وتطلع السيد فالينو بأحد هؤلاء الناس الذين يلبسون الثياب المزركشة، فاختفى هذا الأخير، وسرعان ما انقطع الغناء. وفي هذه اللحظة، كان أحد الخدم يقدم لجوليان خمرة الرين، في كأس خضراء، وجعلته السيدة فالينو يلاحظ أن ثمن الزجاجة من هذه الخمرة تسع فرنكات. ورفع جوليان كأسه الأخضر وقال للسيد فالينو:

ـ لم يعد أحد يغني هذه الأغنية البشعة.

ورد المدير بانتصار:

ـ اعتقد هذا. فرضت السكوت على هؤلاء الأوباش.

كانت الكلمة قوية لجوليان: كان لديه الرغبة في السلطة، ولكن قلبه لم يصل بعد إلى هذه الدرجة. ورغم كل أنانيته التي مارسها مراراً، أحسّ بدمعةٍ تسيل على خده.

حاول اخفاءها بالقدح الأخضر، فلم يستطع أن يشكر ربة البيت على خمرة الرين. وقال لنفسه: أن تمنعه من الغناء! أوه يا إلهي! كم أنت تؤلمه!

ولحسن الحظ لم يلاحظ أحد من الحضور انعطافه المشمئز. بدأ محصل الضرائب بترنيم أغنية ملكية. وبينما الجميع يضربون

على الطاولة ويغنون كجوقة، قال ضمير جوليان: هذه إذن الثروة التي ستصل إليها، وأنت لن تنتقم بها إلا بهذا الشكل ومع رفاق كهؤلاء! قد تصير في مركزٍ راتبه عشرون ألف فرنك، ولكن عليك ساعتئذ أن تمنع المساجين المساكين من الغناء وأنت تحشو حنجرتك، وتدعو إلى الغداء بالمال الذي تسرقه من بؤس الآخرين، وتتركهم أتعس حالاً في وقت غدائك! ـ أوه يا نابليون! كان حلواً، في زمنك، الوصول إلى الثروة في المجازفة بالحياة في معركة؛ ولكن الوصول إليها يتم بمضاعفة ألم البائس!

الضعف الذي يظهره جوليان في هذا التفكير أبعده عن أن يكون رفيق هؤلاء المتآمرين ذوي القفازات الصفراء الذين يدعون أنهم يغيرون طريقة حياة بلاد كبيرة، ولا يريدون أن يلاموا على أية هفوة صغيرة.

عاد جوليان بعنف إلى تذكّر دوره. لم يدع للغداء مع هذه الرفقة «الجيدة» ليحلم ويسكت.

أحد صناعيي القماش المصبوغ، وهو عضو مراسل لاكاديمية بزانسون وأكاديمية «أوزيس» وجه إليه الكلام من أبعد جهة في الطاولة، وسأله عن صحة ما يقال عادة عن التقدم المدهش الذي أحرزه في دراسة العهد الجديد.

وران فجأة سكوت عميق؛ وظهر الكتاب في يد العضو العالم

في الاكاديميتين كأنما الأمر امتحان حقيقي. وقرئت، إثر جواب جوليان، جملة مختصرة باللاتينية انتقيت صدفة. وقرأ جوليان، واسعفته ذاكرته، وأعجب الجميع بهذا القاصر في آخر الغداء. وتطلع جوليان إلى وجوه السيدات المنيرة. كان فيهن جميلات. ولفتت نظره امرأة المحصل، المغني الجميل الصوت. فقال وهو يتطلع إليها:

ـ أخجل أن أتكلم طويلاً باللاتينية أمام السيدات. فإذا سمح السيد روبينيو، عضو الأكاديميتين، في قراءة جملة لاتينية، سأحاول ترجمتها تواً، بدلاً من قراءة النص الذي يتبعها باللاتينية.

ووضعت هذه التجربة الثانية على مجده أكاليل الغار.

كان في الحضور عدة متحرّرين أغنياء، ولكنهم آباء سعداء لأطفال قد ينالون منحة، ولهذا انقلبوا فجأة بعد زيارة الملك الأخيرة. ورغم هذا العمل الدبلوماسي الرفيع، لم يرد السيد ده رينال أن يستقبلهم في بيته. هؤلاء الناس الطيبون لم يكونوا يعرفون جوليان إلا عبر شهرته. رأوه على الجواد يوم دخول الملك، وكانوا من أشد المعجبين حماساً له.

فكّر جوليان في نفسه: متى يتعب هؤلاء البلهاء من الاستماع إلى هذا الاسلوب التوراتي، لا يفهمون منه شيئاً؟

أما هم فكانوا يتسلّون بهذا الأسلوب لغرابته، ويضحكون منه. ولكن جوليان تعب.

نهض بوقار عندمًا دّقت السادسة، وتكلم على فصل من اللاهوت الجديد، لمؤلفه «ليفوربو» كان عليه أن يحفظه، ليقوله في الغد أمام السيد شيلان. وأضاف بلطف:

ـ لأن مهنتي الاستماع إلى الدروس وتسميع غيري دروسي.

ضحك الجميع كثيراً، واعجبوا به. وكانت هذه هي الطريقة المستعملة في فريير. كان جوليان نهض، فنهض الجميع رغم هذا الجو، وكانت هذه سيطرة العبقرية. وأبقته السيدة ده فالينو ربع ساعة آخر، فمن الواجب أن يستمع للأولاد وهم يلقون درس الدين. قاموا بخلط طريف جداً، لم ينتبه له سواه، ولكنه لم يهتم بإظهاره.

وفكر في نفسه: أي جهل بمبادىء الدين الأولى!

وحيّا أخيراً وظنّ أنه يستطيع الانسحاب. ولكن كان لا بد من الاستماع إلى إحدى قصائد لأفونتين.

وقال جوليان للسيدة فالينو:

ـ هذا الكاتب لا أخلاقي. فبعض قصائده عن «جان شوار» تتجرأ وتهزأ بـاسمى المبادىء. وهـو جـد منتقـد من أحسن الباحثين.

تلقى جوليان قبل خروجه، أربع أو خمس دعوات للغداء، وقال جميع الندماء وهم مسرورون: هذا الشاب يشرّف المقاطعة. بل إن بعضهم تكلم على منحة تقتطع من أملاك البلدية لإيصاله إلى وضع يستطيع فيه متابعة دروسه في باريس.

وعندما رنت هذه الفكرة في غرفة الطعام، كان جوليان وصل إلى الباب الخارجي. وانفجر بصوت حقيقي صارخاً ثلاث أو أربع مرات: آه! أيتها البهائم! أيتها البهائم! ثم أحس بلذة استنشاق الهواء الطلق.

•

وأحس بالارستقراطية تغمره، هو الذي طالما أحس بالصدمة من الابتسامة الصفراء، والتفوّق المتعالي، اللذين كان يشعر بهما عبر التهذيب الذي كان يقابل به في بيت السيد ده رينال. ولم يستطع أن يمنع نفسه من الاحساس بالفرق الشاسع. وقال في نفسه وهو ذاهب: فلننس أن الأمر يتعلق بالمال المسروق من الفقراء المحجوزين الذين يُنعون من الغناء أيضاً! السيد ده رينال لم يجد من المناسب في أي وقت أن يقول لضيوفه ثمن كل زجاجة خمر كان يقدمها لهم. وهذا السيد فالينو في تعداده لممتلكاته دون انقطاع، لا يستطيع أن يتحدث عن منزله واراضيه، إذا كانت امرأته موجودة، دون أن يقول منزلك وممتلكاتك.

قامت هذه السيدة، أمامه وقت الغداء، ومظهرها يدل على تحسسها بلّذة التملك، ووبّخت أحد الخدم الذي كسر قدحاً، وعطل بهذا إحدى دزيناتها، فردّ الخادم عليها بمنتهى الوقاحة.

قال جوليان: أية مجموعة! لو أعطوني نصف ما يملكون لما قبلت العيش معهم. سأخون صبري ذات يوم، ولن أستطيع أن أحبس في نفسي تعبير الحقارة التي يقابلون بها الناس.

كان لا بد، مع ذلك، من حضور عدة ولائم من النوع ذاته، حسب أوامر السيدة ده رينال؛ وأصبح جوليان في مستوى مرموق. وغفر له الجميع اشتراكه في حرس الشرف، بل هذا الاشتراك كان السبب الحقيقي لنجاحه. وسرعان ما أصبحت المسألة في فريير، معرفة من سينتصر ليحوز على الشاب العالم: السيد ده رينال أم مدير المأوى. وكان هذان مع السيد ماسلون يشكّلون منذ سنوات عدة، الثلاثيّ الذي يستبدّ بالمدينة. كان الجميع يحسدون العمدة، والمتحرّرون يشكون من ذلك، ولكنه كان، في النهاية، نبيلاً؛ خُلِقَ ليتفوّق، بينما لم يترك والد السيد فالينو لابنه إلا دخلاً قدره ستمئة ليرة. وكان الجميع يشفقون عليه وهو يلبس بذلة خضراء بلون التفاح طوال سني شبابه، وهم الآن يحسدونه على جواديه النورمانديين وسلاسله الذهبية وملابسه التي يستقدمها من باريس، وعلى ازدهاره الحالي.

في لّجة هذا المجتمع الجديد على جوليان، ظنّ هذا الأخير أنه

اكتشف رجلاً شريفاً في شخص الجغرافي «غرو» المحسوب على اليعاقبة. ولما كان جوليان قرر ألا يقول إلا الأشياء التي يعرف أنها مغلوطة، كان مضطراً للظهور بمظهر الحذر من السيد غرو. وكان يتلقى من فرجي رزماً ضخمة من الفروض، وينصحونه بالذهاب لرؤية والده، فتمشى جوليان مع هذه الضرورة المحزنة. وبلكمة، أصلح، بشكل حسن، سمعته، عندما استيقظ ذات صباح على يدين تلمسان عينيه.

كانت تلك، يد السيدة ده رينال: قامت برحلة إلى المدينة، ووصلت إلى غرفة جوليان قبل أولادها، وتركتهم مهتمين بأرنب وجدوه، وقفزت درجات السلم أربعاً أربعاً. كانت هذه اللحظة لذيذة، ولكن قصيرة: ابتعدت عندما وصل الأولاد مع الأرنب وكانوا يريدون أن يراه صديقهم جوليان. استقبلهم بالترحاب، وخيل إليه أنه يعود إلى عائلته. وأحس أنه يحب هؤلاء الأولاد ويشعر باللذة في التحدث إليهم؛ ودهش من نعومة أصواتهم، ونبل حركاتهم الصغيرة. كان بحاجة إلى غسل خياله من كل كيفيات التصرف المبتذلة، ومن كل الأفكار الكريهة التي كان عليه أن يتنفس وسطها في فريير. كان دائم الخوف من التقصير؛ الترف والبؤس يتشادّان. كان الناس الذين تغدّى عندهم يقومون باعترافات مخجلة تثير الغثيان. وقال للسيدة ده رينال:

ـ أنتم النبلاء، لكم ملء الحق أن تفخروا.

وروى لها كل ما حدث له.

ـ إنك إذن على الطراز الحديث.

وضحكت بملء قلبها وهي تفكر بالأحمر الذي تعتقد السيدة فالينو أنها مضطرة لوضعه كلما كانت تنتظر جوليان.

ثم أضافت: أعتقد أنّ عندها مشاريع تتعلق بقلبك.

كان الغداء لذيذاً. فوجود الأولاد، رغم إزعاجهم الظاهري، كان يزيد في السعادة المشتركة. لم يعرفوا كيف يظهرون فرحهم برؤية جوليان. فالخدم لم يقصروا في اخبارهم أنه تلقى عرضاً يزيد بمئتي فرنك ليربّي أولاد فالينو.

في وسط الغداء، وكان ستانيسلاس ـ كزافيه لا يزال شاحباً أثر مرضه الكبير، سأل فجأة أمه كم يساوي غطاءه الفضي والقدح الذي يشرب به.

ـ ولَم هذا السؤال؟

ـ أريد أن أبيعها واعطي ثمنها لجوليان، حتى لا يكون مغفلاً إذا بقي عندنا.

قبّله جوليان والدموع في عينيه. وكانت الوالدة تبكي فأجلسه على ركبتيه وشرح له أن ليس من الجائز يستعمل كلمة مغفّل لأنها إذا استخدمت في هذا المعنى، فإنها لهجة الخدم. ولما رأى

اللذة التي يثيرها للسيدة ده رينال، حاول تفسير الأمر بأمثلة طريفة سلّت الأولاد. وقال ستانيسلاس:

ـ فهمت. إنه الغراب الذي ارتكب حماقة ترك قطعة الجبن، فأخذها الثعلب الذي لم يكن إلا مادحاً كذاباً.

وأغرقت السيدة ده رينال أولادها بالقبلات وهي مجنونة من الفرح، مما لم يتم دون الاتكاء على جوليان بعض الشيء.

فجأة انفتح الباب: السيد ده رينال. كان وجهه القاسي المنزعج، يشكل تضاداً غريباً من الفرح الناعم الذي طرده وجوده. وشحب لون السيدة ده رينال. وشعرت أنه ليس باستطاعتها أن تنكر أي شيء. وبدأ جوليان بالكلام، وتكلم بصوت عالٍ، وأخذ يروي للسيد العمدة ما قاله ستانيسلاس عن القدح الفضي الذي يريد أن يبيعه. كان واثقاً هذه القصة لن تستقبل بالترحاب. قطّب السيد ده رينال حاجبيه في أول الأمر لدى سماعه كلمة فضة. فالاشارة إلى هذا المعدن كما يقول، معناها مقدمة لبعض المصروفات التي تقتطع من أمواله.

لكن الأمر كان أكبر من أهمية الفضة: كان زيادة في الشكوك. فهيئة السعادة التي تغمر عائلته في غيابه لم تكن لتسهل ترتيب الأشياء عند رجل يسيطر عليه تعجرف بهذه القوة. ولما شرحت له زوجته الطريقة الرائعة الذكية التي قام بها جوليان

لإعطاء أفكار جديدة لتلاميذه، رد العمدة:

ـ أجل! أجل! أعرف ذلك. يجعلني كريهاً في نظر أولادي؛ من السهل جداً أن يكون حبيباً مئة مرة أكثر مني مع أنني أنا السيد. كل شيء في هذا القرن، يريد أن يجعل من السلطة الشرعية شيئاً كريهاً. يا لفرنسا المسكينة!

لم تتوقف السيدة ده رينال عن تفحص خفايا الاستقبال الذي تلقاها به زوجها. رأت إمكانية قضاء اثنتي عشرة ساعة مع جوليان. وكان عليها مجموعة من الأشياء تقوم بها في المدينة فأعلنت لا بد أن تتغدى في المطعم. ورغم ما حاوله زوجها، أصرت على فكرتها. الأولاد سروا بهذه الكلمة الوحيدة «المطعم» تلفظها بلذة أمهم بخفر جديد.

وترك السيد ده رينال زوجته في أول دكانة دخلتها، للقيام ببعض الزيارات. وعاد أكثر غضباً منه في الصباح، لأنه اقتنع أن المدينة كلها مهتمة به وبجوليان. وفي الحقيقة، لم يتجرأ أحد بعد على تشكيكه بالجانب المهين من كلام الناس. كل ما قيل للسيد العمدة كان يتعلق فقط بمعرفة ما إذا كان جوليان سيبقى عنده بستمائة فرنك، أم أنه سيقبل الثمانمائة فرنك التي عرضها عليه مدير المأوى.

مدير المأوى، صادف السيد ده رينال بين جمع، فقابله ببرود. ولم يكن هذا التصرف غير خال من المهارة، فليس من خبث

كثير في الريف: الحوادث المثيرة نادرة، وتغرق دائماً في الأعماق.

السيد فالينو كان ممن يدُعَون، على مئة فرسخ في باريس، الأوباش. نوع من الشخص الطبيعي الجريء الفظ. وكانت حالته المنتصرة منذ ١٨١٥ قوّت استعداداته الطبيعية. حكم في فريير، تحت أوامر السيد ده رينال، ولكنه انتهى بزعزعة نفوذ العمدة في نظر السلطة الكهنوتية لأنه أكثر نشاطاً وأقل خجلاً منه، ولمداخلاته الواسعة وحركته الدائمة وكتاباته وكلماته ونسيانه للإهانات، وعدم افتخاره بأصله. لكأنما قال السيد فالينو لتجار السمانة: اعطوني اثنين من أكثركم حماقة، ولرجال القانـون: عينوا لي اثنين من أكثركم كذباً، ولضباط الصحة: دلوني على اثنين من أكثركم تلاعباً. وعندما جمع هؤلاء قال لهم: فلنحكم معاً.

كانت طرق هؤلاء الناس تجرح السيد ده رينال. بينما كانت فظاظة فالينو أمنع من أن تهان، حتى ولا بالتكذيبات التي لم يكن القسيس الصغير ماسلون يوّفرها عليه علناً.

ولكن، وسط كل هذا الازدهار، كان على السيد فالينو أن يتحصن بوقاحات صغيرة تفصيلية، ضدّ الحقائق الكبيرة التي كان يحس الجميع على حق في توجيهها له. تضاعف نشاطه منذ المخاوف التي تركتها له زيارة السيد ابيرّ، فقام بثلاث رحلات إلى بزانسون، وكان يكتب رسائل عدة في كل بريد، ويرسل

غيرها بواسطة مجهولين يأتون إلى بيته عند هبوط الليل؛ قد يكون ارتكب خطأً بتجريد الخوري العجوز شيلان، لأن هذا التصرف القاسي، جعله في نظر كثير من المتدينين الطيبين، رجلاً جدّ خبيث. وعلى كل حال هذه الخدمة جعلته خاضعاً تماماً للسيد المبعوث الكبير «فريلير» وكان يتلقى منه تكليفات غريبة. وكانت سياسته وصلت إلى هذه المرحلة، عندما استغرق في لذةٍ بكتابة رسالة مغفلة. وحتى يزيد إحراجه، أعلنت زوجته أنها تريد أن يكون جوليان في بيتها، فتكّلل بذلك تعجرفه.

في هذا الوضع، كان السيد فالينو يتوقّع حدوث احتدام حاسم مع زميله السابق السيّد ده رينال. وكان هذا الأخير وجه إليه كلمات قاسية، مما كان بالنسبة إلى فالينو قليل الأهمية، لأن باستطاعته الكتابة إلى بزانسون، بل إلى باريس. وقد يحضر قريب إحد الوزراء فجأة إلى فريير ويأخذ مأوى الفقراء. وفكّر فالينو بالتقرب من المتحرّرين: كان ثمة عدّة مدعوين يوم دعي جوليان. وروت السيدة ده رينال حكاية هذه السياسة لجوليان عندما كان يعطيها ذراعه للذهاب بين دكّان وآخر، ورويداً رويداً وصل الجميع إلى باحة الأمانة حيث أمضوا ساعاتٍ هادئة كالتي كانوا يقضونها في فرجي.

في هذا الوقت، كان السيد فالينو يحاول إبعاد احتكاكٍ حاسم مع سيده السابق، باتخاذ هيئة الجريء نحوه. نجحت هذه

الطريقة ولكنها زادت في غضب العمدة.

ولم يكن من المعقول أن يكون لحب التملك والتعجرف وحب المال تأثير أقوى وأكثر مسكنة من تأثيرها على السيد ده رينال، وهو يدخل المطعم. وعلى العكس، لم يشعر أولاده بفرح ومرح أكثر مما كانوا لحظتها فيه. وزاد هذا التضامن في إيلامه فقال، وهو يدخل، بلهجة حاول أن يجعلها حازمة:

- غير مرغوب فيّ بين أفراد عائلتي، كما أرى!

لم تجب زوجته بشيء سوى أنها أخذته بعيداً وعبرت له عن ضرورة إبعاد جوليان. الساعات السعيدة التي أمضتها اليوم أعادت إليها السهولة والحزم الضروريين لتنفيذ مخطط سلوكها الذي كانت تفكر فيه طوال خمسة عشر يوماً. ومما زاد في اضطراب عمدة فريير، أن الجميع كانوا يتندرون علناً في المدينة على تعلقه بالمال: كان السيد فالينو كريماً كاللص، فيما هو تصرّف بطريقةٍ حذرة أكثر منها لامعة حول الستة اكتتابات الأخيرة لأخوية القديس يوسف ورهبانية العذراء وأخوية القربان الأقدس...

بين المتبرعين في فريير وجوارها، المسجلين دون ترتيب على سجلات الجباة حسب كمية هباتهم، كان اسم السيد ده رينال مكتوباً لمرات عديدة في آخر اللائحة. وعبثاً كان يقول أنه لم

يكن يكسب شيئاً. فرجال الاكليروس يتشدّدون في هذه القضية.

٢٣
أحزان موظف

بقي الرجل الصغير سجيناً لأحزانه الصغيرة: لماذا أدخل إلى بيته رجلاً مغرماً بشؤون القلب بينما كان يلزمه روح خادم؟ لكم يجهل كيف ينتقي من عنده؟ والعادة في القرن التاسع عشر: عندما يصادف الرجل النبيل القويّ رجلاً مغرماً بشؤون القلب، يقتله، ينفيه، يسجنه، يحقّره لدرجة يرتكب الآخر معها حماقة الموت من الألم. وهنا لم يكن رجل القلب الذي يتألم. وأكبر شقاء مدن فرنسا الصغيرة وحكومات الانتخابات، كما هو لنيويورك، أنها لا تنسى مخلوقات كالسيد ده رينال. فوسط سكان المدينة العشرين ألفاً، يشكّل هؤلاء الرجال الرأي العام؛ والرأي العام شيء مخيف في بلادٍ لها شرعتها. وإذا كان لك صديق له روح نبيلة وكريم، ولكنه يسكن على مئة فرسخ عن سكنك، يحكم عليك عبر رأي مدينتك فيك. وهذا الرأي يكوّنه الحمقى الذين جعلتهم الصدف يخلقون نبلاء، أغنياء ومتوسطين. والشقاء لمن يتميّز!

بعد الغداء، رحل الجميع تواً إلى فرجي؛ لكنّ جوليان رأى العائلة كلها تعود بعد يومين إلى فريير.

وبعد ساعة، اكتشف جوليان، بدهشة كبيرة، أن السيدة ده رينال، تخفي عنه شيئاً: كانت تقطع حديثها مع زوجها عندما يظهر هو، وتظهر كأنها تريده أن يبتعد. اكتفى جوليان باشارتين من هذه الحركات فأصبح بارداً متحفظاً. ولاحظت السيدة ده رينال ذلك، ولكنها لم تطلب منه أيّ تفسير: هل تريد أن تستبدلني؟ كانت، أول أمس، حميمة معي! ولكن يقال أن كل النساء النبيلات تتصرفن هكذا. إنّهن كالملوك يقومون بمجاملات فخمة نحو الوزير فما يدخل عليهم حتى يجد عندهم مرسوم اعفائه.

ولاحظ جوليان أن كل الأحاديث التي كانت تنقطع عند اقترابه، تدور حول بيت كبير تملكه بلدية فريير، قديم ولكنه واسع مستوفي الشروط، ويقع تجاه الكنيسة، في أكثر أمكنة فريير تجارة. ماذا يمكن أن تكون العلاقة بين هذا المنزل والعشيق الجديد؟ وكان يردّد، وهو في غمرة حزنه، هذه الأبيات الجميلة لفرانسوا الأول، وهو يتخيل أنها جديدة لأنّ السيدة ده رينال قالتها له منذ ما لا يزيد عن شهر. وكم من مداعبة كذبت هذه الأبيات؟

«غـالـبـاً مـا تتـغـير المـرأة
ومجـنـون مـن يـثـق بهـا.»

سافر السيد ده رينال في مهمة إلى بزانسون. تقررت هذه الرحلة في ساعتين، وكان يظهر مشغول البال. وعند رجوعه، رمى رزمة كبيرة، مغلفة بورق رمادي، على الطاولة وهو يقول لامرأته:

ـ ما هي هذه القضية الحمقاء.

وبعد ساعة، رأى جوليان الرجل الذي حمل الرزمة. فتبعه بتحفز وحرارة. سأعرف السر قريباً عند أول زاوية في الشارع.

وانتظر وراء الرجل، الذي طلى ظهر إحدى الأوراق وألصقها. ولم يكد يراها حتى قرأ جوليان فيها إعلاناً جد مفصل عن عرض بالمزاد العلني، لذلك البيت الكبير القديم الذي تردد في حوارات السيد ده رينال وزوجته. وكان موعد المزايدة معيناً في الغد عند الثانية في قاعة البلدية عند اطفاء الشعلة الثالثة. ودهش جوليان، إذ وجد مدة الاعلان قصيرة، فكيف يستطيع جميع المتنافسين أن يعرفوا بالأمر؟ كان الاعلان مؤرخاً بتاريخ خمسة عشر يوماً مضت، وقرأ ذلك في ثلاثة مواضع مختلفة، ولكنه لم يفهم أي شيء.

وذهب لزيارة البيت المعروض للايجار. وكان البواب الذي لم

يره، يقول بسرية لجاره:

ـ هه! هه! تعب دون جدوى، وعده السيد ماسلون أنه سيناله بثلاثمائة فرنك ولما كان العمدة حاول الاعتراض، استأنف للأبرشية واستعان بالمبعوث الأكبر فريلير.

ويظهر أن وصول جوليان ضايق الصديقين، فلم يضيفا كلمة على ما سبق وقالاه.

ولم يفت جوليان حضور المزايدة. كان جمهور كبير في قاعة سيئة الإضاءة، ولكنّ الجميع كانوا ساكتين بشكل غريب. كانت كل الأنظار منصبة عند طاولة رأي جوليان عليها صحناً من القصدير فيه ثلاثة أعقاب شموع مشتعلة. وكان الدلّال يصرخ: ثلاثمائة فرنك أيها السادة!

قال رجل لجاره بصوت خفيض وكان جوليان بينهما:

ـ ثلاثمائة فرنك! فظيع جداً. يساوي ثمانمائة، سأغطي هذه المزايدة.

ـ معنى هذا أن تبصق في الهواء. ماذا تربح بمعاداتك للسيد ماسلون والسيد فالينو والكاهن والمبعوث الرهيب الكبير فريلير وكل الشلة؟

ورد جاره قائلاً:

ـ يا للحيوان البشع! ها هو جاسوس العمدة.

أضاف هذا مشيراً إلى جوليان.

والتفت جوليان يريد معاقبة من تلفظ بهذه الكلمات، ولكن الرجلين كانا انشغلا عنه تماماً. وأعاد برودهما إليه برودته. وفي هذه اللحظة انطفأ عقب الشمعة الأخير وأعلن الدلّال بصوت ممطوط أن المزاد رسى، لتسع سنوات، على السيد ده سان ـ جيرو رئيس مكتب محافظة... بثلاثمائة وثلاثين فرنكاً.

بعد أن خرج العمدة من القاعة، بدأت التقوّلات. فقال أحدهم:

ـ ها ثلاثون فرنك ربحتها البلدية نتيجة لقلة حذر غروجو.

وأجاب آخر:

ـ ولكن السيد ده سان جيرو سينتقم من غروجو. لن يتركها تمر.

وقال رجل ضخم الجثة كان إلى جوار جوليان:

ـ أية إهانة! كنت على استعداد لأدفع ثمانمائة فرنك لمصنعي، وأكون قمت بعملية رابحة.

وأجابه صناعي شاب متحرر:

ـ هـه! أليس السيد ده سـان ـ جيرو عضـواً في المجمـع الكنـائسي؟ ألا يحصل أولاده الأربعـة على منـح؟ يا للرجـل المسكين! يجب أن تعين له فريير معاشاً إضافياً من خمسمائـة فرنك. هذا كل شيء.

ولاحظ آخر:

ـ أضف إلى أن العمدة لم يستطع أن يمنعه! لأنه رجعي، يا للحظ الطيب! ولكنه لا يسرق.

ورد آخر:

ـ لا يسرق؟ لا. الحمامة هي التي تسرق. وكل هذا يدخل في بورصة كبيرة مشتركة، ثم يوزّع في مدى سنة. ها هو سوريل الشاب. هيا بنا.

عاد جوليان وهو متضايق جداً. ووجد السيدة ده رينال قالت له، حزينة جداً:

ـ أنت عائد من المزايدة؟

ـ نعم يا سيدتي، تشرفت فيها بأن أكون جاسوس السيـد العمدة.

ـ لو صدقني، لقام برحلة.

في هذه اللحظة، ظهر ده رينال. وكان عابساً. ومر الغداء دون أن يتلفظ أحد بكلمة. وأمر السيد ده ررينـال جوليـان باللحاق بالاولاد في فرجي، وكانت الرحلة حزينة. عزّت السيدة ده رينال زوجها قائلة:

ـ يجب أن تعتاد هذا يا صديقي.

وفي المساء، جلسوا حول الموقد العائـلي، وصوت الخشب المشتعل هو التسلية الوحيدة. كان نوعاً من الحـزن الذي في العائلات المتحدة تماماً. وصرخ أحد الأولاد بفرح:

ـ قرع الجرس! قرع الجرس!

وصرخ العمدة:

ـ وحق السماء! لو كان السيد ده سان جيرو وأتى يضايقني بحجة شكره فسأقول له عن عمله إن هذا فظيع. كان عليه أن يذهب إلى فالينو فهو مدين له بذلك. أنا نفذت عليّ المؤامرة. ماذا أقول لو تلقفت هذه الصحف اليعقوبية الحكاية وجعلت مني السيد الخامس والتسعين؟

دخل في هذه اللحظة رجل جميل جداً، ذو عينين جميلتين كبيرتين سوداوين، يتبع واحداً من الخدم.

ـ سيدي العمدة، أنا السيد جيرونيمو. ومعي رسالة لك من

فارس ده بوفيزي، الملحق في سفارة نابولي.

وأضاف بلهجة مرحة:

ـ منذ تسعة أيام فقط. وتطلع بالسيدة ده رينال. والسنيور ده بوفيزي، ابن عمك، وصديقي الطيب، قال إنك تعرفين الايطالية، سيدتي.

وكان مزاح النابولي المرح سبباً في قلب هذه السهرة الحزينة إلى سهرة مرحة. وأصرت السيدة ده رينال أن تقدم له العشاء، فعمت الحركة جميع من في البيت. كانت تريد بأي ثمن تسلية جوليان عن صفة الجاسوس التي سمعها اليوم مرتين تضرب أذنه. وكان السيد جيرونيمو مغنياً مشهوراً، ونديماً لذيذاً، وجدّ مرح، وهذه الصفات في فرنسا لم تعد تجتمع في شخص واحد. وغنى بعد العشاء أغنية صغيرة مع السيدة ده رينال. وروى حكايات ساحرة. وفي الواحدة صباحاً، صرخ الأولاد عندما اقترح عليهم جوليان الذهاب إلى النوم. قال الأكبر:

ـ هذه القصة بعد.

وعاد السنيور جيرونيمو إلى الكلام:

ـ إنها قصتي أيها السيد الصغير. منذ ثماني سنوات، كنت مثلك، تلميذاً صغيراً في كونسرفاتوار نابولي، أقصد كنت في

عمرك؛ ولكنني لم أحظ بشرف أن أكون ابناً للذائع الصيت عمدة مدينة فريير الجميلة.

أثارت هذه الكلمة تنّهد السيد ده رينال. وتابع المغني الشاب وهو يغيرّ في نغمات صوته قليلاً بشكل كان الأولاد ينفجرون بعدها ضاحكين.

ـ السنيور زينغاريلي كان استاذاً، ولم يكن محبوباً في الكونسرفاتوار، لكنه كان يريدنا نتصرف دائمًا كأننا نحبه. وكنت أهرب كلّما سنحت لي الفرصة. فأذهب إلى مسرح سان كارلينو، حيث كنت استمع إلى موسيقى الآلهة: ولكن أوه! يا للسماء! كيف أجمع الثمانية قروش اللازمة للدخول للمسرح؟ قال وهو يتطلع بالاولاد: مبلغ ضخم. وانفجر الأولاد ضاحكين. وسمعني السنيور جيوفانّون مدير سان كارلينو. وكنت آنذاك في السادسة عشرة. فقال: هذا الولد كنز.

وجاء إليّ:

ـ تشتغل عندي، يا صديقي العزيز؟

ـ وكم تعطيني؟

ـ أربعين دوقية في الشهر. وتصوروا أيها السادة، مئة وستين فرنكاً. ظننت أنني أرى السماوات تنفتح.

وقلت لجيوفانّون:

ـ ولكن كيف استطيع الحصول على موافقة زينغاريلي، ليسمح لي بالخروج؟

ـ اترك ذلك لي.

وصرخ الابن الأكبر: اترك ذلك لي.

ـ تماماً يا سيدي الصغير. وقال السنيور جيوفانون لي:

ـ فلنوقع قبل كل شيء عقداً بسيطاً. ووقّعت، فأعطاني ثلاث دوقيات. ولم أكن رأيت في حياتي مبلغاً كهذا. وبعد ذلك أخبرني ماذا علي أن أفعل.

وفي اليوم التالي، طلبت مقابلة السنيور زينغاريلي المخيف. وادخلني خادمه العجوز.

وقال لي زينغاريلي:

ـ ماذا تريد أيها الولد السيّىء؟

قلت له:

ـ مايسترو، أنا نادم على أغلاطي، ولن أخرج بعد الآن من الكونسرفاتوار بالقفز فوق سور الحديد. وسأضاعف انتباهي.

ـ لو لم أكن أخشى أن أخسر أحسن صوت رخيم سمعته،

لوضعتك في السجن خمسة عشر يوماً على الخبز والماء فقط.

قلت:

- مايسترو، سأكون مثالاً لكل المدرسة. ثق بي. إنما أطلب منك معروفاً: إذا جاء أحدهم وطلب مني الغناء في الخارج، لن ترفض هذا.

- ومن تريده أن يطلب غلاماً سيئاً مثلك؟ هل تظنني أسمح لك بمغادرة الكونسرفاتوار؟ وقال وهو يحاول أن يركلني بقدمه على قفاي.... إذهب! إذهب وإلا فالسجن والخبز الناشف.

بعد ساعة! وصل السنيور جيوفانون وقال له:

- أطلب منك أن تساعدني على جمع الثروة. أعطني جيرونيمو، فليغن في مسرحي لأزوج، هذا الشتاء، ابنتي.

ورد عليه زينغاريلي:

- ماذا تريد أن تفعل بهذا العنصر السيء؟ لا أريد، ولن يكون ذلك. وعلى كل حال، حتى ولو وافقت، لن يترك الكونسرفاتوار. أقسم لي على ذلك منذ قليل.

فأخرج من جيبه العقد الذي وقعته وقال:

- إذا لم يتعلق الأمر إلا بارادته، فها هي بطاقته. وها هو توقيعه.

وسرعان ما التقط زينغاريلي جرسه بعنف وصرخ وهو يغلي من الغضب:

ـ فليطردوا جيرونيمو من الكونسرفاتوار.

وهكذا طُرِدْت. وضحكت كثيراً. وفي المساء نفسه، غنّيت لحن: دل مولتيبيكو؛ وكانت بوليشينيلا نريد أن تتزوج وتعد على أصابعها، الأغراض التي تلزمها في بيتها، وكانت تتعثرّ، كل لحظة، في حسابها هذا.

وقالت السيدة ده رينال:

ـ آه! هل تريد، سيدي أن تغني لنا هذا اللحن؟

وغنىّ جيرونيمو، وبكى الجميع من شدة الضحك. ولم يذهب السنيور جيرونيمو للنوم قبل الثانية صباحاً، تاركاً العائلة منتشية من تصرفاته الطيبة ومرحه ولذة جلسته.

وفي اليوم التالي أعطاه السيد والسيدة ده رينال الرسائل التي يحتاجها في بلاط فرنسا.

وقال جوليان:

ـ هكذا إذن، الكذب في كل مكان. ها السنيور جيرونيمو ذاهب إلى لندن بأجر قدره ستون ألف فرنك. ولم يعرف مدير سان كارلينو كيف يتصرف، لما اكتشف صوته الموهوب قبل عشر

سنوات أو أكثر... وحق إيماني، أفضل أن أكون جيرونيمو وليس رينال. ليس محترماً جداً في المجتمع، لكنه لا يحمل همّ القيام بمزايدات كالتي حدثت اليوم، وحياته مرحة.

ودهش جوليان لشيء واحد: الأسابيع التي قضاها في فريير وحيداً، وفي بيت السيد ده رينال، كانت له فترة سعادة. فلم يصادف القرف والأفكار الحزينة إلا في الدعوات التي لباها. ألم يكن يستطيع في هذا البيت المنفرد أن يقرأ، يكتب، يفكر دون أن يعكره عائق؟ لم يكن في كل لحظة يخرج من أحلامه البراقة لضرورة قاسية ودراسة حركات روح دنيء، وأيضاً لخداعها بمساع أو أقوال خادعة.

هل تكون السعادة قريبة مني؟ تمضية حياة كهذه شيء قليل. أستطيع باختياري أن أتزوج الآنسة إليزا، أو أكون شريكاً لفوكيه... ولكن المسافر الذي ارتقى جبلاً عالياً، يجلس على القمة، ويجد لذة كاملة في الراحة. هل يكون سعيداً لو أجبر على الراحة دائماً؟

وصل تفكير السيدة ده رينال إلى أفكار حتمية. اعترفت لجوليان، رغم قراراتها، بقضية المزايدة في تفاصيلها. وفكرت: سينسيني إذن اليمين التي حلفتها.

كانت مستعدة للتضحية بحياتها كي تنقذ حياة زوجها، لو

كانت في خطر. كانت إحدى هذه المخلوقات النبيلة الشاعرية، التي إذا رأت عملاً كريماً ولم تفعله، تحس بتأنيب ضمير يوازي الجريمة التي ارتكبتها. ولكنها مع ذلك، كانت تمر بها أيام قاتمة لا تستطيع معها أن تطرد صورة السعادة الفياضة التي ستتذوّقها إذا أصبحت أرملة فجأة، إذ تستطيع أن تتزوج جوليان.

يحب أولادها أكثر من أبيهم، ورغم عدالته القاسية، يعبدونه. كانت تعرف جيداً، أنها إذا تزوجت جوليان، عليها أن تترك فرجي حيث الظلال العزيزة على قلبها. كانت ترى نفسها تعيش في باريس، وتستمر في إعطاء أولادها التربية التي تثير إعجاب الجميع. كان أولادها وهي وجوليان، في منتهى السعادة.

تأثير غريب من الزواج، كما كان في القرن التاسع عشر. ضجر الحياة الزوجية يذبل زهور الحب، عندما يسبق الحب الزواج. ومع ذلك قال أحد الفلاسفة: إنه عند الناس الاغنياء الذين لا يشتغلون يسبب الضجر العميق من كل الملذات الهادئة. والأرواح الجافة، عند النساء، هي وحدها التي لا يعدها الزواج للحب.

فكرة الفيلسوف تخلق عذراً للسيدة ده رينال، ولكن فريير لم تعذرها، وكانت كلّ المدينة، دون أن تعرف، لا همّ لها إلا فضائح حبها. وبسبب هذه القضية الكبيرة، كان الخريف عامئذ

أقل ضجراً من المعتاد.

ومضى الخريف، وقسم من الشتاء بسرعة. وكان من الواجب ترك غابات فرجي. وأخذت العائلات الطيبة في فريير تشمئز من قلة تأثير هذه الحركات على السيد ده رينال. وقبل أقل من ثمانية أيام، أثار أقسى الشكوك في قلبه أشخاص وقورون تنازلوا عن رزانتهم المعهودة واستعاضوا عنها بلذة القيام بهذا النوع من المهمات، باستخدامهم أكثر التعابير تحفظاً.

السيد فالينو، الذي كان يقوم بمعركة حامية، وضع إليزا في خدمة عائلة نبيلة معتبرة، فيها خمس نساء. كانت تخشى أن لا تجد مكاناً قبل الشتاء، ولذلك قبلت بما يقارب ثلثي ما كانت تقبضه في بيت السيد العمدة. واهتدت هذه الفتاة، بنفسها، إلى فكرة رائعة: أن تذهب للاعتراف عند السيد شيلان الخوري السابق، وفي الوقت نفسه عند الخوري الجديد، برواية تفاصيل حب جوليان.

وفي اليوم التالي، استدعى الأب شيلان، منذ وصوله في السادسة صباحاً، جوليان وقال له:

ـ لا أطلب منك شيئاً، إنما أرجوك، وعند الضرورة، آمرك أن لا تقول لي أي شيء. أريدك أن تذهب إلى دير بزانسون أو أن تلتحق بصديقك فوكيه في ثلاثة أيام. هو مستعد دائمًا لتأمين

مستقبل حسن لك. اعددت العدة لكل شيء، ورتبته، ولكن يجب الرحيل وعدم العودة إلى فريير لمدة سنة.

لم يردّ جوليان بشيء؛ كان يبحث إذا شرفه اهين من الاهتمام الذي يبديه السيد شيلان، الذي في النهاية ليس والده. وقال أخيراً للخوري:

ـ غداً، في مثل هذه الساعة، سيكون لي شرف رؤيتك.

وتكلم السيد شيلان كثيراً، وهو يظن أنه سيقابل بصراع كبير من هذا الشاب. ولم ينبس جوليان بكلمة وهو قابع تدل هيئته وموقفه على أقصى آيات التواضع.

خرج وركض يعلم السيدة ده رينال التي وجدها في حالة يأس. تكلم زوجها معها منذ قليل ببعض الصراحة. وكان ضعف خلقه الطبيعي وتفكيره في إرث بزانسون، دفعاه ليقرر اعتبارها بريئة تماماً. اعترف لها قبل قليل بالحالة الغريبة التي وجد فيها الرأي العام في فريير. والجمهور مخطىء. ضلله بعض الحاسدين. ولكن ما العمل آخر الأمر؟

خيل للسيدة ده رينال، لأول وهلة، أن جوليان قد يقبل عرض السيد فالينو ويبقى في فريير. ولكنها لم تعد المرأة البسيطة الحيية التي كانتها قبل سنة؛ أنارتها عاطفتها الجارفة، وتأنيبات ضميرها فتحت عينيها. واحست بالألم وهي تثبت لنفسها أن

فراقاً، على الأقل مؤقتاً، أصبح لا بد منه. وسيعود جوليان، بعيداً عني، إلى مشاريعه الطموحة، الطبيعية بالنسبة لمن لا يملك شيئاً. وأنا، يا إلهي! غنية! ولكن غناي غير مفيد لسعادتي! سينساني. وبما أنه محبوب، فستحبه بعض النساء، وسيحب. آه! يا لتعاستي... من أي شيء أشكو؟ السماء عادلة. لم أحز على جدارة إيقاف الجريمة، ولذلك تنتزع مني القدرة على الحكم. كان في وسعي أن أجعله يكسب إليزا بالمال، وكان هذا سهلاً جداً. ولكنني لم أكلّف نفسي مشقة التفكير للحظة واحدة. كانت خيالات الحب المجنونة تمتص كلّ وقتي. إنني أذبل.

ودهش جوليان من شيء واحد، وهو يسمع خبر السيدة ده رينال: لم يجد أي اعتراضٍ أناني. كانت تقوم بمجهودات كبيرة لتحبس دموعها.

ـ إننا بحاجة إلى الصلابة يا صديقي.

وقطعت خصلة من شعرها. وقالت له:

ـ لا أعرف ما سأفعل، ولكن إذا متّ، عدني إنك لن تنسى أطفالي. حاول أن تجعل منهم أناساً شرفاء، سواء كنت بعيدة أو قريبة. فإذا قامت ثورة جديدة، جميع النبلاء سيُذبحون، وقد يهرب والدهم بسبب هذا الفلاح الذي قتل على أحد السطوح. أسهر على العائلة... أعطني يدك. الوداع يا صديقي! إنها

اللحظات الأخيرة. إذا قمت بهذه التضحية، أرجو أن تكون لديّ الشجاعة لأفكر في سمعتي تجاه الرأي العام.

كان جوليان يستمع بفارغ صبر. أثرت فيه بساطة هذا الوداع.

ـ لا، لا أتلقى هكذا وداعك. سأرحل، يريدون ذلك، وأنت أيضاً تريدينه. ولكنني سأعود بعد رحيلي بثلاثة أيام لأراك في الليل.

وتغيرت حياة السيدة ده رينال. جوليان يحبها إذن، لأنه فكر، من تلقاء نفسه، بفكرة لقائها! وتحول ألمها البشع إلى أروع البهجة التي لم تشعر بها طوال حياتها. وهان عليها كلّ شيء. وزال ألم الفراق، نتيجة لثقتها في رؤيته مرة أخرى. ومنذ تلك اللحظة، أصبح مسلك السيدة ده رينال وهيئتها نبيلين صلبين ومناسبين تماماً.

وكان أن جاء السيد ده رينال، غير متمالك لنفسه. وتحدث إلى امرأته عن الرسالة المغفلة التي تلقاها قبل شهرين.

ـ سآخذها إلى الكازينو وأعرّف الملأ من هو هذا المنحط فالينو الذي التقطته من الشارع لأجعل منه أغنى بورجوازيي فريير. سأهينه علناً، ثم أبارزه.

وفكرت السيدة ده رينال: قد أصبح أرملة، يا إلهي! ولكنها تقريباً في اللحظة نفسها، قالت لنفسها: إذا لم أمنع هذه المبارزة، سأكون قاتلة زوجي.

ولم تشعر في حياتها بأنها تستطيع تدبير كبريائها بهذه المهارة. وفي أقل من ساعتين، استطاعت أن تريه، بأسباب وجدتها فيه، أن عليه الظهور أكثر من أي وقت بعلامات الصداقة نحو فالينو، بل عليه إعادة إليزا إلى البيت. وكانت السيدة ده رينال بحاجة ماسة إلى الشجاعة لتقرر رؤية هذه الفتاة التي كانت السبب في كل هذه التعاسات. ولكن هذه الفكرة كانت من وحي جوليان.

وأخيراً، وبعد أن حاولت السيدة ده رينال ثلاث أو أربع مرات الاشارة إلى فكرة معينة، توصّل السيد ده رينال، بنفسه، إلى الفكرة المالية القاسية: المزعج أن يبقى جوليان في فريير كمربٍّ لأولاد السيد فالينو، وسط كل هذه التقولات الشائعة في المدينة. فمصلحة جوليان الواضحة هي في قبول عروض مدير المأوى. وعلى العكس، من المهم، لمجد السيد ده رينال، أن يترك جوليان فريير ليدخل دير بزانسون أو ديجون. ولكن كيف العمل لاقناعه، ثم كيف يعيش هناك؟

وعندما رأى السيد ده رينال التضحية المالية الداهمة. أصبح

أكثر بأساً من امرأته. وكانت هي، بعد هذه المحادثة، كالرجل الشجاع، أخذ جرعة من السترامونيوم بعد أن تعب من الحياة، فلم يعد يتصرف إلا بردات الفعل، ولم يعد يهتمّ بأي شيء. كما حدث للويس الرابع عشر، إذ قال وهو يموت: «عندما كنت ملكاً» يا للكلام الرائع!

في اليوم التالي، وفي ساعة مبكرة جداً، تلقى السيد ده رينال رسالة مغفلة. وكانت هذه مكتوبة بأسلوب مهين. وكانت أكثر الكلمات التي تنطبق على حالته، تتردّد في كل سطر. كانت من عمل بعض الحاسدين المغمورين. وأعادت هذه الرسالة إليه فكرة المبارزة مع السيد فالينو. وسرعان ما ذهبت به شجاعته إلى التنفيذ الفوري. فخرج وحيداً وذهب إلى بائع الأسلحة وأخذ غدارتين عبأهما.

قال في نفسه: الواقع، أن إدارة الامبراطور نابليون القاسية تعود للعالم مرة ثانية، ليس عندي درهم من الخداع ألام عليه. وفوق كل هذا أغمضتُ عينيّ، ولكنني أملك رسائل دامغة في مكتبي تخولني ذلك.

وخافت السيدة ده رينال من الغضب البارد الذي اعترى زوجها، فذكرته بفكرة الترمل التي تقاسي منها كثيراً وتحاول جاهدة إبعادها. وانفردت به وتحدثت إليه ساعات دون جدوى. جعلته الرسالة الجديدة يتخذ قراره. وأخيراً استطاعت أن تحول

شجاعة إعطاء صفعة للسيد فالينو إلى شجاعـة منح جـوليان ستمائة فرنك، نفقات إقامته في الدير. ونسي السيد ده رينال الرسالة المغفلة وهو ألف مرة يلعن اليوم الذي فكر فيه باحضار مرب لأولاده.

وتعزى قليلاً بفكرة أخرى لم يقلها لامرأته: فببعض المهارة يستطيع أن يأمل، باستغلاله لأفكار الشاب الخيالية، في دفعه، بمبلغ أقل، إلى رفض عروض السيد فالينو.

بذلت السيدة ده رينال جهوداً أكبر كي تثبت لجوليان أنه عندما يرفض، لإرضاء زوجها، عرضاً بثمانمائة فرنك، يعرضها عليه مدير المأوى علناً، يستطيع، دون خجل، أن يقبل بعض التعويض. وكان جوليان يقول دائمًا:

ـ لكنني لم أفكر مطلقاً، حتى للحظة واحدة، في أن أقبل هذه العروض. عودتموني كثيراً على الحياة الأنيقة، وستقتلني فظاظة هؤلاء الناس.

وكانت الضرورة القـاسية، بيـدها الحـديديـة، طوت إرادة جوليان، وكبرياؤه تخيل إليه أنه لا يقبل هذا المبلغ الا كقرض يعـرضه السيـد ده رينال، وعليـه أن يحرّر لـه بطاقـة تعـين الاستحقاق بعد خمس سنوات، مع الفوائد.

وكان لدى السيدة ده رينال بعض الآلاف من الفـرنكات

المخبأة داخل المغارة الصغيرة في الجبل.

وعرضتها عليه وهي ترتجف، وتحس أنها ستقابل بـالرفض والغضب. وقال جوليان:

ـ تريدين أن تجعلي ذكريات حبنا مخيفة؟

وأخيراً ترك جوليان فريير. وكان السيد ده رينال سعيداً، ففي اللحظة الحاسمة لم يستطع جوليان أن يأخذ المال: وجد أن هذه التضحية كبيرة عليه فرفض بحـزم. وعانقـه السيد ده رينـال والدموع في عينيه. وطلب جوليان منه شهادة حسن سلوك، فلم يجد، في حماسه، تعابير كافية ليمتدح خصاله وسلوكه. وكان لديه خمس ليرات ذهبية اقتصدها، وكان ينوي أن يطلب مبلغاً مماثلاً من فوكيه.

كان منفعلاً. ولكنه عندما أصبح على فرسخ من فريير، حيث ترك كثيراً من الحب، لم يعد يفكر إلا بالسعادة لمرأى عاصمة، مدينة حربية كبيرة كبزانسون.

خلال هذا الغياب القصير، كانت السيدة ده رينال عرضة لأقسى الخيبات في الحب. كانت حيـاتها عـادية؛ بينهـا وبين التعاسة، هذا اللقاء الأخير الذي سترى فيه جوليان لآخر مرة. كانت تعد الساعات والدقائق التي تفصلها عنه. وأخيراً سمعت من البعيد، في الليل الثالث، الاشارة المتفق عليها. وبعد أن

اجتازت آلاف الأخطار، ظهر جوليان أمامها .

وفي هذه اللحظة لم تحس إلا بشعور واحد: المرة الأخيرة التي أراه فيها. وكانت كالجثة، لا تكاد تحس بالحياة، فلم ترد على استفهامات صديقها. أرادت أن تضغط على نفسها وتقول له إنها تحبه. كانت لهجتها عرجاء تثبت العكس تقريباً. فلا شيء استطاع تسليتها عن فكرة الفراق الأبدي القاسية. وظن جوليان الحذِر، إنه نسي. استقبلت كلماته اللاذعة بدمعة كبيرة سالت بسكون، وبشدات على الأيدي شبه عصبية. ورد جوليان على الاعتراضات الباردة التي تلفظت بها صديقته:

ـ ولكن كيف تريدين أن أصدقك؟ تظهرين صداقة أكثر مئة مرة للسيدة درفيل، أو أي من معارفك.

وجزعت السيدة ده رينال فلم تعرف كيف تجيب.

ـ ليس من الممكن أن أكون أكثر تعاسة. . . أتمنى أن أموت. . . وأحس بقلبي يتجلد. . .

وكانت هذه أطول إجابة استطاع سماعها.

عندما اقترب الفجر مؤذناً بضرورة الرحيل، توقفت دموع السيدة ده رينال فجأة. ورأته يعلق حبلاً معقوداً بالنافذة دون أن يقول أية كلمة، ودون أن يجيب عن قبلاتها. وعبثاً قال لها جوليان:

ـ ها نحن في الحالة التي طالما تمنيتها. ستعيشين بعد الآن دون ندم. ولن تري ابنك في القبر عند أقل عارض مرضي.

فقالت له ببرود.

ـ إنني منزعجة لأنك لن تستطيع تقبيل ستانيسلاس.

وانتهى الأمر بجوليان إلى أن اندهش تماماً من القبلات الباردة لهذه الجثة الحية؛ ولم يستطع أن يفكر بشيء آخر خلال فراسخ. كان إحساسه متلهّفاً، وكان قبل أن يقطع الجبل، حيث باستطاعته رؤية جرس كنيسة فريير، لا يلبث يلتفت باستمرار.

٢٤
عاصمة

كم من الضجيج والناس المسرعين! كم من الأفكار للمستقبل لدى فتى في العشرين! أية تسلية للحب!

بارناف

وأخيراً، على جبل بعيد رأى جدراناً سوداء؛ إنها قلعة بزانسون. وقال وهو يتنهد: أي فرق لو أتيت هذه المدينة الحربية النبيلة لأكون ملازماً في فرقة مكلفة بالدفاع عنها!

بزانسون ليست من أجمل مدن فرنسا فحسب، بل فيها كثير من الشجعان والمفكرين. ولم يكن جوليان سوى فلاح صغير، لا يملك أية وسيلة للتقرب من الناس البارزين.

أخذ جوليان من فوكيه، لباساً بورجوازياً، وعبر به جسر المدينة الجديدة. وأراد، وهو متشرب بتاريخ حصار ١٦٧٤، أن يرى السور والقلعة قبل أن يدخل الدير. وكاد الحرّاس أن يوقفوه مرتين أو ثلاث مرات، ودخل إلى الأماكن التي كانت الفرقة العسكرية تمنع الجمهور من الدخول إليها عندما كان يريد باثني عشر أو خمسة عشر فرنكاً بيع بعض التبن كل سنة.

رأى علوّ الجدران، وعمق الحفرات، وهيئة المدافع المرعبة، التي كانت تحتلّها خلال ساعات عند مروره أمام المقهى الكبير على الجادة. وتوقف من الإعجاب، وقرأ كلمة: «مقهى»، بأحرف كبيرة فوق بابين واسعين، فلم يستطع أن يصدق عينيه. وقام بمجهود كبير ليسيطر على خجله، وتجرأ على الدخول، فوجد نفسه في قاعة طولها ثلاثون أو أربعون قدماً، وعلو سقفها عشرون قدماً على الأقل. وكان كل شيء في هذا اليوم، لذة وحبوراً له.

كانت مباريات البليار قائمة. وكان الأولاد يصرخون وهم يحسبون الارقام، واللاعبون يركضون إثر الطابات في قاعة البليار المليئة بالمتفرجين. كان الدّخان يغلّفهم بغيمة زرقاء. وكانت

قامات هؤلاء الرجال العالية، واكتافهم المدوّرة، وخطواتهم الثقيلة وعيونهم الكبيرة وطول أثوابهم (الريدنكوت) تغطيهم، جميعها تلفت أنظار جوليان. وكان أولاد البيزونطيوم العريق لا يتكلمون إلا صارخين، ولهم هيئة المتحاربين المخيفين.

اعجب جوليان وهو واقف دون حراك. كان يفكر بكبر عاصمة كبيرة كبزانسون وجمالها. ولم يحس مطلقاً بالشجاعة أمام هؤلاء السادة ذوي النظرات المتعالية يصرخون أرقام البليار. ليطلب منهم فنجاناً من القهوة.

ولكن آنسة المقهى لاحظت هذا الوجه الساحر لبورجوازي الريف الشاب، توقف على ثلاث خطوات من المدفأة، يتطلع، متأبطاً صرّته الصغيرة، إلى تمثال الملك ذي اللون الكلسي الأبيض. هذه الآنسة، من فرانش كونتيه، كبيرة الجسم، جميلة، اختيرت لتزيد في قيمة المقهى. قالت مرتين، بصوت منخفض حتى لا يسمعها غير جوليان:

ـ أيها السيد! أيها السيد!

وتلاقت نظرات جوليان بعينين زرقاوين جدّ حنونتين، ورأى أن الكلام موجه إليه:

اقترب بسرعة من الطاولة ومن الفتاة الجميلة، كأنه يكرّ على عدوّ. وفي حركته السريعة هذه، وقعت الصرة من يده.

أيـة شفقة لن يـوحيها ريفيّ للتـلاميذ الشبـاب في كليات باريس، وهم يعرفون في سن الخامسة عشرة كيف يدخلون إلى المقهى بهيئة بارزة؟ ولكن هؤلاء الأطفال، المنمقين في الخـامسة عشرة يصبحون عاديين عندما يبلغون الثامنة عشرة. والخجل المتطرف الذي في الريف، يمكن التغلب عليه. وعند اقترابه من الفتاة الشابة الرائعة الجمال، بدأت بتوجيه الحديث إليه، ففكر بأن يقول لها كل الحقيقة. تشجع بعد أن قهر خجله:

- إنني آت يا سيدتي، للمرة الأولى في حياتي إلى بزانسون، وأحب لو أحصل على بعض الخبز وعلى فنجان من القهـوة. طبيعي إنني سأدفع الثمن.

وضحكت الآنسة قليلاً ثم تورّد خدّاها. كانت تخاف على هذا الشاب الجميل، من أن ينتبه إليه لاعبو البليار ويسخرون منه. سيخاف منهم ولن يعود للظهور ثانية. فقالت له وهي تشير إلى طاولة من الرخام تكاد تكون مخبأة وراء الطاولـة الحمراء الضخمة التي تحتل قسمًا من القاعة:

- أجلس هنا، حدّي.

وانحنت الآنسة خارج الطاولة مما أتاح له فرصة اكتشاف قامة رائعة. لاحظها جوليان، وتغيرت كل أفكاره. ووضعت الآنسة الجميلة أمامه فنجاناً من القهوة وبعض السكر وقليلاً من الخبز.

وترددت في مناداة صبي ليقدم القهوة، لأنها عرفت أن وصول هذا الصبي سيفسد «انفرادها» بجوليان.

قابل جوليان، بين هذا الجمال الأشقر المرح وبين بعض ذكرياته التي كانت تثير اضطرابه. وكان تذكره للغرام، ازال تقريباً كل خجله. ولم تمض على الآنسة الجميلة لحظة حتى قرأت نظرة جوليان. فقالت له:

ـ دخان الغليون يجعلك تسعل. تعال غداً لفطور الصباح قبل الثامنة. أكون وحيدة تقريباً:

وقال جوليان بابتسامة الحياء الذي يداعب به خجله:

ـ ما اسمك؟

ـ أماندا بينيه.

ـ تسمحين أن أرسل لك، خلال ساعة، رزمة صغيرة كهذه؟

وفكرت أماندا الجميلة قليلاً:

ـ إنني مراقَبة: وما تطلبة مني قد يسيء إليّ. ومع ذلك، سأكتب عنواني على بطاقة تضعها على رزمتك. وأبعثها لي.

وقال الشاب:

ـ أدعى جوليان سوريل. وليس لي في بزانسون لا صاحب

ولا قريب.

فقالت بفرح:

ـ آه! فهمت، آت للدخول إلى كلية الحقوق؟

وأجاب جوليان:

ـ للأسف! كلا، مرسل إلى الدير.

وبان في وجه أماندا، أكمل تعبير عن خيبتها. فنادت صبياً. عندها تجرأت، وصبّ الغلام القهوة دون أن يتطلع بجوليان.

وكانت أماندا تقبض المال من وراء الطاولة وكان جوليان فخوراً لأنه تجرأ على الكلام: ودارت مناقشة بين المتبارين على إحدى طاولات البليار. دهش جوليان من الصراخ والتكذيبات ترن في القاعة الكبيرة محدثة ضجة هائلة. أماندا كانت حالمة، مسدلة عينيها.

وقال لها جوليان فجأة وهو يحس بالثقة:

ـ إذا أردت أيتها الآنسة، سأقول أنني ابن عمك.

هذه اللهجة المسيطرة أعجبت أماندا. وفكرت: ليس شاباً بلا نفع. فقالت له بسرعة، دون أن تتطلع إليه، لأن عينيها كانتا تراقبان إن كان من يقترب من طاولتها:

ـ إنني من جنليس، قرب ديجون، قل إنك أنت أيضاً من جنليس، وإنك ابن خالي.

ـ لن أقصر.

ـ طلاب الدير يمرون كل خميس أمام المقهى.

ـ إذا كنت تفكرين بي، إحملي باقة من البنفسج عند مروري.

وتطلعت إليه أماندا بنظرة ملؤها الدهشة. وحولت هذه النظرة شجاعة جوليان إلى جرأة. تورد وهو يقول:

ـ أحس أنني أحبك أعنف الحب.

وردت عليه بفزع:

ـ تكلم بصوت منخفض.

وكان جوليان يفكّر ليتذكر جمل مجلدٍ وجده في فرجي وكان «هيلوييز الجديدة». أسعفته ذاكرته تماماً، وطوال عشر دقائق راح يسمّع الآنسة أماندا «هيلوييز الجديدة» منتشياً. كان سعيداً بشجاعته عندما أحسّ بفتاة فرانش كونتيه الجميلة تأخذ طابع البرودة الجليدية. ظهر أحد عشاقها على باب المقهى.

اقترب من الطاولة وهو يصفر محركاً كتفيه، وتطلّع بجوليان. في اللحظة ذاتها، شطّ خيال هذا، كما هو دائماً متطرف، فلم

يطرق تفكيره إلا المبارزة. شحب لونه قليلاً، ثم أبعد فنجانه، وأخذ طابع الاطمئنان، ثم تطلع إلى غريمه بانتباه شديد. ولما أخفض هذا الغريم رأسه، وهو يصب لنفسه قدحاً على الطاولة، بصورة عادية، تطلعت أماندا بجوليان وأمرته أن يخفض عينيه. فأطاع، ثم رقد ساكناً دقيقتين في مكانه، شاحب اللون، لا يفكر إلا بما سيحدث؛ كان جميلاً فعلاً في هذه اللحظة. دهش غريم جوليان من عينيه. وبعد أن شرب قدحه جرعة واحدة، قال كلمة لأماندا ووضع يديه في جيبي ثوبه الطويل (الردنكوت)، واقترب من إحدى طاولات البليار وهو يصفر متطلعاً إلى جوليان. نهض هذا الأخير وهو يغلي من الغضب، لكنه لم يكن يعرف كيف يتصرف ليكون وقحاً. فوضع رزمته الصغيرة، ومشى إلى البليار، وهو يختال مقدار ما يستطيع.

وعبثاً كانت الحكمة تقول له:

ـ ستفقد مركزك الديني إذا قمت بمبارزة عند وصولك إلى بزانسون.

ـ سيّان. لن يقال أبداً أنني سكتُّ أمام وقح.

ورأت أماندا جرأته تشكل تضاداً جميلاً مع سذاجة حركاته. وفي لحظة واحدة، فضلته على الرجل الكبير الشاب لابس الريدنكوت. فنهضت، تتابع بنظرها أحد المارة في الشارع،

وأتت فوضعت نفسها بينه وبين البليار:

- إحذر من التطلع شرراً إلى هذا الرجل، إنه زوج أختي.

- سيان. تطلّع إلي شزراً.

- تريد أن تجعلني تعيسة؟ تطلع إليك شزراً، بل قد يأتي لمحادثتك. قلت له إنك قريب أمي، وإنك وصلت من جنليس. هو من فرانش كونتيه، ولم يتخط قرية دول، على طريق بورغونيا. قل ما تريد، ولا تخش شيئاً.

وظل جوليان يتردد، فأضافت بسرعة، وأسعفها خيالها كامرأة مقهى، بكذب كثير:

- تطلع شزراً إليك، ولكن عندما كان يسألني من أنت! إنه رجل صاحب معشر مع الجميع، ولم يرد أن يهينك.

وتابعت عين جوليان الصهر المزعوم. فرآه يشتري رقماً في المباراة التي كانت دائرة على أبعد طاولات البليار. سمعه جوليان يقول بصوته الجهوري، صارخاً بلهجة مهددة:

- إنني هنا!

فاندس جوليان وراء الآنسة أماندا وتقدم خطوة نحو البليار، فأمسكته أماندا من يده وقالت له:

- تعال ادفع أولاً.

وفكّر جوليان: حق. إنها تخاف أن أخرج دون أن أدفع. وكانت أماندا مضطربة مثله، يكسو وجهها احمرار كبير. وأعادت إليه بقية نقوده بأكثر بطء تستطيعه، وهي تردد بصوت خفيض:

ـ أخرج تواً من المقهى وإلا فلن أحبك قط، مع إنني أحبك الآن كثيراً.

وخرج جوليان فعلاً، ولكن ببطء، وكان يردد لنفسه:

ـ أليس من واجبي أن أذهب وأتطلع بهذه الشخصية الفظة وأنا أصفّر؟

احتجزته هذه الفكرة ساعة، على الجادة، أمام المقهى، فتطلع ليرى إن كان رجله خرج. ولكنه لم يظهر، فابتعد جوليان.

لم تمضِ ساعات في بزانسون. ومع ذلك يشعر بالندم. أعطاه الطبيب الضابط العجوز، رغم مرضه، بعض دروس في المبارزة بالسيف. وكان هذا كل ما وجده جوليان لشحذ غضبه. لكنه لو كان يعرف طريقة أخرى للاهانة غير الصفعة، لما أحسّ بهذا الاحراج. أما إذا وصل الأمر إلى التضارب بالأيدي فإن خصمه كان حرياً بأن يصرعه ويدفنه هنا.

قال جوليان لنفسه: لا فرق لي، أنا الشيطان الصغير، الفقير دون أي ملاذ، بين الدير والسجن. يجب أن أضع ثيابي

البورجوازية في أحد الفنادق، وألبس هناك ثوبي الأسود، فإذا استطعت الخروج من الدير لعدة ساعات، استطيع بملابسي المدنية أن ألاقي الآنسة أماندا. وكان هذا المنطق جميلاً، ولكن جوليان مر أمام جميع الفنادق دون أن يتجرأ على الدخول إلى أحدها.

وأخيراً، عندما مر، للمرة الثانية أمام فندق «الامباسادور» تلاقت عيناه الحزينتان بعيني امرأة كبيرة، لا تزال شابة، غنية الألوان، هيئتها تدل على السعادة والمرح. فاقترب منها وحدّثها بقضيته. فقالت له:

ـ طبعاً يا قسيسي الصغير الجميل. سأحفظ لك ثيابك المدنية، بل سأعتني بها أيضاً. فليس من المستحسن في هذه الأوقات ترك بذلة الجوخ دون لمسها. وأخذت مفتاحاً، وقادته بنفسها إلى إحدى الغرف، وأوصته أن يكتب على مذكّرة بما تركه.

وقالت له المرأة الكبيرة، عندما نزل إلى المطعم:

ـ يا إلهي! لكم أنت رائع يا سيدي القسيس سوريل. سأحضر لك غداءً حسناً. وأضافت بصوت منخفض:

ـ لن يكلفك أكثر من عشرين قرشاً، بقية الزبائن تدفع خمسين. من الواجب تدبير ميزانيتك الصغيرة.

ورد جوليان ببعض الفخر:

ـ معي عشر ليرات ذهبية.

وأجابته المضيفة الطيبة وهي تستنجد:

ـ آه! يا إلهي! لا تتكلم بصوت عالٍ، في بزانسون كثيرون من الناس الشريرين سيسرقون ما معك بلمحة بصر. وعلى الأخص، لا تدخل المقاهي فإنها مليئة بالأشرار.

قال جوليان بعدما دفعته هذه الكلمة للتفكير:

ـ حقاً!

ـ لا تأتِ إلا إليّ، سأقوم بعمل القهوة لك. وتذكر دائمًا أنك ستجد هنا صديقة طيبة، وغداء طيباً بعشرين قرشاً. والآن إذهب واجلس إلى الطاولة، وسأخدمك بنفسي.

ورد جوليان:

ـ لن أستطيع الأكل، فأنا منفعل. سأدخل الدير عند مغادرتي هنا.

لم تتركه المرأة يذهب إلا بعد أن ملأت جيوبه بالمؤن. وأخيراً اتّجه جوليان إلى المكان الرهيب بعدما دلّته المضيفة إلى الطريق من فوق باب نزلها.

٢٥
الدير

ثلاثمائة وستة وثلاثون غداء، بثلاثة وثمانين سنتيمًا؛ ثلاثمائة وستة وثلاثون حساء، بثمانية وثلاثين سنتيمًا؛ الشوكولا لمن يحق له. فكم يمكن أن نربح في العملية؟

فالينو بزانسون

من البعيد رأى صليب الحديد المذهب على الباب، فاقترب ببطء، وخيل إليه أن رجليه لا تحملانه. ها هو إذن هذا الجحيم على الأرض، لن أستطيع الخروج منه. وأخيراً قرر قرع الجرس. ورن ضجيج الجرس كأنه في مكان خال. بعد ست دقائق، فتح الباب رجل شاحب اللون يلبس السواد. فتطلع جوليان إليه ثم اخفض عينيه. كانت هيئة هذا البواب غريبة إذ تدورت حدقاته الطويلة الخضراء كأنها حدقات هر. فيما محيط جفونه الساكن يبشّر باستحالة كل عطف. وانشقت شفتاه عن أسنان نافرة. ومع ذلك هذه الهيئة لم تظهر السوء، بل هذه اللاحساسية الكاملة توحي بالرعب عند الشباب. وكان الشعور الوحيد، استطاعت نظرة جوليان السريعة أن تدركه على هذا الوجه المتدين الطويل: الاحتقار العميق لكل ما سيدوَر الحديث عنه، ولن يكون في مصلحة السماء.

رفع جوليان عينية بصعوبة، وحكى بصوت جعلته دقات قلبه مرتعشة، إنه يريد أن يتكلم مع السيد بيرار، مدير الدير. ودون أن ينبس الرجل الاسود بكلمة أشـار إليه أن يتبعـه. صعدا طابقين على سُلّم واسع ذي حاجز خشبي، ودرجـات متآكلة منحنية تماماً إلى الجهة المقابلة للحائط، كأنها توشك على الوقوع. وبدا باب صغير يعلوه صليب كبير من الخشب الأبيض المدهون بالسواد، ثم أدخله البواب بعدما انفتح الباب بصعوبـة، إلى غرفة قـاتمة سقفهـا واطىء، ذات جدران مـطروشة بـالكلس الأبيض، ومزينة بلوحتين كبيرتين سوّدهما الزمن. وهناك ترك جوليان وحيداً. كان مضطرباً، وقلبه يدق بعنف. سعيـداً لو استطاع البكاء.

كان سكوت قاتل يخيم على الدير كله.

وبعد ربع ساعة، كأنها نهار كامل، عاد البواب ذو الهيئة القاتمة، إلى الظهور على عتبة باب آخر في الطرف المقابل من الغرفة. ودون أن يتكلّم، أشار إليه أن يتقدم. ودخل غرفة أكبر من الأولى، سيئة الانارة، ذات جدران بيضاء وخالية تماماً من الأثاث، وليس فيها غير سرير من الخشب الأبيض ومقعدين من القش، رآها جوليان قرب الباب ، في الزاوية، عند دخوله، وكنبـة صغيرة من خشب الصنـوبر. وفي الـطرف الآخـر من الغرفة، قرب نافذة صغيرة ذات زجـاج أصفر مـزينة بـأوعية

الزهور القذرة، رأى رجلاً جالساً وراء طاولة مغطاة بقماش مهترىء، الغضب ظاهر على وجهه، يأخذ مربعات صغيرة من الورق ويصفّها على الطاولة بعد أن يكتب عليها بعض الكلمات. ولم ينتبه الرجل الجالس إلى وجود جوليان، الذي بقي ساكناً وسط الغرفة، حيث تركه البواب وخرج مغلقاً الباب وراءه.

مرت عليه عشر دقائق في هذا الوضع، والرجل الرديء الملابس يكتب باستمرار. وكان جوليان منفعلاً خائفاً لدرجة أحس معها أنه يوشك على السقوط. قال أحد الفلاسفة، وقد يكون مخطئاً: ذاك هو الانطباع العنيف عن القبح في روح خلقت لتحبّ ما هو جميل.

ورفع رأسه الرجل الذي يكتب، ولم ينتبه جوليان إلى ذلك إلا بعد برهة، وحتى بعد أن رآه؛ بقي ساكناً كأنما أصابه الموت من النظرة المخيفة الموجهة إليه. وميّزت عينا جوليان المضطربتان، بصعوبة، وجهاً طويلاً مغطّى بالبقع الحمراء عدا الجبهة، يُرى فيها شحوب الموت. وبين الخدين الأحمرين والجبهة البيضاء، كانت عينان صغيرتان سوداوان تلمعان كأنهما خلقتا لإخافة أكثر الناس شجاعة. وكان يحيط هذه الجبهة الواسعة شعر كثيف أملس شديد السواد.

أخيراً قال الرجل:

ـ هل تريد أن تتقدم، نعم أم لا؟

تقدم جوليان بخطوة غير واثقة، بعد أن أحسّ بقرب سقوطه وشحوبه كما لم يشعر بذلك من قبل. وتوقّف على ثلاث خطوات من الطاولة الخشبية البيضاء الصغيرة المغطاة بمربعات الورق.

قال الرجل:

ـ تقدم بعد.

وتقدم جوليان وهو يمد يده، كأنه يفتش عن شيء يستند إليه.

ـ إسمك؟

ـ جوليان سوريل.

ورماه بنظرة مخيفة:

ـ تأخرت كثيراً.

ولم يستطع جوليان أن يتحمل هذه النظرة، فسقط بكل طوله على الأرض ماداً يده كأنما ليستند إلى شيء.

قرع الرجل جرساً. لم يكن جوليان فقد الوعي تماماً، فسمع صوت خطوات تقترب.

أنهض جوليان ووُضِع على الكنبة الصغيرة الخشبية البيضاء. وسمع الرجل الرهيب يقول للبواب:

ـ وقع من الألم العلوي كما يظهر. لم يكن ينقص إلا هذا.

وعندما استطاع جوليان أن يفتح عينيه، كان الرجل ذو الوجه الأحمر مستمراً في الكتابة. أما البواب فكان ذهب. قال بطلنا في نفسه: يجب أن أكون شجاعاً. وعلى الأخص أن أخفي ما أحس به: وشعر بوجع كبير في قلبة: لو حدث لي أي حادث، الله يعلم ماذا سيظنون بي. وأخيراً توقف الرجل عن الكتابة، وتطلع إلى جوليان بطرف عينه وقال:

ـ هل أنت في حالة تسمح لك بإجابتي؟

ردّ جوليان بصوت ضعيف:

ـ نعم يا سيدي!

ـ آه! لحسن الحظ.

ونهض الرجل الأسود قليلاً وهو يفتش عن رسالة في درج طاولته الصنوبرية، الذي فتح وهو يصرّ صريراً. وجدها، ثم جلس ببطء، وتطلع إلى جوليان من جديد، بهيئة تريد انتزاع القليل من الحياة الذي تبقّى له:

ـ أوصاني بك السيد شيلان، أفضل خوري في الابرشية، وهو

رجل فاضل وصديقي منذ ثلاثين عاماً.

تطلع إلى السماء، ورسم اشارة الصليب. عندما رأى جوليان هذه الحركة المقدسة، أحس بتضاؤل رعبه العميق الذي جلّده منذ دخوله المكان.

قال جوليان بصوت ميت:

ـ آه! لي شرف التحدث إلى السيد بيرار إذن.

وزاد بريق عيني الرجل الصغيرتين، وتبعه اختلاج لا أرادي في عضلات زوايا فمه. كانت هيئته كهيئة النمر يتذوق مسبقاً لذة افتراس فريسته. ثم قال كأنه يتحدث إلى نفسه:

ـ رسالة شيلان قصيرة. وفي هذا الوقت الذي يجري بسرعة، ليس بالإمكان كتابة أكثر من هذا. ثم قرأ بصوت عالٍ:

«أرسل لك جوليان سوريل، من هذه الأبرشية. سبق وعمّدته منذ عشرين عاماً تقريباً، وهو ابن صاحب منشرة غني، لكنها لا تعطيه شيئاً. وسيكون جوليان عاملاً عظيمًا في خدمة المولى. فذاكرته وذكاؤه لا يخلاّن مطلقاً. لا بأس به. فهل ترى يكون نذره دائمًا مخلصاً؟».

دُهِش الأب بيرار وهو يتطلع إلى جوليان، ولكن نظرته كانت أكثر فراغاً من كل إنسانية، فردّد وهو يخفض صوته:

ـ مخلص! مخلص!

ثم تابع القراءة:

«أطلب منك منحة لجوليان سوريل. وسيستحقها بعد أن يمر في الامتحانات اللازمة. علمته قليلاً من اللاهوت الجيد القديم، لاهوت بوستويه وأرنو وفلوري، فإذا لم يناسبك، أعده إليّ، لأن مدير مخزن الفقراء، الذي تعرفه جيداً، يعرض عليه ثمانمائة فرنك ليكون مربياً لأطفاله. ضميري مرتاح، والله الحمد، وأنا أستعد للحظة الحاسمة جسداً وروحاً»

وأبطأ الأب بيرار صوته وهو يقرأ الأمضاء، ولفظ كلمة شيلان وهو يتنهد. ثم قال:

ـ مرتاح. بالفعل، تستحق فضيلته هذا الجزاء. ترى هل يعطيني الله هذا الهدوء عندما تحين الساعة؟

وأخيراً قال الأب بيرار بلهجة قاسية:

ـ عندي هنا ثلاثمائة وواحد وعشرين مرشحاً، في أحسن حالات القداسة. سبعة أو ثمانية أوصاني بهم رجال كالأب شيلان. ستكون أنت التاسع بين ثلاثمائة وواحد وعشرين. ولكن حمايتي لن تكون تفضيلاً أو ضعفاً، بل مضاعفة العناية والقسوة ضدّ الرذيلة. إذهب واغلق هذا الباب بالمفتاح.

قام جوليان بمجهود كبير ليمشي، ونجح في تجنب الوقوع. ولاحظ في نافذة قريبة من باب الدخول، نافذة صغيرة تشرف على الجبل. وتطلع إلى الأشجار. كان لهذا المنظر تأثير حسن عليه، لكأنه كان يتطلع إلى أحد أصدقاء قدامى.

عندما رجع، قال له الأب بيرار، باللاتينية:

ـ هل تتكلم اللاتينية؟

ورد جوليان باللاتينية أيضاً وهو يتمالك نفسه أكثر:

ـ نعم أيها الأب الجليل.

وطبيعي، كان يحس أن أيّ رجل من العالم الخارجي كان بالنسبة إليه أجدر من الأب بيرار بلقب الجليل.

واستمر الحديث باللاتينية. لَطفَ تعبير الأب. وعاد إلى جوليان بعض هدوئه. وفكر في نفسه: لكم أنا ضعيف حتى أترك مظاهر الفضيلة هذه تؤثر عليّ! هذا الرجل ليس إلّا مخادع كالسيد ماسلون؛ وأحس بالاعجاب لأنه خبأ نقوده في حذائه.

امتحن الأب بيرار جوليان باللاهوت ودهش لسعة معلوماته، وازدادت دهشته عندما سأله عن الكتب المقدسة. عندما وصل الحديث إلى نظريات آباء الكنيسة، وجد أن جوليان يجهل حتى اسم القديس جيروم، والقديس أوغسطينوس والقديس بازيل

الخ . . . الخ . . .

فكر الأب بيرار: في الواقع، هذا هو الميل المحتم إلى البروتستانتية الذي كنت دائمًا ألوم شيلان عليه. معرفة متعمقة، بل جد متعمقة للكتب المقدسة.

(وكان جوليان حدثه دون أن يُسأل، عن الزمن الحقيقي الذي كتُب فيه أول جزء من التوراة، وكل من الاجزاء الباقية. الخ.)

وفكر الأب بيرار: إلام يقود هذا التحليل اللامتناهي للكتب المقدسة، إن لم يصل إلى الفحص الذاتي، أي إلى أبشع أنواع البروتستانتية؟ وإلى جانب هذا العلم ليس ما يستطيع أن يقابل هذا الميل في كتابات «الآباء».

وكانت دهشة الأب بيرار فائقة عندما سأل جوليان عن سلطة البابا، وتوقع أن يسمع كل حجج الكنيسة الانجيلية القديمة؛ وأسمعه الرجل الشاب كل كتاب السيد ده ميتر.

وفكر الأب بيرار: يا لغرابة شيلان هذا، تراه أطلعه على هذا الكتاب ليعلمه كيف يسخر منه؟

وعبثاً سأل جوليان ليحاول معرفة إذا كان فعلاً يؤمن بنظرية السيد ده ميتر، إذ أن الشاب لم يكن يجيب إلا بذاكرته؛ وفي هذا الوقت، كان جوليان يشعر بتحسن كبير، وبأنه سيد نفسه.

بعد امتحان طويل جداً، خيل إليه أن قسوة السيد بيرار عليه لا تزال كما هي. وبالفعل، لولا هذه المبادىء الوقورة القاسية التي فرضها مدير الدير قبل خمسة عشر عاماً على تلاميذه في الدير، لقبّل الأب بيرار جوليان باسم المنطق، ما دام يجد وضوحاً ودقة وصفاء في إجابته.

فقال في نفسه: ها هو ذهن شجاع سليم، ولكن الجسم ضعيف.

قال لجوليان بالفرنسية وهو يشير باصبعه إلى الأرض:

ـ هل تقع دائمًا هكذا؟

ورد جوليان وهو يحمرّ كالطفل:

ـ إنها المرة الأولى في حياتي. جلدٌني وجه البوّاب.

وضحك الأب بيرار وهو يقول:

ـ إنه تأثير مظاهر العبث في هذا العالم. أنت معتاد، كما يبدو، على وجوه ضاحكة. مسرح حقيقي للكذب. الحقيقة قاسية، أيها السيد. ولكن أليست مهمتنا في هذا العالم السفلي قاسية أيضاً؟ يجب أن تسهر ليتقوى وجدانك أمام هذا الضعف: كثرة الحساسية أمام الجمال اللامجدي في الخارج.

وقال الأب بيرار وهو يعود إلى الكلام باللاتينية في لذة ملحوظة:

ـ لو لم يوصني بك رجل كالأب شيلان لتحدثت إليك طويلاً عن لغة العبث في العالم الخارجي الذي تبدو معتاداً عليها. والمنحة الكاملة التي تطلبها هي أصعب ما يمكن الحصول عليه في العالم. ولكن الأب شيلان لا يكون نال ما يستحقه، إذا لم يستطع أن يحصل على منحة من الدير.

وبعد هذه الكلمات، أوصى الأب بيرار جوليان، بعدم الدخول إلى أي مجتمع أو مجمع سرّي دون موافقته.

وردّ جوليان بعد أن تفتح قلبه بأنبل معاني الشرف:

ـ أحلف بشرفي.

وابتسم مدير الدير للمرة الأولى وهو يقول:

ـ هذه الكلمات ليست في موضعها هنا. تذكرنا بالشرف اللامجدي عند الناس في العالم، يقودهم إلى كثير من الأخطاء، وغالباً إلى الجرائم. عليك أن تطيعني الطاعة المقدسة التي نص عليها المقطع السابع عشر من مجموعة القديس بيوس الخامس. إنني رئيسك الكهنوتي في هذا البيت؛ الاستماع يا ولدي العزيز، معناه الطاعة. كم تملك من المال؟

وقال جوليان في نفسه: وقعنا! من أجل هذا قال يا ولدي العزيز! :

ـ خمسة وثلاثون فرنكاً، أيها الأب.

ـ أكتب جيداً ما تفعله بهذا المال. عليك أن تطلعني على كل ما تصرفه.

دامت الجلسة ثلاث ساعات، ثم نادى جوليان البواب. وقال الأب بيرار له:

ـ إذهب مع جوليان سوريل إلى الغرفة رقم ١٠٣.

وضع جوليان في مسكن منفرد ليعبر له عن اهتمامه به.

ثم أضاف:

ـ خذ حقيبته أيضاً إلى هناك.

وحرك جوليان عينيه وتعرف على حقيبته أمامه؛ كان يتطلع إليها منذ ثلاث ساعات، ولكنه لم يعرفها.

عندما وصل إلى الغرفة ١٠٣ وجدها صغيرة مربعة ضلعها ثمانية أقدام، في آخر طابق من البيت، تطل على السور، ومن فوقه كان السهل الجميل ظاهراً يفصله نهر الدّو عن المدينة.

وصرخ جوليان:

ـ أي منظر ساحر!

ولم يشعر جوليان بمعنى هذه الكلمات التي تلفظ بها. كانت

المشاعر العنيفة التي شعر بها منذ وصوله إلى بزانسون، قبل قليل، استنفذت قواه. وجلس حدّ النافذة على الكرسي الخشبي الوحيد الذي كان في زنزانته، وسرعان ما غرق في نوم عميق، فلم يسمع جرس العشاء، ولا جرس القداس. ونسيه الباقون.

وعندما أيقظته أشعة الشمس في صباح اليوم التالي، اكتشف أنه كان راقداً على أرض الغرفة.

٢٦

العالم أو ما ينقص الغني

إنني وحيد على الأرض، لا أحد يكلف نفسه مشقة التفكير بي، جميع هؤلاء الذين أراهم يثرون يملكون جرأة وصلابة في القلب لا أحس بوجودهما عندي. يكرهونني لطيبتي السهلة. آه! سرعان ما سأموت، من الجوع أو من التعاسة لأنني أرى رجالاً بهذه القسوة.

يونغ

أسرع يلبس ثيابه ونزل، ولكنه كان متأخراً؛ فوبخه نائب الأب بقسوة، وبدلاً من أن يحاول جوليان تبرير موقفه، شبك يديه على صدره وقال بلهجة نادمة:

ـ أخطأت، وأنا أعترف بخطئي أيها الأب الجليل.

كان لهذه البداية وقع حسن. رأى المستقيمون في الدير إنهم أمام رجل لم ينخرط بعد في أصول المهنة. وأتت ساعة الراحة. فوجد جوليان نفسه محط أنظار الجميع. لكنهم لم يجدوا عنده إلا التحفظ والسكوت. قرر في نفسه أن يعتبر هؤلاء الرفاق الثلاثمائة وواحد وعشرين، أعداء له. وكان أكثر هؤلاء خطراً في نظره، الأب بيرار بالذات.

بعد أيام قليلة، كان على جوليان أن يختار أحد المعرّفين، وقدمت له لائحة بالاسماء، فقال في نفسه:

ـ من ترى يظنونني؟ هل يعتقدون أنني لا أعرف معنى الكلام؟ واختار الأب بيرار معرّفاً له.

كان هذا العمل حاسمًا بالنسبة إليه دون أن يعرف ذلك. واحد من الرفاق، شاب صغير من مواليد فريير جعل نفسه صديقه منذ اليوم الأول، أخبره أنه لو اختار كستناد، نائب مدير الدير، لكان تصرفه أكثر حكمة وحذراً. وأضاف الشاب وهو ينحني قريباً من أذنه:

ـ الأب كستناد عدو السيد بيرار المتهم بالجانسينية.

وهكذا كانت كل تصرفات جوليان، الذي كان يظن نفسه

على حذر، كانتقاء المعرّف، أعمالاً طائشة. أضاعته كل تصورات خياله. كان يظن نواياه أعمالاً حقيقية وإنه رجل أناني خالص. كان هوسه يصل به للوم نفسه على نجاحاته في فن الضعف. فكان يقول لنفسه:

ـ إنه سلاحي الوحيد! لو خلقت في زمن آخر لربحت قوتي بواسطة هذه التصرفات.

وبعد أن رضي جوليان عن سلوكه، تلفّت حوله، فوجد مظهر الفضيلة صافياً كأحسن ما يكون الصفاء.

كان ثمانية أو عشرة من طلاب الدير يعيشون كالقديسين تماماً وخصوصاً كالقديسة تريزا والقديس فرنسيس عندما تلقى جروح المسيح على جبل فرنا. ولكن هذا كان سراً، أصدقاؤهم يخفونه. لأن هؤلاء الشباب يقضون أكثر أوقاتهم في العيادة الصحية. وكان مئة آخرون يجمعون إلى الايمان القوي، تجربة لا تكل: يعملون حتى المرض ولكن دون أن يتعلموا أي شيء. وكان اثنان أو ثلاثة يتميزون بموهبة حقيقية بينهم واحد يدعى شازيل، ولكن جوليان أحس بالبعد عنهم وأحسوا هم بالبعد عنه.

باقي طلاب الدير مخلوقات فظة لم يكن واثقاً من أنهم يفهمون اللاتينية التي يرددونها طوال النهار. غالبيتهم من أبناء الفلاحين، يفضلون أن يكسبوا قوتهم من حفظ بعض الكلمات

اللاتينية بدلاً من فلاحة الأرض. ولذلك جوليان، منذ الأيام الأولى، طمأن نفسه بتقدم سريع. قال في نفسه:

ـ في كل مصلحة، يلزم أناس أذكياء، لأن دائمًا عملاً في الانتظار. فلو كنت في أيام نابوليون لكنت رقيباً (شاويشاً) وبين هؤلاء القساوسة سأكون الكاهن الكبير. وأضاف قائلاً لنفسه:

ـ كل هؤلاء الشياطين المساكين الفقراء عاشوا، حتى مجيئهم إلى هنا، على اللبن والخبز الأسود. لم يكونوا يأكلون اللحم في أكواخهم إلا خمس أو ست مرات في السنة. وكالجنود والرومان الذين كانوا يجدون راحتهم وقت الحرب، هؤلاء الفلاحون مسرورون جداً من الملذات التي يلاقونها في الدير.

ولم يكن جوليان يقرأ في أعينهم الكالحة إلا اكتفاءهم الجسدي بعد الأكل ولذتهم الجسدية المنتظرة قبل الطعام. يجب أن يتميز بينهم. لم يكن يعرف، لأن الجميع لم يخبروه به، إنه إذا اراد أن يكون مجلياً في مختلف المواد الدينية والتاريخية التي يدرسها الدير، معناه في نظرهم خطيئة هائلة. فمنذ فولتير وحكومة المجلسين، التي ليست في الواقع إلا حذراً وامتحاناً شخصياً ولا تعطي في أذهان الشعب إلا عادة سيئة هي عدم الثقة، يظهر أن كنيسة فرنسا فهمت أن الكتب عدوتها اللدود. طاعة القلب هي التي تهمها. فالنجاح في الدراسة كان مشبوهاً حتى ولو كانت الدروس

دينية، والكنيسة محقة في هذا الأمر؛ فمن يضمن إلا يعبر الرجل المتفوق إلى الجانب الآخر كما فعل سباس وغريغوار؟ والكنيسة المزعزعة تتعلق بأهداب الباب كالأمل الوحيد بالخلاص. البابا هو الوحيد يستطيع أن يشل الامتحان الشخصي، بواسطة ترانيم حفلاته المتدينة في بلاطه ويستطيع أن يؤثر في عقول الناس والمرضى في العالم.

سقط جوليان في لجة حزن عميق وهو يدرك بعض هذه الحقائق، تهدف كل الكلمات في الدير مع ذلك لتكذيبها. كان يعمل كثيراً وينجح في تعلم أشياء جد مفيدة للقسيس بسرعة، ولكنها خاطئة في نظره، وليس فيها ما يثير الاهتمام. كان يعتقد أنه ليس من شيء آخر يقوم به.

وفكر جوليان: هل نسيني الجميع على هذه الأرض؟ لم يكن يعرف أن السيد بيرار تلقى بعض رسائل ختم ديجون ثم ألقاها في النار، إذ، رغم الأسلوب اللائق، كان غرام مشبوب بين السطور. كأن ندماً هائلاً يحارب هذا الحب. وفكر الأب بيرار: هذا أحسن، ليست امرأة ساقطة هذه التي أحبها الشاب.

وفتح الأب بيرار ذات يوم رسالة نصف واضحة من تأثير الدموع. كان وداعاً أبدياً. وأخيراً قالت الرسالة لجوليان: «السماء اعطتني القدرة على الكراهية، ليس على كراهية من كان

سبب غلطتي، لأنه سيكون دائمًا أغلى ما عندي في الحياة، بل خطيئتي ذاتها. تمت التضحية يا صديقي، إنما لا دون دموع كما ترى. إخلاص للأشخاص الذين على عاتقي والذين أحببتهم أنت كثيراً، انتصر أخيراً. الله عادل ولكنه مخيف، ولذلك لن يستطيع بعد الآن أن يصبّ عليهم آثام أمهم. الوداع يا جوليان. كن عادلاً مع البشر».

وعند هذه النهاية كانت الرسالة غير مقروءة تقريباً. وهي تذكر عنواناً في ديجون، ومع ذلك تتمنى مرسلتها ألّا يكتب جوليان أي جواب، أو على الأقل، أن يستعمل كلمات تستطيع امرأة تابت إلى الفضيلة أن تقرأها دون أن يحمر وجهها.

كان حزن جوليان، بالاضافة إلى التغذية السيئة التي يقدمها متعهد الطعام في الدير، يؤثران في صحته، عندما ظهر فوكيه ذات يوم فجأة في غرفته.

ـ أخيراً استطعت الدخول. أتيت خمس مرات إلى بزانسون لرؤيتك، وكنت أقابَل دائمًا بوجوه من الخشب. رشوتُ شخصاً أمام باب الدير. ولكن لماذا لا تخرج من الدير مطلقاً؟

ـ تجربة فرضتها على نفسي.

ـ أراك متغيراً جداً. وأخيراً رأيتك. علمتني النقود التي بذلتها أنني لم أكن إلا مغفلاً لأنني لم أدفعها منذ رحلتي الأولى.

استمر الحديث طويلاً بين الصديقين. وتغير لـون جوليـان عندما قال فوكيه:

ـ بالمناسبة، هل تعرف؟ أن أم تلاميـذك وقعت في اسمى آيات التوبة الاخلاص والتفاني.

وتكلم بلهجة لا تكلف فيها، أثرت في النفس العاشقة.

ـ أجل يا صديقي، الإخلاص اللامتناهي، يقال إنها تقوم بالزيـارات المقدسـة والحجّ. ولكنهـا بكراهيتهـا الأبديـة للأب ماسلون الذي تجسس كثيراً على الأب المسكين شيلان، لم ترد أن تعترف له. وهي تأتي إلى ديجون وبزانسون للاعتراف.

وقال جوليان وجبينه مكسو بالاحمرار:

ـ تأتي إلى بزانسون؟

ورد فوكيه بلهجة متسائلة:

ـ غالباً.

ـ هل معك عدد من اعداد «الدستوري»؟

ورد فوكيه:

ـ ماذا تقول؟.

وقال جوليان بصوت هادىء جداً:

ـ أسألك عما إذا كان معك «الدستوري». العدد الواحد يباع في الدير بثلاثين قرشاً.

وصرخ فوكيه:

ـ ماذا! حتى في الدير يوجد متحررون! يا لفرنسا المسكينة!

اضاف هذا وهو يقلد صوت الأب ماسلون ولهجته الناعمة.

وكان لهذه الزيارة أثر عميق على جوليان، لو لم يوجه له هذا الرفيق الفريبيري وكان جوليان يعتبره طفلاً، كلمة جعلته يعرف اكتشافاً مهمًا. فمنذ أن دخل جوليان الدير كان سلوكه سلسلة من التصرفات الخاطئة. كان يسخر من نفسه بمرارة.

وفي الحق، كانت الأعمال المهمة في حياته مدبرة بحكمة، ولكنه لم يكن ينتبه ويعتني بالتفاصيل؛ وأذكياء الدير لا يهتمون إلا بالتفاصيل. كان زملاؤه يعتبرونه عقلاً قوياً، لا يلم بكثير من الأشياء الصغيرة.

كان جوليان في نظرهم مصاباً برذيلة كبرى: أنه يفكر، ويحكم على الأشياء بنفسه بدلاً من أن يتبع، مغمض العينين، السلطة والمثل. ولم يساعده الأب بيرار أية مساعدة، ولم يكن يوجه إليه كلمة واحدة خارج غرفة الاعتراف، حيث كان يستمع أكثر مما يتكلم. وكان الأمر مختلفاً طبعاً لو اختار الأب كستناد.

وفي اللحظة التي عرف جوليان مقدار خبله، لم ييتئس لأنه كان يريد أن يعرف كل سعة الشر، ولذلك خرج من السكوت المتعالي الحذر الذي كان يبعد به رفاقه عنه. وعند ذلك بدأوا ينتقمون منه. ولاقت خطواته في سبيل التقرب منهم، الكراهية والاحتقار بل الاهمال. فاعترف أنه منذ دخوله الدير لم يقصر ساعة في اكتساب الاعداء، وخصوصاً في الفرص، بينما اكتفى بعطف بعض الطلبة الفضلاء، أو الأقل فظاظة من الآخرين. الشر الذي يجب أن يعده إذن كبير والمهمـة صعبة. وانصبّ اهتمام جوليان على حراسه، وقرر في نفسه أن يرسم لنفسه خطة جديدة.

حركات عينيه تسبب له، مثلاً، كثيراً من المصاعب. فليست إذن صدفةً أن يجعلها الجميع هنا، مسبلة. قال جوليان لنفسه: ماذا كنتُ أدّعي أنني أعمل في فريير؟ أنني أعيش؟ كلا، كنت استعد للحياة، وها أنذا وسط العالم كما سأجده دائمًا وحتى انتهاء دوري فيه، محاطاً بالأعداء. أية صعوبة هذه في هذه الأنانية كل لحظة! إن في هذا ما يثير شحوب هرقل. وهرقل الأزمنة الحديثة هو سيكست كنت الذي خدع بتواضعه، طوال خمس عشـرة سنة، أربعين كاردينالاً رأوه في شبابه جد متكبر متعجرف.

وقال باشمئزاز: العلم ليس فضيلة هنا، التقدم في التعاليم والتاريخ المقدس لا تهم إلا في الظاهر. كل ما يقال حول هذه

المواضيع ليس إلا فخاً يقع فيه البلهاء مثلي. يا للأسف، جدارتي الوحيدة كانت في التقدم السريع، في الطريقة لفهم ما يقال. هل يقدّرون فعلاً هذه الأشياء حقّ قدرها؟ هل يحكمون عليها مثلي؟ كان لدي الحماقة فافتخرت بذلك، وهذه المراكز الأولى آخذها دائمًا لم تفدني إلا في تكوين الأعداء الألداء. وشازيل، وهو أعلم مني، يزج دائمًا في فروضه بعض الأخطاء الفادحة التي تبعده إلى المركز الخمسين، فإذا نال بعض المرات المركز الأول، فإنما ليتسلى. آه! لكم كانت كلمة واحدة، من السيد بيرار تفيدني!

زال انخداع جوليان. فالتمارين الطويلة كالقداس خمس مرات في الأسبوع وتمارين الخضوع والقلب المقدس الخ الخ... التي كان يراها مزعجة ومضجرة جداً، أصبحت ميدان أعماله المهمة. وفكر جوليان تماماً وحكم على نفسه، وحاول ألاّ يبالغ في حركاته، فلم يعد يوحي بالارتباك كالطلبة الذي يكونون قدوة للباقين، ولا يريد القيام ببعض الاعمال المعبرة، التي تدل على نوع من الكمال المسيحي. وفي الدير طريقة لأكل البيض نصف المسلوق تدلّ على مدى التقدم في الحياة الدينية، كما كل الأخطاء التي قام بها الأب ده ليل، وهو يأكل البيضة خلال فطور دعي إليه في منزل سيدة كبيرة من بلاط لويس السادس عشر.

وجرّب جوليان أول الأمر أن يصل إلى درجة «اللامذنب» أي حالة الطالب الشاب في الدير لا تدل حركاته في تحريك يديه وعينيه، على أي شيء يمت إلى الدنيا بصلة ولكنه لا يظهر بعد أنه استغرق في الحياة الأخرى وعدمها الصافي.

وكان جوليان يقرأ دائمًا كلمات بالفحم على جدران المماشي كهذه الجملة مثلًا: ماذا تساوي ستون سنة من التجربة في هذه الحياة إذا قابلناها باللذة الأبدية أو بعذاب الزيت حين يغلي في الجحيم! لم يعد يكرهها، وفهم بأنّ عليه أن يرا دائمًا. ماذا سأفعل كل حياتي؟ أليس عليّ أن أبيع للمؤمنين أمكنة في الجنة. وكيف أستطيع أن أريهم هذه الأمكنة؟ إن لم يكن بمظهري الذي يختلف عن مظهر العلماني؟

وبعد أشهر من التطبيق الدائم، كان جوليان يظهر بمظهر المفكر. كانت طريقته في تحريك عينيه وفمه لا تبشر بالإيمان الخفي المستعد للإيمان بكل شيء، حتى بالشهادة. ورأى جوليان بغضب كيف أن أكثر الفلاحين فظاظة ينجحون حيث يفشل هو. عليه أن لا يظهر بمظهر المفكر.

وكم من الصعاب اجتازها ليصل إلى هذا الوجه الطافح بالإيمان الأعمى المستعد للإيمان بكل شيء والتألم من كل شيء، هذا الوجه الذي نجده كثيراً في أديرة إيطاليا، والذي يُظهر الرسّام «غرشان» فيه، أمثلة رائعة في لوحاته عن الكنيسة.

أيام الأعياد الكبرى، كان يقدم إلى الطلاب مقانق مع الملفوف. ولأحظ زملاؤه على الطاولة أنه لا يشعر بهذه السعادة. وكانت هذه إحدى أولى جرائمه. رأى رفاقه في ذلك ملامح بشعة تدل على الأنانية الحمقاء. ولم يسبب له من الاعداء·ما سببه له هذا الاهمال. كانوا يقولون: انظروا إلى هذا البورجوازي المتعجرف يحاول الظهور بمظهر من يحتقر أحسن الوجبات، المقانق مع الملفوف! البشع! المتكبر! المحكوم بالشقاء الأبدي!

كان جوليان يصرخ، في لحظات اليأس هذه: للأسف! جهل هؤلاء الفلاحين الشبان، زملائي، يشكل بالنسبة إليهم حسنة كبرى. فعند وصولهم، ليس على المدرّس أن يخلصهم من التصرفات الدنيوية الكثيرة التي أحضرتها معي ويقرأونها على وجهي مهما حاولت.

بكل انتباه يقارب الغيرة ودرس جوليان أكثر هؤلاء الفلاحين الصغار فظاظة عند قدومهم للدير، حيث يصار إلى نزع ملابسهم الكتانية عنهم ويلبسون الثوب الأسود؛ كانت تربيتهم لا تجعلهم يحترمون إلا شيئاً واحداً: المال الناشف الصالح للصرف، كما يقال في فرانش كونتيه.

كانت هذه هي الطريقة المقدسة البطولية للتعبير عن الفكرة الرائعة: سيولة المال.

كانت سعادة هؤلاء الرفاق في الدير كسعادة أبطال روايات فولتير، تقوم خصوصاً على ملء بطونهم.

اكتشف جوليان لديهم جميعاً تقريباً احترامهم الطبيعي لكل رجل يلبس الجوخ الناعم. وكان هذا الشعور يقدر «العدالة الوازعة» تطلقها محاكمنا، حتى قدرها بل أكثر من قدرها.

كانوا يرددون لبعضهم البعض: ماذا يمكن أن نربح إذا عارضنا واحداً من الكبار؟

وهذه الكلمة هي التي تعني في أودية جبال الجورا الرجل الغني. فلنحكم إذن على مقدار احترامهم لأكثر الناس غنى: الحكومة!

إن لا يبتسم المرء عند ذكر اسم السيد المحافظ كان بالنسبة لفلاحي فرانش كونتية قلة عقل. وقلة العقل عند الفقير معناها انعدام الخبز.

وبعد أن أوشك جوليان على الاختناق في أول الوقت من شعوره بالكراهية نحوهم، انتهى الأمر به إلى الاحساس بالشفقة: كان يحدث لآباء هؤلاء أن يعودوا في العشية إلى أكواخهم فلا يجدوا خبزا أو كستناء أو بطاطا.

كان جوليان يقول: ليس من المدهش إذن أن يكون الرجل

السعيد في نظرهم من يستطيع أن يشبع ثم يلبس الملابس الحسنة! إن لزملائي استعداداً حازماً: يرون في لباس الكهنوت سلسلة متتابعة من هذه السعادة: أن يأكلوا جيداً وأن يلبسوا ملابس تدفئهم في الشتاء.

وحدث لجوليان أن سمع مرة أحد طلاب الدير الشباب يقول لرفيقه وهو يحلق في سماء الخيال:

ـ لماذا لا أصبح بابا مثل سكست كنت الذي كان يحرس الخنازير؟

ورد عليه رفيقه:

ـ الكرادلة يختارون دائماً إيطاليا ليكون بابا. ولكن الزمن سيختار منا من يكون مبعوثاً كبيراً أو راعي أبرشية أو حتى مطراناً. إن السيد ب...، كاهن شالون هو ابن صانع براميل، كما أبي.

وذات يوم، استدعى الأب بيرار جوليان، في منتصف درس التعاليم. وانتشى الشاب المسكين للخروج من الجو المادي والمعنوي الذي غرق فيه.

ولكن جوليان لاقى من الأب المدير الاستقبال الذي أخافه في اليوم الأول من دخوله للدير، إذ قال له وهو يتطلع إليه كمن يريد أن يدخله إلى باطن الأرض:

ـ فسر لي ما هو مكتوب على ورقة اللعب هذه.

وقرأ جوليان:

«أماندا بينيه، مقهى الزرافة، قبل الساعة الثامنة، قل إنك من جنليس وإنك قريب أمي».

ورأى جوليان مقدار الخطر: سرق هذه الورقة منه، جماعة الأب كستناد.

فردّ وهو يتطلع إلى جبين الأب بيرار لأنه لم يكن يستطيع احتمال نظرته الرهيبة:

ـ في اليوم الذي أتيت إلى الدير كنت ارتجف. قال لي السيد شيلان أنه مليء بالوشايات والخبث من كل نوع، والتجسس والوشاية بين الرفاق. السماء تريد الأمر كذلك لتريني الحياة كما هي، وأنا القسيس الشاب لتثير فيّ الاشمئزاز من الدنيا وما فيها.

وقال الأب بيرار بغضب:

ـ وأنت تقول لي هذا الكلام، أيها اللعين الصغير!

وتابع جوليان ببرود:

ـ كان أخوتي في فرير يضربونني كلما أحسوا بالغيرة مني.

وصرخ السيد بيرار وهو يكاد يخرج عن طوره:

- وبعد! وبعد!

ودون أن ينزعج جوليان مطلقاً، تابع روايته:

- عند وصولي إلى بزانسون، الظهر، كنت جائعاً. فدخلت إلى مقهى، وكان قلبي مليئاً بكراهية هذا المكان الدنيوي، ولكنني اعتقدت أن الغداء سيكلفني أقل مما في الفندق؛ ورقّت لحالي سيدة، يظهر أنها سيدة المكان؛ فقالت لي: إن بزانسون مليئة بالاشقياء وأنا أخاف عليك يا سيدي، فإذا أصابك حادث فالجأ إلي. عُدْ قبل الثامنة، إذا رفض بوابو الدير أن يستقبلوك وقل إنك قريب لأمي وإنك من مواليد جنليس...

وصرخ الأب بيرار وهو لا يستطيع البقاء في مكانه فقام يتمشى في الغرفة:

- كل ثرثرتك هذه سيحقق فيها.

عودةً إلى غرفته.

وتبع الأب بيرار جوليان، ثم أغلق عليه الباب. فانكب هذا بسرعة على حقيبته وكان أخفى في قعرها الورقة. ولم يكن ناقصاً من حقيبته أي شيء، إنما فيها بعض الفوضى. المفتاح لا يزال موجوداً. فقال جوليان: يا لسعادتي، رفضت بعناد كل إذن بالخروج، وكان السيد كستناد هو الذي يعرض ذلك دائماً بطيبة

أستطيع الآن تفسيرها. كنت حرياً بأن ارتكب خطأ وأغير ملابسي واذهب لرؤية أماندا الجميلة، وعندئذ أكون خاسراً. وعندما يئسوا من محاولتهم هذه في دفعي للخروج، قاموا بكشف سري.

وبعد ساعتين استدعاه المدير وقال له بنظرة أقل قسوة:

ـ لم تكذب. ولكن الاحتفاظ بعنوان كهذا كان عملاً طائشاً لا تستطيع أن تتصور خطورته أيها الطفل التعيس! قد يسبب لك هذا خسارة ولو بعد عشر سنوات.

٢٧
أول تجربة في الحياة

الوقت الحاضر؛ يا إلهي! إنه قوس المولى.
ويل لمن يلمسه.

ديدرو

فليسمح لنا القارىء بأن نعطيه بعض الحوادث الواضحة الدقيقة، عن هذه الفترة من حياة جوليان. لا لأنّ الحوادث تنقصنا، ولكن قد يكون ما رآه في الدير حالك السواد إلى درجة لا تتناسب مع الالوان التي حاولنا أن نحتفظ بها في هذه

الصفحات. والمعاصرون الذين يقاسون من بعض الأشياء، لا يستطيعون أن يتذكروا هذه الحوادث الا برعب يشلّ كل لذة، حتى لذة قراءة الحكايات.

لاقى جوليان قليلاً من النجاح في حركاته المفتعلة. فمر في لحظات قرف، بل لحظات يأس مطبق. لم يصادف النجاح، ولكنه لو وجد أقل معونة خارجية لعادت إليه شجاعته؛ كانت العقبة التي في طريقه غير كبيرة، ولكنه كان وحيداً كالقارب المتروك في عرض المحيط. وكان يقول لنفسه:

ـ متى أتعلّم أن أعيش مع هذه الصحبة الطيبة! هؤلاء الافظاظ الذين لا يفكرون إلا بالبيض يلتهمونه عند الغداء، أو هؤلاء الذين، مثل الأب كستناد، لا يعتقدون جريمة محرمة عليهم. سيصلون إلى السلطة، ولكن بأي ثمن يا إلهي!

ارادة الانسان قوية. أقرأ هذا في كل مكان؛ ولكن هل تكفي إرادتي للتغلب على هذا التقزز؟ مهمة الرجال العظماء كانت دائمًا سهلة، ومهما كانت الصعوبات التي يلاقونها، كانوا دائمًا يجدونها حلوة؛ ومن يستطيع أن يفهم، مثلي، بشجاعة ما يجاورني؟

وكانت هذه اللحظة من أقسى لحظات حياته. من السهل عليه أن ينخرط داخل إحدى فرق النقل في بزانسون! باستطاعته أن يدرّس اللاتينية، ويلزمه القليل ليؤمّن قوته! ولكنه كان

يعرف أنه لن يكون له مستقبل إذا قام بذلك، وهذا معناه الموت بالنسبة لخياله. وهذا تفصيل واحد من أيامه الحزينة.

إدعاءاتي سرت كثيراً ودائمًا لأنني اختلف عن بقية الفلاحين الشباب! وبعد، عشت كفاية لكي أعرف أن الاختلاف يولد الحقد. تبين هذه الحقيقة الكبرى في إحدى محاولاته للتقرب من أحد الطلاب الذين يعيشون كالقديسين. أمضى ثمانية أيام يتنزه فيها معه في الملعب ويستمع إلى حماقات تدفع الانسان لينام وهو واقف. وفجأة بدأ الطقس يتغير وزمجرت العاصفة ولمعت الصاعقة فصرخ الطالب القديس وهو يبعده بطريقة فظة:

ـ اسمع؛ كل واحد يعمل لنفسه في هذا العالم، لا أريد أن تحرقني الصاعقة، قد يصيبك الله بها كما يصيب الملعونين أو كما أصاب فولتير.

وصرخ جوليان وهو يشد على أسنانه من الغضب ويتطلع بعينيه إلى هذه السماء التي تشققها الصاعقة:

ـ استحق أن أغرق إذا نمت خلال العاصفة. فلنحاول أن نكسب غير هذا الجاهل الأحمق.

وأعلن بدء درس التاريخ المقدس يقوم به الاب كستناد.

قال الأب لهؤلاء الفلاحين الشبان الخائفين من العمل الشاق ومن فقر أهلهم، إنّ هذا الكائن الرهيب في أعينهم، أي

.الحكومة، ليس له سلطان حقيقي وشرعي إلا بفضل التفويض الذي يمنحه لها رسول الإله على الأرض.

ـ فكونوا جديرين بنِعَم الباب في قداسة حياتكم وطاعتكم؛ كونوا كالقضبان بين يديه، وستحصلون على مركز رائع تستلمون فيه القيادة، بعيداً عن كل مراقبة؛ مركز لا يمكن إزاحتكم عنه، تدفع الدولة ثلث نفقاته ويدفع الثلثين الباقين المؤمنون من أتباعكم.

وعند الخروج من الدرس توقف السيد كستناد في البهو وقال لتلاميذه الملتفين حوله:

ـ الخوري هو الذي نستطيع أن نقول عنه: هذا هو الرجل، وهذا هو المركز. أنا الذي يحدثكم، عرفت أبرشيات في الريف ميزانيتها أكثر مما تساوي موازنات أبرشيات المدن: الكثير من المال بالاضافة إلى الدجاج السمين، والبيض والزبدة الطازجة وآلاف الترتيبات التفصيلية؛ الخوري هناك أول الشخصيات ولا يمكن أن تقام أية حفلة أو أي عيد دون أن يكون هو بين المدعويين. الخ.

ولم يكد الأب كستناد يذهب إلى غرفته حتى انقسم تلاميذه حلقات. ولم يكن جوليان في إحداها. تركوه وحيداً كالعنزة الجرباء. وفي كل هذه الحلقات، كان جوليان يرى واحداً من

الطلاب يرمي بسرور بعض التراب في الهواء، فإذا أصاب تماماً في لعبة الصليب، أو إذا علقت الطينة بالحائط، كان رفاقه يستنتجون أنه سيفوز سريعاً بإحدى هذه الأبرشيات ذات المدخول الكبير.

وتوالت الروايات. هذا القسيس الشاب، لم يكد يُرسم منذ سنة، ؛ قدم أرنباً خاصاً إلى خادمة أحد الخوارنة الكهول؛ وبسرعة طُلب ليكون مبعوثاً، ثم بعد أشهر قليلة، مات الخوري العجوز، فحل مكانه في الابرشية الطيبة. ونجح آخر في أن يعين خلفاً لخوري في إحدى القصبات الغنية جداً، وذلك بحضوره جميع ولائم الخوري العجوز المشلول، حيث كان يقطّع له الدجاجات عن طيب خاطر.

وطلاب الدير، كبقية الناس في جميع المهن، يبالغون في مفعول هذه الوسائل الصغيرة، وهي غريبة تثير الخيال.

وقال جوليان لنفسه:

ـ يجب أن أشترك في هذه المحادثات.

عندما كانوا لا يتحدثون عن المقانق والمراكز الغنية، فعن الجوانب الدنيوية في النظريات الدينية، وعن خلافات المطارنة والمحافظين والعمد والخوارنة. وكان جوليان يلمح من خلال ذلك إطلالة فكرة إله آخر، يثير الخوف أكثر من الإله الأول

وأقوى منه. هذا الاله الثاني هو البابا. كانوا يقـولون، وهـم يخفضون صوتهم، عندما يثقون أن الأب بيرار لا يسمعهم، أنه إذا لم يكلف البابا نفسه مشقة تعيين كل المحافظين والعمد في فرنسا، معنى هذا أنه أعطى هذا الحق للملك فرنسا، عندما سماه الابن الأكبر للكنيسة.

وعند هذا الوقت ظن جوليان أنه يستطيع قطف احترامهم بواسطة كتاب «البابا» لمؤلفه السيد ده متر. وأثار إعجاب رفاقه، ولكنه فشل أيضاً في هذا: تضايقوا منه لأنه استطاع أن يعبّر أحسن منهم عن آرائهم الخاصة نفسها. كان السيد شيلان قليل الحذر بالنسبـة لنفسه ولجـوليان. فبعـد أن درّبه عـلى التفكير السليم، وبعد أن علمه كيف لا يلقي الكلام على عواهنه، نسي يقول له أن هذه العادة جريمة بالنسبة لمن لا يحترم نفسه، لأن كل تفكير منطقي سليم يهين.

كانت كلمات جوليان الصحيحة إذن جريمة جديدة. ولكثرة ما فكر فيه رفاقه، توصلوا أخيراً إلى إطلاق اسم «مارتن لوثر» عليه للتعبير عن الرعب الذي كان جوليان يوحيه لهم. كانوا يقولون:

ـ على الأخص، بسبب هذا المنطق الذي يجعله شديد الفخر.

بعض طلاب الدير كانوا يتمتعون بـألوان أنقى من ألـوان

جوليان، وكان بالامكان اعتبارهم أجمل منه، ولكن يديه كانتا دائمًا نظيفتين، فلم يكن يستطيع أن يخفي بعض عادات النظافة الناعمة. وهذا لم يكن يشكل حسنةً في بيت كهذا قذفته الاقدار إليه. فالفلاحون القذرون يعيش بينهم كانوا يعلنون أن عنده عادات رخوة. نخاف أن نتعب القارىء برواية آلاف الأحداث التعيسة قام بها بطلنا: استعدّ أكثر رفاقه قوة على ضربه فاضطر للتسلح ببركار حديدي وللاعلان بالاشارة أنه سيستعمله. فالاشارات لا يمكن أن تكتب في تقرير التجسس وهي، بهذا، أكثر فعالية من الكلمات.

٢٨
الموكب

كانت كل القلوب منفعلة. وكان يخيل للجميع أن الله نزل إلى هذه الأزقة الضيقة، الغوطية، المشدودة من كل ناحية، نظفها جيداً المؤمنون.

يونغ

مهما حاول جوليان أن يظهر نفسه صغيراً أحمق، لن يستطيع إعجاب أحد. كان جد مختلف عنهم. ولكنه كان يقول مع ذلك:

ـ كيف لا يحب هؤلاء الاساتذة تواضعي، وكلهم أناس حساسون، مختارون بدقة من بين الألوف؟ كان بينهم واحد يدعي معرفة كل شيء وهو أبله أكثر من الكل: الأب شا ـ برنار، مدير الاحتفالات في الكاتدرائية. مضت خمس عشرة سنة وهو موعود باستلام إحدى الابرشيات. وفي انتظار ذلك، كان يعلّم في الدير البلاغة المقدسة. وكان جوليان في هذا الدرس، دائمًا الأول. انطلق الأب شا من هذه النقطة ليعبر له عن تودّده: يتأبط ذراعه، عند انتهاء محاضرته، ويسير معه بضع دورات في الحديقة.

كان جوليان يقول لنفسه:

ـ إلى أين يريد أن ينتهي؟

كان يرى بدهشة أن الأب شا يحدثه ساعات كاملة عن زينة الكاتدرائية: سبعة عشر رداء مرصعاً للكهنة، بالاضافة إلى زينة المآتم. وكان الجميع ينتظرون الكثير من الرئيسة العجوز ده روبامبريه. فهذه السيدة التي تقارب التسعين كانت تحتفظ منذ ما لا يقل عن سبعين سنة بأثواب عرسها وهي من أغلى منسوجات ليون، المطرزة بالذهب.

ويتوقف الأب شا فجأة ليضيف بعينين جاحظتين:

ـ وتصور يا صديقي أن هذه الأثواب تنتصب مستقيمة لكثرة

ما فيها من الذهب. ويعتقد الجميع في بزانسون أن وصية الرئيسة ستزيد ثروة الكاتدرائية بأكثر من عشرة أردية، عدا أردية الحفلات العامة التي قد تبلغ الأربعة أو الخمسة.

ويضيف الأب شا وهو يخفض صوته:

ـ بل إذهب إلى أبعد من هذا، مما يدفعني إلى الظن بأنّ الرئيسة ستترك لنا ثمانية شمعدانات رائعة مرصعة بالذهب، يقال أن دوق بورغونيا، شارل الشجاع، اشتراها من إيطاليا، وكان أحد أجداد الرئيسة وزيراً مفضلاً عنده.

وفكر جوليان: ولكن إلى أين يريد هذا الرجل أن يصل بهذه الديباجات؟ هذا التحضير الحاذق مستمر منذ قرن، ولم يظهر أي شيء حتى الآن. لا شك أنه شديد الحذر مني! إنه أكثر حذقاً من الباقين، الذين يستطيع المرء أن يدرك هدفهم الأساسي بعد خمسة عشر يوماً. إنني أفهم أن طموح هذا يتألم منذ خمسة عشر عاماً!

ذات مساء استدعى الأب بيرار جوليان، في منتصف المحاضرة وقال له:

ـ غداً عيد الرب، ويحتاج الأب شا ـ برنار إليك لتزيين الكاتدرائية، فاذهب وأطع.

ثم أضاف بلهجة حانية:

- ويعود الأمر إليك في انتهاز الفرصة لتبتعد عن المدينة.

وردّ جوليان باللاتينية:

- لي أعداء أخفياء.

في اليوم التالي، ذهب جوليان منذ الصباح الباكر بعينين مسبلتين إلى الكاتدرائية. وأفاده منظر الشوارع التي بدأ النشاط يدب فيها. كان الجميع ينظّفون ويزيّنون واجهات البيوت احتفاء بالموكب. وخيل إليه أن كل الوقت الذي امضاه في الدير لم يكن إلا لحظة واحدة. كانت أفكاره في فرجي، وعند أماندا بينيه الجميلة التي يستطيع لقاءها، فمقهاها ليس بعيداً. ورأى من البعيد الأب شا - برنار على باب كاتدرائيته العزيزة، وهو رجل ضخم الجثة، ذو وجه منتعش وهيئة متفتحة. كان في ذلك اليوم منتصراً. وصرخ عندما رأى جوليان من البعيد:

- كنت أنتظرك يا ولدي العزيز. أهلاً وسهلاً. عمل اليوم طويل شاقّ، فلنقوّ انفسنا بفطور أول. وسنتناول الثاني في العاشرة، أثناء القداس الكبير.

ردّ عليه جوليان بلهجة رصينة:

- ارغب أن لا أبقى وحيداً لحظة واحدة.

واضاف وهو يريه الساعة المعلقة فوق رأسيهما:

ـ تفضل ولاحظ أنني أتيت في الخامسة إلا دقيقة واحدة.

وقال الأب شا:

ـ آه! هؤلاء الطلاب في الدير يثيرون خوفك! إنك ساذج لأنك فكرت فيهم. هل ينقص من جمال الطريق وجود بعض الاشواك في الجنائن التي تحف بها؟ أن المسافرين يسيرون على الطريق ويتركون الاشواك تتعفن في أماكنها. وعلى كل حال يا صديقي، هيا! هيا إلى العمل!

وكان الأب شا محقاً عندماً قال أن العمل هذا النهار شاق. أقيمت، عشية الأمس، حفلة تأبين كبرى في الكاتدرائية، فلم يكن بالامكان تحضير أي شيء قبل صباح اليوم. وكان من الواجب تغطية كل العواميد الغوطية التي تؤلف أقسام الكاتدرائية الثلاثة، بنوع من القماش الأحمر يرتفع إلى أكثر من ثلاثين قدماً. استقدم المطران لذلك أربعة صناع من باريس، ولكن هؤلاء لم يكونوا يستطيعون القيام بكل شيء، إضافة إلى أنهم لم يكونوا يشجّعون زملاءهم البزانسونيين، بل يسخرون منهم.

ورأى جوليان أن عليه ارتقاء السلمّ بنفسه، ساعدته خفته كثيراً. فكلف نفسه بتوجيه صنّاع بزانسون. وكان الأب شا

المسرور يتطلع إليه متنقلاً من سلمّ إلى سلمّ. وعندما غطيت جميع العَواميد بالقماش، كان من الواجب وضع خمس باقات ضخمة من الريش على الخيمة الكبرى فوق المذبح الرئيسي، حيث زينة غنية من الخشب المذهب تحملها ثمانية أعمدة كبرى من قطع المرمر الايطالي. وحتى يصل إلى وسط سقف الخيمة، كان لا بد من أن يمر على جسر خشبي قديم، قد يكون مهترئاً، يبلغ ارتفاعه أربعين قدماً.

كان منظر هذا الطريق الشاق أطفأ المرح البراق كان يظهره الصناعيون الباريسيون، فكانوا يتطلعون إليه من مكانهم ويتناقشون، ثم لا يصعدون. وأخذ جوليان باقات الريش وتسلق السلم راكضاً، ثم وضعها بشكل حسن على الزينة وسط الخيمة. وعندما نزل السلم، ضمّه الأب الطيب شا ـ برنار بين ذراعيه وهو يقول:

ـ رائع جداً، سأحكي هذا للمونسنيور.

كان فطور الساعة العاشرة جد مرح. فالأب شا لم ير كنيسة مطلقاً بهذا الجمال. فقال لجوليان.

ـ يا تلميذي العزيز، كانت أمي تؤجّر الكراسي لهذه المؤسسة المحترمة، بمعنى أنني ربيت في هذا البناء الكبير. دمرنا الرعب الذي فرضه روبسبير. ولكنني كنت في ذلك الحين، وعمري

ثمانية أعوام أخدم. القداس ويطعمونني في أيام القداس. ولم يكن من يتقن قرع الجرس مثلي، فكانت الرنات لا تنقطع أبداً. وعندما أعاد نابليون الشعائر الدينية، كان لي شرف تنظيم كل شيء في هذا المقر المحترم. أراه كل عام خمس مرات مزيناً بهذه الزينات الرائعة. ولكنه لم يكن قط بهذا الجمال، ولم تعلق أطراف الجوخ الأحمر بهذه الروعة كما اليوم ملتصقة تماماً بالأعمدة.

وفكر جوليان:

ـ سيحدثني أخيراً عن سره. ها هو يحدثني عن نفسه، إنه يبدأ الحديث بذلك. ولكن شيئاً لم يصدر عن هذا الرجل. ومع ذلك اشتغل كثيراً. أنه سعيد فهو لم يوفر الخمرة الجيدة. أي رجل، أي مثل لي!

عند انتهاء القداس الاحتفالي، أراد جوليان أن يستأذن ليتبع المطران في موكبه الجميل. ولكن الأب شا صرخ قائلاً:

ـ واللصوص يا صديقي، اللصوص! ألا تفكر بهم؟ سيخرج الموكب الآن وستصبح الكنيسة خاوية. سنحرسها أنت وأنا. كنا نكون سعداء تماماً لو لم تنقصنا بعض القطع من الشريط الرائع الذي يجاور قاعدة الاعمدة. هذا الشريط أيضاً هبة من السيدة ده روبامبريه.

وأضاف الأب وهو يتكلم في أذن جوليان بلهجة منفعلة:

ـ من الذهب الخالص، ليس فيه أي غش! أكلفك برعاية الجناح الشمالي، فلا تخرج منه. سأراقب أنا الجناح الأوسط والقاعة الكبرى. انتبه للذين يعترفون، فهؤلاء جواسيس اللصوص ينتهزون اللحظات التي نكون فيها دائرين ظهورنا.

ودقت الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعون، عندما أنتهى من حديثه، وسرعان ما سمع قرع الجرس الأكبر. كان يقرع على مداه. وانفعل جوليان بهذه الأصوات المليئة الفخمة، فحلّق خياله فوق الأرض.

وصل انفعاله إلى حده الأقصى وهو يشم رائحة البخور وأوراق الورد رماها أمام المذبح أطفال صغار يتنكرون بملابس القديس يوحنا.

ولم يكن يجب أن تثير أصوات الجرس الفخمة في جوليان غير فكرة العمل الذي يقوم به عشرون رجلاً، باجرة خمسين سنتيمًا للشخص الواحد، يساعدهم في ذلك خمسة عشر أو عشرون مؤمناً. كان عليه أن يفكر باهتراء الحبال وتآكل الخشب وخطر الجرس نفسه، ينقطع مرة كل قرنين، وأن يفكر في وسائل إنقاص أجرة من يقرع الجرس، أو أن يدفع لهم تماماً ما عليه ببعض التسامح، أو بعض ما في كنوز الكنيسة من نعم، شرط

أن لا يضايق خزينتها.

وبدلاً من هذه الأفكار العاقلة كان فكر جوليان يهيم في الفضاء الخيالي متأثراً بهذه الأصوات القوية المليئة. لن يكون مطلقاً قسيساً طبياً أو إدارياً كبيراً. الأرواح التي تنفعل هكذا لا تصلح إلا لخلق فنان. وهنا يظهر بوضوح مقدار إدعاء جوليان. فخمسون زميلاً في الدير نبههم إلى حقيقة الحياة ما رأوه من الحقد عند العامة ومن اليعقوبية التي يظهرها لهم كل شيء خارج حواجز الدير. وهؤلاء لم يفكروا عند سماع أصوات الجرس إلا بإجرة العمال الذين يدقونه. لم يكونوا ليهتموا إلا بالتحقيق عما إذا كان الانفعال الذي سببته أصوات الأجراس للجمهور يساوي المال الذي يدفع للعمال، ويستغرقون في مقابلتهم ويحكمون بالعدل والقسطاس. ولو كان جوليان يريد أن يفكر في مصالح الكاتدرائية المادية، لفكر، وهو الذي انطلق خياله إلى أبعد الحدود، في كيفية اقتصاد أربعين فرنكاً، وأهمل مصروف الخمسة وعشرين سنتيًا.

وبينما كان الموكب يومها، مجتازاً شوراع بزانسون، متوقفاً في استراحات براقة أقامتها جميع السلطات، كانت الكنيسة غارقة في صمت عميق، تسودها ظلمة قليلة وجو محبب، ولا تزال عابقة برائحة الزهور والبخور.

وكان السكون والوحدة العميقة وطراوة الممرات الطويلة تجعل أحلام جوليان ألطف وأحلى. لم يكن يخشى أن يعكر صفو أحلامه الأب شا، فهو مشغول في القسم الآخر من البناء. تركت روحه تقريباً رداءها المميت يختال بخطوات بطيئة في الجناح الشمالي المكلف بحراسته. وازداد هدوؤه عندما تأكد أنه ليس بين المعترفين إلا عدة نساء متدينات، فكانت عينه سادرة تتطلع دون أن ترى.

ومع ذلك زال شروده عندما رأى امرأتين أنيقتين راكعتين على ركبيهما، الأولى في كرسي الاعتراف، والأخرى قريباً من الأولى، على كرسي. كان يتطلع دون أن يرى، ولكنه لاحظ أنه لم يكن في المكان أي قسيس، ففكر: من الغريب أن لا تكون هاتان المرأتان راكعتين أمام واحدة من الاستراحات القائمة على طريق الموكب لو كانتا متدينتين أو أن لا تكونا واقفتين ضمن الصف الأول على شرفة تطل على الموكب، لو كانت دنيويتين. أي جمال في هذا الثوب الأنيق! أي سحر! وأبطأ خطاه ليراهما.

السيدة التي كانت راكعة في كرسي الاعتراف رنت قليلاً عند سماعها خطوات جوليان يقترب، وسط هذا السكون العميق، وفجأة أطلقت صوتاً خفيفاً، ثم ساءت حالها.

وعندما فقدت هذه السيدة الراكعة قواها، وقعت إلى الوراء، فهبت صديقتها بالقرب منها لنجدتها. وفي هذا الوقت رأى

جوليان اكتـاف السيدة التي وقعت، ثم لفت نـظره عقد من حبات اللؤلؤ الكبيرة الناعمة كان يعرفه جيداً. وإذا به يُصَعَق وهو يتعرف إلى شعر السيدة ده رينال! بلى... كانت هي؛ والسيدة التي حاولت اسناد رأسها ومنعها من السقوط كـانت السيدة درفيل. واندفع جوليان، خارجاً عن طوره، وكان من الممكن أن يؤدي سقوط السيدة ده رينال إلى سقوط صديقتها التي حاولت مساعدتها، لو لم يسرع فيتلقاهما. ورأى وجه السيدة ده رينال شاحباً محروماً من كل تعبير. وساعد جوليان السيدة درفيل في وضع هذا الرأس الساحر على متكأ أحد الكراسي من القش، أما هو فكان راكعاً.

والتفتت السيدة درفيل، وقالت، عندما عرفته، بلهجة ملؤها الغضب:

ـ إذهب يا سيدي إذهب، يجب على الأخص أن لا تراك مرة أخرى. إن رؤيتك ولا شك ستسبب لها الرعب. كانت سعيدة! قبل أن تعرفك طريقتك قاسية. إذهب، إبتعد، ليكن عندك بعض الخفر.

ولفظت السيدة درفيل هذه الكلمة بشكل حازم جعل جوليان ينقاد بسهولة فابتعد. ثم قال في نفسه: السيدة درفيل كرهتني دائماً.

في هذه اللحظة سمع صوت قساوسة الموكب الأوائل في الكنيسة: وصل الموكب إليها. ونادى الأب شا ـ برنار عدة مرات جوليان، ولكن هذا لم يسمع في أول الأمر، ثم أتى الأب شا وأخذه من يده من وراء عمود لجأ جوليان إليه نصف ميت. كان يريد أن يقدمه للكاهن. قال له وهو يرى شحوبه وعدم استطاعته السير:

ـ تحس بالأوجاع يا ولدي: اشتغلت كثيراً. وأعطاه الأب ذراعه. تعال اجلس على هذا المقعد الصغير يجلس عليه معطي الماء المقدس، ورائي؛ سأخفيك. وكانا ساعتئذ قرب الباب الكبير. هدّىء أعصابك، لدينا بعد أكثر من عشرين دقيقة قبل أن يظهر المونسنيور. حاول أن تهدأ، وعندما يمر سأرفعك لأنني قوي نشيط رغم سني.

ولكن الأب شا لم ينفّذ ويقدمه للكاهن لأن جوليان، كان عند مرور هذا الأخير، يرتجف مضطرباً. ثم قال له:

ـ لا تبتئس، سأجد فرصة أخرى.

وفي المساء، أرسل إلى كنيسة الدير، عشر ربطات من الشموع وفرها جوليان من السرعة التي أطفأها بها. ولكن شيئاً من هذا لم يكن صحيحاً، لأن الشاب المسكين كان، هو نفسه، مطفأ، ولم تخطر على باله أية فكرة منذ رأى السيدة ده رينال.

٢٩
التقدم الأول

عرف عصره، عرف دائرته، وهو غني.
الرائد

لم يكن جوليان عندما استدعاه الأب بيرار، أفاق بعد من حلمه العميق الذي أغرقه فيه حادث الكاتدرائية.

ـ الأب شا ـ برنار كتب لي يمدحك. إنني راضٍ عامةً عن تصرفاتك. لست حذراً أبداً بل ضائع دون أن يلاحظ ذلك. ومع ذلك فحتى الآن القلب طيب بل كريم، والذهن متفوق. وعلى الاجمال، أرى فيك شعلة لا يجب إهمالها.

إنني أوشك، بعد خمسة عشر عاماً من العمل، أن أخرج من هذا البيت. جريمتي أنني تركت طلابي يحكمون عقولهم، ولم أحم ولم أساير هذه الجمعية السرية التي حدثتني عنها. قبل أن أرحل، سأقوم بما كان علي أن أقوم منذ شهرين لأنك تستحق ذلك لو لم تأت هذه الوشاية الصحيحة المتعلقة بعنوان أماندا بينيه الذي وجد عندك. على هذا أعيّنك معيداً للعهد الجديد والقديم.

وهمّ جوليان، وهو يطير من الفرح، أن يركع شاكراً المولى ولكنه استجاب لحركة أكثر تعبيراً وصدقاً، فاقترب من الأب

بيرار وأخذ يده ورفعها إلى شفتيه.

وصرخ مدير الدير بلهجة الغضب:

ـ ما هذا؟

كان في عيني جوليان أكثر مما في حركته. تطلع إليه الأب بيرار باندهاش، كرجل مضى عليه وقت طويل لم يصادف فيه أي انفعال ناعم، فاضطرب صوته وخانته إرادته:

ـ ويعد يا ولدي! إنني متعلق بك. وتعرف السماء أن كل ما حدث كان رغمًا عني. كان علي أن أكون عادلاً، وأن لا أحمل الحقد أو الحب لأحد. مستقبلك صعب، وأنا أرى فيك ما يصدم الشخص المعتدل. فالحسد والنميمة تتبعانك. وأينما وضعتك العناية الالهية، رفاقك سيشعرون بالكراهية نحوك، وإذا ما تظاهروا بحبك، فإنما ليستطيعوا خداعك. ولهذا ليس أمامك إلا علاج واحد: ألّا تلجأ إلا للإله، الذي أعطاك، ليجازيك على ادعاءاتك، ضرورة أن تكون مكروهاً. فليكن سلوكك نظيفاً، هذا هو رأسمالك الوحيد. فإذا تعلقت بحقيقة شيءٍ لا يقاوم، سيتحد اعداؤك ضدك عاجلًا أو آجلًا.

وكان مر على جوليان زمن طويل لم يسمع فيه صوت صديق، فأخذ في البكاء لدى سماعه كلمات الأب بيرار الذي سارع وفتح له ذراعيه وكانت هذه اللحظة ناعمة هانئة لكليهما.

كان جوليان مجنوناً من الفرح. فهذا التقدم الذي يحرزه كان الأول من نوعه بالنسبة إليه، وحسناته تفوق الحد، وهو الذي عرف قسوة الاحتكاك المتواصل، لأشهر كاملة، برفاق لا يتركونه لحظة لوحدته، أحسنهم غير مناسب له وغالبيتهم لا تحتمل. صراخهم وحده يكفي لخلق الفوضى في منظمة دقيقة. فهؤلاء الفلاحون يأكلون جيداً ويلبسون جيداً ولا يعتقدون فرحهم كاملاً إلا عندما يصرخون بكل قوة حناجرهم.

بات جوليان يأكل وحيداً، أو شبه وحيد، بعد ساعة من الطلاب. وكان لديه مفتاح الحديقة يستطيع أن يدخلها ويتنزه فيها عندما تكون خالية.

ودهش كثيراً عندما رأى كراهيتهم له خفت. كان يتوقع أن تتضاعف. ورغبته الخفية في عدم التحدث إلى أحد، وهي كانت واضحة عنده وسببت له الكثير من الاعداء، لم تعد علامة على التعالي المضحك. بل باتت، في أعين المخلوقات الفظة التي تحيط به، مناسبة لمقامه. وخف الحقد بسرعة، خصوصاً بين زملائه الشباب الذين أصبحوا من تلامیذه وهو يعاملهم بكثير من التهذيب. وشيئاً فشيئاً أصبح له مناصرون، وبات مستهجناً أن ينادى بـ مارتن لوثر.

ولكن لماذا أعدد أصدقاءه وأعداءه؟ هذا قبيح، وأقبح ما فيه أنه يعبر عن الحقيقة. ولكن هؤلاء هم مدرسو الأخلاق

الوحيدون لدى الشعب، فماذا يصبح بدونهم؟ هل تحل الجريدة يوماً مكان الخوري؟

ومنذ هذه الترقية الجديدة أحرزها جوليان، اعتزم مدير الدير ألا يكلمه إلا أمام شهود. وكان في هذا التصرف حكمة تفيد المدير والتلميذ، ولكنّ ثمة تجربة وامتحاناً. فمبدأ الجانسيني بيرار كان ثابتاً لا يتغير وهو: تعتقد أن رجلاً يستحق التقدير؟ ضع إذن حاجزاً في وجه كل ما يريد وما يعتزم. فإذا كان جديراً بالتقدير، سيعرف كيف يتخطى الحواجز ويجتازها.

حان زمن الصيد، فأراد فوكيه أن يرسل إلى الدير غزالاً وخنزيراً من قِبَل أهل جوليان. ووضع الحيوانان الميتان في الممر بين المطبخ وقاعة الطعام، حيث رآهما جميع الطلبة وهم يذهبون للطعام، وكان الأمر موضوعاً أثار فضولهم. فالخنزير البري، رغم أنه ميت، كان يخيف أصغر الشبان سناً، فكانوا يلمسون اسلحته. استمر الحديث ثمانية أيام كاملة عن هذا الأمر.

هذه الهبة، صنفت عائلة جوليان بين العائلات التي يجب احترامها، أصابت الحسد بضربة مميتة. وأصبح جوليان متفوقاً يسنده المال. فتقرب إليه شازيل وبقية المعتبرين من الطلاب، وأوشكوا على معاتبته لأنه لم ينبئهم عن ثروة أهله، فعرّضهم بهذا الاهمال ابداء الاحترام اللازم للمال.

وحدثت مناسبة انفعل لها جوليان كثيراً، فقال إن اللحظة التي كان يستطيع أن يبدأ فيها حياة بطولية انقضت إلى غير رجعة، منذ عشرين سنة. كان يتنزه وحيداً في حديقة الدير حين سمع بعض البنائين يعملون في حائط السور ويتناقشون:

ـ وبعد، يجب أن نرحل، أطل عصر جديد.

ـ يا للحظ الطيب، كان البنّاء يستطيع الوصول إلى رتبة ضابط، بل جنرال، في عهد «الآخر». رأينا ذلك.

ـ أذهب الآن! لا يرحل إلا من لا يملك أي شيء. من له شيء، يبقى في البلاد.

ـ من ولد بائساً يبقى بائساً، هذا كل شيء.

ـ آه، هل صحيح ما يقولون أن «الآخر» مات؟

ـ الكبار يقولون هذا! فـ «الآخر» كان يثير رعبهم.

ـ أي فرق، كان العمل رائعاً في عهده! ومع ذلك قواده خانوه! هل يجب أن يكون المرء خائناً!

وعزّت هذه المحادثة جوليان قليلاً. فردد وهو يبتعد متنهداً:

الملك الوحيد الذي حفظ الشعب ذكراه!

وجاء وقت الامتحانات. وأجاب جوليان بطريقة رائعة، رأى

معها أن شازيل يحاول إظهار كل معرفته.

وفي اليوم الأول، تضايق الفاحصون الذين عينهم المبعوث الأكبر فريلير، لأنه كان عليهم دائمًا أن يصنفوا جوليان سوريل هذا، غالباً في المرتبة الأولى، وعلى الأبعد، في المرتبة الثانية، هو الذي قيل لهم عنه أنه ولد الأب بيرار المدلل. وقامت المراهنات في الدير على أن جوليان سيكون الأول في الامتحان العام، مما يتيح له الحظوة بشرف الغداء في بيت المنسنيور الكاهن. ولكن في إحدى الجلسات سأله أحد الفاحصين، بعد أن استمع إلى إجابته عن سان جيروم وإعجابه بشيشرون، عن هوراس وفرجيل وبعض الكتّاب الدنيويين. وكان حفظ جوليان عن ظهر قلب، خلافاً لكل زملائه، مقاطع كاملة من كتابات هؤلاء. واستغرق في نجاحاته فنسي المكان الذي كان فيه، واسمع الفاحص، بناء لطلباته الملحة، بعض إشعار هوراس وحللها بدقّة. وبعد أن تركه الفاحص عشرين دقيقة، تغير وجهه ولامه بشدة على الوقت الذي أضاعه في هذه الدراسات الدنيوية وعلى الأفكار اللامجدية، بل المجرمة التي وضعها في رأسه.

ورد جوليان بهيئة متواضعة وهو يكتشف الخطة التي كان ضحيتها:

ـ إنني أحمق يا سيدي، كل الحق.

وأقرّ الجميع، حتى من في الدير، أن هذه الحيلة قذرة، ولكن هذا لم يمنع الرجل الحاذق الذي رتب بمهارة الشبكة التابعة للمجلس الكنائسي، والذي كانت برقياته إلى باريس تثير رعب القضاة والمحافظين، بل وضباط فرقة الحرس، الأب فريلير، من أن يجعل المرتبة ١٩٨ أمام اسم جوليان سوريل. كان يحس بالفرح بالانتقام من عدوه الجانسيني بيرار.

وكان شاغله الأكبر، منذ عشر سنوات، أن ينتزع من بيرار مديريه الدير؛ وكان بيرار يتّبع الطريق التي قال لجوليان عنها، وهو مخلص متدين لا يؤمن بالمؤامرات، ويتعلق بواجباته. ولكن السماء بغضبها اعطته مزاجاً فواراً ليحس في أعماقه بالاهانات والحقد. أوشك مئة مرة على تقديم استقالته، ولكنه كان يعتقد أنه مفيد في المركز الذي وضعته العناية الالهية فيه. فكان يقول: هنا أمنع تقدم اليسوعية والوثنية.

وكان مضى عليه شهران تقريباً لم يكلم فيهما جوليان قبل الامتحانات، ومع ذلك مرض ثمانية أيام بعد أن تلقى الرسالة الرسمية التي تعلن نتيجة المباريات ورأى المرتبة ١٩٨ إلى جانب اسم جوليان، التلميذ الذي كان يعتبره فخر منزله. وكان عزاء هذا الروح القاسي، أن يركز على جوليان كل الوسائل التي تكفل مراقبته مراقبة جيدة. أحس بنشوه عظيمة عندما لم ير عنده أي غضب أو اية مشاريع انتقامية أو أي يأس.

وارتجف جوليان، بعد أسابيع وهو يتلقى رسالة، كانت تحمل خاتم باريس. وأخيراً فكر: السيدة ده رينال تتذكر وعودها. أن سيداً يسمي نفسه بول سوريل، يدعي أنه قريب له، أرسل له حوالة بقيمة خمسمائة فرنك. ثم يضيف: إذا تابع جوليان دراسة الكتّاب اللاتينيين بنجاح، سيرسل له مبلغاً مماثلاً كل سنة.

وقال جوليان بحنان: إنها هي، وهذه طيبتها! تريد تعزيتي. ولكن لماذا لم تكتب أي كلمة صداقة؟

لكنه كان مخدوعاً بخصوص الرسالة. فالسيدة ده رينال، بتوجيه السيدة درفيل، كانت مستغرقة في ندمها العميق. كانت تفكر، رغمًا عنها، بهذا المخلوق الغريب الذي رؤياه قلبت وجودها، ولكنها امتنعت عن الكتابة إليه.

في لغة الدير، أن معجزة حدثت ليصار إلى إرسال هذا المبلغ، وإن السماء استخدمت السيد ده فريلير لتحقق هذه الهبة لجوليان.

قبل اثنتي عشرة سنة، وصل الأب ده فريلير إلى بزانسون لابساً معطفه الغريب الذي كان يحوي، كما تقول الرواية، كل ثروته. وهو الآن واحد من أكبر أغنياء المقاطعة. وخلال ازدهاره هذا، اشترى نصف قطعة من الأرض يملك نصفها الآخر بالوراثة المركيز ده لامول. ومن هنا قامت دعوى كبرى بين

هاتين الشخصيتين.

المركيز ده لامول، رغم حياته البراقة في باريس، ورغم قربه من الملك، رأى الخطر الذي يتعرض له إذا صارع في بزانسون مبعوثاً كبيراً يستطيع أن يعين أو يخلع المحافظين. وبدلاً من أن يطلب منحة مقدارها خمسون ألف فرنك، تخفى تحت اسم آخر وتسجل في الميزانية، وبدلاً من أن يترك للأب ده فريلير هذه القضية البسيطة، أحس بالوخز. وظن أنه وجد الطريقة، وأية طريقة!

سمح لنفسه بالتفكير:

ـ أي قاضٍ ليس عنده ولد، أو على الأقل ابن عم، لا يريد أن يدفعه صعداً في هذا العالم؟

ولكي يرىٰ الجميع ما حدث، ركب الأب ده فريلير عربةالمونسنيور الكاهن، بعد ثمانية أيام على صدور أول حكم، وقلد محاميه وسام جوقة الشرف. ودهش السيد ده لامول من إمكانات خصمه وأحسّ بضعف محاميه، فطلب نصيحة الأب شيلان الذي أوصله إلى السيد بيرار.

استمرت هذه الصلات سنوات عديدة قبل أن تحدث القصة مع جوليان. ووضع الأب بيرار كل ثقله في هذه القضية. وكان يرى محامي المركيز، فدرس القضية ووجدها محقة، فأصبح علناً

مؤيد المركيز ضد المبعوث الأكبر القوي. وأحس هذا بالاهانة لهذه الجرأة من جانسيني صغير.

كان الأب ده فريلير يقول في اجتماعاته الخاصة:

ـ أنظروا هذا النبل البلاطي الذي يدعي القوة! فالمركيز ده لأمول لم يرسل وساماً بائساً لعميله في بزانسون فحسب، بل سيسبب تجريده. ومع ذلك، كتب لي بعضهم ينبئوني بأنّ هذا النبيل لا يترك أسبوعاً واحداً يمرّ دون أن يذهب ويعرض وشاحه الأزرق في صالون وزير العدلية، كائناً من كان.

رغم نشاط الأب بيرار، ورغم أن المركيز ده لامول كان دائمًا على ما يرام مع وزير العدلية وعلى الأخص، مع مكاتبه، لم يستطع الحصول، بعد ست سنوات من الجهود، إلا على وعد بأن لا يخسر دعواه مطلقاً.

كان يراسل الأب بيرار دون انقطاع حول هذه القضية التي تهمهما معاً، ثم انتهى الأمر به بتذوق نوعية تفكير الأب. ورويداً رويداً، أخذت لهجة الصداقة تعم رسائلهما، رغم المسافات الشاسعة التي تفصلهما من الناحية الاجتماعية. وكان الأب بيرار يقول للمركيز إنهم يريدون إجباره، تحت طائلة تشويه سمعته، على تقديم استقالته. وفي غمرة غضبه الذي كان يراه في المؤامرة المخزية، ضد جوليان، كما يرى هو، حكى

للمركيز قصته.

ولم يكن هذا السيد الكبير، رغم غناه الفاحش، بخيلاً. فهو في حياته لم يستطع أن يجعل الأب بيرار يتقبل أي شيء منه، حتى ولا دفع مصاريف المراسلات التي أوجدتها القضية. فخطرت على باله فكرة إرسال خمسماية فرنك إلى تلميذه المفضل.

وكلف المركيز نفسه عناء كتابة الرسالة. وهذا ما جعله يفكر بالأب بيرار.

وذات يوم تلقى هذا الأخير بطاقة صغيرة تستدعيه لمسألة عاجلة ودون تأخير، للمرور على فندق في ضواحي بزانسون، حيث وجد مندوب السيد ده لامول وقال له:

ـ كلفني السيد المركيز أن أحضر لك عربته. وهو يتمنى عليك الذهاب إلى باريس بعد أن تقرأ هذه الرسالة، وسأنتظرك أربعة أو خمسة أيام. سأعود إليك في الساعة التي تعينها لي، وفي انتظار موعدنا الآتي، سأقضي وقتي بالتجول في أراضي المركيز داخل فرانش كونتيه. وسنذهب بعد ذلك، في اليوم الذي يعجبك إلى باريس.

وكانت الرسالة قصيرة:

«تخلص يا سيدي العزيز من كل ازعاجات الريف، تعال

وتنشق الهواء الهادىء في باريس. أرسل لك عربتي، ومعها الأمر بالبقاء انتظاراً لقرارك خلال أربعة أيام. وسأنتظرك بنفسي في باريس حتى الثلاثاء. لا يلزمني الا كلمة نعم، تقولها أنت يا سيدي، حتى أقبل باسمك أحسن ابرشيات ضواحي باريس. أغنى واحد في أبرشيتك الجديدة لم يرك أبداً بعد، ولكنه مخلص إلى أقصى حد يمكنك الاعتقاد به: المركيز ده لامول».

كان الأب القاسي بيرار لا يشك بحبه لهذا الدير، الآهل بأعدائه، هو الذي كرّس له خمسة عشر عاماً من تفكيره. فظهرت رسالة المركيز له كظهور جراح مكلف القيام بعملية قاسية ولكنها ضرورية. كان تجريده محتمًا. فأعطى مندوب المركيز موعداً بعد ثلاثة أيام.

وأصيب، خلال الثمانية والأربعين ساعة الأولى، بحمى الشك، ثم كتب إلى المركيز ده لامول وكتب للمونسنيور الكاهن رسالة هي تحفة الانشاء الديني، ولكنها طويلة قليلاً. كان من الصعب عليه أن يجد جملاً يمكن أن يلام عليها، فهي مفعمة بالاحترام والاخلاص. ولكن هذه الرسالة التي من شأنها إحراج السيد ده فويلير أمام سيده، كانت تعدد شكاوى خطيرة، حتى أنها تصل إلى المنازعات الصغيرة الوسخة التي اضطرت الأب بيرار، بعد ست سنوات من الكفاح، إلى ترك المنطقة.

كانوا يسرقون خشب موقدته، وسمّموا كلبه... الخ..

عندما انتهى من كتابة الرسالة، ايقظ جوليان وكان نائمًا، كبقية الطلاب من الساعة الثامنة، وقال له بأسلوب لاتيني جميل:

ـ تعرف مكان الكاهن؟ أحمل هذه الرسالة إلى المونسنيور. لا أخفي عليك إنني أرسلك وسط الذئاب. فكن كلك آذاناً وكلك عيوناً. لا تكذب في إجاباتك، ولكن فكر بأن من يسألك قد يحس بفرح هائل إذا استطاع الاضرار بك. مرتاح لأنني أتيح لك هذه التجربة، يا بني، قبل أن أتركك. ولا أخفي عنك أن هذه الرسالة هي استقالتي.

بقي جوليان ساكناً. كان يحب الأب بيرار. وجهد ذهنه يحذره: قد ينقص حزب القلب الأقدس رتبتي، بعد ذهاب هذا الرجل الشريف، بل ربما يطردني.

ولكنه لم يستطع أن يفكر في ذاته. ما كان يشغله: عبارة كان يريد صياغتها بأدب، ولكنه فعلاً لا يستطيع أن يتذكر أيّ شيء.

ـ مالك، يا صديقي، أرى أنك لم ترحل!

وقال جوليان بحياء:

ـ يقال يا سيدي، إنك خلال إدارتك الطويلة للدير، لم

تقتصد أي شيء. ومعي ستمائة فرنك.

ثم منعته دموعه من الكلام.

فقال المدير السابق للمدير ببرود:

ـ هذا أيضاً سيسجل. هيا إلى المونسنيور، الوقت متأخر.

وارادت الصدف أن يكون الأب ده فريلير ذلك المساء في صالون الكاهن. أما المونسنيور فكان يتعشّى في المحافظة. وسلّم جوليان الرسالة إلى السيد ده فريلير نفسه، ولكنه لم يكن يعرفه.

رأى جوليان، بدهشة، هذا الأب يفتح الرسالة الموجهة إلى الكاهن بجرأة، وعبر وجه الأب الجميل عن دهشة ممزوجة بفرح كبير، ثم ران عليه التفكير. وبينما كان يقرأ، كان جوليان، إذ دهش لهيئته المنتعشة، يتفحصه. وكان هذا الوجه أشد وقاراً لولا هذه النعومة الفائقة ترفّ من بعض خطوطه، تدل على الزيف لو تخلى صاحب هذا الوجه عن العناية به. أنف متقدم جداً، مستقيم يعطي للوجه، من الناحية الجانبية، هيئة الثعلب. وعلى كل حال، كان هذا الأب المهتم باستقالة الأب بيرار، أنيقاً بشكل أعجب جوليان، الذي لم ير مثل هذه الأناقة في أي قسيس شاهده.

لم يعرف جوليان إلا لاحقاً أنّ هذه الأناقة هي موهبة الأب ده فريلير الخاصة. كان يعرف تسلية كاهنه، وهو عجوز لطيف، خلق ليعيش في باريس وكان يعتبر إقامته في بزانسون نفياً. نظره شحيح ويحب السمك. فكان الأب ده فريلير ينتزع حسك السمك الذي يقدم للمونسنيور.

كان جوليان يتطلع بصمت إلى الأب يعيد تلاوة الاستقالة، عندما فتح الباب فجأة وهو يصر صريراً، ثم دخل خادم، يلبس الرياش الفخمة، ومرّ سريعاً؛ ولم يبق لدى جوليان وقت للالتفات، إذ رأى عجوزاً صغيراً يحمل الصليب الكهنوتي. انحنى احتراماً فوجه العجوز إليه ابتسامة تدل على الطيبة ثم مرّ. وتبعه الأب الجميل، وبقي جوليان وحيداً في الصالة التي استطاع أن يدقق في روعتها الدينية.

كاهن بزانسون، رجل فكر مجرب، لم تطفئه سنوات البؤس، عمره أكثر من خمس وسبعين، لا يهتم كثيراً بما سيحدث له بعد عشر سنوات.

قال الكاهن:

ـ من هذا الطالب ذو النظرة الناعمة؟ أظن رأيته عند مروري! أليس عليه أن يكون نائمًا في هذه الساعة، كما اصدرتُ تعليماتي؟

ـ هذا مستيقظ أيها المونسنيور، وهو يحمل لك خبراً كبيراً: استقالة الجانسيني الوحيد الذي بقي في أبرشيتك. هو ذا الأب بيرار المرعب فهم أخيراً ما معنى الكلام.

فقال الكاهن ضاحكاً.

ـ أتحداك أن تجد مكانه رجلاً مثله. وحتى اثبت لك وزن هذا الرجل، سأدعوه غداً للغداء.

وأراد المبعوث الأكبر أن يلمح ببعض الكلمات حول اختيار خلف لمدير الدير، ولكنّ الكاهن الذي لم يكن مستعداً للحديث في الأعمال، قال له:

ـ قبل أن نقوم بإدخال هذا الرجل الآخر، فلنعرف قليلاً عن كيفية خروج الذي يذهب. أحضر لي هذا الطالب، فالحقيقة في أفواه الصغار.

استدعي جوليان فظن أنه سيكون وسط محققين. ولكنه لم يشعر بالشجاعة كما في هذه الساعة.

عند دخوله كان خادمان يلبسان أحسن من ملابس فالينو نفسه، وينزعان عن المونسنيور ثيابه. وظن هذا الكاهن أن عليه سؤال جوليان عن دروسه قبل أن يبحث معه قضية الأب بيرار. لنتحدث قليلاً عن التعاليم، فدهش. ثم سرعان ما انتقل إلى الدنيا فتحدث عن فرجيل وهوراس وشيشرون. وفكر جوليان:

هذه الاسماء كانت بسبب جعلي في المرتبة ١٩٨. فليس إذن ما أخسره. فلنحاول أن ننجح. ونجح. وسر الكاهن، وهو يحب الدنيا، إلى درجة الاعجاب.

عند الغداء في دار المحافظة، ألقت فتاة شابة شهيرة، قصيدة «المادلين». في غمرة حديثه عن الأدب، نسي الكاهن، الأب بيرار، وكل شؤونه ليناقش طالب الدير عن مسألة إذا كان هوراس غنياً أو فقيراً. وروى الكاهن عدة أناشيد لهوراس، ولكن ذاكرته كانت تخونه في بعض الأحيان، فكان جوليان يلقي القصيدة كلها، بلهجة متواضعة؛ واكثر ما أثار دهشة الكاهن أن جوليان لم يكن يخرج عن موضوع المحادثة أبداً: كان يلقي العشرين أو الثلاثين بيتاً باللاتينية كأنه يروي ما حدث في ديره. ودار الحديث عن فرجيل وشيشرون. أخيراً لم يستطع الكاهن أن يمتنع عن مدح الإكليريكي الشاب.

- ليس من الممكن أن يقوم الانسان بدراسة أوفى وأحسن.

فرد جوليان:

- أيها المونسنيور، طالبك هذا يستطيع أن يعطيك مئة وسبعة وتسعين تلميذاً يستحقون إعجابك العالي.

ورد الكاهن مندهشاً من هذا الرقم:

ـ وكيف ذلك؟

ـ أستطيع أن أسند بوثيقة رسمية ما لي الشرف في قوله أمام غبطتكم. ففي الامتحان السنوي في الدير حللت في المرتبة ١٩٨ لدى إجابتي التي أعجبت الآن غبطتكم.

فصرخ الكاهن ضاحكاً وهو يتطلع إلى الأب ده فريلير:

ـ آه! إنه ولد الأب بيرار المدلل. كان علينا أن ننتظر هذا. ولكنها كانت معركة حسنة. أضاف وهو يخاطب جوليان:

ـ أليس كـذلك يـا صديقي؟ من أجـل هذا إذن أيقـظوك ليرسلوك إلى هنا؟

ـ نعم سيدي، لم أخرج منفرداً من الدير إلا مرة واحدة، لأساعد الأب شا ـ برنار في تزيين الكاتدرائية، يوم عيد الرب.

وقال الكاهن:

ـ عـظيم! إذن أنت الذي بـرهن عن هذه الشجـاعة، في وضعك باقات الريش على الخيمة؟ أرتعب منها كل سنة: أخشى أن تكلفني حياة رجل. يا صديقي، ستذهب بعيداً، ولا أريد أن أوقف سير مستقبلك الذي سيكون براقاً، ولن أجعلك تموت من الجوع.

وأحضر، بناء على أمر المونسنيور، بعض البسكوت وبعض

خمر ملقة، وشارك جوليان الكاهن في طعامه، وفاق في ذلك الأب ده فريلير الذي كان يعرف أن كاهنه يحب أن يرى ضيوفه يأكلون بمرح وبشهية.

وتحدث الكاهن عن التاريخ الكنسي، وهو يشعر بسرور متزايد لانتهاء سهرته على هذا الشكل، فرأى جوليان لا يفهم شيئاً من هذا. فانتقل إلى الحديث عن الحالة الاخلاقية في الامبراطورية الرومانية، تحت حكم أباطرة عصر قسطنطين، وعن نهاية عبادة الأوثان رافقتها تلك الحالة من الاضطراب والشك التي تؤسف الاذهان الحزينة الضجرة. ولاحظ المونسنيور أن جوليان يجهل تقريباً كل شيء حتى اسم «تاسيت».

ورد جوليان بخفر على دهشة الكاهن، بأن هذا الكاتب غير موجود في مكتبة الدير.

قال الكاهن بمرح:

- إنني فعلاً مرتاح. خلصتني من الحيرة. كنت أفتش منذ عشر دقائق عن الوسيلة التي أشكرك بها على السهرة الممتعة التي اتحتها لي، طبيعياً، بشكل غير متوقع. لم أكن أتوقع أن أجد حامل دكتوراه بين طلاب ديري. أريد أن أعطيك مؤلفات تاسيت رغم أن الهبة ليست دينية تماماً.

وأرسل الكاهن في طلب المجلدات الثمانية فأحضرت، ثم

أراد أن يكتب على المجلد الأول مديحاً باللاتينية لجوليان سوريل. وفتش الكاهن عن بعض التعابير اللاتينية، ثم انتهى به الأمر إلى أن يقول، بلهجة رزينة، متناقضة تماماً مع بقية الحديث:

ـ أيها الشاب، إذا كنت عاقلاً، سيكون لك أحسن مركز في أبرشيتي، لا يبعد مئة فرسخ عن مقرّي. ولكن يجب أن تكون عاقلاً.

خرج جوليان جد مندهش عند منتصف الليل وهو يحمل هذه المجلدات.

لم يقل له المونسنيور أيّة كلمة عن الأب بيرار. وكان جوليان مندهشاً على الأخص من تهذيب الكاهن الفائق. فلم يكن يعتقد أنه قد يرى هذا الوجه الجميل بطابعه الوقور الطبيعي. ولفت نظره التضاد الذي أحس به عندما رأى وجه الأب بيرار القاتم.

وصرخ به عندما رآه من بعيد بصوت قوي:

ـ ماذا قالوا لك؟

وانشغل جوليان في ترجمة حديث الكاهن إلى اللاتينية، ولكن مدير الدير السابق قال بلهجته القاسية وتعابيره غير الانيقة:

ـ تكلم بالافرنسية وأعد كلمات المونسنيور ذاتها دون زيادة أو نقصان.

ثم قال وهو يتصفح مجلدات تاسيت الرائعة، وأطرافها المذهبة تثير رعبه كما يظهر:

ـ أية هدية غريبة لإكليريكيّ شاب؟

ودقت الساعة الثانية عندما سمح الأب بيرار أخيراً لتلميذه المفضل بالعودة إلى غرفته بعد تقرير طويل مفصل، وهو يقول له:

ـ أترك لي من «تاسيت» المجلد الأول الذي يحمل أهداء المونسنيور الكاهن. سيكون هذا السطر اللاتيني حاميك، في هذا الدير، بعد ذهابي، ثم أضاف باللاتينية: لأن خلفي سيكون يا بني، أسداً هصوراً لا يفتش الا عن فريسته.

صباح اليوم التالي، أحس جوليان في معاملة زملائه له شيئاً غريباً. فازداد حذره منهم. قال في نفسه:

ـ هذه أولى نتائج استقالة الأب بيرار. أصبح معروفاً في الدير أنني تلميذه المفضل. ليس في هذه التصرفات أية إهانة، أو هذا ما كان يراه. بل لم يكن في عيونهم التي يصادفها في الأقبية، أيّ حقد: ماذا يعني هذا؟ إنه فخ دون ريب، فلنستمّر في اللعب بحذر. وأخيراً قال له الطالب الفريبري الشاب ضاحكاً:

ـ «مجموعة كاملة لمؤلفات تاسيت».

وعندما لفظت هذه الكلمة وسمعها الباقون، أعربوا لجوليان عن تهنئتهم لـه، ليس فقط بالهـدية الـرائعة التي تلقـاها من المونسنيور، بل على شرف التحدث إلى غبطته ساعتين كاملتين. كانوا يعـرفون أدق التفـاصيل. وعنـد هذه اللحـظة لم يشعر بحسدهم له. كان الجميع يمتدحونه. وحتى الأب كستناد، الذي كان في العشية أكثر الجميع فظاظة، أتى وأخذه من يده ودعاه للغداء.

وأحس جوليان أن صغارة زملائه لا تقرحه، بل على العكس تثير قرفه أكثر من فظاظتهم.

حوالي الظهر، ترك الأب بيـرار الديـر بعد أن ألقى عـلى تلاميذه موعظة قاسية:

ـ «تريدون شرف الدنيا، وكل المحـاسن الاجتماعيـة، لذة التحكم والسخرية من القوانين، وأن تكونوا فظين نحو الجميع؟ أو أنكم تريدون خلاصكم الأبدي؟ ليس على المتأخرين منكم إلا أن يفتحوا عيونهم ليميزوا بين الطريقين».

ولم يكد الأب بيرار يخرج من الدير حتى ذهب متدينو قلب يسوع الأقدس وقرعوا الجرس. فلم يحمل أحد في الدير على محمل الجد موعظة المدير السابق. كانوا يقولون، إنه متضايق من

تجريده. ولم يكن لدى أي طالب في الدير من البساطة ما يجعله يصدق أن الاستقالة بإرادته والمركز يتيح قيام اتصالات واسعة مع متمولين كبار.

ذهب الأب بيرار واستقر في أحسن فنادق بزانسون، وتذرّع بأعماله الوهمية، واراد قضاء يومين هناك.

دعاه الكاهن للغداء، وحاول أن يجعله رائعاً أمام المبعوث الأكبر ده فريلير. ووصل نبأ تعيين الأب بيرار في أبرشية ن... الرائعة، على أربعة فراسخ من العاصمة، وهم يكادون ينتهون من الغداء، فهنأه الكاهن الطيب بحرارة. رأى في كل هذه العملية لعبة موفقة جعلته منشرح الصدر، وأعطته فكرة جلّية عن مواهب الأب. فأعطاه شهادة رائعة باللاتينية، وفرض على الأب ده فريلير السكوت عندما أراد إبداء بعض الاعتراضات.

وفي المساء، حمل المونسينور إعجابه بالنبأ إلى المركيزة ده روبامبريه وكان النبأ هائلاً بالنسبة للمجتمع الراقي في بزانسون، فكان الكثير يتيهون في تحليل أسباب هذه النعمة الكبرى. كانوا يرون الأب بيرار كاهناً. وظن أكثرهم ذكاءً أن المركيز ده لامول سيصل إلى الوزارة وعندئذ سيسمحون لأنفسهم بالضحك من هيئة السيطرة التي يبديها الأب ده فريلير للناس.

صباح اليوم التالي، كان الجميع يتبعون الأب بيرار في الشوارع، والتجار يخرجون إلى أبواب مخازنهم عندما ذهب لاستشارة محامي المركيز. وقوبل، لأول مرة، بتهذيب. وقام الجانسيني القاسي، وهو مشمئز من هذه التصرفات، بعمل طويل مع المحامين الذين اختارهم لقضايا المركيز ده لامول، ثم رحل إلى باريس. وقد صرح لاثنين أو ثلاثة من أصدقائه بأنه يترك بزانسون، بعد أن كان مدير الدير خمسة عشر عاماً، وليس يملك إلا خمسماية وعشرين فرنكاً اقتصدها في هذه المدة. قبله هؤلاء الاصدقاء وهم يبكون، ثم قالوا في أنفسهم بعد ذلك:

ـ كان الأب الطيب يستطيع أن يوفر على نفسه هذه الكذبة. لا يزال مضحكاً.

لا يستطيع الشخص العادي عندما يعميه حب المال، أن يفهم كون الأب بيرار استطاع أن يجد في إخلاصه، القدرة التي مكّنته من النضال وحيداً، طيلة عشر سنوات، ضد ماري ألاكوك، وقلب يسوع الأقدس واليسوعيين وكاهنه.

٣٠
طَموح

لم يعد الا نبل واحد: لقب الدوق. المركيز مضحك، فالناس يلتفتون فقط عند سماعهم كلمة دوق.

مجلة أدنبره

المركيز ده لامول استقبل الأب بيرار، بعيداً عن التصرفات البسيطة التي تدل على أنه سيد كبير، فهي رغم تهذيبها، تدل على الكبرياء وتهين من يفهمها. وعلى كل حال كادت تكون وقتاً ضائعاً. فالمركيز كان منهمكاً تماماً في الأعمال ولم يكن يملك أي وقت يضيعه.

كان منذ ستة أشهر، يحاول أن يقنع الملك والأمة بقبول وزارة تجعل منه دوقاً، بعامل عرفان الجميل.

وكان المركيز يطلب منذ سنوات من محاميه في بزانسون عملاً واضحاً دقيقاً حول قضاياه في فرانش كونتيه. ولكن عبثاً، فكيف كان باستطاعة المحامي المشهور أن يشرحها له، إذا كان هو نفسه لا يفهمها؟

كان المربع الورقي الذي أعطاه له الأب بيرار يفسر كل شيء.

فقال المركيز:

ـ بعد أن استنفذنا في أقل من خمس دقائق كل تعابير المجاملات والاستفهامات حول الاشياء الشخصية، أود أن أقول لك يا أبت العزيز، إنني في وسط إزدهاري المزعوم لا أملك وقتاً لأهتم بشيئين صغيرين مهمين هما: عائلتي وأعمالي. اعتني بشكل عام بثروة بيتي. وأنا أستطيع زيادتها كثيراً. اعتني بملذاتي، الأمر الذي يجب أن يكون له المقام الأول. وأضاف وهو يرى الدهشة أطلت من عيون الأب بيرار: على الأقل في نظري. ورغم أن الأب بيرار رجل عاقل، دهش لرؤية عجوز يتحدث بهذه الصراحة عن ملذاته.

وأضاف السيد الكبير:

ـ العمل موجود في باريس ولا ريب، ولكنه معلق في الطابق الخامس. وعندما أقرب أي رجل، يأخذ الطابق الثاني، وامرأته بحاجة إليه طيلة اليوم، وبالنتيجة، لا يعود بالامكان القيام بأي شيء، أو بأي مجهود إلا للظهور في المجتمع. إنها قضيتهم الوحيدة بعد أن ينالوا خبزهم.

أما بخصوص الدعاوى، استطيع القول أن عندي محامين يقتلون أنفسهم في سبيلي. مات أول أمس واحد منهم من صدره. ولكن بخصوص أعمالي على وجه العموم، تخليت منذ

ثلاث سنوات عن التفكير في الاستعانة بأي رجل، فكلهم وهم يكتبون لا يفكرون في ما هم يفعلون. على كل حال ليست هذه إلا مقدمة.

إنني أحترمك، بل وأجرؤ وأضيف: رغم أنني أراك للمرة الأولى، أحبك. فهل تريد أن تكون أمين سري براتب ثمانية آلاف فرنك أو ضعفها؟ أربح من ذلك، أقسم لك، وأقوم بعملي لأحفظ لك مكانك في الأبرشية إلى اليوم الذي لا نعود نتفق فيه.

رفض الأب؛ ولكن الاضطراب الذي وجد فيه المركيز، أورد على ذهنه، في آخر الحديث، فكرة، فقال:

- تركت في الدير شاباً مسكيناً سيضطهد، إذا لم أكن مخطئاً. ولو لم يكن إلا رجل دين بسيط، لكان الآن في سلام. وهو حتى الآن لا يعرف إلا اللاتينية والكتابة المقدسة؛ ولكن ليس من المستحيل أن يظهر في المستقبل مواهب كبيرة في أعمال الدنيا أو هداية النفوس. أجهل ما سيفعل؛ ولكنه يملك الشعلة المقدسة، ويستطيع أن يحلق بعيداً. كنت أعتزم إعطاءه إلى كاهننا، عندما نعطي واحداً ينظر نظرتك للأمور والرجال.

قال المركيز:

- من أين يأتي فتاك هذا؟

ـ يقال أنه ابن نجار في جبال فريـير، ولكنني اعتقد أنه طفل طبيعي لرجل غني، رأيته يتسلم رسالة مغفلة أو موقعة باسم مستعار فيها حوالة بقيمة خمسمائة فرنك.

ـ آه، إنه جوليان سوريل.

فقال الأب مدهوشاً:

ـ من أين عرفت اسمه؟

ولما رأى المركيز الأب خجلاً من سؤاله رد قائلاً:

ـ هذا ما لن أقوله لك.

وتابع الأب قائلاً:

ـ تستطيع أن تجربه كأمين سر لك؛ عنده الطاقـة، والعقل، وبكلمة جرّبه.

قال المركيز:

ـ ولِم لا؟ ولكن هل يمكن أن يكون رجلاً من هؤلاء الذين يتعاونون مع مدير البوليس أو غيره ليكونوا جواسيس عندي؟ هذا ما اخشاه كثيراً.

بعد تأكيدات الأب الحسنة، أخذ المركيز ورقة من فئة الألف فرنك:

ـ أرسل هذه النقود إلى جوليان سوريل، واطلبه إلى هنا.

قال الأب بيرار:

ـ واضحٌ انك تقطن باريس. ولـذلك لا تعـرف الاستبداد الذي يسلط علينا، نحن القرويين، وعلى الأخص، القساوسة الذين لا يصادقون اليسوعيين. قد لا يتركون جوليان سوريل يرحل، قد يتذرّعون بأمهر الوسـائل، ويقـولون في ردهم أن جوليان سوريل مريض أو أن الرسالة ضاعت في البريد الخ...

ورد المركيز:

ـ سآخذ رسالة، في هذين اليومين، من الوزير للكاهن.

وقال الأب:

ـ نسيت أمراً آخر: هذا الشاب، رغم محتده المتواضع، يحمل نفساً كريمة. ولن يفيدنا بأي شيء أن اغضبنا كبرياءه. ستجعله أحمق.

وأجاب المركيز قائلاً:

ـ هذا يعجبني، سأجعل منه زميلاً لابني. يكفي هذا؟

وبعد قليل من الوقت تسلم جوليان رسالة بخط لا يعرفه ومرسلة من شالون، ووجد فيها حوالة على أحد تجار بزانسون

واشارة بضرورة حضوره إلى باريس دون تأخير. وكانت الرسالة موقعة بامضاء مستعار، ولكن جوليان ارتجف عندما فتحها وسقطت منها ورقة شجرة عند قدميه. كانت هذه هي العلامة التي اتفق والأب بيرار عليها.

بعد أقل من ساعة، استدعي جوليان إلى مقر الكاهن حيث استقبل استقبالاً مليئاً بالحنان الأبوي. وبينما كان يروي أشعار هوراس، كان الكاهن يهنئه على المركز الذي ينتظره في باريس، ولكن التهنئة كانت تنتظر جواباً تفسيرياً. ولم يستطع جوليان أن يقول شيئاً؛ أولاً لأنه لم يكن يعرف شيئاً، وثانياً لأن الكاهن أعجب به كثيراً. وأرسل أحد القساوسة الصغار رسالة إلى العمدة الذي سارع واحضر بنفسه جواز سفر موقعاً، تركت خانات الأسم والعمر... خالية دون تعبئة.

في المساء، قبيل منتصف الليل، كان جوليان عند فوكيه، الذي دهش عقله الرزين، أكثر مما أعجب، للمستقبل الذي ينتظر صديقه كما يظهر. وقال هذا الغاضب المتحرر:

- سينتهي الأمر بك إلى أن تحرز مركزاً في الحكومة، يدفعك إلى تصرفات ستتلقفها الصحف وتنشرها. وعندئذ سأعرف أخبارك من عارك. تذكر إنه حتى من الناحية المادية، الأفضل أن تربح مئة ليرة في تجارة خشب زاهرة، تكون فيها أنت السيد،

من أن تربح أربعة آلاف فرنك من أية حكومة، حتى ولو كانت حكومة الملك سليمان!

ولم يرَ جوليان في هذا إلا ضيق نظر البورجوازيين في الريف. ها هو يوشك أن يظهر على مسرح القضايا الكبرى. كانت سعادته عارمة بالذهاب إلى باريس، وكان يتخيلها مليئة بالأذكياء الملاعين، الأنانيين ولكن المهذّبين ككاهن بزانسون وكاهن أغد. فتمثّل إلى صديقه وكأنه فقد أدراكه بعد رسالة الأب بيرار.

ظهر اليوم التالي وصل جوليان إلى فريير كأسعد ما يكون الرجال. كان يعتزم رؤية السيدة ده رينال. فذهب أول الأمر إلى حاميه الأول، الخوري الطيب شيلان، حيث استقبل استقبالاً قاسياً.

وقال له الخوري دون أن يرد على تحيته:

ـ هل تظنّ أنك مدينٌ لي بشيء؟ ستتناول الإفطار معي، وفي هذا الوقت سيذهب أحدهم ليستأجر لك حصاناً آخر، ثم تترك فريير دون أن ترى أحداً.

وردّ جوليان متخذاً هيئة إكليريكي:

ـ أن استمع معناه أن أطيع. ولم يجر الحديث بعد ذلك إلا عن اللاهوت والكنيسة.

امتطى الحصان، وسار فرسخاً ثم رأى غابة، فدخل إليها بعدما تأكد من أن أحداً لم يكن يراه، وتوغل فيها. وعند مغيب الشمس، أرسل الحصان. ثم دخل بيت فلاح وافق أن يبيعه سلما خشبياً وأن يحمله له حتى الغابة الصغيرة التي تطل على «ممر الأمانة» في فريير.

قال الفلاح وهو يتركه:

ـ إنني رجل مسكين أو مهرب. ولكن سيان! دفع لي مبلغاً جيداً السلمّ؛ وعلى كل حال، سَبَق لي أن قمتُ بحركات مماثلة في حياتي.

كان الليل حالك السواد. ونحو الواحدة صباحاً، دخل جوليان فريير، حاملاً سلمّه؛ ونزل أقرب ما يستطيع من مجرى النهر الذي يجتاز حدائق السيدة ده رينال الرائعة. كان عمقُ الجلّ ستة أقدام، فصعد جوليان في سهولة بواسطة السلمّ. وفكر: أي استقبال ستقابلني به كلاب الحراسة؟ كل المسألة هنا. ونبحت الكلاب، وتقدمت مهرولة، ولكنه صفّر بهدوء، فأتت إليه وداعبته.

وصل تحت غرفة نوم السيدة ده رينال متخطياً كل الحواجز، رغم أن أبواب سطوح الجنائن كانت مقفلة. غرفة السيدة ده رينال كانت تعلو، من جهة الحديقة، ما يقارب ثمانية أو عشرة

أقدام عن الأرض.

كانت قبضتا درفتي النافذة على شكل قلب، وكان جوليان يعرفهما جيداً. وحزن كثيراً عندما لم يرَ وجوداً لأي بصيص من النور وراء النافذة.

وقال في نفسه:

ـ يا إلهي، السيدة ده رينال لا تنام الليلة في هذه الغرفة! فأين باتت؟ العائلة هنا في فريير لأنني رأيت الكلاب، ولكنني قد يكون في هذه الغرفة المظلمة، السيد ده رينال نفسه، أو أي واحد غريب، وعندئذ أية فضيحة!

كان أعقل الحلول أن ينسحب. ولكن هذا الحل أرعبه. إذا كان في الغرفة غريب فسأهرب بأقصى سرعة ممكنة، تاركاً سلمّي. ولكن إذا كانت هي، فأي استقبال ينتظرني! وقعتْ في الندم واقصى آيات الخشوع، لا أشك في هذا، ولكنها حتماً تحتفظ ببعض الذكريات عني، لأنها كتبت إلي. جعله هذا السبب يقرر البقاء.

بقلب واجف، ولكن بتصميم لا يتزعزع رمى النافذة بحصى صغيرة. لم يتلق أي جواب أسند سلمه على الحائط، عند النافذة، ونقر بيده عليها، بلطف أول الأمر، ثم بقوة. وفكّر جوليان: قد يصوّب النارَ عليّ رغم الظلام الحالك. وجعلت

هذه الفكرة من العملية المجنونة مسألة شجاعة وبأس.

وفكّر: لا أحد في الغرفة الليلة، وإلاّ لاستيقظ. لم يعد أي شيء للتسوية معها. يجب فقط أن أحاول عدم إسماع الاشخاص الذين ينامون في بقية الغرف.

ونزل، وضع سلمه على النافذة مباشرة، وصعد، ثم أدخل يده من الفتحة، واسعفه الحظ فوجد بسرعة خيط الحديد المعلق بقبضة النافذة. سحبه، وأحس بسرور هائل أن النافذة لم تعد تستند إلى شيء وانها فتحت بجهده. يجب أن أفتحها رويداً رويداً، وأن أعطي صوتي. فتح النافذة وأدخل رأسه وهو يردد بصوت منخفض:

- إنني صديق.

وتأكد، وهو شديد الإصغاء، إن لا شيء يعكر السكون العميق يسود الغرفة؛ ولكن لم يكن أيّ ضوء، حتى في المدفأة: وهذه علامة سيئة.

كان يحذر من طلقة نارية! وفكرّ قليلاً. ثم تجرّأ ونقر زجاج النافذة بإصبعه، ولكن ليس من جواب. فقرع بقوة. يجب أ أكسر النافذة، إذا لا بدّ من الانتهاء. وإذ كان يقرع بقوة كبيرة. خيّل إليه أنه يرى، وسط الظلام الكثيف، خيالاً يقترب ببطء. فجأة رأى خداً يستند إلى الزجاج الذي يسند إليه عينه.

ارتجف وابتعد قليلاً. ولكن الليل كان حالك السواد حتى لم يستطع أن يعرف إذا كان هذا الشبح هو السيدة ده رينال نفسها. كان يخاف صيحة الاستنجاد، ويسمع الكلاب تحوم وتزمجر بهدوء حول قدم السلمّ. وردد قائلاً بصوت مرتفع:

ـ هذا أنا، صديق.

لم يأته جواب. واختفى الشبح الأبيض. افتحي لي، يجب أن أكلمك، إنني تعيس! وقرع بطريقة من يريد كسر الزجاج.

وسُمع صوت ناشف صغير: كسر الزجاج. ففتح النافذة وقفز بخفة داخلَ الغرفة.

ابتعد الطيف الأبيض؛ فأمسك بذراعه؛ ها هي امرأة.

تبخّرت كل شجاعته. لو كانت هي، ماذا تقول؟ ماذا صار عندما صدرت صيحة صغيرة فهم منها أنها هي السيدة ده رينال؟

ضمها بين ذراعيه. كانت ترتج ولا تكاد تملك القوة على إبعاده!

ـ أيها التعيس، ماذا تفعل؟

لم يكد لسانها على التلفظ بهذه الكلمات حتى أحس جوليان فيها كل الاستنكار.

ـ اتيت لرؤيتك بعد فراق قاسٍ أربعة عشر شهراً.

ـ أخرج. أتركني فوراً. آه! أيها الأب شيلان! لماذا منعتني من الكتابة إليه؟ توقعت هذا الرعب. أبعدته بقوة غريبة حقاً. إنني نادمة على جريمتي، تكرّمت السماء وأنارتني. ثم رددت بصوت متهدج:

ـ أخرج! أخرج!

ـ بعد أربعة عشر شهراً من التعاسة، لن أتركك دون أن أكلمك. أريد أن أعرف ماذا فعلت. آه! احببتك كفاية لأستحقق كل هذا... أريد أن أعرف كل شيء.

كان لهذه اللهجة القوية سلطة على قلب السيدة ده رينال، رغم إرادتها.

كان يضمّها بوله، ويقاوم جهودها للتخلص، فكفّ عن شدّها بين ذراعيه هذه الحركة طمأنت قليلاً السيدة ده رينال.

قال جوليان:

ـ سأسحب السلمّ حتى لا يضايقنا إذا رآه أحد الخدم وهو يقوم بجولة بعد أن أيقظته الضجة.

وسمع جوليان صوتاً يقول بغضب:

ـ آه على العكس! أخرج، اخرج. ما يهمني من البشر؟ الله

هو الذي يرى المشهد البشع تسببه لي، وهو الذي سيعاقبني. تستغل بجبن العواطف التي أكنها لك، ولكنني لم أعد أملك منها شيئاً. هل تسمع أيها السيد جوليان؟

وسحب جوليان السلمّ ببطء شديد حتى لا يثير أية ضجة، ثم قال لها، لا ليشجعها، بل بفعل العادة:

ـ زوجك في المدينة؟

ـ لا تتكلم هكذا، أرجوك، وإلا ناديت زوجي. لم ارتكب بعد ذنب طردك، مهما حدث. أشفق عليك.

قالت له هذا لتجرح كبرياءه وهي تعرف أنه حساس.

هذا الرفض بتلك الطريقة الخشنة في قطع صلة ناعمة كان جوليان لا يزال يعتمد عليها حتى الآن، كان سبباً في زيادة إحساسه بالهوى، فقال لها بلهجة من تلك التي لا يمكن أن يستمع الانسان إليها ببرودة:

ـ ماذا! هل لم تحبيني مطلقاً؟

ولم تجب، أما هو فكان يبكي بمرارة. وكان فقد القدرة على النطق.

ـ هكذا إذن، نسيني تماماً، المخلوق الذي كان يحبني! ما نفع

الحياة بعد الآن؟ تخلت عنه شجاعته بعدما زال خطر مصادفة أحد الرجال. اختفى كل شيء من نفسه عدا الحب.

وبكى طويلاً بصمت. ثم أخذ يدها، فارادت سحبها، ثمّ أبقتها بعد حركات تشنجية. كانت الظلمة شديدة، وهما جالسان على سرير السيدة ده رينال.

وفكر جوليان: أي فرق بين هذا الآن، وما كان منذ أربعة عشر شهراً! ازدادت دموعه. هكذا إذن، البُعد يهدم حتمًا كل عواطف الانسان! وأخيراً، أزعجه سكوته، فقال بصوت متهدج تقطعه الدموع:

ـ تفضلي وقولي لي ما حدث لك.

وأجابت السيدة ده رينال بصوت قاسٍ، في رنته بعض النشافة واللوم:

ـ عُرف ضلالي في المدينة بأسرها، عند رحيلك. كانت تصرفاتك حمقاء! وبعد وقت قصير، أتى المحترم شيلان لرؤيتي، وكنت في أشدّ حالات اليأس؛ حاول عبثاً أن يأخذ مني اعترافاً، ففكر في أخذي إلى تلك الكنيسة في ديجون، حيث قمت بأول مناولة لي. وهناك تجرأ وبدأ بالحديث.

سكتت السيدة ده رينال وهي تبكي ثم أضافت:

ـ واخجلي! اعترفت بكل شيء! لم يشأ هذا الرجل الطيب أن يثقل علي ويزيد آلامي، فلام نفسه أيضاً. صرت أكتب كل يوم رسالات لك لم أجرؤ على إرسالها؛ فخبأتها بعناية، وكنتُ عندما أشعر بالتعاسة، أغلق باب غرفتي وأعيد تلاوتها.

وأخيراً، طلب السيد شيلان أن أعطيه الرسائل، وكنت أرسلت بعضها إليك في الدير، ولكنك لم تردّ علي أبداً.

ـ أبداً، أقسم لك. لم أتلق أية رسالة منك في الدير.

ـ يا إلهي، ومن تلقاها؟

ـ قدّري ألمي؛ قبل أن أراك في الكاتدرائية لم أكن أعرف أن كنت لا تزالين حية.

ـ منحني الله عفوه. فجعلني أرى الخطيئة التي أرتكبتها بحقه وحق أولادي وحق زوجي. لم يحبني مطلقاً كما كنت أعتقد عندما كنت تحبني.

وألقى جوليان بنفسه بين ذراعيها، دون أي هدف فعلاً، وهو خارج عن طوره. ولكن السيدة ده رينال صدّته وتابعت بصوت حازم.

ـ أفهمني المحترم شيلان، أنني عندما تزوجت السيد ده رينال، ارتبطت به في كل عواطفي، حتى التي لم أكن أعرفها

بعد قبل هذا الارتباط الحتمي... وبعد هذه التضحية بالرسائل التي كانت عزيزة علي، سارت حياتي بهدوء بل بسعادة. فلا تعكرها. كن صديقاً لي... أحسن صديق.

وأغرق جوليان يديها بالقبلات، فأحست أنه لا يزال يبكي.

ـ لا تبكِ، تؤلمني كثيراً... قل لي أنت ما فعلت؟

لكن جوليان لم يستطع الكلام.

ـ أريد أن أعرف نوع حياتك في الدير. ثم رددت:

ـ بعد ذلك تذهب.

دون تفكير، حكى جوليان عن المؤامرات والحسد التي تعرض لها ثم عن حياته بعد أن أصبح مُعيداً وكيف أصبحت أكثر هدوءاً.

وأضاف أخيراً:

ـ هذا يعني بعد صمت طويل كان يهدف إلى إفهامي ما أراه اليوم، إنك لم تعودي تحبيني، وإنني أصبحت غير مهم في نظرك. شدّت السيدة ده رينال يديها. عندئذٍ، أرسلتِ لي خمسماية فرنك.

وقالت السيدة ده رينال:

ـ أبداً. لم أرسل لك أي شيء.

ـ كانت رسالة عليها طابع باريس، وموقعة بإمضاء بول سوريل لإبعاد أية شبهة.

وقامت مناقشة صغيرة حول المصدر الممكن لهذه الرسالة. وتغير الوضع المعنوي. تركت السيدة ده رينال وجوليان اللهجة الرسمية، دون أن يشعرا بذلك، وعادا إلى لهجة الصداقة الحنون. لم يكن واحدهما يرى الآخر، ولكنّ رنّة الصوت كانت تقول كل شيء في هذا الظلام الحالك. وطوق جوليان بذراعه خصر صديقته، وكان لهذه الحركة مخاطرها، فحاولت السيدة ده رينال إبعاد ذراع جوليان الذي لفت نظرها في هذه اللحظة، بمهارة فائقة، إلى حادثة مثيرة في قصته. أصبحت هذه اليد كالمنسية فتركت في المكان الذي احتلته.

بعد مناقشة طويلة حول مصدر الرسالة والخمسمائة فرنك، تابع جوليان على قصته، وأصبح سيّد نفسه أكثر فأكثر وهو يتكلم على حياته الماضية التي كانت، إزاء ما يحدث الآن، قليلة الأهمية بالنسبة له. كان انتباهه تركّز بكامله على الطريقة التي ستنتهي بها زيارته، وكانت تقول له من وقت لآخر، وبطريقة مختصرة: ستخرج، يجب أن تخرج.

أي عار لي إذا تراجعت! سأندم طول حياتي على هذا، ولن

تكتب إلي مطلقاً. والله يعلم متى أعود إلى هذه البلاد! وعند هذا اختفى كل ما في هوى جوليان من نشوة. كان جالساً حدّ امرأة يعبدها، يضمها تقريباً بين ذراعيه، في هذه الغرفة التي كان فيها سعيداً، وسط ظلام دامس، وهو يحس أنها تبكي، ويدرك، من تشنجات صدرها، أنها تشهق بدموعها، فأحس بالبرودة التعيسة، كالتي عندما كان يتخاصم في ملعب الدير مع طالب أقوى منه. وأطال جوليان قصته، وتكلم على الحياة التعيسة التي عاناها منذ ترك فريير. قالت مدام ده رينال في نفسها:

ـ هكذا إذن، خلال هذه السنة من البعد، كان محروماً من الذكريات، ومع ذلك كان لا يهتم إلا بالأيام السعيدة التي قضاها في فرجي، بينما كنت أنا أحاول نسيانه. وازداد بكاؤها. ورأى جوليان النجاح الذي صادفته قصته؛ وفهم أن عليه تجربة السهم الأخير فتحدّث فجأة عن الرسالة التي تلقاها من باريس.

ـ استأذنت الكاهن في إجازة طويلة.

ـ ماذا! لن تعود إلى بزانسون! تتركنا إلى الأبد؟

ورد جوليان بلهجة حازمة:

ـ أجل، أجل. أترك البلاد التي نسيني فيها المخلوق الوحيد الذي أحببته أكثر من كل شيء في حياتي. أتركه حتى لا أراه

ثانية. إنني ذاهب إلى باريس...

وصرخت السيدة ده رينال بصوت عال:

- إلى باريس!

واختنق صوتها بالدموع، وظهر اضطرابها الكبير. وكان جوليان بحاجة إلى هذا التشجيع؛ سيحاول أن يقوم بعمل قد يكون حاسمًا إذ لم يكن يفكر فيه قبل هذا الاضطراب الذي بدا عليها. كان يجهل تماماً الأثر الذي سيسببه. ولم يتردد. فخوفه من الندم كان يعطيه سيطرة تامة على نفسه. أضاف بلهجة باردة وهو ينهض:

- أجل سيدتي، أتركك إلى الأبد، فكوني سعيدة. الوداع.

سار بعض الخطوات نحو النافذة، وفتحها. عندها انطلقت السيدة ده رينال نحوه وارتمت بين ذراعيه.

وهكذا، بعد ثلاث ساعات قطف ما كان يتمناه بشوق. ولو قطف ذلك قبل وقت لكان سعادة إلهية، أما بعد أن استخدم كل فنه ومهارته فلم يحس إلا باللذة وحدها. وأراد، رغم معارضة صديقته أن يشعل النور، فقال لها:

- هل تريدين اذن أن لا يتبقى لي أي ذكرى أنني رأيتك؟ الحب الذي يلمع في عينيك سيختفي إذن إلى الأبد؟ وبياض

هذه اليد الرائعة سيكون غير منظور؟ فكري أنني قد أتركك لوقت طويل!

لم يكن لدى السيدة ده رينال من سبب يدفعها لرفض هذا الطلب الذي جعلها تشرق بدمعها. ولكن الفجر بدأ يرتسم خلف قمم الصنوبر إلى شرق جبال فريير. وبدلاً من أن يذهب، طلب من السيدة ده رينال، وهو سكران من النشوة، أن يقضي كل النهار مختبئاً في غرفتها، وأن لا يرحل إلا في الليلة التالية.

وأجابت ؛

ـ ولَم لا؟ هذه السقطة انتزعت من نفسي كل احترام لنفسي، وستجعلني تعيسة طوال حياتي، وستضغط دائمًا قلبي. زوجي تغير، فلديه بعض الشكوك، وهو يعتقد أنني سببت له كل هذه القضية، ويُظهر تضايقه مني. فإذا سمع أقل ضجة، سأخسر كل شيء، وسيطردني كالشقية التي اصبحتها.

قال جوليان:

ـ آه! هذه من جمل الأب شيلان، لم تكوني تتكلمين هكذا، قبل ذهابي القاسي إلى الدير، كنت تحبيني عندئذ!

ونال جوليان مكافأته على الهدوء الذي لفظ بها هذه الجملة. فرأى صديقته نسيت بسرعة خطر وجود زوجها الذي كان ينغّص

عليها سعادتها، لكي لا تحس إلا بخطر أكبر: أن ترى جوليان يشك في حبها.

وطلع النهار بسرعة، وأضاء الغرفة تماماً، وأحسّ جوليان عندئذ بكل لذّة الكبرياء، وهو يرى هذه المرأة الساحرة بين يديه، بل عند قدميه، هذه المرأة الوحيدة التي أحبّها والتي كانت، لساعات خلت، في أفظع رعب من الله المخيف؛ فالقرارات القوية التي تسلحت بها طوال سنة من الفراق انهارت أمام شجاعته.

فجأة، سُمع الضجيج في البيت، مما أتى ليعكر السيدة ده رينال، التي لم تفكر مطلقاً فيه. فقالت لصديقها:

ستدخل هذه الملعونة إليزا إلى الغرفة، ما العمل بهذا السلّم الضخم، أين يمكن اخفاؤه سأحمله إلى المخزن. ورددت بفرح:

- سأحمله إلى المخزن.

وقال جوليان بدهشة:

- ولكنك ستمرّين في غرفة الخادم.

- سأترك السلّم في الممر، وسأنادي الخادم وأكلفه بحمله.

- فكّري في كلمة تقولينها إذا مر الخادم في الممر ورأى السلّم.

وقالت السيدة ده رينال وهي تقبّله:

ـ أجل يا ملاكي. أما أنت ففكر في الاختباء جيداً تحت السرير، إذا دخلت إليزا الغرفة في غيابي.

ودهش جوليان من هذا المرح الفجائي. وفكّر: هكذا إذن: اقتراب خطر مادي لا يفزعها، بل على العكس، يعيد إليها مرحها، لأنها تنسى آلامها وندمها! إنها فعلاً امرأة متفوقة! آه! هذا قلب يشعر المرء بالفخار إذا امتلكه! وأحس جوليان بالنشوة.

أخذت السيدة ده رينال السلّم، وكان ثقيلاً عليها. فهب جوليان لمساعدتها، ثم أعجب بهذا القامة الممشوقة التي أبعد ما يكون عن أن تظهر القوة. وأعجب عندما رفعت السلّم، فجاة، وتناولته كأنها تحمل كرسياً صغيراً. حملته بسرعة إلى ممر الطابق الثالث، وأسندته بطوله إلى الحائط، ثم نادت الخادم، وصعدت إلى برج كولومبيه، كي تترك له وقتاً لارتداء ثيابه. وبعد خمس دقائق، عند عودتها إلى الممشى لم تجد السلّم. اين هو؟ لو كان جوليان خارج المنزل، لما كان في الأمر أي ضرر. ولكن لو رأى زوجها السلّم في هذه اللحظة يكون هذا الحادث فظيعاً. وركضت السيدة ده رينال في كل اتجاه. وأخيراً اكتشفت أنه تحت السقف، حيث أخذه الخادم وأخفاه. ورأت الحادثة فريدة طريفة، بعدما كانت كافية لتجديد مخاوفها.

وفكّرت: ماذا يهمني ما سوف يحدث بعد أربع وعشرين ساعة، بعد ذهاب جوليان؟ ألن يكون كل شيء بالنسبة لي رعباً وندماً؟

كانت تفكّر بغموض: عليها أن تفارق الحياة، ولكن ما يهمني! بعد هذا الفراق الذي ظنته أبدياً، عاد إليها ورآته، وكان ما قام به ليصل إليها يدلّ على حب كبير!

قالت لجوليان، وهي تروي له حكاية السلّم:

ـ ماذا أقول لزوجي إذا حكى له الخادم الذي وجد السلّم؟ وأخذها حلمها للحظة، ثم أضافت: يلزمهم أربع وعشرون ساعة ليكتشفوا الفلاح الذي باعك إياه، ثم ألقت بنفسها بين ذراعي جوليان وشدت عليه بحركات عصبية ثم صرخت وهي تغرقه بالقبلات:

آه! أن أموت! أن أموت هكذا! ولكن يجب أن لا تموت من الجوع.

قالت هذا وهي تضحك.

تعال سأخبئك في غرفة السيدة درفيل. تبقى دائمًا مغلقة بالمفتاح. وذهبت لتراقب طرف الممر، ثم ذهب جوليان ركضاً. لا تفتح عندما يدق الباب ثم أغلقت الباب بالمفتاح. وعلى كل حال، الأمر لن يحدث إلا عندما يلعب الأولاد.

وقال جوليان:

ـ أحضريهم إلى الحديقة حتى التذّ بمشاهدتهم، اجعليهم يتكلمون.

وصرخت السيدة ده رينال وهي تبتعد:

ـ أجل، أجل.

سرعان ما عادت ومعها بعض الليمون والبسكوت وزجاجة من خمر ملقة، ولكنها لم تستطع أن تسرق بعض الخبز.

وقال جوليان:

ـ ماذا يفعل زوجك؟

ـ يكتب مشاريع عقود مع بعض الفلاحين.

الساعة دقت الثامنة، وكانت الضجة قوية في البيت؛ فإذا لم تظهر السيدة ده رينال، فسيفتش الجميع عنها في كل مكان. ولذلك كانت مضطرة لتركه. ولكنها عادت بسرعة، وهي تتخلى عن حذرها وتحضر له فنجان قهوة؛ كانت تخشى أن يموت من الجوع. وبعد الفطور، نجحت في إحضار الأولاد تحت نافذة السيدة درفيل. ووجدهم جوليان أكبر مما تركهم، ولكنهم اتخذوا الطابع العام، أو أن أفكاره هي التي تغيرت.

حدثتهم السيدة ده رينال عن جوليان، فأجاب أكبرهم بصداقة

واسف على المربي السابق، ولكنه وجد أن الآخرين نسياه تقريباً.

ولم يخرج السيد ده رينال هذا الصباح. فكان يصعد وينزل في المنزل دون توقف، منهمكاً في تحضير عقوده مع الفلاحين الذين باعهم محصوله من البطاطا. ولم تجد السيدة ده رينال حتى وقت الغداء، لحظة تعطيها لسجينها. أُعِدّ الغداء وانتهى. فخطرت على بالها فكرة سرقة صحن من الحساء الساخن واعطائه إلى جوليان. وعندما كانت تقترب بهدوء من باب الغرفة التي يحتلها، حاملة صحنها بعناية، وجدت نفسها وجهاً لوجه مع الخادم الذي اخفى السلم هذا الصباح، وكان الخادم يتقدم بحذر وبطء في الممر، بسمعه. لا بد أن جوليان قام ببعض الخطوات. ابتعد الخادم وهو يشك في شيء. ودخلت السيدة ده رينال بجرأة إلى غرفة جوليان بعدما جعلته هذه الحادثة يرتجف، فقالت له:

ـ أنت خائف، وأنا على استعداد لاجابه كل أخطار الدنيا دون اهتمام. لا أخشى إلا شيئاً واحداً: اللحظة التي سأصبح فيها وحيدة بعد رحيلك.

ثم تركته راكضة. قال جوليان لنفسه بنشوة: تأنيب الضمير هو الخطر الوحيد الذي تخشاه هذه النفس الرائعة!

اخيراً أقبل المساء، وذهب السيد ده رينال إلى الكازينو.

وأعلنت زوجته أنها مصابة بصداع فظيع، وانسحبت إلى غرفتها، وعجلت بصرف إليزا ثم نهضت بسرعة لتفتح لجوليان.

ووجدت السيدة ده رينال أنه فعلاً يكاد يموت من الجوع. فذهبت إلى المطبخ لتحضر الخبز. وسمع جوليان صرخة كبيرة. وعادت السيدة ده رينال وحكت له أنها، وهي تتقدم من المكان الذي يوضع فيه الخبز، لمست يدها ذراع امرأة. وكانت إليزا هي التي أطلقت الصيحة التي سمعها جوليان.

ـ ماذا كانت تفعل هناك؟

ـ كانت تسرق بعض الحلوى.

ثم أضافت السيدة ده رينال بلا مبالاة كاملة:

ـ أو أنها كانت تتجسس علينا. ولكن لحسن الحظ، وجدت بعض اللحم المقدّد وقطعة كبيرة من الخبز.

قال جوليان وهو يشير إلى جيب «مريولها»:

ـ ماذا فيه؟

نسيت السيدة ده رينال أنها ملأت جيبها بالخبز عند الغداء.

وضمّها جوليان بذراعيه.لم يرها مطلقاً بهذا الجمال.

قال في نفسه: لن أستطيع أن أقابل، حتى في باريس، مخلوقة كهذه. لديها كل عيوب المرأة التي لم تعتد مثل هذه الاهتمامات، وفي الوقت نفسه، لديها شجاعة خارقة لا تجعلها تخشى إلاّ مخاوف أقسى وأشد من افتضاح أمرها.

وبينما جوليان يتناول حساءه بشهية كبيرة، وصديقته تمازحه، حول بساطة هذا العشاء، وتخشى كثيراً من الحديث الجدّي، قرع الباب فجأة بشكل عنيف. كان السيد ده رينال يصيح:

ـ لماذا أغلقت على نفسك الباب؟

وكان أمام جوليان الوقت الكافي لينزلق تحت الكنبة.

قال السيد ده رينال وهو يدخل:

ـ ماذا! تلبسين ثيابك، وتتناولين العشاء، وأغلقت باب غرفتك بالمفتاح؟

كان هذا السؤال بلهجة ناشفة، يثير اضطراب السيدة ده رينال لو ألقي عليها في الأيام العادية، ولكنها كانت تحس أنه يكفي لزوجها أن ينحني قليلاً ليرى جوليان، لأن السيد ده رينال ارتمى على الكرسي الذي كان جوليان يجلس عليه منذ قليل، تجاه الكنبة.

كان الصداع عذراً لكل شيء. وبينما كان زوجها، يروي لها

مطولاً حوادث المباراة التي ربحها في البليار بالكازينو، وهو يضيف، مباراة بتسعة عشر فرنكاً، والله! رأت السيدة ده رينال قبعة جوليان على كرسي يبعد ثلاث خطوات عنها. وتضاعفت شجاعتها. فبدأت تخلع ملابسها، ومرتّ لبرهة وراء زوجها، ثم ألقت فستاناً على الكرسي حيث قبعة جوليان.

وذهب السيد ده رينال أخيراً. فطلبت من جوليان أن يعيد رواية حياته في الدير. أمس لم أكن استمع إليك. ولم أكن أفكر، وأنت تتكلم، إلا في ضرورة إقناع نفسي بصدّك.

وكان هذا التسرع هو بعينه. كانا يتكلمان بصوت عالٍ. والساعة تقارب الثانية صباحاً، عندما قوطعا بضربات قوية على الباب. وكان السيد ده رينال أيضاً.

- إفتحي بسرعة. في البيت لصوص! وجد سان جان سلّمهم هذا الصباح.

وصرخت السيدة ده رينال وهي ترتمي بين ذراعي جوليان:

- هذه هي النهاية. سيقتلنا معاً. لا يصدق قصة اللصوص. سأموت بين ذراعيك، وسأكون أسعد في موتي مني في حياتي.

لم تردّ على زوجها الذي أخذه الغضب، فكانت تقبّل جوليان بوله وشوق.

وقال لها جوليان بنظرة آمرة:

ـ أنقذي أم ستانيسلاس. سأقفز إلى الباحة من الحمام، وسأهرب من الجنينة. عرفتني الكلاب. إجعلي من ثيابي رزمة وأرميها في الجنينة سريعاً. وفي الانتظار أتركيه يخلع الباب. ولكن لا تعترفي. أمنعكِ عن هذا. من الأفضل أن يكون لديه بعض الشكوك من أن تكون لديه الحقائق.

وكان جوابها الوحيد، وحزنها الوحيد:

ـ ستموت في قفزتك.

وذهبت معه إلى الحمام، ثم أخفت ملابسه. وفتحت أخيراً لزوجها الذي كان يغلي من الغضب تطلّع إلى غرفتها، ثم إلى الحمام دون أن يتفوه بحرف، ثم ذهب. رَمَت الملابس إلى الحديقة، فالتقطها جوليان وانطلق يعدو باتجاه نهر الدّو. وفي ركضه سمع أزيز طلقة نارية، ثم صوت البندقية.

وفكر، أنه ليس السيد ده رينال: لا يحسن التصويب هكذا. كانت الكلاب تركض ساكنة معه. ثم أصابت إحدى الطلقات، كما يظهر، رجل واحد من الكلاب، سمعه يطلق صيحات متألمة. وقفز جوليان حائطاً من جدران سطوح الحديقة، ومشى، مكشوفاً، خمسين خطوة، ثم عاد للركض في اتجاه آخر. وسمع أصواتاً تتنادى، ثم رأى بوضوح، الخادم عدوّه، يطلق طلقة

أخرى، ثم فلاحاً يطلق في اتجاه آخر. ولكن جوليان كان وصل في هذا الوقت إلى ضفة الدّو حيث لبس ملابسه.

بعد ساعة كان على فرسخ من فريير: على طريق جنيف. وفكّر: إذا شكوّا في شيء، سيبحثون عني، أكيداً، على طريق باريس.

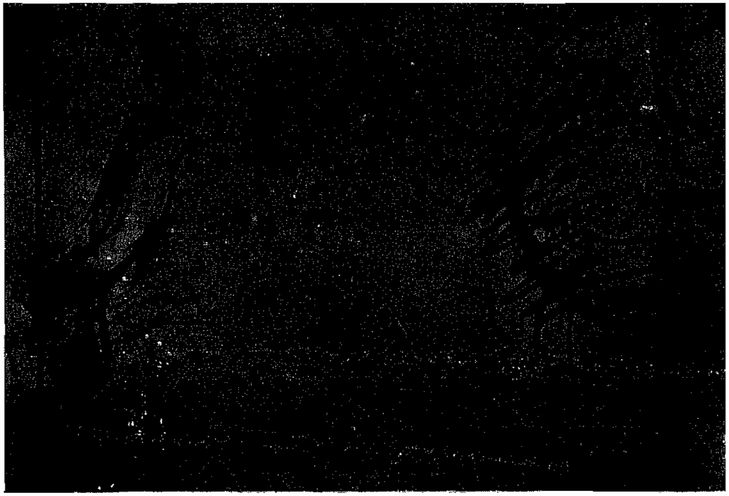

ستندال بريشة ألفرد ده موسّه (١٨٣٣)

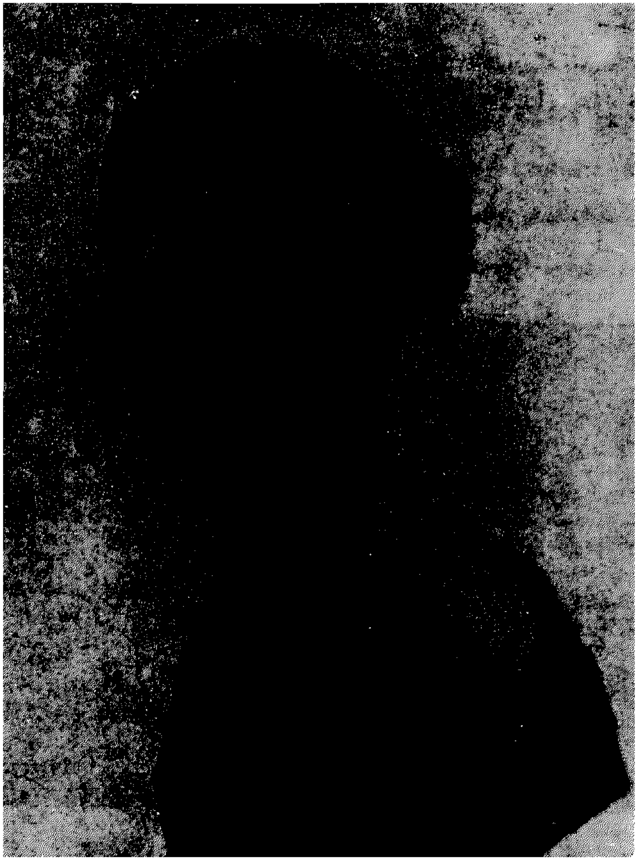

الكونتيسة كوريال، عشيقة ستندال في باريس (١٨٢٢ - ١٨٢٦)

القسم الثاني

ليست جميلة أنها لا تضع الأحمر.

سانت بوف

١
ملذات الريف

قال له صاحب مقهى توقف فيه ليتناول بعض الطعام:

ـ لا شك أن السيد ينتظر عربة بريد باريس.

ورد جوليان:

ـ عربة اليوم، أو عربة الغد، لست مستعجلاً.

وصلت عربة البريد وهو يتصنع اللامبالاة. وكان فيها مكانان شاغران. وقال المسافر الآتي من طريق جنيف إلى المسافر الذي كان يصعد مع جوليان:

ـ هذا أنت يا فالكوز المسكين.

وردّ فالكوز:

ـ كنت أعتقد أنك استقريّت عند ضواحي ليون في واد جميل قرب نهر الرون؟

ـ كنت هانئاً مستقراً، ولكنني هربت.

وقال فالكوز ضاحكاً:

ـ كيف ذلك؟ أنت سان جيرو، بهيئتك العاقلة، ترتكب جريمة؟

ـ يا إلهي! من قال لك هذا! أهرب من الحياة البشعة التي يحياها الانسان في هذه المقاطعة. أحب طراوة الغابات والهدوء القروي، كما تعرف، فلطالما أتهمتني بالرومانطيقية. لم أحب في حياتي التحدث في السياسة، والسياسة هي التي تطردني الآن.

ـ هل تنتمي إلى حزب؟

ـ لا أنتمي إلى أي حزب، وهذا ما يضيّعني. كل سياستي: أنني أحب الموسيقى والرسم؛ والكتاب الجيد يشكل لي حدثاً. سأبلغ الرابعة والأربعين عما قريب. فماذا تبقى لي؟ خمس عشرة أو عشرون أو ثلاثون سنة على الأكثر؟ وبعد! اعتقد أن الوزراء في هذه السنوات الثلاثين كانوا قليلي الاستقامة، ولكنهم أشرف بكثير من وزراء اليوم. تاريخ بريطانيا يساعدني على رؤية مستقبلينا. ثمة دائماً ملك يحاول زيادة صلاحياته، وطموح يريد

أن يصبح نائباً، وسيظل المجد والثروة الكبري التي ربحها ميرابو جاثمة على صدور أبناء المقاطعة فتمنعهم من النوم. يدعون هذا تحرراً وحباً للشعب. ثمة دائمًا رغبة في أن يصبح أحدهم سيداً في المجلس الذي يضمّ النبلاء. فعلى مركب الدولة هذه، يريد الجميع أن يهتموا بالدفة، لأن الثمن باهظ. أفلا يوجد مكان صغير لمسافر بسيط؟

ـ حقاً، حقاً. من تريده أن يبقى مرحاً بطبعك الهادىء هذا؟ الانتخابات الأخيرة هي التي طردتك من المقاطعة؟

ـ ألمي ينبع من البعيد. كنت، منذ أربع سنوات، في الأربعين وكنت أملك خمسمائة ألف فرنك. الآن في الرابعة والأربعين أملك خمسين ألف فرنك أقل من السابق، على الأرجح لأنني سأخسر هذا المبلغ ببيعي قصر مونفلوري، قرب الرون، في ذلك الموضع الفريد.

تعبت في باريس من هذه المهزلة الأبدية تضطرنا إليها حضارة القرن التاسع عشر. كنت ظمآن للبوهيمية والبساطة. فاشتريت أرضاً في الجبال، قرب الرون، ليس أجمل منها تحت السماء.

ودلّني خوري القرية وشخصيات المنطقة ستة أشهر. كنت أدعوهم للغداء وقلت لهم أنني تركت باريس حتى لا أسمع طوال حياتي، حديثاً سياسياً. لست مشتركاً في أية صحيفة.

وكلما قلل ساعي البريد من الرسائل إلي، إزدادت سعادتي.

لم يكن هذا حساب الخوري، فسرعان ما تلقيت آلاف الطلبات الصريحة، والمشاحنات. كنت أريد أن أعطي ثلاثمائة فرنك في السنة للفقراء، فأتى يطلبها للجمعيات الدينية، جمعية القديس يوسف وجمعية العذراء. الخ. ورفضت: وعندها تلقيت مئات الاهانات. كنت أحمق فتضايقت منها. لم أعد أستطيع الخروج صباحاً لأتنزه وأمتع ناظري بجمال جبالنا، دون أن أواجه ضجراً يوقظني من أحلامي، فيذكرني بالناس وخبثهم. في موكب أحد الاعياد الذي تعجبني تراتيله، وهي على الأرجح يونانية، لا تبارك حقولي لأنها، كما يقول الخوري، ملك لكافر. وتموت بقرة فلاحة عجوز متدينة، فتقول أن سبب موتها هو مجاورتها لمستنقع أملكه أنا الكافر، الفيلسوف الآتي من باريس. ثم أجد، بعد ثمانية أيام، أسماكي طافية على وجه الماء مسممة بالكلس. المشاحنات تحيط بي من كل صوب. ويلومني حاكم الصلح دائمًا، رغم أنه رجل شريف، ولكنه يخشى على مركزه. ويصبح هدوء الحقل بالنسبة لي جحيمًا لا يطاق. عندما رأى الجميع أن الخوري تركني، وهو رئيس المجلس الكنسي، وأن الضابط المتقاعد لم يساندني، وهو رئيس المتحررين، انقلبوا جميعاً عليّ بما فيهم البنّاء الذي كنت أصرف عليه منذ سنة، والنجار أراد أن يتجسس علي وهو يصلح عرباتي.

وحتى يكـون لي سند، ولكي أربـح بعضاً من قضـاياي، تظاهرت بالتحررية، ولكن وصل شيـاطين الانتخـابات هؤلاء وطلبوا صوتي.

ـ لواحد مجهول؟

ـ أبداً، على العكس، لرجل كنت أعرفه قليلاً، فرفضت. وجدت ذلك عمـلاً أحمق بشعاً! ومنـذ هذه اللحـظة، أطبق المتحررون علي، وأصبح وضعي صعباً لا يحتمل. اعتقد لو خطر عـلى بال الخـوري أن يتهمني بقتل خـادمتي، لوجـد عشرين شاهداً، من الحزبيين، يقسمون على أنهم رأوني ارتكب الجريمة.

ـ تريد أن تعيش في الريف دون أن تخدم أهواء جيرانك، ودون أن تستمع إلى ثرثراتهم؟ هذه غلطة كبرى!...

ـ انتهيت منها. مونفلوري معروض للبيع، وأنا على استعداد لأخسر خمسين ألف فرنك إذا لزم الأمر، ولكنني مسرور بتركي هذا الجحيم من الأنانيـة والمضايقـات. سأبحث عن الـوحدة والسلام الريفي في المكان الوحيد الذي أستطيع أن أجدهما في كل فرنسا: طابق رابع يطل على الشانزليزيه. وأنا الآن أفكر أيضاً في أن أبدأ حياتي السياسيـة في حي رول بإعـادة الخبز المقدس للأبرشية.

وقال فالكوز بعينين تلمعان ببريق الغضب والأسى:

ـ لم يكن ليحدث لك شيء من هذا أيام بونابرت.

ـ يا للكلام الجميل؛ ولكن لماذا لم يعرف كيف يبقى في مكانه، بونابرتك هذا؟ كل ما أقاسيه اليوم من صنعه.

هنا تضاعف انتباه جوليان. فهم من الكلمة الأولى أن البونابرتي فالكوز كان صديق طفولة السيد ده رينال الذي تخلى عنه عام ١٨١٦، وأن الفيلسوف سان جيرو لا بد أن يكون شقيقاً لرئيس مكتب محافظة... وهو كان يعرف كيف يشتري بسعر بخس منازل البلدية في المزادات.

وتابع سان جيرو:

ـ كل هذا من صنع بونابرتك. إن رجلاً شريفاً مسالماً عمره أربعون سنة ويملك خمسمائة ألف فرنك لم يعد يستطيع الاستقرار في الريف، ولا أن يجد فيه السلام. إن قساوسته ونبلاءه يطردونه.

وصرخ فالكوز:

ـ آه! لا تتحدث عنه بسوء. إن فرنسا لم تكن تتمتع في يوم باحترام الشعوب كما تمتعت به خلال الثلاثة عشر عاماً التي حكم فيها. هذا يعني أن العظمة كانت موجودة في كل ما يقوم به.

وتابع رجل الأربعة والأربعين:

ـ إن أمبراطورك، الذي أخذه الشيطان، لم يكن عظيمًا إلا في ساحات معاركه، وعندما أصلح النظام المالي عام ١٨٠٢. أما بعد ذلك فقل لي ما معنى كل تصرفاته؟

اعاد، برجاله وعنفوانه واستقبالاته في التويلري، كل التقاليد الملكية. أصلحت، وكان من الممكن إبقاؤها قرناً أو قرنين على ما هي. اراد النبلاء والقساوسة أن يعودوا إلى الطراز القديم، ولكن لم يعد لديهم هذه القبضة الحديدية التي تفرضه على الجمهور.

ـ هذه تماماً لهجة مطبعيّ قديم!

وتابع المطبعي بغضب:

ـ من يطردني من أرضي؟ القساوسة الذين أعادهم نابليون بدلاً من أن يعاملهم، كما تعامل الدولة المحامين والأطباء والفلكيين، أو أن ينظر إليهم كمواطنين عاديين، دون أن يهتم بالطريقة التي يكسبون بها قوتهم. هل يكون رجال وقحون لو لم يجعل بونابرتك من البعض بارونات وكونتات؟ لا طبعاً. مضى عهد الالقاب. وبعد القساوسة، أثار اشمئزازي هؤلاء النبلاء الريفيون الصغار اضطروني لأن أكون متحرراً.

استمر الحديث. فهذا الموضوع، سيظل شغل فرنسا الشاغل

في الخمسين عاماً المقبلة، وعندما كان سان جيرو يردد أنه ليس من الممكن بعد الآن العيش في الريف، عرض جوليان، بحياء، مَثَل السيد ده رينال.

وصرخ فالكوز:

ـ وحق السماء أيها الشاب، إنك رائع! جعل من نفسه مطرقة لكي لا يكون مرساة، بل ومطرقة هائلة أيضاً. ولكنني ألمح فالينو يسبقه. تعرف هذا الرجل؟ ماذا سيقول السيد ده رينال عندما يجد نفسه معزولاً ذات يوم، وفالينو مكانه؟

ورد سان جيرو:

ـ سيبقى وجهاً لوجه مع جرائمه. تعرف فريير إذن أيها الشاب؟ وبعد! بونابرت الذي محته السماء، مع أتباعه الملكيين، جعلوا حكم رينال وشيلان ممكناً، وهو الحكم الذي جر حكم فالينو وماسلون.

هذه المناقشة، حول السياسة القاتمة أدهشت جوليان، فروّحت عن أحلامه اللذيذة.

ولم يشعر بفرح كبير لدى أول مشهد لباريس، وهي تظهر في البعيد. قصور الرمال بناها عن مصيره ومستقبله كانت لا تزال في صراع مع ذكرى الأربع والعشرين ساعة الماضية قضاها في

فريير؛ وعاهد نفسه على ألاّ يترك أولاد صديقته، وعلى أن يترك كل شيء ليحميهم، إذا كان القساوسة سيقومون سبباً في إقامة الجمهورية وفي اضطهاد النبلاء.

وماذا كان يحدث، ليلة كنت في فريير، وفي اللحظة التي كنت أسند السلم على نافذة غرفة السيدة ده رينال، لو وجدت في الغرفة أحد الغرباء، أو السيد ده رينال نفسه؟

ولكن أية لذة رائعة في الساعتين الأوليين، عندما كانت صديقته تريد مخلصة صده، وعندما دافع عن قضيته، جالساً حدّها في الظلمة!

إن نفساً كنفس جوليان لا بد أن تتابعها ذكريات من هذا النوع إلى آخر الحياة. بقية المشهد كان مختلطاً بذكريات الفترات الأولى لحبها، قبلَ أربعة عشر شهراً.

استيقظ جوليان من حلمه العميق بتوقف العربة. دخلوا قبل ثوان ساحة البريد في شارع جان جاك روسو. قال جوليان لسائق عربة:

ـ أريد أن أذهب إلى مالميزون.

ـ في هذه الساعة يا سيدي، وماذا تريد أن تفعل؟

ـ لا دخل لك في الأمر! هيا!

كل هوى حقيقي لا يفكر إلا في نفسه. ولذلك، الأهواء في باريس مضحكة، حيث يعتقد الجار أن الجميع يفكرون مثله. في طريقه إلى ماليرّون، كان جوليان يبكي، رغم الجدران البيضاء البشعة التي بنيت في هذه السنة والتي تقسم الحديقة العامة إلى قطع صغيرة.

نعم، بالنسبة لجوليان، لم يكن من فارق بين أركول وسان هيلين والماليزون.

في المساء، تردّد جوليان كثيراً قبل أن يدخل المكان. كانت لديه عنه أفكار غريبة.

وكان حذر عميق يمنعه من الاعجاب بباريس الحية، ولكنه أعجب بالآثار التي تركها بطله (بونابرت).

ها أنذا إذن في مركز التآمر والأنانية! هنا يسود حماة الأب ده فريلير.

مساء اليوم الثالث، تغلب فضوله على ما كان قرره لرؤية باريس كلها قبل أنه يتقدّم للأب بيرار. وشرح له الأب، بلهجة باردة، نوع الحياة التي تنتظره في بيت السيد ده لامول.

- إذا لم تكن مفيداً في بضعة شهور، ستعود إلى الدير، نهائياً هذه المرة. ستسكن عند المركيز، أحد أكبر الأسياد في فرنسا.

وستلبس بذلة سوداء، كرجل محزون لا كرجل دين. واصر على أن تتابع دراستك اللاهوت في أحد الأديرة، ثلاث مرات في الأسبوع، وسأقوم أنا بتقديمك هناك. ظهر كل يوم، تستقر في مكتبة المركيز، الذي يعتزم تشغيلك بكتابة رسائل دعاويه وبعض الأعمال الأخرى. وسيكتب المركيز، بكلمتين، على هامش الرسالة التي يتلقاها، نوع الاجابة التي عليك القيام بها. كفلتك أنك ستستطيع بعد ثلاثة أشهر على الأكثر، القيام وحدك بهذه الاجابات، فيستطيع المركيز أن يوقع ثمانية أو تسعة من أصل اثنتي عشرة إجابة تقدمها له. وترتب مكتبه في الثامنة مساءً، ثم تكون حراً بعد العاشرة.

وتابع الأب بيرار:

ـ من الممكن أن تحاول بعض النساء العجائز أو بعض الرجال بكلمات معسولة، أو بالتلويح ببعض الامتيازات الكبرى، أو بشكل فظ إغراءك بالذهب، لتريهم الرسائل التي وصلت للمركيز. . .

وصرخ جوليان والحمرة تكسو وجهه:

ـ آه! سيدي!

وقال الأب بيرار بابتسامة مرة:

ـ من الغريب فعلاً، بعد سنة في الدير، ورغم فقرك، أن

تبقى لك فضيلة هذا الاشمئزاز. لا بد إنك كنت أعمى تماماً.

وقال الأب بيرار بصوت منخفض كأنما يتحدث إلى نفسه:

ـ هل هي قوة الدم؟

وأضاف وهو يتطلع إلى جوليان:

ـ ما هو غريب، أن المركيز يعرفك، وأنا لا أعرف كيف. سيعطيك في البداية مئة ليرة ذهبية. إنه رجل لا يتصرف إلا كما تملي عليه نزواته، وهذا هو عيبه؛ سيلعب معك كالأطفال، فإذا كان مسروراً ستبلغ أتعابك في المستقبل ثمانية آلاف فرنك.

وتابع الأب بيرار بصوت حاد:

ـ تشعر أنه لا يعطيك كل هذا المال لسواد عينيك. عليك أن تكون مفيداً. ولو كنتُ مكانك لتكلمت قليلاً، وعلى الأخص لما تكلمت في ما أجهله.

وقال الأب:

ـ آه! حصلت لك على بعض المعلومات: نسيت عائلة المركيز: ولدان، ابنة وشاب في التاسعة عشرة من العمر، متأنق، نوع من المجانين الذين لا يعرفون في الثانية عشرة ماذا يفعلون في الساعة الثانية. ذكي، شجاع. اشترك في حرب اسبانيا. ويتمنى المركيز، لا أدري لماذا، أن تصبح صديقاً

للكونت الشاب نوربير. قلتُ إنك لاتيـني كبير، وقد يطلب أن تعلمّ ابنه بعض الجمل المأخوذة عن شيشرون وفرجيل. ولو كنت مكانك لما تركت نفسي أمازح هذا الشاب الجميل؛ وقبل أن أخضع لعروضه المهذبة جداً، وفيها بعض السخرية، أحاول أن أجعله يعيدها أكثر من مرة.

لا أخفي عليك إن الكونت الشاب ده لامول، سيحتقرك في أول الأمر، لأنك بورجوازي صغير. كان جـده من البلاط، وكان له شرف أن قطع رأسه في ساحة «غريف» يوم ٢٦ نيسان ١٥٧٤، لاشتراكه في مؤامرة سياسية. أما أنت فابن صاحب منشرة في فريير، وموظّف في خدمة والده. قدِّر، إذن، هذه الفروقات وادرس تاريخ هذه العائلة في كتاب موريري؛ وكل المادحين الذين يتناولون الطعام عندهم، يقومون من وقت لآخر ببعض الاستشهادات الناعمة عنه.

احذر الطريقة التي تردّ بها على مزاح السيد الكونت نوربير ده لامول، رئيس فرقة الخيالة الخفيفة، وحامي فرنسا المقبل، ولا تأت إليّ في المستقبل نادماً على تسرّعك.

قال جوليان ووجهه مكسو بالاحمرار الشديد:

ـ يخيل إليّ أنني لن أرد على رجل يحتقرني.

ـ ليست لديك أية فكرة عن هذا الاحتقار. لن يظهر إلا

بقالب المديح المبالغ فيه. إذا كنت أحمق، باستطاعتك أن تقبل به، وإذا كنت تريد أن تصبح غنياً فعليك حكمًا أن تقبل به.

ـ وعندما لا يعجبني كل هذا، هل أكون جاحداً إذا رجعت إلى غرفتي رقم ١٠٣ في الدير؟

ورد الأب:

ـ دون شك. سيتهمك جميع المترددين على الدير. ولكنني سأظهر عندئذ، وأقول أنني أنا الذي اتخذ هذا القرار.

كان جوليان متضايقاً من اللهجة المرة، بل الخبيثة لدى الأب بيرار. وبانت هذه اللهجة واضحة تماماً في جوابه الأخير.

والواقع أن الأب بيرار جعل من حب جوليان واجباً ضميرياً، وهكذا تدخل، بنوع من الخوف الديني، في مصير شخص آخر.

وأضاف الأب باللهجة السيئة نفسها كأنه ينفذ واجباً قاسياً:

ـ سترى أيضاً السيدة ده لامول. امرأة كبيرة شقراء، متدينة متعالية، مهذبة تافهة. إنها ابنة الدوق ده شولن العجوز، المعروف بأصله النبيل. هذه المرأة الكبيرة هي نوع مختصر نافر، فيه كل ما يشكل أعماق نساء طبقتها. لا لا تخفي الحسنة الوحيدة التي تراها جديرة بالاعتبار في جدودها، إنهم اشتركوا في الحروب الصليبية. أما المال فلا يأتي إلا بعد ذلك: هل يدهشك

هذا؟ لم نعد في الريف يا صديقي سترى في صالونها أسياداً كباراً يتحدثون عن امرائنا بلهجة استخفاف غريب؛ أما السيدة ده لامول فإنها تخفض صوتها احتراماً كلما تلفظت باسم أمير، وعلى الأخص، اسم أميرة. لا أنصحك بأن تقول أمامها أن فيليب الثاني أو هنري الثامن كان وحشاً. كانوا ملوكاً، وهذا وحده يكفي لجعلهم يستحقون احترام الجميع، وخصوصاً احترام الطبقات الدنيا التي ننتمي إليها أنت وأنا.

وأضاف الأب:

ـ ومع ذلك فنحن قساوسة، وستعتبرك قسيساً:

تعتبرنا خدماً لازمين لخلاصها.

وقال جوليان:

ـ يخيل إليّ أنني لن أبقى طويلاً في باريس.

ـ ما هذا الذي تقوله! لا يمكن لرجل من سلكنا، أن يكوّن ثروة إلا بواسطة هؤلاء الأسياد الكبار. إنك، بطبعك الذي لا يمكن تحديده، على الأقل بالنسبة لي، ستضطهد أن لم تكوّن الثروة. ليس من حل وسط لك. فلا تبالغ. الرجال يرون أنهم لا يسرّونك بتحدثهم إليك؛ إنك معرض للشقاء في بلد اجتماعي كهذا، إذا لم تكن موضع الاحترام.

ماذا كنت تصبح في بزانسون لولا نزوة المركيز هذه؟ ستفهم يوماً غرابة كل ما قام به لأجلك، وإذا لم تكن وحشاً، ستحفظ له ولعائلته اعترافاً بالجميل كبيراً. لكم عاش في باريس قساوسة فقراء، أكثر علماً منك، بالخمسة عشر قرشاً حصيلة القداس، والعشرة قروش من محاضراتهم في السوربون!... تذكر ما رويته لك في الشتاء الماضي، عن السنوات الأولى لهذا الشخص السيء الكاردينال دوبوا. هل ستظن، بكبريائك، إنك موهوب أكثر منه؟

أنا مثلاً، الرجل الهادىء البسيط، كنت اعتزم الموت في ديري. كنت أحمق وتعلقت به. وبعد! كنت أوشك أن أعزل عندما قدمت استقالتي. تعرف ما كانت ثروتي؟ خمسمائة وعشرين فرنكاً، لا أكثر ولا أقل، دون صديق، ولا أكاد أعرف اثنين أو ثلاثة أشخاص. وجاء المركيز ده لامول، الذي لم أكن رأيته، وخلّصني من حالتي السيئة. لم يقل إلا كلمة واحدة، ثم تَوَلَّيْتُ هذه الابرشية ذات الرعايا الأغنياء المترفّعين عن الفظاظة؛ وأنا أخجل من مدخولها الكبير لأنه لا يتناسب مع عملي الضئيل. لم أكن لأحدثك طويلاً هكذا إلا لأنني أريدك أن تعي تماماً الوضع الذي أنت فيه، فتأخذ الأمر جدياً.

كلمة أخيرة: تعاستي أنني سريع الغضب. من المعقول. أن لا نجد، أنت وأنا، الفرصة للتحدث واحدنا إلى الآخر.

إذا جعل كبرياء المركيزة ومزاج ابنها، هذا البيت غير محتمل بالنسبة إليك، أنصحك بأنهاء دراستك في أحد الاديرة على ثلاثين فرسخاً من باريس، وأنا أفضل الشمال على الجنوب؛ أن في الشمال حضارة أكمل، وظلمًا أقل.

وأضاف خافضاً صوته:

ـ اعترف أن مجاورة صحف باريس يفزع المستبدين الصغار.

إذا دام لنا سرورنا، وتقابلنا، ولم يعجبك بيت المركيز، أعرض عليك مركز مبعوثي وسأقتسم معك مدخول الابرشية.

أضاف وهو يقاطع جوليان الذي كان يشكره:

ـ إنني مدين لك بهذا وأكثر: عرضت عليّ في بزانسون عرضاً فريداً. لو لم أكن أملك الخمسمائة وعشرين فرنكاً لكنت انقذتني حتمًا.

فقد الأب بيرار رنة صوته القاسية. وأحس جوليان، بخجل كبير وبالدموع في عينيه، كان يتحرّق رغبة في أن يرتمي بين ذراعي صديقه، ولم يستطع أن يمنع نفسه من القول بأكثر اللهجات التي استطاعها تعبيراً عن عاطفته:

ـ كرهني أبي منذ المهد، وكان هذا أكبر شقاء عرفته. ولكنني لم أعد متضايقاً من الظروف. وجدتُ فيكَ، يا سيدي، أباً.

وقال الأب متضايقاً:

ـ حسناً! حسناً!

ثم قال بلهجة تليق تماماً بمدير دير:

ـ لا تقل أبداً: الظروف، يا بني. قل دائماً: العناية الالهية.

وتوقفت العربة، ورفع الحوذي مطرقة أحد الأبواب الكبيرة البرونزية: هوذا قصر ده لامول، وحتى لا يضلّ المارة، كانت هذه الكلمات مكتوبة على رخام أسود فوق الباب.

لم تعجب هذه اللافتة جوليان. يخافون جداً من اليعاقبة! يرون روبسبير وعربته وراء كل جدار، وهم يضحكون من ذلك كثيراً، ثم يعلنون عن منازلهم بهذا الشكل حتى تتعرّف إليها العامة في الاضطرابات وتنهبها. واطلع الأب بيرار على فكرته:

ـ آه! يا بنيّ المسكين. ستكون قريباً مبعوثي. فأية فكرة أوصلتك إلى هذا؟

ـ الأمر بسيط.

وأعجب جوليان بوقار البواب، وعلى الأخص، بنظافة الأرض. كانت الشمس مشرقة. فقال لصديقه:

ـ أية هندسة رائعة!

كانت واجهة المنزل على طراز ضاحية سان جرمان، أواخر عهد فولتير، من تلك الواجهات التي يزيدها الزمن رونقاً وجمالاً.

٢
الدخول إلى العالم

ذكرى مضحكة ومؤثرة: عند دخولي أول الصالونات وحيداً، دون معونة، في الثامنة عشرة كانت نظرة أية امرأة تكفي لاحراجي. وكلما كنت أريد اكتساب الاعجاب، أزداد حمُقاً. كنت كونت أفكاراً مغلوطة عن كل شيء. أندفع دون سبب، أو أظنّ هذا الرجل أو ذاك عدوي، لأنه تطلع إلي بنظرة وقورة. ولكن النهار الجميل جميل ولو كنت وسط شقاء حياتي البشع!
كانط

توقف جوليان مشدوهاً وسط المدخل، فقال الأب بيرار:

ـ أظهر بمظهر العاقل. ستخطر على بالك أفكار مرعبة. لا تزال طفلاً! أين رباطة جأش هوراس؟ هذا الجمهور من الخدم سيسخر منك عندما يراك مستقراً هكذا. سيرون فيك مساوياً لهم وُضع زوراً وبهتاناً في درجة أعلى من درجتهم. وسيحاولون

أن يوقعوك في شراكهم في ظهورهم بمظهر الطيبة وبنصائحهم ورغبتهم في معاونتك. قال جوليان وهو يعضّ شفته إذ عاد إليه كل حذره:

ـ أتحداهم.

هذه الصالونات اجتازاها في الطابق الأول، قبل أن يصلا غرفة المركيز، كانت، ولا شك، تظهر حزينة ورائقة. ضاعفت اعجاب جوليان الذي فكر في نفسه، كيف يمكن أن يكون تعيساً من يسكن هذا المكان الفائق الجمال!

اخيراً وصلا أبشع غرفة في هذا القصر الرائع. وكان النور لا يكاد يرى. رأيا رجلًا نحيفاً ذا نظرة متوقدة وشعر أشقر. والتفت الأب نحو جوليان وقدّمه. إنه المركيز. وصعب على جوليان أن يعرف أنه مركيز. وجد أنه مهذب. لم يكن السيد الكبير ذا الهيئة المتكبرة التي رآها في دير براي العليا. خيل لجوليان أن شعره كثيف. وساعده هذا الاحساس فلم يشعر بالخيبة أنّ هذا المتحدّر من صديق هنري الثالث كان ذا هيئة مسكينة. كان نحيفاً، كثير الحركة. ثم لاحظ سريعاً أن تهذيب المركيز يفوق تهذيب كاهن بزانسون نفسه. ولم تدم المقابلة أكثر من ثلاث دقائق. قال له الأب بيرار وهو يخرج معه:

ـ تطلعت إلى المركيز كما إلى لوحة. لست غريراً لأخدع بما

يسمّيه هؤلاء الناس تهذيباً، وستعرف قريباً أكثر مني في هذا الأمر. اعتقد أن جرأة نظرتك لم تكن مهذبة.

عادا إلى العربة. توقف الحوذي قرب الجادة، وادخل الأب بيرار جوليان في سلسلة متتابعة من الصالونات. لاحظ جوليان أنها جميعاً خالية من الأثاث؛ وكان يتطلّع إلى رقّاص ساعة مذهب رائع، يمثل موضوعاً مشيناً في رأيه، عندما اقترب سيد أنيق، بشوش الوجه، وحيّى جوليان نصف تحية.

تبسّم السيد ووضع يده على كتف جوليان، فانتفض هذا الأخير متراجعاً إلى الوراء، واحمرّ من الغضب. ضحك الأب بيرار رغم وقاره، حتى أغرورقت عيناه بالدمع. كان هذا السيد خياطاً.

قال له الأب بيرار وهو يخرج:

ـ اردّ لك حريتك يومين، ستقدّم بعدها إلى السيدة ده لامول. سيحرسك خلال ساعاتك الأولى في برج بابل الجديد هذا، واحد غيري. اهرب تواً، إذا كنت تريد أن تهرب، وساتخلص من ضعفي بالتفكير فيك. سيرسل لك الخياط بذلتين غداً صباحاً؛ أعط من يحملهما إليك خمسة فرنكات. وعلى كل حال لا تتكلم أمام هؤلاء الباريسيين. إذا قلت كلمة واحدة، سيجدون الطريقة للسخرية منك. إنها موهبتهم. وبعد غد، أحضر إليّ ظهراً... هيا، إذهب .. نسيت: إذهب إلى هذه

العناوين وأوصٍ على أحذية وقمصان وقبعة.

وتطلّع جوليان إلى الخط الذي كُتبت به العناوين. فقال الأب:

ـ إنها كتابة المركيز؛ رجل نشيط يتنبأ بكل شيء، وهو يحب أن يعمل بدلاً من أن يأمر. يأخذك معه ليوفرّ على نفسه هذا التعب. هل يكون لديك كفاية من الذكاء لتنفذ كل الاشياء التي يعينها لك هذا الرجل النشيط بانصاف الكلمات؟ هذا ما سيثبته المستقبل: فحذار حذار!

ودخل جوليان دون أن ينبس بكلمة إلى المخازن المكتوبة في العنوان. لاحظ أنه قوبل فيها بالاحترام، وأن الحذّاء كتب في سجله: السيد جوليان ده سوريل.

وتطوع رجل طيب، أكثر تحرراً مما يظهر، ليدل جوليان، في مقبرة الأب لاشيز، على قبر المشير «ني»، الذي تطمس ذكراه السياسة الجديدة.

لكنّ جوليان، عند افتراقه عن هذا المتحرر الذي كاد يضمه بين ذراعيه وعيونه مغرورقة بالدمع، رأى أنه فقد ساعته. وكان اغتنى بهذه التجربة عندما مَثُل بين يدي الأب بيرار الذي تطلع إليه كثيراً، في اليوم التالي. وقال له الأب بيرار بلهجة قاسية:

ـ قد تصبح أضحوكة.

كان جوليان في هذه اللحظة كأنه شاب يلبس ملابس الحداد. والحق أنه كان في أحسن حالة، ولكن الأب الطيب كان ريفياً أكثر من اللازم بحيث لم ير جوليان بمظهره الأنيق.

عندما رأى المركيز جوليان، قال ممتدحاً ملابسه بطريقة تختلف تماماً عن طريقة القسيس:

ـ هل اعتراضٌ إذا تلقى السيد سوريل دروساً في الرقص؟

وسكت الأب مدهوشاً، ثم قال أخيراً:

ـ لا. جوليان ليس قسيساً بعد.

قاد المركيز جوليان بنفسه إلى غرفة جميلة تشرف على حديقة القصر الواسعة، وهو يصعد السلم الصغير بحيوية ونشاط. ثم سأله عن عدد القمصان التي أوصى عليها.

ردّ جوليان وهو يحسّ بالدهشة لأن سيداً كبيراً يفكّر في هذه التفاصيل: اثنين.

وتابع المركيز برزانة وبلهجة آمرة مختصرة دفعته للتفكير:

ـ قليل جداً. إذهب وأوصِ على اثنين وعشرين قميصاً أخرى. وها هو القسط الأول من رواتبك.

ونادى المركيز، وهو يخرج من الغرفة، رجلاً كبير السن:

ـ أرسان، ستقوم بخدمة السيد سوريل.

بعد دقائق، وجد جوليان نفسه وحيداً في مكتبة فخمة. كانت هذه اللحظة رائعة. وحتى لا يفاجئه أحد في غمرة انفعاله هذا، اختبأ في زاوية مظلمة صغيرة، يتأمل بلذة ظهر الكتب البراقة: استطيع قراءة كل هذا، فكيف يمكن أن أتضايق هنا؟ السيد ده رينال سيحس بالعار إلى الأبد لو رأى ما قام به المركيز من أجلي. فلنر الآن ما يجب أن أنسخه.

عندما انتهى جوليان من عمله، تجرّأ واقترب من الكتب. وأوشك أن يجن من الفرح عندما رأى كل كتب فولتير. ركض ففتح باب المكتبة حتى لا يفاجئه أحد. ثم بدأ يفتح كل مجلد من هذه المجلدات الأربعة والعشرين، بلذة وشغف. رائعة التجليد، من صنع أحسن مجلدي لندن. ولم يكن ينقص إلا هذا ليصل إعجاب جوليان إلى آخر الحدود.

وبعد ساعة، دخل المركيز، وتطلع إلى ما كتبه جوليان. ولاحظ باندهاش أن جوليان ارتكب خطأ لغوياً. هل معنى هذا أن كل ما قاله الأب لي عن سعة اطلاع جوليان لم يكن إلا خرافة!

قال لجوليان بلطف، وهو يحس بالخيبة:

ـ لست واثقاً من املائك؟

ـ أظن أملائي صحيح. ولم يفكر، للحظة، بالخطأ الـذي ارتكبه. كان يشعر بالهدوء من طيبة المركيز الذي ذكّره بجفاء السيد ده رينال.

وفكر المركيز: هذه التجربة وضعني فيها الأب ليست إلا وقتاً مهدوراً. كنت بحاجة إلى رجل جيد!

وقال المركيز لجوليان مشيراً إلى الكلمة المكتوبة خطأً:

ـ عنـدما تنتهي من كتـابـاتـك، ابحث في القـامـوس عن الكلمات التي لا تثق تماماً من صحة كتابتها.

في السادسة أرسل المركيز في طلبه، وتطلع بألم ظـاهر إلى جزمة جوليان:

ـ أخطأت. ألم أقل لك: عليك أن تلبس كل يوم في الخامسة والنصف؟

وتطلع جوليان إليه دون أن يفهم شيئاً.

ـ أقصد أن تلبس جواربك. سيذكرك أرسان بهـذا. اليوم أعذرك.

عندما انتهى المركيز من كلامه، أدخل جوليان إلى صالون

مزيّن بالذهب. كان السيد ده رينال في ظروف كهذه، يسرع الخطى، ليدخل قبله. وكبرياء سيّده القديم، جعلته يسير مع المركيز، فأحس بالألم في رجليه بسبب الحذاء. فقال المركيز في سرّه: «وغير مهذب أيضاً!». وقدمه إلى امرأة ذات قامة طويلة، وهيئة مهيبة، تشبة قليلاً السيدة ده موجيرون، زوجة نائب محافظة فريير، عندما رآها في حفلة غداء عيد سان شارل. ولم يسمع جوليان ما كان السيد ده لامول يقوله. أخذته روعة الصالون. ولم تكلف المركيزة مشقّة النظر إليه. وكان بعض الرجال، عرف جوليان بينهم، بسرور كثير كاهن أغد الشاب، الذي تفضل وتحدث إليه، قبل بضعة أشهر في احتفال براي العليا. وارتعب الكاهن الشاب، ولا شك، من نظرة جوليان الحنون، وكان هذا الأخير ثبتها عليه لحيائه، ولكن الكاهن لم يهتمّ أبداً بالتعرف على هذا الريفي.

خيّل لجوليان أن هؤلاء الرجال المجتمعين هنا يشعرون بنوع من الحزن والضغط؛ الجميع في باريس يتكلمون بصوت منخفض ولا يبالغون في الأشياء.

عند السادسة والنصف تقريباً، دخل الصالة شاب جميل ذو شارب، شاحب اللون، أنيق ذو رأس صغير، فقالت المركيزة، وكان الشاب يقبّل يدها:

ـ دائمًا تجعلنا ننتظر.

وفهم جوليان أن الشاب هو الكونت ده لامول. وجده ساحراً منذ الوهلة الأولى، فقال: هل من المعقول أن يكون مزاح هذا الرجل سبباً في هروبي من هذا البيت!

ولكثرة ما فحص جوليان الكونت، لاحظ أنه يلبس جزمة ومهمازاً كان عليّ أن أكون لابساً الحذاء، كفرد من طبقة أدنى. ثم انتقل الجميع إلى المائدة. وسمع جوليان المركيزة تتفوه بكلمة قاسية وهي ترفع صوتها قليلاً. ورأى في اللحظة ذاتها تقريباً، فتاة شقراء شابة، جميلة تجلس قبالته لم تعجبه، ولكنه عندما تطلع إليها بانتباه، فكّر في أنه لم ير في حياته عينين بهذا الجمال، ولكنها كانت تدلّ، في رأيه، على برودة هائلة. لاحظ جوليان أن فيهما تعبير الضجر الذي يتفحص، ثم أن عليه الجلوس مهيباً. وقال في نفسه: ومع ذلك فإن عيني السيدة ده رينال كانتا جميلتين. وكان الجميع يمتدحونهما، ولكن ليس من شيء مشترك بين عيني السيدة ده رينال وهاتين. لم يكن لدى جوليان الخبرة ليعرف أن عيني الآنسة ماتيلد، كما سمع اسمها، كانتا تلمعان من تأثير ضوء الشمعدان. عندما كانت عينا السيدة ده رينال تلمعان، فإنما من تأثير نيران الحب، أو بتأثير اشمئزاز عند سماعها حادثة خبيثة. وقبيل انتهاء الطعام، وجد جوليان الكلمات التي تعبر عن جمال عيني الآنسة ده لامول: أنهما عينان مشعّتان. وعلى كل حال كانت تشبه تماماً والدتها، التي كانت لا تعجبه

مطلقاً، فكف عن النظر إليها. ومقابل هذا كان يجد أن الكونت نوربير رائع من كل النواحي. كان جوليان مسحوراً فلم تخطر فكرة الغيرة والكراهية على ذهنه لأنه أغنى وأنبل منه.

وجد جوليان أن المركيز يوشك أن يحسّ بالضجر.

وعند تقديم الصنف الثاني من الطعام، قال المركيز لابنه:

ـ نوربير، أطلب منك الاهتمام بالسيد جوليان سوريل الذي أدخلته إلى هيئة أركاني، وأظنني سأجعل منه رجلاً، لا يرتكب أخطاء لغوية عندما يكتب؛ ثم قال المركيز لجاره:

ـ إنه أمين سرّي.

وتطلع الجميع إلى جوليان الذي أحنى رأسه قليلاً محيّياً نوربير. وسرّ هذا الأخير من نظرته.

كان لا بد للمركيز أن يتكلم على نوع الثقافة التي تلقاها جوليان، لأن واحداً من الندماء هاجمه وهو يتحدث عن هوراس، قال جوليان لنفسه:

ـ نجحتُ مع كاهن بزانسون، وأنا أتكلم بالضبط على هوراس، وهم كما يظهرون لا يعرفون غيره. وكانت هذه العملية سهلت عليه، لأنه قرر أن الآنسة ده لامول لن تكون امرأة في نظره. فمنذ كان في الدير، تعلّم ألا يخجل من الرجال

مطلقاً. ولكانت شجاعته تعود إليه كاملة لو كانت غرفة الطعام مزيّنة بروعة أقل: مرآتان علو الواحدة منها ثمانية أقدام، يتطلع فيهما ليرى وجه محدثه لا يزال يحسّ بالرهبة. ولم تكن جمله طويلة بالنسبة لريفيّ، وكانت عيناه جميلتين، الحياء المرتجف السعيد يزيد من بريقهما عندما يرد على محدثه. ووجده الجميع مقبولاً. وكان هذا النوع من الحديث يجعل الغداء الوقور مسلياً بعض الشيء. وأشار المركيز إلى محدّث جوليان أن يستفزه إلى آخر حدّ وهو يفكر: هل من المعقول أن يكون على إلمام بشيء؟

وردّ جوليان مولداً أفكاره، بعد أن تغلب على حيائه ليظهر هذه الأفكار الجديدة، قدمها دون لباقة أو مقدمات. لم يكن بعد يعرف اللغة التي يتحدث بها الباريسيون، وعرف الجميع أنه يتقن اللاتينية تماماً. وكان خصم جوليان عضواً في الأكاديمية، ويعرف، صدفة، اللغة اللاتينية. فوجد في جوليان لاتينياً كبيراً فلم يعد يخشى أثارة خجله بل أصبح يحاول فعلاً إحراجه. ونسي جوليان أخيراً، في حرارة المعركة، جمال أثاث غرفة الطعام وبدأ يعرض أفكاراً عن الشعراء اللاتين لم يقرأها محدثه في أي كتاب. وامتدح هذا الأخير جوليان، كرجل شريف. ولحسن الحظ، ثارت مناقشة حول ما إذا كان هوراس غنياً أو فقيراً، رجلاً لطيفاً يحسّ باللذة ولا يهتّم بالمال، يؤلف الاشعار ليتسلى كشابيل، صديق موليير ولافونتين، أو هو شقي فقير وشاعر مبدع

يعيش في البلاط ويؤلف أغنيات في يوم مولد الملك، كسوتاي، الذي اتهم اللورد بايرون. وتكلموا على حالة المجتمع في عهد أوغست وجورج الرابع، وكيف كانت الطبقة الأرستقراطية قوية في عهديهما، ولكن ميسان انتزع منها السلطة في روما، وهو الذي لم يكن إلا فارساً بسيطاً؛ وفي بريطانيا، جعلت هذه الطبقة من جورج الرابع حاكماً ضعيفاً. ويظهر أن هذه المحادثة خلصت المركيز من حالة التعب والضجر التي كان يوشك أن يغرق فيها مع بداية الطعام.

ولم يكن جوليان يلمّ بشيء من هذه الأسماء الجديدة مثل سوتاي واللورد بايرون وجورج الرابع، يسمعها للمرة الأولى. ولكن لم يفت أحد أن جوليان يتفوّق تماماً كلما جرى الحديث عن أشياء حدثت في روما، ويمكن استنتاجها من آثار هوراس ومارسيال وتاسيت. واستحوذ جوليان بلباقة على أفكار عديدة تعلمها من كاهن بزانسون، في المناقشة الشهيرة التي تمت بينه وبين الكاهن. ولم تلاق هذه الأفكار إلا كل وقع حسن.

عندما تعب الجميع من التحدث عن الشعراء، تفضّلت المركيزة، التي اتخذت لنفسها قاعدة الاعجاب بكل ما يسلّي زوجها، وتطلّعت إلى جوليان. قال الاكاديمي للمركيزة، وكان موجوداً حدّها:

ـ من المعقول جداً أن تخفي حركات هذا الشاب العوجاء رجلاً مثقفاً.

سمع جوليان شيئاً من هذا الحديث. وكانت الجمل المنمقة الجاهزة تناسب ربة البيت، فتبنّت هذه الجملة عن جوليان، ورأت أنها تصرّفت جيداً حين دعت الأكاديمي إلى الغداء. فكّرت قائلة: أنه يسلي المركيز.

٣
الخطوات الأولى

شدهني منظر هذا الوادي الفسيح يشع بالأنوار وبآلاف الرجال. لم يكن واحد منهم يعرفني، وكلهم أرفع مني مكانة؛ رأسي يوشك أن يضيع.

رينا

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، كان جوليان يقوم بنسخ الرسائل في المكتبة، عندما دخلت الآنسة ماتيلد من باب صغير، أخفي بعناية وراء ظهور الكتب. وبينما كان جوليان يعجب بهذا الاختراع، كان يظهر على الآنسة ماتيلد الاندهاش والخيبة لرؤيتها إياه هنا. وجدها جوليان قاسية الهيئة متكبرة

متعالية، تشبه الرجال. كانت معتادة على سرقة الكتب من المكتبة وقراءتها دون أن تُشعِر والدها بذلك؛ ولكن وجود جوليان، هذا الصباح، جعل مسارعتها للمكتبة غير ذات فائدة، وهي كانت آتية لأخذ الجزء الثاني من كتاب «أميرة بابل» لفولتير، تكملة مناسبة لتربية ملكية، دبنية من خريجات القلب الأقدس! كانت هذه الفتاة المسكينة، وهي لا تزال في التاسعة عشرة، بحاجة إلى لفتات فكرية لاذعة لتستطيع الاهتمام بأية رواية.

ظهر الكونت نوربير في المكتبة في نحو الساعة الثالثة، وكان قادماً لدراسة إحدى الجرائد، ليستطيع التحدث في السياسة هذا المساء؛ سُرّ كثيراً عندما رأى جوليان، وكان نسي وجوده. كان مهذباً معه، وعرض عليه الخروج في نزهة على الخيل.

ـ اعطانا والدي فرصة حتى الغداء.

فهم جوليان صيغة الجمع هذه، ووجده ساحراً. فقال للكونت:

ـ يا إلهي، سيدي الكونت، لو أردت أن أقطع شجرة من أربعة وعشرين قدماً، واردت تقسيمها وتحويلها إلى ألواح، اتجرأ فأقول أنني سأتدبر أمري. أما ركوب الخيل، فإنه لم يحدث لي أن قمت به إلا ستّ مرات في حياتي.

وقال نوربير:

ـ ستكون هذه هي المرة السابعة.

والحق أن جوليان كان يتذكرّ دخول الملك. . . إلى فريير، ويظن أنه يحسن ركوب الخيل. ولكنه عندما كان عائداً من غابة بولونيا يومها وقع، وسط شارع باك الجميل، وهو يحاول تجنب عربة، وتلطخ بالوحل. وسرّ لأن لديه بذلة أخرى.

على الغداء، أراد المركيز أن يوجه إليه الحديث فسأله عن نزهته. وأسرع نوربير فرد بكلمات عامة.

وقال جوليان:

ـ السيد الكونت مليء بالعطف عليّ، وأنا أشكره وأقدّر بادرته. تفضل وأعطاني ألطف وأجمل حصان. ولكنه على كل حال لم يكن يستطيع أن يربطني بالحصان، وبما أنه لم يتخذ هذا الاحتياط وقعت وسط هذا الشارع الطويل قرب الجسر.

حاولت الآنسة ماتيلد عبثاً أن تخفي ضحكتها، ثم دفعها فضولها لتطلب تفاصيل الحادثة. وتخلص جوليان بكثير من البساطة، وأظهر جاذبية دون أن يشعر.

قال المركيز إلى الاكاديمي:

ـ إنتظر الكثير من هذا القسيس الفتى. يتصرف ريفي بسيط

بهذا الشكل في حالات كهذه! هذا ما لم أره مطلقاً ولن أراه في المستقبل، أضف إلى هذا أنه تحدث عن سوء حظه أمام سيدات!

كان حديث جوليان سر الجميع حتى أن الآنسة ماتيلد، سألت شقيقها، في نهاية الطعام وبعد أن انتقل الحديث إلى مواضيع أخرى، عن تفاصيل الحادثة التعيسة. ولما طالت هذه الأسئلة، وكانت عينا جوليان تلاقيان عينيها مرات عديدة، تجرأ وأجاب مباشرة، رغم أن السؤال لم يكن موجهاً إليه، ثم انتهى الأمر بالثلاثة إلى الضحك كما ثلاثة شبان يسكنون قرية في آخر الغابة.

في اليوم التالي، حضر جوليان درسَيْ لاهوت، وعاد بعد ذلك ليكتب عشرين رسالة. وجد حدّه في المكتبة، شاباً، استقر باعتناء شديد، ولكن هيئته تدل على المسكنة ووجهه على الحسد.

دخل المركيز. فقال لهذا الزائر الجديد بلهجة قاسية:

ـ ماذا تفعل هنا أيها السيد تانبو؟

فرد الشاب وهو يبتسم:

ـ اعتقدت . . .

ـ كلا أيها السيد، لا تعتقد. ليست إلا تجربة، ولكنها فاشلة.

ونهض تـانبـو الشـاب بغضب واختفى. إنـه ابن شقيق الاكاديمي، صديق السيدة ده لامول. كان يعدّ نفسه للآداب. وكان استحصل الاكاديمي على وعد من المركيز أن يتخذه أمين سر له. ولما عرف تانبو الذي كان يعمل في غرفة بعيدة، بما صنع المركيز مع جوليان، أراد أن يشاركه، فـأتى واستقر إلى مكتبه في المكتبة.

في الرابعة تجرأ جوليان، بعد تردد طويل، على أن يظهر في غرفة الكونت نوربير؛ وكان هذا ذاهباً لركوب الخيل، فأحس بالحرج لأنه كان مهذباً. فقال لجوليان:

ـ أعتقد أنك ستذهب قريباً إلى مكان التدريب على ركوب الخيل، وبعد أسابيع سأكون مسروراً في التنزّه معك.

ـ كنت أريد أن أتشرف بشكرك على ما قمت به نحوي.

وأضاف جوليان بهيئة رزينة:

ـ صدّق يا سيدي إنني أحس تماماً بما أنا مدين لك. فإذا لم يكن حصـانك مجـروحاً بسبب قلة مهـارتي أمس، وإذا كـان جاهزاً، أودّ أن أمتطيه هذا الصباح.

ـ وحقّ إيماني يا عزيزي سوريل، ستركبه على مسؤوليتك.

فكر أنني قلت لك كل الاعتراضات التي يقتضيها الحذر، ولكن الساعة الآن هي الرابعة ولا وقت لدينا لنضيعه.

قال جوليان للكونت الشاب بعد أن استقر على ظهر الحصان:

ـ ماذا يجب أن أفعل حتى لا أقع؟

ورد نوربير وهو ينفجر ضاحكاً:

ـ عدة أشياء، مثلاً أن تمسك بالجسم كله.

وسار جوليان خبباً. كانا في ساحة لويس الخامس عشر، فقال نوربير:

ـ آه! أيها الشاب المتهور، ثمة كثير من العربات، والكثير يقودونها من غير حذر! فإذا سقطت، دواليبها ستمر على جسدك. ولن يجازف أحدهم بإيلام فم حصانه ليوقفه بسرعة.

ورأى نوربير جوليان يكاد يقع أكثر من عشرين مرة، ولكن النزهة انتهت دون وقوع حادث. وعندما دخلا قال الكونت لشقيقته:

ـ أقدم لك كاسر رقبته الشجاع.

على الغداء، امتدح نوربير شجاعة جوليان وهو يتكلم إلى

والـده، من طرف الـطاولة إلى الـطرف الآخر، وكـانت هذه الشجاعة كـلّ ما يمكن أن يمتـدح في طريقـة ركوب جـوليان للخيل. ورأى الكونت الشاب الناس توقف خيولها هذا الصباح لتشاهد سقوط جوليان وتسخر منه علانية.

رغم كل هذه المجاملات، أحس جوليان بسرعة أنه معزول تماماً وسط هذه العائلة، فكانت كل التصرفات في نظره غريبة. وسبّبت هذه الأخطاء سرور كل الخدم.

كان الأب بيرار ذهب إلى أبرشيته وهو يفكر: إذا كان جوليان نبتة ضعيفة فليضمحل، أما إذا كان رجلاً شجاعاً، فليتدبر أمره بنفسه.

٤
قصر ده لامول

ماذا يفعل هنا؟ هل يحس بالاعجاب؟ هل يظن أنه يعجب أحداً؟

رونسار

كان كل شيء غريباً على جوليان في صالون قصر ده لامول النبيل، وكان هذا الفتى، الشاحب يلبس السواد، يظهر بدوره، غريباً للاشخاص الذين كانوا يعيرونه بعض الاهتمام. اقترحت

السيدة ده لامول على زوجها أن يرسله مهمات أيام يتناول بعض الأشخاص الطعام عندهم. وردّ المركيز:

ـ أحس بالرغبة لتكملة التجربة إلى نهايتها. الأب بيرار يدّعي أننا نخطىء بإهانة كبرياء الناس الذين نقبلهم إلى جانبنا. لا يمكننا الاستناد إلا إلى أشياء حسيّة. هذا الشاب لا يناسبنا بهيئته المجهولة، وهو على كل حال أبكم أصم.

قال جوليان لنفسه: لكي لا أضيع، عليّ أن أكتب أسماء كل الشخصيات التي أراها في هذا الصالون، وأن أكتب شيئاً عن طبائع كل شخصية.

ووضع في السطر الأول أسماء خمسة أو ستة من أصدقاء المنزل، كانوا يخصونه ببعض المسايرة، ظناً منهم أن المركيز يحميه. وكان هؤلاء من محترفي المدح، لفقرهم وسوء حالتهم؛ ولكن هذه الطبقة من البشر كما نجدها اليوم في الصالونات الارستقراطية، لم تكن تمتدح الجميع على السواء. وتحمّل أحدهم قسوة المركيز الذي ثار ضدّ كلمة قاسية وجهتها إليه السيده ده لامول.

كان كثير من الكبرياء والضجر في طباع أسياد البيت؛ وكانوا معتادين على الاهانة ليتسلوا عن ضجرهم، وحتى يستطيعوا الحصول على أصدقاء حقيقيين. ولكنهم، باستثناء أيام المطر أو

ساعات الضجر القاتل، وهي نادرة، كانوا على الاجمال كاملي التهذيب.

وإذا هجر القصر هؤلاء الخمسة أو الستة الذين يسايرون جوليان، فالمركيزة ده لامول ستكون عرضة لفترات طويلة من الوحدة، والوحدة بشعة في نظر سيدات هذه الطبقة، إنها دليل على فقدان الجاذبية.

كان المركيز كاملاً في معاملة زوجته. يحرص على أن يكون صالونها عامراً دائمًا؛ ولكن ليس بزملائه حماة فرنسا، إذ كان هؤلاء في نظره غير جديرين بأن يكونوا أصدقاء له، وغير مرحين ليقبلوا في صالون زوجته كأفراد طبقات أدنى من طبقته.

لم يعرف جوليان هذه الأسرار إلا بعد وقت طويل. فهذه السياسة التي تهدف إلى صيانة البيوتات البورجوازية لم تكن متداولة إلا في ساعات اليأس الذي تشعر به هذه الطبقة أحياناً.

وكانت هذه سلطة الحاجة إلى التسلية في هذا القرن الضجر: المدعوون يغادرون مباشرة، حتى أيام الولائم، عندما يغادر المركيز الصالون. وكان للجميع حرية أن يتحدثوا عن كل شيء عدا السخرية من الله والقساوسة والملك والطبقة الحاكمة والفنانين الذين يحميهم القصر، ثم عدم التحدث عن بيرانجيه

وجرائد المعارضة وفولتير وروسو، وأخيراً عدم التحدث في السياسة.

ولم يكن الغنى أو النبل مبرراً للنضال ضد شريعة الصالونات هذه، فكانت أقل فكرة حيّة تظهر كأنها فظاظة. ورغم اللهجة الطيبة والتهذيب الكامل، والرغبة في الظهور بمظهر الاعجاب، كان الضجر على كل الجباه. وكان الشبان، خوفاً من الكلام على أشياء مشبوهة أو تدل على قراءات ممنوعة، يسكتون بعد أن يتبادلوا كلمات قليلة عن روسيني وعن الطقس.

ولاحظ جوليان أن الحديث كان يدور عادة مع فيكونتين وخمسة بارونات تعرف إليهم المركيز ده لامول إبان الهجرة، يتمتعون بمدخول بين ستة آلاف وثمانية آلاف ليرة، ويميل أربعة منهم إلى تأييد جريدة «الكوتيديان» وثلاثة إلى «غازيت ده لافرانس». وكان لا بد لأحدهم أن يتحدَّث عن بعض حوادث القصر حيث كانت كلمات الاعجاب تكثر. ولاحظ جوليان أن هذا يحمل خمس مداليات بينما الآخرون ثلاثاً.

وكان يرى في الغرفة الخلفية، عشر خدم في ملابسهم الرسمية، والمثلّجات والشاي تقدم طيلة السهرة، كل ربع ساعة، وعند الثانية عشرة، كان يقدم للحضور نوع من العشاء مع الشمبانيا.

هذا ما كان يجعل جوليان يتحمل بعض الأحيان، فيبقى إلى نهايـة السهرة؛ لم يكن يفهم تمـاماً كيف يمكن الاستمـاع إلى المحادثة العادية في هذا الصالون الرائع الجميل. كـان يتطلع بعض الأحيان، إلى وجوه المتحدثين ليرى إذا كانوا لا يسخرون مما يقولونه. قال ده ميتر في كتابه، وكان يحفظه غيباً، أشياء أحسن من هذا الف مرة، وهو مع ذلك مثير للضجر.

لم يكن جوليان وحده يحس بالاختناق المعنوي هـذا. كان البعض يتعزون بالشراب، والبعض الآخر بـالتشدق في نهايـة السهرة إنهم يخرجون من قصر ده لامول، أو بأنهم عرفوا أن روسيا الخ . . .

وفهم جوليان من أحد الذين يسايرونه، أن السيدة ده لامول كافأت، منذ تسعة أشهر، البارون المسكين لوبورغينيون عـلى حضوره الدائم، بتعيينه محافظاً بعد أن كان نائب محافظ منذ حكم الاصلاح.

وكان هذا الحدث الكبير سبباً في حماس هؤلاء السادة الذين يتضايقون من بعض الاشياء، وجعلهم لا يتضايقون من أي شيء؛ فكان عدم الاحترام لا يظهر إلا نادراً وبشكل مباشر. لكن جوليان، سمع بعض محاورات قصيرة، قاسية، على الذين يجلسون في الصالون، بين المركيز وزوجته. وكان هؤلاء النبلاء لا يخفـون احتقارهم الحقيقي لكـل من لا يتحدّر من أنـاس

«يركبون عربات الملك». ولاحظ جوليان أن كلمة «الحروب الصليبية» كانت الكلمة الوحيدة التي تعطي وجوههم تعبير الرزانة العميقة الممزوجة بالاحترام. الاحترام العادي كان دائمًا مشوباً ببعض المسايرة.

لم يكن جوليان يهتّم، وسط هذه الروعة وهذا الضجر، إلا بالمركيز ده لامول؛ استمع إليه بسرور يحتج، ذات يوم، بأنه لم يكن له دخل في ترقية المسكين لو بورغينيون. وعرف جوليان الحقيقة من الأب بيرار: كانت هذه الالتفاتة من عمل المركيزة.

ذات صباح، بينما كان الأب بيرار يعمل مع جوليان في مكتبة المركيز، حول دعوى ده فريلير المزمنة، قال جوليان فجأة:

ـ تناوُلُ الطعام دائمًا مع المركيزة، هل هو واجب عليّ يا سيدي، أم أنه فضل يمنح لي؟

ورد الأب:

ـ إنه لشرف كبير! ولم يستطع السيد ن... الاكاديمي أن يحصل عليه لقريبه السيد تانبو، رغم أنه يداوم على الحضور منذ خمسة عشرة عاماً.

ـ إنه بالنسبة لي أشق قسم من عملي. كنت أحس بضيق أقل في الدير. أرى الآنسة ده لامول تتثاءب، وهي معتادة على

مجاملات أصدقاء المنزل. أخاف أن أنام. أرجوك أن تحصل لي على إذن بالذهاب للغداء بأربعين قرشاً في أي مطعم مظلم.

كان الأب، وهو وصوليّ فعلاً، يحس تماماً بشرف الغداء مع سيد كبير؛ وبينما كان يجهد ليُفهم جوليان هذا الشعور، سمعت ضجة خفيفة جعلتهما يلتفتان. رأى جوليان الآنسة ده لامول تستمع، فاحمرّ وجهه. كانت قادمة لتفتش عن كتاب، وسمعت كل شيء، فأحست ببعض الاعجاب نحو جوليان. وفكرت: هذا الشاب لم يخلق راكعاً، كهذا الأب المسكين. يا الله! كم هو بشع.

عند الغداء، لم يتجرأ جوليان على التطلع إلى الآنسة ده لامول، ولكنها وجهت إليه الحديث. وحثّته على البقاء، إذ كانوا يومها بانتظار أشخاص عديدين. ففتيات باريس لا يعشقن المسنين، وخصوصاً عندما يكونون غير أنيقين. ولم يكن جوليان بحاجة إلى كثير من الملاحظة ليرى أن زملاء السيد لوبورغينيون الباقين في الصالون، كانوا يتشرفون بأن يكونوا عرضة لنكات الآنسة ده لامول. وفي ذاك اليوم، سواء كان لديها الاستلطاف أم لا، كانت قاسية على مسببي الضجر.

كانت الآنسة ده لامول نواة حلقة صغير تتشكل كل مساء تقريباً وراء كنبة المركيزة. وهناك كان المركيز ده كروازنوا،

والكونت ده كايلوس والفيكونت ده لوز واثنان أو ثلاثة ضباط شباب من أصدقاء نوربير أو اخته. يجلسون على كنبة كبيرة زرقاء، وعلى الطرف المواجه لمكان ماتيلد المشرقة، كان جوليان يجلس بصمت على كرسي صغير من القش. كان محسوداً من الجميع على هذا المركز المتواضع. وكان نوربير يُبقي أمين سر والده عمداً فيه بتوجيه الحديث له بعض الأحيان أو بتسميته مرتين أو ثلاث مرات كل مساء. وسألته، ذلك المساء، الآنسة ده لامول عن مقدار علو الجبل الذي عليه قلعة بزانسون. فلم يكن يستطيع أن يقول ما إذا كان هذا الجبل أعلى أو أقل علواً من مونمارتر. وكان غالباً ما يضحك من أعماق قلبه لما يقال في هذه الحلقة الصغيرة، ولكنه كان يحس بعجزه عن اختراع أشياء مماثلة. إنها لغة يستطيع أن يفهمها ولكنه لا يستطيع على الاطلاق مجاراتهم فيها.

وكان أصدقاء ماتيلد، يومها، في عداء مستمر مع الناس الذين يصلون إلى هذا الصالون الفسيح. ونال أصدقاء البيت القسط الأول من هذا العداء لأنهم كانوا معروفين أكثر من الباقين. لكنّ جوليان كان متنبهاً، يهتم بكل شيء، بحقيقة الأمر أو بطريقة المزاح.

قالت ماتيلد:

ـ آه! ها هو السيد ديكولي، فقد شعره. فهل يستطيع أن يصل إلى المحافظة بعبقريته؟ يعرض هذه الجبهة الصلعاء التي يقولها مليئة بالأفكار الرفيعة.

وقال المركيز ده كروازنوا:

ـ إنه رجل يعرف بلدان الأرض، يأتي إلى بيت عمي الكاردينال، وهو قادر على تغذية كذبه وصيانته لأعوام كاملة متتالية، أمام أصدقائه، وهم يبلغون المئتين أو الثلاثمائة. وهو يعرف كيف يغذي الصداقة. إنها موهبته. كان قابعاً، كما ترونه الآن، أمام باب أحد أصدقائه منذ السابعة صباحاً، في هذا الشتاء.

وقد يحدث أن يتخاصم مع البعض من وقت لآخر، فيكتب سبع أو ثماني رسائل حول المخاصمة؛ ثم يتصالح، فيكتب سبع أو ثماني رسائل للتعبير عن صداقته. وهو يقوم بكل هذا، نتيجة لميل صريح مخلص عند هذا الرجل الشريف الذي لا يحفظ في قلبه الكبير أي ضغينة. وتظهر هذه المناورة عندما يكون بحاجة إلى بعض الأشياء. ثمة واحد من مبعوثي عميّ الكبار، يبدع في وصف حياة السيد ديكولي. سأحضره إليكم.

وقال الكونت ده كايلوس:

ـ ياه! لا أعتقد بهذا الكلام، إنها «عداوة كار» بين الناس الفقراء.

وردّ المركيز:

ـ التاريخ سيخلد اسم ديكولي؛ أقام، مع الأب برات، حكم الاصلاح بمعونة السيدين تاليران وبوزودي بورغو.

وقال نوربير:

ـ تعرف هذا الرجل بالملايين، وأنا لا أعتقد أنه أتى هنا ليمتدح اشعار والدي، وهي غالباً رديئة.

سبق لنوربير أن ناداه يوماً من طرف المائدة صارخاً:

ـ كم مرة خنت فيها أصدقاءك سيّد ديكولي؟

وقالت الآنسة ده لامول:

ـ هل خان حقاً؟ ومن منا لم يخن؟

وقال الكونت ده كايلوس إلى نوربير:

ـ ماذا! تستقبلون هنا السيد سنكلير، المتحرر الشهير: يا للشيطان، ماذا أتى يفعل هنا؟ يجب أن أقترب منه، أن أحدثه، أن أجعله يتحدث؛ يقال أنه مرح جداً.

وقال السيد ده كروازنوا:

ـ وكيف تستقبله والدتك؟ عنده آراء غريبة، وفيرة، ومتحررة. . .

وقالت الآنسة ده لامول:

ـ انظروا، ها هو الرجل المتحرر يحيّي السيد ديكولي وهو ينحني حتى يكاد يلامس الأرض ثم يأخذ يده. أوشكت على الظن إنه سيرفعها إلى شفتيه.

ورد السيد ده كروازنوا:

ـ لا بد أن السيد ديكولي على صلة حسنة مع الحكومة، أكثر مما نتصور.

وقال نوربير:

ـ أتى سنكلير هنا لأنه يريد أن يصبح عضواً في الاكاديمية. أنظر إليه يا كروازنوا كيف يحيّي البارون لـ. . .

ورد السيد ده لوز قائلاً:

ـ سيكون أقل صغارة لو ركع على ركبتيه.

وقال نوربير:

ـ عزيزي سوريل، أنت تملك الذكاء، ولكنك آت من الجبال، فحاول ألا تحيي مطلقاً كما يحيي هذا الشاعر الكبير،

حتى ولو كنت تحيي الرب الآب.

وقالت الآنسة ماتيلد:

ـ ماذا يهم الاسم! قال لنا هذا منذ أيام. تصور إذن الدوق ده بوبّون وهو يُقَدَّم لأول مرة. ما ينقص الجمهور في رأيي هو اعتياد الأمر...

وترك جوليان مجاورة الكنبة، وهو لا يحس. بالنعومة الساحرة في هذه السخرية الخفيفة، فلم يضحك لهذا الهذر. لم يكن يرى في كلمات الشبان هذه إلا لهجة الاستخفاف العام وهذا صدمه بل أن خفره الريفي أو الانكليزي كان يذهب به فيعتقد أن هذا دليل الحسد. وفي هذا الأمر كان مخطئاً حتمًا.

قال لنفسه: الكونت نوربير سيكون ولا شك سعيداً إذا استطاع أن يكتب في حياته صفحة كالتي يكتبها السيد سنكلير.

وكان جوليان رأى الكونت يمزق للمرة العشرين مسودة رسالة كان يريد كتابتها لكولونيله.

واقترب جوليان تباعاً من كل الحلقات، لا يلاحظه أحد، نظراً لقلة أهميته، ويتّبع عن بُعد البارون باتون ويريد الاستماع إليه. كان هذا الرجل الذكي يظهر حزيناً مضطرباً، ورأى جوليان أنه لم يحس بالراحة إلا عندما وجّه بعض الجمل

اللاذعة. وخيل لجوليان أن رجلاً من هذا النوع بحاجة إلى فضاء أرحب.

البارون لا يستطيع أن يقول كلمات، بل لا بد له من التلفظ على الأقل بأربع جمل كل منها مؤلفة من ستة أسطر، ليكون باستطاعته أن يلمع. وقال أحدهم خلف جوليان:

ـ هذا الرجل يؤلف، لا يتكلم.

فالتفت واحمرّ وجهه من الفرح عندما سمع أسم الكونت شالفيه، وهو من أظرف رجال العصر. وصادف جوليان اسمه مراراً في «مذكرات سانت هيلانة» وفي بعض المقاطع التاريخية التي أملاها نابليون. كان الكونت شالفيه موجزاً في كلامه، وكانت تلميحاته كالبرق، صائبة، حية، عميقة. فإذا تكلم في قضية، احرز النقاش تواً بعض التقدم. كان يدخل في حديثه الوقائع. والاستماع إليه مجلبة للسرور. كان في سياسته جريئاً ساخراً.

وقال لرجل يحمل ثلاث مداليات، بلهجة تدل على السخرية:

ـ أنا مستقلّ. لماذا تريد أن يكون رأيي اليوم هو نفسه قبل ستة أسابيع؟ في هذه الحالة تكون آرائي مستبدّة بي.

وعبس أربعة شبان وقورين كانوا يحيطون به، لا يحبون المزاح. وانتبه الكونت إلى أنه ذهب بعيداً. رأى السيد الشريف بَلاند، وهو موسوس بالفضيلة، وبدأ في التحدث إليه. واقترب جوليان، وفهم أن بلانّد المسكين سيقتل قريباً. فهو رغم بشاعته الغريبة، ولسمعته الحميدة، تزوج من امرأة غنية جداً ماتت، ثم تزوج ثانية امرأة غنية لم يعد أحد يراها. وهو يتمتع بمدخول قدره ستون ألف ليرة، ولهذا فهو محاط بالكثير من الكذابين. تكلم الكونت معه على كل هذا دون شفقة. وسرعان ما التفت حولهم مجموعة من ثلاثين شخصاً. وضحك الجميع، حتى الشبان الوقورون الأربعة، أمل العصر.

وفكر جوليان: لماذا يأتي إلى قصر ده لامول ليكون موضع السخرية؟.

واقترب من الأب بيرار ليسأله.

انسحب السيد بلانّد، فقال نوربير:

ـ حسناً! انسحب الآن أحد المتجسسين على والدي، لم يبق غير الاعرج الصغير نابييه.

وفكر جوليان: هل هذا هو مفتاح السر؟ ولكن لماذا يستقبل المركيز السيد بلاند، في هذه الحالة؟

وعبس الأب بيرار القاسي في زاوية من الصالون وهو يستمع إلى الخدم يعلنون أسماء القادمين. وقال:

- هذا الصالون إذن كهف، كما كان يقول باسيل. لا أرى إلا أشخاصاً مشبوهين.

لم يكن الأب بيرار يعرف تماماً الطبقة الراقية. ولكنه سمع من اصدقائه الجانسينيين أموراً صحيحة عن هؤلاء الرجال الذين يصلون هذه الصالونات بذكائهم وتأييدهم لكل الأحزاب، أو عن طريق ثرواتهم الفاحشة.

ورد على اسئلة جوليان، لبضع دقائق، بكلام كثير، ثم توقف فجأة وهو يأسف لاضطراره أن يقول أشياء سيئة عن جميع الحضور، فيتعرض للخطيئة. كانت حياة الأب بيرار، كجانسيني وعصبي، معركة لأنه كان يؤمن بواجبه المسيحي.

قالت الآنسة ده لامول، عندما اقترب جوليان من الكنبة:

- أي وجه يملكه الأب بيرار هذا!

أحسّ جوليان بالانتفاض، ولكن الآنسة كانت محقّة في قولها. كان الأب بيرار من أشرف رجال الصالونات، ولكن وجهه المتغضن تحركه تيارات وجدانه كانت تجعله كريهاً في هذه اللحظة.

وفكّر جوليان: هل أصدق بعد هذا تعبيرات الوجه؟ وجه الأب بيرار يظهر قاسياً حتى في الساعات التي يريد أن يعبر فيها عن العطف، أما وجه تابيبه هذا، المعروف أنه جاسوس، فهو يعبر عن السعادة الصافية الهادئة. ولكن الأب بيرار تخلى عن بعض تزمته: أتى بخادم يلبس الآن ملابس لائقة جداً.

ولاحظ جوليان حركة غريبة في الصالون: اتجهت الأنظار نحو الباب، وران بعض الصمت المفاجىء. أعلن الخدم عن وصول البارون ده تولّي الشهير. تقدم جوليان ورآه جيداً. كان البارون يرئس إحدى الحلقات: وخطرت على باله فكرة رائعة في إخفاء مربعات الورق الصغيرة التي تحمل اسم واحد من المتخاصمين. وحتى لا يلاحظ أحد ذلك، أبدل تدريجياً بقطع أخرى تحمل اسمًا يعجبه. وتنبّه بعض المنتخبين لهذه المناورة فسارعوا إلى تهنئة البارون ده تويللي. وكان الرجل الطيب شاحباً أثر هذه العملية. وتلفّظ البعض بكلمة الاشغال الشاقة. تلقاه السيد ده لامول ببرود فانسحب البارون المسكين.

قال الكونت شالفيه:

ـ إذا تركنا سريعاً، فليذهب إلى كونت.

وضحك الجميع.

وسط هذا الحشد من الأسياد الكبار والمتآمرين المشوهين في

غالبيتهم، اللاذعين في نقدهم، ممن أتوا هذا المساء إلى صالون السيد ده لامول (ثمة أشاعة ترشحه للوزارة) كان تانبو يجرب أولى أسلحته. فإذا لم تكن لديه بعد لباقة المتمرنين، كان يعرّض هذا بطاقتِهِ على الكلام.

قال تانبو لحظة اقترب جوليان من مجموعته:

ـ لماذا لا يُحكم هذا الرجل بالحبس عشرة أعوام؟ الزواحف يجب أن تحتجز في حفر عميقة؛ من الواجب أن نجعلها تموت في الظل، وإلا ظهر سمها واشتد خطره. ما الفائدة من الحكم عليه بغرامة ألف ليرة؟ إنه فقير، صحيح، ولكن حزبه سيدفع عنه. من الواجب أن يحكم عليه بغرامة خمسمائة فرنك وبعشر سنوات يقضيها في حفرة عميقة.

وفكر جوليان: يا إلهي! من هذا الوحش الذي يتحدثون عنه؟ كان يتابع بإعجاب لهجة زميله المعبرة وحركاته المتتابعة. وكان وجه قريب الاكاديمي، الضعيف الصغير، بشعاً في هذه اللحظة. وفهم جوليان بعد قليل أن الحديث كان يدور حول أكبر شعراء العصر. وصرخ جوليان بصوت مسموع

ـ آه أيها الوحش.

واغرورقت عيناه بالدمع. ثم تابع:

ـ آه! أيها المدعي الصغير، سأرد لك كلامك هذا.

وفكر: مع ذلك، ها هم الأطفال الضائعون في الحزب الذي يرأسه المركيز. كان حرياً بهذا الرجل الشهير الذي يهُاجم الآن، أن يجمع المداليات والإنعامات لو باع نفسه، ولن أقول لوزارة السيد ده نرفال، بل إلى أحد وزرائه الشرفاء الذين تتابعوا على الحكم.

واشار الأب بيرار إلى جوليان من البعيد. قال له السيد ده لامول كلمة منذ قليل. ولكن جوليان كان في هذه اللحظة يستمع، مخفضاً عينيه، إلى صراخ أحد القساوسة. وعندما استطاع أخيراً أن يقترب من صديقه، الذي كان عرضة لهجمات الصغير تانبو الكريه. وكان هذا الوحش الصغير يضايقه متعمداً، لأنه في رأيه سبب الحفاوة بجوليان، فأتى يحاول التقرب منه.

وقال رجل الأدب الصغير هذا وهو يتكلم على اللورد المحترم هو لانّد، مستعملاً تعابير توراتية:

ـ متى يخلّصنا الموت من هذه العفونة القديمة؟

كانت حسنة تانبو الوحيدة أنه يعرف تماماً حياة كل رجل حي. راجع بسرعة أسماء الرجال الذين يطمحون إلى بعض النفوذ تحت حكم ملك إنكلترا الجديد.

وتبع جوليان الأب بيرار الذي كان يسير نحو صالة قريبة:

ـ المركيز لا يحب الذين يدّعون الأدب. انذرك: إنه الشيء الوحيد الذي يكرهه. أدرس إذا أردت اللاتينية واليونانية وتعلّم تاريخ المصريين إذا استطعت، والفرس، ولكن لا تكتب اية صفحة بالفرنسية، وعلى الأخص في ما يتعلق بمواضيع خطيرة وأعلى من مركزك في الدنيا. سيدعوك دائمًا مدّعياً للأدب وسيجعلك موضع السخرية. عليك، وأنت في بيت سيد كبير، أن تعرف كلمة الدوق ده كاستري عن دالمبير وروسو: «يريد أن يفكر في كل شيء، ولا يملك الألف ليرة مدخولاً».

وفكر جوليان: كل شيء يُعرف هنا، كما في الدير! كتب ثماني أو عشر صفحات مفصلة. نوع من المديح التاريخ للطبيب الضابط العجوز الذي جعل منه رجلاً كما يقول.

قال جوليان لنفسه: ولكن هذا الدفتر كان دائمًا في مكان أمين مقفل!

صعد إلى غرفته واحرق ما كتبه وعاد إلى الصالون. وكان غادره الرجال المدّاحون ولم يبق إلا العقلاء.

حول الطاولة التي كانت عامرة بما لذ وطاب، سبع أو ثماني نساء نبيلات عريقات، متدينات، متكلفات، تتراوح أعمارهن بين الثلاثين والخامسة والثلاثين. ودخلت زوجة الماريشال ده

فرفاك البارزة تعتذر عن تأخرها. وكانت الساعة نحو... منتصف الليل. ذهبت وجلست قرب المركيزة. وأحس جوليان بانفعال عميق: كانت نظراتها تشبه تماماً نظرات السيدة ده رينال.

حلقة الآنسة ده لامول لا تزال مأهولة. وكانت هي منهمكة مع أصدقائها في السخرية من الكونت ده تالير المسكين، ابن ذلك اليهودي الشهير بثروته جمعها من إعارته للملوك الأموال التي كانت تسمح لهم بمتابعة الحرب ضد الشعوب. ومات اليهودي منذ وقت قصير تاركاً لابنه مئة ألف ليرة شهرياً واسمًا، للأسف، جد معروف! كان هذا الوضع الفريد يقتضي بساطةً في الطباع أو قوة هائلة في الارادة.

ولسوء الحظ كان الكونت رجلاً عادياً كثير الادعاء لكثرة المبخرين من حوله.

وادعى السيد ده كايلوس أن الكونت مخوّل أن يطلب يد الآنسة ده لامول كان يغازلها المركيز ده كروازنوا، الذي أصبح دوقاً مع مدخول مئة ألف ليرة.

وقال نوربير باشفاق:

ـ آه! لا تتّهمه بأنه يملك أيّة ارادة.

فعلاً: كان ينقص الكونت ده تالير القدرة على الارادة. ولو

كانت لديه هذه القدرة لكان يستحق أن يكون ملكاً. ولكنه كان يستمع إلى نصيحة الجميع، ولم تكن لديه الجرأة في السير حتى نهاية إحدى النصائح.

قالت الآنسة ده لامول إنّ وجهه وحده كان يكفي ليوحي لها بالسرور الأبدي كان فيه مزيج من الحزن والخيبة؛ ولكن المرء يلاحظ من وقت لآخر، علامات الاهتمام ولهجة الحزم التي يجب أن تكون لدى أغنى رجل في فرنسا، خصوصاً عندما يكون أنيقاً ولا يبلغ إلا السادسة والثلاثين. وقال السيد ده كروازنوا: إنه يهين بحياء. سخر منه الكونت ده كايلوس ونوربير ورجلان أو ثلاثة ذوو شوارب، دون أن يشعر بذلك، ثم صرفوه عندما دقت الساعة الواحدة.

وقال نوربير:

ـ هل تنتظرك جيادك العربية على الباب في وقت كهذا؟

ورد الكونت ده تالير:

ـ كلا. ربطتها ربطة جديدة أقل كلفة. فحصان الميسرة يكلفني خمسة آلاف فرنك، بينما لا تزيد كلفة حصان الميمنة عن مئة ليرة. أرجوك تصدّق أنني لا أسرجهم إلا في الليل. حب الواحد مشابه تماماً للآخر.

وكانت إشارة نوربير جعلت الكونت يفكر أنه من غير الجدير برجل مثله أن يتعلق بهواية الخيل، وعليه ألّا يترك جياده تحت المطر، فرحل، وخرج الباقون بعده وهم يسخرون منه.

فكر جوليان وهو يسمع ضحكاتهم على الدرج: هكذا إذن، قيّض لي أن أرى الجانب الآخر من حالتي، وما ينتظرني في المستقبل. لا أملك عشرين ليرة ذهبية، ووجدت نفسي الآن أمام رجل مدخوله في الساعة عشرون ليرة ذهبية... ومع ذلك كان الجميع يسخرون منه... إن منظراً كهذا يشفي من الحسد.

٥
الحساسية وسيدة عظيمة متدينة

إن فكرة حية قليلاً تظهر بمظهر الفظاظة،
طالما بقينا معتادين على الكلمات الجوفاء.
والويل لمن يخترع وهو يتكلم.

فوبلاس

بعد أشهر من التجربة، اين وصل جوليان يوم كان سيد البيت يعطيه القسط الثالث من رواتبه. كلفه السيد ده لامول بمتابعة إدارة أراضيه في بريتانيا والنورماندي. وكان جوليان يسافر

إلى هناك مرات عديدة. ويرئس المراسلات التي تتعلق بتلك الدعوى الشهيرة على الأب ده فريلير، كما أفاده بذلك الأب بيرار.

وجوليان، استناداً إلى بعض النقاط القصيرة يكتبها المركيز على هامش العديد من الأوراق التي يستلمها، كان يدبّج رسائل يوقعها المركيز كلها في أكثر الأحيان.

في مدرسة اللاهوت، كان أساتذته يشكون من قلة حضوره، ولكنهم مع ذلك كانوا ينظرون إليه كواحد من أحسن تلاميذهم. وكانت أعماله المختلفة واستغراقه الطموح المتألم ذهبت بألوان جوليان التي تدل على الصحة كما احضرها معه من الجبل. كان شحوبه جدارة برأي زملائه الجدد في الدير. وجدهم أقل خبثاً وأقل صغارة أمام المال من زملائه في بزانسون. أما هم فكانوا يعتقدون أنه مصاب بداء الصدر. وكان اعطاه المركيز جواداً.

خوفاً من أن يصادفهم جوليان في نزهاته وهو على ظهر الجواد، قال لهم إن الطبيب هو الذي وصف له هذا التمرين. وكان الأب بيرار أخذه معه إلى عدة اجتماعات للجانسينيين؛ ودهش جوليان: كانت فكرة الدين مرتبطة في ذهنه بالأنانية وحب المال. فأعجب بهؤلاء الرجال المتدينين القاسين لا يفكرون

أبداً في مسألة النقود. وصادقه بعضهم واعطوه بعض النصائح. وتفتّح أمام ناظريه عالم جديد، فتعرف عند الجانسينيين إلى الكونت ألتميرا، وكان يبلغ ستة أقدام، وهو متحرر حكم عليه بالموت في بلاده، ومتديّن. شدهه هذا التناقض الغريب بين التديّن وحب الحرية.

كانت علاقات الكونت نوربير وجوليان فاترة. وجد الكونت أنه يرد بعنف على مزاج بعض أصدقائه. وقرّر جوليان، بعد أن خرج مرتين أو ثلاثاً عن اللياقات، ألاّ يوجه الحديث إلى الآنسة ماتيلد. كان الجميع يتصرفون بتهذيب في قصر ده لامول، ولكنه كان يحس أنهم تخلوا عنه. وفسّر حسه الريفي ذلك بالمثل الشعبي: لكل جديد بهجة.

قد يكون الآن أكثر فهمًا للواقع منه في الأيام الأولى، أو أن الدهشة الأولى أحسها في باريس زالت.

كان يشعر بأنه فريسة لضجر قاتل عندما يتوقف عن عمله. وكان هذا تأثير التهذيب، إنما المتعمد المحدود، يظهره المجتمع الراقي نحو الطبقات الأخرى. إن قلباً قليل الاحساس يشعر بالافتعال ويرى التصنع.

قد يلام الريفي على لهجته العادية أو القليلة التهذيب، ولكنه ينفعل في إجابته. في قصر ده لامول، كبرياؤه لم تجرح مرة،

ولكنه غالباً ما كان يحس في آخر النهار بالرغبة في البكاء. في الريف، يهتم به خادم المقهى، إذا وقع له حادث عند دخوله عنده، أما إذا كان هذا الحادث يتعلق بالكبرياء، فإنه يردد، ليشكو لك، الكلمة المؤلمة عدة مرات. في باريس يحس بأنه يريد الضحك. إنه دائمًا غريب فيها.

كانت حساسيته تجعله يقوم بالأعمال العرجاء. وكانت كل لذته في اتخاذ الاحتياطات. يتدرب كل يوم على استعمال الغدارة، فكان واحداً من أحسن تلاميذ أشهر معلمي السلاح. وكلما كان يجد بعض الفراغ في وقته، يركض إلى الاسطبل ويطلب أسوأ الأحصنة، بدلاً من القراءة كما كان يفعل في السابق. وأصبح معتاداً أن يقع عن ظهر الحصان في كل نزهة له مع رئيس الاسطبل.

وكان المركيز يجده مناسباً جداً، لنشاطه في عمله وسكوته وذكائه، فأولاه جميع أعماله، رويداً رويداً، بما فيها أكثر القضايا تعقيداً. وحين كان يستطيع أن يتفرغ لحظة لاشغاله، كان يشترك فيها بانزعاج مع جوليان، فيكتفي بسماع آخر الأخبار. يشتري البيوت والغابات، ولكنه يغضب بسرعة. يعطي المئات من الليرات ليربح المئات من الفرنكات. والرجال الأغنياء الذين يملكون قلباً سامياً، يبحثون في الأعمال عن التسلية لا عن النتائج. كان المركيز بحاجة إلى رئيس أركان يرتّب أعماله بوضوح وسهولة ويجعله يفهمها بسهولة.

وكانت السيدة ده لامول، رغم طبعها المهذب، تسخر أحياناً من جوليان. فالمفاجأة التي تنتج عن الحساسية مخيفة جداً للسيدات النبيلات. إنها نقيض اللياقات. دافع عنه المركيز مرتين أو ثلاثاً: إذا كان مضحكاً في صالونك، فإنه رائع في مكتبه.

وظن جوليان، من جهة، إنه اكتشف سرّ المركيزة: تنتبه لكل شيء عندما يعلن الخادم وصول البارون ده لاجومات. وهو مخلوق بارد، وجهه لا يدل على أي شيء، صغير نحيف بشع، أنيق، يقضي حياته في القصر ولا يتكلم على أي شيء. كانت هذه طريقته في التفكير. ولكانت السيدة ده لامول سعيدة جداً، للمرة الأولى في حياتها، لو استطاعت أن تجعل منه زوجاً لابنتها.

٦

اسلوب الحديث

مهمتهم السامية: في الحكم بهدوء على الحوادث الصغيرة من حياة الشعوب اليومية. حكمتهم يجب أن تتنبأ بالانتفاضات الكبرى التي قد تنتج عن الأسباب الصغيرة. أو بالأحداث التي يشوهها صوت الشهرة وهو ينقلها إلى البعيد.

غروتيوس

إنّ جوليان، كوافد حديثاً إلى باريس، وكإنسان مترفـع لا يطرح كثيراً من الأسئلة، لم يقع في حماقات كبرى. ذات يوم، كان يسير في شارع سان أونوريه عندما دفعه حشد من المارة إلى داخل مقهى. تطلع إليه رجل يلبس الريدنكوت، وهو مندهش من نظراته القاتمة، فتطلع إليه جوليان بدوره، كما حدث في بزانسون مع عشيق الآنسة آماندا.

لام جوليان نفسه طويلاً لأنه ترك هذه الاهانة الأولى تمر. قاسى من هذه النظرة. وطلب من الرجل تفسيرها، فرد عليه هذا موجهاً له اشنع الشتائم. أحاط بهما كل من في المقهى، وتوقّف المارة أمام الباب. كان جوليان، في حذر الريفي، يحمل دائمًا غدارات صغيرة، فضغط يده عليهـا بحركـات عصبية. ولكنه كان عاقلاً، فاكتفى بأن يردد للرجل دقيقة بعد أخرى:

ـ أيها السيد، عنوانك من فضلك؟ احتقرك.

انتهى الأمر به للتأثير على الجمهور في إعادته هذه الكلمات برتابة.

يا للعنة! على الآخر الذي يتكلم لوحده، أن يعطيه عنوانه! عندما سمع الرجل ذو الريدنكوت هذه الجملة مراراً، رمى في وجه جوليان خمسة أو ستة من بطاقاته. ولكن إحداها لم تصب، لحسن الحظ، وجه جوليان. وكان صمم على عدم استعمـال

غدارته إلا إذا مسته أحداها. وذهب الرجل، ولكنه تابع الالتفات نحوه من وقت لآخر، مهدداً جوليان بقبضة يده وموجهاً إليه الاهانات.

غرق جوليان في عرقه. هكذا إذن: يستطيع أدنى الرجال أن يثيرني. قال ذلك بغضب! كيف أقتل في نفسي هذه الحساسية الوضيعة؟

أين أجد شاهداً؟ لم يكن لديه أي صديق. تعرف على بعض الأشخاص، ولكنهم ابتعدوا جميعاً عنه بعد ستة أسابيع. وفكر: لست اجتماعياً، وها انذا أقاصص على هذا. وفكّر أخيراً في ملازم قديم من الفرقة السادسة والتسعين، شيطان صغير كان جوليان يتمرن غالباً معه على السلاح. وكان صريحاً معه. قال الملازم ليافان:

ـ أريد أن أكون شاهدك، ولكن بشرط: إذا لم تصب رَجُلك، فسنتبارز معاً في الوقت ذاته.

وقال جوليان مسروراً:

ـ اتفقنا.

وذهبا يبحثان عن السيد ده بوفوازي، في العنوانِ المكتوب على إحدى البطاقات، في آخر ضاحية سان جرمان.

كانت السابعة صباحاً. ولم ينتبه جوليان، إلا بعد أن وصل إلى هناك، أن هذا السيد قد يكون قريب السيـدة ده رينال الشاب، الذي كان يعمل سابقاً في روما أو نابـولي، والذي أعطى رسالة التوصية إلى المغني جيرونيمو.

كان جوليان أعطى الخادم بطاقة من تلك التي رميت بالأمس ومعها واحدة من بطاقاته.

بعد أن انتظر هو وشاهده، ثلاثة أرباع الساعة، اقتيدا إلى غرفة رائعة الجمال، فوجدا شاباً، أنيقاً كدمية، تعبر خطوطه عن الكمال والجمال اليوناني. رأسه الضيق تعلوه أهرام من الشعر الجميل الأشقر، مفروق بكل عناية، لدرجة لم يكن فيه شعرة تتخطى الأخرى. قال الملازم: لا بد أنه جعلنا ننتظر ليفرق شعره. كل ما عليه، من رأسه إلى أخمص قدميه مطرز رائع يدل على العناية الفائقة. أما وجهه النبيل الفارغ فكان يـدل على أفكار معقولة ونادرة: مثال الرجل الرصين الذي لا يحبّ المزاح والمفاجآت، ويتسلّح بكثير من الوقار.

شرح الملازم لجوليان أن انتظارهما له هذه المدة، بعد رمي بطاقاته في وجهه بالامس، يشكل اهانة جديدة، فدخل جوليان فجأة إلى غرفة السيد ده بوفوازي. كان يريد أن يكون فظاً، ولكن في الوقت نفسه أن يكون مهذب اللهجة.

دهش لحركات السيد ده بوفوازي الناعمة، ومن هيئته التي تدل على الهدوء والأهمية والاعجاب بالنفس في الوقت نفسه، ومن الأناقة الرائعة التي تحيط به، فأحس أنه يفقد بسرعة كل رغبة في إهانته. انه ليس رجل الأمس. ولم يجد لدهشته أي كلمة يقولها بعد أن رأى هذا الرجل المهذب بعد شخصية الأسس الفظّة، فقدم بطاقة من البطاقات التي رماه بها لابس الردنكوت. وقال الرجل وهو لا يحس بالاحترام نحو جوليان الذي يلبس الملابس السوداء:

- إنه اسمي. ولكنني لا أفهم شيئاً، بحق السماء...

اتاحت اللهجة التي لفظ بها هذه الكلمات، بعض الارتياح إلى جوليان، فقال:

- إنني آت لاتبارز معك أيها السيد، ثم شرح له باختصار كل القضية.

وبعد أن تفحص السيد ده بوفوازي بذلة جوليان بعناية فائقة وهو يستمع إليه، قال في نفسه: إنها من قماش «ستوب»، وهذه السترة تدل على الذوق، وهذه الجزمة حلوة، ولكن من جهة أخرى، ما معنى البذلة السوداء منذ الصباح الباكر؟

وقال في نفسه: قد تكون للتخلص بسهولة من الطلقة.

بعد أن سمع هذا الشرح، عاد السيد ده بوفوازي إلى أدبه الجم، وهو يحس أنه يتكلم مع مساوٍ له في المقام، وطالت الشروحات. كانت القضية دقيقة. ولم يستطع جوليان في النهاية إلا أن يقتنع بالواقع البديهي، فالرجل الشاب الطيّب المنبت، الذي يراه الآن أمامه لا يشبه في شيء ذلك الشخص الفظ الذي أهانه في العشية.

كان جوليان يشعر برغبة في البقاء، فكان يطيل التفسيرات، ويراقب حركات ده بوفوازي، بعد أن صُدم لأن جوليان يخاطبه بلفظة السيد دون أي لقب إضافي آخر.

أعجب جوليان بوقاره الممزوج ببعض البلاهة المتواضعة لم تكن تفارقه طول الوقت؛ دهش من طريقته في تحريك لسانه للتلفظ بالكلمات... ولكن لم يكن في النهاية أي سبب يدفعه للتفكير في مخاصمته ومبارزته.

وقبل الشاب المبارزة بطيبة خاطر، ولكن الملازم، الذي كان يجلس منذ ساعة، فاتحاً رجليه، واضعاً يديه على ركبه واكواعه خارجها، قرر أن صديقه سوريل لم يخلق ليقوم بمبارزة المانية مع رجل لأن البعض سرق بطاقاته منه.

خرج جوليان متضايقاً. كانت عربة ده بوفوازي، تنتظر صاحبها في ساحة القصر، أمام المدخل، ورفع جوليان عينيه

وعرف رجل الامس: إنه الحوذي.

واستغرقت لحظة واحدة عملية رؤيته وشده من سترته الكبيرة، وإنزاله عن مقعده ورميه إلى الأرض وإغراقه بضربات السوط. أراد خادمان بعدها أن ينجدا رفيقهما فأصابا جوليان ببعض اللكمات، ولكنه أسرع فهيأ واحدة من غداراته الصغيرة وأطلق النار عليهما، فهربا. ولم يستغرق هذا كله إلا دقيقة واحدة.

ونزل الفارس ده بوفوازي السلم بوقار جميل وهو يردد بلفظه الارستقراطي: ما هذا؟ ما هذا؟

ولم يكن شك في أنه غاضب، ولكن اهتمامه الرصين لم يكن يسمح له بإبداء اهتمام أكبر. وعندما عرف ما حدث تنازعته عوامل الكبر فبانت على وجهه، رغم الضروري أن يكون وجه الدبلوماسي مكسولاً باللامبالاة ورباطة الجأش.

وفهم الملازم أن السيد ده بوفوازي يريد القتال؛ ولكنه أراد في الوقت نفسه أن يحفظ لصديقه زمام المبادرة، فصرخ قائلاً:

ـ ثمة سبب للمبارزة الآن!.

ورد الفارس:

ـ أعتقد ذلك أيضاً.

ثم توجه إلى خدمه وقال لهم:

ـ طردت هذا الأحمق. فليصعد أحدكم مكانه.

وفتح باب العربة الصغير وأراد الفارس أن يشرّف جوليان وشاهده. ذهبوا يفتشون عن صديق للسيد ده بوفوازي الذي عين مكاناً هادئاً. كان الحديث ممتعاً حقاً. ولم يكن شيء طريفاً إلا أن الفارس كان يرتدي لباس البيت.

فكر جوليان: هؤلاء السادة، رغم نبلهم، لا يثيرون الضجر كالذين يأتون إلى منزل السيد ده لامول. ثم أضاف بعد لحظة: أفهم الآن لماذا يسمحون لأنفسهم الظهور بمظهر غير لائق.

تحدثوا عن الراقصات اللواتي أعجبن الجمهور في الباليه الذي أقيم في العشية. وأبدى السيدان بعض الاشارات عن نوادر لاذعة كان يجهلها جوليان وشاهده الملازم جهلاً تاماً. ولم يدّع جوليان بحماقة أنه على علم بها، واعترف ببساطة بجهله. وأعجبت هذه الصراحة صديق المركيز، فروى له بتفصيل واف هذه النوادر، وأجاد فيها.

دهش جوليان كثيراً لشيء: توقفت العربة لحظة في وسط الشارع، حيث استراحة بمناسبة موكب عيد الرب. فروى السيدان كثيراً من النوادر. كان الخوري، كما زعما، ابن مطران. ولم يسبق للمركيز ده لامول، الذي كان يريد أن يصبح دوقاً،

أن تجرأ على التلفظ بمثل هذه الكلمات.

انتهت المبارزة في لحظة واحدة: واصيب جوليان بطلقة في ذراعه، فربطت بالمناديل التي بللت بالنبيذ؛ ورجا الفارس جوليان بأدب كبير، أن يسمح له بإعادته إلى منزله، في العربة التي احضرتهم. وعندما عيَّن جوليان، قصر ده لامول، تبادل الفارس وصديقه النظرات. كانت عربة جوليان موجودة، ولكنه وجد حديث هذين السيدين أكثر تسلية من حديث الملازم الطيب.

وفكر جوليان: يا إلهي، هذه هي المبارزة فقط! لكم أنا سعيد لالتقائي بذلك الحوذي! ولكم كانت تعاستي كبيرة أن أتحمل هذه الاهانة في المقهى!

لم تنقطع المحادثة المسلية، وفهم جوليان عندئذ أن المهنة الدبلوماسية تفيض في بعض الأحيان.

قال في نفسه: الضجر ليس من صميم حديث الناس النبلاء! إن هذين يتندران عن موكب عيد الرب وهما يتجرآن على رواية تفاصيل طريفة عن نوادر دقيقة لا ينقصها إلا بعض التفكير في السياسة. ولكنهما يعوّضان هذا النقص بسحر لهجتهما ودقة تعابيرهما. وأحس جوليان بانعطاف شديد نحوهما: لكم أكون مسروراً لو رأيتهما غالباً!

ولم يكد جوليان وشاهده ينزلان حتى ركض الفارس ده بوفوازي وراء الأنباء التي لم تكن براقة.

كان مهتمًا بمعرفة رَجُله؛ هل يستطيع زيارته؟ ولم تكن المعلومات القليلة التي حصل عليها مشجعة. فقال لشاهده:

ـ كل هذا بشع جداً! ليس من الممكن أن اعترف بأنني تبارزت مع مجرد أمين سر المركيز ده لامول، لأن سائق عربتي سرق بطاقاتي.

ـ لا شك ستكون عرضة للسخرية.

وفي المساء نفسه، أذاع ده بوفوازي وصديقه أن السيد سوريل، وهو شاب كامل، هو ابن طبيعي لصديق من أصدقاء المركيز ده لامول الحميمين. وعندما انتشر الخبر، تشجع الفارس وصديقه وقاما ببعض الزيارات لجوليان، خلال الخمسة عشر يوماً قضاها في غرفته. واعترف لهما أنه لم يذهب إلا مرة واحدة في حياته إلى الأوبرا. فقيل له:

ـ هذا يثير الرثاء. الناس لا يذهبون إلا إلى هناك؛ من الواجب بعد شفائك، أن يكون ذهابنا الأول لحضور «الكونت أوري».

وقدمه الفارس في الأوبرا إلى المغني الشهير جيرونيمو الذي كان يلاقي وقتئذٍ نجاحاً كبيراً.

كان جوليـان يحاول التقـرب من الفارس، يسحـره احترام النفس والأهمية الخفية وتعالي هذا الشاب. مثلاً، كان الفارس يتلعثم قليلاً لرؤية سيد كبير عنده هذا العيب. ولم ير جوليان قط في شخص واحد، السخرية اتي تسلّي وأناقة التصرفات التي على قرويّ مسكين أن يقلدها.

ورؤي جوليان في الأوبرا مع الفارس، فتحدّث القوم عنه بعد هذه العلاقة. قال له المركيز ده لامول ذات يوم:

ـ إذن أنت الآن ابن طبيعي لسيد غني من فرانش كونتيه، صديق حميم لي؟

وقاطع المركيز كلام جوليان الذي كان يريد الاحتجاج لأنه لم يساهم بأية حال، في تأكيد هذه الضجة:

ـ لم يرد السيد ده بوفوازي أن يتبارز مع ابن صاحب منشرة.

وردّ المركيز:

ـ أعرف ذلك! وسأعطي لهذه القصة محتواها الذي يناسبني. أطلب منك خدمة لن تكلفك إلا نصف ساعة: يوم تكون في الأوبرا، إذهب الساعة الحادية عشرة والنصف وانظر في المدخل، إلى خروج الناس الراقين. أرى عندك بعض الأحيان حركات ريفية، ويجب أن أحذرك منها. ليس من ضرر في التعرف، ولو

بالنظر، إلى بعض الشخصيات الكبيرة التي يمكن أن أكلفك لديها ببعض المهمات. مرّ على مكتب الحجز للتعريف عن نفسك، فإنك أعطيت حق الدخول.

٧

داء المفاصل

أحرزتُ تقدماً، لا لكفاءتي، بل لأن سيدي كان مصاباً بداء المفاصل.

برتولوتي

قد يدهش القارىء من هذه اللهجة الحرة شبه الصديقة؛ ولكن كان المركيز احتُجِز في بيته ستة أسابيع لأصابته بداء المفاصل.

وكانت الآنسة ده لامول وأمها في هير قرب والدة المركيزة؛ أما الكونت نوربير فلم يكن يخلو لوالده إلا للحظات. كانا متفقين، وليس عندهما شيء يقولانه. والمركيز الذي لم يكن يرى إلا جوليان، دهش حين وجد لديه بعض الأفكار. فكان يستمع إليه يقرأ الجرائد. وسرعان ما أصبح باستطاعته أن يختار المقاطع المثيرة. وكانت جريدة جديدة يكرهها المركيز فيقسم إلا يقرأها ثم يتكلم كل يوم عليها. وكان جوليان يضحك؛ ثم جعله

المركيز يقرأ، في أوقات ضجره، كتاب «تيت ليف» الروماني، وكانت ترجمة نصه اللاتيني مباشرةً تسلّيه.

ذات يوم قال المركيز لجوليان، بهلجة التهذيب الزائد التي تُنفد صبر جوليان:

ـ اسمح لي يا عزيزي سوريل أن أهديك بذلة زرقاء: وعندما تحب أن تأتي إليّ وتأخذها، ستكون في نظري أخَ الكونت ده شولن الأصغر، أي ابن صديقي الدوق العجوز.

لم يفهم جوليان تماماً عمّ يتحدث. وجرّب في المساء نفسه زيارته بالبذلة الزرقاء. فعامله المركيز كمساوٍ له. كان لدى جوليان قلب يستطيع أن يحس بالتهذيب الحقيقي، ولكنه لم يكن يقدّر الفروقات. ظن قبل نزوة المركيز هذه أنه لن يقابل مطلقاً باحترام أكبر. أية موهبة هذه! قال جوليان عندما نهض ليخرج فاعتذر المركيز له لأنه لا يستطيع مرافقته نظراً لمرضه.

شغلت هذه الفكرة جوليان: هل يسخر مني؟

تذهب بطلب مشورة الأب بيرار، وهو أقل تهذيباً من المركيز، ولكنه لم يجب إلا بالصفير، ثم تحدث عن أشياء أخرى.

صباح اليوم التالي، حضر جوليان بين يدي المركيز لابساً بذلته السوداء، حاملاً حقيبته ورسائله. فاستقبل على الطريقة

شارع سان أونوريه، والحوذي يغرقه بسيل شتائمه. وكانت لحظة تامة الصراحة في علاقات السيد وموظفه.

اهتمّ المركيز بهذا الطبع الفريد. كان في البداية يؤكّد على مقدار ما يسلّيه في جوليان، ثم سرعان ما اهتمّ بتصليح كل ما يراه غير لائق عند هذا الشاب. إنّ الشبان الريفيين يأتون إلى باريس ويحبون كل شيء، أما هذا فإنه يكره كل شيء، عاطفيون وهو قليل العاطفة، والحمقى يظنون أنه أحمق.

طال داء المفاصل بالمركيز عدة أشهر بسبب صقيع الشتاء.

كان المركيز يقول لنفسه: البعض يتعلقون بكلب الصيد، فلماذا أخجل أنا من أن أتعلق بهذا الكاهن الشاب؟ إنه طريف، وسأعامله كأحد الأبناء. وبعد! أين العيب؟ هذه النزوة، لو استمرت، ستكلفني قطعة ماس قيمتها خمسمائة ليرة ذهبية في وصيتي.

بعد أن فهم المركيز طبع جوليان الحازم، صار يكلفه كل يوم بأعمال جديدة.

ولاحظ جوليان، باستغراب، أن السيد الكبير يعطيه قرارات متناقضة حول قضية واحدة.

هذا قد يعرضه للخطر. فصار جوليان لا يعمل معه إلا بعد

أن يحضّر سجلاً يقيد فيه القرارات، ثم يوقّعها المركيز. واستخدم جوليان كاتباً كان يقوم بنقل القرارات المتعلقة بكل قضية على سجلّ خاص، تسجل عليه كل الرسائل الواردة التي تتعلق بالموضوع.

ظن المركيز، في البداية، أن الأمر غاية في البلاهة والضجر، ولكنه أحسّ بعد شهرين بحسناته. واقترح عليه جوليان أن يستخدم كاتباً كان يعمل في أحد المصارف، يتسلّم حساب مداخيل ومصاريف الأراضي التي كان جوليان يشرف على إدارتها.

كان لهذه التدابير أثر واضح في توضيح الأمور للمركيز الذي انخرط بلذّة في بعض المشاريع الجديدة دون أن يستخدم اسم أحد موكليه وكان يسرقه. وقال المركيز ذات يوم لأمين سره الشاب:

ـ خذ ثلاثة آلاف فرنك لنفسك.

ـ سيدي، قد يُظن أنني أتلاعب.

ورد المركيز بلهجة جادة:

ـ ماذا تريد إذن؟

ـ أن تتخذ قراراً تكتبه بخطّ يدك على السجل، تمنحني بموجبه

ثلاثة آلاف فرنك.

الأب بيرار هو صاحب فكرة الحسابات هذه. وكتب المركيز القرار وهو عابس كأنه المركيز ده مونكاد يستمع إلى حكايات السيد بواسّون.

وفي المساء عندما ظهر جوليان ببذلته الزرقاء، لم يجر الحديث عن الاعمال. وكان المركيز لبقاً، وضرب على وتر جوليان الحساس، فأحس هذا، رغمًا عنه، بنوع من التعلق بهذا العجوز الرقيق؛ لا لأنّ جوليان حساس، حسب مفهوم باريس، بل لأنّ أحداً لم يحدّثه بهذه الطيبة منذ وفاة العجوز الطبيب الضابط. ولاحظ باندهاش أن المركيز يعبر عن احترامه لشعوره وكبريائه بشكل مهذب لم يجده عند الطبيب العجوز. وفهم أخيراً أن الطبيب كان فخوراً بصليبه أكثر من المركيز بوشاحه الأزرق. والد المركيز كان سيداً كبيراً.

ذات يوم، بعد انتهاء جلسة الصباح، وكان جوليان ببذلته السوداء، زيّ الأعمال، قام بتسلية المركيز الذي احتجزه لساعتين واراد أن يعطيه بعض الأوراق النقدية احضرها له وكيله من البورصة.

ـ أرجو سيدي المركيز ألا تبعدني عن الاحترام الكبير الذي أنا مدين لك به، وأرجو أن تسمح لي بكلمة.

ـ تكلّم يا صديقي.

ـ فليسمح المركيز بالتألمّ لأنني أرفض هذه الهبة. ليست موجهة إلى ذي البذلة السوداء، وستشوّه كل الحركات التي تتفضل وتسمح بها لنفسك في حضرة ذي البذلة الزرقاء.

ثم حيّاً بكثير من الاحترام وانصرف دون أن يتطلع إليه.

تسلى المركيز بهذه الحادثة، فرواها في المساء إلى الأب بيرار.

ـ يجب أن أعترف لك أخيراً، يا أبي العزيز، أنني أعرف أصل جوليان وأسمح لك ألا تحتفظ بسرية هذا الاعتراف.

وفكر المركيز: طريقته هذا الصباح نبيلة، وأنا أجعله نبيلاً. واستطاع بعد وقت قصير أن يجد مخرجاً. فقال لجوليان:

ـ إذهب واقض شهرين في لندن. وستصلك بالبريد العاجل الرسائل التي أتلقاها مع تعليقاتي عليها. وستقوم بكتابة الاجابات وتعيدها إليّ كل رسالة ضمن جوابها. حسبت أنّ التأخير لن يزيد ولا بحال عن خمسة أيام.

كانت العربة تنهب الأرض به على طريق كاليه، وهو مندهش من ضآلة المهمات المزعومة التي أرسل من أجلها.

اية كراهية وأي رعب أحس بهما عندما لمست أقدامه الأرض

الانكليزية! نعرف غرامه المجنون ببونابرت. كان يرى في كل ضابط السير هدسون لوي، وفي كل سيد كبير اللورد باثورت وهو يأمر باهانات سانت هيلانة، ثم يكافأ على ذلك بإبقائه وزيراً عشرة أعوام.

وعرف في لندن التعجرب الأبله الكبير. وتعرف إلى بعض الاسياد الروس الذين امتدحوه، كانوا يقولون له:

ـ تملك الاستعداد أيها العزيز سوريل. وجهك بطبيعته يعبر عن البرودة وعن بعدك ألف فرسخ عن الاحساس الراهن، تعبنا كثيراً، دون جدوى، لنكتسب تلك الهيئة.

الأمير كوراسوف كان يقول له:

ـ لم تفهم عصرك. إفعل دائمًا عكس ما منتظرٌ منك. هذا هو، وشرفي، دين هذا العصر. لا تكن مجنوناً أو عاطفياً لأن الناس ينتظرون منك عندئذ الجنون والعواطف، فلا تتمّ القاعدة.

أُنعم على جوليان ذات يوم فدعي إلى العشاء في صالون الدوق ده فيتز فولك مع الأمير كورازوف. دام الانتظار ساعة. ولا تزال الطريقة التي تصرّف بها جوليان بين عشرين مدعواً تروى بين سكرتيريي السفارات الشباب في لندن. كان وجهه في حالة يعجز عن وصفها الكلام.

وأراد أن يرى، رغم وجود أصدقائه المخنثين، «فيليب فان» الشهير، الفيلسوف الوحيد الذي أنجبته إنكلترا منذ لوك. وجده ينهي سنته السابعة في السجن. ففكر: الارستقراطية لا تمزح في هذا البلد، إضافة إلى أن «فان» أهين وحُقِّر. . .

وجده جوليان مرحاً. كان غضب الارستقراطية يزيل ضجره.

قال جوليان وهو يخرج من السجن:

ـ ها هو الرجل المرح الوحيد أراه في انكلترا.

قال له «فان»:

ـ الفكرة الوحيدة التي تفيد الطغاة هي فكرة الله. . .

نعف عن ذكر بقية النظرية لإلحادها.

وعاد إلى فرنسا.

ـ أية فكرة مسلية حملتها معك من إنكلترا؟

قال المركيز ده لامول. . . فسكت.

ـ اية فكرة مسلية أولاً حملتها معك من إنكلترا؟

فقال جوليان:

ـ أولاً: أن أعقل إنكليزي يجن ساعة في اليوم، ويزوره

شيطان الانتحار، معبود البلاد.

ثانياً: العبقرية تفقد خمسة وعشرين بالمئة من قيمتها عند وصولها إلى انكلترا.

ثالثاً: ليس في العالم أجمل أو أروع أو أحسن من مناظر الأرض الانكليزية.

وقال المركيز:

ـ الآن جاء دوري.

أولاً: لماذا قلت في حفلة سفير روسيا أن في فرنسا ثلاثمائة ألف شاب في الخامسة والعشرين يتوقون للحرب؟ هل تعتقد أن هذا في صالح الملوك؟

ـ الانسان لا يعرف ماذا يصنع في حديثه مع كبار دبلوماسيينا. عندهم عادة الاحاديث الرزينة. فإذا اكتفى الانسان بما يقرأه في الصحف ظنّوه أبله، وإذا قال جديداً حقيقياً، يندهشون، ولا يعرفون كيف يجيبون، ثم يفهمونك بواسطة أمين سر السفارة، في السابعة من صباح اليوم التالي إنك كنت غير لائق.

قال المركيز ضاحكاً:

ـ لا بأس. على كل، أراهن أيها الرجل المفكر إنك لم تدرك بعد لماذا ذهبت إلى انكلترا.

ـ عفواً سيدي. ذهبت إلى هناك لأتناول الطعام مرة في الأسبوع عند سفير الملك، أكثر الرجال تهذيباً.

ـ ذهبت تبحث عن هذا الصليب. لا أريد أن أكون سبب تركك لردائك الأسود. اعتدت أكثر على لهجة المرح التي أخاطب بها ذا البذلة الزرقاء. استمع لهذا حتى إشعار آخر: عندما أرى هذا الصليب، أرى فيك الابن الأصغر لصديقي الدوق ده شولن وهو يعمل، دون أن يشعر، منذ ستة أشهر في السلك الدبلوماسي.

وأضاف المركيز بلهجة رزينة، تختلف عن سابقتها:

ـ لاحظ أنني لا أريد أبداً أن أخرجك من حالتك. إنها دائمًا خطأ وشقاء بالنسبة للحامي ومحميّه. وعندما تضجرك قضاياي، أو عندما لا تعود مناسباً لي، سأطلب لك أبرشية جيدة، كأبرشية صديقي الأب بيرار.

وتابع بلهجة قاطعة: ليس أكثر من هذا.

وأحس جوليان بالراحة لهذا الصليب، فتحدث كثيراً. وظن أنه لم يجُرَّح وتصرّف كأنه لم يسمع هذه الكلمات، التي يمكن أن

يكون لها تفسير قليل التهذيب، والتي يمكن أن تفوت جميع السامعين في مناقشة صاخبة.

كان هذا الصليب سبباً في إحدى الزيارات الفريدة، زيارة السيد البارون ده فالينو، أتى باريس ليشكر الوزارة على بارونيته وليتفاهم معها. وهو يوشك أن يعين عمدة لفريير مكان السيد ده رينال.

ضحك جوليان كثيراً عندما أخبره السيد ده فالينو أنه اكتشف السيد ده رينال يعقوبياً. والواقع أن البارون الجديد كان مرشح الوزارة في الانتخابات التالية، وبالتالي الطبقة البورجوازية الرجعية، أما السيد ده رينال فمرشح الأحرار.

وعبثاً حاول جوليان أن يعرف شيئاً عن أخبار السيدة ده رينال، ولكن البارون بدا بمظهر من يتذكر خصومتهما السابقة فظل صامتاً. وأخيراً طلب السيد فالينو من جوليان أن يحوز على صوت والده في الانتخابات الآتية، ووعد جوليان بالكتابة.

ـ عليك يا سيدي الفارس أن تقدمني إلى المركيز ده لامول.
وفكّر جوليان: بالفعل، علي أن أقوم بذلك، ولكن هذا الملعون!...

ـ في الواقع لست إلا صبياً صغيراً في قصر ده لامول لآخذ على عاتقي مهمة التقديم. وروى جوليان كل شيء للمركيز، ثم

حكى له في المساء عن أعمال وحركات السيد ده فالينو منذ ١٨١٤.

ورد السيد ده لامول بلهجة جادة:

ـ لن تقدّمني غداً للبارون الجديد فحسب بل سأدعوه إلى الغداء بعد غد. سيكون أحد محافظينا الجدد.

ورد جوليان ببرودة:

ـ في هذه الحالة، أطلب إدارة مأوى الفقراء لوالدي.

وقال المركيز بلهجة مرحة:

ـ رويدك. حسناً ليكن. كنت أتوقع بعض الطلبات. إنك تكوّن نفسك بنفسك.

وعلم جوليان من فالينو أن رئيس مكتب اليانصيب مات، ووجد جوليان من المسلي أن يعرف بأنّ هذا المركز سُلّم إلى السيد ده شولان، هذا الأحمق العجوز الذي كتب العريضة في غرفة السيد ده لامول. وضحك المركيز عميقاً عندما أسمعه جوليان الحادثة وكيف جعله يوقّع الرسالة التي يطلب فيها المركز من وزير المالية.

بعد قليل من تعيين السيد ده شولان، علم جوليان ان بلدية المقاطعة طلبت هذا المركز للسيد غرو، العالم الجغرافي الشهير،

وكان لا يملك إلا مدخولاً قدره ألف وأربعمائة فرنك ولكنه كان، لكرمه، يُقرض كل سنة ستمائة منها لمدير المكتب ليساعده في إعالة عائلته.

ودهش جوليان لما قام به. ليس شيئاً يذكر، قال لنفسه، إذا أردت أن أصل، عليّ القيام بمظالم أخرى، ويجب أن أعرف كيف أخفيها بقناع من الكلمات العاطفية: مسكين السيد غرو! هو الذي يستحق الصليب، وأنا الذي يناله، وعلي أن أسير في اتجاه الحكومة التي أعطتنيه.

٨

ما هي المدالية التي تميِّز؟

قالت العبقرية الجافة:
ـ ماؤك لا يرويني.
ـ مع ذلك أحسن آبار «ديار بكير».

بليكو

ذات يوم، كان جوليان عائداً من أرض فيلّكييه على ضفاف السين، حيث كان السيد ده لامول يتطلع باهتمام لأنها كانت، بين جميع أراضيه، ستذهب إلى بونيفاس ده لامول الشهير. وفي القصر وجد المركيزة وابنتها واصلتين من هيير.

أصبح جوليان أنيقاً، وفهم فن العيش في باريس. فكان بارداً مع الآنسة ده لامول. وظهر كأنه لا يتذكر الأوقات التي كانت الآنسة تطلب منه أن يروي لها سقطاته عن الحصان.

وجدته الآنسة ده لامول أكبر وأكثر شحوباً. فلم يعد في قامته وحركته أيّ أثر للريفية، ولكن حديثه لم يكن في المستوى نفسه. كان فيه كثير من الجدية، وكثير من الايجابية. ورغم هذه الصفات الحميدة، نتيجة لكبريائه، فليس فيه أي شيء يدل على الوضاعة، وهو لا يزال يعير كثيراً من الأشياء أهمية كبيرة. كان يرى أنه رجل يستطيع أن يحافظ على كلامه.

قالت الآنسة ده لامول وهي تمازح أباها حول الصليب الذي أعطاه لجوليان:

ـ ينقصه بعض الخفة، لا الذكاء. طلبه شقيقي منك طوال ثمانية عشر شهراً، وهو سليل عائلة لامول!...

ـ أجل، ولكنّ جوليان يتنبّأ. الأمر الذي لم يحدث لده لامول الذي تحدّثينني عنه.

وأعلن قدوم الدوق ده ريتز.

أحست ماتيلد بتثاؤب لا يقاوم. تعرف الزينة القديمة ورواد المنزل القدامى. وتصورت الحياة المضجرة التي عليها أن

تعاودها. وكانت في هيير تتحسر على باريس.

وفكرت: مع ذلك، أنا في التاسعة عشرة! سن السعادة، كما يقول كل هؤلاء المعجبين الأنيقين. رأت ثمانية أو عشرة مجلدات شعرية جديدة جمعت، خلال رحلة الريف، حول جسور الصالون المذهبة. إنها شقية لأنها تفكر أكثر من السادة ده كروازنوا وده كايلوس، وده لوز وبقية أصدقائها. تتخيل ما سيقولونه لها عن سماء الريف الجميلة وأشعار الوسط.. الخ...

تعلّقت بجوليان عيناها الجميلتان، المليئتان بالضجر العميق، بل باليأس من الحظوة باللذة. على الأقل لم يكن كأيٍّ آخر. فقالت بصوت حي، مختصر، ليس فيه شيء من الأنوثة، تستعمله سيدات الطبقة العليا:

ـ سيد سوريل، هل تأتي هذا المساء إلى حفلة السيد ده ريتز الراقصة؟

ـ لكنني لم أتشرف بعد، يا آنستي، بأن قدمت للسيد الدوق (هذه الكلمات وهذا اللقب مما يسبب غصة عند ريفي متعجرف).

ـ كلف أخي باحضارك لعنده، فإذا أتيت تعطيني بعض التفاصيل حول أرض فيلكييه، ثمة مشروع للذهاب إليه في الربيع. أريد هل أعرف القصر جاهز للسكن وما إذا كانت

المناطق المجاورة له رائعة كما يقال. إن كثيراً من الشهرات غير صحيحة!

ولم يردّ جوليان. فأضافت بلهجة جافة:

ـ إحضر للحفلة مع أخي.

وحيّا جوليان باحترام: هكذا إذن، حتى وسط الحفلة الراقصة، عليّ أن أؤدي الحساب لكل أفراد العائلة. ألا يُدفع لي كرجل أعمال؟

في غمرة ضيقه قال: قد أقول للفتاة ما سيعكر مشاريع والدها، وأخيها وأمها! إنه بلاط حقيقي لأمير حاكم، ويجب أن أكون نكرة، ومع ذلك ألا أترك المجال لشكوى أي فرد.

ـ لكم أنفر من هذه الفتاة!

فكّر في هذا وهو يتطلع إلى مشية الآنسة ده لامول نادتها والدتها لتقدمها إلى بعض النساء من صديقاتها. تبالغ في كل الازياء، ويكاد ثوبها يسقط عن كتفيها... إنها أكثر شحوباً منها قبل رحلتها... شعرها الأشقر باخ! في عينها صلف وكبرياء! وفي نظرتها! أية تصرفات ملكة!

نادت الآنسة ده لامول أخاها، لحظة كان يخرج من الصالون. واقترب الكونت نوربير من جوليان وقال له:

ـ هل تريد عزيزي سوريل أن آخذك منتصف الليل إلى حفلة السيد ده ريتز الراقصة؟ كلفني بنفسه أن أصطحبك.

وردّ جوليان وهو يكاد يلامس الأرض في تحيته:

ـ أعرف لمن أنا مدين بهذه الاكرامية.

لم يجد شيئاً يلوم عليه نوربير الذي كلمه بلهجة مهـذبة، وبادية الاهتمام، فجعله مزاجه ينصرف إلى تحليل جوابه على طلب نوربير المهذب. فوجد فيه بعض الصغارة.

عند المساء، دهش جوليان لروعة قصر ده ريتز. كان المدخل مكسواً بخيمة القطيفة البنفسجية المرصعة بالنجوم الذهبية: لا أبدع منها ولا أجمل. وفوق هذه الخيمة، كان المدخل يتحول غابة من أشجار الليمون والغار المغطى بالزهور. لكم أحسنوا زراعتها. كأن أشجار الليمون والغار تخرج من الأرض. أما الطريق التي كانت العربات تجتازها فكانت مغطاة بالرمال.

كان هذا غريباً في نظر ريفيّ. لم يكن يتصوّر هذا الجمال. وبعد خياله، في لحظة واحدة، ألف فرسخ عن مزاجه. كان نوربير في العربة سعيداً، أما هو فكان يرى كل شيء أسود، ولم يكادا يدخلان البهو حتى انقلبت الادوار.

لم يكن نوربير يلتفت إلا إلى بعض التفاصيل التي أهملت

وسط كل هذه الروعة. يعينّ تكاليف كل شيء، وعندما بلغ ذروة تقديراته، لاحظ جوليان أنه يظهر الغيرة وبعض التعاسة.

وصـل مسحوراً، معجبـاً، شبـه حييّ لشـدّة انفعـالـه في الصـالونـات حيث كان الجمـع يرقص. واستبق الجمـع نحو الصالون الثاني، وكان حشد كبير منع الجميع من التقدم. كانت زينة هذا الصالون الثاني تمثل قصر الحمراء في غرناطة.

قال أحد الشبان، من ذوي الشوارب، كاد كتفه يدخل في صدر جوليان:

ـ إنها ملكة الحفلة.

وردّ جاره:

ـ الآنسة فورمون التي كانت طوال الشتاء أجمل الكل، ترى نفسها تنحدر إلى المركز الثاني، أنظر هيئتها الغريبة.

ـ إنها فعلاً تخلع كل طرحاتها لتثير الاعجاب. أنظر، أنظر هذه الابتسامة السمحة لحظة وجدت وحيدة في المرقص. إنها، وحق شرفي، رائعة.

ـ الآنسة ده لامول تظهر كسيدة لذة من الغبطة التي يحققها انتصارها، وهي تلاحظ ذلك جيداً. يقال إنها تخاف أن تعجب من تكلّمه.

ـ عظيم جداً! هذا هو فن الاغراء.

وقام جوليان بمجهودات كبيرة، دون جدوى، لرؤية هذه المرأة الساحرة، ولكن سبعة أو ثمانية رجال أكبر منه حالوا بينه وبين هدفه.

قال الشاب ذو الشارب:

ـ أيّة أنوثة في هذا التمنع النبيل.

ورد الجار:

ـ وعيناها الزرقاوان الكبيرتان تغمضان لحظة توشك أن تخون نفسها. وحق إيماني، لم أر أمهر منها.

وقال ثالث:

ـ أنظر كيف تظهر فورمون الجميلة حدّها عادية.

ـ هذا التمنع يعني: «لكم من الملذات أبذلها لك إذا كنت الجدير بي».

وقال الأول:

ـ ومن يمكن أن يكون جديراً بماتيلد الرائعة؟ أمير حاكم، جميل لبق، حسن النشأة، بطل حربي، لا يزيد عمره عن عشرين.

ـ الابن الطبيعي لامبراطور روسيا... الذي قد ينصّب ملكاً بفضل هذا الزواج... أو الكونت ده تالير، بكل بساطة، بهيئته الريفية الأنيقة...

افسح الطريق، واستطاع جوليان الدخول. وفكر: بما أنها تظهر بهذا الجمال في أعين هذه الدمى، فهي تستحق أن أدرسها. سأفهم لماذا تمثل الكمال بالنسبة لهؤلاء الناس.

وإذ كان يبحث عنها بنظراته، تطلعت إليه. واجبي يدعوني، فكر جوليان. ولكن لم يبق من مزاج إلا في تعبيرها. ودفعه فضوله إلى التقدم بلذة لدرجة زاد معها انخفاض ثوب ماتيلد عن كتفيها، مما كان فعلاً غير لائق بكبريائه. وفكر: الشباب في جمالها. وكان خمسة أو ستة من الشباب، عرف جوليان بينهم من سمعهم قرب الباب، يحولون بينه وبينها.

قالت له:

ـ أيها السيد، بقيت هنا طوال فصل الشتاء، ألا ترى هذه أجمل حفلة في الموسم.

لم يرد.

ـ يخيل إليّ أن هذه المجموعة الرباعية من كولون رائعة وأن السيدّات يرقصن بشكل كامل.

والتفت الشبان ليروا الشاب الذي تطلب منه الاجابة، ولكنها لم تجد ما يشجعها:

ـ لا يمكن أن أكون حكمًا طيباً، يا آنستي. أقضي حياتي في الكتابة: وهذه هي الحفلة الراقصة الجميلة الأولى التي أراها.

صعق الشبان ذوو الشوارب.

وأكملت الآنسة باهتمام أكبر:

ـ إنك عاقل أيها السيد سوريل؛ ترى كل هذه الحفلات الراقصة وكل هذه الاعياد كالفيلسوف، مثل جان جاك روسو. هذا الجنون يدهشك ولكنه لا يسحرك.

سمع جوليان كلمة أطفأت فيه الخيال وطردت من قلبه كل وهم. فأخذ فمه تعبير الاحتقار المبالغ فيه كما يُظن. وأجاب:

ـ ليس جان جاك روسو في نظري إلا أحمق عندما يهدف إلى الحكم على الطبقة الراقية. لم يكن يفهمها وكان يحمل قلب خادم محظوظ.

وردت ماتيلد بلهجة تعبر عن اعجابها:

ـ لكنه كتب «العقد الاجتماعي».

ـ ولكنه في الوقت الذي كان يدعو للجمهورية ولقلب كل

المفاهيم الملكية، كان هذا الوصولي يسكر من السعادة إذا غيّر دوق اتجاه نزهته بعد تناوله الطعام ليرافق واحداً من أصدقائه.

ـ آه! أجل، الدوق ده لوكسمبورغ في مونمورانسي يرافق السيد كواديه قرب باريس...

قالت الآنسة ماتيلد هذا بلذة وتراخٍ سببتهما أولى مسرات التظاهر بالمعرفة. كانت نشوى من علمها تقريباً كالاكاديمي الذي يكتشف وجود الملك فريتريوس. وظلت نظرة جوليان مخترقة قاسية. أحست ماتيلد للحظة بالحماس، ولكن نظرة رفيقها أصابتها بخيبة عميقة. كانت مندهشة أكثر لأن من عادتها أن تسبب، هي، هذا التأثير على الآخرين.

في هذه اللحظة، إقترب المركيز ده كروازنوا بسرعة نحو الآنسة ده لامول؛ على بعد ثلاث خطوات منها، دون أن يستطيع الوصول إليها بسبب الزحام.

وتطلع إليها ضاحكاً من الحاجز. وكانت المركيزة ده روفاري الشابة قريبة منه، وهي ابنة عم ماتيلد، تعطي ذراعها لزوجها الذي تزوجته قبل خمسة عشر يوماً. وكانت المركيزة ده روفاري، وهي التي لا تزال صغيرة، مسرورة بزواج المصلحة الذي قامت به والذي مهّد له وقام به كتّاب العدل، سعيدة لأنها وجدت

شخصاً جميلاً في السيد ده روفاري الذي سيصبح دوقاً بعد موت عم مسن جداً.

وبينما كان المركيز ده كروازنوا لا يستطيع اختراق الزحام، ويتطلع إلى ماتيلد بوجه بشوش، سمرت عينيها الجميلتين السماويتين عليه وعلى جيرانه. وقالت: ماذا أريد أحسن من هذا ومن هذه المجموعة! ها هو كروازنوا يريد أن يتزوجني؛ لطيف مهذب، وتصرفاته كاملة كالسيد ده روفاري، هؤلاء السادة يصبحون رائعين لو تخلوا عن الضجر الذي يسببونه. هو أيضاً يتبعني في الحفلة بهذه الوجه المحدود المسرور. وبعد سنة من الزواج ستكون عربتي وشعري وأثوابي وقصري على عشرين فرسخاً من باريس، سيكون كل هذا كل ما يمكن، كل ما يجب لنجعل كل الأغنياء الوصوليين يموتون من الحسد، كالكونتيسة ده روافيل مثلاً. وبعد؟

ضجرت ماتيلد من الأمل، واستطاع المركيز ده كروازنوا الاقتراب منها، والتحدث إليها. كانت تحلم دون أن تسمعه؛ كان صوت كلامه يمتزج بضجة الحفلة. وتابعت بعينها جوليان الذي ابتعد باحترام، إنما بفخر وضيق. ورأت في إحدى الزوايا، بعيداً عن الحشد المتحرك، الكونت ألتميرا، المحكوم بالاعدام في بلده. تزوجت إحدى قريباته، إبان حكم لويس

الرابع عشر الأمير ده كونتي، وكانت هذه الذكرى تحميه قليلاً من شرطة المجمع الكنسي.

لا أرى شيئاً يميز الرجل إلا الحكم بالاعدام، فكرت ماتيلد: إنه الشيء الوحيد الذي لا يُشرىٰ.

آه! كلمة رائعة قلتها لنفسي! يا للخسارة، لكم كنت أتمنى أن تأتي في مناسبة تكسبني بعض الفخر!

كانت ماتيلد تتحرق دائمًا لتدخل في حديثها كلمة رائعة أعدت سابقاً. ولكنها لم تكن تملك عزة نفس تمنعها من الاعجاب بنفسها. فغمر وجهها شعور بالسعادة، سرعان ما اختفت منه معالم الضجر. وظن المركيز ده كروازنوا، الذي كان مستمراً في التحدث إليها، إنه حقق بعض النجاح فجال في حديثه.

كيف يستطيع أي خبيث أن يعترض على كلمتي الرائعة؟ قالت ماتيلد لنفسها، سأرد على النقد قائلة: لقب بارون وكونت يمكن شراؤها، والصليب يمكن الحصول عليه، حاز عليه أخي منذ قليل، فماذا فعل؟ والرتبة يمكن الحصول عليها. عشر سنوات في الجندية، أو وزير حربية قريب، ويصبح المرء رئيس فرقة، مثل نوربير الثروة كبيرة!.. إنها أصعب الأشياء وبالتالي تستحقّ التقدير. هذا ما هو غريب! إنه مخالف لكلّ ما تقوله

الكتب.. وبعد! بالنسبة للثروة يكفي أن يتزوج المرء ابنة السيد روتشيلد.

الحقّ أن كلمتي فيها العمق. الحكم بالاعدام هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن للمرء أن يطلبه. وقالت للسيد ده كروازنوا:

ـ هل تعرف الكونت ألتميرا؟

كانت هيئتها تدل على الرجوع من البعيد، ولم يكن للسؤال أيّ علاقة بكل ما كان المركيز ده كروازنوا المسكين يقوله لها منذ خمس دقائق، فأحسّ بالخيبة. ولكنه مع ذلك كان رجلاً ذكياً وهو مشهور بهذه الصفة.

وفكّر: عند ماتيلد بعض الغرابة. إنه عيب ولكنها تعطي للذي يتزوّجها مركزاً اجتماعياً عظيمًا! لا أدري كيف يتصرف المركيز ده لامول. إنه مرتبط بأحسن الروابط مع جميع الأحزاب. رجل لا يمكن أن يأفل. وعلى كل حال هذه الغرابة في ماتيلد قد تكون نوعاً من العبقرية. والعبقرية مع النبل والثروة الكبيرة لا يمكن أن تكون شيئاً مضحكاً؛ أيّ مركز عظيم عندئذ! عندها، عندما تريد، هذا المزيج من خفة الدم والطبع والتمنع الذي يجعل منها الجاذبية الكاملة... ولما كان من الصعب على المركيز

أن يقوم بشيئين في وقت واحد، رد على ماتيلد بهيئة فارغة، وكأنه يسمّع درسه:

ـ ومن لا يعرف المسكين ألتميرا؟

وروى لها قصة مؤامراته الفاشلة المضحكة السخيفة.

قالت ماتيلد وكأنها تحدث نفسها:

ـ سخيفة. ولكنه عَمِلَ. أريد أن أرى الرجل.

ثم تابعت للمركيز الذي أحس بصدمة قوية: أحضره لي.

وكان الكونت ألتميرا واحداً من أشهر المعجبين بهيئة ماتيلد المترفعة اللامبالية. كانت في رأيه واحدة من أجمل نساء باريس.

وقال للمركيز ده كروازنوا وهو ينقاد بسهولة:

ـ لكم تكون جميلة على أحد العروش!

العالم لا ينقصه أناس يريدون أن يثبتوا أن لا أشد إزعاجاً من القيام بمؤامرة. فيها رائحة اليعقوبية. وهل أبشع من يعقوبي غير ناجح؟

كانت ماتيلد تسخر بنظرتها من ليبرالية ألتميرا مع السيد ده كروازنوا، ولكنها كانت تستمع إليه بشغف.

وفكرت: متآمر في حفلة راقصة. تناقض رائع. ووجدت

وجه هذا الكونت يشبه، بشاربيه، وجه الأسد وقت راحته. ولكنها لاحظت سريعاً أن تفكيره يدور حول محور واحد: النفع، الاعجاب بالنفع.

وكان الكونت يجد أن لا شيء جدير بانتباه إلاّ ما يمكن أن تعطيه لبلاده حكومة المجلسين. فترك بسرور ماتيلد، أكثر نساء الحفلة إغراءاً، لأنه رأى جنرالاً من بلاد البيرو.

وبعد أن يئس الكونت من أوروبا، انحصر تفكيره في أنّ دول أميركا الجنوبية، تستطيع عندما تتقوّى أن تردّ لأوروبا الحرية التي أرسلها ميرابو إلى هناك.

اقترب بعض الشبان ذوي الشوارب، من ماتيلد. رأت جيداً أن ألتميرا لم يُسحَر، وأحست بالانزعاج لذهابه، كانت تتطلّع إلى عينيه السوداوين البرّاقتين وهو يتحدث إلى الجنرال. وتطلعت الآنسة ده لامول إلى الشبان الفرنسيين بهذه الهيئة العميقة الرزانة التي لا تستطيع أية من منافساتها أن تقلدها، وفكرت: أي واحد منهم يمكن أن يُحكم بالاعدام، إذا افترضنا أن عنده جميع الظروف المناسبة؟

كانت هذه النظرة الغريبة تخدع بعض قليلي الذكاء، ولكنها تزعج البعض الآخر. كانوا يخافون انفجار كلمة لاذعة يصعب الرد عليها.

إن طيب المنبت يعطي صفات عديدة فقدانها يجرحني: اعرف ذلك من جوليان، ولكنها تضعف صفات النفس التي تسبب الحكم بالاعدام.

في هذه اللحظة قال أحدهم بالقرب منها:

ـ الكونت ألتميرا هو الابن الثاني للامير ده سان نازارو ـ بيمنتل، الذي حاول إنقاذ كونراداان المهزوم سنة ١٢٦٨. هذه العائلة واحدة من أنبل عائلات نابولي.

وقالت ماتيلد لنفسها: هذا ما يثبت حكمتي بشكل واضح. طيب المنبت ينتزع قوة الطباع التي لا يمكن بدونها أن يُحكم المرء بالاعدام! إنني إذن معدّة للخبل هذه المساء. لست إلا امرأة مثل غيرها. وبعد! يجب أن أرقص. ورقت لالحاحات السيد ده كروازنوا، الذي كان يطلب منذ ساعة إحدى الرقصات.

حتى تتسلى ماتيلد عن شقائها في الفلسفة، أرادت أن تكون ساحرة، وكان ذلك سبب انشراح السيد ده كروازنوا.

ولكن، لا الرقص ولا الرغبة في اكتساب إعجاب أجمل شاب في البلاط، استطاعا تسلية ماتيلد. لم يكن بالإمكان إحراز نجاح أكبر، كانت ملكة الحفلة. كانت تحس بذلك ولكن ببرود.

اية حياة منزوية سأعيشها مع مخلوق مثل كروازنوا!

قالت هذا لنفسها بعد أن قادها إلى مكانها بعد ساعة... أين لذّتي! إذا كنت بعد ستة أشهر من الغياب، لا أجدها وسط حفلة أثير فيها حسد كل نساء باريس؟ ثم أنني محاطة بمديح مجتمع لا أستطيع أن أتصور أفضل من تأليفه. ليس من العامة إلا بعض الرجال واثنان أو ثلاثة مثل جوليان.

وأضافت بحزن متزايد: ومع ذلك، أي شيء لم يوفره لي القدر: الشهرة، الغنى، الشباب! كل شيء عدا السعادة.

ما كنت أشك فيه من محاسني، تحدّث الجميع عنه كل السهرة. خفة الدم. أصدق ذلك لأنني أخيفهم جميعاً دون شك. فإذا تجرّأوا وعرضوا موضوعاً جدياً، يصلون في خمس دقائق دون نفس، كأنهم اكتشفوا شيئاً عظيمًا أردده لهم منذ ساعة. إنني جميلة. أملك هذا الشيء الذي كانت السيدة ده ستايل على استعداد لتضحيّ بكل شيء من أجله، ولكن الواقع أيضاً أنني أموت من الضجر. هل من سبب يجعلني أقل ضجراً إذا غيّرت اسمي باسم المركيزة ده كروازنوا؟

أضافت بلهجة تكاد تدل على رغبتها في البكاء: ولكن يا إلهي أليس رجلاً كاملاً؟ إنه تحفة تربية هذا العصر، لا يمكن أن يتطلع إليه أحد دون أن يجد فيه شيئاً جميلاً حبيباً، بل روحانياً. والحق إنه شجاع...

ولكنّ سوريل هذا غريب، قالت لنفسها، فحلّ في نظرتها الغضب مكان التجهم: أبلغته أنني أريد أن أحدثه، وهو لا يتفضل بالظهور!

٩
الحفلة الراقصة

ترف الزينات، وبريق الشموع، والعطور؛ الـزنـود الجميلة والاكتـاف الحلوة؛ بعض الباقات، وألحـان روسيني تسمو بـالأرواح، بعض لوحات سيسري! إنني في عالم غـير عالمي.

رحلة أوزري

قالت المركيزة ده لامول:

تبدين منزعجة؛ وهذه علامة سيئة في الحفلة الراقصة.

وأجابتها ماتيلد بلهجة متضايقة:

ـ أحس بصداع. الطقس حار هنا.

في هذه اللحظة ساءت حالة البارون ده تولي وسقط على الأرض، كأنما ليثبت صحة ما قالته الآنسة ده لامول. واضطر

الجمع إلى نقله. وتحدث الجميع عن الغيبوبة، وعكر هذا الحادث السهرة.

لم تهتم ماتيلد بذلك. كانت مصممة ألا تهتم مطلقاً بالمسنين والذين يعرف عنهم ميلهم للتحدث بالأمور المحزنة.

ورقصت للتخلص من حديث الغيبوبة، والحق أن البارون لم يصب بهذا المرض لأنه عاد للظهور بعد يومين.

وقالت: ولكن السيد سوريل لم يأت. كانت تفتش عنه بعينيها عندما رأته في صالون آخر. حدث شيء غريب. يظهر أنه فقد هيئته الباردة الطبيعية. لا، هيئته لم تعد إنكليزية.

قالت ماتيلد لنفسها: يتحدث إلى الكونت ألتميرا، الذي تمنيت له حكم الاعدام! أن عينيه مليئتان بنار قاتمة، كالأمير المتنكر؛ تضاعفت كبرياء نظراته.

واقترب جوليان من المكان الذي كانت فيه، وهو مستمر في حديثه مع ألتميرا، فحدقت فيه تدرس هيئته لتبحث عن الصفات السامية التي يمكن أن تهب الرجل شرف الحكم عليه بالاعدام. ولما اقتربا منها سمعته يقول للكونت ألتميرا:

ـ أجل، كان دانتون رجلاً!

يا للسماء! هل يكون كدانتون؛ ولكن وجهه نبيل، أما دانتون

فكان بشعاً جداً وجزاراً.

كان جوليان قريباً منها فلم تتردّد في مناداته؛ كانت تعي وتريد أن تسأله سؤالاً غريباً بالنسبة لفتاة شابة فقالت:

ـ ألم يكن دانتون جزاراً؟

رد هو بلهجة تدل على احتقار لم يحسن اخفاءه، ونظراته لا تزال حارة من تأثير حديثه مع ألتميرا:

ـ بلى، في نظر بعض الأشخاص. ولكن، للأسف، بالنسبة لكثير من النبلاء كان محامياً في ميري ـ سور ـ سين.

وأضاف بلهجة خبيثة: بدأ، آنستي، مثل كثير من النبلاء ممن أراهم هنا. ولكن الحق أن طلاقاً دائماً كان بينه وبين الجمال.

تلفظ جوليان بهذه الكلمات بسرعة ولهجة غريبة كانت قليلة التهذيب.

انتظر جوليان لحظة، محنياً قامته قليلاً فأصبحت هيئته تدل على تواضع متكبر، لكأنه كان يقول لها: أقبض لأرد عليك، وأنا أعيش مما أقبضه. لم يتجرأ على رفع بصره إلى ماتيلد؛ أما هي، فكانت بعينيها الجميلتين الزرقاوين ونظراتها المنصبة عليه، كجاريته. وأخيراً بعد أن طال الصمت، تطلع إليها كما الخادم إلى سيده، منتظراً أوامره. ورغم أن عينيه صادفتا عيني ماتيلد

اللتين تتطلعان إليه بنظرة غريبة، ابتعد باستعجال ظاهر.

وأخيراً قالت ماتيلد لنفسها وهي تفيق من أحلامها: لماذا يمتدح القباحة وهو فعلاً جميل؟ لا يفيق إلى نفسه! ليس مثل كايلوس أو كروازنوا. في سوريل هذا بعض من والدي عندما يتكلم على نابليون في الحفلة. نسيتُ دانتون. لا شك أنني أحس بالضجر الليلة. وأمسكت بذراع أخيها، وأجبرته، في غمرة حزنها على القيام بجولة. خطرت على بالها فكرة متابعة حديث المحكوم بالاعدام مع جوليان.

كان الجمع كبيراً، ومع ذلك استطاعت أن تلحق بهما، لحظة كان ألتميرا يقترب، على خطوتين، من إحدى الطاولات ليتناول كأساً. وكان يتكلم مع جوليان، ملتفتاً إليه نصف التفاتة. ورأى ألتميرا يداً تلبس رداء مطرزاً تأخذ كأساً قرب كأسه. وأثار التطريز انتباهه فالتفت تماماً ليرى صاحب هذه اليد. وعندها بان في عينيه النبيلتين الساذجتين تعبير خفيف من الكراهية فقال لجوليان بصوت منخفض:

- ترى هذا الرجل، إنه الأمير داراسولي، سفير... طلب إخراجي من بلادكم صباح اليوم لدى وزير خارجية فرنسا، السيد ده نرفال؛ أنظر، ها هو هناك يلعب «الوست». والسيد ده نرفال مستعد لتسليمي لأن بلدنا سلمتكم اثنين أو ثلاثة

متآمرين سنة ١٨١٦. فإذا سُلمت إلى ملكي، سأشنق في أربع وعشرين ساعة. وسيكون من يقبض عليّ واحداً من هؤلاء السادة ذوي الشوارب.

وصرخ جوليان بصوت عال:

ـ يا للحقارة!

لم يفت ماتيلد حرف من محادثتهما. ذهب عنها ضجرها.

ورد الكونت ألتميرا:

ـ إنهم ليسوا بهذه الحقارة. تحدثت إليك عن نفسي لأعطيك صورة مشرقة. أنظر إلى الأمير داراسولي، يتطلع كل خمس دقائق إلى وشاح «توازون» المذهب، لا يستطيع التخلص من فرحه العامر بهذا الوشاح على صدره. هذا الرجل المسكين رجعي. كان الوشاح، لمئة سنة خلت، شرفاً لا يدانى، ولكنه ما كان ليحظى به. أما الآن، فيجب أن يكون النبيل من عائلة داراسولي ليحس بالاعتزاز به. لو كان عليه أن يشنق مدينة بكاملها ليحصل عليه لفعل.

وقال جوليان بغضب:

ـ وهل حصل عليه بهذا الثمن؟

ورد ألتميرا ببرود:

ـ ليس تماماً. من الجائز أن يكون رمى إلى النهر ثلاثين ملاكاً غنياً من بلاده، كانوا يعتبرون من المتحررين.

وقال جوليان أيضاً:

ـ أي وحش هذا!

الآنسة ده لامول كانت منحنية تتابع الحديث بكل اهتمام، وشعرها الجميل يكاد يلامس كتفه.

وردّ ألتميرا:

ـ لا تزال صغيراً جداً. قلت لك أن لي شقيقة متزوجة في الريف. لا تزال جميلة طيبة، حلوة، إنها أم عائلة مثالية، مخلصة لكل واجباتها، متديّنة غير متعصبة.

وفكّرت الآنسة ده لامول: إلى أين يريد أن يصل؟

وتابع الكونت:

ـ سعيدةً كانت قبل ١٨١٥. وعندئذ تخبأت عندها، في أرضها قرب أنتيباس، وعندما علمت بنبأ إعدام الماريشال «ني» رقصت!

وقال جوليان مصعوقاً:

ـ معقول؟

وتابع ألتميرا:

ـ هذه ذهنية الحزبية. لم تعد عواطف حقيقية في القرن التاسع عشر، ولهذا يحس الجميع بالضجر في فرنسا. الناس يقومون بأكبر أعمال القسوة، دون قسوة.

وقال جوليان:

ـ إنهم أحرار؛ على الأقل عندما يرتكب الإنسان الجرائم، عليه أن يرتكبها بلذة، ليس فيهم شيء حسن غير هذا، ولن يمكن تبريرها قليلاً إلا بهذا السبب.

نسيت الآنسة ده لامول كل اللياقات، ووقفت بين ألتميرا وجوليان، فيما شقيقها، إذ تعوّد أن يطيعها، يعطيها ذراعه وهو يتطلع إلى الصالة، واقفاً بشكل يوهم من ينظر إليه أن الجمهور يضطره لهذا الوضع.

وقال ألتميرا:

ـ معك حق. الجميع يقومون بأعمالهم دون لذة، ودون أن يتذكروا ما قاموا به، حتى الجرائم. أدلك في هذه الحفلة إلى عشرة رجال على الأقل سيحكمون بالشقاء الأبدي كقتلة. نسوا جرائمهم ونسيها الناس.

كثيرون ينفعلون حتى البكاء إذا كسر كلبهم رجله. وفي مقبرة

الأب لاشيز، عندما ترمى الزهور على قبورهم، كما تقولون في باريس، يخبرنا الحاضرون أن كل الصفات الحميدة كانت مجموعة فيهم وعن الأعمال الكبيرة التي قام بها جدهم الذي كان يعيش أيام هنري الرابع. سأجعلك تتناول الطعام يوماً عندي مع ثمانية أو عشرة قتلة معززين لا يحسون بالتأنيب، هذا إذا لم تنجح مساعي الأمير داراسولي لشنقي، وإذا استطعت أن أتنعم بثروتي هنا في باريس.

سنكون، أنت وأنا، في هذا الحفل، الوحيدين الطاهرين. ولكنني سأكون محتقراً، بل ومكروهاً كأنني وحش دموي يعقوبي، وأنت كرجل من العامة فاتتك العشرة الطيبة.

قالت الآنسة ده لامول:

ـ ليس أصحّ من هذا الكلام.

وتطلع إليها ألتميرا بدهشة، أما جوليان فلم يعرها نظرة واحدة.

وتابع الكونت ألتميرا:

ـ لاحظ أن الثورة التي وجدت نفسي على رأسها، لم تفشل إلا لأنني لم أرد قطع ثلاثة رؤوس ولم أوزع لمحبذينا سبعة أو ثمانية ملايين كانت موجودة في صندوقٍ مفتاحه معي. إن مَلكي، الذي يتحرق الآن لشنقي، كان يوشوشني قبل الثورة،

لو قطعت هذه الرؤوس الثلاثة ووزعت المال لكان منحني أعلى رتبة من الوشاح الأكبر، لأنني كنت بهذا أصبت نصف النجاح، ولنالت بلادي شريعة بكاملها... هكذا يسير العالم. لعبة شطرنج.

ورد جوليان بنظرة ملتهبة:

- إذن لا تتقن اللعبة بعد...

- أن أقطع الرؤوس، تريد أن تقول، أن أكون جيرونديا كما أسمعتموني منذ أيام؟ سأرد عليك، قال ألتميرا بحزن: سأرد عليك بعد أن تقتل رجلاً في مبارزة، رغم أن هذا الأمر أقل بشاعة من أن ينفذ الجلاد حكمك بإعدامه.

وقال جوليان:

- وحق إيماني! من يريد النتائج، يطلب الوسائل أيضاً، ولو أنّ لي بعض السلطة، بدلاً من أن أكون ذرة، لكنت أقطع رؤوس ثلاثة لأنقذ رؤوس أربعة.

وعبرت عيناه عن نيران وعيه واحتقاره لأحكام البشر العبثية: وتلاقت بعيني الآنسة ده لامول، حدّه، فازداد هذا الاحتقار، عوض أن يتحول إلى لطف متمدن.

وأحسّت بصدمة عميقة، ولكن لم يعد باستطاعتها تجاهل

جوليان. فابتعدت بحزن ممزوج بالغضب، ساحبة شقيقها.

وقالت لنفسها: يجب أن أكرع شراباً قوياً وأن أرقص كثيراً. سأنتقي أحسن الموجودين، ألفت النظر بأي ثمن. حسناً، ها هو المتحذلق الشهير، الكونت ده فرفاك. وقبلتْ دعوته، ورقصا.

وفكرت: الأمر أن أعرف أيهما أشد حذلقة من الآخر، ولكن عليّ أن أجعله يتكلم إذا أردت أن أسخر منه.

وسرعان ما أصبح جميع الراقصين يتابعون رقصهم لياقة. لم يكونوا يريدون أن يفوتوا إحدى كلمات ماتيلد اللاذعة. واضطرب السيد ده فرفاك، ولما لم يجد إلا الكلمات المنمقة بدلاً من الأفكار، كان يحاول مجاراتها بالحركات والاشارات. وكانت ماتيلد المتضايقة قاسية عليه فجعلت منه واحداً من أعدائها. ورقصت حتى الفجر، ثم انسحبت أخيراً منهوكة القوى. وما تبقى لها من قوة جعلها، وهي عائدة في عربتها، حزينة تعسة. احتقرها جوليان، أما هي فلم تستطع أن تكرهه.

كان جوليان في قمة السعادة؛ سحرته الموسيقى والزهور والنساء الجميلات، والأناقة الغالية، وأكثر من كل شيء: خياله المحلق الذي يحلم بالارتفاع وبالحرية للجميع. وقال للكونت:

ـ أية حفلة رائعة! لا شيء ينقصها.

وردّ ألتميرا:

ـ تنقصها الأفكار.

وخان وجهه احتقارَه الذي جاء لاذعاً، مع أن واجب التهذيب يقضي عليه باخفائه.

ـ إنك مصيب سيدي الكونت. أليس أن الفكرة متآمرة أيضاً؟

ـ إنني هنا بسبب اسمي. ولكنكم تكرهون الأفكار في صالوناتكم. ولكن الرجل الذي يفكر، إذا كان يملك الطاقة والتجديد في تعبيراته، يكون في نظركم مشككاً. أليس هذا هو اللقب الذي أطلقه أحد قضاتكم على كورييه؟ وضعتموه في السجن، مع بيرانجيه. كل من يساوي شيئاً عندكم بتفكيره، يرميه المجلس الكنسي إلى البوليس القضائي، ويصفق المجتمع الطيب.

لأن مجتمعكم الهرم يهتم أولاً باللياقات... لا ترتفعون مطلقاً إلى أكثر من مستوى الشجاعة العسكرية؛ لديكم «مورا» لا واشنطن. لا أرى في فرنسا إلا العجرفة. الرجل الذي يخترع وهو يتكلم يصل بسهولة إلى لفظة متسرعة، فيعتقد سيد المنزل أنه أهين.

عند هذه الكلمات توقفت عربة الكونت، وكان فيها جوليان، أمام قصر ده لامول. أصبح جوليان يتعشق هذا

المتآمر. قال له ألتميرا مديحاً جميلاً، دلّ على قناعة عميقة: ليس لديك خفة الفرنسيين، وأنت تفهم مبدأ النفع. وحدث بالضبط عشية ما قبل الأمس، أن رأى جوليان مسرحية مارينو فالييرو، لكازيمير ده لافيني.

الا يملك برتوتشيو أكثر من صفات جميع نبلاء البندقية؟ قال جوليان الثائر، ومع ذلك، أصل هؤلاء النبلاء يعود إلى العام ٧٠٠، أي قبل قرن من حكم شارلمان، بينما لا يعود نبل هؤلاء الحضور الليلة إلى أبعد من القرن الثالث عشر. وبعد! وسط نبلاء البندقية هؤلاء، وهم نبلاء بالولادة، لا يتذكر الواحد غير برتوتشيو.

مؤامرة واحدة تمحو كل الألقاب التي تعطيها النزوات الاجتماعية. هنا، يتخذ الرجل بسرعة المرتبة التي تفرضها عليه طريقته في مواجهة الموت. الفكر نفسه يفقد مقامه.

ماذا كان دانتون يكون في هذا العصر، عصر فالينو ورينال؟ ولا نائباً عن مدعي عام الملك.

لكان يبيع نفسه للمجلس الكنسي؛ لكان يكون وزيراً، لأن دانتون الكبير سرق. وميرابو أيضاً باع نفسه. ونابليون سرق الملايين في إيطاليا، ولولا ذلك لتوقف ببساطة من الفقر، مثل بيشغرو. لافاييت هو الوحيد لم يسرق. هل من الضروري أن

يسرق الإنسان، أن يبيع نفسه؟ أوقفه هذا السؤال. فأمضى بقية ليلته يقرأ تاريخ الثورة.

في اليوم التالي، لم يفكر، وهو يكتب الرسائل في المكتبة، إلا بحديثه مع ألتميرا.

قال في نفسه بعد أحلام طويلة: وفي الواقع لو تآمر هؤلاء الأسبان المتحررون على الشعب بالجرائم، لما كان بالامكان تصفيتهم بهذه السهولة. كانوا متكبرين ثرثارين...

وصرخ جوليان كأنه يستيقظ فجأة: مثلي أنا!

ماذا فعلت من الأشياء الصعبة يعطيني الحق أن أحكم على هؤلاء الشياطين المساكين تجرأوا للمرة الأولى في حياتهم على البدء في الحركة؟ مثلي مثل رجل يترك المائدة صارخاً: غداً لن آكل، الأمر الذي لن يمنعني أن أكون قوياً نشيطاً مثل اليوم. من يدري بأي شيء يشعر المرء في منتصف الطريق من عمل كبير؟...

قطعت الآنسة ده لامول هذه الأفكار بوصولها المفاجىء، وهي تدخل المكتبة. كان مستغرقاً في إعجابه بصفات دانتون وميرابو وكارنو الذين لم يهزموا، لدرجة أن عينيه وقعتا على الآنسة ده لامول، وهو لم يفكر فيها ولم يحبها، بل لم يرها. وعندما انتبه إلى وجودها أخيراً، انطفأ بريق عينيه. ولاحظت

الآنسة ده لامول ذلك بمرارة.

وطلبت منه مجلّد تاريخ فرنسا لفيلي، وهو على الرف الأعلى، مما كان يجبره على الذهاب وإحضار أطول السلمين. وقرّب جوليان السلم وأحضر المجلد وأعطاه لها دون أن يستطيع التفكير بها. كان لا يزال مستغرقاً في أحلام يقظته. وإذا كان يعيد السلم إلى مكانه، اصطدم كوعه بإحدى مرايا المكتبة، فاستيقظ أخيراً وهو يستمع إلى شظاياها على الأرض. سارع بالاعتذار إلى الآنسة ده لامول. أراد يكون مهذباً، ولم يكن إلا مهذباً. ورأت ماتيلد بوضوح أنها عكرت عليه أحلامه، وإنه كان يسرّ أكثر لو استمر في أحلامه التي كان يعيش فيها قبل وصولها. تطلعت إليه طويلاً، وذهبت ببطء.

تطلع جوليان إليها وهي تمشي. والتذّ لمرأى التناقض بين بساطة زينتها الحالية وأناقة زينتها الرائعة في العشية. وكان الفرق بين الوجهتين أيضاً مما يلفت النظر. نظرة هذه الفتاة، المتألقة في حفلة الدوق ده ريتز، أمس، هي متوسلة الآن.

قال جوليان لنفسه: الحق أن هذا الثوب الأسود يزيد روعة قامتها الجميلة. هيئتها ملكية. ولكن لماذا تلبس ملابس الحداد؟

لو سألتُ أحداً عن سبب هذا الحداد، لأثبتُّ مرة أخرى أنني ارتكب الحماقات. خرج جوليان تماماً من أحلامه العميقة. يجب

أن أعيد تلاوة كل الرسائل التي قمت بكتابتها هذا الصباح. الله يعلم الكلمات التي لم تكتب والسخافات التي سأجدها. ولما كان يعيد قراءة الرسالة الأولى بانتباه شديد، سمع، قريباً منه، حفيف ثوب حريري؛ فالتفت بسرعة، ورأى الآنسة ده لامول على خطوتين من طاولته، تضحك. وكانت هذه المقاطعة الثانية سبباً في عبوس جوليان.

أحسّت ماتيلد أنها ليست شيئاً في نظر هذا الشاب. وكانت ضحكتها هذه محاولة منها لتغطية اضطرابها، ونجحت.

ـ لا شك أنك تفكر بأشياء مهمّة سيد سوريل. أليست بعض النوادر التي تثير الفضول أرسلها إلينا من باريس الكونت ألتميرا؟ قل لي ما هي؛ احترق شوقاً لمعرفتها. سأحتفظ بسرها، أقسم لك! ودهشتْ لهذه الكلمة وهي تستمع لصوتها يتلفظ بها. ماذا إذن، تترجّى تابعها! وازداد اضطرابها.

أضافت بلهجة خفيفة:

ـ ما الذي جعل منك، وأنت بهذه البرودة، مخلوقاً تثير الالهام، كنوع من أنبياء ميكال انج؟

هذا السؤال العنيف غير المباشر جرح جوليان، فعاد إليه كل جنونه، وقال لها فجأة وبهيئة يزداد غضبها باستمرار:

ـ هل أحسن دانتون فعلاً عندما سرق؟ هل كان على ثوربي بيميون وإسبانيا أن يضغطوا على الشعب بالجرائم؟ أن يعطوا جميع المراكز العسكرية وكل المداليات إلى أناس غير جـديرين بهما؟

أفلا يكون من يحمل هذه الصلبان يخافون عودة الملك؟ هل من الضروري ترك كنز تورينو للنهب؟

ثم قال وهو يقترب منها بهيئة مرعبة:ـ

ـ بكلمة، يا آنستي، على من يريد أن يطرد الجهل والجريمة من الأرض أن يمر كالعاصفة ويخبط في الشر.

خافت ماتيلد. لم تستطع تحمل نظرته، فتراجعت خطوتين. وتطلعت إليه لحظة، ثم خجلت من خوفها، فخرجت بخطوات خفيفة من المكتبة.

١٠
الملكة مارغريت

أيها الحب! أي جنون لم تستطع أن تجعلنا
نجد فيه اللذة؟

رسالة راهبة برتغالية

أعاد جوليان تلاوة رسائله. وعندما سمع صوت جرس الغداء قال لنفسه: لكم كنت مضحكاً في نظر هذه الدمية الباريسية! أي جنون في أن أقول لها ما أفكر فيه! ولكن قد لا يكون هذا الجنون كبيراً. الحقيقة في هذه المناسبة، كانت لائقة بي.

لماذا أتت تسألني عن قضايا حميمية! سؤالها متطفل أيضاً. خالفت كل عرف. أفكاري عن دانتون لا تمت بصلة إلى عملي مع والدها وليست ضمن مهماتي التي أقبض عنها.

وعندما وصل جوليان إلى غرفة الطعام، لفت نظره حداد الآنسة ده لامول لأن أحداً من العائلة لم يكن يلبس السواد.

بعد الطعام، وجد نفسه متحرراً من حماسه الزائد انتابه طوال النهار. ولحسن الحظ، كان الاكاديمي الذي يتقن اللاتينية موجوداً على المائدة. قال جوليان:

ـ ها هو الرجل الذي لا يسخر مني كما أظن لو سألته سبب

حداد الآنسة ده لامول ولن يظن أنه حماقة.

وتطلعت ماتيلد إليه بنظرات غريبة. وقال جوليان:

هذا هو دلال نساء باريس كما وصفته لي السيدة ده رينال. لم أكن لطيفاً معها هذا الصباح، ولم أخضع لنزواتها في التحدث إليها. إنني أعلو مقاماً في نظرها. وبدون شك لا يخسر الشيطان شيئاً. سيعرف تعاليها الكريه كيف ينتقم في النهاية. إنني أضعها في التحدي. أي فرق مع ما فقدته! أية طبيعة ساحرة! أية سذاجة! كنت أعرف أفكارها قبلها، كنت أراها تولد، ولم يكن في قلبها ما يعارضني إلا خوفها من موت أولادها. كانت عاطفة معقولة طبيعية حبيبة إلي، حتى عندما كنت أقاسي. كنت أحمق. منعتني أفكاري عن باريس أن أقدّر هذه المرأة حق قدرها.

أي فرق يا إلهي! وماذا أجد هنا؟ التكبر الجاف المتعالي، وكل تفاصيل حب الذات. ليس أكثر.

وقاموا عن المائدة. وقال جوليان:

- يجب أن لا أترك الأكاديمي يزوغ.

اقترب منه عند اقتراب الجمع من الحديقة، وكسا وجهه باللطف والايناس وشاركه في غضبه لنجاح هرناني. وقال:

- لو كنا بعد في وقت الرسائل المختومة!

وصرخ الأكاديمي بحركة مسرحية:

ـ ما كان ليجرؤ عندئذ.

وأورد جوليان بعض كلمات من كتاب: جيورجيك لفرجيل، عندما تحدثا عن إحدى الزهور، ووجد أن لا شيء يضاهي أبيات الأب ده ليل. وبكلمة واحدة، امتدح الأكاديمي في كل شيء. وبعد ذلك، وبلهجة لامبالية قال:

ـ أعتقد أن الأنسة ده لامول ورثت عن إحد أعمامها، وهي تلبس الآن الحداد عليه.

وقال الأكاديمي وهو يتوقف فجأة:

ـ ماذا! أنت من المنزل ولا تعرف جنونها؟ من الغريب أن تسمح أمها لها بهذه الأشياء. ولكن، بيني وبينك، المرء لا يلمع في هذا البيت بقوة شخصيته فحسب، والآنسة ده لامول تسيطر على الجميع بشخصيتها. اليوم هو الثلاثون من نيسان! وتوقف الاكاديمي وهو يتطلع إلى جوليان بهيئة ذكية. وضحك جوليان بشكل ذكي على قدر استطاعته وقال في نفسه: أي صلة يمكن أن توجد بين أن تسيطر على كل من في البيت، ولبس رداء أسود والثلاثين من نيسان؟ يجب أن أكون أكثر بساطة مما أتصور. وقال جوليان وعيونه تتابع السؤال:

ـ اعترف لك...

وقاطعه الأكاديمي وهو يتصور بلذة المناسبة التي تتاح له للقيام بحديث أنيق:

ـ لنقم بدورة في الحديقة. ماذا؟ هل من المعقول إنك لا تعرف ما حدث في الثلاثين من نيسان ١٥٧٤؟

وقال جوليان مندهشاً:

ـ أين؟

ـ في ساحة الاضراب.

كان جوليان مندهشاً لدرجة لم يفهم شيئاً من الأمر. وبرقت عيناه بالبريق الذي يجب أية راوية أن يراه في عيون مستمعيه، بفعل فضوله وانتظاره لشيء سيأتي، يتناسب تماماً مع طباعه. وانتشى الأكاديمي لأنه وجد أذناً عذراء، فحكى لجوليان مطوّلاً كيف أن بونيفاس ده لامول، أجمل فتيان عصره، وهنيبعل ده كوكوناسو، وهو من نبلاء بييمون وصديق بونيفاس، قطع رأساهما يوم ٣٠ نيسان ١٥٧٤ في ساحة الاضراب. وكان السيد ده لامول خليل الملكة مارغريت ده نافار المعبود. وأضاف الأكاديمي: لاحظ أن الآنسة ده لامول تدعى ماتيلد ـ مارغاريت. وكان لامول أيضاً محظوظ الدوق دالنسون في الوقت نفسه وصديق الملك ده نافار الحميم، عند هنري الرابع، زوج عشيقته. وفي ثلاثاء المرفع من ١٥٧٤ هذه، كان البلاط في سان

جرمان مع الملك المسكين شارل التاسع، الذي كان يقترب من الموت بسرعة. وأراد لامول أن ينقذ الأمراء، أصدقاءه، الذين كانت الملكة كاترين ده مديسي تحتجزهم كأسرى في البلاط. وقام بجمع مئتي خيال تحت أسوار سان جرمان، فخاف الدوق دالنسون. وهكذا رمي لامول بين أيدي الجلاد.

ولكن ما يثير الآنسة ده لامول، هو ما اعترفت لي به منذ سبع أو ثماني سنوات، عندما كان عمرها اثنتي عشرة سنة، لأنها فعلاً ذات عقل!.. ورفع الأكاديمي عينيه نحو السماء. ما يثير الآنسة ده لامول في هذه المأساة السياسية، أن الملكة مارغريت ده نافار التي كانت مختبئة في أحد بيوت ساحة الاضراب تجرأت فطلبت من الجلاد رأس عشيقها. وفي الليلة التالية، عند منتصف الليل، أخذت الرأس في عربتها وذهبت تدفنه بنفسها في كنيسة على سفح هضبة مونمارتر.

وصرخ جوليان متأثراً:

ـ ممكن؟.

ـ الآنسة ماتيلد تحتقر شقيقها لأنه، كما ترى، لا يفكّر مطلقاً بكل هذه الحكاية القديمة، ولا يلبس ملابس الحداد في ٣٠ نيسان. ومنذ هذا العذاب الشهير، وحتى تبقى ذكرى صداقة لامول بكوكوناسو، وهو إيطالي كما ترى، تسمي العائلة دائماً

أبناءها هنيبعل. وأضاف الأكاديمي بصوت منخفض:

ـ وكان كوكوناسّو هذا، على قول شارل التاسع نفسه، واحداً من أخسّ القتلة في ٢٤ آب ١٥٧٢... ولكن كيف يمكن أن تجهل، يا عزيزي سوريل، هذه الأشياء وأنتَ في هذا البيت؟

ـ لهذا إذن، نادت الآنسة ده لامول شقيقها، مرّتين خلال الغداء، بهنيبعل. ظننت أنني لم أسمع جيداً.

ـ إنه لوم. من الغريب أن تقاسي المركيزة من هذه الحماقات... سيرى زوج هذه الفتاة العجائب!

وتبع هذه الكلمة بعض الجمل الانتقادية. صدم جوليان بالفرح والحميمية التي بانت في عين الأكاديمي. وفكر: ها نحنُ خادمان مشغولان في النيل من سيدنا. ولكن يجب ألّا أتعجّب من كل ما يقوم به رجل الأكاديمية هذا.

ذات يوم، فاجأه جوليان راكعاً أمام المركيزة ده لامول. كان يطلب منها إجازة زراعة التبغ لأحد أقربائه في الريف. وفي المساء أخبرته خادمة صغيرة كانت تغازله، مثل إليزا في السابق، وأعطته فكرة أن حزن سيدتها لم يكن للفت النظر. هذه الغرابة تعود في الواقع إلى طبعها. كانت تحب لامول، عشيق أكثر الملكات ذكاء في عصرها، وهو مات فيما يريد تحرير أصدقائه! وأي أصدقاء! ولي العهد وهنري الرابع.

وجوليان، المعتاد على التصرف الطبيعي كان ينبع من حركات السيدة ده رينال، لم يكن يرى إلا تصنعاً لدى نساء باريس، ولم يكن يجد شيئاً يقوله لهن وهو الذي كان قليل الاستعداد لتقبل الأحزان، في حين كانت الآنسة ده لامول فريدة في تصرّفاتها.

وبدأ يغيّر نظرته إلى جمالها الذي كان يعتبره دليلاً على جفاف عاطفتها. وجرت بينه وبين الآنسة ده لامول أحاديث طويلة إذ كانت تتنزه أحياناً معه بعد الغداء في الحديقة على طول نوافذ الصالون المفتوحة.

ذات يوم قالت له إنها تقرأ تاريخ دوبينييه وده برانتوم.

وفكّر جوليان: غريب. والمركيزة لا تسمح لها بقراءة روايات والتر سكوت.

وحكت له في أحد الأيام، وعيناها تشعان بالبريق يدل على إعجابها الحقيقي، عن فتاة شابة عاشت أيام حكم هنري الثالث، قرأت عنها في «مذكرات النجمة»، وكيف عندما رأت زوجها غير مخلص، طعنته بنفسها.

وانشرح جوليان. أن شخصاً مثلها يحيطه الاحترام الكبير، ويقود كل من في القصر، على حد قول الأكاديمي، تنازل وتحدث إليه بلهجة أقرب ما تكون إلى الصداقة.

وسرعان ما فكر جوليان: خدعت. ليست الصداقة، إنني

لست سوى رفيق حكايات فاجعة. إنها بحاجة للتحدث. إنني عالم بالنسبة لهذه العائلة. سأقرأ برانتوم ودوبينييه، والنجمة. وسأستطيع مناقشة بعض الحكايات التي تحدثني عنها الآنسة ده لامول، وسأخرج عن دوري كمستمع سلبي.

وشيئاً فشيئاً أصبحت محادثاته في هذه الفتاة الشابة الوقورة والسلسة، مثيرة للاهتمام، فنسي دوره الحزين كفردٍ ثائر من عامة الشعب، ووجدها واسعة الإلمام، بل ومفكّرة. كانت آراؤها في الحديقة مختلفة تماماً عن آرائها في الصالون، إذ كانت في بعض الأحيان متحمسة صريحة مما يشكل تناقضاً كاملاً مع طريقتها الاعتيادية المتعالية الباردة.

قالت له ذات يوم أن حروب الجامعة، هي الزمن البطولي بالنسبة لفرنسا، ولمعت عيناها ببريق العبقرية والحماس. كان كل واحد، في ذلك الوقت، يقاتل للحصول على ما يريده لينصر حزبه، لا ليربح، بجبن، صليباً، كما كان يحدث أيام امبراطورك. اعترف أن الأنانية والصغارة كانت أقل منها في ذلك الوقت. أحب ذلك العصر.

وقال لها جوليان:

ـ كان بونيفاس ده لامول بطلاً.

ـ كان محبوباً على الأقل، ومن الجميل أن يكون المرء كذلك.

أية امرأة تعيش الآن ولا تقشعر هلعاً عند لمس رأس حبيبها المقتول؟

ونادت السيدة ده لامول ابنتها. يجب أن لا يظهر الخبث لكي يكون ذا فائدة. وجعل جوليان من الآنسة ده لامول، كما رأينا، رفيقة يعترف لها بإعجابه بنابوليون.

قال جوليان إذ بقي وحده في الحديقة:

ـ هذه هي الحسنة الكبرى التي يملكونها ونحن لا. تاريخ أجدادهم يرفعهم أعلى من المشاعر العادية، وهم لا يفكرون دائمًا في حياتهم وحدها! أي بؤس! وأضاف بمرارة: إنني غير جدير أن أفكر بهذه الأحاسيس الكبرى. حياتي سلسلة من التصرفات الجوفاء. لا أملك مدخولاً قدره ألف فرنك لاشتري القوت.

وقالت له ماتيلد وهي تعود راكضة:

ـ بماذا تحلم هنا يا سيدي؟

كان جوليان تعب من احتقار نفسه، وقال فكرته بصراحة وكبرياء. اكتسى وجهه بالاحمرار وهو يتحدّث عن فقره إلى فتاة غنية. فحاول أن يعبّر جيّداً، بلهجته الفخورة إنه لا يطلب أيّ شيء. ورأته ماتيلد جميلاً أكثر من أيّ وقت مضى. رأت فيه تعبير الحساسية والصراحة التي كانت تفتقدهما دائمًا فيه.

بعد شهر، كان جوليـان يتنزه وحيـداً في حديقـة قصر ده لامول، ولكن هيئته كانت فقدت طابع القساوة والفلسفة التي كانت تشوب دائمًا إحساسه بالنقص. إنه عائد من مرافقة الآنسة ده لامول إلى باب الصالون، وكانت ادّعت أنها تحس بألم في رجلها وهي تركض مع شقيقها.

قال جوليان في نفسه: استندَت إلى ذراعي بشكل فريد! هل أنا أبله، أو أنها تحس ببعض الميل نحوي؟ تصغي إلي بأذن ناعمة، حتى عندما أحدثها عن آلام كبريائي! هي، المتكبرة مع الجميع! سيدهشون لو رأوها على هذه الصورة في الصالون. ليست حتمًا بهذا الشكل الناعم اللطيف مع أيٍّ كان.

وكان جوليان يحاول ألا يبالغ في هذه الصداقة الغريبة. كان يشبّهها بالتجارة المسلحة. كان يتساءل كل يوم، عندما يراها، وقبل أن يبدأ الحديث؛ هل سيكونان اليوم أصدقاء أم أعداء؟ وفهم جوليان أنه إذا ترك نفسها يهان مرة واحدة من هذه الفتاة الشابة المتعالية، معنى هذا خسارة كل شيء. فإذا كان لا بد من الافتراق والخصام، من الأولى أن يكون هذا منذ البداية، عند دفاعي عن حقوق كبريائي الصحيحة، يكون بالرد على كل علامات الاحتقار الذي سيتبعه أقل تهاون بكرامتي الشخصية.

وحاولت ماتيلد، في بعض الأيام التي أحست فيها بمزاج متعكر، أن تخاطبه بلهجة السيدة النبيلة المتكبرة، وكانت

تستخدم كل لباقتها في زج الكلمات القاسية بشكل منمق أملس، ولكنّ جوليان كان يردّ عليها دائمًا بقسوة.

ذات يوم قاطعها فجأة وقال لها:

ـ أليس لدى الآنسة ده لامول أية أوامر تلقي بها إلى أمين سر والدها؟ عليه الاستماع إلى أوامرها وتنفيذها باحترام، ولكن على كل حال، دون أن يوجّه إليها أية كلمة. لا يقبض أتعابه لقاء التصريح بأفكاره.

وهذه الطريقة في المعاملة، والشكوك الغريبة التي كانت لدى جوليان، أبعدَت شبح الضجر الذي كان جوليان يحس به في الصالون الرائع الجميل، حيث الانسان يخاف من كل شيء، دون أن يتندّر على أي شيء.

سيكون من المسلي أن تحبني! وتابع:

ـ سواء أحبتني أم لا، فرفيقة اعترافاتي فتاة ذكية، جميع من في البيت يرتجفون أمامها، وأكثرهم خوفاً هو المركيز ده كروازنوا. هذا الكامل التهذيب، اللطيف الشجاع الذي يجمع كل الخصال النبيلة والمادية تكفي إحداها لانشراح صدري! إنه يحبها بجنون. وعليه أن يتزوجها. لكم كتبت رسائل كلفني بها المركيز ده لامول إلى كتاب العدل ليعدّوا العقد! وأنا، أرى نفسي في الدرجة الدنيا، ممسكاً الريشة، بعد ساعتين، هنا في الحديقة، أنتصر

على هذا الشاب الذي يثير الاعجاب. قد تكون هي تكره فيه زوجها المقبل. إنها أكبر من هذا. أما اللطف الذي تبديه نحوي، فإنني أناله كرفيق من طبقة أدنى!

ولكن لا، إمّا أنني مجنون أو أنها تغازلني. وكلما تظاهرت بالبرودة نحوها، تبعتني. قد يكون معنى هذا إنها تميل إلي، ولكنني أرى عينيها تلمعان عندما أتكلم دون تحضير. هل تتقن نساء باريس التمثيل إلى هذه الدرجة؟ سيّان لديّ! أحكم على المظاهر، فلأتمتع بها. يا إلهي، لكم هي جميلة! لكم تعجبني عيناها الكبيرتان الزرقاوان، عندما أراهما عن قرب تتطلّعان إلي، كما تفعلان كثيراً! أيّ فرق بين ربيع هذه السنة وربيع العام الماضي، عندما كنتُ أعيش تعيساً، أقاوم بقوة طباعي، ثلاثمائة أناني خبيثَ قذر! كان خبثي يعادل خبثهم تقريباً.

كان جوليان يفكر في فترات شكه: هذه الصبيّة تسخر مني. متفقة مع أخيها لتحقرني. ولكن مظهرها يدل أن الصبية تحتقر مظهر أخيها البارد الخالي من الطاقة! قالت لي: انه شجاع، ليس إلا. ما لديه أيّة فكرة تبعده عن المجتمع وأحواله. وأنا أضطر دائماً للدفاع عنه. صبيّة في التاسعة عشرة! فهل يمكنها أن تكون مخلصة دائماً للخطط التي أعتزم القيام بها؟.

ومن جهة أخرى، ألاحظ أن الكونت نوربير يسارع بالابتعاد كلما تطلعت إلي الآنسة ده لامول بعينيها الكبيرتين الزرقاوين، بذلك التعبير الغريب. وهذا يثير شكوكي. أليس عليه أن يحس بالاهانة إذا ميزت شقيقته خادماً في المنزل؟ سمعت الدوق ده شولن يتحدّث عني بهذا الشكل هل هو التعلق باللهجة القديمة عند هذا الدوق المتعجرف؟

إنها جميلة! تابع جوليان بنظراتٍ كنظراتِ النمر. سأقطفها ثم أذهب، والويل لمن يزعجني في هروبي!

أصبحت هذه الفكرة شغل جوليان الشاغل، فلم يعد يستطيع أن يفكّر في شيء آخر، ومرّت الأيام عليه كالساعات.

كلما حاول أن يشغل نفسه بعملية جدية، يسبح فكره تاركاً كل شيء، ثم يستيقظ بعد ربع ساعة، قلبه يهفو، ورأسه مضطرب يحلم بهذه الفكرة: ترى هل تحبني؟

١١
نفوذ فتاة

أعجب بجمالها، ولكنني أخاف تفكيرها.

ميريميه

لو تفحص جوليان ما يدور في الصالون حوله، وهو يزداد إعجابه بجمال ماتيلد، أو يتحيز ضد تعالي عائلتها الذي نسيته لأجله، لفهم طاقة نفوذها على كل ما يحيط بها. فالآنسة ده لامول، عندما تتضايق من أحد، تعرف كيف تعاقبه بنكات لاذعة منتقاة تطلقها بشكل يزداد الاحساس بجراحها كلما ازداد المشتوم تمعناً فيها. ورويداً رويداً أصبحت تقسو بشدّةٍ على المعجبين بأنفسهم. ولما لم تكن تقيم وزناً لكثير من الأشياء التي كانت في نظر العائلة أشياء مرغوبة، كانت تظهر دائمًا، بالنسبة إليهم، كفتاة باردة. الحديث عن صالونات الارستقراطية لذيذٌ بعد الخروج منها، وهذا كل شيء. التهذيب وحده ليس كلّ شيء إلا في الأيام الأولى. أحسّ جوليان بهذا. كان يقول: التهذيب يصبح، بعد الدهشة الأولى، بعد اللذة الأولى، مقتصراً على إنعدام الغضب الذي تسببه التصرفات السيئة. وكانت ماتيلد غالباً ما تضجر من ذلك، بل تتضايق في أي مكان. ولهذا كان التلفظ ببعض الانتقادات اللاذعة تسلية لها

ولذة حقيقية.

تركت باب الأمل مفتوحاً أمام المركيز ده كروازنوا والكونت ده كايلوس واثنين أو ثلاثة شبان آخرين من الطبقة الراقية، لتصيب بلذعاتها ضحايا أكثر تسلية من حدودها، كالأكاديمي وخمسة أو ستة من الاتباع يظهرون لها الود ويغازلونها. إنهم لم يكونوا إلا ضحايا جدداً لتعبيراتها اللاذعة.

تلقت رسائل من بعضهم، وأجابت عن بعضها. كانت شخصية غريبة في عصرها. تصرفاتها لم تكن هي نفسها التي تلام عليها تلميذات القلب الأقدس النبيلات.

ذات يوم، أعاد المركيز كروازنوا رسالة جريئة صريحة إلى ماتيلد كانت كتبتها له في العشية. وظن أنه يصلح، بهذا التصرف الحكيم، أموره إلى حد بعيد. ولكن ماتيلد كانت تحب في رسائلها قلة التبصر وكانت لذتها أن تقامر بمصيرها. فامتنعت عن توجيه الكلام له ستة أسابيع.

كانت تتسلى برسائل هؤلاء الناس. ولكن جميع الرسائل كانت، في نظرها، متشابهة. الحب العميق الحزين ذاته.

كانت تقول لابنة عمها:

ـ دائمًا الرجال الكاملون المستعدون أبداً للذهاب إلى فلسطين حجاجاً. هل تعرفين أبلد من هذا؟ هذه الرسائل سأتلقاها طوال

حياتي! لن تتغير إلا بعد عشرين عاماً، مع تغير طراز الحياة. كانت أقل زينة في عهد الامبراطورية. وعندها لا بد أن هؤلاء الشبان النبلاء، رأوا أو قاموا ببعض الأعمال العظيمة فعلاً. كان الدوق ده نـ . . . ، عمي، في واغرام.

وقالت الآنسة سانت أيريدتيه، ابنة عمر ماتيلد:

ـ أي ذكاء يقتضيه رمي الرمح؟ ثم عندما يحدث لهم هذا، يتحدثون عنه إلى الأبد.

وبعد! هذه الحكايات تلذ لي، أن أكون في معركة حقيقية، معركة قام بها نابليون، حيث يقتل عشرة آلاف جندي. هذا ما يبرهن عن الشجاعة. التعرض للأخطار يسمو بالنفس، وينقذها من الضجر الذي يظهر أن هؤلاء المعجبين غارقون فيه، وهذا الضجر معدٍ. أيٌّ واحد منهم لديه فكرة القيام بشيء غريب؟ إنهم يريدون يدي، أية عملية موفقة! إنني غنية. ووالدي سيكون سبب تقدم صهره. آه! هل يمكن أن أجد واحداً أكثر تسلية منهم!

كانت طريقة ماتيلد الواضحة الطريفة للتمتّع بالحياة تعكّر لهجتها كما رأينا. فغالباً ما كانت كلمة من كلماتها، في نظر أصدقائها المهذّبين، تثير الفضيحة. كانوا على استعداد للاعتراف إنها تستخدم هذه التعابير لزيادة نعومتها الأنثوية، لو كانت تتّبع

طرق التعبير المألوفة.

أما هي، فكانت قاسية على هؤلاء الفرسان الجميلين يتبخترون في غابة بولونيا. كانت ترى المستقبل بقرف نادر في من هم في سنها، وليس بفزع، لأنّ هذا إحساس عنيف.

ماذا يمكن أن تحلم به؟ الثروة، النبل، الذكاء الجمال كما يقال وكما تعتقد، كان لديها كل شيء بعامل الصدفة.

تلك كانت أفكار الوريثة التي تحسدها ضاحية سان جرمان، حين بدأت تجد لذة في التنزة مع جوليان. دهشت من كبريائه، وأعجبت بمهارة هذا البورجوازي الصغير.

وقالت في نفسها: سيعرف كيف يصبح كاهناً، مثل الأب موري.

وسرعان ما أصبح هو مشغولاً بمقاومته الصادقة غير المتكلفة يتلقى بها بعضاً من أفكارها. كانت تفكر فيه، وتروي لصديقتها أدق تفاصيل محادثاتها، وتجد أنها لا تتوصل إبداً إلى تبيان كل روعتها.

وقالت لنفسها ذات يوم بفرح لا يصدق، وهي تحس أن فكرة حلوة تهدهدها: أحس بسعادة الحب. إنني أحب، إنني أحب، هذا واضح! أين تستطيع فتاة شابة في سني، جميلة ذكية، أن تجد السعادة إذا لم يكن في الحب؟ مهما فعلتُ، فلن

أحب كروازنوا وكايلوس، والبقية؛ كاملون، كاملون أكثر من اللازم. ولكنهم في النهاية يثيرون ضجري.

وراجَعَت في ذهنها كلّ أوصاف الغرام الذي قرأته في مانون ليسكو وهيلوييز الجديدة، ورسائل راهبة برتغالية، الخ... الخ... لم يكن الأمر طبعاً إلا الحب الكبير. الحب السطحي لم يكن جديراً بفتاة في عمرها ونبلها. لم تكن تطلق لفظة الحب إلا على هذا الشعور البطولي الذي كان في فرنسا، أيام هنري الثالث، وباسومبير. هذا الحب لا يتراجع أمام الحواجز، ولكن يذهب إلى أبعد من التغلب، إلى القيام بأعمال خارقة. أية تعاسة لي لو لم يكن حبي حقيقياً كحب كاترين ده مديسي أو لويس الثالث عشر! أحس أنني في مستوى كل ما هو جريء سام. أي شيء لا أستطيع القيام به برجل ملك، مثل لويس الثالث عشر، يتنهد على قدميّ! سأقوده إلى «مانديه» كما يقول البارون ده توللي غالباً؛ ومن هناك يسترجع ملكه. وعندئذ، لن تبقى شريعة... وسيعينني جوليان؛ ماذا ينقصه؟ الأسم، والثروة. سيخلق لنفسه إسمًا، وسيكتسب الثروة.

لا شيء ينقص كروازنوا، ولن يكون في حياته إلا دوقاً نصف رجعي، نصف تحرري، إنساناً غير واضح، معتدلاً، وبالتالي سيظل ثانياً في كل المجالات.

أيّ عمل كبير لا يشكل تطرفاً في اللحظة التي يبدأ به صاحبه؟ إنه عندما يتحّقق يصبح ممكناً بالنسبة للبقية. أجل! إنه الحب مع كل معجزاته الذي سيسّود قلبي. أحس ذلك بالنار التي تحييني. كانت السماء مدينة لي بهذه النعمة. لم تجمع في شخصي كل هذه المؤهلات عبثاً. ستكون سعادتي جديرة بي، ولن يشابه يومي اليوم، الذي مرّ بالأمس. إنني الآن كبيرة جريئة في حبي لرجل بعيد عني بمركزه الاجتماعي؛ هل سيستمر جديراً بي؟ سأتركه عندما أرى أول حركات ضعفه. فتاة نبيلة مثلي، ذات طبع فروسي، كما يقول والدي، لا يجب أن تقاد كحمقاء.

أليس هذا هو الدور الذي كنت سأقوم به لو أحببت المركيز ده كروازنوا؟ سأحصل على تهنئة جديدة من بنات عمي، اللواتي أكرههن. أعرف مسبقاً كل ما سيقوله لي المركيز المسكين، وكل ما سأردّ عليه به. أي حب هذا الذي يجعل صاحبه يتثاءب؟ الأفضل أن أكون متدينة. سيتم توقيع عقد كما حدث لبنات عمي، ويشعر الجدود بالحنين، إذا لم يكونوا يحسون بالغضب من شرط أخير وضعه في العقد عند العشية كاتب عدل الفريق الآخر.

١٢

هل يكون كدانتون؟

الحاجة إلى القلق، من طباع مارغريت ده فالوا الجميلة، عمتي، تزوجت ملك ده نافار، الذي يحكم حالياً فرنسا تحت اسم هنري الرابع. كانت الحاجة إلى اللعب طباع هذه الأميرة الناعمة، ومن هنا نزاعاتها ومصالحاتها مع أخوتها منذ سن السادسة عشرة. ولكن ما تستطيعه صبيّة؟ أثمن ما تملكه هو سمعتها واحترام كل حياتها.

من مذكرات دوق آنغوليم
ابن شارل التاسع الطبيعي

بين جوليان وبيني، ليس من عقد موقّع، ولا كاتب عدل، كل شيء بطولي، كل شيء سيكون وليد الصدف. يعوّض النبل الذي ينقصه بحب مرغريت ده فالوا للشاب لامول، أشهر الرجال في عصره. هل غلطتي إذا كان رجال البلاط محبّذين متحمسين للياقات، ويشحب لونهم إذا مرت في بالهم فكرة عابرة للقيام بمغامرة غريبة نوعاً؟ رحلة بسيطة إلى اليونان أو أفريقيا، بالنسبة إليهم، شجاعة فائقة، إضافة إلى أنهم لا يعرفون السير إلا مع جماعة. وعندما يرون أنفسهم منفردين، يخافون، ليس من رمح أحد البدو، بل من السخرية، ويجعلهم

هذا الخوف مجانين.

جوليان على العكس، لا يحب العمل إلا وحيداً. لا يمكن مطلقاً أن تخطر على بال هذا المخلوق المميّز، أيّة فكرة في طلب عون الآخرين! يكرههم، ولذلك لا أكرهه أنا.

لو كان جوليان نبيلاً رغم فقره، حبي يكون حماقة بشعة. علاقة سيئة لا أريدها. لن يكون ما يفرق بين الحب الكبير وغيره؛ ضخامة العقبات وعدم الثقة بالحدث.

وكانت الآنسة ده لامول منهمكة في هذا التفكير حتى إنها امتدحت جوليان، دون أن تشعر، أمام أخيها والمركيز ده كروازنوا. وكانت فصاحتها فياضة فأحسّا بالوخز. صرخ أخوها:

- إحذري هذا الشاب الذي يملك كل هذه اللطافة. سيقطع رؤوسنا كلنا بالمقصلة إذا عادت الثورة.

تحفظت في الاجابة، وأسرعت بممازحة أخيها والمركيز حول الخوف الذي تسببه لهم هذه اللطافة. ليس إلا الخوف من مصادفة أشياء غير متوقعة، الخوف من الاحساس بالضآلة أمام هذه الأشياء...

- دائمًا دائمًا أيها السادة، الخوف من السخرية، هذا الوحش الذي مات سنة ١٨١٦.

ليس ما يضحك في بلاد فيها حزبان. هذا كلام السيد ده لامول، فهمت ابنته هذه الفكرة. فقالت لأعداء جوليان:

ـ وهكذا أيها السادة، ستخافون طوال حياتكم ثم يقال لكم آخر الأمر:

لم يكن أيّ ذئب. كــان خيـــالـــه!

وتركتهم ماتيلد بسرعة. ارتعبت من كلمة أخيها. تضايقت منها كثيراً. ولكنها في اليوم التالي، رأت فيها أحسن كلمات المديح.

ففي هذا العصر الذي ماتت معه النشاطات، كان نشاطه يثير فزعهم. سأقول له كلمة أخي، أريد أن أسمع جوابه، ولكنني سأنتقي لحظة من اللحظات التي تبرق فيها عيناه، فلن يكون باستطاعته أن يكذب.

ثم أضافت بعد فترة من الأحلام الغامضة: سيكـون مثل دانتون! ستبدأ الثورة من جديد. فأي دور يلعبه ده كروازنوا وأخي عنـد ذلـك؟ معـروف مسبقـاً: الاستســلام الســامي. سيكونون حملاناً بطوليين، تترك نفسها للذبـح دون أن تنبس بكلمة. خوفهم الوحيد سيكون عندئذ أن يكونوا قليلي الذوق. أما جوليان فإنه سيحرق رأس اليعقوبي الذي يأتي لتوقيفه، لو كان أي أمل لانقاذ نفسه. لا يخاف أن يكون قليل الذوق.

جعلتها هذه الكلمة تفكر. أيقظت في نفسها ذكريات قاسية وانتزعت منها كل شجاعتها. تذكرت مزاح ده كايلوس وده كروازنوا وده لوز وأخيها. كانوا ينتقدون في جوليان مظهر القسيس: الخنوع الخبيث.

استدركت فجأة وعيناها تلمعان ببريق الفرح: لكن مزاحهم الحادّ المتواصل يثبت رغمًا عنهم، أنه أحسن الرجال رأيناهم هذا الشتاء. ماذا تهمّ تصرفاته ومضحكاته؟ إنه عظيم، وهذه العظمة تصدمهم، هم الطيبون الخنوعون. إنه فقير. درس ليصبح قسيساً؛ أما هم فرؤوساء فرق وليسوا بحاجة إلى الدرس؛ أن هذا أكثر بساطة.

ورغم كل مساوىء بذلته الأبدية السوداء، ووجه القسيس، الذي لا بد منه، ليحصل على قوته ويأمن الموت جوعاً، جدارته تثير رعبهم. ليس أوضح من هذا. ولكن هيئة القسيس هذه تزول عندما نكون وحدنا معاً، ولو للحظة. وعندما يقول هؤلاء كلمة يعتقدون أنها ناعمة غير متوقعة، ألا تتجه أنظارهم فوراً إلى جوليان؟ لاحظت هذا جيداً؛ ولكنهم مع ذلك يعرفون أنه لن يكلمهم أبداً، إلا إذا سألوه. لا يوجه الحديث إلا إليَّ، يعتقد أنني النفس الكبيرة الوحيدة. إنه لا يرد على كلماتهم إلا بأقل قدر ممكن ليحفظ تهذيبه. ثم ينتقل إلى الاحترام الصامت. معي يتكلم ساعات بكاملها. لا يكون واثقاً من أفكاره ما دام

لدي بعض الاعتراضات. وأخيراً، مضى هذا الشتاء دون أن يصار إلى إطلاق الرصاص. يحاول أن يلفت الأنظار بكلماته. وبعد، أبي، الرجل المتفوق الذي ضاعف ثروة البيت، يحترم جوليان. الباقون يكرهونه. إن أحداً منهم لا يحتقره ما عدا صديقات أمي المتدينات.

كان الكونت ده كايلوس مولعاً أو يتظاهر بالولع بالجياد، فكان يقضي أيامه في أسطبله، وغالباً ما يتناول طعامه هناك. وهذا الولع الكبير، بالاضافة إلى عدم تعوّده الضحك، كان يكسبه احتراماً كبيراً من أصدقائه: كان نسر هذه الحلقة الصغيرة.

وبعد أن اجتمعوا في العشية وراء كرسي السيدة ده لامول، ولم يكن جوليان حاضراً، قام الكونت ده كايلوس يسانده كروازنوا ونوربير، وهاجم الفكرة الطيبة التي كونتها ماتيلد عن جوليان، دون أي مناسبة، وتقريباً في اللحظة الأولى التي رأى فيها الآنسة ده لامول. فهمت هذه اللفتة وانشرح صدرها منها.

وقالت لنفسها: ها هم اجتمعوا ضد رجل عبقري لا يملك عشر ليرات من المدخول، ولا يستطيع أن يرد عليهم إلا إذا سألوه. يخافون منه في ثوبه الأسود. ترى ماذا يفعلون لو لبس مثل ثيابهم؟

كانت أبرع منها في أيّ يوم سابق. فمنذ لحظات الهجوم الأولى سخرت من مزاح كايلوس وحلفائه، وجعلتهم مضغة الأفواه. وعندما خبت نيران مزاح هؤلاء الضباط اللامعين، قالت للسيدة ده كايلوس:

ـ إذاً غداً عرف واحد من نبلاء الجبال في فرانش كونتيه إن جوليان هو ابنه الطبيعي فأعطاه اسمه وبضعة آلاف من الفرنكات كمدخول دائم، سيصبح في ستة أسابيع ذا شاربين مثلكم أيها السادة، وفي ستة أشهر، ضابطاً في فرقة الخيالة الخفيفة مثلكم. وعندها لن تروا في عظمة طباعه ما يضحك. وسأراك، أنت، يا دوق المستقبل، تعود إلى تفكيرك البالي القديم: تفوق نبلاء البلاط على نبلاء الريف. ولكن ماذا يتبقى لك لو حدث أن دفعتكم إلى النهاية، لو افترضت أن والد جوليان هو دوق إسباني، أسر في بزانسون أيام نابليون، اعترف به على فراش الموت بعد أن أنّبه ضميره.

ووجد السيدان ده كايلوس وده كروازنوا أن هذه الافتراضات حول أصل جوليان كانت سمجة. وهذا هو كل ما رأوه في منطق ماتيلد.

رغم سيطرة ماتيلد على نوربير، كانت كلماتها واضحة حتى انزعج، وبان ذلك على وجهه مما لم يكن يتناسب، مع وجهه

البشوش الطيب. فتجرأ وقال بضع كلمات. وردّت عليه ماتيلد قائلة بلهجة جديدة نوعاً:

ـ هل أنتَ مريضٌ يا صديقي؟ لا بدّ أنكَ متألمٌ لتردّ على بعض النكات بالأخلاق. أنت تنادي بالأخلاق! هل تطمح إلى مركز محافظ؟

ونسيت ماتيلد بسرعة هيئة الكونت ده كايلوس المتضايقة، وانزعاج نوربير ويأس ده كروازنوا الصامت. كان لا بد لها من أن تقرر موقفها من فكرة حتمية استحوذت على مشاعرها.

وقالت لنفسها: جوليان صادق معي. مَن في سنه وفقره وتعاسته بطموحه، بحاجة إلى صديقة. وقد أكون له هذه الصديقة. لا أرى في عينيه الحب. كان حرياً به لو أحبني أن يقول لي ذلك نظراً لجرأة طبعه.

وكان هذا الشك وهذه المناقشات مع نفسها لا تفارقها لحظة واحدة، كلما خاطبها جوليان. كانت تجد براهين جديدة تشغلها فزالت لحظات الضجر التي كانت في السابق عرضة له.

إنها ابنة رجل واسع الحيلة قد يصبح وزيراً وينعم على رجال الدين، وكانت هدفاً للمديح الزائد في مدرسة القلب الأقدس. وكان هذا الشقاء لا يعوض. اقنعوها إنها يجب أن تكون أسعد

من غيرها نظراً لنبلها وثروتها. . . السيء هذا هو مصدر ضجر الأمراء وسبب كل تصرفاتهم المجنونة.

ولن تتخلص ماتيلد من التأثـير لهذه الفكـرة، ومهما كـان الانسان مفكراً، لا يستطيع وهو في العاشرة أن يتجنب تأثير امتداح دير بأكمله، وكان الواقع يظهر هذا المديح خالياً من الصحة.

لحظة عرفت أنها تحب جوليان، فارقها ضجرها إلى الأبد. كانت تعجب بنفسها كل يوم للقرار الذي اتخذته في منح نفسها هذا الحب الكبير. وفكرت: هذه التسلية لها مخاطرها. لا بأس! ألف لا بأس!

كنت، دون هذا الحب الكبير، فريسة للضجـر في أغلب مراحل حياتي منذ السادسة عشرة حتى العشرين. فقدت أحلى سني عمري استمع مضطرة إلى حديث العجائز أصدقاء أمي، اللواتي لم يكنّ في كوبلانتز عام ١٧٩٢ قاسيات إلى هذا الحد.

كان جوليان لا يفهم نظراتها الطويلة إليه عندما تكون عرضة لهذه الشكوك التي تثير اضطراب ماتيلد. أحس ببرودة الكونت نوربير تتضاعف، وازدياداً في تعالي السادة ده كايلوس وده لوز وده كروازنوا. اعتاد على ذلك. كان يحسّ بهذا الشقاء بعض المرات بعد سهرة لمع فيها بشكل لا يتناسب مع مركزه. ولولا

الاستقبال الخاص الذي كانت تلقاه به ماتيلد، ولولا فضوله لمعرفة هذا الوسط، لتجنب اللحاق بهؤلاء الشبان اللامعين ذوي الشوارب إلى الحديقة، عندما كانوا يرافقون الآنسة ده لامول بعد الغداء.

قال جوليان لنفسه: لا يمكن أن أخفي على نفسي أن الآنسة ده لامول تتطلع إليّ بتحديد وتركيز وكرم. لا أقرأ فيهما إلا الرغبة في التفحص، ورباطة الجأش والخبث. فهل يكون هذا هو الحب؟ أي فرق بين هذا وبين نظرات السيدة ده رينال!

ذات يوم، تبع جوليان السيد ده لامول إلى مكتبه ثم عاد بسرعة إلى الحديقة. ولما كان يقترب دون عناية من مرافقي ماتيلد، سمع بعض الكلمات بصوت عال. كانت توبخ أخاها. سمع جوليان اسمه يتردد مرتين بوضوح. فظهر، وران صمت عميق فجأة. وقاموا بجهود لإزالته دون جدوى. كانت الآنسة ده لامول وأخوها متحمسين لدرجة لم يستطيعا أن يجدا موضوعاً آخر للحديث. وبدا السادة ده كايلوس وكروازنوا وده لوز وواحد من أصدقائهم في غاية البرودة أمام جوليان، فابتعد.

١٣
مؤامرة

الكلمات المتقطعة، واللقاءات الناشئة عن الصدفة، تتحول براهين بديهية في نظر الرجل الخيالي، إذا كانت الجرأة في قلبه.

شيلر

في اليوم التالي فاجأ جوليان الكونت نوربير وشقيقته يتحدثان عنه. عند وصوله ران صمت كالأمس. وفاقت شكوكه كل حد. هل اعتزم هؤلاء الشبان أن يسخروا مني؟ هذا مرجح أكثر وطبيعي أكثر من غرام الآنسة ده لامول المزعوم لأمين سر مسكين عند والدها. ولكن هل يحس هؤلاء بالهوى؟ الهزء كل ما يستطيعونه. يحسدونني بسبب تفوقي البسيط في حديثي. أن يكونوا حسودين، تلك نقطة ضعف عندهم. كل شيء هينّ في هذا النظام. الآنسة ده لامول تريد تقنعني بأنها تميّزني، لتضفي على المشهد بعض الحياة.

وغيرّ هذا الشك القاتل كل معنويات جوليان. وجدت هذه الفكرة في قلبه بداية حب لم تتعب كثيراً في تهديمه. فلم يكن هذا الحب مبنياً إلا على جمال ماتيلد النادر، أو بالأحرى على تصرفاتها الملوكية وزينتها الرائعة. بالاضافة إلى أن جوليان كان

حديث نعمة. امرأة جميلة من الطبقة العليا هي التي تُدهش، كما يؤكدون، فلاحاً شاباً ذكياً، عندما يصل إلى أولى درجات المجتمع الراقي. ليس طبع ماتيلد الذي كان يثير أحلام جوليان في الأيام الفائتة. كان ذكياً كفاية ليشعر أنه لا يفهم طباعها. وكل ما كان يراه يمكن أن يكون مظاهر فارغة.

لم تكن ماتيلد تفوّت قداس الأحد مطلقاً. ترافق أمها اليه. فإذا نسي أحد رواد الصالون أين أقيم القداس، أو سمح لنفسه بالتلميح المبّطن وتندّر على المصالح الحقيقية أو المفترضة للتاج أو القصر، كانت ماتيلد تتخذ التعبير الصارم البارد، وتعود نظرتها، وهي كانت لاذعة، إلى كل التعالي الذي لا يخرق كصورة من صور العائلة.

لكنّ جوليان كان واثقاً أنّ لديها في غرفتها دائمًا مجلداً أو مجلدين من أعقد مجلدات فولتير فلسفة. كان هو نفسه غالباً ما يسرق مجلدات المجموعة الرائعة البديعة التجليد. وعندما يأخذ مجلداً يباعد ما بين بقية المجلدات ليخفي الفراغ، ولكنه سرعان ما لاحظ أن غيره أيضاً يطالع فولتير، فاستنجد بلباقة طالب دير، ووضع بعض خطوط الطباشير على المجلد الذي كان يفترض أن الآنسة ده لامول تهتم به. وكان يرى هذا المجلد يختفي أسابيع كاملة.

وفرغ صبر السيد ده لامول من صاحب المكتبة الذي يتعامل

معه، لا يرسل له إلّا كل المذكرات المزيفة، فكلف جوليان بشراء كل الكتب الجديدة اللاذعة. ولكي لا يعم السمّ كل المنزل، كان على أمين السر أن يضع هـذه الكتب في مكتبة صغيرة، في غرفة المركيز نفسه. وسرعان ما تأكد أنه عندما يكون في بعض هـذه الكتب أشياء ضـد العـرش والقصـر، تختفي بسرعة، وبالطبع لم يكن نوربير هو الذي يقرأ.

ظن جوليان، وهو يبالغ في هذه التجربة، أن الآنسـة ده لامول تتمتع بدهاء مكيافيلي. وكان هذا الحذق المزعوم سحراً في عينيه، السحر المعنوي الذي رآه فيها. وكان الضجر الخبيث والتظاهر بالفضيلة مما يدفعه إلى هذا التطرف.

كان ذلك يثير خياله أكثر مما يدفعه في طريق الحب. وبعد أن تاه جوليان في أحلامه عن رشاقة قامة الآنسة ده لامول وذوقها في اختيار زينتها وبياض يديها وجمال ذراعيها وروعة كل حركاتها، أصبح يحبها. وأخيراً، حتى يتم السحر، ظن أنها كاترين ده مديسي. ولم يكن أعمق واصفى من كل ما يكسوها به. كانت مثلاً أعلى لماسلون وده فريلير وده كستناد، الذين أعجب بهم في شبابه. إنها بكلمة مثل أعلى لباريس كلها. هل أروع من عمق وصفاء الطبع الباريسي؟

وفكر جوليان: من الجائز أن يسخر هذا الثلاثي مني؛ يعرفون قليلاً عن طباعه، لو لم يروا تعبير البرودة الغامضة في عينيه وهما

تردان على عيني ماتيلد. كان فيهما سخرية مريرة تصد تأكيدات الصداقة التي جازفت ماتيلد مرتين أو ثلاثاً في إظهارها.

قلب هذه الفتاة، وهو البارد المتضايق المتحسس بالأفكار، أصبح، بعد أن مسّته هذه الغرابة الفجائية، مشبوباً بهوى حميم، تشوبه رغم كل ذلك كبرياء طباع ماتيلد ونشوء عاطفة تجعل سعادتها مرهونة بشخص آخر، ويرافق نشوء هذا الشعور حزن قاتم.

استفاد جوليان جداً منذ مجيئه إلى باريس، فلاحظ أنّ هذا الحزن لم يكن جافاً ناتجاً عن الضجر. وبدلاً من أن يراها، كالسابق، متعطشة لهذه السهرات والتسليات من كل نوع، كانت تتهرب منها.

كانت الموسيقى تثير ضجر ماتيلد عندما يغنّيها الفرنسيون، ومع ذلك جوليان الذي حرص على ملاحظة خروج الناس من الأوبرا، لأحظ إنها تذهب إلى هناك بسهولة كلما تستطيع. ظن أنه يراها تفقد بعض لباقتها في حركاتها. كانت ترد على أصدقائها أحياناً، بمزاح فاضح لطاقتها القوية. وخيل إليه إنها تصيب المركيز ده كروازنوا بأقسى سهامها. لا بد أن هذا الشاب يحب المال بشكل قوي حتى لا يؤذي هذه الفتاة الغنية! أما هو فكان يضاعف من جفائه عندما يرى هذه الاهانات توجه إلى

كرامة الرجال. وغالباً ما كان يصل الأمر به إلى إجابات خالية من التهذيب.

ومهما كان تصميمه على ألا يُخدع بمظاهر الاهتمام تبديها ماتيلد، كانت واضحة في بعض الأحيان لدرجة لا يستطيع جوليان معها إلا أن يشعر بالاحراج هو الذي يراها جميلة.

قال لنفسه: انتهى الأمر بي فتغلبت مهارة عداء هؤلاء الناس النبلاء على قلة تجربتي؛ يجب أن أرحل وأن أضع حداً لكل هذا.

كلفه المركيز، بادارة كمية من الأراضي والبيوت يملكها في لانغدوك. والسفر ضروري: وافق المركيز عليه بصعوبة. أصبح جوليان شخصاً آخر، إلّا في المسائل التي تتعلق بمطامحه العليا.

كان جوليان يقول لنفسه وهو يحضّر رحيله: في نهاية المطاف، لم يستطيعوا الاستيلاء عليّ. وسواء أكانت سخرية الآنسة ده لامول من هؤلاء السادة حقيقية أو تهدف إلى إيجاد الثقة، تسليت بها.

لو لم تكن مؤامرة ضد ابن صاحب المنشرة، ليس بالامكان تفسير موقف الآنسة ده لامول. أما موقف المركيز ده كروازنوا فإنه واضح، على الأقل بالنسبة لي. بالأمس مثلاً، كان مزاجه معكراً فعلاً، وسررت تماماً لأنني استطعت أن أنتصر على هذا

الشاب الواسع الغني، النبيل. هذا أروع انتصاراتي. وسيكون سبب سروري وأنا اجتاز سهول لانغدوك بعربة البريد.

حاول أن يبقي أمر رحيله سراً ولكن ماتيلد كانت تعرف أكثر منه إنه سيترك باريس في الغد ولأمد طويل. فحلّ بها الصداع العنيف الذي يزيده ازدحام الصالون. وتنزهت طويلاً في الحديقة ثم، بمزاحها القوي اللاذع، دفعت نوربير وده كروازنوا وكايلوس ولوز ويعض الشبان الآخرين الذين تناولوا الطعام في قصر ده لامول، إلى الرحيل؛ وتطلعت إلى جوليان بطريقة غريبة.

فكّر جوليان: قد تكون هذه النظرة تمثيلاً، ولكن ما هذه الأنفاس المتلاحقة، وكل هذا الاضطراب!

وقال: ياه! من أنا حتى أحكم على كل هذه الأشياء؟ الأمر هنا يتعلق بأسمي وأنعم ما يمكنني أن أجده لدى نساء باريس. هذه الأنفاس المتلاحقة كادت تلمسني، قد تكون درستها لدى «ليونتين فاي» التي تحبها جيداً.

بقيا وحدهما. وبالطبع تحشرج حديثهما. كانت ماتيلد تقول في نفسها وهي تعيسة فعلاً: لا! جوليان لا يحس بشيء نحوي.

ولما استأذن منها للذهاب، شدت على ذراعه بقوة وهي تقول بصوت ذائب لا يكاد يعرفه:

ـ ستتلقى هذه الليلة رسالة مني.

ومست هذه اللفتة جوليان على الفور إذ تابعت قائلة:

ـ أبي يقدّر، عن حق، الخدمات التي تؤديها له. يجب أن لا ترحل في الغد. عليك أن تخلق الذريعة.

ثم ابتعدت هاربة.

قامتها ساحرة. لم يكن بالامكان أن يكون لدى أية امرأة قدم أجمل من قدمها. كانت تركض بنعومة انتشى لها جوليان؛ ولكن هل مَن يعرف ما سيقوم به في خطوته التالية بعد أن اختفت تماماً؟ أحس بالاهانة من كلمة «يجب». أحس لويس الخامس عشر الاحساس نفسه وهو على فراش الموت عندما تلفظ طبيبه الأول بكلمة «يجب»، ومع ذلك لويس الخامس عشر لم يكن حديث نعمة.

بعد ساعة، أعطى أحد الخدم إلى جوليان رسالة؛ وكانت عبارة عن اعتراف بالحب.

قال جوليان وهو يحاول احتضان فرحه الذي كان يقلّص خدوده فيدفعه إلى الضحك: ليس من العاطفة في هذا الأسلوب.

ثم صرخ فجأة، أو عجز عن تحمل مشاعره:

ـ وأخيراً ها أنذا، الفلاح الفقير، احظى باعترافٍ غراميّ من سيدة نبيلة!

واضاف وهو يتمالك نفسه قدر استطاعته: أما أنا، فإن ما قمت به لم يكن سيئاً أبداً. احتفظت بكرامة طباعي. لم أقل أبداً أنني أحب.

ثم أخذ في دراسة شكل الحروف. خط الآنسة ده لامول انكليزي جميل صغير. كان بحاجة إلى تسلية مادية ليسلو الفرح الغامر الذي وصل به إلى حد الجنون:

«رحيلك يدفعني للكلام... لن يكون في طاقتي ألاّ أراك مطلقاً».

ومرت في ذهنه فكرة جعلته يتوقف عن دراسة الخط وضاعفت من فرحه: انتصرت على المركيز ده كروازنوا، أنا الذي لا يقول إلا الأشياء الرزينة! وهو الجميل الذي يجد دائمًا، وفي الوقت المناسب، الكلمة الناعمة الذكية.

عاش جوليان فترة لذيذة يهيم في الحديقة على غير هدى يكاد يطير من السعادة. ثم صعد إلى مكتبه وأعلم المركيز ده لامول، الذي لم يخرج لحسن الحظ، وأثبت له بسهولة، وهو يريه بعض الأوراق التي وصلت من النورماندي أن واجب العناية بالقضايا يضطره لتأجيل رحيله إلى لانغدوك.

وقال له المركيز عندما انتهيا من حديثهما عن الأعمال:

ـ إنني مسرور بعدم رحيلك. أحب رؤيتك.

خرج جوليان متضايقاً من هذه الكلمة.

وأنا، سأغري ابنته! وقد أجعل زواجها من المركيز ده كروازنوا محالاً. هذا الزواج الذي سيجعل مستقبله ساحراً: ليس دوقاً، وستنال ابنته على الأقل مقعداً صغيراً.

فكر جوليان في الرحيل إلى لانغدوك رغم رسالة ماتيلد ورغم شروحاته للمركيز. ولكن هذه الفكرة اختفت بسرعة.

قال في نفسه: لكم أنا طيّب؛ أنا، العامي، أشفق على عائلة من هذه الطبقة! أنا الذي يدعوني الدوق ده شولن خادماً! كيف يزيد المركيز ثروته الضخمة؟ يبيع بعض المدخول عندما يسمع في القصر أن انقلاباً سيقوم في الغد؛ وأنا المرميّ في الدرك الأسفل من العناية الالهية العشواء، أعطيتُ قلباً نبيلاً، وليس ألف فرنك من المدخول، أي دون قوت، تماماً دون قوت، أنا أرفض هذه اللذة التي تعرض لي! أن نبعاً رقراقاً روى منذ قليل عطشي وسط هذه الصحراء المحرقة من الصغارة أجتازها بصعوبة كبيرة! وحق إيماني لن أكون مغفلاً! كلٌّ يعمل لنفسه في صحراء الأنانية التي يسمونها الحياة.

تذكّر بعض التعابير الملأى بالكراهية، وجّهتها إليه السيّدة ده

لامول، وخصوصاً السيدات صديقاتها.

وأنهت لذة انتصاره على المركيز ده كروازنوا عودته إلى هذه الذكريات المؤلمة. فقال في نفسه: لكم أود أن يغضب! سأغمد سيفي في صدره باطمئنان. وقام بالحركة بسرعة هائلة. كنت قبل هذا جباناً، أباهي ببعض الشجاعة. إنني مساوٍ له بعد هذه الرسالة. وأضاف بلذة لا متناهية وهو يتحدث ببطء:

ـ أجل، وازنت بيننا نحن الاثنين، أنا وهو، وقد تغلب نجار الجورا الفقير. وصرخ:

حسناً! ها هو توقيع ردي العتيد. لا تظني أيتها الآنسة ده لامول أنني أنسى حالتي. سأجعلك تفهمين وتشعرين إنك خنت إحد أحفاد غي ده كروازنوا، الذي تبع القديس لويس في الحروب الصليبية، من أجل ابن صاحب منشرة.

ولم يعد جوليان يستطيع أن يتمالك فرحه. اضطر للنزول إلى الحديقة، خيل إليه أن غرفته، أقفلها بالمفتاح، أصبحت ضيقة تعيقه عن التنفس. كان يردد لنفسه دون انقطاع: أنا، فلاح الجورا الفقير، المحكوم بارتداء هذه البذلة السوداء الحزينة! يا للأسف، كنت أستطيع ارتداء لباسهم، منذ عشرين سنة خلت! عندها كنت أقتل أو أكون جنرالاً في سن السادسة والثلاثين. هذه الرسالة، وكان يشد عليها بيديه، كانت تمنحه مهابة وموقف

البطل. الآن، سأنال بهذه البذلة السوداء، في سن الأربعين، مئة ألف فرنك من المدخول، والوشاح الأزرق مثل السيد الكاهن بونيه.

وقال وهو يضحك كما ضحك ميفستو فيليس:

ـ وبعد! إنني أذكى منهم، أعرف كيف أختار زي عصري. وأحس بتضاعف طموحه وتعلقه بالملابس الكهنوتية. لكم من كرادلة ولدوا في طبقة أدنى من طبقتي وتولّوا الحكم. مواطني غرانفيل مثلاً.

هدأ روع جوليان شيئاً فشيئاً. وظهر الحذر. فقال، مثل استاذه ترتوف، وكان يحفظ دوره عن ظهر قلب:

«أستطيع تصديق هذه الكلمات، شريف متكلف
. . . .
ولن يصيبني الغرور من هذه التعابير اللطيفة،
وسأكتفي ببعض من لذاتها، ثم أتنفس الصعداء،
ستأتي لتؤكد لي كل ما تستطيع قوله.»

ترتوف. الفصل الرابع، المشهد الخامس

خسر ترتوف نفسه أيضاً بسبب امرأة، وسيكون الشخص الثاني. يجوز أن يرى أحدهم إجابتي. وأضاف وهو يتلفظ ببطء

ولهجة مفترسة متمالكاً نفسه:

- سنبدأها بأروع كلمات رسالة ماتيلد العظيمة.

أجل، سيهبّ أربعة من خدم السيد ده كروازنوا وينتزعون مني النسخة الأصلية.

لا، إنني مسلح وكما يعرفون أنا معتاد على اطلاق النار على الخدم.

وبعد! أحدهم يتشجع، ويهب إلي. وعدوه بمائة ليرة ذهبية، فاقتله، أو اجرحه، ويا للصدفة السعيدة! هذا ما يطلبونه. سيرمونني في السجن جزاءاً وفاقاً، ثم أحضر أمام الشرطة الجنائية، فيرسلونني، عدلاً وقسطاساً من القضاة، لأحتجز في «بواسي» ومونتان وماغالون. وهناك أنام مع أربعمائة رجل أتوا من كل حدب وصوب، وسأشفق عليهم!

قال ذلك صارخاً وهو ينهض مشمئزاً. وكانت هذه آخر تنهدة في شكره للسيد ده لامول الذي كان يعذّبه، دون ارادته، ويوصله إلى هذه الدرجة.

رويدكم أيها السادة الشرفاء، أفهم هذا التصرف المكيافيلي الصغير، إن الأب ماسلون والأب كاستناد لم يكونا ليقوما بأحسن من هذا. إنكم تنتزعون مني الرسالة المثيرة وسأكون الجزء الثاني لدى الكولونيل كارون في كولمار.

لحظة أيها السادة. سأرسل الرسالة المختومة في طرد محكم الاغلاق إلى الأب بيرار. إنه رجل شريف، جانسيني، وهو بصفته هذه، في معزل عن إغراء المادة. ولكنه يفتح الرسائل... سأرسل الرسالة هذه إلى فوكيه.

نظرة جوليان كانت قاسية، وهيئته بشعة. كانت الجريمة الصرفة ترتسم عليه. كان رجلاً تعيساً يحارب المجتمع بأكمله.

وصرخ جوليان:

- إلى السلاح. واجتاز بقفزة واحدة درجات مدخل القصر. ودخل إلى حانوت خطاط في زاوية الشارع، أثار خوفه وقال له وهو يعطيه رسالة الآنسة ده لامول:

- أنقلها.

وبينما كان الخطاط يعمل، كان جوليان يكتب إلى فوكيه. ويرجوه أن يحتفظ بهذه الوديعة الغالية. ثم قال مقاطعاً نفسه:

- ولكن «الغرفة السوداء» في البريد ستفتح رسالتي وستعيد أليكم ما تبحثون عنه. لا أيها السادة. وذهب فاشترى نسخة ضخمة من التوراة لدى مكتبة بروتستانتي، وخبأ بشكل رديء رسالة ماتيلد في دفة المجلد، ثم غلفه. ورحلت رزمته بالبريد، موجهة إلى أحد عمال فوكيه، ولا أحد في باريس يعرف اسمه.

وعندما انتهى من هذا، عاد فرحاً ولازم قصر ده لامول. وصرخ وهو يحتجز نفسه في غرفته مقفلاً بابها بالمفتاح، ويخلع ثيابه:

ـ هيا بنا الآن!

وكتب إلى ماتيلد:

«ماذا! يا آنستي، الآنسة ده لامول توصل بأيدي أرسان، خادم والدها، رسالة مغرية إلى عامل خشب مسكين من الجورا، لتسخر ولا شك من سذاجته...» ونقل أوضح الجمل المكتوبة في الرسالة التي تلقاها.

وكانت رسالته تنسج على منوال مهارة الفارس ده بوفوازي الدبلوماسية. ولم تكن الساعة بلغت العاشرة مساء عندما دلف جوليان، تغمره السعادة والإحساس بقوته الجديدة، هو الشقي المسكين، إلى الأوبرا الايطالية. وسمع صديقه جيرونيمو يغني. لم يشعر في حياته بهذه النشوة من الموسيقى. كان يحس إنه إله.

١٤
تفكير فتاة

أي اضطراب! ما أكثر ليالي الأرق! يا إلهي!
هل سأثير الأحتقار؟ سيحتقرني هو نفسه.
ولكنه يرحل، ويبتعد.

ألفرد ده موسيه

لم تكتب ماتيلد دون أن تعاني في نفسها صراعاً داخلياً. ومهما كانت بداية اهتمامها بجوليان، سرعان ما تغلب على كبريائها، التي كانت تتحكم فيها منذ أن وعت. كانت هذه النفس العالية الباردة عرضة، لأول مرة، لاحساس عنيف، إذا تغلب على الكبرياء، لا يزال أميناً على عادات الكبرياء. جدّد شهران من الصراع والأحاسيس الجديدة كل كيانها المعنوي.

ظنت ماتيلد إنها ترى السعادة، رؤيا ذات تأثير قوي على النفوس الشجاعة، تتمتّع بذهن متفوق؛ كان عليها أن تقاوم طويلاً ضدّ كرامتها وكل عواطفها وواجباتها العادية. وذات يوم دخلت على أمها، منذ السابعة والنصف صباحاً، وهي تترجاها أن تتركها تلتجىء إلى فيلوكييه. ولم تكلف المركيزة نفسها مشقة الرد عليها، ونصحتها بالذهاب إلى الفراش؛ وكانت هذه آخر محاولة منها في مقاومة هذا الشعور الجديد.

خافت أن تسيء التصرف وأن تصدم الأفكار التي كان ده كايلوس وده لوز وكروازنوا، يعتبرونها مقدسة، ولم يكن لهذا الخوف تأثير كبير على نفسها. كان يخيل إليها أن هؤلاء لم يخلقوا ليفهموها. كانت على استعداد لاستشارتهم لو كانت القضية تتعلق بشراء عربة أو قطعة من الأرض. كان خوفها الوحيد أن يكون جوليان غير مسرور منها.

قد لا يكون عنده إلا مظاهر الرجل المتفوق؟

كانت تكره في هؤلاء الناس النبلاء يحيطون بها، شيئاً وحيداً: ضعف الشخصية. وكلما كانوا يحسنون السخرية من كل ما يبتعد عن الأشياء المتعارف عليها، أو من كل من يتبعها باعوجاج، ازدادوا بعداً عنها.

كانوا طيبين، هذا كل شيء. وقالت لنفسها: ولكن كيف؟ في المبارزات. ولكن المبارزة لم تعد إلا حفلة. كل شيء فيها معروف مسبقاً. يسامح الشاب خصمه، وهو ممدد على الحشيش ويده على قلبه، ثم يوجه كلمة إلى الجميلة، التي غالباً ما تكون خيالية، أو أنها تذهب في العشية إلى الحفلة الراقصة حتى لا تثير الشبهات.

هل من الممكن أن يحس المرء بالخطر وهو يرئس فرقة يلتمع الفولاذ في كل انحائها؟ الخطر الذي يواجهه الشخص الوحيد

على غير انتظار، هو الخطر البشع فعلاً.

وقالت ماتيلد: للأسف! كانت قيمة الرجل تقاس في بلاط هنري الثالث بالنبل والشخصية. آه! لو خدم جوليان في جارناك، أو في مونكونتور، لما كنت أشك أبداً. في عهود القوة والحيوية تلك، لم يكن الفرنسيون كالدمى، كان يوم المعركة دائماً أقل الأيام تعقيداً.

لم تكن حياتهم مسجونة كمومياء مصرية، في قوالب يشترك فيها الجميع. وأضافت: ثمة شجاعة حقيقية في الخروج وحيداً، الحادية عشرة ليلاً، من قصر ده سواسون، الذي تسكنه كاترين ده مديسي، أكثر من المغامرة إلى الجزائر. كانت حياة الانسان سلسلة متواصلة من المخاطر. والآن طردت الحضارة الأخطار، ولم يعد أشياء غير منتظرة. وإذا بانت في الأفكار لا كلمات تعبر عنها. وإذا ظهرت في الأحداث خوفنا لا يعدله إلا جُبننا. وأي عمل نقوم به يفزعنا. يا للعهد المهترىء المثير للضجر! ماذا يقول بونيفاس ده لامول، إذا قام من لحده، ورأى سبعة عشرة شخصاً من أحفاده يستسلمون سنة ١٧٩٣ كالحملان لتقطع رؤوسهم بالمقصلة بعد يومين؟ وإذا لم يكن من الموت بد فمن العار أن يموتوا دون أن يقتلوا يعقوبياً أو اثنين. آه! في أيام فرنسا البطولية، زمن بونيفاس ده لامول، لكان جوليان قائد فرقة، وأخي، القسيس الشاب، بعاداته المناسبة والحكمة في عينيه

والعقل في فمه.

كانت ماتيلد، لأشهر خلت، يائسة من ملاقاة شخص يختلف عن القاسم المشترك. وجدت بعض السعادة في الكتابة إلى بعض الشباب من مجتمعها. وكانت هذه الجرأة غير المناسبة كافية لوصمها بالعار في نظر ده كروازنوا ووالده الدوق ده شولن وكل من في قصر ده شولن، الذين يريدون أن يعرفوا، إذا ما فسخ الزواج المعتزم، لماذا تم هذا. كانت ماتيلد في ذلك الزمن، لا تستطيع النوم في الليلة التي تكتب فيها رسالة، ولكن هذه الرسائل لم تكن إلا إجابات.

هنا، تجرأتْ على القول إنها تحب. وكتبت رسالتها الأولى (أية كلمة هائلة!) إلى رجل في أدنى درك من المجتمع.

هذه الحادثة لو اكتُشِفَت ، تكّللها بعارٍ أبدي. أيّةَ امرأة من اللواتي يأتين لزيارة أمها تتجرأ على الوقوف إلى جانبها؟ أية تعابير يمكن الرد بها لتخفيف احتقار الصالونات البشع؟.

وإذا كانت الكلمات بشعة فكيف بالكتابة؟ لكأنما كان جوليان يلقّنها درساً مسبقاً وهو يروي لها كلمة نابليون عندما علم باستسلام بايلن: ثمة أشياء لا يكتبها الانسان.

ولكنّ كلّ هذا لم يكن شيئاً بعد؛ قلق ماتيلد له أسباب أخرى. على ماتيلد، إذ نسيت التأثير المرعب للمجتمع،

واللطخة التي لا تمحى، الملأى بالاحتقار لأنها تهين طبقتها، أن تكتب إلى رجل يختلف عن كروازنوا ولوز وكايلوس.

إن عمق وغرابة شخصية جوليان يكفيان لافزاعها، حتى لو ارادت أن تقيم معه علاقات عادية فحسب. فكيف بها إذا جعلت منه عشيقاً لها، ومن الجائز سيدها؟

أي شيء يمنعه عن إتيانه لو فرض سلطته عليّ؟ وبعد! سأقول ما قال ميديه: «وسط كل هذه الأخطار، تبقى لي نفسي».

كانت تظن أن ليس في نفس جوليان أي احترام لنبل الدماء. أليس الأحرى به أن لا يكون مولعاً بها على الاطلاق؟

وتبدت كبرياء المرأة في هذه اللحظات الأخيرة من الشك القاتل. وصرخت ماتيلد بفارغ صبر: هل من الواجب أن يكون غريباً كل شيء في مصير فتاة مثلي. كانت كبرياؤها، التي رضعتها منذ الطفولة، في نزاع مع فضيلتها. وفي هذه اللحظة ظهر خطر رحيل جوليان. (إن طباعاً من هذا النوع نادرة لحسن الحظ).

في ساعة متأخرة من الليل قام جوليان بمحاولة خبيثة. أنزل حقيبة ثقيلة الوزن إلى البواب؛ ونادى لنقلها الخادم الذي يقوم بمغازلة خادمة الآنسة ده لامول. وقال في نفسه: قد لا تكون

هـذه المناورة ذات فـائدة، ولكنهـا إذا نجحت، ستـظن أنني رحلت. ونام جيداً وهو يشعر بالمرح من جراء هذه المزحة. أما ماتيلد فلم يغمض لها جفن طوال الليل.

في اليوم التالي، بكّر جوليان في الخروج من قصر ده لامول دون أن يراه أحد، ولكنه عاد قبل الثامنة.

ولم يكد يصل إلى المكتبة حتى ظهرت الآنسة ده لامول على الباب. فأعطاها جوابه. فكّر أن من واجبه أن يكلمها، ولم يكن أسهل من ذلك، ولكن الآنسة ده لامول لم ترد الاستماع إليه واختفت. وسرّ جوليان إذ لم يكن يعرف ماذا يقول لها.

لم تكن كل القضية مدبرة مع الكونت نوربير، لذا، نظراتي الملأى بالبرودة هي التي أشعلت نار الحب الجامح أحست به هذه الفتاة النبيلة نحوي. سأكون أكثر بلاهة مما يجب، لو تركت نفسي تحس بأي ميل نحو هذه الدمية الكبيرة الشقراء. وجعله هذا المنطق أكثر برودة وتحسباً مما كان في أي طور من أطوار حياته.

وأضـاف: سيكون كبـريـاؤهـا النـاجم عن نبلهـا، كـالتلة المرتفعة، تشكل في المعركة المقبلة، موقعاً عسكرياً بينها وبيني. وهناك يجب أن أناور. أسأت التصرف ببقائي في باريس. تأجيل رحيلي يقلل من قيمتي ويعرضني للهوان إذا لم يكن هذا إلا

لعبة. أي خطر كان في رحيلي؟ كنت أسخر منهم، إذا سخروا مني. ولـو كان لـديها فعـلاً بعض الاهتمام لضـاعف رحيلي اهتمامها مئات المرات.

كانت رسالة الآنسة ده لامـول سبباً في إحسـاس جوليـان بكرامته، حتى نسي، وهو يضحك مما حدث، أن يفكـر في محاسن الذهاب.

كان هذا التأثير السريع بالأخطاء شعوراً حتمياً عنده. كان متضايقاً من أخطائه، فلم يعد يفكر تقريباً في النصر الكبير الذي سبق هذا الفشل البسيط، عندما ظهرت الآنسة ده لامول على عتبة باب المكتبة في نحو الساعة التاسعة، ورمت إليه رسالة ثم اختفت.

وهمس وهو يلتقطها: يظهر أن الأمر سيكون غراماً بالمراسلة. الخصم يقوم بحركة للتعمية، وأنا سأظهر البرودة والفضيلة.

كانت تطلب منه جواباً حاسمًا بطريقـة متعاليـة زادت من انشراحه الداخلي. فاستعرض بسرور، في صفحتين كاملتين، الأشخاص الذين يريدون السخرية منه، ثم أعلن بشكل مرح في آخر الرسالة تقديم سفره إلى ما بعد غد صباحاً.

وفكر بعد أن انتهى من الرسالـة: سأسلمهـا الرسـالة في الحديقة. وذهب إلى هناك. وتطلع إلى نافذة غرفة الآنسة ده

لامول. كانت في الطابق الأول حدّ جناح أمها، ولكن فوق طابق أرضي عال.

وكان الطابق عالياً لدرجة أن الآنسة ده لامول لم تكن تستطيع أن تراه من نافذة غرفتها، وهو يتنزه، والرسالة في يده. قال جوليان بمزاج متعكر: ولكن ماذا أفعل؟ حماقة أخرى أيضاً! اعتزموا السخرية مني. معنى رؤيتهم لي حاملاً الرسالة في يدي تخدم أغراضهم.

كانت غرفة نوربير فوق غرفة أخته تماماً، وإذا ما خرج جوليان من تحت القنطرة التي تشكلها الأشجار المشذبة، فإن الكونت وأصدقاؤه يستطيعون إثبات كل حركاته.

وظهرت الآنسة ده لامول وراء زجاج النافذة، فأشار إليها مظهراً قسماً من رسالته، وأحنت رأسها. وأسرع جوليان وصعد إلى غرفته راكضاً، فصادف، على الدرج الكبير، ماتيلد الجميلة، أخذت رسالته بسهولة تامة وعيناها تضحكان.

قال جوليان لنفسه: أيّ غرام كان في عيني السيدة ده رينال المسكينة، عندما تجرأت وقبلت مني، رسالة بعد علاقة حميمة طوال ستة أشهر، اعتقد أنها ما كانت تتطلع بي، طوال حياتها، بعينين ضاحكتين.

ولم يشرح بمثل هذا الوضوح بقية جوابه: هل كان يخجل من

بساطة الأسباب؟ وأضاف ذهنه: ولكن أي فرق أيضاً في أناقة ثوب الصباح، وأناقة اللفتات! عندما يرى أي رجل ماتيلد على ثلاثين خطوة منه، يدرك الطبقة التي تنتمي إليها. هذا ما يمكن أن يسمى جدارة حقة.

ولم يعترف جوليان لنفسه ببقية أفكاره وهو يمزح: لم يكن للسيدة ده رينال كالمركيز ده كروازنوا لتضحي به من أجله، لم يكن خصمه إلا نائب المحافظ الحقير شاركو الذي أطلق على نفسه اسم ده موجيرون لأن كل أفراد هذه العائلة ماتوا.

الخامسة تلقى جوليان رسالة ثالثة، رميت له من باب المكتبة. واختفت الآنسة ده لامول أيضاً. وقال لنفسه وهو يضحك: أي رغبة في الكتابة! عندما يكون باستطاعتنا التحدث بسهولة! الخصم يريد رسائل مني. ويريد الكثير!

ولم يسرع في فتح هذه الرسالة، وفكّر: جمل أنيقة أيضاً. ولكن لونه شحب وهو يقرأ. لم يكن فيها إلا ثمانية سطور:

«إنني بحاجة للتحدث إليك. يجب أن أكلمك، هذا المساء، عندما تدق الواحدة بعد منتصف الليل. كن في الحديقة. استخدم سلم البستاني الكبير، عند البئر. ضعه إلى نافذتي، وأصعد إليّ. القمر ساطع الليلة: سيان عندي».

١٥

هل هي مؤامرة؟

آه! كم قاسيةٌ الفترة بين ولادة مشروع كبير وتحقيقه! أي رعب عديم الجدوى! أي ترددا
الأمر يتعلق بالحياة.
ـ الأمر أكبر: يتعلق بالشرف.

شيلر

وفكر جوليان: أصبح الأمر جدياً...

وأضاف بعد تفكير: وأكثر وضوحاً. ماذا! تستطيع هذه الآنسة أن تكّلمني في المكتبة بحرية كاملة. فالمركيز لا يدخلها لخوفه من أن أريه الحسابات. ماذا؟ السيد ده لامول والكونت نوربير، الشخصان الوحيدان اللذان يدخلان إلى هنا، غائبان طوال النهار؛ من الممكن بسهولة معرفة ساعة دخولهما القصر، وماتيلد الرائعة التي لا يزيد في نبلها زواجها من أمير، تريدني أن أرتكب حماقة ضخمة.

هذا واضح: يريدون الاجهازعليّ، أو السخرية مني على الأقل. أرادوا أول الأمر أن يجهزوا عليّ برسائلي، فكانت هذه حذرة جداً. وبعد! يلزمهم عملية تكون أوضح من ضوء الشمس في النهار. هؤلاء السادة يظنون أنني أبله أو أحمق. عليهم اللعنة! يريدونني أن أصعد، في ضوء القمر الساطع

الرائع، إلى الطابق الأول الذي يعلو خمسة وعشرين قدماً! سيكون لدى الجميع الوقت الكافي لرؤيتي، حتى من القصور الأخرى. سأكون جميلاً على سلمي!

صعد جوليان غرفته وبدأ بترتيب حقيبته وهو يصفّر. قرر الرحيل وعدم الرد على الرسالة.

ولكن هذا القرار الحكيم لم يمنحه راحة الفؤاد. فقال فجأة إذ أغلق حقيبته: لنفترض أن ماتيلد حسنة النية! سأمثل أنا في نظرها دور الجبان الكامل. لست نبيلاً، وتلزمني مزايا كبرى، مال نقدي، تثبتها عمليات تتحدث عن نفسها... دون ادعاءات سخيفة.

ربع ساعة يفكر ثم قال أخيراً: لماذا أنكر ذلك؟ سأكون جباناً في نظرها. لن أفقد ألمع نجوم المجتمع الراقي، كما كان الجميع يصفونها في حفلة السيد الدوق ده ريتز، فحسب، بل اللذة الالهية في رؤية تضحيتها من أجلي، بالمركيز ده كروازنوا، ابن الدوق، الذي سيصبح هو نفسه دوقاً. شاب ساحر فيه كل الصفات التي تنقصني: سرعة البديهة، نبل المحتد، والثروة.

سيلاحقني هذا الندم طول حياتي، لا بالنسبة إليها، فثمة الكثير من العشيقات!

... ولكن ليس إلا شرف واحد!

كما قال دون دياغ؛ وهنا، أنسحبُ بوضوح تام أمام الخطر الأول الذي يعرض لي؛ لأن مبارزتي مع السيد ده بوفوازي حملت طابع التسلية. هذا الأمر مختلف تماماً. وقد يوقعني أحد الخدم إلى الأرض. وهذا أهون الأخطار: قد يجللني العار.

وأضاف بمرح ولهجة غاسكونيّة: أصبح الأمر جدياً أيها الغلام. شرفك في الميزان. وهذه الفرصة السانحة لا يمكن أن تعرض لفقير مثلي، مرمي في أسفل درك، كل يوم. سأجمع ثروة، ولكنني سأبقى تابعاً.

فكّر طويلاً، وتنزّه بخطوات وجلى، متوقفاً فجأة من حين لآخر. وضعوا في غرفته تمثالاً رائعاً للكاردينال ريشليو، كان يجتذب أنظاره رغمًا عنه، ويخيل إليه أن التمثال يتطلع إليه بقسوة، كأنه يلومه على عدم جرأته التي يجب أن تكون طبيعية عند الفرنسي. لو كنت في عهدك، أيها الرجل العظيم، هل كنت أتردد؟

وقال جوليان أخيراً: لنفترض أسوأ الاحتمالات: أنّ هذا شرك؛ إنه جد مهين بحق فتاة شابة. يعرفون أنني رجل لا أسكت. يجب أن يقتلوني. كان هذا ممكناً سنة ١٥٧٤، أيام بونيفاس ده لامول، ولكن ده لامول اليوم لن يجرؤ. هؤلاء الناس لم يعودوا أنفسهم. الآنسة ده لامول محسودة! ستردد أربعمئة صالون غداً عارها، وبأي فرح!

والخدم يتبادلون، بين بعضهم البعض، كلمات المديح بحقي، وأنا أعرف ذلك. سمعته...

ومن جهة أخرى رسائلها!... قد يظنون أنني أحملها معي. لو وجدوها في غرفتي لانتزعوها. سأكون عرضة لهجوم ثلاثة أو أربعة رجال. من يدريني؟ ولكن من أين يأتون بهؤلاء الرجال؟ أين يجدون في باريس أتباعاً غير ثرثارين؟ العدالة تخيفهم... وحق السماء الزرقاء! كايلوس وكروازنوا وده لوز أنفسهم، ستدهشهم تلك اللحظة والهيئة الحمقاء أظهرها. إحذر من مصير إبيلار يا أمين السر المحترم!

وبعد، وحق السماء! سأدمغكم بطابعي أيها السادة، سأضرب وجوهكم كجنود قيصر في فرسال .. والرسائل، استطيع أن أضعها في مكان أمين.

ونسخ جوليان الرسالتين الأخيرتين وخبأهما في مجلد من مجلدات فولتير داخل المكتبة، وحمل النسختين الأصليتين بنفسه إلى دائرة البريد.

وعند عودته قال مندهشاً خائفاً:

ـ أي عمل جنوني سأرمي نفسي فيه. مضى ربع ساعة لم يفكر فيه بعملية الليلة المقبلة.

ولكنني إذا رفضت فسأحتقر نفسي بعد ذلك! ستكون هذه

العملية موضع شك كبير ينغّص كل حياتي، وإن شكاً كهذا يؤلمني أكثر من الشقاء. ألم أشعر به نحو عشيق أماندا؟ أظن أنني سأغفر لنفسي بسهولة جريمة واضحة؛ إذا اعترفت بها سأتوقف عن التفكير فيها.

ماذا! كنت أستطيع أن أكون خصم رجل يحمل واحداً من أشهر أسماء فرنسا، تركت نفسي، بطيبة خاطر، تعلن أنني لا أساويه! وصرخ جوليان ناهضاً:

ـ من العار ألا أذهب. هذه الكلمة تقرّر كلّ شيء... إنها على كل حال جميلة.

إذا لم يكن عملها خيانة، فأي جنون تقوم به نحوي... إذا كانت سخرية... يا إلهي!... أيها السادة، الأمر يتعلق بي لأجعل من هذا المزاح شيئاً جدياً، وهكذا سأفعل.

ولكن ماذا لو امسكوا بيدي في اللحظة التي أدخل فيها إلى الغرفة؟ من الجائز أن يكونوا وضعوا فيها بعض الآلات المحكمة!

قال لنفسه ضاحكاً: العملية كالمبارزة، استعراض لكل شيء، كما يقول استاذ الرماية. ولكن الرب، الذي يريد أن ننتهي، يجعل واحداً من الاثنين يختفي من الاستعراض. على كل حال. هذا ما سأقوله لهم:

سحب غدارته من جيبه، ورغم أن الضربة كانت قاضية، كررها.

كان على جوليان أن ينتظر ساعات عديدة قبل أن يقوم بأي شيء، فكتب إلى فوكيه:

«صديقي، لا تفتح هذه الرسالة المرفقة إلا إذا وقع لي حادث، أو إذا سمعت أن شيئاً غريباً حدث لي. وعندئذ، امح اسماء العلم الموجودة في المخطوطة التي أرسلها لك، وانسخها على ثماني نسخ ترسلها إلى جرائد مارسيليا وبوردو وليون وبروكسل الخ... ثم بعد عشرة أيام أطبع هذه المخطوطة، وأرسل النسخة الأولى إلى المركيز ده لامول، ثم أرم بقية النسخ في شوارع فريير خلال الليل».

كانت هذه المذكرات المبررة رتّبها جوليان بشكل رواية، ولم يكن على فوكيه أن يفتحها إلا في حالة وقوع حادث، وجعلها جوليان أبعد ما يستطيع عن أن تكون سبباً في إهانة الآنسة ده لامول. ولكنها كانت تصف وضعه تماماً.

أنهى جوليان إغلاق رزمته، عندما قرع جرس الطعام. فازدادت دقات قلبه. كان خياله، المنهمك من الحكاية التي ألفّها، ألف الأفكار الفاجعة. كان يرى نفسه بين الخدم، مهاناً، يقودونه إلى أحد الكهوف بعدما كموا فمه. وفي الكهف، يراقبه

أحد الخدم، وإذا كان شرف العائلة النبيلة يقتضي أن ينتهي الأمر نهاية فاجعة، من المكن إنهاء كل شيء بواسطة هذه السموم التي لا تترك أي أثر، وعندها يقولون إنه مات من المرض، وسينقلونه ميتاً إلى غرفته.

كان جوليان يحسّ برعب وهو يدخل إلى غرفة المائدة، بعد أن أحس بانفعال كبير من روايته التي ألفها ككاتب دراما. تطلع إلى كل هؤلاء الخدم، بملابسهم المزركشة؛ كان يدرس وجوههم. يريد أن يعرف من انتقوهم لرحلة هذه الليلة؟ ذكريات بلاط هنري الثالث موجودة دائمًا في هذه العائلة، تذكر دائمًا إنهم مهانون، ولذلك قراراتهم سريعة أكثر من قرار الذين من طبقتهم. وتطلع إلى الآنسة ده لامول ليقرأ في عينيها مشاريع عائلتها؛ كانت شاحبة، وهيئتها كهيئات نساء القرون الوسطى. لم يرها بمثل هذه المهابة، إنها فعلاً جميلة تفرض نفسها. أوشك على حبها. وقال باللاتينية لنفسه: شحوبها يبشر بمشاريعها الكبرى.

تنزه طويلاً في الحديقة بعد الأكل، ولكن عبثاً. الآنسة ده لامول لم تظهر. كان تحدثه إليها في هذه اللحظة، كافياً لازالة هذا الهم عن قلبه.

لماذا لا يعترف؟ إنه خائف. ولما كان قرر التحرك، استسلم

لهذا الشعور دون أي رادع. المهم أن يجد في اللحظة المناسبة، الشجاعة اللازمة. ما يهمّ إحساسي في هذه اللحظة؟ وذهب يتفحص المكان ووزن السلم.

وقال لنفسه ضاحكاً: إنها آلة يتطلب مصيري دائمًا أن استعملها! هنا كما في فريير. أي فرق! ثم أضاف متنهداً: هناك لم أكن مضطراً للحذر من أي شيء أتعرض له. أي فرق أيضاً في الحظ!

كان من المعقول أن أُقتَل في حدائق السيد ده رينال، دون أن أسبّب لنفسي أيّ عار. كان باستطاعتهم جعل قضية موتي غامضة. أما هنا، فأي شيء لن يروى في صالونات ده شولن وقصر ده كايلوس وريتز الخ... في كل مكان. سأكون وحشاً للخَلف.

وتابع ضاحكاً وهو يسخر من نفسه: سنتين أو ثلاث سنوات. ولكن هذه الفكرة حطمته. وأنا، كيف يستطيعون تبرير موقفي؟ حتى ولو افترضت أن فوكيه طبع رسائلي العتيدة، فإن هذا سيكون عاراً يضاف إلى عاري. ماذا! استُقبلت في منزل وكاعتراف بالجميل للضيافة التي لاقيتها والعواطف التي أغرقني أصحاب البيت بها، طبعت رواية شرحت فيها ما حدث لي! إنني أطعن شرف النساء! آه! كان الأفضل ألف مرة أن

أكون مغفلاً!

كانت تلك السهرة بشعة جداً.

١٦
في الواحدة صباحاً

«كانت تلك الحديقة كبيرة، مرسومة منذ سنوات قليلة بعناية وذوق كاملين. ولكن عمر الأشجار كان يزيد عن القرن. كان فيها شيء من الريف.

ماسينجر

كاد يكتب إلى فوكيه ليمتنع عن تنفيذ ما جاء في رسالته الأولى. عندما دق الساعة الحادية عشرة، فتلاعب بقفل باب غرفته، كأنما يريد إغلاقه. وذهب بخطوات خفيفة يراقب ما يحدث في كل أنحاء المنزل. لم يكن شيء غريباً. كانت إحدى خادمات السيدة ده لامول تقيم سهرة لزميلاتها وزملائها، وشرب الخدم الخمرة القوية بمرح كبير. وفكر جوليان: الذين يضحكون بهذا الشكل لا يمكن أن يشتركوا في العملية الليلية، لا بد أنهم سيكونون أكثر رزانة.

وأخيراً ذهب وقبع في زاوية مظلمة من زوايا الحديقة. إذا

كانوا يعتزمون اخفاء خدم المنزل، سيأتون بهم من فوق حائط الحديقة ليمسكوا بي.

وإذا كان لدى السيد ده كروازنوا بعض التفكير السليم، سيفضل حتماً أن يمسكوا بي قبل أن أدخل غرفة الفتاة التي يريد الزواج بها حتى لا يلوثها.

قام بكشف عسكري دقيق. وفكر: الأمر يتعلق بشرفي، إذا وقعتُ في مشاكل غير متوقعة، لن يكون عذراً في نظري أن أقول: لم أفكر في هذا.

كان الوقت يسير ببطء شديد. وفي نحو الحادية عشرة أطل القمر، وعند الثانية عشرة والنصف كان ينير بضوئه الساطع واجهة القصر التي تطل على الحديقة.

وهمس جوليان: مجنونة. ولما دقت الساعة الواحدة، كان النور لا يزال يضيء غرفة الكونت نوربير. ولم يخف جوليان في حياته كما الآن. لم يكن يرى إلا مخاطر العملية ولا يشعر بأيّ حماس.

ذهب لاحضار السلم الضخم. انتظر خمس دقائق ليترك لها المجال لتغيير قرارها. ثم أسند سلمّه، في الواحدة وخمس دقائق، على حافة نافذة ماتيلد وصعد بهدوء، مسدّسه في يده، وهو مندهش لأن أحداً لم يهاجمه. ولما اقترب من النافذة، انفتحت دون ضجة.

قالت ماتيلد بانفعال شديد:

ـ ها أنتذا سيدي. أتتبع حركاتك منذ ساعة.

كان جوليان يحس بحرج كبير. لم يكن يعرف كيف يتصرف. لم يكن يحسّ بالحب على الاطلاق. وفي غمرة حرجه فكر بجرأة أن يقبل ماتيلد.

وقالت له وهي تصدّه:

ـ مهلاً.

وأسرع فتطلع حوله، وهو مسرور من غنجها: كان القمر مشعاً حتى بدت الظلال التي يشكلها نوره في غرفة الآنسة ده لامول سوداء. وفكّر: من المعقول جداً أن يكون هنا بعض الرجال المختبئين، وأنا لا أستطيع رؤيتهم.

قالت ماتيلد وهي مسرورة لأنها وجدت موضوعاً للحديث:

ـ ماذا تحمل في جيب بذلتك الجانبية.

كانت تتألم بشكل غريب؛ عاد إليها تحفظها وحياؤها الطبيعيان في فتاة مثلها، مما جعلها في وضع قاس.

وردّ جوليان وهو مسرور أيضاً لأنه وجد شيئاً يقوله:

ـ معي كل أنواع الأسلحة والمسدسات.

وقالت ماتيلد:

ـ يجب سحب السلمّ.

ـ إنه ثقيل وقد يكسر زجاج نوافذ الصالون أو الطابق الأرضي.

رّدت ماتيلد وهي تحاول عبثاً أن تجعل صوتها يبدو طبيعياً:

ـ يجب ألا تكسر الزجاج. تستطيع، كما يخيل إلي، أن تُنزل السلمّ بواسطة حبل يعلق في الدرجة الأخيرة. احتفظ دائمًا بكمية من الحبال في غرفتي.

وفكّر جوليان: هل هذه امرأة عاشقة! تتجرأ على القول إنها تحبني! كل رباطة الجأش هذه! كل هذه الحكمة في اتخاذ الاحتياطات تثبت لي أنني لم أنتصر على السيد ده كروازنوا، كما كنت أظن بحماقة، ولكنني أخلفه فقط لا غير. وفي الواقع سيان عندي! هل أنا أحبها؟ أنتصرت على المركيز بمعنى أنه سيغضب عندما يرى خلفاً له، وسيكون غضبه أكبر عندما أكون أنا خلفه. بأيّ تكبر تطلع إلي بالأمس في مقهى تورتوني، وهو يتصنع أنه لا يعرفني! وبأية هيئة خبيثة حيّاني بعد ذاك عندما لم يجد مفراً من ذلك!

كان جوليان ربط الحبل في الدرجة الأخيرة من السلمّ، وأنزله بهدوء وهو ينحني كثيراً خارج الشرفة لكي يتجنب ملامسته

للزجاج. وفكّر: إنها لحظة رائعة لمن يفكر في قتلي إذا ما كان أحدهم مختبئاً في غرفة ماتيلد. ولكن صمتاً عميقاً كان يسود المكان كله.

لمس السلمّ الأرض، واستطاع جوليان أن ينيّمه وسط الأزهار النادرة، على طول الحائط.

وقالت ماتيلد:

ـ ماذا ستقول أمي عندما ترى زهورها الجميلة سحقها السلمّ! ثم أضافت برباطة جأش: يجب أن ترمي الحبل. لو رآه أحد معلقاً بالنافذة فستكون مناسبة صعبة التفسير.

وقال جوليان بلهجة مرحة مقلّداً لهجة خادمة آتية من الريف:

ـ وكيف أذهب أنا؟

وردت ماتيلد منتشية بفكرتها:

ـ من الباب!

وفكرت: هذا الرجل جدير فعلاً بحبي!

كان جوليان ترك الحبل يسقط في الحديقة؛ وشدّت ماتيلد على ذراعه. فظن أن أحد أخصامه يمسكه. فالتفت بسرعة وهو يستل خنجراً. ظنت أنها سمعت صوت إحدى النوافذ تفتح. وبقيا

ساكنين يحبسان الأنفاس. كان القمر ينيرهما تماماً. وران صمت طويل، دون أن يسمعا أي شيء، فزال انزعاجهما.

عندئذ عاد الحرج، وكان الاثنان يشعران بوطأته. وتأكد جوليان أن كل رتاجات الباب مغلقة. وفكر جدياً في التطلع تحت السرير. ولكنه لم يجرؤ؛ من الجائز أن يكون تحته خادم أو اثنان. وأخيراً خشي أن يندم في المستقبل على قلة حذره هذا، فتطلع.

كانت ماتيلد عرضة لأبشع الغصّات تصيب الشخص الخجول. كانت ترتعب من وضعها.

وقالت له أخيراً:

ـ ماذا فعلت برسائلي؟

وفكر جوليان: اية مناسبة رائعة لتثبيط همّ هؤلاء السادة إذا كانوا يستمعون لي، سيتجنبون المعركة:

ـ الأولى مخبأة في كتاب توراة ضخم، اشتريته من أحد البروتستانتيين وحملته عربة البريد بالأمس إلى مكان جد بعيد عن باريس.

كان يتكلم بوضوح تام عن جميع التفاصيل بطريقة يستطيع أن يسمعه الأشخاص الذين قد يكونوا مختبئين في خزانتين

كبيرتين من الابنوس، لم يتجرأ على فتحهما.

ـ . . . والاثنتان الباقيتان أرسلتا بالبريد وتبعتا طريق الأولى.

وقالت ماتيلد بدهشة:

ـ ايه! يا إلهي! ولم كل هذه الاحتياطات؟

وفكّر جوليان: لماذا أكذب؟ ثم شرح لها واعترف بكل شكوكه. وصرخت ماتيلد بلهجة تميل إلى الجنون أكثر منها إلى الحنان:

ـ هذا هو إذن سبب برودة أجاباتك.

ولم يلاحظ جوليان هذا الفرق. أفقدته هذه الوشوشة الحميمة رأسه، أو على الأقل غيبت شكوكه. فتجرأ وشد على ذراع هذه الفتاة الرائعة التي كانت توحي له بكثير من الاحترام. ولم تصدّه هي إلا نصف صدة.

فلجأ إلى ذاكرته، كما فعل في بزانسون مع أماندا بينيه، وأسمعها أروع جمل هيلوييز الجديدة.

وردّت عليه دون أن تنتبه كثيراً إلى جمله:

ـ لك قلب رجل. أردت أمتحان شجاعتك. اعترف بهذا؛ شكوكك الأولى وقرارك تظهر إنك جريء أكثر مما كنت أتصور.

كانت ماتيلد تقوم بمجهود كبير لتستطيع وشوشته. كانت تعير انتباهاً أكثر إلى هذه الطريقة الغريبة في التحدث منها إلى موضوع الحديث. وكانت هذه الوشوشة الخالية من رنة الحنان، لا تثير أي إحساس بالسرور لدى جوليان الذي دهش لغياب السعادة، وأخيراً لجأ إلى عقله ليحس به. رأى نفسه محبوباً من فتاة فخورة، لا تبدي المديح إلا شحيحاً، ووصل بهذه الطريقة في التفكير إلى نوع من سعادة الكرامة.

صحيح أنّ هذا الاحساس لم يكن تلك اللذة الروحية التي وجدها أحياناً قرب السيدة ده رينال. لم يكن أي حنان في عواطفه تلك اللحظات الأولى. كانت سعادة الطموح القوي، وكان جوليان طموحاً على الأخص. وتحدّث من جديد عن الأشخاص الذين شك بهم والاحتياطات التي اخترعها. وكان وهو يتكلم، يفكر في الاستفادة من انتصاره.

وأحست ماتيلد باللذة بعد أن وُجد موضوع الحديث. وكانت لا تزال تحس بالحرج والخوف مما قامت به. وتحدثا عن الوسائل التي تمكنهما من الالتقاء ثانية. وسرّ جوليان كثيراً من ذكائه وشجاعته التي أثبتها ثانية خلال حديثه. كان عليهما أن يحذرا أناساً جد أذكياء. أن تامبو الصغير كان حتمًا جاسوساً. ولكن ماتيلد وجوليان لم يكونا أقل مهارة.

هل كان أسهل من الالتقاء في المكتبة للاتفاق على كل هذا؟

وأضاف جوليان:

ـ أستطيع الظهور في أي مكان في القصر دون إثارة الشكوك، حتى في غرفة المركيزة نفسها.

وكان لا بد من اجتيازها قبل أن يصل إلى غرفة الآنسة ده لامول. وإذا رأت ماتيلد إنه من الواجب أن يصعد إليها دائمًا على سلم، كان قلبه يشعر باللذة المسكرة وهو يتعرض لهذا الخطر الضئيل.

صدمت ماتيلد، وهي تستمع إليه بلهجته المنتصرة. إنه إذن سيدي أوخذها الندم. وارتعب تفكيرها من العمل الجنوني الذي قامت به. ولو استطاعت لغابت عن الوعي هي وجوليان. وعندما كانت قوة إرادتها تستطيع إسكات صوت ضميرها، كان إحساسها بالخجل والخفر المؤلم يجعلها أكثر تعاسة. لم تتوقع قط أن تجد نفسها في هذه الحالة البشعة التي أحست بنفسها تعيش فيها.

وقالت أخيراً لنفسها: ومع ذلك يجب أن أتحدث إليه. إن هذه لياقة واجبة، يجب أن تتحدث إلى حبيبها. وكأنها تنفذ واجباً عليها، بلهجة ناعمة في كلماتها أكثر مما هي في رنة صوتها، روت له ما اتخذته من قرارات تتعلق به في هذه الأيام الأخيرة.

قررت إنه إذا ما تجرأ ووصل إليها بمعونة سلم البستاني، كما الليلة فإنها ستكون له، ولكنها قالت ذلك بلهجة باردة مهذبة. وأحس جوليان أن الجليد وصل إلى الموعد بذاته، أحس بأن حبها عبارة عن حقد؛ وتعلمت درساً قاسياً: فهل كان من المعقول أن تجازف بمستقبلها من أجل لحظة كهذه؟

بعد شك طويل، يمكن أن يفسره المراقب أنه تعبير عن الحقد العميق في طباع امرأة اتخذت بنفسها هذا القرار الجريء، انتهى الأمر بماتيلد إلى أن تكون عشيقة لطيفة.

هذه التعابير كانت متعمدة: كان الحب المشتعل لا يزال مثالاً يحتذى ولكنه ليس واقعاً.

كانت الآنسة ده لامول تعتقد أنها تقوم بواجب نحو نفسها ونحو حبيبها. كانت تقول لنفسها: كان الصبي المسكين ذا شجاعة نادرة ويجب أن أجعله سعيداً، أم أنني أنا بلا شخصية. كانت على استعداد لتعويض الحالة الشقية التي هي الآن فيها ولو اقتضاها الأمر أن تمضي بقية عمرها تعيسة.

ورغم العنف البشع الذي كانت تفرضه على نفسها، كانت سيدة كلماتها.

ولم يعكر جوليان أي إحساس بالندم أو باللوم في تلك الليلة التي بدت له غريبة أكثر منها سعيدة. أي فرق كبير يا إلهي بين

آخر لياليه في فريير! هذه التصرفات الباريسية وجدت سر تهديم أجمل الأشياء، حتى الحب، كان يردد هذا الحكم الجائر لنفسه وهو معها.

وانطلق تفكيره بعيداً، وهو واقف داخل إحدى الخزانتين الابنوسيتين الكبيرتين حيث أدخل عندما سمعت الضجة في الجناح المجاور الذي تقطنه السيدة ده لامول. وتبعت ماتيلد أمها إلى القداس، ثم ذهبت المرأتان بسرعة، فانسل جوليان بسهولة، قبل أن تعودا.

امتطى حصاناً وذهب يبحث عن أهدأ مكان في إحدى الغابات القريبة من باريس. كان مشدوهاً أكثر منه سعيداً. كانت السعادة التي يحس بها تغمر قلبه من وقت لآخر تشبه سعادة ملازم، قام بعدة أعمال مدهشة، فعيّنه قائد جيشه قائداً. كان يشعر بالسمو والرفعة. وكل ما كان بالأمس أعلى منه، أصبح الآن في مستواه أو أدنى قليلاً. وازدادت سعادة جوليان شيئاً فشيئاً كلما ازداد بعده.

وإذا لم يكن يحس بأي حنان، فلأن ماتيلد نفذت واجبها، الأمر الذي قد يظهر عجيباً بعد أن قامت بما قامت به. فلم يكن شيء لم تحسب له حساباً سوى التعاسة والخجلَ اللذين أحست بهما بدلاً من أن تنتشي من هذه الأعمال التي تروى في القصص.

وقالت لنفسها: هل خُدِعت؟ ألا أحب جوليان؟

١٧
سيف قديم

أقصد الآن أن أكون رزيناً:
ـ لقد حان الوقت.
حتى ضحكنا الآن يعتبر جدياً أكثر من اللزوم، فمزج الفضيلة بالرذيلة: جريمة.
دون جوان

لم تظهر ماتيلد خلال الغداء. وفي المساء أتت لحظة إلى الصالون، ولكنها لم تتطلع بجوليان. وبدا له هذا التصرف غريباً. ولكنه فكر: لا أعرف عاداتهم. ستبرر أمامي بأسباب وجيهة كل هذا. ومع ذلك كان يشعر بفضول مزعج، فتطلع إلى وجه ماتيلد متفحصاً. هيئتها كانت قاسية خبيثة. كان من البديهي إنها ليست امرأة العشية ذاتها، التي كانت تجود بلواعج الحب المبالغ فيه حتى الشك به.

وفي اليوم التالي واليوم الذي تلاه، كانت برودتها مستمرة. لم تكن تتطلع إليه، ولا تحس بوجوده. وبَعُد جوليان عن شعوره بالانتصار الذي أحس به قبل أيام، وهو الذي تفترسه آلام

الحزن والاضطراب. وقال لنفسه: هل معنى هذا إن سادت فأحست بالفضيلة؟ ولكن هذه الكلمة لم تكن تليق بماتيلد وسموها.

وفكر جوليان: لا تعتقد مطلقاً بالدين في ما يختص بحوادث الحياة العادية. إنها تحبه بالشكل الذي تفيد منه طبقتها.

ولكن ألا يمكن أنها تلوم نفسها كثيراً على الغلطة التي ارتكبتها وهي الفتاة الناعمة؟ كان جوليان يظن أنه عشيقها الأول.

وكان يقول في بعض اللحظات: ليس في حركاتها سذاجة أو بساطة أو حنان. لم أرها مطلقاً بهذا التعالي. هل تحتقرني؟ إنها جديرة بأن تحسّ بهذا وتلوم نفسها على ما فعلته من أجلي، بسبب نشأتي الوضيعة.

وبينما كان جوليان يحلم بعشيقة حنون لا تفكر بوجودها منذ اللحظة التي أسعدت فيها حبيبها، وهو مستغرق في أحكامه واستنتاجاته وذكرياته في فريير، كانت كبرياء ماتيلد تحسّ بالثورة ضده.

ولما لم تشعر بالضجر منذ شهرين، لم تعد تخشى الضجر. وهكذا خسر جوليان، دون أن يشعر، أفضليته الكبرى على غيره.

كانت الآنسة ده لامول تقول وهي فريسة لأشد أنواع الحزن منحتُ نفسي سيّداً خليلاً! إنه مليء بالشرف، ويا للحظ العظيم. ولكنني إذا دفعت كبرياءه إلى آخر الحدود، قد ينتقم بإذاعته طبيعة علاقتنا. لم يكن لماتيلد عشيق في أي طور من أطوار حياتها؛ وبهذه المناسبة التي تسبب بعض التخيلات اللطيفة، حتى بالنسبة لأكثر النفوس قسوة، كانت نهباً لأفكارها المريرة.

سلطته واسعة عليّ، لأنه يحكم بواسطة الأرهاب، ويستطيع أن يعاقبني بشدة إذا دفعته إلى النهاية. كانت هذه الفكرة وحدها تكفي لأن يكون مزعجاً بالنسبة إليها. الشجاعة كانت أولى صفاتها. ولا شيء كان يمكن أن يبعد عنها الضجر ويشفيها من اضطرابها إلا فكرتها في أنها تقامر وتجازف بمصيرها.

وفي اليوم الثالث، إذ رأى أنها تصر على عدم التطلع إليه، تبعها بعد الطعام، رغمًا عنها طبعاً، إلى قاعة البليار.

وقالت له بغضب لا تكاد تستطيع اخفاءه:

ـ وبعد أيها السيد، هل تظن أنك اكتسبت حقوقاً قوية عليّ، لأنك ضد إرادتي التي أعلنتها، تريد التحدث إليّ؟... هل تعلم أن أحداً لم يجرؤ على ذلك؟

لا شيء كان مسلياً مثل هذا الحوار بين العاشقين. كان كل

منهما مليئاً بمشاعر الكراهية العميقة نحو الآخر.

ولما لم يكن أحدهما ذا طباع سلسة، صرحا بوضـوح أنهما اختلفا إلى الأبد.

وقال جوليان:

ـ أقسم لك أن ما حدث بيننا سيظل سراً إلى الأبد، بل إنني لن أوجه لك الكلام إذا كانت سمعتك تتضرر من هذا التغيير الكبير.

ثم حيا باحترام وانصرف.

كان يقوم، دون عناء كبير، بما يظن أن من واجبه القيام به. كان أبعد شعوراً أنه متدله في حب الآنسة ده لامول. ودون شك لم يكن يحبها لثلاثة أيام خلت، عندما خبأته في خزانة الابنوس، ولكن كل شيء تغير في أعماقه عندما رأى أنه اختلف معها إلى الأبد.

وبدأت ذاكرته القوية تعيد إليه أدق تفاصيل تلك الليلة التي خرج منها فعلاً وهو يحس بالبرودة.

وفي الليلة التي تبعت إعلان الاختلاف الأبدي، كاد جوليان يجن وهو يجد نفسه مضطراً للاعتراف لنفسه أنه يحب الآنسة ده لامول.

وتبع هذا الاكتشاف صراع داخلي عميق: كانت كل إحساساته متشابكة مختلطة.

وبعد يومين من هذا الحادث، كاد يقبل ده كروازنوا، وهو يوشك على البكاء، بدلاً من أن يشعر بالفخر أمامه.

أعطته التعاسة بعضاً من التفكير السليم، فقرر الذهاب إلى لانغدوك، وحزم حقيبته وذهب إلى مكتب البريد.

وأحس بأنه يوشك على السقوط، عندما وصل إلى مكتب السفريات وأخبروه أن مكاناً له، غداً، في العربة التي تذهب إلى طولوز، وكأنما الأمر مصادفة غريبة. فتوقف وعاد إلى قصر ده لامول ليعلن للمركيز نبأ رحيله.

كان السيد ده لامول خرج. ذهب جوليان، وهو بين الحياة والموت، لانتظاره في قاعة المكتبة. ولنا أن نتصور إحساسه عندما رآها في المكتبة!

عندما رأته اتخذ وجهها هيئة خبث لم يستطع أن يتجاهلها، فقال لها بأصفى وأرق لهجة نابعة من القلب، إذ استولت عليه الدهشة وآلمته التعاسة:

ـ هكذا إذن، لا تحبينني؟

وقالت ماتيلد وهي تبكي حانقة على نفسها:

ـ أرتعب عندما أتذكر أنني أعطيت نفسي لأول طارق.

ـ وصرخ جوليان:

ـ لأول طارق! ثم أسرع نحو سيف قديم، من العصور الوسطى يحتفظ به في المكتبة كتحفة قديمة.

وتضاعف ألمه. وكان يظنه قاسياً، في اللحظة التي وجهت الآنسة ده لامول الكلام إليه، وعندما رأى دموع الخجل تنهمر من أعينها؛ كان يكون أسعد الرجال لو استطاع قتلها.

لحظة سحب السيف بصعوبة من غمده القديم، تقدمت ماتيلد نحوه سعيدة بهذا الاحساس الجديد، وكفّت عن البكاء.

وتماثلت أمام عيني جوليان فكرة المركيز ده لامول. سأقتل ابنته! أي رعب هذا! وقام بحركة ليرمي السيف. وفكر: طبيعي أنها ستنفجر ضاحكة عند رؤية هذه الحركة المسرحية. وعادت إليه عند ذلك كل رباطة جأشه. فتطلع إلى نصل السيف القديم، بفضول، كإنما يبحث عن بعض الصدأ، ثم أعاده إلى غمده بهدوء تام وعلقه في المسمار النحاسي المذهب حيث كان.

ودامت كل هذه الحركة، ببطء، في النهاية، ما يقارب الدقيقة، وكانت الآنسة ده لامول تتطلع إليه باندهاش. تقول لنفسها: أوشكت إذن أن أقتَل بيد عشيقي.

ونقلتها هذه الفكرة إلى الأيام الجميلة عهد شارل التاسع وهنري الثالث.

كانت جامدة أمام جوليان الذي أعاد السيف إلى مكانه. تتطلع إليه بعينين غاض منهما الحقد. كانت مسحورة في تلك اللحظة، ولا شك إنها كانت تشبه أكثر منها في أي وقت «دمية باريسية». وكانت هذه كلمة جوليان في انتقاداته لنساء باريس.

فكّرت ماتيلد: سأعود لارتكاب ضعف آخر تجاهه، وعندها سيعتقد أنه سيدي ومولاي، بعد هذه السقطة وفي اللحظة التي آتي لأحدثه فيها بحزم. وهربت.

وقال جوليان وهو يراها تركض: يا إلهي! كم هي جميلة! هذا هو الكائن الذي ارتمى بين ذراعي منذ أقل من ثمانية أيام... ولكن هذه اللحظات لن تعودا وذلك نتيجة خطأي! يجب الاعتراف أنني منذ ولادتي ذو شخصية سطحية شقية.

وظهر المركيز، فسارع جوليان واعلمه برحيله. ورد المركيز قائلاً:

- إلى أين؟

- إلى لانغدوك.

- لا؛ لو سمحت. إنك محجوز لأشياء أهم من هذا. وإذا

كان لا بد من رحيلك فإلى الشمال. . . بل إنني آمرك أن تلزم القصر. ستعاهدني ألا تغيب مطلقاً أكثر من ساعتين أو ثلاثاً. قد احتاج إليك بين لحظة وأخرى.

حيا جوليان وانصرف دون أن يقول أية كلمة، تاركاً المركيز في حالة اندهاش تام. لم يكن باستطاعته أن يتكلم، فاعتزل في غرفته. وهناك استطاع أن يبالغ بحرية، في تصور تعاسته وشقائه.

وفكّر: هكذا إذن، لا أستطيع أن أبتعد ـ ويعلم الله إلى متى سيحتجزني المركيز في باريس، يا إلهي! ماذا سأصير؟ لا صديق استشيره في الأمر: الأب بيرار لن يتركني أتم جملتي الأولى. وسيقترح عليّ الكونت ألتميرا أن أشترك في إحدى المؤامرات.

ومع ذلك فأنا مجنون! أحس بذلك. إنني مجنون!

من يستطيع الأخذ بيدي؟ إلى أين المصير؟

١٨
لحظات قاسية

وهي تعترف لي! تروي أدق التفاصيل!
وعينها الجميلة تحدق بعيني ويغمرها الحب
الذي أحسته في السابق نحو آخر غيري!
شيلر

لم تكن الآنسة ده لامول تفكر، في غمرة نشوتها، إلا في أنها كانت على وشك أن تُقتل. بل قالت لنفسها: جدير بأن يكون سيدي لأنه أوشك على قتلي. إلى أي حد ينبغي أن أذوّب جميع شباب المجتمع بعضهم بعضاً، ليصلوا إلى حركة الحب العنيف هذه؟

كان رائعاً لحظة صعد إلى الكرسي ليعيد السيف إلى موضعه الفريد حيث وضعه مزين الجدران! لم أكن مجنونة عندما أحببته.

ولو مَثُل جوليان، في هذه اللحظات أمامها، وقام بمحاولة شريفة ليعيد صلاتها، لتقبّلت ذلك عن طيب خاطر وبسرور. ولكن جوليان كان في غرفته منعزلاً، فريسة لأقسى أنواع اليأس. كان يفكر، في غمرة تعاسته، بالارتماء على أقدامها. لو كان باستطاعته أن يهيم في الحديقة والقصر بشكل يكون معه في متناولها عندما تريد، بدلاً من أن يحجز نفسه في هذه الغرفة، لو

استطاع ذلك، يحول بلحظةٍ تعاسته البشعة إلى سعادة رائعة هانئة.

ولكن المهارة التي يفتقدها، فوّتت عليه الاستفادة من حركته الرائعة عندما أمسك السيف، الذي جعله جميلاً في عيني الآنسة ده لامول. واستمر إحساسها هذا طوال اليوم. كانت ماتيلد تتخيل صوراً جميلة عن اللحظات التي أحبّته فيها وندمت عليها.

وكانت تقول لنفسها: حبّي لهذا الشاب المسكين لم يدم في نظره إلا ما بين الواحدة بعد منتصف الليل عندما وصل غرفتي بواسطة السلم مدججاً بكل غداراته في جيب سترته الجانبي، وبين الساعة الثامنة صباحاً. فكرت وأنا في القداس، بعد ربع ساعة من ذلك، إنه سيظن نفسه سيصبح سيدي، وإنه قد يحاول إخضاعي بواسطة الارهاب.

وبعد الغداء، لم تتجنب ماتيلد جوليان، بل على العكس حدثته ودفعته بطريقةٍ إلى اللحاق بها في الحديقة. أطاع جوليان. وكانت هذه التجربة تنقصه، وكانت ماتيلد، تلبي دون أن تشعر، نداء قلبها ويلذ لها السير حدّه، تتطلع بفضول إلى يديه أمسكتا بالسيف هذا الصباح ليقتلها.

بعد هذا، بعد كل ما جرى، لم يكن هناك من للعودة إلى حديثها الماضي.

ورويداً رويداً، بدأت ماتيلد تروي له، باعتراف حميم، عن قلبها. كانت تشعر بلذة غريبة في الحديث عن هذا. ووصل بها الأمر إلى أن تروي ما قامت به من حركات حماسية وما أحست به من إعجاب بالسيد ده كروازنوا وده كايلوس...

وصرخ جوليان: ماذا! ده كايلوس أيضاً؟

وبانت الغيرة المريرة، بكل معانيها في هذه الكلمة. وأحست ماتيلد بذلك، فلم تشعر بالاهانة.

استمرت في تعذيب جوليان، تفيض بعواطفها السابقة بطريقة فريدة، وبرنة صدق حميم لا شك فيه؛ أما هو فكان يرى أنها تروي ما تشعر به؛ ويحس بالألم عندما يلاحظ أنها تكتشف أحاسيس جديدة لم تكن تعرفها من قبل عن حقيقة عواطفها.

ولم يكن من الممكن أن يشقى الإنسان من غيرته كما شقي جوليان بعد هذا.

أن يشكّ العاشق ثمة خصمًا له في حب فتاته، شيء قاس لا يحتمل، ولكن أن تعترف لنفسها أمامه بتفصيل عن الحب الذي يوحيه هذا الخصم، ذلك كان فوق طاقته.

لكم يعاقب جوليان الآن على تكبره عندما ظن أنه مفضل على ده كايلوس وده كروازنوا! وبأي تعاسة عميقة كان يبالغ في

محاسنها البسيطة! ولكم أحس بالاحتقار نحو نفسه!

كان يرى ماتيلد رائعة، لدرجة أن كل تعابيره ستكون مقصرة في وصف إعجابه بها. كان يتطلع إلى يديها خفية، وهو يتنزه حدّها، يتطلّع إلى ذراعيها وجيدها. كان يوشك مراتٍ على الارتماء تحت قدميها، ذائباً من الحب والتعاسة، صارخاً: الرحمة والشفقة.

وهذه المرأة الرائعة الجمال، السامية على كل شيء، أحبتني في يوم من الأيام، ستحب السيد ده كايلوس في المستقبل ولا شك!

لم يكن جوليان يشك في صدق الآنسة ده لامول. كانت لهجة الصدق واضحة صريحة في كل ما كانت تقوله. وحتى لا ينقص تعاسته أي شيء، كانت ماتيلد في غمرة اندماجها برواية حقيقة عواطفها السابقة نحو ده كايلوس، تتكلم عليه كأنها تحبه في الوقت الحاضر. لا شك في أن في لهجتها عواطف الحب، وكان جوليان يراها بوضوح.

ولو غرق صدر جوليان في رصاص ذائب، لما تألم كما يتألم الآن. كيف استطاع أن يصل إلى درجة التعاسة هذه؟ يعرف أن الآنسة ده لامول إنما تتكلم بهذا الشكل عما ظنته حباً نحو كروازنوا وده كايلوس، لأنها تتحدث إليه؟

لا شيء يمكن أن يعبر عن آلام جوليان. كان يستمع إلى هذه الاعترافات الدقيقة عن الحب الذي أحسته الآنسة ده لامول نحو غيره في المكان نفسه الذي تسير فيه، حيث كان ينتظر منذ أيام قليلة أن تدق الساعة الواحدة، ليدخل إلى غرفتها. لا أحد يستطيع أن يتحمل آلاماً أقسى من هذه.

ودامت هذه الاعترافات القاسية ثمانية أيام كاملة. وكانت ماتيلد تظهر أحياناً رغبتها في الحديث وأحياناً أخرى لا تهرب من مناسبة تتيح لها التحدث إليه. وكان الحديث الذي يظهر إنهما كانا يعودان إليه بلذة قاسية، هو علاقاتها وعواطفها السابقة. فروت له عن الرسائل التي كتبتها؛ بل إنها ذكرت له النصوص ذاتها، وكانت تسمعه جملاً بكاملها. وفي الأيام الأخيرة كان يظهر أنها تتأمل جوليان بخبث. كانت آلامه مسرات رائعة بالنسبة لها.

لم تكن لدى جوليان أية خبرة في الحياة. بل لم يقرأ أية رواية. ولو كان أكثر مهارة وخبرة، لقال لهذه الفتاة التي يعبدها ببرودة وهي تروي له هذه الاعترافات: إعترفي إنك تحبينني أنا، رغم أنني لا أساوي كل هؤلاء السادة.

وكان من الجائز أن تشعر بالسعادة لأنه أدرك هذا، أو على الأقل كان نجاحه يتوقف على الطريقة التي يقول فيها هذه الفكرة والوقت المناسب الذي يختاره ليقولها. وعلى كلّ حال كان

يتخلّص من وضع يسير نحو الرتابة في نظر ماتيلد.

ذات يوم قال لها جوليان وهو ضائع من الحب والتعاسة:

- لم تعودي تحبينني، أنا الذي يعبدك.

وكانت هذه الحماقة أكبر من كل حماقة استطاع أن يقوم بها.

وهدمت هذه الكلمة، في لحظة واحدة، كل السرور الذي كانت الآنسة ده لامول تحس به عندما تتحدث إليه عن حالة قلبها. بدأت تحس بالدهشة لأنه بعد كل هذه الاعترافات، لم يحس بالاهانة، بل الأمر وصل بها، عندما تلفظ بجملته الأخيرة، حتى فكرت أنها فعلاً لم تعد تحبه. كانت تفكر، أن كبرياءها قتلت حبها. إنه ليس جديراً بأن يفضل على رجال مثل ده كايلوس ولوز وكروازنوا، الذي يعترف أنهم متفوقون عليه. لا، إنني لن أراه تحت قدميّ.

وكان جوليان في الأيام السابقة، يحدثها غالباً، في غمرة تعاسته الساذجة، عن صفات هؤلاء الأشخاص العظيمة، بل أن الأمر كان يصل أحياناً إلى المبالغة في إطرائهم. ولم تفت هذه اللفتة الآنسة ده لامول. دهشت، ولكنها لم تدرك السبب أبداً. كانت روح جوليان الحساسة تحس بالسعادة عندما يمتدح خصمه في حبه للآنسة ده لامول.

وجاءت كلمته الصريحة الحمقاء، فغيّرت كل شيء. كرهته ماتيلد تماماً، بعد أن وثقت أنه يحبها.

كانت تتنزه معه لحظة قال تلك الجملة المشؤومة، فتركته. وكانت نظرتها الأخيرة تعبر عن أبشع أنواع الاحتقار. وبعد أن دخلت إلى الصالون، لم تتطلع إليه طوال السهرة. لم يعد مجال للبحث في أنها كانت تعتبره الصديق الحميم، لأن مرآه أصبح مزعجاً بالنسبة لها. بل وصل الأمر بماتيلد إلى الاحتقار، ولا شيء يمكن أن يعبر عن الاحتقار الذي كانت تحس به عندما تراه أمام عينيها.

ولم يفهم جوليان شيئاً مما يحدث، منذ ثمانية أيام في قلب ماتيلد، ولكنه ميَّز الاحتقار. فتصرف بحكمة حتى لا يظهر أمامها إلا في مناسبات نادرة ولم يكن يتطلع إليها عندما يراها.

ولكن ذلك لم يتم دون ألم قاتل. ظن أيضاً أنه يحس بشقائه يتضاعف. كان يقول في نفسه: لا يمكن للرجل أن يكون شجاعاً أكثر مني. وكان يقضي أوقاته جالساً عند نافذة في إحدى أبراج القصر، مغلقاً باب الغرفة بعناية، من حيث يستطيع على الأقل أن يرى الآنسة ده لامول عندما تظهر في الحديقة.

ولنا أن نتصور ما يحدث له عندما يراها، بعد تناول الطعام،

تتنزه مع ده كايلوس وده لوز أو أيٍّ من الذين صارحت جوليان أنها أحبتهم في السابق!

ولم يكن جوليان أحس بالألم والتعاسة إلى هذا الحد. كان يوشك على العويل والصراخ. انقلبت هذه النفس الحازمة أخيراً. وأصبحت كل أفكاره تدور حولها، فلم يعد يستطيع كتابة أبسط الرسائل. فقال له المركيز:

ـ إنك لمجنون!

وتذّرع جوليان بالمرض، حتى لا يفتضح أمره، واستطاع اقناع المركيز. ولحسن حظه، مازحه المركيز، على المائدة، حول رحلته المقبلة: وفهمت ماتيلد أنها قد تكون طويلة. مضت أيام طويلة وجوليان يتهرب منها، بينما لم يعد الشباب المرموقون الذين يملكون كل ما يفتقده جوليان، يستطيعون أنتزاعها من أحلامها.

كانت تقول لنفسها: أية فتاة عادية كانت تختار الرجل الذي تفضله من بين هؤلاء الشباب الذين يلفتون الأنظار في كل مجتمع. ولكن إحدى صفات العبقرية أن لا يتبع المرء الحس العادي العام.

لو وجدت حدّ رجل مثل جوليان، لا تنقصه إلا الثروة التي أملكها أنا، سأثير دائمًا الانتباه، ولن أمرّ مروراً عابراً في الحياة. سأكون أبعد من أن أخاف ثورة الشعب، كبنات عمي اللواتي

يسكتن عن علج يعاملهن معاملة سيئة. باختياري هذا الرجل أكون على ثقة من أنني سألعب دوراً كبيراً لأنه ذو شخصية وطموح لا حدّ له. ماذا ينقصه؟ الثروة؟ أعطيه إياها. ولكن تفكيرها كان يتجّه إلى جوليان ككائنٍ من مرتبة أدنى، تجعله عشيقاً لها عندما تريد.

١٩
الأوبرا الايطالية

أوه! ربيع الحب هذا! كم يشبه المجد
الرجراج في يوم من نيسان يرى الآن كل
جمال الشمس تأخذه الغيمات تترى!
شكسبير

في غمرة اهتمام ماتيلد بالمستقبل والدور الكبير الذي تحلم به، وصلت إلى حد لامت فيه نفسها على المناقشات الجافة الماورائية التي قامت بينها وبين جوليان. وإذ كانت تحس بالتعب من هذه الأفكار السامية، كانت تأسف على اللحظات الهانئة التي وجدتها حدّه. ولم تكن هذه الذكريات تعود إلا مع بعض التأنيب، يغرقها في بعض الأوقات.

كانت تقول لنفسها: إذ كنت ضعيفة، يجدر بفتاة مثلي ألا

تنسى واجباتها نحو رجل كفوء. لن يقال على الاطلاق أن شاربيه الجميلتين أو سلاسة امتطائه للخيل هما اللذان سحراني، بل مناقشاته العميقة حول المستقبل الذي ينتظر فرنسا وأفكاره عن التشابه بين الأوضاع التي أدت إلى ثورة ١٦٨٨ في إنكلترا وأوضاع فرنسا الحاضرة. وردت على صوت ضميرها: سحرني، لست إلا امرأة ضعيفة، ولكن المظاهر الخارجية على الأقل لم تفقدني وعيي كالدمية.

فإذا قامت ثورة، لماذا لا يقوم جوليان سوريل بدور رولان، وأنا بدور السيدة رولان؟ أفضل هذا الدور على دور السيدة ده ستايل؛ سوء السيرة يشكّل عقبة في عصرنا الحاضر. وطبيعي أنني لن انتقد على ضعف آخر، لأنني سأموت من الخجل.

أحلام ماتيلد لم تكن كلها على هذا المستوى الخطير. كانت تتطلع إلى جوليان وتجد سحراً في أقل حركاته، وتقول لنفسها، دمرت، دون شك، كل أفكاره حول حقوقه علي.

هيئة الشقاء والحب العميق التي أكتساها وجهه عندما قال لي تلك الجملة، قبل ثمانية أيام. تثبت هذا. كنت غريبة الأطوار لأنني غضبت من كلمة كان الاحترام والحب يلمعان فيها. ألست امرأته؟ كانت تلك الكلمة طبيعية، ويجب أن أعترف أيضاً أنه كان ساحراً. كان مستمراً في حبي رغم تلك المناقشات الطويلة التي تحدثت فيها إليه، وبقسوة شديدة، عن مشاعر

الحب الذي أوحته لي حياة الضجر كنت أحياها، وهو يملك الحق في أن يشعر بالغيرة من هؤلاء الشبان. آه! لو يعرف أنهم لا يشكلون أي إغراء بالنسبة لي! وكم يظهرون ضعفاء، الواحد منهم نسخة عن الآخر.

وبينما ماتيلد في غمرة أفكارها،كانت يدها ترسم دون هدى على ورقة من «ألبومها»، وشابهت إحدى رسومها، بشكل أدهشها، وجه جوليان إلى حد بعيد. إنه صوت السماء! وصرخت: ها إحدى معجزات الحب. رسمت صورته دون أن أتعمد ذلك.

لجأت إلى غرفتها، وأغلقت الباب على نفسها، وحاولت كثيراً وجدّياً أن ترسم صورة لجوليان، ولكنها لم تستطع، وظلّ الرسم الذي خطته صدفة أقرب إلى هيئته. سرّت ماتيلد لذلك، ووجدت فيه دليلاً واضحاً على تدلها في حبه.

ولم تفارق رسومها إلا في وقت متأخر، عندما نادت المركيزة ابنتها للذهاب إلى الأوبرا الايطالية. ولم تفكر إلا في شيء واحد: التفتيش عن جوليان بعينيها لتجبره بواسطة أمها على مرافقتها.

لم يظهر جوليان، ولم تجد السيّدتان سوى بعض الأشخاص العاديين في مقصورتها. وكانت ماتيلد، طوال الفصل الأول من

الأوبرا، تحلم بالرجل الذي تكنّ له الغرام المتأجج، وفي الفصل الثاني، سمعت مقطعاً عاطفياً رائعاً كان جديراً فعلاً بجيرونيمو، وصل إلى قلبها. كانت بطلة الأوبرا تقول:

ـ يجب أن أعاقب نفسي على العبادة التي أحسها نحوه. أحبه أكثر من اللازم!

وما أن سمعت ماتيلد هذا المقطع حتى غاب كل شيء عن أنظارها. كان الحديث يوجه إليها فلا تردّ. وبختها أمها، فوجدت صعوبة كبيرة في التطلع إليها. ووصل بها الأمر إلى تصرفات معبرة عنيفة تقارب في التصرفات التي قام بها جوليان نحوها قبل أيام. وكان المقطع مليئاً بروعة إلهيّة ظنّت معها أنه ينطبق تماماً على وضعها، ويشغل كل اللحظات التي لا تفكّر فيها مباشرة بجوليان.

وبفضل حبّها للموسيقى، كانت طوال الليلة كالسيدة ده رينال عندما تفكر بجوليان. حب العقل، لا شك فيه ذكاء أكثر من الحب الحقيقي، لكنه لا يمرّ بلحظات حماس. يعرف نفسه تماماً ويحكم على نفسه باستمرار، فلا يضيّع التفكير، لأنه مبنّي على أساسه.

لدى عودتها إلى القصر، ادعت ماتيلد أنها تحسّ بالحمى، رغم اعتراضات المركيزة، وأمضت قسمًا من الليل تردد المقطع

على البيانو، وتغني كلماته التي سحرتها:

«يجب أن أعاقب نفسي، يجب أن أعاقب نفسي،
أحبه أكثر من اللازم...»

وبانتهاء الليل، ظنت أنها تغلبت على حبها. (ولا شك في أن هذه الصفحة ستصيب المؤلف الشقي بالضرر. فالنفوس الباردة ستتهمه بالاباحية. وهو لا يقصد إهانة الشباب المرموقين في مجتمعات باريس عندما يفترض أن واحداً منهم يستطيع أن يسبب تدهور شخصية ماتيلد. فهذه الشخصية خيالية تماماً، وهو تخيلها خارج حدود العادات الاجتماعية التي تؤمن للقرن التاسع عشر مركزاً مرموقاً بين بقية القرون.

ليس الحذر هو الذي ينقص الفتيات اللواتي زيّنّ الحفلات هذا الشتاء.

وأنا لا أفكر أنه بالامكان اتهام الناس باحتقار الثروة الكبيرة، والخيل والأراضي الكبيرة وكل ما يؤمن المركز المرموق في هذا العالم. أنا أبعد من يفكر في أن نتيجة كل هذا هو الضجر، بل أن هذه الحسنات هي الهدف الدائم للكثيرين، وإذا أحس الناس بالرغبة، فإنها الرغبة في الحصول على ذلك الهدف.

ولم يكن الحبّ، أيضاً، هو الذي يتكفّل بإثراء الشبّان الذين يملكون بعض المؤهلات، مثل جوليان؛ كانوا يتعلقون إصراراً لا

يقهر بأصدقاء مقربين، وعندما يصادف الحظ أحد هؤلاء الأصدقاء، فإن كل نعم المجتمع تهطل عليهم. والويل، كل الويل، للرجل الذي يبقى منعزلاً، ويلومه الجميع حتى على نجاحاته الصغيرة غير الاكيدة، وتنتهي الفضيلة السامية بالانتصار عليه. وبعد، أيها القارىء الرواية ليست إلا مرآة تتنزّه على قارعة الطريق. فطوراً تعكس زرقة السماء، وطوراً وُحول حفر الطريق. أما الرجل الذي يحمل المرآة فإنك سوف تتهمه بعد ذلك باللا أخلاقية! أن مرآته تظهر الوحل، وأنت تتهم المرآة! من الاجدر بك أن تتهم الطريق الملأى بالحفر الموحلة، وبصورة أدق مفتش الطرق الذي يترك الماء يركد والحفرة تتضخم.

والآن، إذ رأينا شخصية ماتيلد محالة في عصرنا، وهي فاضلة أكثر منها حذرة، أحس أنني سأثير اطمئنان القارىء أكثر إذا ما تابعت رواية جنون هذه الفتاة اللطيفة).

كانت طوال اليوم التالي تنتهز الفرص لتثبت أنها انتصرت على غرامها المجنون. فكان هدفها الأول أن لا تعجب جوليان من كل النواحي. ولكن حركة من حركاته لم تفتها.

كان جوليان تعيساً، وخصوصاً مضطرباً ليعرف مناورة الحب المعقدة، لا يستطيع أن يلاحظ اسهمه المرتفعة: كان ضحيتها.

ربما تعاسته لم تكن فظيعة بهذا الشكل في أي فترة من فترات حياته. كانت حركاته خارجة عن نطاق مراقبة عقله لدرجة لو قال له معها فيلسوف حزين: «فكر في الاستفادة بسرعة من ارتفاع أسهمك عندها، ففي هذا الحب العقلي الذي نراه في باريس، لا تستمر هذه الحالة على أبعد تقدير أكثر من يومين»، لما فهم ما يقال له. ولكنه مهما كان متدلهاً، كان ذا قلب شريف. وكان واجبه الأول أن يكون متحفظاً، وهو فهم ذلك. أن يطلب النصح، وأن يتحدث عن آلامه للوافد الأول، كان بالنسبة له كسعادة المسافر في صحراء لاهبة، ثم يتلقّى نقطة ماء مثلجة. عرف المخاطر، وكان يخشى أن يردّ بسيل من دموعه على المتطفل الذي يسأله. فاحتجز نفسه في غرفته.

رأى ماتيلد تتنزه طويلاً في الحديقة، وعندما غادرتها، نزل هو إليها، واقترب من إحدى الورود التي قطفت ماتيلد منها إحدى الأزهار.

كان الليل حالكاً، فاستطاع الاستغراق في تعاسته الكاملة دون خوف من أن يفاجئه أحد. كان واضحاً بالنسبة له أن ماتيلد تحب واحداً من هؤلاء الشبان الذين تحدثت إليهم منذ قليل بمرح. أحبته، ولكنها اكتشفت قلة جدارته.

قال جوليان بتمام الاقتناع: وبالفعل، أنا لا أملك إلا القليل من الكفاءة، أنا على الاجمال سطحي، عامي، مضجر بالنسبة

للآخرين، لا أستطيع أن احتمل نفسي.

أصيب بالقرف من كل صفاته الحسنة، من كل الأشياء التي أحبها بحماس. وفي حالة خياله المنقلب، تعهد بالحكم على الحياة بخياله. وهذا ليس إلا خطأ الرجل المتفوق.

مرت في ذهنه، لمرات عديدة، فكرة الانتحار، وكانت تلك الفكرة مليئة بالمغريات، كانت كالراحة اللذيذة. كانت قدح الماء المثلج يعطي للمسافر الذي يكاد يموت من العطش والحرارة في الصحراء.

وصرخ جوليان:

ـ موتي سيزيد من الاحتقار الذي تكنّه لي! أي ذكرى سأتركها!

لم يعد لديه، بعد أن وقع في لجة تعاسته، إلا الشجاعة. ولم يكن لديه الحس المرهف ليقول: يجب أن أتجرّأ، ولكنه عندما تطلع إلى غرفة ماتيلد، رأى أنها أطفأت النور. وتصوّر هذه الغرفة الرائعة التي رآها، مرة واحدة للأسف! ولم يذهب به خياله أبعد من هذا.

دقت الساعة الواحدة، وسمع صوت الجرس وقال لنفسه: سأصعد بواسطة السلم، ولو للحظة واحدة.

كانت لمحة عبقرية، وتتالت الأسباب المشجعة في ذهنه. فقال لنفسه: هل يمكن أن أكون أتعس مما أنا عليه الآن؟ رَكض نحو السلم، وكان البستاني ربطه، فاستعان بمسدسه، وكان جوليان ساعتئذ يتمتع بقوة خارقة. قطع إحدى الحلقات بأسنانه، وكانت تمسك بالسلّم؛ وسرعان ما استطاع التحكم به، فأسنده إلى حافة نافذة ماتيلد.

ستغضب ولا شك، وتغرقني بالاحتقار؟ سأعطيها قبلة، قبلة أخيرة، ثم أصعد إلى غرفتي وأنتحر... ستمس شفتاي خدها قبل أن أموت!

كان يطير وهو يتسلق السلم، وقرع على الزجاج. بعد لحظات سمعته ماتيلد. كانت تريد أن تفتح ولكن السلّم منعها: فتعلق جوليان بحديد النافذة، معرضاً نفسه للسقوط، ثم دفع السلم دفعة قوية فأزاحه قليلاً، وأصبح باستطاعة ماتيلد أن تفتح نافذتها.

رمى بنفسه داخل الغرفة وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة: فقالت وهي ترتمي بين ذراعيه:

ـ إذن هذا أنت!

* * *

من يصف سعادة جوليان الفائقة؟ كانت سعادة ماتيلد تساويها تقريباً.

كانت تتكلم ضدّ نفسها وتفضح أمر نفسها، فقالت له وهي تشده بين ذراعيها حتى تكاد تخنقه:

ـ عاقبني على كبريائي الشنيع. إنك سيدي وأنا جاريتك، يجب أن أطلب الصفح منك وأنا راكعة لأنني أردت الثورة.

تركت ذراعيه، وجثت تحت قدميه. وقالت له وهي لا تزال سكرى من السعادة والحب:

ـ أجل، إنك سيدي، فاحكم دائماً عليّ، عاقب جاريتك بقسوة كلما حاولت أن تتمرد.

وفي لحظة أخرى انفلتت من بين ذراعيه، وأشعلت الشمعة، وحاول جوليان بجميع الوسائل أن يحول دون قص خصلة من شعرها. قالت له:

ـ أريد أن أتذكر أنني خادمتك: فإذا كان الكبرياء المشؤوم سبب نسياني هذا الأمر، فأرني هذه الخصلة وقل: لم يعد الأمر حباً ولا يتعلق بالعاطفة التي قد تحس بها نفسكِ في هذه اللحظة، أقسمتِ على الطاعة، فأطيعي لتحفظي شرفك.

ولكن من الأحسن أن لا نورد وصف حالة كهذه من الذهول واللذة.

كانت شجاعة جوليان مساوية لسعادته. فقال لماتيلد، عندما بدأت أولى خيوط الفجر تظهر وراء المدافن البعيدة من الناحية الشرقية، وراء الحديقة:

- يجب أن أنزل بواسطة السلّم. التضحية التي أفرضها على نفسي جديرة بك، وأنا أحرم نفسي من أروع ساعات السعادة تستطيع النفس البشرية أن تتذوقها. تضحية أقوم بها من أجل سمعتك: فإذا كنت تعرفين قلبي، ستفهمين العنف الذي أقوم به. هل تكونين دائمًا بالنسبة لي، كما أنت الآن في هذه اللحظة؟ ولكن الشرف يتكلم، وصوته يكفي. فاعلمي أنه بعد العملية الأولى لم تكن كل الشكوك متجهة نحو اللصوص، فجاء السيد ده لامول بحارس إلى الحديقة. أما السيد ده كروازنوا فإنه محاط بالجواسيس، ومن المعروف أن يقوم كل ليلة...

عند هذه الفكرة، ضحكت ماتيلد بصوت عال. فاستيقظت أمها وإحدى الخادمات. وفجأة وجّهَا الحديث إليها من خلف الباب. تطلع إليها جوليان، فرآها تشحب وهي توبّخ الخادمة. ولم ترد على أمها.

قال لها جوليان:

ولكنها إذا تطلعتا من النافذة، فإنها ستريا. السلّم! وضمها مرة أخرى بين ذراعيه وارتمى على السلّم وترك نفسه ينزلق

انزلاقاً، وفي لحظة واحدة وصل إلى الأرض.

بعد ثوان ثلاث كان السلمّ في ممشى الحديقة، وأنقذ شرف ماتيلد. ولما تمالك جوليان نفسه، رأى نفسه شبه عار وعليه آثار دم: جرح وهو ينزلق دونما عناية.

أعادت إليه سعادته الفائقة كل طاقته وشخصيته: ولو تحرش به عشرون رجلاً لهاجمهم وحده، مما كان في تلك اللحظة سعادة أخرى تضاف إلى ملذاته. ولحسن الحظ لم توضع شجاعته العسكرية موضع التجربة. فأنام السلمّ في مكانه الطبيعي، وأعاد وضع السلسلة التي تربطه، ولم ينسَ أن يمحو العلامات التي تركها السلمّ بين الأزهار النادرة تحت نافذة ماتيلد.

ولما كان يجيل يديه، في الظلام، على الأرض الطرية ليتأكد أن العلامات امحت تماماً، أحس بشيء يسقط على يده. كانت خصلة شعر ماتيلد قطعتها ثم رمتها له. وكانت واقفة في نافذتها ثم قالت له بصوت عالٍ:

ـ هذا ما ترسله لك خادمتك. علامة الطاعة الأبدية. اتخلى عن عقلي، فكن سيدي.

ولما رأى جوليان ذلك، كاد يعود إلى وضع السلمّ ويتسلقه نحو ماتيلد، ولكن صوت العقل تغلّب عليه.

الدخول من الحديقة للقصر لم يكن سهلاً. ونجح في فتح باب أحد الأقبية بالقوة، ووصل إلى المنزل، واضطر أن يفتح باب غرفته بتأنٍ كبير.

في غمرة اضطرابه، وفي الغرفة التي كان فيها منذ قليل، ترك المفتاح الذي في جيب بذلته. وفكّر: عسى أن تفكر في إخفاء هذه الآثار القتالة!

أخيراً، انتصر التعب على السعادة، وبينما كانت الشمس تشرق ذهب جوليان في نوم عميق.

لم يستيقظ على جرس الفطور إلا بصعوبة. وظهر في غرفة الطعام. وبعد قليل جاءت ماتيلد. وأحس كبرياء جوليان بالسعادة وهو يرى بريق الحب في عينيها الجميلتين المليئتين بالاعجاب، ولكن حذره سرعان ما ذكره بما عليه.

رتبت ماتيلد شعرها، بحجة قصر الوقت لتعتني بزينتها، بشكل كان جوليان يستطيع أن يلاحظ من النظرة الأولى مقدار التضحية التي قامت بها من أجله عندما قصت الخصلة في الليل. ولو أن أي وجه جميل كهذا تعرّض أن يُشوه لكانت ماتيلد السباقة إليه. كانت الخصلة المقطوعة تصل إلى بُعد ابهام واحدة من الرأس.

وخلال الفطور، كانت تصرفات ماتيلد تتتابع بمثل هذه

الاستهانة. ربما يقال أنها كانت تقوم بكل المحاولات لاطلاع الجميع على الغرام المشبوب الذي تكنّه لجوليان. ولحسن الحظ، كان السيد ده لامول والمركيزة منهمكين بدفعة من الوشاحات الزرقاء ستصدر عن القصر، والتي لم يكن السيد ده شولن يدخل في عدادها. وقرب انتهاء الطعام، حدث أن ماتيلد تكلمت مع جوليان ونادته: سيدي. فاحمرّ حتى بياض عينيه.

وسواء كان ذلك تعمداً أو لا، فالسيدة ده لامول لم تترك ماتيلد منفردة طوال اليوم. وفي المساء، لحظة كانت العائلة تنتقل من غرفة الطعام إلى الصالون، وجدت ماتيلد الفرصة لتقول لجوليان:

ـ هل تظن أنني أتذرع بأية حجة إذا قلت لك أن والدتي قررت أن تنام إحدى النساء في غرفتي؟

مضى النهار بسرعة البرق. كان جوليان في قمة السعادة. وفي اليوم التالي استقر في المكتبة منذ الساعة السابعة، كان يأمل أن تظهر الآنسة ده لامول. وكتب رسالة لاهبة.

لكنه لم يرها إلا بعد ساعات طويلة، في ساعة الفطور. وكانت اليوم مهتمة بشعرها إلى حد بعيد. واستطاعت مهارة الفنان إخفاء مكان الخصلة المقطوعة، وتطلعت إلى جوليان مرة أو مرتين، ولكن بنظرات مهذبة هادئة. ولم يعد من مجال

لمناداته: سيدي.

منعه اندهاشه من التنفس... ماتيلد تلوم نفسها تقريباً على كل ما فعلته من أجله.

عندما فكرت ماتيلد في الأمر بهدوء وروية، قررت أنه ليس إلا شخصاً عادياً، أو على الأقل لا يخرج كفاية عن الصف ليستحق كل الأعمال الجنونية التي أبدتها نحوه. ولم تعد إجمالاً تفكر في الحب، ذاك اليوم. تعبت من أن تحب.

أما جوليان، فكانت حالة قلبه تشبه حالة فتى في السادسة عشرة. فالشك القاتل، والدهشة واليأس، شغلته تباعاً خلال الفطور الذي بان له طويلاً جداً.

وعندما استطاع أن ينهض، قفز قفزاً إلى الاسطبل، وأسرج حصانه بنفسه، وذهب راكضاً. كان يخاف أن يتصرف تصرفاً يجلب عليه العار. يجب أن أقتل قلبي بإرهاق جسدي. قال ذلك لنفسه وهو يجري في غابة مودون. ماذا فعلت، ماذا قلت لاستحق هذا الازدراء؟

فكّر وهو عائد إلى القصر، يجب ألا أقوم بأي شيء وألا أقول أي شيء؛ أن أكون ميتاً جسدياً كما أنا ميت معنوياً. لم يكن جوليان يعيش. كانت جثته هي التي لا تزال تتحرك.

٢٠
الوعاء الياباني

لم يفهم قلبه في البداية كل هذا الشقاء. كان مضطرباً أكثر منه منفعلاً. ولكنه كلما تمالك نفسه، كان يحس بعمق سوء حظه. امحت في عينيه كل ملذات الدنيا، وهو لا يستطيع أن يحس إلا بقسوة اليأس الذي يمزقه. ولكن ما نفع الحديث عن الالم الجسدي؟ أي ألم جسدي يقارب هذا الألم؟

جان بول

قرع جرس الغداء، ولم يجد جوليان إلا الوقت الكافي ليلبس ثيابه. ووجد ماتيلد في الصالون، وكانت تحاضر في شقيقها وده كروازنوا وتحثهما على عدم الذهاب إلى سورين عند السيدة الماريشالة ده فرفاك، لقضاء السهرة.

ولم يكن بالامكان أن تظهر امرأة بأكثر من هذا السحر والعطف بالنسبة لهم. وبعد الغداء، ظهر السيد ده لوز وده كايلوس وبعض من أصدقائهما. وكانت ماتيلد أعادت روابط الصداقة مع شلتها القديمة. ورغم أن الوقت كان ساحراً في تلك الليلة، ألحت على عدم الخروج إلى الحديقة. وأرادت أن لا يبعدوا عن كرسي السيدة ده لامول. وعادت الكنبة الزرقاء لتتّخذ مركزاً للمجموعة، كما في الشتاء.

كانت ماتيلد تريد البعد عن الحديقة، أو أنها فعلاً تراها مثيرة للضجر: كانت مرتبطة بذكرى جوليان.

التعاسة تضعف العقل: ارتكب جوليان حماقة الوقوف إلى جانب كرسي القش الصغير، الذي شهد في الماضي انتصارات برّاقة. فلمْ يوجّه إليه أحدٌ الحديث اليوم، وحتى وجوده كان غير ملاحظ تماماً. وكان أصدقاء الآنسة ده لامول، القريبون منه، يتعمدون إدارة ظهورهم له، أو هذا ما خيل إليه.

كان عم ده لوز مقرباً من الملك، لذا يبدأ كل أحاديثه، مع كل محدثيه، بهذه الرواية: عمه انطلق في طريق سان كلو عند الساعة السابعة، وهو يعتزم قضاء الليل فيها. وكان هذا التفصيل يأتي ببساطة ولكنه كان دائماً يأتي.

وراقب جوليان ده كروازنوا بعين التعاسة القاسية، ولاحظ التأثير الكبير الذي يحدثه هذا الرجل المحبوب الطيب في القضايا السرية. كان يحزن، ويأخذ طابع الانزعاج إذا فسرت إحدى الحوادث بأسباب طبيعية بسيطة. وقال جوليان: فيه بعض الجنون. يشابه في طباعه الامبراطور الاسكندر كما وصفه الأمير كوراسوف.

وفي أيام جوليان الأولى في باريس لم يستطع إلا أن يعجب بهؤلاء الشبان، هو الخارج من الدير، أحاطوه بكثير من العناية. والآن بدأت شخصياتهم الحقيقية ترتسم في عينيه.

وفكّر فجأة: إنني أقوم هنا بدور منحطّ. الأمر يتعلّق بترك الكرسي الصغير دون حماقة.

أراد الاختراع، فطلب من خياله المشغول المنهوك شيئاً جديداً. كان عليه أن يستعين بذاكرته، التي كانت فقيرة بأشياء من هذا النوع؛ كان لدى الولد المسكين قليل من حسن التصرف، فكان أحمق كبيراً، ولاحظه الجميع وهو يخرج من الصالون. التعاسة جلية في كل حركاته. كان يقوم منذ ثلاثة أرباع الساعة بدور التابع الذي لا يخفي أحدٌ عليه ما يحسه الجميع نحوه.

وكانت الملاحظات الانتقادية التي عالج بها خصومه تمنعه من أن ينظر نظرة فاجعة إلى تعاسته. ذكرى ليلة أول أمس لا تزال حاضرة في ذهنه، تدعم فخره. كان يفكّر: مهما كانت أفضليتهم عليّ، ماتيلد لم تكن بالنسبة لأي منهم في أي وقت، ما كانته لي مرتين في حياتي.

لم تذهب به حكمته إلى أبعد من هذا. فهو لما يفهم بعد شخصية هذه الفتاة الغريبة التي جعلها القدر ذات سلطة مطلقة على سعادته.

وحرص في اليوم التالي على أن ينهك نفسه وحصانه من التعب فلم يحاول الاقتراب، في المساء، من الكنبة الزرقاء، التي

كانت ماتيلد مخلصه لها. ولاحظ أن الكونت نوربير لا يتنازل بالتطلع إليه عندما يعود إلى المنـزل. وفكر: لا بـد أن يقوم بمجهود ما، وهو الشخص المهذب.

كان النوم بالنسبة لجوليان سعادة. بدأت الذكريات المغرية تعود إلى ذهنه رغم تعبه الجسدي، ولم يفكر أنه في نـزهاتـه الطويلة إلى الغابات القريبة من باريس، لا يعاقب إلا نفسه، وإنه بعمله لا يؤثر على قلب ماتيلد أو تفكيرها، وإنـه يترك للصدف ترتيب أمر مستقبله.

كان يخيل إليه أن شيئاً واحداً يستطيع أن يخفف من ألمه: التحدث إلى ماتيلد. مع ذلك ماذا يستطيع أن يقول؟

وبينما هو يحلم ذات يوم بهذا، وهو جالس في المكتبة عند السابعة صباحاً، رأى فجأة ماتيلد تدخل وتقول له:

أعلم أيها السيد أنك تريد أن تحدثني.

ـ يا إلهي! من قال لك ذلك؟

ـ أعرف. ما يهمك؟ إذا كنت قليل الشرف، تستطيـع أن تفقدني نفسي، أو على الأقل تهددني، ولكن هذا الخطر، الذي لا أعتقد به، لا يمنعني من أن أكون مخلصة. لم أعد أحبك، أيها السيد. خدعني خيالي المجنون...

حاول جوليان أن يبرر موقفه، وهو يحس بوطأة هذه الاصابة القاتلة. وفقد وعيه من الحب والتعاسة. ولم يكن أسخف من محاولته. فهل يستطيع أن يبرر عدم إعجاب الآخرين به؟ ولكن عقله كان فقد كل سيطرة على تصرفاته. كانت غريزة عمياء تدفعه لتأخير حكم القدر: يخيل إليه أنه إذا استمر في الكلام، فكل شيء لم ينقطع بعد. ولم تعد ماتيلد تستمع إلى كلامه، كان صوته يثير غضبها، فلم تتصور قط أنه يتجرأ على مقاطعتها.

جعلها تأنيب الضمير والكبرياء، تعيسة ذاك الصباح أيضاً. كانت تحس بنوع من الاشمئزاز عندما تفكر أنها أعطت بعض الحقوق على شخصها لقسيس صغير، ابن فلاح، وتقول لنفسها: لكأنما عليّ أن ألوم نفسي لإحساسي بالضعف أمام أحد الخدم.

ما سوى خطوة واحدة بين الغضب من النفس والغضب من الآخرين، في تلك النفوس الجريئة الفخورة. وعندئذ تكون حركات الغضب لذة حية.

وفي لحظة، وصلت الآنسة ده لامول إلى حد إغراق جوليان بتعبيرات الاحتقار القاسي. إنها ذكية، وذكاؤها ينتصر دائماً في فن تعذيب حب الذات عند الآخرين وإصابتهم بالجروح القاسية.

كان جوليان، للمرة الأولى في حياته، خاضعاً لذهن متفوّق يغذّيه حقد عميق. وبدلاً من أن يحاول الدفاع عن نفسه، أحس بأنه يكره نفسه. وعند سماعه ماتيلد تتلفّظ بتعابير الحقد والاحتقار بطريقة تمنعه من إبداء أيّة معارضة، ظنّ أن ماتيلد مصيبة في كلماتها، وإنها لم تقل بعد كل شيء.

أما هي فكانت تجد لذة كِبرَ عظيمة في معاقبة نفسها وجوليان على العبادة التي أحستها نحوه قبل أيام قليلة.

لم تكن ماتيلد بحاجة، للمرة الأولى، إلى الاختراع أو التفكير في الاشياء القاسية التي توجّهها له بمنتهى البساطة. لم تكن تردّد اليوم إلا ما كان قلبها يردده قبل ثمانية أيام في مهاجمتها للحب.

وكانت كل كلمة تضاعف مئات المرات تعاسة جوليان. فأراد الهرب، ولكنّ ماتيلد أمسكت به من ذراعه بصورة آمرة، فقال لها:

ـ تفضّلي ولاحظي أنك تتكلمين بصوت عال، وقد يسمعك من في الغرفة المجاورة.

وردت ماتيلد بفخر:

ـ لا يهمّ! من يتجرأ أن يقول لي ذلك؟ أريد أن أشفي حب الذات عندك من كل الأفكار التي يمكن أن يكون كونّها؟

وعندما استطاع جوليـان أن يخرج من المكتبـة، كان يحس بالدهشة لدرجة شعر معها أن تعاسته تخف. كان يردد لنفسه وهو يتكلم بصوت عالٍ كأنه يحاول أن يفهم وضعه تماماً: وبعدا لم تعد تحبني؛ يظهر أنها أحبتني لثمانية أو عشرة أيام. أما أنا فسأحبها إلى الأبد.

هل من المعقول أنها لم تكن شيئاً بالنسبة لقلبي منذ أيـام قليلة!

كانت ملذات الكبرياء تملأ قلب ماتيلد، استطاعت إذن أن تقطع العلاقات إلى الأبد! كان التغلب التام على ميل قـوي يجعلها سعيدة. وهكذا يفهم هذا السيد الصغير، أنه لا يملك ولن يملك أية سلطة عليّ. كانت تحس بالسعادة حتى أنها فعلاً لم تشعر بالحب في هذه اللحظة على الاطلاق.

كان الحب يصبح مستحيلاً. بعد هذا المشهد القاسي المهين، بالنسبة إلى أية نفس، أقل حساسية من نفس جوليان، وجهت إليه ماتيلد، دون أن تبتعد عما اعتزمته، كلمات مزعجة، أعدتها سابقاً، تظهر حقيقة، حتى ولو تذكرها المرء ببرودة.

وكانت النتيجة التي استخلصها جوليان في اللحظة الأولى من هذا المشهد أن ماتيلد تملك كبرياء عنيفاً. ظن تماماً أن كل شيء انتهى بينه وبينها، ومع ذلك تصـرف في اليوم التـالي، وقت

الفطور بحمق وحياء أمامها. وكان هذا عيباً لم تلمه عليه حتى الآن. كان يعرف، في الاشياء الصغيرة والكبيرة، ما عليه أن يقوم به، وما كان يريده بوضوح، ثم يقوم بتنفيذه.

وفي اليوم ذاته، بعد الفطور، طلبت منه السيدة ده لامول مجلة دينية، نادرة، أحضرها لها سراً، في الصباح، أحد القساوسة. وعندما أمسك بها جوليان، وكانت موضوعة على إحدى الطاولات، قلب وعاء قديماً من البورسلين الأزرق البشع، فكسره.

نهضت السيدة ده لامول وهي تطلق صيحة أسف، وأتت تتأمل عن قرب حطام وعائها العزيز. كانت تقول:

ـ هو من صنع اليابان ورثته عمة قسيسة من شيل، وهو هدية من الهولنديين لدوق أورليان، ولي العهد، الذي أعطاه لابنته. . .

وتابعت ماتيلد حركة أمها، وهي سعيدة بكسر هذا الوعاء الازرق، البشع. وسكت جوليان، دون أن يضطرب أدنى اضطراب. ورأى ماتيلد بقربه. فقال لها:

ـ كسر هذا الوعاء إلى الأبد، كما حدث بالنسبة إلى شعور كان في السابق سيد قلبي؛ أرجوك أن تتقبلي اعتذاراتي عن كل الحماقات التي دفعتني لارتكابها.

ثم خرج.

وقالت السيدة ده لامول وهو يخرج:

ـ كأن السيد سوريل فخور ومسرور مما فعل.

وأصابت كلمة السيدة ده لامول قلب ماتيلد. فقالت لنفسها: أدركت أمي تماماً. أنه هو الشعور الذي ينعشه. وعندها انتهى إحساسها بالسرور من مشهد العشية. وقالت بهدوء ظاهري: انتهى كل شيء. وسيبقى لي درساً مثالياً. إن تلك الغلطة بشعة مهينة. ويجب أن تدفعني للتعقل طوال حياتي.

وفكّر جوليان: ألم أقل الحق؟ لماذا أحب هذه المجنونة حباً يعذبني أيضاً؟

وأحرز هذا الحب، على عكس ما كان يتمنى، تقدماً محسوساً في قلبه. كان يقول في نفسه: مجنونة، صحيح، ولكن هل يفقدها هذا سحرها؟ هل من الممكن أن تكون امرأة أجمل منها؟ ألم يجتمع فيها كل ما تؤمنه الحضارة من الملذات والاناقة الحية؟ وآلمت جوليان تلك الذكريات السعيدة الماضية، وهدمت بسرعة بنيان تفكيره.

وقاوم العقل عبثاً ذكريات من هذا النوع، ولم تزدها محاولاته القاسية إلا سحراً وجمالاً.

بعد أربع وعشرين ساعة من كسر الوعاء الياباني القديم، كان جوليان أتعس الرجال على الاطلاق.

٢١
المذكرة السرية

لأن كل ما أرويه رأيته. وإذا كنت خدعت
في رؤيته. فإنني لا أخدعك في روايته لك.
رسالة إلى المؤلف

استدعاه المركيز، وكان مظهر السيد ده لامول يدل على الحيوية، وعينه براقة. وتحدث إلى جوليان:

ـ فلنتكلم قليلاً على ذاكرتك. قيل لي إنها هائلة! هل تستطيع أن تحفظ غيباً أربع صفحات، ثم تذهب وتسمعها في لندن؟ ولكن دون أن تغير أي حرف. . .

وقلب المركيز عابساً عدد جريدة «الكوتيديان» الذي صدر اليوم، وحاول، دون جدوى، أن يخفي هيئته الجدية التي لم يرها جوليان في السابق، حتى عندما كان الحديث يدور حول قضية الأب ده فريلير.

كان جوليان اكتسب بعض اللباقة ليشعر أن عليه الظهور غبياً تماماً بالنسبة للبيئة التي يراها.

ـ إن هذا العدد من الكوتيديان لا يبدو مسلياً، ولكن إذا سمح السّيد المركيز لي، سأسمعه غداً صباحاً العدد كله حرفاً حرفاً.

ـ ماذا؟ حتى الاعلانات؟

ـ تماماً، دون أن ينقص أي حرف.

ورد المركيز بوقار فجائي:

ـ أستطيع الثقة بكلامك؟

ـ أجل، إن خوفي من أن لا أستطيع، هو وحده الذي قد يعكر ذاكرتي.

ـ نسيت أن أفاتحك في الأمر بالأمس: لن أطلب منك أن تقسم بألا تردد ما سأقوله؛ أعرفك كفاية، حتى لا أوجه إليك هذه الاهانة. أجبت عنك. سأقودك إلى صالون سيجتمع فيه إثنا عشر شخصاً. وستدوّن ما يقوله كل واحد منهم.

لا تبتئس، لن تكون محادثة فوضوية. سيتكلم كـل واحد بدوره. وأضاف المركيز وهو يعود إلى لهجتـه الناعمـة الخفيفة الطبيعية:

ـ ستكتب بينها نتحدث ما يقارب العشرين صفحة. وسنعود معاً، ثم تلخص هذه الصفحات العشرين إلى أربـع. وهذه

الصفحات الأربع هي التي عليك أن تحفظها غداً صباحاً، بدلاً من عدد «الكوتيديان» وسترحل سريعاً بعد ذلك. وعليك أن تقود العربة كشاب لا يبحث إلا عن مسراته. هدفك سيكون ألاّ يلاحظك أحد. وستصل إلى منزل شخصية كبيرة. وهناك يقتضي الأمر منك مهارة أكبر. فعليك أن تخدع كل من يحيط بهذه الشخصية، لأن بعض من باعوا أنفسهم للأعداء، بين خدمه وأمناء سره، يتربصون بعملائنا للإيقاع بهم.

ولحظة يتطلع إليك سعادته، تسحب ساعتي هـذه، أعيرك إياها خلال الرحلة؛ فاحملها. تخلصك دائماً. أعطني ساعتك.

وسيتفضل الدوق بنفسه بكتابة الصفحات الأربع التي حفظتها عن ظهر قلب، وأنت تمليها عليه.

وعندما تقوم بهذا، في الوقت المناسب، لا قبل ذلك على الاطلاق، تستطيع أن تروي لسعادته، إذا ما سألك، الجلسة التي ستحضرها عما قريب.

ما سيمنعك من الإحساس بالضجر طوال وقت الرحلة، إن بين باريس ومقرّ الوزير، أناسـاً لا يطلبـون شيئاً أحسن من إطلاق رصاصة على السيد الأب سوريل. وعندها تنتهي مهمته، وأنا سأرى تأخيراً كبيراً. إذ كيف نعرف يا عزيزي نبأ موتك؟ أريحيتك لن تذهب بك إلى حد إعلامنا بالنبأ.

وتابع المركيز بلهجة رزينة:

- إذهب فوراً واشتر بذلة كاملة. إلبس زياً مضى عليه سنتان. يجب أن تكون الليلة قليل العناية بنفسك. أما في الرحلة فستكون كالعادة. هل يدهشك هذا؟ وهل أدركت الأمر؟ أجل، يا صديقي، إن واحداً من الأشخاص الذين ستراهم يستطيع إرسال المعلومات، التي يمكن بواسطتها تخديرك بالافيون على الأقل، عندما تطلب في المساء العشاء في نزل على الطريق.

قال جوليان:

- من الأفضل أن أسير ثلاثين فرسخاً إضافياً عن أن آخذ الطريق المباشر. إن الهدف روما كما اعتقد...

وبان على المركيز التعالي والاستنكار، مما لم يره جوليان إلا في براي العليا.

- هذا ما سوف تعرفه أيها السيد، عندما أجد ذلك مناسباً. لا أحب الأسئلة.

ورد جوليان باضطراب:

- إن ما قلته لم يكن سؤالاً. أقسم لك يا سيدي، كنت أفكر بصوت عال، كنت أبحث في ذهني عن آمن طريق.

ـ أجل، يظهر أن ذهنك كان بعيداً. لا تنس قط أن رسولاً في مثل سنك، لا يخيب الثقة التي تمنح له.

وأحس جوليان بالهلع. أخطأ. وفتش كبرياؤه عن عذر لم يجده.

وأضاف المركيز ده لامول:

ـ أفهم إذن أن المرء يلجأ لقلبه عندما يعرف أنه ارتكب بعض الحماقات.

بعد ساعة من الزمن، كان جوليان في غرفة المركيز الداخلية بثياب وضيعة، قديمة، وربطة عنق بيضاء مصفرّة، وهيئته تدل نوعاً على السذاجة والبساطة.

وانفجر المركيز ضاحكاً لدى رؤيته. عند ذلك برر جوليان غلطته. وقال المركيز ده لامول لنفسه: إذا خانني هذا الشاب، فبمن أستطيع الثقة؟ ومع ذلك على المرء أن يعتمد أحد الأشخاص عندما يقوم بعمل. إن ابني وأصدقاء شلته اللامعين، شجعان مخلصون لا شك، وإذا ما اقتضى الأمر، يستقبلون الموت دفاعاً عن العرش، إنهم يعرفون كل شيء . . . إلاّ ما أنا بحاجة إليه الساعة. ليس من المعقول أن أجد بينهم من يستطيع حفظ أربع صفحات، ثم يستطيع القيام برحلة طولها مئة فرسخ دون أن يفضح أمره. نوربير يعرف كيف يعرض

نفسه للموت كجدوده، إنه جدارة الوريث. . .

وغرق المركيز في حلم طويل، وقال متنهداً:

ـ وأيضاً أن يعرض نفسه للموت، قد يعرف سوريل هذا الأمر مثله تماماً. . .

وقال المركيز وكأنه يطرد فكرة غير مناسبة:

ـ فلنصعد إلى العربة.

وقال جوليان:

ـ لقد حفظت، بينما كان الخياط يعد لي البذلة، الصفحة الأولى من «الكوتيديان».

وأمسك المركيز بالجريدة، فأسمعه جوليان دون أن يفوت أي حرف. وقال المركيز بلهجة دبلوماسية:

ـ حسناً، وأسرّ في نفسه: هذا الشاب، لن يلاحظ الشوارع التي نمر فيها، هذا المساء.

ووصلا إلى صالون كبير، مظهره قاتم، يغطي الخشب قسماً منه، بينما يغطي القسم الآخر مخمل أخضر. وقف في وسط القاعة خادم ينهي إعداد مائدة كبيرة، حوّلها بعد قليل إلى طاولة عمل، بواسطة بساط أخضر فسيح، ملطخ ببقع الحبر، مسروق من إحدى الوزارات.

كان رب المنزل رجلاً ضخم الجثة، لم يتلفظ أحد باسمه، ووجد جوليان وجهه وصوته يشبهان وجه وصوت من يمضغ شيئاً في فمه.

وبإشارة إلى المركيز، بقي جوليان في آخر طرف الطاولة. وبدأ يشحذ ريشته، ليعرف الجميع مهمته. عدّ بطرف عينه سبعة أشخاص، ولكنه لم ير منهم إلا ظهورهم. وبان له أن اثنين منهم وجها الحديث إلى المركيز ده لامول، بلهجة المساواة، أما الباقون فكانوا يبدون الاحترام.

ودخل شخص جديد، دون أن يعلن أحد عنه. وفكر جوليان: هذا غريب. لا أحد يقدّم في هذا الصالون. ترى هل تتخذ هذه الاحتياطات نظراً لوجودي؟ ونهض الجميع لاستقبال القادم الجديد. كان يحمل أوسمة، ثلاثة من الحاضرين يحملون مثلها تماماً. وتكلم الجميع بصوت منخفض. ولكي يستطيع جوليان أن يحكم على هذا القادم الجديد، اكتفى بما يستطيع أن يعرفه من هيئته ولفتاته. كان قصيراً سميناً، وردي اللون، تلتمع عيناه دون تعبير، سوى خبث الخنزير البري.

وانشغل انتباه جوليان بشكل حي بوصول قادم يختلف تماماً عن الأول. كان رجلاً كبيراً، نحيل البنية يلبس ثلاث أو أربع صداري؛ أما نظراته فكانت رقيقة وحركاته مهذبة.

وفكّر جوليان: إنها حركات وهيئة كاهن بزانسون العجوز. إن هذا الرجل ينتمي حتماً للكنيسة، ولم يكن عمره يزيد عن خمسين أو خمسة وخمسين عاماً، وليس بالامكان في هذه السن أن يظهر المرء بشكل أبوي أكثر من هذا الشخص.

وظهر كاهن «أغد» الشاب وبانت عليه الدهشة، وهو يجيل أنظاره بين الحاضرين عندما وقعت عينه على جوليان. لم يوجه إليه الحديث منذ براي العليا. وعانقت نظراته جوليان وأرهقته. وقال هذا في نفسه: ماذا إذن! هل تنقلب معرفتي لأيّ رجل إلى مصيبة دائماً؟ كل هؤلاء السادة الذين لا أعرفهم لم يحرجوني على الاطلاق، ونظرة هذا الكاهن الشاب تجلدني! يجب أن أقر أنني شخص غريب، وشقيّ.

وبعد قليل، دخل رجل صغير يلبس السواد، وبدأ الحديث، بجلبة، منذ أن تخطى الباب. كان لونه شاحباً وفي وجهه بعض الخبل. ومنذ وصول هذا الثرثار، تشكلت الجماعات، لتجنب الازعاج الذي يسببه كلامه كما يظهر.

وفي ابتعادهم عن المدفأة، اقتربوا من طرف الطاولة حيث يجلس جوليان. وأصبح موقفه حرجاً جداً. مهما حاول فإنه لا يستطيع أن لا يسمع، ومهما كانت قلة تجربته، فهم أهمية الأشياء التي يتحدثون عنها دون أية تورية، ومبلغ ما تحرص هذه الشخصيات الكبيرة على إبقاء هذه الأمور سرية!

انتهى جوليان من صقل عشرين ريشة تقريباً. وسوف ينتهي قريباً عمله هذا. وفتش عبثاً عن أمر يأتيه من المركيز، ولكن هذا الأخير كان نسيه.

قال جوليان لنفسه وهو يصقل ريشاته: ما أقوم به مضحك. ولكن أناساً ذوي وجوه بهذه الرداءة، كُلِّفوا أو كَلَّفوا أنفسهم، بمهام على هذه الخطورة، لا بد أن يكونوا حساسين. نظرتي فيها نوع من السؤال وقلة الاحترام، كانت، ولا شك تضايقهم. فإذا اسبلت عيني، فسأظهر بمظهر من يستجمع أقوالهم.

كان حرجه كبيراً. وسمع أشياء غريبة.

٢٢

المناقشة

الجمهورية ـ لواحد يضحي اليوم بكل شيء في سبيل الصالح العام، ثمة الألوف والملايين لا يهتمون إلا بملذاتهم وعجرفتهم. الناس في باريس يحترمون الانسان لعربته لا لجدارته.
نابوليون ـ المذكرات

دخل الخادم مسرعاً وهو يقول:

ـ السيد الدوق ده...

فقال الدوق وهو يدخل:

ـ اسكت. أحمق!

كان يقول تلك الكلمة بشكل موفق وبلهجة متعالية حتى فكّر جوليان، رغم إرادته، أن ذكاء هذه الشخصية ينحصر في معرفة كيف يغضب من أحد الخدم. ورفع جوليان عينيه، ثم سرعان ما اخفضهما. أدرك مقام هذا الوافد الجديد، فارتجف خوفاً من أن تعتبر نظرته نوعاً من التدخل في ما ليس يعنيه.

كان هذا الدوق في الخمسين؛ أنيقاً كالطاووس، يمشي باختيال، رأسه ضيق، أنفه كبير، ووجهه يندفع بكامله إلى الأمام؛ كان من الصعب جداً أن يكون الانسان ذا هيئة أكثر إيحاء بالنبل والتفاهة. وكان مجيئه موعداً لافتتاح الجلسة.

قوطعت ملاحظات جوليان على هيئة الدوق بصوت المركيز ده لامول وهو يقول:

ـ أقدم لكم الأب سوريل. ذاكرة مدهشة. حدثته منذ ساعة عن المهمة التي يستطيع التشرف بالقيام بها، وقد حفظ غيباً قلب، الصفحة الأولى من «الكوتيديان» ليثبت لي قوة ذاكرته.

قال رب البيت:

ـ آه! أخبار هذا المسكين ن... وأمسك بالجريدة بسرعة

وتطلع إلى جوليان بوجه بشوش، محاولاً أن يكون ذا مهابة، ثم قال له:

ـ تكلم أيها السيد.

كان السكون عميقاً، وانصبّت كل الأنظار على جوليان، الذي لم يكد يسمعهم عشرين سطراً بشكل جيد، حتى قال الدوق:

ـ يكفي.

وجلس الرجل القصير، ذو نظرة الخنزير البري، وكان الرئيس، لأنه لم يكد يجلس في مقعده حتى أشار إلى طاولة لعب، وطلب منه أن يضعها حدّه. واستقرّ جوليان وراءها مع معدات الكتابة. وعدّ جوليان اثني عشر شخصاً يجلسون حول البساط الأخضر. ثم قال الدوق:

ـ انسحب الآن أيها السيد سوريل إلى الحجرة المجاورة. سنناديك بعد قليل.

وشاب وجه رب البيت بعض الانزعاج وهو يقول لجاره بصوت خفيض:

ـ النوافذ ليست مغلقة، ثم صرخ جوليان قائلاً بحماقة:

ـ غير مفيد أن تتطلّع من النافذة. وفكّر جوليان: ها أنذا

أخيراً، مشترك في مؤامرة لا تقود على الأقل، ولحسن الحظ، إلى ساحة الاضراب.

وإذا كان من حظ، فأنا مدين بذلك، وأكثر، إلى المركيز. سأكون سعيداً جداً إذا استطعت أن أصلح الأحزان التي قد تسببها له يوماً حماقاتي!

في غمرة حماقاته وتعاسته، كان يتطلع إلى المكان بطريقة تجعله لا ينساه مطلقاً. وعندئذ فقط تذكر أنه لم يسمع اسم الشارع عندما عيّنه المركيز للحوذي. كان المركيز ركب عربة مقفلة، مما لم يحدث إلا اليوم.

وتُرك جوليان طويلاً لأفكاره. كان موجوداً في صالون مكسو بالمخمل الأحمر. على حمالات من الذهب. وكان على إحدى الطاولات صليب عاجي كبير، وعلى المدفأة كتاب «البابا» للسيد ده ميتر، مذهّب الاطراف حسن التجليد. وكان الحديث يعلو من وقت لآخر في الحجرة المجاورة. وأخيراً فتح الباب واستدعي جوليان. وقال الرئيس:

ـ فكّروا أيها السادة أننا في اللحظة التي نتحدّث أمام الدوق ده ...، فإن السيّد، (وأشار إلى جوليان)، رجل دين شاب مخلص لقضيتنا المقدسة، وسيقول بإخلاص تعينه ذاكرته المدهشة، أدق تفاصيل مناقشاتنا. الكلام الآن للسيد، وأشار إلى

الشخص الذي يلبس عدة صدارٍ.

ووجد جوليان من الأجدر أن يدعى ذا الصداري. وبدأ في الكتابة وكتب الكثير.

(وهنا أراد المؤلف أن يضع صفحة منقطة. ولكن هذا غير لائق، كما قال الناشر، إذ بالنسبة لكتاب كهذا، عدم اللياقة معناها الموت.

ورد المؤلف:

ـ السياسة حجر معلق بعنق الأدب الذي يغرقها في ستة أشهر. السياسة، وسط أهواء الخيال، طلق غدارة وسط برنامج موسيقي. فهذه الضجة تمزق دون أن تكون حية، ولا تتناسب مع صوت أية آلة. وهذه السياسة ستهين بقسوة نصف القراء، وتضجر النصف الآخر الذي لا بد أنه يكون قرأها بتفصيل في جريدة الصباح...

ورد الناشر:

ـ إذا لم تتكلم شخصياتك في السياسة، لا تكون صورة للفرنسيين عام ١٨٣٠، ولن يكون كتابك مرآة كما صورته لنا...)

كان محضر جوليان من ست وعشرين صفحة؛ وها خلاصة

شاحبة عنه، لأنه كان من الواجب، كما يحدث دائماً، حذف المقاطع المضحكة التي تظهر المبالغة فيها بشاعتها أو بعدها عن الواقع.

راح الرجل ذو الصداري يضحك غالباً، (كان كاهناً على الارجح) فتلمع عيناه المحاطتان برموش طافية، ببريق غريب، ويظهر فيهما تعبير أقل وضوحاً من العادة. والشخص الذي جعلوه يتكلم قبل الدوق، (قال جوليان؛ أي دوق؟) كما يظهر، ليعرض وجهات النظر، ويقوم بوظيفة المحامي العام، وقع في الضياع وانعدام الاستنتاجات المنطقية، وهذا عيب هؤلاء القضاة. وخلال المناقشة، ذهب الأمر بالدوق إلى حد انتقاده على ذلك.

وبعد كلمات عن الاخلاق والتحذير الفلسفي، قال ذو الصداري:

ـ بريطانيا النبيلة، يقودها رجل عظيم مثل «بيت» الخالد، صرفت أربعين مليار فرنك لتعاكس الثورة. فليسمح لي المجلس بإبداء بعض الصراحة حول فكرة محزنة. إنكلترا لم تفهم تماماً أنه لا أمور حاسمة إلا العمليات الشخصية، مع رجل كنابليون، خصوصاً حين عندها النيات الطيبة...

وقال رب البيت بحزن:

ـ آه! امتداح الاغتيال مرة أخرى!

وصرخ الرئيس بعبوس:

ـ أعفنا من حركاتك العاطفية. ولمعت عين الخنزير البري ببريق مخيف. ثم وجه كلامه إلى ذي الصداري قائلاً:

ـ تابع. وعند هذا أصبحت وجنتا الرئيس وحاجباه حمراء فاقعة.

واستأنف المقرر:

ـ انكلترا النبيلة اليوم مسحوقة، لأن على كل إنكليزي أن يدفع، قبل شراء خبزه، فائدة الأربعين مليار فرنك المصروفة ضد اليعقوبيين. لم يعد لديها «بيت». . .

ورد شخص عسكريّ مظهراً أهميته:

ـ لديها الدوق ده ولينغتون.

وصرخ الرئيس:

ـ أرجوكم أيها السادة، اسكتوا. إذا كنا لا نزال نتناقش، فلِمَ استدعينا السيد سوريل؟

قال الدوق بلهجة تدل على الغضب وهو يتطلع إلى العسكري، وكان جنرالاً أيام نابليون:

ـ نعرف أن السيد لديه أفكار كثيرة. ورأى جوليان في هذه الكلمة، تلميحاً إلى شيء خصوصي معين، مهين. وضحك الجميع، وبدا الجنرال في حالة الغضب الشديد.

تابع المقرر بلهجة تدل على خيبته كرجل يئس من إسماع صوته إلى الآخرين:

ـ لم يعد من «بيت» أيها السادة، فهل من «بيت» آخر في إنكلترا؟ ليس بالامكان إنقاذ الامة مرتين بالوسائل نفسها...

وصرخ العسكري:

ـ ولهذا، فإن جنرالاً منتصراً، كبونابرت، أصبح مستحيلاً في فرنسا.

هذه المرة لم يتجرأ الرئيس ولا الدوق على الغضب، رغم أن جوليان رأى أنهما يرغبان في ذلك. فأسبلا عيونهما، وتنهد الدوق بشكل لافت ليسمعه الجميع..

لكن المقرّر عبس، ثم قال بحماس تاركاً التهذيب البشوش الذي ظنّه جوليان من طبيعته:

ـ يريدونني انتهي بسرعة. لا يلاحظون المجهودات القوية التي أبذلها حتى لا يسمع أحد أية كلمة من قريب أو بعيد؛ أيها السادة، سأختصر.

وسأقول لكم بتعابير مبسّطة:

ـ إنكلترا لم تعد تملك أي قرش تستخدمه في نصرة القضية الحقة. حتى ولو عاد «بيت» لن يستطيع، رغم عبقريته، إقناع الملاكين الانكليز الصغار، لأنهم يعرفون أن معركة واترلو القصيرة، كلفتهم وحدها ملياراً من الفرنكات. وأضاف في حماس:

ـ بما أنكم تريدون جملاً مختصرة، أقول لكم: ساعدوا أنفسكم بأنفسكم، لأن بريطانيا لا تملك منجماً تسخره لخدمتكم، وعندما لا تدفع إنكلترا، فإن النمسا وروسيا وبروسيا لا تملك إلا الشجاعة، ولا تستطيع أن تقوم ضدّ فرنسا إلا بمعركة أو معركتين.

وقد نأمل أن جنود اليعقوبيين الشباب سيُهزمون في المعركة الأولى، وفي الثانية أيضاً، أما في الثالثة، فهل تظنونني ثائراً عندما أقول أنكم ستلاقون في الثالثة جنود ١٧٩٤، الذين لم يكونوا فلاحي سنة ١٧٩٢ المجندين.

وهنا علت الاعتراضات من عدة جوانب في وقت واحد. وقال الرئيس لجوليان:

ـ إذهب أيها السيد، وانقل بوضوح في الغرفة المجاورة ما كتبته في المحضر.

وخرج جوليان وهو يحس بالحسرة. طرق المقرر موضوعاً كان دائماً محور تأملاته اليومية.

وفكر جوليان: يخافون أن أسخر منهم. وعندما استدعوه ثانية، قال المركيز ده لامول بلهجة جديدة وجدها جوليان طريفة:

ـ . . . أجل أيها السادة، نستطيع أن نقول مع الشاعر عن هذا الشعب الباسل:

هل هو إله، طاولة أو وعاء؟

صرخ الراوية:

ـ سيكون إلهاً! الأمر يتعلق بكم كما يبدو لتحقيق هذه الكلمة النبيلة العميقة. تصرّفوا معتمدين على أنفسكم، وستعود فرنسا كما بناها الأجداد ورأتها أعيننا قبل موت لويس السادس عشر.

إن إنكلترا، أو لورداتها النبلاء على الأقل، يخافون مثلنا تماماً اليعقوبية المجرمة: وبدون الذهب الانكليزي لن تستطيع النمسا وروسيا وبروسيا القيام إلا بمعركتين أو ثلاثاً. فهل يكفي هذا ليؤدي إلى احتلال ناجح، كالذي أضاعه السيد ده ريشليو سنة ١٨١٧ بحماقته؟ لا أعتقد ذلك.

وهنا قامت اعتراضات، ولكنها خنقت في مهدها بإشارات من

الجميع. وانطلق أيضاً من الجنرال الامبراطوري القديم، الذي كان يريد الوشاح الأزرق، ويريد أن يظهر من جملة المشاركين في المذكرة السرية. وتابع المركيز ده لامول بعد هذه الضجة:

ـ لا أعتقد ذلك. وألحّ على العبارة بشكل سحر جوليان. فقال: ها هو يقوم بدوره على أحسن وجه. بينما كانت ريشته تحاول اللحاق بكلمات المركيز. بهذه الكلمة الموفقة يستطيع أن يمحو معارك هذا الاجتماع.

وتابع المركيز بلهجة منطقية جداً:

ـ يجب أن لا نعتمد على الخارج وحده إذا أردنا تحقيق احتلال عسكري. كل هؤلاء الشباب الذين يكتبون مقالات محرقة في جريدة «له غلوب» يعطوننا ثلاثة أو أربعة آلاف من القادة الشباب، وقد يكون بينهم قائد مثل كليبر أو هوش أو جوردان أو بيشغرو، ولكن استعدادهم أقل.

وقال الرئيس:

ـ لم نعرف كيف نمجّده. كان من الواجب أن نحتفظ به خالداً.

وتابع السيد ده لامول:

ـ يجب أن يكون في فرنسا حزبان، لا يختلفان في الاسم، بل

منفصلان تماماً. فلنعرف من هو عدونا لسحقه. ثمة ناحية الصحفيين والناخبين والرأي العام وبكلمة: الشباب مع كل ما يعجبون به. وبينما يكون هؤلاء منهمكين في الجعجعة الفارغة، نملك نحن أفضلية استهلاك الميزانية.

قامت الاعتراضات.

ووجه السيد ده لامول الحديث إلى مقاطعه بتعال وسهولة رائعة:

- أيها السيد، أنت لا تستهلك. فإذا كانت الكلمة تصدمك، تفترس أربعين ألف فرنك تسجل في موازنة الدولة، وثمانين ألفاً تتلقاها من اللائحة المدنية.

وبعد أيها السيد، بما أنك تضطرني، سأضرب بك المثل بشجاعة. عليك، مثل جدودك الذين تبعوا القديس لويس إلى الحروب الصليبية، أن ترينا مقابل هذه المئة والعشرين ألف فرنك أن تحضر فرقة، أو سرية على الأقل! أو نصف سرية، ولو لم يبلغ عددها الخمسين رجلاً، مستعدّين للقتال، مخلصين للقضية الصحيحة، حتى الموت. لا تملك الا الخدم الذين يخيفونك عندما تقوم في البلاد أية ثورة.

قد يهلك العرش والمذبح والنبلاء في الغد، أيها السادة، ما دمتم عاجزين عن إيجاد خمسماية رجل مخلصين في كل مقاطعة،

وإذا قلت مخلصين، فإنني لا أعني الشجاعة الفرنسية فحسب، بل الثبات الاسباني.

نصف هذه الجيوش يجب أن تتألف من أولادنا وأقربائنا، من النبلاء بشكل عام. ولن يكون حدّ كلّ واحد منا، بورجوازي صغير ثرثار مستعد للسير تحت لواء العلم المثلث الألوان إذا ما عادت سنة ١٨١٥، بل فلاح بسيط صريح مثل كاثيلينو، سيحاول رجالنا اكتسابه، وسيكون شقيقه إذا استطاع. فليضحِّ كل منا بخُمس مداخيله لتأليف هذا الجيش الصغير من خمسماية رجل في كل مقاطعة. عند هذا، وعند هذا فقط، تستطيعون الاعتماد على الاحتلال الخارجي؛ الاجنبي لا يمكن أن يصل إلى ديجون وحده • إذا لم يكن واثقاً إنه سيجد خمسماية جندي صديق في كل مقاطعة.

الملوك الاجانب لن يستمعوا إليكم إلا عندما تعلنون أن عشرين ألف جندي مستعدّين لحمل السلاح وفتح أبواب فرنسا أمامهم. قد تقولون أن هذا الطلب باهظ، ولكن رؤوسكم أيها السادة هي التي تشترون.

إن حرباً ضروساً تقوم بين حرية الصحافة ووجودنا كنبلاء. كونوا أصحاب مصانع وفلاحين أو احملوا السلاح، وكونوا خجولين إذا أردتم، ولكن لا تكونوا حمقى وافتحوا عيونكم.

«كونّوا فرقكم». أقولها لكم تلك الأغنية اليعقوبية، وعندئذ سيقوم بعض النبلاء مثل غوستاف أدولف الذين يحسّون بالخطر على الملكية فينطلقون إلى بعد ثلاثماية فرسخ عن بلاده، ويقومون بمثل ما قام به غوستاف نحو الأمراء البروتستانتيين. هل تريدون الاستمرار في الكلام دون أي عمل؟ لن يكون في فرنسا بعد خمسين سنة إلا رئيس جمهورية، أما الملكية فعليها السلام. ومع الملكية يذهب النبلاء والقساوسة. لم أعد أرى إلا مرشحين يتملقون الأكثرية الدهماء.

قد تقولون ليس في فرنسا الآن جنرال مظفر، يعرفه ويحبه الجميع، وأن الجيش منظم لمصلحة العرش والمذبح، وأن العناصر القديمة أبعدت عنه، بينما يبلغ الضباط الذين حاربوا في السابق، الخمسين أو أكثر حتى في الفرق البروسية والنمساوية.

إن مئتي ألف شاب ينتمون إلى الطبقة البورجوازية مولعين بالحرب...

وكان شخص وقور يدل مظهره على تقدّمه في السلك الكهنوتي، لأن المركيز ابتسم بدل أن يغضب، مما كان له دلالة واضحة بالنسبة لجوليان، قال هذا الشخص بلهجة تطلب الكف عن الحديث:

ـ تكفي هذه الحقائق المزعجة. فلنختصر أيها السادة. الرجل

الذي يجب أن تقطع رجله المصابة يستقبل استقبالاً حسناً من الجراح إذا قال له: هذه الرجل المريضة معافاة تماماً. أغفروا لي أيها السادة هذه التشبيه إذا قلت لكم أن الدوق ده... هو جرّاحنا.

وفكر جوليان: ها قد قيلت الكلمة الكبرى أخيراً، سأعدو هذه الليلة في اتجاه...

٢٣

رجال الدين، الغابات، الحرية

أول القوانين لكل مخلوقٍ أن يحافظ على نفسه، أن يعيش. وأنت تزرع الحصى وتدعي أنك ستحصد السنابل!

مكيافيلي

تابع الرجل الوقور، وعرف الجميع أنه مطلع على خفايا الأمور. عرض اثباتاته ببلاغة لطيفة معتدلة أعجبت جوليان كثيراً:

١ ـ إن إنكلترا لا تملك منجماً تسخّره لأغراضنا؛ فالاقتصاد و «هيوم» جد رائجين فيها. إن القديسين لن يعطونا المال وسوف يسخر السيد بروغام منا.

٢ ـ ليس بالامكان أن نأمل بأكثر من معركتين يقوم بهما ملوك أوروبا، بدون الذهب الانكليزي. ولا يمكن القضاء على عامة الشعب بواسطة هاتين المعركتين.

٣ ـ من الضروري إيجاد جيش مسلح في فرنسا، إذ بدونه لن يغامر ملوك أوروبا في القيام بالمعركتين.

أما النقطة الرابعة التي اتجرأ فأعرضها وكأنها حقيقية بديهية فهي: من غير المعقول تأليف جيش مسلح في فرنسا دون معونة رجال الدين. أقول ذلك لكم بجرأة وسأثبت لكم ذلك. يجب إعطاء كل شيء لرجال الدين:

١ ـ لأن هؤلاء الرجال المهتمين ليل نهار بوظيفتهم، على رأسهم رجال ذوو كفاءة عالية يتربعون بعيداً عن العاصفة على ثلاثمائة فرسخ من حدود بلادكم.

وصرخ رب البيت:

ـ آه! روما! روما!...

ورد الكاردينال بافتخار:

ـ أجلْ يا سيدي، روما! ومهما كانت التعليقات التي سمعتَها عندما كنتَ شاباً، استطيع أن أقول بصوت عالٍ أن رجال الدين، الذين تقودهم روما، هم الذين يستطيعون عام ١٨٣٠

أن يخاطبوا أفراد الشعب.

لو ردّد خمسون ألف قسيس الكلمات نفسها في يوم يعينه الرؤساء، فإن الشعب، وهو الذي يموّن الجيش بالجنود، سيتأثر من صوت قساوسته أكثر مما يتأثر بجميع أشعار الدنيا...

بعد همهمات قليلة، تابع الكاردينال رافعاً صوته:

- إن ذكاء رجال الدين متفوّق على ذكائكم، وجميع الخطوات التي قمتم بها لتأليف جيش مسلح في فرنسا، قمنا بها نحن فعلياً. وهنا تظهر الوقائع.. من الذي أرسل ثمانين ألف بندقية إلى فانديه؟ الخ... الخ...

وما دام رجال الدين لا يملكون المال، لا يستطيعون السيطرة على أحد.

كتب وزير المالية في الحرب الأولى إلى موظفيه أن لا مال إلاّ للقساوسة. وفي الواقع إيمان فرنسا ضعيف، وهي تحبّ الحرب. إن من يعطيها الحرب يصبح شعبياً جداً، كائناً من كان، لأن القيام بالحرب معناه إهانة اليسوعيين، إذا تحدّثنا كالعامة؛ والقيام بالحرب معناه أيضاً تحرير هؤلاء المتكبرين الفرنسيين من خوفهم إزاء التدخل الاجنبي.

كان الحاضرون يستمعون للكاردينال بحماس... فقال:

ـ يجب أن يترك السيد ده نرفال الوزارة. اسمه وحده يثير الشعب دون فائدة.

وعند هذه الكلمة نهض الجميع معاً وتكلموا في آن واحد. وفكر جوليـان: سيخرجـونني الآن مرة أخـرى. ولكن رئيس الجلسة العاقل كان نسي حضور جوليان ووجوده:

وتطلعت كل الأعين إلى رجل عرفه جوليان. إنه السيد ده نرفال رئيس الوزراء. رآه في حفلة السيد الدوق ده ريتز.

وساد الهرج والمرج، كما يقول الصحفيون عندما يتحدثون عن مجلس النواب. وبعد ربع ساعة عاد السكون نسبياً.

وعندئذ نهض السيد ده نرفال وقال بلهجة وقورة وصـوت غريب:

ـ لن أؤكد لكم أنني غير متعلق بالوزارة. برهن لي سيادة الكـاردينال عن أن اسمي، أيهـا السادة، يضـاعف من قوى اليعقوبيين إذ تنصبُّ في صفوفهم العناصر المعتدلة. سأنسحب إذن عن طيب خاطر، ولكن أصوات المولى لا يسمعها الجميع.

وأضاف وهو يتطلع إلى الكاردينال بنظرة محدودة:

ـ لي رسالة؛ قالت السماء لي: ستحمل رأسك على راحتيك أو تعيد الملكية لفرنسا، وتعود بمجلس النواب إلى دوره الذي

كان أيام لويس الخامس عشر. وهذا ما سأقوم به، أيها السادة.

وسكت ثم عاد للجلوس، وساد صمت عميق.

وفكر جوليان: هذا ممثل جيد. لكنه خُدع، كما دائماً وهو يفترض ذكاء الناس. كان السيد ده نرفال يؤمن فعلاً برسالته بعد أن أثارت حماسه هذه السهرة الشيقة، وخصوصاً تلك المناقشات الصادقة.

وفكّر جوليان: ليس لدى هذا الرجل بُعد النظر، وهو يقول ذلك دون حياء.

ودقت الساعة منتصف الليل خلال هذا السكون العميق، ووجد جوليان أن في صوت رقّاص الساعة شيئاً من الرهبة، فأحس بالانفعال.

وسرعان ما استأنفت المناقشة بحماس متزايد وسذاجة لا تصدق، وفكر جوليان في بعض اللحظات: سيسممني هؤلاء. كيف يتحدثون عن أشياء كهذه أمام واحد من عامة الشعب؟

دقت الساعة الثانية والكلام مستمر. وكان رب البيت أغفى منذ وقت طويل. اضطر السيد ده لامول إلى قرع الجرس لاحضار شموع جديدة. كان السيد ده نرفال الوزير، خرج في الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعين بعد أن درس وجه جوليان

في مرآة كانت موجودة حذّه. وبان أن خروجه أراح الجميع.

وقال ذو الصداري لجاره، بينما كان يصار إلى تغيير الشموع:

ـ الله يعلم ما سيقوله هذا الرجل للملك! قد يتسبب في تهزئتنا وضياع مستقبلنا.

كان لديه رجاحة عقل نادرة، بل جرأة زائدة، عندما كان يحضر الجلسات في السابق، قبل أن يصبح رئيس وزارة، ولكن الحقيبة تغيّر كل شيء، وتفرق كل مصالح الرجل. كان عليه أن يحس بذلك.

وما أن خرج الوزير، حتى أطبق الجنرال البونابرتي عينيه. وفي هذه اللحظة قال ذو الصداري:

ـ أراهن أن الجنرال ذاهب أثر الوزير، وسيعتذر لوجوده هنا، ويدعي أنه كان يقودنا.

وعندما انتهى الخدم، من تجديد الشموع وهم نصف نائمين، قال الرئيس:

ـ فلنصّوت أخيراً أيها السادة، ولنتوقّف عن اقناع بعضنا البعض. فكروا في المذكّرة التي ستكون، بعد ثمان وأربعين ساعة، تحت أنظار أصدقائنا في الخارج. تحدّثنا عن الوزراء، ونستطيع أن نقول أن السيد ده نرفال تركنا الآن، فماذا أفادنا

الوزراء؟ سنجعلهم يريدون.

وأيّد الكاردينال كلامه بابتسامة ناعمة.

وقال كاهن أغد بحماس التعصب المشبوب المركز القوي، وكان بقي صامتاً، عيناه راقبهما جوليان، هادئتين ناعمتين في أول الأمر، ثم برق فيهما الحماس بعد الساعة الأولى على المناقشة، أما روحه فكانت تطفح مثل بركان فيزوف. قال الكاهن:

- ليس أسهل، يخيل إليّ، من تلخيص وضعنا. بريطانيا منذ ١٨٠٦ حتى ١٨١٤، لم ترتكب إلا خطأ واحداً هو عدم التأثير مباشرة وشخصياً على نابليون. فبعد أن أعاد هذا الرجل الألقاب والعرش، انتهت المهمة التي كلفة الله بها. كان أحسن من أن يُزال. الكتب المقدسة تعلمنا، في أكثر من موضع، كيفيّة التخلص من الطغاة. (وهنا قال بعض الجمل اللاتينية).

اليوم، أيها السادة، ما علينا أن نمحو إنساناً، بل مدينة باريس، كل فرنسا تقلد باريس. فلماذا إذن تسلحون رجالكم الخمسمائة في كل مقاطعة؟ إنها مجازفة، لن تنتهي أبداً. لماذا نشرك فرنسا في قضية باريس الشخصية؟ ارتكبت باريس الشر وحدها بصحفها وصالوناتها، فلتزل بابل الجديدة.

يجب أن ننهي الأمر بين المذبح وباريس. بل إن هذه الكارثة هي في مصلحة القصر الدنيوية. لماذا لم تستطع باريس أن

تتحرك تحت حكم بونابرت؟ اطلبوا الجواب من مدفع سان روش. . .

وما إلّا في الثالثة صباحاً حتى خرج جوليان مع السيد ده لامول.

كان المركيز خجولاً تعباً. وكان في لهجته لجوليان، للمرة الأولى، بعض التوسل. طلب منه أن لا يذيع مطلقاً بعض شطحات الحماس، وهذه كلمته، التي جعلته الاقدار شاهداً عليها. لا تتحدث أمام صديقنا في الخارج إلا إذا ألحّ بصدق ليعرف مجانيننا الشبان. ماذا يهمهم إذا قُلبت الحكومة؟ سيصيرون كرادلة ويلتجئون إلى روما، أما نحن فسيذبحنا فلاحونا.

ولم تنته المذكرة السرية التي كتبها المركيز، استناداً إلى المحضر الذي كتبه جوليان، إلا في الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحاً.

وقال المركيز:

- إنني تعب حتى الموت، ويلاحظ هذا من المذكرة التي تخلو من الوضوح في قسمها الأخير. إنني مستاء من ذلك أكثر من كل عمل قمت به في حياتي. وأضاف:

ـ رح يا صديقي، إذهب واسترح ساعات، وسأحتجزك في غرفتك خوفاً من أن يعكّر أحد عليك راحتك.

في اليوم التالي قاده المركيز إلى قصر منعزل بعيد جداً عن باريس. وهناك وجد جوليان ضيوفاً غريبين، ظن جوليان أنهم قساوسة. وأعطي جواز سفر يحمل اسماً غير اسمه، ولكنه يعين في آخره الهدف من الرحلة الذي تظاهر دائماً إنه يجهله. ثم صعد وحده إلى العربة.

ولم يكن المركيز يشك في ذاكرة جوليان. استمع منه مرات عديدة نصّ المذكّرة السرية، ولكنه كان يخشى أن يتعرض له أحد. وقال له بصداقة، وهو يترك الصالون:

ـ إتّخذ هيئة الغبي الذي يسافر لقتل الوقت خصوصاً. قد يكون بين من حضر جلسة الأمس أحد الجواسيس.

كانت الرحلة سريعة ومحزنة. ولم يكد جوليان يبتعد عن نظر المركيز، حتى نسي المذكرة السرية والمهمة، ليفكر في احتقار ماتيلد.

قال له مدير المحطة، في قرية تبعد عدة فراسخ عن ماتز أن لا جياد. وكانت العاشرة مساء. وطلب جوليان العشاء وكان منزعجاً. ثم تنزه أمام الباب، ومر، دون أن يراه أحد وبشكل لا شعوري، أمام الاسطبلات فلم يجد فيها جياداً. عينه الفظة تتفحصني.

بدأ، كما رأينا، في عدم تصديق كل ما يقال له، وكان يفكر في التخلص بعد العشاء؛ ولكي يتعرف تماماً إلى المنطقة، ترك غرفته ليتدفأ في المطبخ. وفرح كثيراً عندما رأى هناك جيرونيمو، المغني الشهير.

كان النابوليتاني جالساً على كنبة قرب النار، يزأر بصوت عال ويتكلم لوحده، أكثر من الفلاحين الألمان العشرين الذين يحيطون به مشدوهين.

وصرّح قائلاً لجوليان:

ـ هؤلاء الناس يريدون خرابي. وعدت أن أغني غداً في مايانس. وهرع سبعة امراء لسماعي.

وأضاف بلهجة معبرة:

ـ ولكن هيا لنستنشق الهواء.

وبعد أن أصبح على مئة خطوة وتأكد من عدم وجود أحد يسمعه، قال لجوليان:

ـ هل تعرف ماذا يريد؟ مدير المحطة هذا كذاب. اعطيت، وأنا اتنزه، عشرين قرشاً لصبي قال لي كل شيء. ثمة اثنا عشر جواداً داخل اسطبل في الطرف الآخر من القرية. فيريدون تأخير وصول رسالة معينة.

وقال جوليان ببراءة:

ـ حقاً؟

لم يكن المهم اكتشاف المؤامرة، بل الرحيل، وهذا ما لم ينجح فيه جيرونيمو وصديقه. وقال المغني أخيراً:

ـ فلننتظر الصباح وإلا ساورتهم بنا الشكوك. قد يكون المقصود أنا أو أنت. سنوصي في الصباح على إفطار شهي، وبينما يعدونه لنا، سنذهب للنزهة ونهرب. فنستأجر خيولاً ونسر إلى المحطة التالية.

وقال جوليان وهو يفكر أن من المعقول كون الشخص الذي أرسل لتأخيره هو جيرونيمو نفسه:

ـ وامتعتك؟

كان من الضروري تناول العشاء والنوم. وكان جوليان في بداية نومه، عندما استيقظ فجأة على صوت شخصين يتكلمان في غرفته دون أن يشعرا بأي حرج.

وعرف جوليان مدير المحطة وكان يحمل مصباحاً. وكان النور موجهاً إلى صندوق العربة الذي حمله جوليان إلى غرفته. وإلى جانب المدير، كان رجل يبحث هادئاً في الصندوق المفتوح. ولم ير جوليان إلا اكمام بذلته، وكانت سوداء مشدودة.

قال جوليان في سره: إنها غارة. وأمسك بهدوء غداراته الصغيرة، وكان وضعها تحت وسادته.

وقال مدير المحطة:

ـ لا تخش أن يستيقظ أيها السيد الخوري، فالخمرة التي شرب منها هي التي أعددتها أنت بنفسك.

ورد الخوري:

ـ لا أجد أي أثر للأوراق. ثمة كثير من القمصان والروائح والمراهم والعطور. إنه رجل عصري لا يهتم إلا بملذاته. المبعوث ولا شك هو الرجل الآخر الذي يتصنع التحدث باللهجة الايطالية.

واقترب الاثنان من جوليان ليفتشا في جيوب بذلة السفر. أوشك على قتلهما كسارقين، ليس أحسن من هذا الحل. شعر برغبة قوية في ذلك. ولكنه قال في سره: لن أكون أحمق. سأعكر المهمة التي أقوم بها. وبعد أن فتشت ملابسه، قال القسيس:

ـ ليس دبلوماسياً. وانصرف وحسناً فعل.

كان جوليان يقول لنفسه: لو مسني وأنا في فراشي فالويل له. قد يطعنني، وهذا ما لن أتحمله على الاطلاق.

وأدار الخوري رأسه، ففتح جوليان عينيه قليلاً، وكم كانت دهشته عندما رأى أنه الأب كستناد. وبالفعل، رغم أن الشخصين أرادا التحدث بصوت منخفض، خيل إليه أنه يعرف أحد الصوتين. وملكته رغبة لا حد لها في إرسال هذا الجبان إلى القبر.

قال جوليان لنفسه: ومهمتي!

خرج القسيس وصاحبه. وبعد ربع ساعة صرخ جوليان:

ـ سُمّمت. أتألم كثيراً! وكان يريد بهذا ذريعة ليذهب إلى نجدة جيرونيمو. وجد مغمياً عليه من المخدر الذي وضع في الخمرة.

وكان جوليان تعشى من بعض الزاد الذي أحضره معه من باريس خشية وقوع حادث من هذا النوع. ولم يستطع أن يوقظ جيرونيمو تماماً ليحثه على الرحيل.

قال المغني:

ـ لو أعطيت كل مملكة نابولي لما تخليت في هذه اللحظة عن لذة النوم.

ـ والأمراء السبعة!

ـ لينتظروا

ورحل جوليان وحيداً، ووصل دون عوائق إلى مكان الشخصية الكبيرة. أضاع طوال قبل الظهر في طلب مقابلة ولكن دون جدوى. ولحسن الحظ، أراد الدوق، نحو الساعة الرابعة أن يتنزه قليلاً. ورآه جوليان يخرج ماشياً فلم يتردّد في الاقتراب منه وطلب الاحسان. ولما أصبح على خطوتين من الدوق، سحب ساعة المركيز وأظهرها له فقال له دون أن ينظر إليه:

ـ إتبعني عن بعد.

وعلى ربع فرسخ، دخل الدوق فجأة إلى نزل صغير. وحصل جوليان، في غرفة هذا النزل الصغير، على شرف تسميع صفحاته الأربع. ولما انتهى قيل له:

ـ أعد، واقرأ على مهل.

وأخذ الأمير بعض الملاحظات. ثم قال له:

ـ إذهب إلى المحطة المجاورة سيراً على قدميك. أترك هنا أمتعتك وعربتك. إذهب إلى ستراسبور إذا أردت، واحضر إلى هذا المقهى في الثاني والعشرين من الشهر، (كانوا في العاشر منه) تمام الساعة الثانية عشرة والنصف. لا تخرج من هنا إلا بعد نصف ساعة. سكوت!

كانت هذه هي الكلمات التي سمعها جوليان. وكانت كافية لاثارة إعجابه وفكر: هكذا تعالج الأمور إذن. ماذا كان يقول لو سمع ما كان يقول أولئك الثرثارون قبل ثلاثة أيام؟

وقضى جوليان يومين في طريقه إلى ستراسبور، وخيل إليه أن ليس عِنده ما يقوم به. لو عرفني هذا الشيطان الأب كستناد! لا يضيع بسهولة في تتبع أثري... وأي سرور سيحس بـه في السخرية مني، وفشل مهمتي.

ولم يعرفه، لحسن الحظ، الأب كستناد، رئيس شرطة المجمع الكنسي في المناطق الشمالية. ولم يفكر يسوعيو ستراسبور، رغم اندفاعهم، في مراقبة جوليان، الذي كان يحمل صليبه وبذلته الزرقاء، ويخيل لمن يراه أنه رجل عسكري مهتم بملذاته.

٢٤

ستراسبور

السحر! عندك من الحب كل طاقته، وكل قوته للإحساس بالشقاء. ملذاته الرائعة ومسراته الناعمة وحدها خارج نطاقك. لا أستطيع أن أقول وأنا أراها نائمة: إنها ملكي وحدي، بجمالها الملائكي وضعفها اللطيف! ها هي مستسلمة لقوتي، كما جعلتها السماء في رحمتها لاسعاد قلب رجل.

نشيد لشيلر

تسلى جوليان، هو المضطر لقضاء ثمانية أيام في ستراسبور، بتفكيره في الامجاد العسكرية والاخلاص للوطن. ترى هل كان مدلهاً بالحب؟ لم يكن يعرف شيئاً، ولكنه كان يجد ماتيلد في قلبه سيدة مطلقة على سعادته وخياله. كان بحاجة إلى كامل سيطرته على نفسه ليتمالكها ويحتفظ بها فوق مستوى اليأس. التفكير في أي شيء لا يتعلق بماتيلد أمر خارج عن طاقته. كان طموحه، وانتصاراته مع السيّدة ده رينال تسليه في الماضي، ولكن ماتيلد امتصت كل شيء. كان يجدها دائماً في غده.

كان جوليان يرى في كل فترات المستقبل فقدان النجاح. فهذا المخلوق الذي رأيناه في فريير مليئاً بالادعاءات، والكبرياء أصيب الآن بتواضع مضحك متطرف.

قبل ثلاثة أيام، كان على استعداد لقتل الأب كستناد بكل سرور، أما في ستراسبور، فلو تخاصم مع ولد صغير، لما لام إلا نفسه. وعندما فكر في خصومه واعدائه الذين صادفهم في حياته، وجد أنه كان دائماً على خطأ.

عدوه اللدود أصبح الآن خياله القوي الذي كان يستخدمه في السابق لرسم صور زاهية عن مستقبله اللامع.

كانت عزلته التامة في سفره تزيد من هذا الخيال الأسود. صديق! يا له من كنز في هذا الوقت! ولكن جوليان كان يقول: ولكن هل قلب ينبض بحبه؟ وعندما يكون لي صديق، أفلا يقتضي الشرف عليه أن يصمت؟

كان يتنزه حزيناً في ضواحي «كهل»، بلدة على ضفاف الراين، خلدها ده سيكس وغوفيون سان سير. وأطلعه فلاح ألماني على السواقي الصغيرة والطرق وجزر الراين التي جعلتها شجاعة الجنرالات شهيرة. وكان جوليان يقود جواده باليد اليسرى، ويمسك باليمنى البطاقة الشهيرة التي تزين مذكرات الماريشال ده سان سير. وندت صرخة مرح جعلته يرفع رأسه.

وكانت صادرة عن الأمير كوراسوف، الصديق الذي تعرف عليه في لندن وعلمه قبل أشهر قليلة القواعد الأولية في اللياقة السامية. وتبرع الأمير كوراسوف، الحريص على تطبيق هذه

القواعد، بـرواية حصـار ١٧٩٦ وكان وصـل في العشية إلى ستراسبور، ومنذ ساعة إلى «كهل» ولم يقرأ في حياته شيئاً عن ذلك الحصار. كان الفلاح الألماني يتطلع إليه فاغراً فاه، لأنه يعرف من الفرنسية ما يكفي لكي يفهم المبالغات والترهات التي يرويها الأمير. لكن جوليان بعيد عن أفكار الفلاح، يتطلع إلى هذا الشاب الجميل ويعجب بطريقته الرائعة في امتطاء الحصان.

كان يقول لنفسه: يا للطبع السعيد! لكم يتناسب بنطلونه معه! وبأية أناقة قص شعره! للأسف! لو كنت مثله، لما احبتني ثلاثة أيام ثم انقلب عليّ الدهر.

عندما أنهى الأمير روايته عن حصار «كهل» قال لجوليان:

ـ هيئتك تدل على التشاؤم وأنت تنتهك مبادىء الوقار التي لقنتك إياها في لندن. لا يمكن للهيئة الحزينة أن تكون بشيراً بالخير؛ يجب أن تظهر بمظهر الضجر. إذا كنت حزيناً، معنى هذا أن شيئاً ما ينقصك، ولم تنجح في تحقيقه.

معنى إظهـار الحـزن يعبـر عن الضعف، إذا كنت تحس بالضجر؛ على العكس، الضعيف سيكون الذي يحاول اكتساب إعجابك. أفهم إذن، أيها العزيز، ما قيمة التظاهر بالضجر.

ورمى جوليان قطعة نقود إلى الفلاح الذي كان يستمع إليهما متعجباً.

وقال الأمير:

ـ حسناً، أن في هذا لـروعة! احتقـار نبيل! حسن جـداً. وأسرع بجواده فلحق به جوليان وهو يحس بأعجاب أعمى.

آه! لـو كنت مثله لما فضلتْ عـليّ كروازنـوا! وكلما أحسّ بالصدمة من سخريات الأمير، إزداد احتقـاره لنفسه لأنـه لا يعجب بها، ويظن نفسه شقياً لأنه لا يعرفهـا. ولم يكن من المعقول أن تصل كراهيته لنفسه أكثر مما هي الآن.

ولما رآه الأمير تعيساً حقاً قال له وهما عائدان إلى ستراسبور:

ـ آه! أيها العزيز، هل فقدت نقودك، أو هـل تحب ممثلة صغيرة؟

الروس يقلدون الفرنسيين تماماً، ولكنهم دائماً متأخرون عنهم خمسين سنة. إنهم الآن في عصر لويس الخامس عشر.

وعند هذه الكلمات اغرورقت عينا جوليان بالدموع. ثم قال فجأة:

ـ لمَ لا أستشير هذا الرجل اللطيف؟

ثم قال للأمير:

ـ أجل أيها العزيز، تراني في ستراسبور مدلهاً بل ومهجوراً.

أبعدتني إلى هنا امرأة ساحرة تسكن مدينة مجاورة، بعد ثلاثة أيام من الغرام العنيف. وهذا التغيير يقتلني.

ثم وصف باسماء مستعارة أعمال ماتيلد وطباعها.

فقال كوراسوف:

ـ لا تتابع: سأتابع أنا رواية القضية حتى أجعلك تثق في طبيبك. زوج هذه الامرأة يتمتع بثروة هائلة، أو أن هذه المرأة تنتمي على الأرجح إلى الطبقة النبيلة في البلاد. لا بد أنها فخورة بشيء.

وأشار جوليان برأسه. فارقته شجاعته على الكلام.

وتابع الأمير:

ـ حسن جداً، ها ثلاثة أدوية مرة، ستتناولها دون تأخير.

أولاً: يجب أن ترى كل يوم السيدة... ماذا تسميها؟

ـ السيدة دوبوا.

وقال الأمير وهو ينفجر ضاحكاً:

ـ أي اسم هذا! عفواً، إنه رائع لديك. يجب أن ترى كل يوم السيدة دوبوا، ولكن لا تظهر أمامها متضايقاً بارداً، تذكر دائماً مبدأ عصرنا الحاضر: كن دائماً عكس ما منتظر منك. إظهر

تماماً كما كنتَ قبل ثمانية أيّام قبل أن تتشرّف بالتفاتاتها...

وصرخ جوليان يائساً:

ـ آه! كنت عندها هادئاً. ظننت أنني أشفق عليها...

وتابع الأمير:

ـ الفراشة تحرق نفسَها على المصباح. تشبيه قديم قدم العالم.

ثانياً: ستقابلها كل يوم.

ثالثاً: ستغازل امرأة أخرى من مجتمعها. ولكن دون أن تظهر عليك علامات الغرام. تسمعني؟ لا أخفي عليك أنّ دورَك صعب جداً. إنك تقوم بمسرحية، وإذا عرفتْ أنك تمثل دوراً، فقدت كل شيء.

وقال جوليان حزيناً:

ـ إنها ذكية جداً، وأنا بسيط! خاسر سلفاً.

ـ لا، إنك مدلّه أكثر مما كنت أتصور. السيدة دوبوا مشغولة بنفسها، كبقية النساء اللواتي وهبتهنّ السماء كثيراً من المال أو النبل. تتطلع إلى نفسها بدل أن تتطلع إليك. لا تعرفك. رأت فيك، خلال اللحظات التي اندفعت فيها معك، البطل الذي كانت تحلم به، ولم ترَك على حقيقتك...

يا للشيطان، هذه مبادىء أولية، فهل أنت يا سوريل تلميذ مدرسة؟ . . .

وحق السماء! لندخل إلى هذه الدكان، انظر هذه القبة السوداء الساحرة، كأنها صنعت لجون أندرسون! في بورلينغتون ستريت. أرجوك خذها إكراماً لي، وارمِ بعيداً هذا الحبل الأسود المزعج حول عنقك.

آه هكذا، قال الأمير وهما يخرجان من دكان أحسن بائع في ستراسبور، ما مجتمع السيدة دوبوا؟ يا إلهي! أي أسم! لا تنزعج يا عزيزي سوريل، هذا أقوى مني. . . ومن هي التي تغازلها؟

ـ فتاة جميلة من الدرجة الأولى، ابنة تاجر من الطبقات الشعبية واسع الغنى؛ تملك أجمل عينين على الأرض، يعجباني جداً. تحتل المركز الأول في البلاد، ولكنها وسط كل هذه العظمة تشعر بالخجل الشديد كلما جرى الحديث أمامها عن التجارة والحوانيت. ولسوء الحظ، كان أبوها واحداً من أشهر تجار ستراسبور.

وضحك الأمير وهو يقول:

ـ هكذا، إذا تكلمنا على الصناعة، فهل واثق بأن جميلتك هذه تفكر فيك في نفسها؟ هذه التفاصيل مهمة جداً ومفيدة

جداً. ستمنعك من أن تشعر بأيّ عواطف مجنونة قرب هاتين العينين. النجاح مؤكد.

وكان جوليان يفكّر في السيدة الماريشالة ده فرفاك التي كانت تأتي إلى قصر ده لامول. اجنبية جميلة تزوجت الماريشال قبل سنة من وفاته. وكان كل اهتمامها في حياتها: جعل الناس ينسون انها ابنة صناعي، وفي أن تكون شيئاً في باريس، ولذلك وضعت نفسها في مقدمة المجتمع.

كان جوليان يُعجب فعلاً بالأمير، وعلى استعداد لاعطائه كل شيء كي يستمع إلى نصائحه! استمر الحديث بين الصديقين طويلاً. وانتشى كوراسوف، فلم يحدث له مطلقاً أن استمع فرنسي له وقتاً طويلاً. فكان يقول لنفسه إذ تمالكه السرور: هكذا توصّلتُ أخيراً لأجعل من علّمني يستمع لدروسي.

كان يردّد لجوليان للمرة العاشرة:

ـ نحن على اتفاق، لا تظهر أيّ ظلّ من ظلال الحب عندما تتحدّث مع الجميلة الشابة، ابنة تاجر ستراسبور، في حضور السيدة دوبوا. على العكس، أظهر غراماً مشبوباً في كتاباتك. قراءة رسالة حب موفقة هي اللذة الحقيقية التي تأخذ بقلب الفتاة الجميلة. إنها لحظة الانعتاق؛ لا تمثل أيّ دور، وتتجرأ فتستمع لقلبها. رسالتان إذن كل يوم.

قال جوليان وهو يحسّ بالخيبة:

ـ أبداً، أبداً، أفضل أن أعلق على وتد من أن أكتب ثلاث جمل. إنني جثة، يا عزيزي، لا تأمل أي شيء مني. إتركني أموت على قارعة الطريق.

ـ ومن يقول لك أن تكتب الجمل؟ معي في أغراضي ستة مجلدات من الرسائل الغرامية المكتوبة. فيها رسائل تناسب أطباع كل أنواع النساء، ورسائل تخاطب اسمى الفضيلات. ألم يغازل كاليسكي ريشموند لاتراس، كما تعلم، على ثلاثة فراسخ من لندن أجمل فتاة في إنكلترا؟

كان جوليان أقل شقاء عندما ترك صديقه في الساعة الثانية صباحاً.

في صباح اليوم التالي طلب الأمير ناسخاً، وبعد يومين أصبح مع جوليان ثلاث وخمسون رسالة غرام مرقّمة، معدة لأسمى الفضيلات وأتعسها.

وقال الأمير:

ـ الرسالة الرابعة والخمسون غير موجودة لأن كاليسكي نجح في مشروعه. ولكن ماذا يهمك منها إذا عاملتك ابنة تاجر الجوارب بقسوة، ما دمت تريد التأثير على قلب السيدة دوبوا

وحدها؟

كانا يخرجان إلى النزهة كل يوم على ظهور الخيل؛ جن الأمير بجوليان، ولما لم يكن يعرف كيف يعبر له عن صداقته الفجائية، عرض عليه الزواج من إحدى قريباته الغنيات في موسكو. ثم أضاف: وبعد أن تتزوج سأجعلك، بنفوذي وبهذا الصليب الذي تحمله، كولونيلاً في سنتين.

ولكن هذا الصليب لم يمنحنيه نابليون. وهذا مهمّ.

- ما يهم! ألم يخترعه هو؟ إنه لا يزال، على وجه التقدير، أرفع أوسمة أوروبا.

وأوشك جوليان على القبول. ولكن واجبه ذكّره بموعده مع الشخصية الكبيرة. وعد كوراسوف بالكتابة عندما فارقه. تلقىّ جواب المذكرة السريّة التي أحضرها، وهرع عائداً إلى باريس. ولم يكد يسير وحيداً يومين حتى أحس مغادرة فرنسا وماتيلد عذاباً لا يطاق وأقسى من الموت. فقال لنفسه: لن أتزوج الملايين التي عرضها الأمير كوراسوف عليّ، ولكنني سأعمل بنصائحه.

وبعد، مهنته هي الاغراء. لا يفكر إلا في هذا الأمر منذ خمسة عشر عاماً، وهو الآن في الثلاثين. لا يمكن القول أنه ليس ذكياً، فهو لبق وداهية، إن الحماس والشاعرية لا يمكن أن

يصلا إلى هذه الشخصية، هو رجل عقلاني، وهذ سبَبٌ آخر يجنّبه الاخطاء.

يجب أن أغازل السيدة ده فرفاك، قد أحس بالضجر قليلاً معها، ولكنني سأتطلع إلى عينيها الجميلتين تشبهان أجمل عينين أحبهما أكثر من كل شيء في العالم.

إنها أجنبية وهذه قضية يجب ملاحظتها.

إنني مجنون، أغرق نفسي. يجب أن أتّبع نصائح صديق، والّا أثق بنفسي على الاطلاق.

٢٥
وزارة الفضيلة

ولكن إذا نلت هذه اللذة بحذر ودوران، لن أحسّ بما فيها من السرور.
لوبّه ده ليغا

لم يكد يرجع إلى باريس، ويخرج من مكتب المركيز ده لامول ألذي بانت عليه الخيبة مما قدمه له، حتى أسرع إلى الكونت ألتميرا. وكان هذا يجمع، إلى أنه محكوم بالإعدام، كثيراً من الوقار والسعادة والتدين. وهذه الصفات، يضاف إليها طيب المنبت والنبل، تناسب تماماً السيدة ده فرفاك التي كانت تراه كثيراً.

اعترف له جوليان أنه مدلّه بحبها.

وردّ ألتميرا:

ـ إنها أنقى الفضائل وأسماها، ولكنّها خبيثة ومتكبرة. أحياناً، أفهم كلّ كلمة تقولها، ولكنني لا أفهم الجملة بكاملها. أشعر معها أنني لا أفهم الفرنسية كما تتكلمها. صلتك بها ستجعل اسمك على كل شفة أو لسان، وستجعل لك وزناً في المجتمع. ولكن هيا بنا إلى بستوس. كان مفكراً، وغازل الماريشالة.

واستفسر دون دياغوبستوس طويلاً عن الموضوع دون أن يقول أية كلمة، كالمحامي في مكتبه. كانت هيئته كالقسيس: شاربان سوداوان، ووقار.

وقال لجوليان أخيراً:

ـ في ما فهمت؛ هل كان للماريشالة ده فرفاك عشاق؟ هل لك حظ بالنجاح؟ هنا يكمن السؤال. يخصني، أفيدك أنني فشلت. إنني غير متضايق. فكرت: الماريشالة عابسة دائماً، ولما كنت رويت لك ما حدث، أعلن أنها صعبة المراس.

لا أجدها ذات طبع منفعل دلالة على العبقرية. تضفي على الأعمال مسحة من العاطفة، وهي في جمالها النادر وتناسق ألوانها تقتفي طريقة الهولنديين الهادئين الصارمين.

وفرغ صبر جوليان من شروحات الأسباني الطويلة البطيئة، فكانت تند عنه، من وقت لآخر، بعض الكلمات المتقطعة. فقال له بستوس بوقار:

ـ تريد أن تستمع إلي؟

ورد جوليان:

ـ إغفر لي نزقي الفرنسي، كلي آذان تستمع لك.

ـ استسلمت الماريشالة ده فرفاك إلى الكراهية؛ وهي تلاحق دون شفقة أو رحمة، أناساً لم يسبق لها أن رأتهم، محامين وكتاباً كتبوا أغنيات مثل كولليه، كما تعرف؟

أحس بضعف...

لأنني أحب ماروت... الخ

اضطر جوليان إلى سَمَاع كلّ المقطوعة، إذ كان الإسباني يشعر بالسرور لغنائه بالفرنسية.

ولم يستمع جوليان في حياته، بمثل هذا الصبر كما إلى هذه الأغنية يومئذ. وعندما انتهت قال دون دياغو:

ـ عملت الماريشالة على عزل مؤلف هذه الأغنية:

ذات يوم، الحب في الحانة...

وارتجف جوليان لأنه لم يشأ ترديد الأغنية. واكتفى بتحليلها. كانت فعلاً شائنة.

وقال دون دياغو:

ـ عندما غضبت الماريشالة من هذه الأغنية، لفتُّ نظرها إلى أن ليس على امرأة في مقامها قراءة كل الحماقات التي تنشر. ومهما تقدمت الفضيلة والوقار، أدب الكاباريهات سيبقى في فرنسا. وعندما انتزعت الماريشالة من المؤلف بضربة واحدة، مركزاً كان يدر عليه ألف وثمانمائة فرنك قلت لها:

ـ إحذري. هاجمت هذا الكاتب بأسلحتك، وقد يرد عليك بقوافيه. ستكون لك الصالونات المذهبة؛ ولكن الناس الذين يحبون الضحك سيرددون هذه الأبيات. تعرف ما قالته الماريشالة:

ـ ستراني كل باريس، من أجل الله، أسير كالشهيدة. سيكون منظراً جديداً في فرنسا. وسيتعلم الشعب كيف يحترم الفضائل. سيكون ذلك اليوم أحلى أيام حياتي. ولم تكن عيناها في يوم من الأيام، أجمل مما عندئذ.

وصرخ جوليان:

ـ عينان مدهشتان!

وردّ دون دياغو بوقار:

ـ أرى أنك مدلّه... ليست ذات طبع غضوب يدفع للانتقام. تحب الأذى، لأنها تعيسة. أشك في التعاسة الداخلية. أفلا تكون أذن تعبة من مهنتها؟

وتطلّع الاسباني إليه صامتاً ثم أضاف بوقار:

ـ هذا هو السؤال، ومن هنا تستطيع أن تستخلص بعض الأمل. فكرت في ذلك عامين كاملين فتصرّفت نحوها كالخادم المطيع. كل مستقبلك أيها العاشق، يتعلق بهذه القضية الكبرى: هل هي تعبة من مهنتها، خبيثة بسبب تعاستها؟

وقال ألتميرا أخيراً، بعد صمت عميق:

ـ أليس هذا ما قلته لك عشرين مرة؟ القضية كلها كبرياء فرنسي، تثيره ذكرى والدها، تاجر الجوخ الشهير، سبب هذا الطبع القاتم الجاف. لا تحس إلا بسعادة واحدة هي سكنى طليطلة، يعذبها كل يوم معرّف يريها الجحيم مفتوحاً على مصراعيه.

وبينما كان جوليان خارجاً قال له دون دياغو بوقار مستمر:

ـ أخبرني ألتميرا إنك منا، وستساعدنا ذات يوم في استعادة حريتنا. سأساعدك في هذه التسلية البسيطة. من المستحسن أن

تعرف شيئاً عن أسلوب الماريشالة. ها رسالات أربع بخط يدها.

وصرخ جوليان:

ـ سأنسخها ثم أعيدها لك.

ـ ولن يعرف أحد منك كلمة مما قلناه؟

وصرخ جوليان:

ـ على الاطلاق، بشرفي!

وإضاف الاسباني:

ـ ليكن الله في عونك!

ثم قاد صامتاً جوليان وألتميرا حتى الدرج.

وتسلّى جوليان قليلاً بهذا المشهد، وأوشك على الابتسام.

كان يقول لنفسه: ها ألتميرا المتديّن يساعدني على عملية خيانة زوجية.

كان جوليان، خلال محادثته مع دون دياغو، يستمع بانتباه إلى دقات ساعة قصر أليغر.

اقتربت ساعة العشاء. سيرى إذن ماتيلد! وعاد فلبس ثيابه

بعناية فائقة.

وقال وهو ينزل الدرج: الحماقة الأولى. يجب أن أتبع حرفياً أوامر الأمير.

وعاد إلى غرفته، ولبس بذلة السفر البسيطة جداً.

وفكّر: الأمر يتعلق الآن بالنظرات. كانت الساعة الخامسة والنصف، والعشاء في السادسة. فكر في النزول إلى الصالون. وجده خالياً. انفعل حتى أوشك على البكاء، عندما رأى الكنبة الزرقاء، وسرعان ما التهب خداه.

فقال في سره بغضب: يجب التخلي عن هذه الحساسية الحمقاء: قد تفضحني.

وأخذ جريدة، ليتمالك نفسه، وخرج ثلاثاً أو أربع مرات إلى الحديقة.

وتطلع مرتجفاً إلى نافذة ماتيلد، بعد أن وثق أن سنديانة كبيرة تخفيه عن الأنظار. كانت النافذة مغلقة بإحكام، فأوشك على الوقوع، وبقي طويلاً مستنداً إلى جذع السنديانة، ثم ذهب بخطى مترنحة لرؤية سلم البستاني.

كانت النباتات التي دعكها السلم في مناسبات مختلفة، لا تزال للأسف كما هي. وشدّ جوليان إلى شفتيه، في حركة

إنفعالية مجنونة.

وبعد أن هام طويلاً متنقلاً بين الصالون والحديقة، أحسّ بتعب شديد؛ وكان هذا نجاحاً أولياً تذوّقه بلذة. نظراتي ستكون مطفأة ولن تفضحني! ورويداً رويداً، وصل الندماء إلى الصالون، وكان قلب جوليان ينتفض بشدة كلما فتح الباب.

جلس الجميع إلى المائدة؛ وأخيراً ظهرت الآنسة ده لامول، كعادتها في جعل الجميع ينتظرونها. احمرّت كثيراً عندما رأت جوليان، فلم يخبرها أحد عن عودته. وتطلّع جوليان إلى يديها، كما أوصاه الأمير، فرآها ترتجف. وإزاء اضطرابه، كان سعيد الحظ لأنه لم يظهر إلا التعب والارهاق.

امتدحه السيد ده لامول. ثم وجهت الماركيزة الحديث إليه وامتدحته على هيئته المتعبة.

كان جوليان يقول لنفسه كل لحظة: يجب الاّ أتطلّع طويلاً إلى الآنسة ده لامول، ولكن نظراتي يجب ألا تتجنبها كذلك. يجب أن أظهر، كما قبل ثمانية أيام من تعاستي... وكان راضياً عن نجاحه وبقي في الصالون. وانتبه للمرة الأولى إلى سيدة البيت، وبذل كل الجهود لاستمرار الحديث، بين رجال مجتمعها، رائعاً حياً.

كوفىء على تهذيبه. فنحو الثامنة، أُعلن عن قدوم الماريشالة

ده فرفاك، وخرج جوليان ثم عاد وهو يلبس أحسن ما عنده. فهمت السيدة ده لامول علامة الاحترام هذه وأشارت إليها في حديثها مع السيدة ده فرفاك عن رحلة جوليان. جلس جوليان قرب الماريشالة بشكل كانت عيناه غير ظاهرتين لماتيلد. وكانت السيدة ده فرفاك موضع إعجابه الكبير، وهو جالس على أحسن ما يكون من اللياقة والفن. وبدأت الرسالة الأولى من رسائل الأمير كورازوف الثلاث والخمسين، بواسطة هذا التأثير الذي خلّفه في عواطفه إعجابه الكبير بالسيدة ده فرفاك.

أعلنت الماريشالة إنها ذاهبة إلى الأوبرا الايطاليـة. فركض جوليان إلى هناك، ووجد الفارس ده بوفوازي، الذي قاده إلى مقصورة السادة النبلاء، الملاصقة لمقصورة السيدة ده فرفاك. كان جوليان يتطلع إليها باستمرار.

وقال لنفسه: يجب أن أحمل بطاقة البرنـامج، عنـد عودتي للقصر، وإلا أكون نسيت هجومي.

حاول كتابة صفحتين أو ثلاثة حول هذا الموضوع المضجر، ونجح بهذه الطريقة في نسيان الآنسة ده لامول تقريباً. هذا رائع!

أما ماتيلد فكانت نسيته تقريباً في غيابه. كانت تفكر، إنه في النهاية ليس إلا شخصاً عادياً. اسمه سيذكرني دوماً بأكبر غلطة

ارتكبتها في حياتي. يجب أن أعود بحسن نية إلى أفكاري الأولى عن الحكمة والشرف. والمرأة معرَّضة لخسارة كل شيء إذا نسيتهما.

وبان عليها أنها على استعداد لقبول الارتباط النهائي بالمركيز ده كروازنوا، وهي قضية معدة منذ أمد طويل. وكان المركيز يحس بالفرح المجنون. دهش عندما قيل له أن ماتيلد قررت نهائياً الأمر الذي جعله يحس بفخر كبير.

وتغيّرت كل أفكار ماتيلد عندما رأت جوليان.

فقالت لنفسها: الحق أن هذا هو زوجي. فإذا عدت لأفكاري عن الحكمة والشرف، عليّ أن اتزوجه هو.

وانتظرت من جوليان تصرفات غير مناسبة وتعبيراً عن التعاسة، وأعدت إجاباتها: لأنه ولا شك سيحاول بعد الطعام، توجيه بعض الكلمات لها. ولكنه بقي ثابتاً في الصالون، بل أن عينيه لم تلتفتا مطلقاً إلى الحديقة، والله يعلم بأي ثمن!

فكرت الآنسة ده لامول: يجب أن استفسر منه فوراً.

وذهبت وحدها إلى الحديقة. فلم يظهر لجوليان أي أثر.

تمشت قرب نوافذ الصالون، فوجدته منهمكاً مع السيدة ده فرفاك. في وصف أطلال القصور القديمة التي تزين هضبات

شواطىء الراين وتجعلها ذات هيئة رائعة. بدأ يخرج من تعابيره العاطفية الطريفة التي يسميها البعض في الصالونات: الذكاء.

ولكان الأمير كوراسوف فخوراً لو رآه في باريس. كانت السهرة كما أراد تماماً. وكان لا بد أن يؤيد تصرف جوليان في الأيام التي تلت.

بدأت خيوط مؤامرة خفية تنسج لتوزيع بعض الوشاحات الزرقاء، وكانت السيدة ده فرفاك تطلب أن يكون أحد أعمامها فارساً. أما المركيز ده لامول فكان يطالب باللقب ذاته لوالد زوجته، فتعاونا معاً وأصبحت السيدة ده فرفاك تأتي يومياً إلى قصر ده لامول. ومنها عرف جوليان أن المركيز مرشح لوزارة: عرض على كاماريلا، مخططاً رائعاً لمحو «الشريعة» دون أدنى خوف في ثلاث سنوات.

كان جوليان يستطيع الحصول على أبرشية لو وصل السيد ده لامول إلى كرسي الوزارة. ولكن هذه المصالح كلها كانت بالنسبة إليه، في هذا الوقت، مغطاة بالستائر، فلم يعد خياله يراها إلا في البعيد.

كانت التعاسة البشعة التي يعانيها، تريه كل ملذات الدنيا، في علاقاته مع الآنسة ده لامول. فكان يتوقع أنه سيكتسب حبها من جديد بعد خمس أو ست سنوات من العناية.

وصل هذا المخلوق البارد، إلى أسفل درك من الجنون. فلم يبق عنده من الصفات التي جعلته يبرز، إلا بعض الصلابة. وكان، عملياً، مخلصاً للمخطط الذي وضعه الأمير كوراسوف: يجلس كل مساء قرب كنبة السيدة ده فرفاك، ولكن كان من الصعب جداً عليه أن يتفوه بكلمة.

كانت المجهودات التي يبذلها ليظهر شفاءه أمام ماتيلد تمتص كل قواه، فكان يبقى قرب الماريشالة كمخلوق أقرب للموت منه إلى الحياة. فقدت عيناه، كل بريق وحياة، نتيجة للألم الجسدي القاسي الذي كان يعانيه.

ولما كانت آراء السيدة ده لامول طبق الأصل عن آراء زوجها الذي قد يجعل منها دوقة، نسيت لأيامٍ كل صفات جوليان وجدارته.

٢٦
الحب المعنوي

كانت الماريشالة تفكّر: ثمة شيء من الغرابة في أفراد هذه العائلة. مغرمون بقسيسهم الشاب وهو لا يحسن إلا الاستماع، لكنّ عينيه جميلتان.

كان جوليان من جهته، يجد في حركات الماريشالة مثلاً رائعاً عن ذلك الهدوء الذي يوحي بالتهذيب الصحيح وباستحالة وجود انفعال عنيف. فجائية حركاته، وفقدان سيطرته على نفسه، يصدمان السيدة ده فرفاك بانعدام الهيبة نحو الطبقات الدنيا. أقل تحسس بآلام الفقراء كان في نظرها سكرة معنوية يجب الخجل منها ويسيء تماماً إلى واجبات النبيل نحو نفسه.

. سعادتها الكبرى كانت في حديثها على آخر رحلات الصيد التي قام بها الملك، وكتابها المفضل «مذكرات الدوق ده سان سيمون» وخصوصاً القسم الذي يبحث في أصل العائلات.

كان جوليان يعرف المكان الذي يناسب نوع جمال السيدة ده فرفاك، وسط توزيع الأنوار هذا. فكان يجلس فيه مسبقاً بشكل لا يترك المجال لماتيلد لرؤية عينيه. دهشت هي من هذا الاستمرار في التخفي عنها، فتركت ذات يوم الكنبة الزرقاء وأتت لتعمل قرب طاولة صغيرة حدّ مقعد الماريشالة، وكان جوليان يراها عن قرب، من فوق قبعة السيدة ده فرفاك. أخافته عيناها، التي يتعلق بهما مصيره، لأول وهلة، ثم قذفته بعنف بعيداً عن بلادته المعهودة، فتحدث وأجاد.

وجّه الحديث إلى الماريشالة، ولكن هدفه كان التأثير في نفس ماتيلد. وازداد حماسه حتى لم تستطع الماريشالة أن تفهم ما يقوله.

كانت هذه خطوته الأولى. ولو خطرت على بال جوليان فكرة إكمال حديثه ببعض الجمل عن التصوف الألماني والتدين والجانسينية، لعدّته الماريشالة بين الرجال المتفوقين المدعويين لتجديد العصر.

قالت الآنسة ده لامول لنفسها: بما أنه قليل الذوق، يتحدث مع السيدة ده فرفاك طويلاً وبحماس كبير، لن استمع إليه أبداً. ونفذت ماتيلد كلامها طوال السهرة وهي تحس ببعض الألم.

وعند منتصف الليل، عندما رافقت أمها إلى غرفتها، توقفت هذه الأخيرة وسط الدرج لتكيل لجوليان المديح، فتعكر مزاج ماتيلد تماماً، ولم تستطع ليلتها أن تنام. ولم تهدئها إلا فكرة واحدة: من أحتقره قد يخلق رجلاً عظيماً في عيني الماريشالة.

جوليان كان أقل تعاسة، لأنه تحرك، ووقعت عيناه صدفة، على المحفظة الجلدية الروسية التي أودع فيها الأمير كوراسوف رسائله الغرامية أهداها لجوليان. ورأى في أسفل الرسالة الأولى: «ترسل الرسالة الأولى بعد ثمانية أيام من المقابلة الأولى».

وصرخ جوليان:

ـ تأخرت، لأن وقتاً طويلاً مضى على رؤيتي الأولى للسيدة ده فرفاك.

وبدأ في نسخ هذه الرسالة الغرامية الأولى، وكانت محشوة بتعابير عن الفضيلة مضجرة حتى الهلاك: وأسعد الحظ جوليان فنام وهو ينقل صفحتها الثانية.

وبعد ساعات، استيقظ ففوجىء بنفسه متكئاً على طاولته. وكانت أقسى اللحظات تمر به عندما يستيقظ فيتذكر تعاسته. ذاك الصباح أنهى رسالته وهو يحس بالمرح. كان يقول:

ـ هل من المعقول أن يوجد شاب يكتب هذه الرسالة؟

وعد بضع جمل مؤلفة من تسعة سطور. وفي أسفل النسخة الأصلية رأى شرحاً كتب بقلم رصاصي:

«ينقل الرسالة الشخص ذاته، ويلبس ربطة عنق سوداء وريدنكوت أزرق، ويذهب راكباً الحصان. وتعطي الرسالة إلى البواب بهيئة وقورة، ونظرة حزينة. وإذا شوهدت خادمة، تمسح العينان بشكل تمثيلي، ويوجه الحديث لها».

نفذ جوليان هذه النصائح على أوفى شكل.

وفكر جوليان وهو يخرج من قصر ده فرفاك: ما أقوم به جريء، ولكن الويل لكوراسوف. إن اتجرأ فأكتب إلى امرأة مشهورة بالفضيلة! ستعاملني ولا شك بأقسى ما يكون من الاحتقار، ولن أحس بتسلية أكبر بعد ذلك. هذه هي المهزلة الوحيدة التي أستطيع التحسس بها. أجل، أن أغرق بالسخرية

هذا الكائن البشع الذي اسميه أنا. سأتسلى بذلك. لو كنت أصدق نفسي، لارتكبت جرائم عدة لأسلي نفسي.

منذ شهر، كانت أحلى ساعة في حياة جوليان، تلك التي يعيد فيها حصانه إلى الاسطبل. منعه كوراسوف عن رؤية العشيقة التي تركته لأي سبب من الأسباب. ولكن وقع خطى هذا الحصان الذي كانت تعرفه جيداً، وطريقة جوليان في قرع باب الاسطبل ليستدعي أحد الرجال، كانت تجتذب ماتيلد أحياناً خلف ستار نافذتها. وكان قماش الموسولين شفافاً لدرجة كان جوليان يرى من خلالها، وهو يتطلع بطريقة خاصة من طرف قبعته، قامة ماتيلد، دون أن يرى عينيها.

وكان جوليان يقول: معنى هذا انها لا تستطيع رؤية عينيّ، وإنها لم ترني اتطلع إليها.

وفي المساء، تصرفت السيدة ده فرفاك وكأنها لم تتلق تلك الاطروحة الفلسفية الصوفية الدينية التي أعطاها في الصباح للبواب بهيئة تدل على الحزن الشديد. وفي العشية، جعلته الصدف يعرف كيف يكون بليغاً، فجلس بشكل يجعله يرى عيني ماتيلد. أما هي فتركت الكنبة الزرقاء، بعد لحظة من قدوم الماريشالة: معنى هذا إنها تهجر مجتمعها الاعتيادي. وبانت على السيد ده كروازنوا الخيبة من هذه النزوة الجديدة. وكان هذا سبباً في تخفيف تعاسة جوليان.

جعلته هذه الأحداث الجديدة يتكلم ببراعة ملاك، ولما كان حب الذات يجد لذة بإحراق البخور في أقسى القلوب، قالت الماريشالة وهي تصعد عربتها:

ـ كانت السيدة ده لامول مصيبة في إعجابها بهذا القسيس الشاب. لا بد أن وجودي أثار حياءه في الأيام الأولى. والواقع أن كل ما يقال في هذا المنزل بسيط خفيف، وأنا اعتقد أن فضيلة أهله ناتجة عن الشيخوخة ليس إلا. ولا شك في أن هذا الشاب استطاع رؤية الفرق، إنه يكتب جيداً، ولكنني أخشى أن تكون استشاراته لي في رسالته مقدمة لشعور لم يتضح بعد.

وعلى كل حال، كم من الاحاديث بدأت هكذا! ما يجعلني أشك في هذا الشعور، أسلوبه الذي يختلف عن أسلوب الشبان الذين اتيحت لي فرصة الاطلاع على رسائلهم. من المستحيل أن أنكر النعومة والرزانة العميقة والاقتناع العميق في كتابة هذا القسيس الشاب. سيكون لديه ولا شك فضيلة ماسّيّون.

٢٧

أجمل أماكن الكنيسة

هكذا ارتبطت فكرة الابرشية للمرة الأولى بفكرة جوليان في فكر امرأة ستوزع، عاجلاً أو آجلاً، أجمل أماكن الكنيسة في

فرنسا. ولم يتأثر جوليان مطلقاً بهذا. كان تفكيره لا يعلو في هذا الوقت خارج عن تعاسته الحالية. كان كلّ شيء يضـاعفها. أصبحت رؤياه لغرفته صعبة الاحتمال مثلاً. وفي المساء عندما يعود بشمعته إلى غرفته، كان يخال كل قطعة من أثاثها يذكره ببعض تفاصيل هذه التعاسة. يومها، قال لنفسه وهو يـدخل غرفته بحيوية لم يشعر بها منذ وقت طويل: إن عليّ اليوم عملاً إجبارياً: فلنأمل إذن أن تكون الرسالة الثانية أسأم من الأولى.

وكانت فعلاً أسأم بكثير. كان يرى أن ما يكتبه سخيف جداً حتى بات ينسخ سطراً سطراً دون أن يفكر في معنى ما ينسخه.

ويقول لنفسه: إنها فخمة أكثر من مواد معاهدة منستر التي جعلني استاذي الدبلوماسي أنقلها في لندن.

ولم يتذكر إلا في هذه اللحظة رسائل السيدة ده فرفاك التي نسي أن يعيد أصولها إلى الاسباني الوقور دون دياغوبستوس. ففتش عنها، ورأى أنها تقارب في فخامتها رسائل السيد الروسي الشاب. كان الغموض يسودها. كلماتها تقول كل شيء ولا تقول أي شيء. وفكر جوليان: إنها الطريقة الايـوليونيـة في التعبـير. فوسط اسمى الأفكـار عن العدم والمـوت واللانهايـة الخ. . . لا أرى إلا خوفاً فظيعاً من السخرية.

استمر هذا الحوار الذاتي، خمسة عشر يوماً متتـالية. كـان

ها أنذا أنسخ الرسالة الخامسة عشرة من هذه المقالات البشعة. سلمت الأربع عشرة الأولى إلى خدم الماريشالة. سيكون لي شرف تعبئة جميع أدراج مكتبها. ولكنها مع ذلك تعاملني وكأنني لم أكتب قط! ماذا تكون نهاية كل هذا؟ هل تتضايق من ثباتي كما أتضايق أنا؟ يجب الاعتراف أن هذا الروسي، صديق كوراسوف وعشيق الجميلة ده ريشموند، كان في عصره رجلاً مخيفاً. فليس من الممكن أن يكون المرء أثقل منه.

ولم يفهم جوليان الهجوم الذي قام به الروسي الشاب على قلب الانكليزية الحسناء، ككل شخص عادي تضعه الأقدار أمام مناورات قائد عظيم. كانت الرسائل الأربعون الأولى تهدف إلى الاعتذار عن بادرته في الكتابة. وكان من الواجب جعل هذه المرأة اللطيفة، التي قد تحس بالضجر، تعتاد على تلقي رسائل أقل وضوحاً من أحداث حياتها اليومية.

ذات صباح، تلقى جوليان رسالة عرف عليها شعار السيدة ده فرفاك، ففتحها بسرعة، وكان يظن أن هذا الأمر مستحيل: ولم تكن الرسالة إلا دعوة للغداء.

وركض جوليان يطلب رأي الأمير كوراسوف. ولسوء الحظ، أراد هذا الروسي الشاب أن يكون خفيفاً مثل دوراً، في المناسبات التي يجب أن يكون فيها بسيطاً سهل الفهم؛ وهكذا لم

جوليان ينام وهو ينسخ هذه الرسائل، وفي اليوم التال، يمتطي حصانه ويذهب فيعطيها بهيئة حزينة إلى الخادم، ثم يعود فيترك حصانه في الاسطبل آملاً أن يرى ثوب ماتيلد. ثم يعمل. وفي المساء يذهب إلى الأوبرا عندما لا تأتي السيدة ده فرفاك إلى قصر ده لامول؛ وكانت هذه احواله الرتيبة اليومية. وكانت أهمية هذه الأحداث تزداد عندما تكون السيدة ده فرفاك في قصر ده لامول، إذ كان يستطيع أن يرى عيني ماتيلد من فوق قبعة الماريشالة، وكانتا عينين رائعتين. وبدأت جمله الطريفة العاطفية تتخذ طابعاً حياً أكثر أناقة من السابق.

كان يشعر تماماً أن ما يقوله سخيف في نظر ماتيلد، وكان لفت نظرها ببلاغة أسلوبه. كان جوليان يفكّر: كلما أكثرت من الرسائل المزورة إزداد إعجابها بي. وكان يبالغ بجرأة فظة، في بعض مظاهر الطبيعة، وسرعان ما رأى أنه حتى لا يكون عادياً بسيطاً في نظر الماريشالة، كان عليه أن يبتعد قدر الامكان عن الأفكار المعقولة البسيطة. فكان يتابع هذه المبالغات أو يختصر منها حسب ما يراه في انعكاس هاتين المرأتين النبيلتين اللتين كان يريد انتزاع إعجابهما.

وعلى الاجمال كانت تعاسته أقل منها في الأيام التي كان يقضيها عاطلاً عن العمل.

وقال ذات مساء:

يستطع جوليان أن يعرف الوضع المعنوي الذي يجب أن يشغله في عشاء الماريشالة.

كان الصالون على أحلى ما يكون من الروعة، مذهباً كمعرض ديانا في التويلري، ومزيناً بلوحات زيتية محاطة بإطارات خشبية ورخامية. وكان في تلك اللوحات بعض البقع التي عرف جوليان في ما بعد أنها وضعت لأن مواضيع اللوحات كانت بالنسبة لربة البيت قليلة الاحتشام، وفكر: العصر عصر الاخلاق!

ورأى جوليان في هذا الصالون ثلاث شخصيات اشتركت في الاجتماع الذي وضع المذكّرة السرية. وكان لأحدهم المونسنيور، وهو كاهن وعمّ الماريشالة، صك الغفران، وكان كما يقال، لا يرفض أي طلب لها. وقال جوليان وهو يبتسم بحزن: أية خطوة واسعة قمتُ بها! وكم أنا لا مبال بها! ها أنذا أتعشى مع كاهن... المشهور.

كان العشاء سيئاً، والحديث متكلفاً. وكان جوليان يفكر: أنها طاولة كتاب سيء. كل المواضيع الفكرية الكبيرة طرقت. ولا يكاد المرء يستمع ثلاث دقائق حتى يتساءل عما سيتغلب: فخامة أسلوب المتكلم أم جهله الفاضح.

نسي القارىء ولا شك، رجل الآداب الصغير تانبو، قريب

الأكاديمي ومدرّس المستقبل، الذي كان مكلفاً، كما يظهر، بتصميم صالون قصر ده لامول.

فهم جوليان من هذا الرجل، أن السيدة ده فرفاك، ولو لم ترد على رسائله، قد تحس ببعض الميل نحو الشعور الذي يجعله يكتب تلك الرسائل. كانت روح تانبو السوداء ممزقة بفعل النجاحات التي أصابها جوليان، ومن جهة أخرى، لما كان الرجل لا يستطيع، مهما كانت مؤهلاته وذكاؤه، أن يوجد ضمن مكانين في وقت واحد، وظن إذا ما أصبح جوليان عشيق الماريشالة الشهيرة، ستضعه في مركز كهنوتي حسن، وهكذا يخلو له الجو في قصر ده لامول.

وّجه الأب بيرار، هو أيضاً، أحاديث طويلة إلى جوليان حول نجاحه في قصر ده فرفاك. وكان عداء مستحكم بين الجانسيني المتعصّب وصالون الماريشالة اليسوعي الملكي.

٢٨
مانون ليسكو

وهكذا، عندما اقتنع تماماً بحماقة وغباء المصلي وغبائه، نجح عندما صار يقول عن الأبيض أسود وعن الأسود أبيض.

ليشتمبرغ

كانت التعليمات الروسية تنصّ بشكل قاطع على عدم معارضة المرأة التي تُرسَل الرسائل إليها. فلم يكن من الواجب الابتعاد، لأي سبب كان، عن تمثيل دور المعجب المدلّه، وكانت الرسائل تنطلق كلها من هذه القاعدة.

ذات يوم، بينما كان جوليان في الأوبرا داخل مقصورة السيدة ده فرفاك، قال أن باليه مانون ليسكو لا تساوي شيئاً، لسبب وحيد هو أنه كان يراها كذلك.

وقالت الماريشالة إن هذه البالية أدنى قيمة من مستوى رواية الأب بريفو.

وتساءل جوليان بدهشة وتسلية: كيف امرأة في وقارها تمتدح إحدى الروايات؟

وكانت السيدة ده فرفاك جعلت مهمتها، مرتين أو ثلاثاً في

الأسبوع، إعلان احتقارها لهؤلاء الكتّاب يحاولون بواسطة كتاباتهم السخيفة، إفساد الشباب الذين لا يملكون للأسف وعياً كاملاً يجنبهم أخطاء الحواس.

وتابعت الماريشالة:

ـ لمانون ليسكو، بين هذا النوع أللا أخلاقي الخطر، المركز الأول، كما يقال. إن الضعف واللوعة التي يستحقّها القلب المجرم واردة، بشكل حقيقة عميقة، مما لم يمنع بونابرتك عن القول في سانت هيلينا أن هذه الرواية كتبت للخدم.

وأعادت هذه الكلمة كل نشاط جوليان. أراد البعض تشويه سمعتي عند الماريشالة، فحدثوها عن حماسي لنابليون. ضايقها هذا حتى استسلمتْ لمحاولة إشعاري بهذا. سلّاه هذا الاكتشاف طوال السهرة وجعله مسلّياً في الوقت نفسه. وعندما استأذن من الماريشالة، تحت قبة الأوبرا، قالت له:

ـ تذكر أيها السيد، أن من يحبني لا يجوز له أن يحب بونابرت. ليس ضرورة فرضتها العناية الالهية. وعلى كل حال، لم يكن لدى هذا الرجل روح حساسة تتأثر بمعجزات الفن.

ورد جوليان:

ـ من يحبني! هذا لا يعني أيّ شيء، أو يعني كل شيء. وهذه أسرار الحديث التي يجهلها ريفيّونا المساكين.

فكّر كثيراً في السيدة ده رينال، وهو ينسخ رسالة يعدها للماريشالة.

قالت له في اليوم التالي بلهجة لا مبالية أحس أنها متكلفة:

ـ كيف حدث أن تكلمت على لندن وريشموند في رسالة كتبهتها مساء أمس، بعد خروجك من الأوبرا؟

أحس جوليان بالحرج الشديد. نقل الرسالة سطراً سطراً دون أن يفكر في ما يكتبه، ونسي كما يبدو، أن يستبدل كلمتي لندن وريشموند الموجودتين في الأصل، بكلمتي باريس وسان كلود. بدأ فتفوه ببعض الجمل دون أن يستطيع إنهاءها، وأحس أنه يكاد ينفجر في ضحك مجنون.

وأخيراً استطاع أن يصل إلى فكرة راقته:

ـ لا شك أنني استغرقت في مناقشة من أبدع المناقشات وأهمها، فضعت عندما كنت أكتب لك.

وقال لنفسه: أحدثت بعض الأثر، فسأتجنب الضجر طوال السهرة.

وخرج راكضاً من قصر ده فرفاك. وفي المساء، عندما أعاد قراءة النص الأصلي، وصل بسرعة إلى كلمتي لندن وريشموند استعملهما الروسي الشاب. ودهش لأنه رأى في هذه الرسالة

كثيراً من النعومة.

وكان هذا التناقض بين مظهر الخفة في كلماته وبين عمق الرسائل البليغة هو الذي لفت الأنظار إليه. كانت الجمل الطويلة تعجب الماريشالة تماماً. ليس أسلوب فولتير المتقطع، هذا الرجل اللا اخلاقي! ورغم أن بطلنا بذل محاولات جاهدة لاكساب محادثاته لهجة عصرية، لم ينجح في إخفاء طابعها المعادي للملكية، الأمر الذي لم يكن يخفى عن السيدة ده فرفاك. لفت تصرف جوليان هذه السيدة، المحاطة بشخصيات فاضلة لا تأتي بفكرة جديدة طوال السهرة، ولكنها في الوقت نفسه كانت تظن أن عليها الإحساس بالاهانة لذلك. فكانت تسمي هذا الاحتفاظ بطابع الخفة في هذا العصر.

ولكنّ النظر إلى هذه الصالونات لا يسرّ إلاّ عندما يكون المرء مرغوباً فيه. ولا شك في أن القارىء يشارك جوليان ضجره من هذه الحياة التي يعيشها دون إحساس بأي اهتمام بها. وهذه المشاركة هي القسم الوعر من رحلتنا.

في الوقت الذي كان جوليان يستغرق في قصته مع فرفاك، كانت ماتيلد تجهد حتى لا تفكر فيه. كانت روحها فريسة لصراع عنيف: تغبط نفسها أحياناً لاحتقارها هذا الرجل الحزين، ولكن حديثه كان يسحرها رغماً عنها. وكان أكثر ما

يدهشها مغالطاته الكاملة. لم يقل كلمة صدق واحدة للماريشالة، أو على الأقل كان يخفي ما يعتقده بشكل بشع، وماتيلد تعرف تماماً أفكاره حول كل المواضيع. كانت تقول:

ـ أيّ عمق هذا! أي فرق بينه وبين الثرثارين والأشخاص الاعتياديين أمثال تانبو الذي يتكلم باللهجة نفسها!

ومع ذلك كانت تمر بجوليان بعض الايام القاسية. وكان يظهر في صالون الماريشالة كلّ مساء ليؤدّي أشق الواجبات عليه. وكان هذا سبباً استنفذ كل قوى روحه. كان لا يجتز الردهة الفسيحة في قصر ده فرفاك إلا نتيجة لقوة تفكيره ويحفظ نفسه فوق مستوى اليأس.

كان يقول: قهرت اليأس في الدير، ومع ذلك كان مستقبلي مظلماً جداً حينذاك! كانت الثروة تنقصني هناك كما هنا، وكنت اضطرّ لقضاء كل أيامي وسط مجتمع ليس أبشع ولا أثقل منه تحت قبة السماء. وفي الربيع الذي تلا هذه الأيام كنت أسعد من في عمري.

ولكن هذه الأفكار الجميلة كانت غالباً دون تأثير على الحقيقة المرّة. كان كل يوم يرى ماتيلد عند الفطور والغداء. وفهم، من الرسائل التي كان يكتبها للمركيز أن ماتيلد على عتبة زواجها من السيد ده كروازنوا الذي يظهر مرتين يومياً في قصر ده لامول؛

وكانت عين هذا المحبّ الغيور لا تغفل تفاصيل أي خطوة من هذا النوع.

عندما ظنّ جوليان أن ماتيلد تعامل ده كروازنوا معاملة حسنة، لم يستطع أن يمنع نفسه من التطلع إلى غدّارته بإعجاب.

كان يقول لنفسه: آه! لكم أكون متعقلاً لو ذهبت إلى إحدى الغابات البعيدة عن باريس وانهيت حياتي البشعة. إنني غريب عن البلاد، ولن يُكتشف خبر موتي قبل خمسة عشر يوماً. من يسأل عني بعد خمسة عشر يوم؟

وكانت فكرته هذه عاقلة. ولكنه رأى، في اليوم التالي، ذراع ماتيلد انحسر كُمّ ثوبها عنه، وكان هذا كافياً لإغراق بطلنا الفيلسوف في ذكرياته القاسية، التي كانت مع ذلك تربطه بالحياة. كان يقول، عندئذ: وبعد! سأتبع حتى النهاية هذه السياسة الروسية. ترى كيف ينتهي هذا الأمر؟ بعد أن أنهي نسخ الرسائل الثلاث والخمسين حتماً لن أكتب غيرها. لا بد أن هذه التمثيلية التي استمرت ستة أسابيع لم تخفف من غضب ماتيلد أو لم تتح لي أن أنال لحظة صلح. يا إلهي! أتحرق شوقاً لذلك!

ولم يستطع إنهاء فكرته. وعندما استطاع، بعد حلم طويل،

أن يعود إلى تفكيره، قال:

ـ سأنال السعادة إذن ذات يوم، وبعدها تعود تقلباتها إلى ما كانت عليه، للأسف! ولن يتبقى لي بعد ذلك شيء مما يعجبها، وأفقد كل جاذبيتي للأبد هذه المرة. . .

أية ضمانة تستطيع أن تعطيني بطبعها هذا؟ للأسف! تفكيري المحدود يعطيني الجواب عن كلّ شيء. ستنقصني الأناقة في الحركات وسيغلب على حديثي الجمود والرتابة. يا إلهي لماذا أنا نفسي؟

٢٩
السأم

أن يضحي المرء بنفسه من أجل عواطفه، معقول. ولكن من أجل عواطف لا يحس بها! يا للقرن التاسع عشر التعيس!

جبروديه

بعد أن قرأت السيدة ده فرفاك، دون لذة، رسائل جوليان الطويلة، بدأت تهتم بها. ولكن شيئاً واحداً كان يثير أسفها: خسارة أن لا يكون السيد سوريل قسيساً بعد! كان من الممكن عند ذلك أن تتقبله بنوع من الصداقة، ولكنها تتعرض لأسئلة

قاسية إذا صادقته وهو يحمل صليبه وملابسه القريبة من ملابس المدنيين. بماذا يجيب عندئذ؟ ولم تنه فكرتها، إذ بعض الصديقات الحصيفات قد ينشرن أنه ابن عم لي، وقريب والدي، وهو تاجر يحمل مدالية الحرس الوطني.

وكانت السيدة ده فرفاك، حتى اللحظة التي رأت فيها جوليان، تسرّ عندما ترى كلمة ماريشالة إلى جانب اسمها. ثم استولى عليها كبرياء حديث النعمة الذي يحس بالاهانة من أي شيء، فبدأت تصارع اهتمامها به.

كانت الماريشالة تقول:

ـ من السهل عليّ أن أجعل منه كاهناً كبيراً في إحدى الأبرشيات القريبة من باريس! أما السيد سوريل دون أية ألقاب وأيضاً أمين سر صغير عند السيد ده لامول! هذا مما يؤسف له.

وأحست للمرة الأولى في حياتها بانفعال شديد من تفكيرها في طبقتها المزعومة وتفوقها الاجتماعي. ولاحظ البواب العجوز أن هيئة التفكير والانزعاج تختفي من وجهها عندما يحضر لها إحدى رسائل هذا الشاب الحزين. وهي الهيئة التي تحرص على الظهور بها أمام من في خدمتها.

الضجر الذي كانت تشعر به من طريقة حياتها الطموحة في التأثير على الجمهور دون أن تحس بسرور حقيقي لنجاحها،

أصبح غير محتمل عندما تفكر في جوليان، وصار يكفي، حتى تعامل خادماتها معاملة حسنة، أن تجلس ساعة مع هذا الشاب الغريب. كانت تعجب به رغم عدة رسائل مغفلة بليغة تلقّتها. وحاول الصغير تانبو إثارة ده لوز وده كروازنوا وده كـايلوس فأطلق كذبتين أو ثلاثاً فتلقفها هؤلاء دون التحقق من صحة الاتهامات. ولما لم تكن الماريشالة تستطيع مقاومة هذه الأساليب العامة، كانت تروي لماتيلد كل شكوكها، وتتلقى منها التطمين دائماً.

ذات يوم، بعد أن سألت ثلاث مرات خدمها عن الرسائل، قررت اجابة جوليان فجأة. وكان هذا انتصاراً للضجر. ولم تكد تكتب الرسالة الثانية حتى توقفت وهي تحس بالاشمئزاز لأنها تكتب بخط يدها عنواناً حقيراً: السيد سوريل، بيت السيـد المركيز ده لامول.

قالت لجوليان في المساء، بلهجة جافة:

ـ يجب أن تعطيني مغلفات مكتوب عليها عنوانك.

وفكر جوليان: ها أنذا أصبحت عشيقاً خادماً.

انحنى وهو يجد لذة في ذلك مثل أرسان، خـادم المركيـزة العجوز.

في المساء، أحضر مغلفات، ثم تلقى في اليوم التالي، منذ الصباح الباكر، رسالة ثالثة. فقرأ خمسة أو ستة سطور من بدايتها وسطرين من النهاية، وكانت رسالة من أربع صفحات مكتوبة بخط صغير.

ورويداً رويداً، وجدت الماريشالة لذّة في الكتابة يومياً، وكان جوليان يرد بنسخ صادقة عن الرسائل الروسية، وهذه إحدى فضائل الاسلوب الفخم، فالماريشالة لم تحس بالدهشة لعدم ترابط الاجابات برسائلها.

ولكم كان تانبو يحس بالحسرة، وهو الذي جعل نفسه جاسوساً على جوليان، لو علم أنّ رسائلها كانت ترمى في درج مكتب جوليان دون أن تفتح.

ذات صباح، أحضر له الخادم إلى المكتبة رسالة من الماريشالة، وكانت ماتيلد صادفت الخادم ورأت الرسالة والعنوان بخط جوليان. فدخلت إلى المكتبة عندما كان الخادم يخرج منها. وكانت الرسالة لا تزال على الطاولة، إذ جوليان لم يضعها في الدرج لأنهماكه في الكتابة. فصرخت ماتيلد وهي تستولي على الرسالة:

ـ هذا ما لن استطيع أن اتحمله. نسيتني تماماً، وأنا امرأتك! تصرفك بشع أيها السيد!

وعنـد هذه الكلمـات أحست ماتيلد بقلة ليـاقة حـركتها، فشعرت بالاختنـاق، وسرعـان ما انهمـرت دموعهـا. ثم بان لجوليان أنها لا تستطيع أن تتنفس.

لم يميز جوليان، وهو فوجىء بتصرفها، ما في حركتها من إشارة إلى نجاح مشروعه. تساعد ماتيلد على الجلوس، فتركت نفسها بين ذراعيه.

وكان أو ما أحس به سرور هائل، ولكنه سرعان ما فكر بكوراسوف فقال لنفسه: كلمة واحدة تفقدني كل شيء.

تقلّصت يداه، نظراً للمجهود الذي قام به ليحتفظ بسياستة الشاقة. عليّ ألا أسمح لنفسي بضمّ هذا الجسد المرن الساحر، وإلا كرهتني وأساءت معاملتي. أي طبع بشع هذا!

وعندما كان يلعن طباع مـاتيلد، كان يشعـر أن حبه لهـا يتضاعف مئات المرات، ويخيل إليه أن بين يديه إحدى الملكات.

برودة جوليان ضاعفت التعاسة التي كانت تمزق قلب الآنسة ده لامول. وكانت أبعد ما تكون عن تمالك نفسها لترى في عينيه الحب الذي يكنّه لها، فلم تكن تستطيع التطلّع إليه خشية أن ترى في عينيه تعبير الاحتقار.

كـانت فريسـة لأقسى أنواع الآلام التي تسببهـا الكبـريـاء

والحب، وهي جالسة على الديوان في المكتبة، ساكنة لا حراك بها، تتطلع إلى الجهة المقابلة لجوليان. أي تصرف أحمق قامت به!

كان مكتوباً لي أن تُرفض عواطفي المشجعة الأولى، وأن يرفضني من؟ خادم من خدم والدي. فقالت بصوت عال:

ـ هذا لن أتحمله قط!

ونهضت بغضب ففتحت درج مكتب جوليان، وبقيت ساكنة من الرعب عندما رأت عشر رسائل لم تفتح بعد، شبيهة بالتي أوصلها الخادم منذ قليل. وتعرفت على خطّ جوليان عليها كلها، فصرخت دون وعي:

ـ هكذا إذن، لست على أحسن ما يرام معها فقط، بل تحتقرها. أنت، الرجل النكرة، تحتقر الماريشالة ده فرفاك.

وأضافت وهي ترتمي تحت ذراعيه:

ـ آه! عفواً يا صديقي، احتقرني إذا شئت، ولكن أحبني. لا أستطيع العيش محرومة من حبك.

ثم سقطت مغشياً عليها.

ها هي إذن تلك المغرورة على قدميّ!

٣٠
مقصورة الأوبرا

كالسماء السوداء تبشر بأسعد عاصفة.
(دون جوان) شكسبير

كان جوليان وسط هذه الأحداث، مندهشاً أكثر منه سعيداً. أثبتت إهانات ماتيلد مقدار صواب السياسة الروسية. طريقة خلاصي الوحيدة هي إذن في الكلام القليل والعمل القليل.

وأنهض ماتيلد، دون أن ينبس بحرف، ووضعها على الديوان. ورويداً رويداً أغرورقت عيناها بالدموع.

لكي تستطيع تمالك نفسها، أمسكت بيديها رسائل السيدة ده فرفاك، وفتحتها ببطء. ولاحظ جوليان أنها قامت بحركة عصبية عندما عرفت خط الماريشالة. كانت تقلّب أوراق هذه الرسائل دون أن تقرأها، وأغلبها من ست صفحات.

وقالت ماتيلد أخيراً بصوت متوسل، دون أن تتجرأ فتتطلع بجوليان:

ـ أجبني على الأقل. تعرف جيداً أنني متكبرة، إنها تعاسة وضعي بل وطباعي. اعترف بذلك. إنتزعت السيدة ده فرفاك

إذن قلبك مني؟!... قامت من أجلك بكل التضحيات التي دفعني حبي للقيام بها؟

وكان جواب جوليان صمت طويل. كان يفكر: بأي حق تسألني هذا السؤال الذي لا يليق توجيهه لرجل شريف؟

حاولت ماتيلد قراءة الرسائل، ولكن عينيها المليئتين بالدموع لم تمكّناها من ذلك!

كانت تعيسة منذ شهر، ولكنها كانت تكابر فلا تعترف بعواطفها. الصدفة وحدها هي التي سبّبت هذا الانفجار. تغلب الحب والغيرة على الكبرياء. كانت مستلقية على الديوان حدّه. كان يرى شعرها وعنقها العاجي. ونسي للحظة ما اعتزمه فأمرّ ذراعه حول قامتها وضمها إلى صدره.

والتفتت نحوه ببطء. فَدَهش من الألم الذي يصرخ في عينيها، فكاد لا يتعرف على وجهها.

فقال: إن عينيها لن تعبرا بعد قليل إلا عن الاحتقار البارد. ولكنها مع ذلك، كانت تردد له بصوت خافت وجمل لا تستطيع إنهاءها، تأكيداتها وندمها على التصرفات التي دفعتها إليها كبرياؤها. ورد جوليان قائلاً بصوت مخنوق، ووجهه يعبر عن اضطرابه الهائل:

- لي كبريائي، أنا أيضاً.

والتفتت ماتيلد نحوه بسرعة. كان سماعها لصوته سعادة لا توصف بعد اليأس الذي انتهت إليه. وكانت في هذه اللحظة لا تتذكر كبرياءها إلا لتلعنها، وتتمنى أن تستطيع التعبير له بتصرفات فريدة عن مقدار عبادتها له ومقدار كراهيتها لنفسها.

وتابع جوليان:

ـ الأرجح إنك ميزتني فترة من الزمن بفضل هذه الكبرياء. أعجبت بي بسبب هذا الحزم الشجاع الذي يناسب رجلاً جديراً باحترامك. إنني أحس بالحب نحو الماريشالة...

وارتجفت ماتيلد، وأخذت نظراتها تعبيراً غريباً. إنها توشك أن تسمع الحكم عليها. ولم تفت جوليان هذه الحركة. فأحس بشجاعته تغيض.

كان يقول وهو يستمع لما يتلفظ به فمه من كلمات العبث، وكان يستمع إلى ضجة غريبة:

ـ آه! لو كنت أستطيع إغراق هذه الخدود الشاحبة بالقبلات، دون أن تشعري بها!

وتابع:

ـ قد أحس بالحب نحو الماريشالة... وأحس بصوته يضعف من جديد، ولكنني لا أملك بالتأكيد أي دليل قاطع على أنها

تبادلني عاطفتي.

تطلعت إليه ماتيلد: أحس بنظرتها، ولكنه كان يرجو ألا يكون وجهه خانه. كان يحس بحبه لها يخترق زوايا قلبه؛ لم يعبدها بهذا الشكل من قبل. كان جنونه يقارب جنونها. ولو تمالكت نفسها وشجاعتها وإرادت المناورة لارتمى تحت قدميها، متخلياً عن كل ما مثّله. ولكنه ملك القوة على المضي في الحديث، فصرخ في نفسه: آه! كوراسوف، لمَ لا تكون هنا! لكم احتاج كلمة تنير لي السبيل! وفي هذا الوقت كان صوته يقول:

ـ ونظراً لفقداني كل عاطفة أخرى، الاعتراف بالجميل وحده يكفي ليربطني بالماريشالة. أظهرت لي الود وعزّتني عندما كنت محتقراً... قد لا تكون عندي الثقة المطلقة ببعض المظاهر، التي تثير الغرور دون شك، ولكنها قد تكون أيضاً قصيرة الأمد.

وصرخت ماتيلد:

ـ آه! يا إلهي!

وتابع جوليان بلهجة حازمة تخلى فيها، للحظة، عن أساليب الحذر والمداهنة:

ـ وبعد! أية ضمانة تعطينها لي؟ أية ضمانة؟ أي إله يؤكد لي

أن المنزلة التي تعرضينها علي في هذه اللحظة ستبقى لي بعد يومين؟

فقالت له وهي تأخذ يديه ملتفتة نحوه:

ـ حبي الكبير وتعاستي التي لا حد لها إذا لم تعد تحبني.

وكانت الحركة العنيفة التي قامت بها حسرت قليلاً عن ثوبها، فرأى جوليان كتفيها الساحرين. وذكره شعرها الملقى بإهمال قليل ذكريات لذيذة.

كـاد يستسلم. قال لنفسـه: كلمة أخـرى وأعود إلى تلك السلسلة الطويلة من الأيام التي أمضيتها في اليأس. كـانت السيدة ده رينال تجد أسباباً لتقوم بما يمليه عليها قلبها. أما هذه الفتاة النبيلة فإنها لا تترك قلبها ينفعل إلا عندما تجد الأسباب المناسبة لإثارة إنفعاله.

ووجد هذه الحقيقة في غمضة عين، وفي غمضة عين عادت إليه شجاعته.

سحب يديه، وكانت ماتيلد تشد عليهما، وابتعد عنها قليلاً باحترام ظاهر. لم يكن من الممكن أن يكون أكثر شجـاعة. وانهمك بعدئذ في جمع رسائل السيدة ده فرفاك التي كانت مبعثرة على الديوان، ثم قال لها بأدب فائق كان ولا شك قاسياً في تلك اللحظة:

ـ ستتفضل الآنسة ده لامول بالسماح لي للتفكير في كل هذا.
وابتعد بسرعة وخرج من المكتبة. وسمعته ماتيلد يغلق كل الأبواب.

وقالت ماتيلد: وحش، إنه لم يضطرب...

ولكن ماذا أقول؟ وحش! عاقل حذر طيب، أنا التي ارتكبت أخطاء لا يمكن تصورها.

استمر إحساسها هذا. كانت قريبة من السعادة طوال النهار لأنها كانت كلها للحب، كان من يراها لا يستطيع التصديق أنها أحسّت في حياتها بالغرور، وأيّ غرور!

وارتجفت من الخوف عندما أعلن الخادم في المساء، مجيء السيدة ده فرفاك إلى الصالون. خيل إليها أن صوته نذير الشؤم.

ولم تستطيع تحمل رؤية الماريشالة فابتعدت بسرعة. وجوليان الذي أحس ببعض الكبر نتيجة لانتصاره الصعب، تغيب عن الغداء في قصر ده لامول خوفاً من أن تفضحه نظراته.

كان حبه وتعاسته، يزدادان بسرعة كلما ابتعد عن زمن المعركة. ووصل الأمر به إلى لوم نفسه على تصرفاته. كان يقول: كيف استطعت مقاومتها. لو لم تعد تحبني! لحظة واحدة

قد تغير هذه النفس المتعالية، ويجب أن أقر بأنني عاملتها بطريقة بشعة.

وفي المساء، أحس من الضروري أن يظهر في الأوبرا داخل مقصورة السيدة ده فرفاك. فهي التي دعته بنفسها. ولن يفوت ماتيلد أن تعرف هذا وتلاحظ غيابه غير المهذب. ورغم بداهة هذا التفكير، لم يتجرأ، في بداية السهرة على الاندماج في المجتمع. لو تكلم لفقد نصف سعادته.

دقّت الساعة العاشرة، وكان لا بد له من الظهور.

ولحسن الحظ، وجد مقصورة الماريشالة مكتظة بالنساء، فبقي عند الباب، تخيفه القبعات. وجنّبه هذا الوضع الاحراج، وجعلته الألحان الالهية التي أنشدتها كارولين في «ماتريمونيو سيغريتو» يبكي بمرارة، وكانت الدموع تشكل تناقضاً صارخاً مع وجهه الصارم حتى أحست هذه المرأة بالانفعال. وما تبقى عندها من قلب المرأة جعلها تتكلم. كانت تريد في هذه اللحظة التلذذ برنة صوتها، فقالت له:

ـ هل رأيت السيدة ده لامول وابنتها؟، إنهما في الطابق الثالث. وفي هذه اللحظة، مال جوليان بجسمه وهو يتكىء على مقدمة المقصورة بشكل غير مهذب، ورأى ماتيلد. كانت عيناها تلمعان بالدموع.

وفكر جوليان: ليس من عادتها الحضور في مثل هذا اليوم. لماذا التسرع؟

اقنعت ماتيلد أمها بالمجيء إلى الأوبرا، رغم عدم مناسبة مقصورة الطابق الثالث لمركزهن، وتبرعت إحدى المترددات على القصر فتخلت عنه لهن. كانت ماتيلد تريد أن ترى إذا كان جوليان سيمضي السهرة مع الماريشالة.

٣١
يجب أن أخيفها

ها هي إذن معجزة حضارتكم! جعلتم الحب قضية اعتيادية.

برناف

ركض جوليان إلى مقصورة السيدة ده لامول. والتقت عيناه أول الأمر بعيني ماتيلد الدامعتين. كانت تبكي دون أن يمنعها مانع. ولم يكن في المقصورة إلا بعض الرجال من معارفها، ووضعت ماتيلد يدها فوق يد جوليان، كأنها نسيت خشيتها من أمها. ولم تقل له سوى كلمة واحدة، وهي تكاد تشرق بدمعها:

ـ ضمانات!

وقال جوليان وهو يحس بانفعال شديد:

ـ فلأبق ساكتاً على الأقل.

ثم أخفى عينيه بيديه متذرعاً بضوء الثريات التي تغشى النظر في الطابق الثالث. لو تكلمت، لا يمكن أن تشك في انفعالي الزائد، وسيخونني لساني، فأفقد كل شيء هذه المرة أيضاً.

كان هذا الصراع قاسياً واستمرّ حتى صباح اليوم التالي. كان يخشى رؤية ماتيلد انتابها الغرور ثانية. وأخذ على نفسه عهداً ألا يكلمها وهو يحس بنشوة الهيام والحب.

وهذا أجمل طباع جوليان، يستطيع أن يفرض على نفسه هذه المجهودات ليصل ولا شك إلى غاياته البعيدة.

وألحت الآنسة ده لامول لارجاع جوليان إلى القصر، وكانت السماء تمطر بقوة لحسن الحظ. ولكن المركيزة أجلسته تجاهها وكانت تتحدث إليه باستمرار، ومنعته من توجيه كلمة إلى ابنتها. وقد يظن القارىء أن المركيزة كانت تعتني بجوليان وسعادته، ولما كان لم يعد يخشى فقدان كل شيء نتيجة لانفعاله الزائد، استسلم له بجنون.

ترى هل أجرؤ فأقول أن جوليان بعد أن دخل إلى غرفته، ارتمى راكعاً وأغرق بالقبلات رسائل الحب التي أخذها من الأمير كوراسوف؟

وصرخ في غمرة انفعاله:

ـ أيها الرجل الكبير! أنا مدين لك بكل شيء.

عادت إليه رباطة جأشه شيئاً فشيئاً؛ فشبّه نفسه بجنرال ربح نصف معركة كبيرة. قال لنفسه: النجاح حتى الآن أكيد كبير، ولكن ماذا يحدث غداً؟ لحظة واحدة قد تفقدني كل شيء.

وفتح بحركة مترنحة مذكرات القديسة هيلانة التي أملاهـا نابوليون، وحاول القراءة ساعتين كاملتين. ولكنه كان يقرأ بعينيه فقط. سيان. المهم أنه كان يحاول. وخلال هذه المطالعة القريبة كان عقله وقلبه يحللان موقفه. هذا القلب مختلف عن قلب السيدة ده رينال، ولكنه لا يذهب بها إلى أبعد من الأولى.

يجب أن أخيفها. قال هذا فجأة وهو يرمي الكتاب بعيداً. العدو لن يطيعني إلا بمقدار ما أخيفه، وعندئذ لن يتجرأ على احتقاري.

وتمشى في غرفته الصغيرة نشوان من الفرح. هذه السعادة كانت ناجمة عن الكبرياء منها عن الحب.

كـان يردد بفخـر: يجب أن أخيفها، وكـان عـلى حق في إحساسه بالفخر. فالسيدة ده رينـال كانت تشـك، في أروع لحظات سعادتها، بحبه لها حباً يساوي حبها له. أما الآن فإنني

أصارع شيطاناً، ويجب أن أكون شيطاناً.

كان يعرف أن ماتيلد ستكون في المكتبة، اليوم التالي، منذ الثامنة صباحاً، فلم يظهر إلا في التاسعة، مشبوب العاطفة، ولكن عقله كان يسيطر على قلبه. لم يكف لحظة عن أن يردد لنفسه: يجب أن أبقي لديها شكاً كبيراً حول حبي لها. وكان وضعه الممتاز، والمدائح التي سمعها من الجميع مما يزيد من اطمئنانه وثقته.

وجدها شاحبة هادئة، جالسة على الديوان، ولكنها عاجزة، كما يظهر، عن القيام بأية حركة. مدت له يدها:

ـ يا صديقي، إنني أهنتك، أتكون غاضباً مني؟

ولم يكن جوليان يتوقع سماع هذه اللهجة البسيطة، فأوشك على التصريح. وأضافت ماتيلد بعد صمت أملتْ أن يقطعه صوت جوليان:

ـ هل تريد ضمانات يا صديقي، معك كل الحق. اخطفني ولنرحل إلى لندن. سيلبسني العار إلى الأبد.

وكان لديها الشجاعة على سحب يدها من يد جوليان لتغطي بها عينيها. عادت إليها كل عواطف الخفر النسائية. ثم قالت أخيراً وهي تتنهد:

ـ وبعد! عاري إحدى الضمانات.

قال جوليان لنفسه: أحسست بـالسعادة أمس لأنني ملكت الشجاعة فقسوت عليها. وبعد برهة قصيرة، تمالك نفسه فقال بلهجة باردة:

ـ وما نكاد نصبح على طريق لندن، بعد أن يجللك العار، كما تحبين أن تقولي، من يقول لي أنك ستحبينني؟ وإن مكاني حدّك على مقعد العربة لن يكون غير مناسب بنظرك؟ لست وحشاً. حين أتذكر أنني فقدتك وسأفقدك فلن يكون في الأمر إلا تعاسة إضافية. ليس مركزك الذي يشكل الحاجز بيننا، بل طباعك. هل تستطيعين التأكيد لي أنك ستحبينني ثمانية أيام؟

وتابع جوليان قائلاً لنفسه: فلتحبني ثمانية أيام، ثمانية أيام فقط، وبعدها أموت من السعادة. ماذا يهم المستقبل، ماذا تهم الحياة؟ هذه السعادة الالهية قد تبدأ الآن إذا أردت، فهي لا تنتظر إلا إشارتي!

وردت عليه ماتيلد وهي تأخذ يده:

ـ إنني إذن غير جديرة بك.

وقبّلها جوليان، ولكن اليد الحديدية التي تذكره بالـواجب سرعان ما عصرت قلبه.

لو رأت مقدار عبادتي لها لخسرتها. وقبل أن يترك ذراعيها، عادت إليه كل كرامته وكبريائه.

استطاع في ذلك اليوم والأيام التي تلته أن يخفي سعادته عنها. ومرت لحظات يرفض فيها لذة ضمها بين ذراعيها. وكانت عواطفه، في لحظات أخرى، تتغلب على كل حذره وتعقله.

كان من عادته أن يقضي ساعات من أيامه في مكان مورق معدّ لاخفاء السلم في الحديقة، يتطلع إلى نافذة ماتيلد ويندب تقلباتها. وحدّ هذا المكان كانت شجرة سنديان كبيرة تمنع عنه نظرات المتطفلين.

وعندما مر برفقة ماتيلد في هذا المكان الذي يذكره بتعاسته، جعله الفرق الشاسع بين يأسه السابق وسعادته الراهنة، يخرج عن طوره. انفجرت الدموع من مآقيه، فقال لصديقته وهو يرفع يدها إلى شفتيه:

ـ هنا كنت أعيش وأنا أفكر فيك. هنا كنت أتطلع ساعات كاملة إلى النافذة انتظر اللحظة التي أرى يدك تفتحها.

وكان ضعفه كاملاً. فوصف لها بلهجة لم يتكلفها يأسه الماضي الكبير، وتلفّظ بتعابير قصيرة دلت على سعادته الحالية التي ذهبت بألمه القاسي...

وعاد جوليان لنفسه فقال:

- يا إلهي! ماذا أفعل؟ إنني أفقدها بهذه الطريقة.

وفي غمرة لهفته ظن أنه يرى حباً أقل في عيون ماتيلد. وكان هذا وهماً، ولكنّ وجه جوليان تغير بسرعة واكتسى بشحوب مميت، فانطفأت عيناه لحظة، وبان في وجهه تعبير عن التعالي الذي لا يخلو من الخبث، حل محل الحب الصحيح المتفاني. فقالت له ماتيلد بحنان وحزن:

- ماذا بك يا صديقي؟

فقال جوليان بعبوس:

- أكذب، أكذب عليك، وأنا ألوم نفسي على ذلك. ومع هذا، الله يعلم أنني أحترمك كفاية حتى لا أكذب عليك. تحبينني، وأنت مخلصة لي، وأنا لست بحاجة إلى جمل منمقة لأثير إعجابك.

- يا إلهي. هذه العبارات لا تزال تقولها منذ دقيقتين كأحسن ما يمكن أن يقال؟

- ألوم نفسي على ذلك كثيراً يا صديقتي. ألفّتها في السابق لامرأة كانت تحبّني وتثير ضجري... هذا عيب شخصيتي. أشي بنفسي لك فاعذريني.

وسالت دموع ماتيلد على خديها.

وتابع جوليان:

ـ عندما أكون في حلم، يعود إلى ذاكرتي، التي ألعنها في هذه اللحظة، سيل من الكلمات فاستغلها وأجود فيها.

وقالت ماتيلد بسذاجة ساحرة:

ـ وقعتُ إذن في بعض الأعمال التي لم تعجبك والتي أساءت إلي؟

ـ ذات يوم، لا أزال أذكره، كنت أمر قرب هـذا المكان المورق، قطفت زهرة، أخذها السيد ده لوز، وتركتها له. كنت على بعد خطوتين منكما.

وردّت ماتيلد بكبرياء كان في طباعها:

ـ السيد ده لوز؟ محال. ليس من عادتي أن أقوم بمثل هذه التصرفات.

ورد جوليان بسرعة وحيوية:

ـ متأكد من هذا.

وقالت ماتيلد وهي تسبل عينيها بحزن:

ـ وبعدا هذا صحيح.

وكانت تدرك تماماً أنها لم تسمح لده لوز منذ أشهر عديدة بمثل هذه الحركات.

وتطلع جوليان إليها بحنان لا يوصف وقال لنفسه: لا، إن حبها لي لم ينقص.

وانتقدته في المساء، وهي تضحك، على غرامه بالسيدة ده فرفاك:

ـ بورجوازي يحب حديثة نعمة! هذه القلوب هي الوحيدة التي لا يستطيع جولياني أن يجعلها مجنونة بهواه؛ ـ جعلت منك فعلاً رجلاً أنيقاً. قالت له هذا وهي تداعب خصلات شعره.

وفي الوقت الذي كان جوليان يظن نفسه محتقراً من ماتيلد، أصبح واحداً من أكثر الرجال في باريس أناقة. ولكنه كان يملك حسنة إضافية عن بقية الرجال المتأنقين، هي أنه بعد أن ينتهي من زينته، لا يفكر فيها على الاطلاق.

شيء واحد كان يضايق ماتيلد، أن جوليان كان لا يزال ينسخ الرسائل الروسية ويرسلها إلى الماريشالة.

٣٢
النمر

يا للأسف، لماذا هذه الأشياء بالذات، لا سواها؟

بومارشيه

حدثنا أحد المسافرين الانكليز عن الألفة التي كان يعيش فيها مع نمر؛ رباه وداعبه، ولكنه كان دائماً يحتفظ بغدارته في متناول يده.

وجوليان لم يكن يستسلم لسعادته الغامرة إلا في اللحظات التي لم تكن ماتيلد تستطيع قراءة ذلك في عينيه. فكان يثابر بدقة على اسماعها من وقت لآخر كلمة قاسية.

وعندما رقة ماتيلد المدهشة وازدياد انصرافها له يوشكان على انتزاع سيطرته على عواطفه، كان يملك الشجاعة فيتركها فجأة.

وأحبت ماتيلد للمرة الأولى في حياتها.

والحياة التي كانت بالنسبة لها، تسير بخطى السلحفاة، أصبحت تطير بسرعة. ولما كان لا بدّ للكبرياء من أن تظهر بشكل أو بآخر، أرادت أن تتعرض بثبات لكل المخاطر التي يجعلها حبّ الذات تمر فيها. وكان جوليان هو الحذر، ولم تكن تلين أمامه عندما يتعلق الأمر بالخطر، ولكنها كانت في ذلك

مطيعة متواضعة معه، فلا تظهر إلا مزيداً من التعالي نحو كل من في البيت من أهلها والخدم.

عند المساء في الصالون، كانت تنادي جوليان، بين ستين شخصاً، لتخصه بحديثها الملي.

وجلس تانبو الصغير يومها حدّهما، فرجته أن يذهب إلى المكتبة ليحضر لها مجلد «سمولّات» الذي يتحدث عن ثورة ١٦٨٨، ولما تردد أضافت بلهجة فخورة مهينة فرّجت كرب جوليان:

ـ ولا تتعجل العودة.

وقال لها جوليان:

ـ هل لاحظت نظرة هذا الوحش الصغير؟

ـ إن لعمه خدمة اثني عشر عاماً في هذا الصالون، ولولا هذا لطردته في الحال.

وكان تصرفها نحو السادة ده كروازنوا وده لوز الخ... مهذباً من ناحية الشكل، ولكنه لم يكن أقل تحدياً من تصرفها نحو تانبو. ولامت ماتيلد نفسها على الاعترافات التي أعلنتها لجوليان منذ زمن، ولم تجرؤ على القول أنها بالغت في مظاهر الاهتمام البريئة التي كانت تعامل بها هؤلاء السادة.

ورغم كل احساساتها نحوه، كان كبرياء المرأة يمنعها أن تصرّح لجوليان: عندما لمستُ يد ده كروازنوا يدي الموضوعة على طاولة من الرخام، وجدت تلك اللذة لأنني كنت أتحدث إليك.

أما اليوم، فإنها لا تكاد تستمع برهة إلى واحد من هؤلاء السادة، حتى توجه سؤالاً إلى جوليان، وكانت هذه ذريعة لابقائه حدّها.

وعرفت ماتيلد أنها حامل، فأخبرت جوليان عن ذلك بفرح:

ـ هل تشك فيّ بعد اليوم؟ أليست هذه ضمانة كافية؟ صرت امرأتكِ إلى الأبد.

أصيب جوليان بدهشة عميقة لهذا الخبر. وأوشك على نسيان المبدأ الذي يسلكه. كيف أكون بارداً متعجرفاً أمام هذه الفتاة المسكينة التي تضحي بنفسها من أجلي؟ ولم يعد يستطيع أن يوجه لها بعضاً من تلك الكلمات القاسية، التي أقنعته التجربة بضرورتها لاستمرار الحب، حتى في اللحظات التي كان يظهر عليها الألم والحرمان.

قالت له يوماً:

ـ سأكتب عن ذلك لوالدي؛ إنه أكثر من أب بالنسبة لي؛ إنه صديق، وأحس بعدم جدارتي بك لو بقيت على هذه الحال أخدعه، ولو للحظة.

وقال جوليان مرتعباً:

ـ يا إلهي! ماذا تريدين أن تفعلي؟

فردت وعيونها تلتمع بالفرح:

ـ واجبي.

وكانت أكثر نبلاً من حبيبها.

ـ هذا حقه، ويجب أن نحترمه. سأعطيك ذراعي ونخرج من الباب الرئيسي في وضح النهار.

دهش جوليان وتوسل إليها أن تؤجل الموضوع أسبوعاً. واجابته:

ـ لن أستطيع، الشرف يتكلم؛ رأيت واجبي، وسأقوم بما علدي، في هذه اللحظة.

فقال جوليان أخيراً:

ـ كلّا! إنني آمرك بتأجيل الموضوع. شرفك سليم، فأنا زوجك. إن وضعنا، نحن الاثنين، سيتغير من جراء هذا الاجراء الحاسم. أنا أيضاً أصرّ على حقي. اليوم الثلاثاء، والثلاثاء المقبل هو يوم الدوق ده ريتز، وسيتسلّم المركيز ده لامول بعد عودته في المساء الرسالة المحتومة... إنه لا يفكر إلا

في جعلك دوقة، أنا متأكد من ذلك، ففكّري في تعاسته.

ـ تريد أن تقول: فكري في انتقامه.

ـ أحس ببعض الشفقة نحو من أحسن إلي، وأخشى أن أسبب له بعض الضرر، ولكنني لا أخاف ولن أخاف من أي شخص.

وأطاعت ماتيلد. كانت هذه المرة الأولى حدثها جوليان بلهجة آمرة، منذ أعلمته بالنبأ. لم يحبها كما الآن. تلقفت جوانحه الحنو بسعادة لذيذة حالة ماتيلد الجديدة ليمتنع عن توجيه الكلمات القاسية إليها. كان الاعتراف للسيد ده لامول يثير اضطرابه العميق. هل سيفترق عن ماتيلد؟ وبأي ألم ستتطلع إليه وهو يرحل؟ هل ستفكر به بعد شهر من رحيله؟

كان يحسّ برعب مماثل من اللوم المحق الذي قد يوجهه إليه المركيز.

في المساء اعترف لماتيلد بموضوع حزنه هذا، ثم اعترف لها، بمخاوفه منها. وتغيّر لون ماتيلد وقالت له:

ـ صحيح إن غيابي عنك ستة أشهر سيكون تعاسة لك؟

ـ تعاسة هائلة، التعاسة الوحيدة التي أتطلع إليها برعب.

أحست ماتيلد بالشجاعة، وقام جوليان بإقناعها أنها، من بين

الاثنتين، تنال الحب الأقوى.

وجاء الثلاثاء المحتوم. وعند منتصف الليل، وجد المركيز رسالة معنونة بشكل يحتم عليه أن يفضها بنفسه، عندما يكون وحيداً.

«والدي:

انقطعت كل الروابط الاجتماعية التي تربطنا، ولم يعد باقياً إلا الروابط الطبيعية. ستكون أنت، بعد زوجي، أعزّ مخلوق على قلبي. إن عيني مليئتان بالدموع وأنا أفكر في الألم الذي أسببه لك؛ ولكن حتى لا يكون عاري علنياً، ولكي أترك لك الوقت للتفكير والعمل، لم أؤجل طويلاً الاعتراف الذي يجب أن أؤديه لك. فإذا أرادت صداقتك لي، وأنا أعلم أنها كبيرة، أن تخصص لي مرتباً صغيراً، فسأذهب حيث تريد، إلى سويسرا مثلاً مع زوجي. إن اسمه مجهول ولن يعرف أحدٌ أن هذه هي ابنتك عندما تنادى السيدة سوريل، كنة صاحب المنشرة في فريير. وهذا هو الأسم الذي وجدت ألماً كبيراً في كتابته. أخشى على جوليان من غضبك، المحقّ في ظاهره. لن أكون دوقة يا والدي، ولكنني كنت أعرف هذا عندما أحببته، لأنني كنت أنا البادئة. أنا أغويته. ورثت عنك روحاً لا تهتم بالمظاهر العادية فقط. حاولت لأرضيك أن أعجب بالسيد ده كروازنوا. ولكن لماذا وضعت الشخص العظيم أمامي؟ قلت لي بنفسك عندما

عدت من هير: هذا الشاب سوريل هو الوحيد الذي يعجبني. والصبي المسكين معرّض مثلي للحكم الذي ستصدره. لا أستطيع أن أمنع إحساسك بالفجيعة كأب، ولكن أطلب منك أن تحبني دائماً كصديق.

«كان جوليان يحترمني. وإذا تحدث إلي بعض الأحيان، فبسبب اعترافه العميق بجميلك عليه: لأن طبعه الرفيع كان يحمله على أن لا يرد إلا رسمياً على من هم أعلى منه. أن لديه شعوراً حياً منذ ولادته بالفروقات الاجتماعية. أعترف لأخلص أصدقائي، وهذا الاعتراف لن يتكرّر أمام أحد آخر، أعترف وأنا أحس بالخجل أنني كنت أنا البادئة في ضمه بين ذراعي ذات يوم في الحديقة.

ويعد أربع وعشرين ساعة، لماذا تحس بالغضب منه؟ غلطتي لا تصلح. فإذا طلبت، سأنقل إليك تأكيدات احترامه العميق ويأسه من إثارة إعجابك. لن تراه مطلقاً، ولكنني سألحق به أينما أراد. هذا حقه وهذا واجبي. إنه والد طفلي. فإذا سمحت طيبتك لنا ومنحتنا ستة آلاف فرنك لنعيش، أكون شاكرة لك، وإلا فإن جوليان يعتزم السكنى في بزانسون حيث سيبدأ مهنته كمعلم للاتينية والأدب. وأنا واثقة أنه مهما كانت النقطة التي ينطلق منها بسيطة، فإنه سيرتفع. لا أخشى، وأنا معه، الظلام. وإذا قامت ثورة، فأنا واثقة أنه سيحتل فيها دوراً

بارزاً. هل تستطيع أن تقول الكلام نفسه على أيّ شخص طلب يدي؟ إنهم يملكون أراضي واسعة! وأنا لا أستطيع أن أجد في هذا شيئاً يثير الاعجاب. إن جوليان سيصل إلى مركز لائق، حتى في العهد الحاضر، لو كان لديه مليون فرنك وحماية والدي...»

كانت ماتيلد، وهي تعرف طباع والدها، كتبت ثماني صفحات.

وبينما كان المركيز ده لامول يتابع القراءة، كان جوليان يقول لنفسه:

ـ ماذا أفعل؟ أين واجبي، ومصلحتي؟ إن ما أنا مدين به له كثير، كنت بدونه، مجرد شخص حقير ذكي، بل غير ذكي إلى درجة تمنعني أن أكون محتقراً مكروهاً مضطهداً من الجميع. جعل مني رجلاً اجتماعياً. أصبحت تصرفاتي البشعة أقل عدداً وأكثر نبلاً، وهذا ما يساوي أكثر من مليون فرنك. إنني مدين له بهذا الصليب وبمظهر السلك الدبلوماسي الذي يخلصني من الورطات العديدة.

ترى ما كان يكتب لو أراد أن يعلّق على سلوكي؟

وقوطع جوليان فجأة بخادم المركيز ده لامول العجوز:

ـ المركيز يطلبك حالاً، سواء كنت في لباسك أو لا.

وأضاف الخادم بصوت منخفض وهو يمشي مع جوليان:

ـ إنه غاضب كثيراً. خذ حذرك.

٣٣
جحيم الضعف

حين صقل العامل هذه الماسة، أخطأ فنزع عنها بعضاً من بريقها المتألق. ماذا أقول عن القرون الوسطى؟ كان الفرنسي، تحت حكم ريشليو، يملك القدرة على الارادة.

ميرابو

وصل جوليان فوجد المركيز في هياج فظيع: وقد يكون هذا، استعمل للمرة الأولى في حياته كلمات نابية: أغرق جوليان بكل الشتائم والاهانات. دهش بطلنا وفرغ صبره، ولكن اعترافه بالجميل لم يتزعزع. كم من المشاريع مرت في خاطر الشاب وانهارت في لحظة! من حقه أن أرد عليه، سكوتي سيزيد من غضبه. وجاءه الجواب من ترتوف:

ـ لستُ ملاكاً... قمت بخدمتك على أحسن ما يرام،

ودفعت لي أنت بسخاء... لم يكن أحد يفهمني في بيتك إلا أنت وتلك الفتاة الحبيبة...

وصرخ المركيز:

- أيها الوحش! حبيبة! حبيبة! كان عليك أن تهرب في اليوم الذي وجدتها فيه حبيبة.

- حاولت. طلبت منك حينذاك أن أرحل إلى لانغدوك. وارتمى المركيز على إحدى الكنبات، متعباً من التمشي بغضب، وسمعه جوليان يقول بصوت منخفض:

- هذا الرجل ليس خبيثاً.

وصرخ جوليان وهو يركع على ركبتيه أمامه:

- لا لست خبيثاً، خصوصاً نحوك.

ثم خجل من ركوعه فنهض بسرعة.

وكان المركيز فعلاً في حالة ضياع. وعندما رأى حركة جوليان هذه عاد فأمطره بوابل من شتائمه القاسية التي تليق بسائق عربة. وقد تكون هذه الاهانات الطريفة نوعاً من السلوان.

- ماذا! ابنتي ستدعى السيدة سوريل؟ ماذا! لن تكون ابنتي دوقة؟

وكلما هاتان الفكرتان تلوحان في خياله، كان يشعر بالعذاب فتصبح حركاته غير إرادية. وخاف جوليان أن يُضَرب.

وكان المركيز، في الفترات الهادئة، بعد أن تعوّد تعاسته، يوجه إليه لوماً معقولاً:

ـ يجب أن تهرب... من واجبك أن تهرب... إنك آخر الرجال...

واقترب جوليان من الطاولة وكتب:

«من وقت بعيد أصبحت الحياة بالنسبة لي لا تحتمل، وأنا أضع الآن لها حداً. أرجو السيد المركيز أن يتقبل تعبيري عن اعترافي العميق بجميله، واعتذاري للاحراج الذي قد يسببه موتي في قصره».

ـ فليتفضل المركيز بالاحتفاظ بهذه الورقة... أقتلني، أو ليقتلني خادمك. إنها الآن الواحدة صباحاً، سأذهب للتنزه في الحديقة قرب حائط السور.

وصرخ المركيز وهو يراه ذاهباً:

ـ إذهب إلى الشياطين.

وفكّر جوليان: فهمت. لن ينزعج لو قتلني خادمه... فليقتلني إذن، إنها خدمة أؤديها له... ولكن، أنا أحب الحياة،

وعلي واجب لطفلي.

شغلته هذه الفكرة التي ظهرت أمامه لأول مرةٍ بوضوح بعد الدقائق الأولى التي تنزه فيها معرّضاً نفسه للخطر، وجعلته مخلوقاً حذراً. ما يلزمني هو نصائح تنير السبيل أمامي في علاقاتي مع هذا الرجل الغضوب... ليس محقاً في شيء، وهو قادر على كل شيء. إن فوكيه بعيد، ولن يفهم على كل حال، عواطف رجل مثل المركيز.

والكونت ألتميرا... هل أثق أنه سيحتفظ بهذا السرّ؟ يجب أن لا يكون سؤالي للتضحية عملاً يزيد في تعقيد وضعي. للأسف! لم يبق أمامي ألا الأب بيرار الصارم... ضيّقت الجانسينية أفكاره... إن اليسوعي يعرف العالم أكثر... أما السيد بيرار، فإنه حريّ بضربي لمجرد الاعتراف بما قمت به.

وجاءت عبقرية ترتوف لتساعد جوليان: سأذهب للاعتراف عنده. كان هذا هو القرار الذي استقر عليه وهو في الحديقة يتنزه تحت أنظار المركيز ساعتين كاملتين. ولم يعد يفكر في أنه قد يتلقى طلقتين، ثم غلب عليه النعاس.

في الصباح الباكر، كان جوليان على بعد فراسخ من باريس، يقرع باب الجانسيني الصارم. ووجد أن هذا الأخير لم يدهش كثيراً من اعترافه.

وقال الأب بلهجة يظهر فيها الاهتمام أكثر من اللوم:

ـ قد ألام أنا أيضاً على عملك. أظنني عرفت بأمر هذا الحب. وصداقتي لك، أيها الشقي الصغير، منعتني من تحذير الأب...

وقال جوليان بسرعة:

ـ ترى ماذا سيصنع؟

(كان جوليان يحب الأب بيرار في هذه اللحظة، لأنه كان يتوقع منه لوماً شديداً). وتابع جوليان:

ـ أجد نفسي الآن أمام حلول ثلاثة: الأول أن يوردني المركيز ده لامول مورد الهلاك، فيروي قصة الانتحار التي كتبت عنها في رسالتي التي بقيت معه. والثاني أن يدفع الكونت نوربير إلى مبارزة هو في أشد الشوق لها...

وقال الأب بغضب وهو ينهض:

وهل تقبل المبارزة، أنت؟

ـ لماذا لا تتركني أتابع؟ لن أطلق الرصاص مطلقاً على ابن من أحسن إلي. والثالث أن يبعدني. فإذا قال لي إذهب إلى أدنبره أو نيويورك، سأطيع. وعندها يمكن إخفاء حالة الآنسة ده لامول، ولكنني لن أرضى مطلقاً أن يُقتَل ابني.

ـ ستكون هذه هي الفكرة الأولى التي تخطر على بال هذا الرجل الفاسد، ولا شك. . .

بقيت ماتيلد في باريس. وانتابها اليأس. رأت والدها في السابعة صباحاً. أطلعها على رسالة جوليان. كانت ترتجف خوفاً من أن يكون وضع حداً لحياته بسبب نبل شكيمته: ودون إذني؟ قالت بألم يعبر عن الغضب.

وقالت لوالدها:

ـ إذا مات، سأقتل نفسي. وستكون أنت سبب موته. وقد تسر لذلك. . . ولكنني أقسم أمام روحه، أنني سألبس الحداد علناً وأكون السيدة أرملة سوريل. وسأرسل بطاقاتي على هذا الشكل لأعلن النبأ، ولك أن تعتمد علي في هذا. لن تجدني منحطة أو جبانة.

أوصلها حبها إلى الجنون. وفي الوقت نفسه أخذ المركيز يهدأ. بدا يرى الأمور ببعض العقل. عند الافطار، لم تظهر ماتيلد فتخلّص من عبء كان يثقل عليه، وأحس بالارتياح خصوصاً لأنها لم تقل شيئاً لوالدتها.

نزل جوليان عن جواده فاستدعته ماتيلد وارتمت بين ذراعيه على مرأى من خادمتها. لم يشعر جوليان بتقدير هذه الحركة. كان خارجاً من لقائه مع الأب بيرار، ويحسّ بالحذر واليقظة.

انطفأ خياله لاستغراقه في التحسب لجميع الاحتمالات. وأخبرته ماتيلد، والدموع في عينيها أنها رأت رسالة انتحاره.

ـ قد يتراجع والدي عن موقفه، فأرجو، إكراماً لي، أن تقوم بالذهاب إلى فيلّكييه. عد إلى امتطاء الحصان واخرج قبل أن ينهض الجمع عن المائدة.

ولما لم يتخل جوليان عن هيئته المندهشة الباردة، ازدادت دموعها، فصرخت بوله وهي تضمه بين ذراعيها بشدة.

ـ أتركني أتدبّر قضيتنا. تعلم جيداً أنني لا أنفصل عنك بإرادتي؛ أكتب لي على عنوان خادمتي، وليكن الخط مختلفاً، أما أنا فسأكتب لك مجلدات بكاملها. الوداع! أهرب.

أحسّ جوليان بوخزٍ من هذه الكلمة الأخيرة. لكنه مع ذلك أطاع. وفكر: المحتم أن يتصرف هؤلاء الناس بشكل جارح حتى في أحسن حالاتهم.

وقاومت ماتيلد بحزم كل المشاريع الحذرة التي تقدم بها والدها. فلم ترد أن تبحث معه إلا على الأسس التالية: أن تصبح السيدة سوريل وأن تعيش فقيرة مع زوجها في سويسرا، أو عند والدها في باريس. ورفضت فكرة اقتراح ولادة سرية ـ سأكون عندئذ أنا البادئة في الخداع والعار. بعد شهرين، سأرحل مع زوجي، وعندها يمكن القول أن ابني وُلد في ظروف مناسبة.

وقابل المركيز ذلك بغضب في بادىء الأمر. ثم انتهى الأمر به أمام إصرارها إلى الشك في الأمر.

وقال لابنته في لحظة حنان:

ـ خذي! ها وثيقة تؤمن لك مدخول عشرة آلاف ليرة، أرسليها إلى جوليانك وليقم بما يجب بسرعة حتى لا أتمكن من سحبها.

أطاع جوليان، وهو يعرف حبّ ماتيلد للأوامر، وسار أربعين فرسخاً عبثاً. كان في فيلكييه يسوّي حسابات المزارعين، وكانت هذه مناسبة للعودة. فذهب يطلب ملجأ عند الأب بيرار الذي أصبح في غيابه أقوى حليف لماتيلد. كان يقول، كلما سأله المركيز، أن أي حل غير الزواج جريمة في نظر الله.

وأضاف الأب بيرار:

ـ لحسن الحظ، تتفق حكمة البشر في هذه الناحية مع الدين. فهل نثق، وطباع ماتيلد كما تعرفها، إنها ستحتفظ بالسر إلى الأبد؟ إذا لم نهتم بتدبير أمر زواج علني صريح، سنترك المجال أمام الناس للتشدق بالكثير حول هذه العلاقة الغريبة. يجب أن نقول كل شيء مرة واحدة، دون أن يكون في الأمر أية مظاهر او ُ ـ ار.

وقال المرنيز مفكراً:

ـ صحيح. في نظامنا الحالي، يصبح الحديث عن الزواج بعد ثلاثة أيـام مضغة الافـواه. يجب أن نفيد من بعض التـدابير المضادة للجانسينية تقوم بها الحكومة للمرور دون أن يلاحظ أحد أمرنا.

وكانت آراء اثنين أو ثلاثة من أصدقاء المركيز يوافقون الأب بيرار على رأيه. ولكن العقبة الكبرى، في رأيهم، كانت طباع ماتيلد الحازمة.

كانت ذاكرته وخيالـه مليئان بـالمداورات والـزيف من كلّ الأنواع، وكانت لا تزال ممكنة في شبابه. ضرورة الاستسلام والخوف من القانون كانت لرجل من طبقته شيئاً سخيفاً. وها هو الآن يدفع غالياً ثمن أحلامه البراقة كان يسمح لنفسه بها منذ عشرة أعوام حول مستقبل هذه الابنة العزيزة.

كان يقول: من كان يتوقع هذا؟ فتاة ذات طباع بهذا السمو، وذكاء بهذا المستوى، أشد فخراً مني بالاسم الذي تحمله! طلب أشهر الفرنسيين يدها مني!

يجب أن أتخلى عن الحذر كله. في هذا العصر نشهد اختلاط كل شيء! إننا نسير نحو هاوية الفوضى.

٣٤
رجل مفكر

قال المحافظ وهو يتنزه ممتطياً جواده: لم لا أكون وزيراً، أو رئيس الوزراء، أو دوقاً؟ سأقوم بالحرب على هذا الشكل... وبهذه الطريقة أرمي المجددين في السجون...

(له غلوب)

ليس ما يمكن أن يحطم سيطرة عشر سنوات من الاحلام البراقة. لم يكن المركيز يرى أنه محق في غضبه، ولكنه لم يكن أيضاً يستطيع الغفران. كان يقول لنفسه في بعض الأحيان: لو يموت جوليان هذا في حادث... كان هذا الرجل الحزين يجد بعض العزاء في متابعة هذه الأفكار السخيفة، تعطل مفعول الاستنتاجات العاقلة التي يأتي بها الأب بيرار. هكذا مضى الشهر الأول دون أن تتقدم المفاوضات خطوة واحدة.

في هذه القضية العائلية، كما في قضايا السياسة، كان المركيز يشعر بالحماس في الأيام الثلاثة الأولى ثم لا تعود تعجبه أية خطة يرسمها، لأنه كان عرضة لعدة أفكار جيدة، تتنازعه. ولكن أياً من هذه الأفكار لم تكن تنال رضاه إلا بمقدار ما تؤيد خطته المفضلة. وعمل خلال ثلاثة أيام بحماس وحيوية في إرجاع الأمور إلى هدوئها، ثم نسيها كلها في اليوم التالي.

وخاب أمل جوليان، في أول الأمر، من تباطؤ المركيز، ولكن الأمر انتهى به، بعد عدة أسابيع، ليعرف أن المركيز ده لامول لم يكن يملك في هذه القضية أية خطة محددة.

كانت السيدة ده لامول تظن، مع الجميع في المنـزل، أن جوليان ذهب إلى الأرياف ليدير الأملاك. وكان هو في دير الأب بيرار، يرى ماتيلد كل يوم تقريباً. أما هي، فكانت تمضي ساعة كل يوم إلى جانب والدها. وقد تمر أسابيع كاملة دون أن يتبادلا أية كلمة تشير إلى القضية التي تحتل كل أفكارهما.

ذات يوم قال المركيز لابنته:

ـ لا أريد أن أعرف عنوان هذا الرجل، أرسلي إليه هـذه الرسالة.

وقرأت ماتيلد:

«إن أراضي لانغـدوك تعطي ٢٠٦٠٠ فـرنك، وأنـا أهب ١٠٦٠٠ إلى ابنتي و ١٠٠٠٠ إلى السيد جوليان سوريل. أهب الأراضي طبعاً لهما. قل للكاتب العدل أن يحضّر وثيقتي هبة منفصلتين وأن يحضرهما لي غداً. وبعدها لن تعـود أية صلة تربطنا، آه! يا سيدي، هل كان علي أن أتوقع كل هذا؟»

المركيز ده لامول

وقالت ماتيلد بمرح:

- أشكرك جداً. سنعيش في قصر ايفيون، بين آجن ومارماند. يقال أن تلك المنطقة تعادل إيطاليا بجمالها.

أدهشت جوليان كثيراً هذه الهبة. لم يعد ذلك الرجل الصارم البارد كما كان. كان مصير ابنه، يحتلّ كل تفكيره مسبقاً. وجعلت منه هذه الثروة المفاجئة الكبيرة، وهو الرجل الفقير، رجلاً طموحاً. رأى أنه أصبح يملك مع امرأته ٣٦٠٠٠ ألف ليرة، من المدخول. وماتيلد، كانت مستسلمة لعواطف العبادة التي تشعر بها نحو زوجها، كما كانت تحب أن تسميه. كان طموحها الكبير الوحيد ينحصر في جعلهم يعترفون بهذا الزواج. وكانت تقضي أيامها في تذكر جرأتها وحذرها في ربط حياتها برجل متفوق.

وكان غيابه المستمر تقريباً، وتشابك الأعمال والوقت القصير الذي يترك لهما للتحدث عن الحب، زاد في تأثير السياسة الحكيمة التي اتبعها جوليان.

انتهى الأمر بماتيلد إلى فراغ صبرها لعدم رؤيتها الرجل الذي أصبحت فعلاً مدلّهة بحبه.

وفي لحظة من لحظات ضيقها كتبت إلى والدها وبدأت رسالتها مثل أوتلّو:

«إختياري لجوليان وتفضيلي له يثبتا. أنه جدير بابنة المركيز ده لامول. هذه اللذات يثيرها الاحترام والكبرياء لا تؤثر فيّ على الاطلاق. مضت أسابيع ستة وأنا أعيش منفصلة عن زوجي. هذا يكفي للتعبير عن احترامي لك. سأترك البيت الأبوي قبل الخميس المقبل. غمرتنا أفضالك فصرنا أغنياء. ولن يعرف سري أي شخص باستثناء المحترم الأب بيرار. سأذهب إليه، وسيزوجنا، وسنكون بعد ساعة من المراسم في طريقنا إلى لانغدوك، ولن نعود للظهور في باريس إلا بأمرك. ولكن الذي يزعجني في هذا الأمر أن يصار إلى تأليف الحكايات عني وعنك. ترى هذه الحكايات التي قد يتناقلها الناس الأغبياء عنا ألا تدفع نوربير الرائع إلى محاولة التبارز مع جوليان؟ في هذه الحالة، وأنا أعرف جوليان، لن يكون باستطاعتي تهدئته. إن روحه ثائرة. أرجوك راكعة يا والدي أن تحضر حفل زواجنا، في كنيسة الأب بيرار، يوم الخميس المقبل. وبهذا تتلّطف الحكايات الملعونة، وتضمن بهذا حياة ابنك الوحيد وحياة زوجي الخ... الخ...».

أحس المركيز بعد هذه الرسالة بحرج شديد: إذن لا بد في النهاية من اتخاذ موقف معين. وفقدت كل العادات تأثيرها وكل الاصدقاء فاعليتهم.

وفي هذه الحالة الغريبة، عادت نزعات الشباب التي طبعتها

الاحداث، فبان أثرها. تعاسة الهجرة في السابق جعلت من المركيز رجلاً خيالياً، وبعد أن تمتع لسنتين كاملتين بثروة هائلة وبكل الألقاب التي أغدقها القصر عليه، جاءت سنة ١٧٩٠ فرمت به في أحضان الهجرة القاسية البشعة. غيرت هذه التجربة الصلبة طباع شاب في الثانية والعشرين، وهو الآن قابع وسط غناه الحالي، أكثر مما كان مسحوراً به. لكنّ خياله الذي حفظه من الارتماء في أحضان اخطبوط المال، رماه فريسة لغرام مجنون أن يرى ابنته تنال لقباً جميلاً.

وأراد المركيز، خلال الأسابيع الستة الفائتة، اغناء جوليان نتيجة لنزعة دفعته إلى ذلك. كان الفقر بالنسبة إليه شيئاً مشيناً، لا يليق بالسيد ده لامول، ومحالاً بالنسبة لزوج ابنته. وفي اليوم التالي، انطلق به خياله إلى مجرى آخر، فخيّل أن جوليان سيسمع هذه اللغة الخرساء يتكرّم بها الكرم والجود فيغيّر اسمه وينفي نفسه إلى أمريكا ويكتب إلى ماتيلد أنه مات من أجلها. واعتقد المركيز أن الرسالة هذه كُتبت فعلاً، فتتبع تأثيرها على ابنته. . .

في اليوم الذي أيقظته رسالة ماتيلد من أحلام شبابه، بعد أن طال تفكيره في قضية قتل جوليان، أو دفعه للاختفاء، كان يحلم في تكوين ثروة براقة لجوليان، وفي أن يطلق عليه اسم إحدى أراضيه، ولم لا يعطيه حقوله؟ حدّثه الدوق ده شولن، والد

المركيزة، عدة مرات عن رغبته في نقل لقبه إلى نوربير، بعد أن قُتل ابنه الوحيد في اسبانيا...

ليس من الممكن انكار موهبة جوليان في الأعمال، وجرأته ولمعانة. ولكنني أجد في أعماق هذه الشخصية شيئاً مخيفاً. إنه التأثير الذي يحدثه لدى الجميع، ومعنى هذا أن فيه شيئاً من الصحة (وكلما كانت هذه النقطة الصحيحة تبعد عن تفكير المركيز العجوز، كان يزداد خوفه).

أشارت لي ابنتي ذلك اليوم بشكل بارع ألى هذا: «جوليان ليس مرتبطاً بأي صالون أو مجموعة» لم يفتش عن أي سند ضدي، فإذا تركته، لن يجد أمامه أية ثروة ولو قليلة... ولكن هل يدل هذا على جهل بخصائص مجتمعنا الحالي؟ قلت له مرتين أو ثلاث مرات: «الكفاءة الحقيقية هي كفاءة الصالونات...»

لا، إن ذكاءه ليس ذكاء المدعي الذي لا يضيع دقيقة واحدة أو مناسبة واحدة... لا يشبه شخصية لويس الحادي عشر. ومن جهة أخرى، كنت أرى عنده تصرفات تدلّ على بخله العاطفي، وكنت أضيع في ذلك، فهل تراه استخدم هذا البخل ليصل إلى أهدافه؟

وعلى كل حال، شيء واحد ظاهر: نفذ صبره من الاحتقار وأنا أمسك به من هذه الناحية.

صحيح أنه لا يؤمن بالنبل، ولا يحترمنا بغريزته... وهذا عيب فيه، ولكن طالب الدير يجب أن لا ينفذ صبره إلا لقلة المال والملذات. أما هو فمختلف عن هذا لأنه لا يستطيع أن يتحمل الاحتقار بأي ثمن.

وأحس المركيز ده لامول بضرورة اتخاذ قراره بسرعة، بعد أن أتته رسالة ماتيلد: ـ السؤال الكبير: هل دفعته الجرأة لمغازلة ابنتي لأنه يعرف أنني أحبها قبل كل شيء ولأن لي مدخولاً قدره مئة ألف دوقية؟

ماتيلد تقول العكس... كلا، ويجب أن أزيل كل شك حول هذا الموضوع.

هل من حب حقيقي غير مدبر؟ أو شهوة عابرة للارتفاع إلى الطبقات العليا؟ ماتيلد بعيدة النظر، وأحست أن هذه الفكرة تفقدها معركتها معي، ولهذا صرحت: كانت هي البادئة.

نسيت تلك الفتاة المترفعة نفسها حتى قامت باعترافات مادية!.. أن تشد على يده مساءً في الحديقة، أي رعب هذا! كأنما لم يكن أمامها مئة وسيلة لافهامه إنها تميزه.

من يعذر نفسه يتهم نفسه. إنني أقبل تحدي ماتيلد... وكانت أفكار المركيز هذا اليوم أكثر إيجابية من قبل. ومع ذلك غلبته العادة، فقرر اكتساب بعض الوقت وكتب إلى ابنته. ليس

من العـادة أن يكتب أحـد لشخص يعيش معـه تحت سقف واحد. ولكنه لم يكن يجرؤ على مناقشة ماتيلد. وخاف أن ينتهي الأمر بتراجع لا حدود له من قبله. فكتب:

رسالة

«إحذري من ارتكاب أعمال جنونية أخرى؛ ها هي شهادة تعين السيد الفارس جوليان سوريل ده لافرناي ملازماً في فرقة الفرسان الخفيفة. تلاحظين ما أقوم به من أجله. لا تعارضيني ولا تسأليني؛ فليرحل في الأربع والعشرين ساعة المقبلة، وليقدم نفسه في ستراسبور، مركز فرقته. وها هو أمر إلى مصـرفي. أطيعوني.»

أحست مـاتيلد بحب وسرور لا حـدود لهـا؛ وأحبت أن تستفيد من نصرها فأجابت فوراً:

ـ سيركع السيد ده لافرناي عند قـدميك معترفاً بجميلك عليه، لو عرف ما تفضلت وقمت به من أجله. ولكنّ والدي نسيني أنا، وسط كل كرمه؛ شرف ابنتك في خطر. إن إهمالاً بسيطاً قد يكون سبباً في لطخة أبدية، لا تصلحها عشرون ألف دوقية. لن أرسل الشهادة إلى السيد ده لافرناي إلا إذا وعدتني أن يقام حفل زواجي علنياً الشهر المقبل في فيلكييه. وبعد نزر

من هذه الفترة التي أرجو ان تنساها، لن تستطيع ابنتك الظهور أمام الناس إلا باسم السيدة ده لافرناي. لكم أشكرك يا والدي العزيز لأنك انقذتني من اسم سوريل هذا» الخ. . . .

وكان الجواب سريعاً حاسماً:

ـ «أطيعي أو اتراجع عن كل شيء. ارتجفي أيتها الشابة القليلة الحذر. لا أعرف بعد من هو جوليانك هذا، وأنت لا تعرفينه أكثر مني. فليرحل إلى ستراسبور وليفكر في السير مستقيماً. وسأعلمك بقراراتي في خمسة عشر يوماً».

أثار هذا الجواب الحاسم دهشة ماتيلد. أنا، لا أعرف جوليان! وأغرقتها هذه الكلمات في أحلام تحولت إلى افتراضات خيالية رائعة كانت تظن أنها الحقائق بعينها. ذهن جوليان لم يتخذ أبداً طابع الصالونات المسكين، ووالدي لا يعتقد بتفوقه، بسبب ما يثبت هذا التفوق.

ولكنني إذا لم أطع هذه التقلبات في طباعه، ألمح مشهداً مزعجاً، يجعلني مضغة الأفواه، وسخرية لا تليق بي، وقد يقلل هذا من حب جوليان لي. وبعد هذه السخرية، فقر عشر سنوات، وجنون اختيار زوج بسبب جدارته وحدها، ولن ينقذني هذا من أبشع أنواع الهزء. إذا عشت بعيدة عن والدي ينساني، وهو في هذه السن. . . وسيتزوج نوربير امرأة جميلة

حمقاء: ألم تسحر الدوقة ده بورغوني لويس الرابع عشر وهو في شيخوخته؟..

وقررت أن تطيع. لكنها لم تطلع جوليان على رسالة والدها، لأن طبعه الغضوب كان حرياً بدفعه إلى بعض الأعمال الجنونية.

.

في المساء، فاق سرورها كل حد، عندما أخبرت جوليان أنه أصبح ملازماً في فرقة الفرسان. ومن الممكن أن نتخيلها بطموحها الكبير وغرامها المشبوب بابنها منذ الآن. أصابه الاسم الجديد بدهشة فائقة.

فكّر: انتهت قصتي الآن على أحسن ما يرام. الفضل في هذا يعود إلي. انتزعت حبّ هذا الوحش المتكبر. وأضاف لنفسه وهو يتطلع إلى ماتيلد: والدها لن يستطيع العيش بدونها، وهي لا تستطيع العيش بدوني.

٣٥
عاصفة

يا إلهي! أعطني الكفاف!
ميرابو

كان مأخوذاً، لا يجيب عن حنانها الحار تظهره له، إلا بكلمات قليلة. وبقي صامتاً عابساً، ورأته ماتيلد كأبدع ما يكون. وتخشى تصرفاته المتكبرة تغير كل الموقف.

كانت ترى الأب بيرار، يأتي كل صباح تقريباً إلى القصر. أفليس من المعقول أن يكون جوليان عرف شيئاً عن نوايا والدها؟ أو أن يكون المركيز نفسه، في لحظة من لحظات نزواته، كتب رسالة؟ إذ كيف يمكن تفسير مظهر جوليان العبوس بعد السعادة التي نالها؟ لم تجرؤ على سؤاله.

هي، ماتيلد، لا تجرؤ! وشاب مشاعرها نحو جوليان في هذه اللحظة شيء من الغموض والخوف، بل بعض الرعب. ظننت هذه النفس الجافة بالحب نحو كل ما يمكن أن يوجد في مخلوق سام، وسط هذه الحضارة التي تعجب بها باريس.

صباح اليوم التالي، في ساعة مبكرة، كان جوليان في دير الأب بيرار. وصلت الخيول تجر عربة سيئة المظهر استؤجرت من

المحطة المجاورة. فقال له الأب الصارم بهيئة عابسة:

ـ هذه المظاهر لم تعد تناسبك. ها عشرون ألف فرنك يهديك إياها السيد ده لامول، يحضّك على إنفاقها خلال هذا العام، ولكن يجب أن تحاول قدر الامكان تجنب كل المزالق السيئة. (ولم يكن الأب يرى في هذا المبلغ الكبير إلا مبرراً للخطيئة إذا أخذها جوليان الشاب).

ويضيف المركيز: يجب أن يشاع بأن السيد جوليان ده لافرناي تلقى هذا المال من والده، الذي لا تجدر الاشارة إليه إلا بكلمة الوالد. وقد يظن السيد ده لافرناي من المناسب أن يقدم هدية إلى السيد سوريل، صاحب المنشرة في فريير، وهو اعتنى به في طفولته... وأضاف الأب: أستطيع أن أقوم بهذا القسم من المهمة. جعلت السيد ده لامول أخيراً، يفاوض الأب ده فريلير اليسوعي. أن نفوذه أقوى من نفوذنا. وإذا استطعنا انتزاع اقرار من هذا الرجل الذي يحكم بزانسون، بأنك من النبلاء، سيكون ذلك عاملاً من عوامل التسوية.

ولم يعد جوليان يستطيع تمالك نفسه، فقّبل الأب، وخيّل إليه أن كل شيء تم على ما يرام. وقال له الأب بيرار وهو يصدّه:

ـ ماذا تعني هذه الحركة الدنيوية؟... أما سوريل وأولاده فسأهبهم مدخولاً سنوياً، من مالي الخاص، يبلغ خمسماية فرنك

تدفع لهم ما داموا يحسنون التصرف.

وعاد جوليان، في هذا الوقت، إلى برودته وتعاليه. فشكر الأب، ولكن بتعابير غامضة لا تلزمه بشيء. كان يقول لنفسه: هل من المعقول أن أكون أبناً طبيعياً لرجل عظيم نفاه إلى جبالنا نابليون الرهيب؟ وكانت هذه الفكرة، كلما لاحت له، تظهر معقولة أكثر... حقدي على والدي دليل... لن أكون وحشاً بعد الآن!

وبعد أيام قليلة من هذا الحوار، كانت فرقة الفرسان الخفيفة الخامسة عشرة وهي من أحسن الفرق، تعسكر في ساحة ستراسبور. وكان السيد الفارس ده لافرناي يمتطي أجمل جواد ألزاسي كلفة ستة آلاف فرنك. أصبح ملازماً دون أن يمر بدرجة نائب ملازم إلا على سجلات المراقبة للفرقة، وهي سجلات لم يكن سمع بها على الاطلاق.

وكانت هيئته الجامدة، وعيناه القاسيتان على خبث، وشحوبه ورباطة جأشه، سبباً في شهرته منذ يومه الأول. قليل، تهذيبه الكامل المليء بالحذر، ومهارته في إطلاق الغدارة والاسلحة أظهرها دون تكلف، أبعدت حديث السخرية عنه. وبعد ستة أيام من التردد، أصبح الرأي العام في الفرقة إلى جانبه. كان الضباط القدماء يقولون عنه:

ـ لدى هذا الشاب كل شيء ما عدا الشباب.

وكتب جوليان من ستراسبور إلى السيد شيلان، خوري فريير العجوز، الذي كان غارقاً في شيخوخته:

«لا بد أنك سمعت بفرح، لا أشك فيه أبداً، الأحداث التي أغنت عائلتي. وها الآن خمسمائة فرنك، أرجو أن توزعها الآن دون ضجيج ودون إشارة إلى إسمي، على الفقراء التعساء الذين كنتُ منهم، والذين ستساعدهم كما ساعدتني في الماضي».

كان جوليان ثملاً من الطموح، لا من الكبرياء؛ ولكنه كان يهتم كثيراً بالمظاهر الخارجية. كانت جياده وملابسه العسكرية وملفات جنوده مضبوطة بشكل يشرّف أكبر الأسياد الانكليز. ولم يكد يصبح ملازماً حتى راح يفكّر، بعد يومين، أنه إذا أراد يبقى قائداً ثلاثين سنة، على الأكثر، مثل بقية الجنرالات الكبار، عليه أن يكون في الثالثة والعشرين أكثر من ملازم. لم يعد يفكر إلا في مجده وفي طفله.

وفي غمرة نشوة طموحه الشديد هذا، فوجيء بخادم شاب من قصر المركيز ده لامول، أتى حاملاً البريد، كتبت له ماتيلد:

«فقدنا كل شيء. إحضر بأقصى سرعة، وضحِّ بكل شيء. أهرب إذا كان لا بد من هذا. وعندما تصل، إنتظرني في عربة مقفلة قرب باب الحديقة الصغير، في شارع... سأحضر إليك

لأحدثك؛ وقد أستطيع إدخالك للحديقة. فقدنا كل شيء، أخشى هذا. اعتمد عليّ ستجدني دائماً مخلصة وثابتة في خصامي. أحبك».

في بضع دقائق، نال جوليان الاذن من الكولونيل، وغادر ستراسبور على صهوة جواده، ولكن المخاوف البشعة التي كانت تفترسه لم تمكنه من المضي بهذه الطريقة أبعد من متز. فارتمى على مقعد إحدى العربات، ووصل إلى المكان المحدد، قرب حديقة قصر المركيز بسرعة لا تصدق. فتح الباب، وظهرت ماتيلد إرتمت بين ذراعيه، دون أن تعير أدنى اهتمام لمن قد يراها. ولحسن الحظ، كانت الساعة لا تزال الخامسة صباحاً، والشارع مقفراً:

ـ خسرنا كل شيء، رحل والدي، خشية بكائي، مساء الخميس، إلى أين؟ لم يكن أحد يدري. وها رسالته. اقرأ.

ثم صعدت إلى العربة مع جوليان:

«أستطيع أن أغفر كل شيء، إلا قضيّة إغوائك لأنك غنية. هذه هي، أيتها الفتاة الشقية، الحقيقة القاسية. أقسم لك بشرفي أنني لن أوافق مطلقاً على زواجك من هذا الرجل. أؤمّن له عشرة آلاف ليرة من المدخول إذا أراد العيش بعيداً، خارج حدود فرنسا، أو في اميركا. اقرأي هذه الرسالة التي تلقّيتها

جواباً عن بعض المعلومات التي طلبتها. حضّني السفيه بنفسه، على الكتابة إلى السيدة ده رينال. لن أقرأ بعد الآن أي سطر تكتبينه حول هذا الرجل. ارتعب من باريس ومنك. أحثك على إبقاء ما سيحدث سراً. أتركي هذا الرجل الدنيء، وستجدين الوالد بعد ذلك».

وقال جوليان ببرود:

ـ وأين رسالة السيدة ده رينال؟

ـ ها هي. لم أرد أن أعطيك إياها قبل أن تحضّر نفسك لها.

رسالة

«إن واجبي تجاه الدين والاخلاق يضطرني، أيها السيد، إلى عمل شاق نحوك. والمبادىء التي لا يمكن أن تكون خاطئة، تأمرني بأن أسبب الضرر في هذه اللحظة، إلى أحد أبناء جنسي، ولكنني أقوم بذلك لأمنع فضيحة أكبر. واجبي يدفعني للتغلب على الألم الذي أشعر به. من الصحيح جداً، أيها السيد، أن سلوك الشخص الذي سألتني كل الحقيقة عنه، قد لا يظهر عليه أي حرج بل أنه قد يكون شريفاً. وقد يكون من المناسب إخفاء أو طمس قسم من الحقيقة، .وقد يكون الحذر والدين أيضاً في صفه. ولكن هذا السلوك، الذي تريد معرفته،

كان أسوأ مما أستطيع أن أصفه. استطاع بفقره وجشعه وأنانيته، وإغـرائه لامـرأة ضعيفة تعيسـة، أن يستغلهـا ليكـوّن لنفسـه مستقبلاً، وليصبح رجلاً مهماً. وواجبي القاسي يدفعني أيضاً إلى القول أن السيد جـ. . . لا يؤمن مطلقاً بالدين. وأنا مضطرة، بدافع من ضميري، إلى القول إن إحدى وسائل نجاحه، في أحد البيوت، محاولة إغواء المرأة التي تملك أقوى رصيد فيه. هدفه الكبير والوحيد، السيطرة على رب البيت وثروته بمظهره المتجرد وكلماته التي يرددها عن الروايات. ولا يخلّف بعده إلا التعاسة والندم الأبديين». الخ. . . الخ. . .

كـانت هذه الـرسالـة الطويلة جـداً، محت الدمـوع بعض كلماتها، مكتوبة بخط السيدة ده رينال، بل بعناية تفوق العادة. وقال جوليان بعد أن أنهى قراءتها:

ـ لا أستطيع أن ألوم السيد ده لامول. إنه محقّ وحذر. أي والد يقبل إعطاء ابنته العزيزة إلى رجل مثل هذا! الوداع!

قفز جوليان من العربة. وركض نحو عربة السفر التي كانت واقفة في نهاية الشارع. وقامت ماتيلد، التي يظهـر أنه نسي وجودها، ببعض الخطوات للحاق بـه. ولكن نظرات التجـار الذين يتقدمون نحو أبواب متاجرهم وكانوا يعرفونها، اضطروها للعودة سريعاً إلى الحديقة.

رحل جوليان إلى فريير. ولم يستطع في سباقه هذا أن يكتب إلى ماتيلد كما كان يعتزم. ولم تستطع يده أن تخط على الورقة إلا بضعة خطوط لا يمكن قراءتها.

وصل إلى فريير صباح الأحد. وذهب إلى تاجر الأسلحة الذي أغرقه بسيل من المدائح لثروته الجديدة. كان الخبر ذاع في المدينة.

ووجد جوليان صعوبة كبيرة في إفهامه أنه يريد زوجاً من الغدارات. وقد قام التاجر، بناء لطلبه، بتعبئتها.

ورنّت الدقات الثلاث، وهي إشارة واضحة في قرى فرنسا، تعلن، بعد قرع الجرس في الصباح، بدء القداس.

دخل جوليان كنيسة فريير الجديدة. كانت كل النوافذ والأبواب في هذا البناء العالي، مكسوة بالقطيفة القرمزية. ووقف خطوات من مقعد السيدة ده رينال. خيّل إليه أنها تصلي بحرارة. مرأى هذه المرأة، التي أحبته كثيراً في السابق، يده ترتجف لدرجة لم يستطع معها، أول الأمر، تنفيذ خططه. كان يقول: لا أستطيع أن أقوم بذلك. جسدياً لا أستطيع.

في هذه اللحظة، دق القسيس الشاب، دقة رفع الكأس في هذه اللحظة أحنت السيدة ده رينال رأسها، الذي كان يختفي تماماً وراء شالها. لم يعد جوليان يتبيّنها تماماً. فأطلق طلقة غدارته

الأولى وأخطأها. ثم أطلق الثانية، فسقطت.

٣٦
تفاصيل محزنة

لا تنتـظري مني أن أضعـف. انتقمـت. استحققت الموت وها أنذا. صلي من أجلي.

شيلر

بقي جوليان ساكناً، لم يعد يرى أيّ شيء. وعندما عـاد لنفسه بعد برهة، رأى المؤمنـين يهربـون من الكنيسة، وتـرك القسيس المذبح. وتبع جوليـان، بخطوات بـطيئة، بعض من تبقى من النساء المولولات. ودفعته إحداهن بقسوة، وكانت تريد الهرب قبل غيـرها. فسقط. اصـطدمت رجلاه بكـرسي قلبه الجمهور الهارب. وعندما نهض، أحس بقبضة على عنقه: كانت يد دركي تمسك به. وبحركة آلية، حاول جوليان أن يستنجد بغدّارته الصغيرة، ولكن دركياً آخر أمسك بيديه.

واقتيد إلى السجن. ادخلوه زنزانة ووضعوا الحديد في يديه، ثم تركوه وحيداً. وأغلق الباب عليه. تم كل هذا بسرعة كبيرة حتى لم يشعر بأي شيء.

وقال جوليان بصوت عال وهو يعود لنفسه:

- يا إلهي، انتهى كل شيء!... المقصلة بعد خمسة عشر يوماً... أو الانتحار قبل.

ولم يفكر في أبعد من هذا. كان يشعر برأسه كأن قوة هائلة تعصره. فتطلّع ليعرف إذا كان أحد يمسك به. وبعد قليل استغرق في نوم عميق.

ولم يكن جرح السيدة ده رينال مميتاً. اخترقت الطلقة الأولى قبعتها، وعندما التفتت، انطلقت الثانية فأصابتها في كتفها. الغريب أن عظم الكتف صدَّ الطلقة، ولكنه انكسر عندما وقعت على عمود قوطي، انحسرت عنه قطعة من الحجر.

بعد تضميد طويل مؤلم قال لها الطبيب، وهو رجل وقور:

- اضمن حياتك كما حياتي تماماً.

شعرت عندها بخيبة شديدة. كانت منذ وقت طويل تتمنى الموت بصدق. كانت الرسالة التي فرضها عليها الخوري معرّفها، وكتبتها إلى السيد ده لامول، كانت آخر قطرة طفح بها كيل تعاستها الدائمة. وكان غياب جوليان هو سبب التعاسة التي كانت تسميها تأنيب الضمير. المدير الجديد الذي وصل من ديجون، وهو قسيس شاب، كان يعرف هذا بكل تفاصيله.

الموت هكذا، دون أن أنتحر، ليس خطيئة. هذا ما كانت السيدة ده رينال تفكر فيه. الله قد يغفر لي سروري بموتي. ولم تجرؤ على أن تضيف: وموتي بيد جوليان أقصى سعادتي.

لم تكد تتخلص من وجود الطبيب، والأصدقاء الذين تراكضوا لزيارتها، حتى استدعت إليزا، وصيفتها، فقالت لها بخجل:

ـ السجّان رجل قاس. وسيسيء معاملته ولا شك معتقداً أنه يقوم بواجبه... لم أعد أستطيع تحمّل هذه الفكرة. تستطيعين أن تذهبي إليه، كأنك تقومين بهذا من نفسك، وتعطيه صرة فيها بعض النقود؟ قولي له أن الدين يمنعه من أساءة معاملته... واحرصي ألا يتكلم على هذا المال.

وكان هذا هو السبب الذي دفع السجّان لمعاملة جوليان برقة، مما أدهشه كثيراً. كان السجان هو نفسه السيد نوارو الذي أثار وجود السيد أبيّر في ما مضى خوفه وجزعه.

قال جوليان لقاض جاء إلى السجن:

ـ قتلت عن سابق تصور وتصميم. اشتريت الغدارات من أحدهم وطلبت منه تعبئتها. المادة ١٣٤٢ من قانون العقوبات واضحة صريحة. استحق الموت وأنا في انتظاره.

ودهش القاضي لهذه الطريقة في الاجابة، وأراد مضاعفة الأسئلة ليوقف المتهم عن اجاباته، فقال له جوليان ضاحكاً:

ـ ألا ترى أنني أتهم نفسي أكثر مما تريد؟ هيا أيها السيد، لن تخطىء الطريدة التي تتبعها. ستتلذذ بإعدامي، فوفر عليّ وجودك.

وفكّر جوليان: بقي عليّ واجب مملّ أن أكتب للآنسة ده لامول.

وكتب:

«أنتقمت. سيظهر اسمي، للأسف، في الصحف. ولن استطيع السفر من هذا العالم مجهولاً. سأموت في مدى شهرين. كان الانتقام قاسياً، كألم الافتراق عنك. منذ الآن، منعت نفسي عن الكتابة وعن التلفظ باسمك. لا تتحدثي عني، حتى لابني: الصمت هو الطريقة الوحيدة التي تشرفني. سأكون بالنسبة للرجل العادي، قاتلاً... فاسمحي لي بأن أقول الحقيقة في هذه اللحظة الحاسمة: ستنسينني. هذه الكارثة الكبيرة، التي أنصحك بعدم التحدّث عنها، جعلتني أستنفذ لأعوام طويلة، كل ما كنت أراه فيك من عواطف ومغامرة في طباعك. خُلِقتِ لتعيشي مع أبطال القرون الوسطى، فاظهري ثباتهم. فليتم ما سيتم في سر لا ينغص عليك عيشك. ستأخذين إسماً مستعاراً،

ولا تقومي بأي اعترافات. فإذا احتجت لصديق، اترك لك الأب بيرار.

«لا تتحدثي إلى أي شخص آخر، وخصوصاً لأفراد طبقتك: ده لوز وده كايلوس. . .

«بعد عام من وفاتي، تزوجي السيد ده كروازنوا، أرجوك بل آمرك بصفتي زوجك. لا تكتبي لي، لن أرد. لست خبيثاً مثل باغو كما يخيل إليّ، ولكنني سأقول لك ما قاله: من الآن فصاعداً لن أنبس بكلمة.

«لن يراني أحد اتكلم أو اكتب، وستكونين أنت آخر من يتلقى كلماتي، وآخر عبارات تعبّدي لك».

«ج. س.»

بعد أن أرسل جوليان هذه الرسالة، وعاد لنفسه، أحس بالتعاسة. وانتزعت كل أفكاره عن الطموح، فكرة بعد فكرة، هذه الكلمة الكبرى: «سأموت». لم يكن الموت بحدّ ذاته، ما يخيف جوليان. فكل حياته كانت تحضيراً طويلاً للتعاسة، ولكنه نسي ما هو أقوى من كل شيء.

كان يقول لنفسه: ماذا إذن! هل أكون ضعيفاً لهذه الدرجة فأفكر، دون انقطاع، بالخوف لو كان عليّ أن أبارز، في مدى

شهرين، رجلاً قوياً يتقن صناعة الحرب؟

أمضى ساعة كاملة يحاول اقناع نفسه بهذا الموضوع. وعندما عرف نفسه بوضوح تام، وظهرت الحقيقة رائقة أمـام عينيه، كأحد عواميد السجن، وفكّر في الندم.

لماذا قمت بعملي هذا؟ أهنت بقسوة، فقتلت، وأنا استحق الموت. هذا كل شيء. أموت بعد أن سددت حسابي للإنسانية. لم أترك أي واجب لم أقم به. لست مديناً لأحد بأي شيء. وليس في موتي أي عار سوى الوسيلة: هذا وحده يكفي تماماً لتجليلي بالعار في نظر بورجوازيي فريير، ولكن هل من الناحية الفكرية، ما يثير الاحتقار أكثر من هذا؟ تبقى أمامي وسيلة واحدة لاكتساب تقديرهم: أن أرمي قطع النقود الذهبية، إلى الناس، في طريقي إلى الموت. وسيبقى ذكراً عطراً لارتباطـه بالذهب عندهم.

بعد هذا التفكير الذي ظن أنه بديهي، في دقيقة واحدة، قال جوليان:

ـ لم يعد لي ما أقوم به على هذه الأرض.

ثم استغرق في نوم عميق.

في التاسعة مساء، أيقظه السجان وهو يحضر له عشاءه:

ـ ماذا يقولون في فريير؟

ـ أيها السيد جوليان، القسم الذي تلفظت به أمام الصليب في البلاط الملكي، يوم عينت في وظيفتي، يمنعني من الكلام.

وسكت، ولكنه بقي. وسُرّ جوليان من هيئته الخبيثة. وفكر: يجب أن أجعله ينتظر كثيراً من الفرنكات الخمسة التي يتمناها ليبيع ضميره.

وعندما رأى السجان أن العشاء قارب على نهايته، ودون أن يحاول جوليان إغراءه قال بلهجة كاذبة لطيفة:

ـ الصداقة التي تربطني بك، أيها السيد جوليان، تضطرني للكلام، رغم ما يقال أن هذا مناف لمصلحة العدالة، لأنه قد يساعدك في إعداد دفاعك. سيسر السيد جوليان، وهو شخص طيب، إذا علم أن السيدة ده رينال تسير من حسن إلى أحسن.

وصرخ جوليان، في قمة دهشته:

ـ ماذا! لم تمت؟

وقال السجان، بعدما وجهه الذي يعبر عن البلاهة اكتسى بنهم شديد:

ـ ماذا؟ لا تعرف أي شيء! من العدل أن يعطي السيد جوليان شيئاً إلى الطبيب الذي يمنعه القانون والعدالة عن

الكلام. ولكنني ذهبت إليه من أجل خاطر السيد جوليان، وحكى لي كل شيء...

قال جوليان بنفاد صبر:

ـ المهم، لم يكن الجرح مميتاً إذن. ستجيبني وإلا وشيت بك.

وابتعد السجان، وهو رجل ضخم يبلغ ستة أقدام، وانسحب إلى الباب. ورأى جوليان أنه يسلك طريقاً خاطئاً ليعرف الحقيقة، فعاد للجلوس ورمى قطعة ذهبية إلى السيد نوارو.

وكلما اثبتت رواية السجان لجوليان صحة ما يقوله، أحس برغبة في البكاء. ثم قال له فجأة:

ـ أخرج!

وأطاع السجان. ولم يكد الباب يغلق حتى صرخ جوليان:

ـ يا إلهي! لم تمت! ثم ركع على ركبتيه وبكى بدموع حرّى.

في هذه اللحظة الحاسمة، أحس بالايمان. ماذا تهم أنانية القساوسة؟ هل تنتزع شيئاً من روعة فكرة الإله؟

عندها فقط، بدأ جوليان يشعر بالندم على الجريمة التي اقترفها. ومن قبيل المصادفة التي أبعدت عنه شبح اليأس، بدأ

يفيق من حالة الانهيار الجسدي والهستيريا العقلية التي أخذته منذ رحيله عن باريس إلى فريير.

كانت دموعه صادرة عن قلب كريم، لأنه لم يكن يشك مطلقاً في الحكم الذي ينتظره.

كان يقول لنفسه: ستعيش إذن! ستعيش لتغفر لي وتحبّني.

صباح اليوم التالي، قال له السجان وهو يوقظه في ساعة متأخرة:

- لا بد أنك تملك قلباً عجيباً أيها السيد جوليان. حضرت إليك مرتين، ولم أرد إيقاظك. إليك قنينتين من الخمر الجيدة، أرسلهما لك السيد ماسلون، الخوري.

وقال جوليان:

- ماذا! ألا يزال هذا الخبيث هنا؟

ورد السجان بصوت منخفض:

- نعم أيها السيد. لا تتكلم بصوت عال لأن هذا قد يضر بك.

وضحك جوليان من قلبه.

- في الوضع الذي أنا عليه، يا صديقي، أنت الوحيد الذي

يستطيع الاضرار بي، إذا توقفت عن إنسانيتك ولطفك... سأدفع لك جيداً عن هذا. قال جوليان هذا وعاد إلى لهجته الآمرة. ولم ييأس السجان لذلك لأن جوليان عاجله بقطعة نقود.

وحكى السيد نوارو من جديد، وبتفاصيل وافية كل ما علمه عن السيدة ده رينال، ولكنه لم يتحدث عن زيارة الآنسة إليزا.

كان هذا الرجل دنيئاً مطيعاً جداً. ومرت في ذهن جوليان فكرة عابرة: هذا العملاق الأشوه يربح ثلاثمئة أو أربعمئة فرنك، لأن السجن خال. وأنا استطيع أن أؤمن له عشرة آلاف فرنك إذا قبل الهرب معي إلى سويسرا... الصعوبة في إقناعه بحسن نيتي. وكانت فكرة حديث طويل مع مخلوق بهذه الدناءة، أوحت إلى جوليان بالاشمئزاز، ففكر في شيء آخر.

وفي المساء، لم يعد من مجال للتفكير في هذه المشاريع. توقفت عربة ونقلته عند منتصف الليل. وكان مسروراً من الدركيين الذين رافقوه في رحلته. وفي الصباح، عندما وصل إلى سجن بزانسون، كانوا كرماء معه، فوضعوه في الطابق العلوي داخل بناء قوطي. وفكّر في أن البناء على طريقة هندسة القرن الرابع عشر. وأعجب بليونة الخطوط والبساطة الأنيقة. كان يستطيع، من فتحة بين حائطين، أن يتطلع إلى منظر ساحر خلاب.

في صباح اليوم التالي، استُجوب، ثم تُرك مستريحاً لعدة أيام. وكان هادىء النفس، لا يرى أي تعقيد في حالته: أردت أن أقتُل ويجب أن أُقتل.

ولكن ذهنه لم يتوقف عند هذه الفكرة. كان يعتبر صدور الحكم، والسأم من الظهور أمام الناس، والدفاع، إزعاجاً بسيطاً؛ حفلات تثير الضجر سيفكر فيها في أوقاتها. أما فكرة الموت فلم تكن تلفت انتباهه على الاطلاق. سأفكر فيها بعد صدور الحكم. لم تعد حياته مدعاة للضجر، لأنه أصبح ينظر إلى كل شيء بمنظار جديد. نادراً ما يفكر في الآنسة ده لامول، فندمه يشغله أكثر؛ كان يتمثل أمامه وجه السيدة ده رينال، خصوصاً في هدأة الليالي، لا يزعجه في مكانه العالي، الا غناء العقاب البحري!

كان يشكر السماء، لأنه لم يجرحها جرحاً مميتاً، ويقول: غريب! ظننت أنها هدمت سعادتي إلى الأبد، برسالتها إلى المركيز ده لامول، وها أنذا، بعد خمسة عشر يوماً من تاريخ هذه الرسالة، لا أفكر بكل ما كان يشغلني آنذاك... ألفان أو ثلاثة آلاف ليرة من المدخول يكفيني لأعيش سعيداً في بلاد جبلية مثل فرجي... كنت سعيداً هناك... ولكنني لم أكن أعرف سعادتي!

وفي لحظات أخرى، كان ينهض قافزاً عن كرسيه: لو قتلت

السيدة ده رينال، لانتحرت... إنني بحاجة للثقة حتى لا أرتعب من نفسي.

كان يقول: أن أنتحر! هذا هو السؤال الكبير. هؤلاء القضاة الذين يتعلقون بالشكليات، ويتمسكون بالمتهم المسكين، يستطيعون شنق أحسن المواطنين، لينالوا الصليب... أستطيع التخلص من سيطرتهم، وإهاناتهم بفرنسية سيئة، ستسمّيها صحف المقاطعة بلاغة...

قد أستطيع العيش خمسة أو ستة أسابيع، أكثر أو أقل... أن أموت!

وكان يقول لنفسه بعد أيام: يا إلهي لا، عاش نابليون...

وعلى كل حال، الحياة جميلة بالنسبة لي؛ وهذه الحياة هادئة.

ويضيف ضاحكاً:

- ليس حولي من يثير ضجري.

ثم يأخذ في كتابة اسماء الكتب التي يريد إحضارها إلى سجنه في باريس.

٣٧
البرج

إنه قبر صديق،

سترن

سمع ضجة كبرى في الممشى؛ لم يكن من عادتهم أن يصعدوا إلى سجنه في هذا الوقت، وطار العقاب البحري صارخاً؛ ثم فتح الباب، وارتمى الخوري شيلان، بين يديه مرتجفاً.

ـ آه! يا إلهي! معقول يا بني؟... يجب أن أقول هذا: أيها الوحش!

ولم يستطع العجوز الطيب أن يضيف كلمة أخرى. وخشي جوليان عليه من السقوط، فاضطر لإجلاسه على مقعد. عبثت يد القدر بهذا الرجل الذي كان نشيطاً في السابق، فلم يعد يظهر لجوليان إلا كشبحه.

وعندما تمالك أنفاسه قال:

ـ تلقيت رسالتك من بزانسون أول أمس، مع الخمسمائة فرنك التي أرسلتها لفقراء فريير. احضروها لي في جبل ليفرو، حيث انسحبت مع ابن أخي جان، وعلمت بالكارثة... يا

للسماء! هل هذا معقول!

كف العجوز عن البكاء، وبان وجهه خالياً من كل تعبير. ثم أضاف بلهجة آلية:

ـ إنك بحاجة إلى فرنكاتك الخمسمائة. أحضرتها لك معي.

وصرخ جوليان:

ـ إنني بحاجة لرؤيتك يا أبي! معي ما يكفيني من المال.

لم ينجح في الحصول على إجابة معقولة من الأب. وكان السيد شيلان يبكي من وقت لآخر، وتنزل دموعه بصمت على خديه، ثم يتطلع إلى جوليان، فيندهش لرؤيته يأخذ يده ويرفعها إلى شفتيه. ولم يترك وجهه، الذي كان نشيطاً في السابق، طابع الكراهية. وبعد قليل، جاء فلاح يستدعي العجوز، وقال لجوليان:

ـ يجب أن لا ترهقه.

وفهم جوليان أنه ابن اخيه. وكانت هذه الزيارة سبباً لإغراق جوليان في أقسى تعاسته، فأبعدت عنه الدموع. كان كلّ شيء يظهر له حزيناً لا عزاء فيه، وأحسّ بقلبه يتجمّد بين ضلوعه.

وكانت هذه اللحظة أقسى اللحظات عاشها منذ ارتكابه الجريمة. رأى الموت في أبشع صوره. وغامت كل خيالاته عن

عظمة النفس وكرمها، كالسحابة أمام العاصفة.

دام هذا الوضع البشع ساعات عديدة. فبعد هذا التسمّم الخلقي، يلزمه علاجات جسدية ونبيذ شامبانيا. اعتقد جوليان انه جبان للجوئه إليها. وبعد أن امضى يومه متجولاً في برجه الضيق، صرخ جوليان عند انتهاء النهار:

ـ كم أنا مجنون! لو كنت سأموت كما غيري، لوجب عليّ أن أشعر بهذه التعاسة البشعة. ولكن الموت السريع، وفي عز الشباب، يضعني في مأمن من هذه الأحاسيس الحزينة.

ورغم جميع محاولات جوليان، أحس بحنين هائل كأيّ مخلوق فائق الحساسية، وبالتالي استمرّت تعاسته بعد هذه الزيارة.

لم يعد فيه أية قسوة أو سمو، أو كبرياء؛ وظهر الموت بالنسبة له كشيء خارق أقل سهولة مما يتصور. فقال لنفسه: سيكون هذا ميزاني. إنني، هذا المساء، على انخفاض عشر درجات تحت الشجاعة التي تقودني إلى المقصلة. في الصباح، كنت أملك هذه الشجاعة. وبعد، ما يهمّ! المهم أن تعود لي في اللحظة المناسبة.

سلّته فكرة الميزان هذه، وانتهى الأمر به أخيراً إلى السلوان.

وفي اليوم التالي، بعد أن استيقظ، أحس بالخجل من البارحة. سعادتي وهدوئي في خطر. فكاد أن يكتب إلى المدعي العام ليطلب عدم السماح لأي كان بمقابلته.

ثم فكر: وفوكيه؟ لو استطاع المجيء إلى بزانسون، فكم كانت تكون تعاسته!

فكر في فوكيه منذ شهرين تقريباً. كنت أحمق في ستراسبور ولم يكن تفكيري يذهب إلى أبعد من أنفي. شغلته ذكرى فوكيه كثيراً وجعلته يشعر بحنين أكبر، فكان يتمشى باضطراب. ها أنذا الآن على انخفاض عشرين درجة من مستوى الموت... وإذا ازداد هذا الضعف، فمن الأفضل أن أقتل نفسي. أيّ سرور هذا للأب ماسلون وفالينو إذا قتلت نفسي كالخادم!

ووصل فوكيه. كاد هذا الرجل البسيط الطيب يموت من الألم. كانت فكرته الوحيدة أن يبيع كل ما يملكه لإغراء السجّان وتهريب جوليان. وتحدّث معه طويلاً عن هرب السيد ده لافاليت. فقال له جوليان:

ـ إنك تؤلمني. السيد ده لافاليت كان بريئاً، أما أنا فمذنب. تجعلني، دون أن تقصد، أفكر بهذا الاختلاف...

ولكن هل هذا صحيح؟

قال جوليان:

ـ ماذا! ستبيع كل أملاكك؟

ثم عاد إلى موقف المتفرج الحذر.

وإذا ارتاح فوكيه، أخير لأنّ صديقه أجاب عن الفكرة التي تشغله، فصل له مطولاً، ما يمكن أن يجمعه إذا باع ما يملك، وفكر جوليان: أي مجهود رائع عند ملّاك جبلي! أي اقتصاد واية عمليات صغيرة كنت أحمرّ خجلاً عندما أراه يقوم بها. يضحي بكل هذا من أجلي! أي واحد من هؤلاء الشبان الذين عرفتهم في قصر ده لامول يقرأون «رنيه» لشاتوبريان، أي واحد منهم يستطيع التفكير في تضحية كهذه؟

واختفت في نظره كل الاغلاط النحوية التي كان يـرتكبها فوكيه، وغابت كل حركاته الفظة، فارتمى جوليان بين ذراعيه. ولم يتلقّ الريف مطلقاً مديحاً أسمى من هذا. ظنّ فوكيه، إذ سحر بحركة صديقه الحماسية، إنه وافق على الهرب.

وأعاد هذا المشهد الرائع لجوليان كل القوة التي فقدها عندما رأى الأب شيلان. لا يزال شاباً صغيراً. ولكنه نبتة طيبة. فبدلاً من أن يسير بعواطفه من الحنان إلى الخداع، كأكثر المسنين، كان شبابه عاملاً زاد من حنانه، فشفي من حذر جنوني... ولكن ماذا تفيد مظاهر العث هذه؟

ازدادت الاستجوابات، رغم مجهودات جوليـان الذي كـان يحاول اختصارها في إجاباته:

ـ قتلت، أو بالأحرى أردت القتل عن سابق تصور وتصميم.

كان يردد هذا كل يوم. ولكنّ القاضي يهتّم بالشكليات قبل كل شيء. فلم تكن تصريحات جوليان تقلّل من وقت الاستجوابات، أحس القاضي بكبريائه تهان. لم يعرف جوليان أنهم أرادوا نقله إلى زنزانة صغيرة، وإنه بقي في غرفته العالية الجميلة بفضل مساعي فوكيه.

كان الأب ده فريلير من الرجال الكبار الذي يكلفون فوكيه بإحضار مؤونتهم من الحطب. واستطاع التاجر الطيب أن يصل إلى الأب ده فريلير القوي. ردّ عليه الأب ده فريلير، عندما كلّمه عن جوليان، أنه، نظراً للخدمات التي أداها جوليان للدير في السابق، وبالنظر لصفاته الحميدة، سيوصي القضاة به. لم يعرف فوكيه كيف يشكره على ذلك. ولاح لفوكيه بعض الأمل في إنقاذ صديقه، فتوسل إلى الأب ده فريلير، وهو يخرج منحنياً حتى كاد يلامس الأرض، أن يوزع في القداس، مبلغ عشر ليرات ذهبية، ويطلب تبرئة المتهم.

وصدّ الأب ده فريلير فوكيه. فهو ليس كفالينو. رفض، ونصح الفلاح الطيب بالاحتفاظ بماله. ولما رأى أن فوكيه لم يفهم بوضوح، نصحه بالتصدق بهذا المبلغ، على فقراء المساجين، كانوا بالفعل لا يملكون أي شيء.

فكر الأب ده فريلير: جوليان هذا شخص فريد. إن تصرفه

لا تفسير له، ويجب أن لا يبقى الأمر هكذا بالنسبة إلي. . . قد يكون من المعقول جعله شهيداً. . . وعلى كل الأحوال، سأعرف نهاية هذه القضية، وقد أجد فيها مناسبة لإخافة السيدة ده رينال التي لا تقدّرنا حق قدرنا على الاطلاق، بل إنها تكرهني في أعماقها. . . قد أجد فيها مناسبة لصلح رائع مع السيد ده لامول الذي لا يخفي حبه لطالب الدير الشاب هذا.

ووُقّعت معاملة القضية قبل أسابيع قليلة، وعاد الأب بيرار من بزانسون، ولكنه لم يفوّت فرصة التحدث عن أصل جوليان الغامض، في اليوم الذي ارتكب التعيس جريمته في كنيسة فريير.

ولم يعد جوليان يرى أي شيء مزعج بينه وبين الموت سوى زيارة والده له. فاستشار فوكيه حول فكرة الكتابة إلى المدعي العام ليوفر عليه مشقة هذه الزيارة. وأحسّ فوكيه من كلمات جوليان، بالصدمة، لأنه لم يكن يعتقد أن زيارة والد جوليان له في هذه اللحظات تشكل شيئاً قبيحاً.

ظن عندئذ أنه فهم سبب كراهية الكثيرين لصديقه. ولكنه احتراماً منه لحزن صديقه، أخفى إحساساته عنه. وردّ على جوليان ببرود:

ـ على كل حال، لن يطبقّ هذا المنع على والدك.

٣٨
رجل قوي

ولكن في تصرفاتها أسراراً كثيرة، وفي قامتها أناقة رائعة! ترى من تكون؟
شيلر

فتحت أبواب البرج في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، ونهض جوليان من فراشه قافزاً. وفكّر:

ـ آه! يا إلهي! ربما والدي. أي مشهد بشع!

في اللحظة ذاتها، فوجِئ بامرأة، تلبس الملابس القروية، ترمي نفسها بين ذراعيه. واستطاع بعد مشقة أن يعرف أنها الآنسة ده لامول.

ـ أيها الخبيث. لم أعرف مكانك إلا بواسطة رسالتك. ما تسميه جريمة لا يعدو كونه مجرد انتقام نبيل يثبت لي أن القلب الذي ينبض في صدرك قلب كبير. لم أعرف بهذا إلا في فريير. . .

رغم شعوره بعدم الميل إلى ماتيلد، مما لم يكن يعترف به بصراحة لنفسه، وجدها جوليان رائعة الجمال. كيف يمكن ألا يجد في تصرفاتها وطريقة كلامها عواطف نبيلة مجردة، فوق

مستوى ما يمكن أن يشعر به جوليان، الرجل الصغير العامي؟ كان لا يزال يعتقد أنه يحب ملكة، وبعد لحظات قال لها بلهجة نادرة تدل على نبل مشاعره وأفكاره:

ـ المستقبل يرتسم أمامي بوضوح. فبعد موتي، سأزوجك للسيد ده كروازنوا. سيتزوجك كأرملة. وستفهم روح هذه الأرملة الساحرة، النبيلة، الخيالية، بدهشة تجعلها تؤمن بحذر الشخص العامي، وبحدث فريد فاجع كبير بالنسبة لها. ستفهم أن المركيز رجلٌ جدير بها. ستصمّمين على أن تحسي بالسعادة التي يشعر بها جميع الناس: الاحترام والغنى والطبقة العليا... ولكن مجيئك إلى بزانسون، يا ماتيلد العزيزة، إذا عرف أمره، سيكون ضربة قاضية على المركيز ده لامول، وهذا ما لن أغفره لنفسي مطلقاً. سببتُ له الكثير من الحزن واللوعة. وسيقول الاكاديمي أنه ربّى حية في بيته.

وقالت ماتيلد برنّة تدل على الغضب:

ـ اعترف لك لم أكن انتظر مطلقاً أن تكون بهذه البرودة وبهذا الاهتمام بالمستقبل. وصيفتي، وهي لا تقل عنك حذراً، تملك جواز سفر، وأتيت إلى هنا تحت اسم السيدة ميشليه.

ـ وكيف استطاعت السيدة ميشليه أن تدخل بسهولة إلى عندي؟

ـ آه! إنك دائماً الرجل المتفوق، الذي فضلته على الجميع! أعطيت أولاً مئة فرنك إلى أمين سر القاضي، الذي كان يدعي أن دخولي إلى هذا البرج محال. وبعد أن تلقى هذا الرجل الشريف المال، تركني انتظر، وقدم كثيراً من الاعتراضات ففكّرت أنه يريد أن يسرقني..

وتوقفت عن الحديث. فقال جوليان:

ـ وبعد!

فردت وهي تقبله:

ـ لا تنزعج يا جوليان الصغير. كنت مضطرة أن أقول لأمين السر هذا اسمي، وكان ظن أنني عاملة شابة من باريس، مغرمة بجوليان الجميل... هذه كلماته. اقسمت له أنني امرأتك، وسأنال لهذا أذناً برؤيتك كل يوم.

وفكر جوليان: الجنون مطبق، لم أستطع منع هذا. وبعد، ده لامول سيد كبير، سيجد الناس بسهولة، العذر للكولونيل الشاب الذي سيتزوج هذه الأرملة الساحرة. وسيكون موتي القريب تغطية لكل شيء.

واستسلم بلذة إلى حبه لماتيلد، وكان حباً وجنوناً وعزة نفس. كل ما في الدنيا من فريد غريب. واقترحت عليه جدياً أن تقتل نفسها معه.

بعد هذه اللحظات الهانئة، وبعد أن هدأت نفسها لسعادتها برؤية جوليان، استولى عليها فجأة فضول عميق. كانت تتأمل حبيبها، ووجدته أعلى وأسمى مما كانت تتصور. بُعث بونيفاس ده لامول في نظرها، ولكنه الآن أكثر بطولة.

رأت ماتيلد أمهر محامي البلد، وعرضت عليهم الذهب بكثرة، فانتهى الأمر بهم إلى القبول.

ووصلت سريعاً إلى فكرة، أنه عندما يتعلق الأمر بأشياء مشكوك فيها، ذات أهمية بالغة، فإن كل شيء في بزانسون مرتبط بالسيد الأب ده فريلير.

وتحت اسم السيدة ميشليه المجهول، لاقت صعوبات كثيرة في الوصول إلى الرجل القوي. ولكن الخبر ذاع في كل بزانسون، أن سيدة جميلة شابة، مدلّهة بالحب، أتت من باريس لتعزي القسيس الشاب جوليان سوريل.

كانت ماتيلد تسير ماشية، وحيدة في شوارع بزانسون، متّمنية ألا يعرفها أحد. كانت تظن من غير المفيد لقضيتها أن يكون لها تأثير كبير على الشعب. وكانت في جنونها تفكر في جعل الشعب يثور ليخلص جوليان من الموت. وتظن أنها تلبس ملابس تناسب امرأة حزينة. ولكنها كانت تلبسها بطريقة تلفت إليها جميع الأنظار.

كانت في بزانسون، موضع اهتمام الجميع، عندما استطاعت، بعد ثمانية أيام من المحاولات، أن تحظى بموعد مع السيد ده فريلير.

ورغم شجاعتها، فإن أفكارها عن هذا الأب الواسع النفوذ، الشديد الذكاء والحذر، اختلطت في ذهنها، فارتجفت وهي تقرع جرس باب الكاتدرائية. كانت لا تكاد تستطيع السير عندما طلب منها أن تصعد الدرج الذي يقود إلى جناح المبعوث الأول الأكبر. وكان منظر القصر الديني يبعث فيها الرعب.

قد استطيع الجلوس على هذه الكنبة، ثم تطبق عليّ فاختفي. فإلى من تستطيع وصيفتي أن تتوجه مطالبة بي؟ وسيتصرف قائد الدرك بحذر شديد... إنني منعزلة في هذه المدينة الكبيرة!

منذ أن وقعت نظرتها الأولى على الجناح، عاد إليها اطمئنانها. فأولاً، فتح لها الباب خادم يلبس ملابس نظيفة. وكان الصالون الذي انتظرت فيه يظهر هذا الترف الرفيع الذي يدل على الذوق، وهو يختلف عن كثير من بيوت باريس التي تعج بالجمال الفظ، والذي لا يوجد إلا في أحسن البيوت. وعندما وقعت عيناها على الأب ده فريلير، يتقدم إليها بهيئة أبوية، اختفت أفكارها عن الجريمة القاسية. بل لم تجد في هذا الوجه الجميل، أي دليل على النشاط، والوحشية التي يكرهونها في باريس. كانت الابتسامة تشوب وجه القسيس الذي يتحكم بكل شيء

في بزانسون، وتبشر برجل لذيذ المعشر، مثقق واداري ماهر. ظننت ماتيلد نفسها في باريس.

ولم تلزمه إلا لحظات بسيطة ليدفع ماتيلد إلى الاعتراف أنها ابنة عدوّه القوي المركيز ده لامول. فقالت له وهي تعود إلى تعاليها كله:

ـ فعلاً لست السيدة ميشليه، وهذا الاعتراف لن يكلفني شيئاً، لأنني أتيت لاستشيرك، أيها السيد، حول إمكانية تدبير هرب السيد ده لافرناي. أنه أولاً ليس مؤولاً إلا عن عمل طائش. فالمرأة التي أطلق عليها النهار، لم تمت، ومن جهة أخرى، استطيع أن أدفع فوراً خمسين ألف فرنك لرشوة السجان والحرس والموظفين الصغار، وإن أعد بخمسين ألف أخرى. وأخيراً، لن يجد عرفاني للجميل، وعرفان عائلتي أي مستحيل لمكافأة من ساهم في إنقاذ السيد ده لافرناي.

وبانت على السيد ده فريلير الدهشة لسماعه هذا الاسم. فاطلعته ماتيلد على عدة رسائل أرسلها وزير الحربية إلى السيد جوليان سوريل ده لافرناي.

ـ ترى، أيها السيد، إن والدي اهتم بثروته. تزوجته سراً، لأن والدي كان يريد أن يجعله ضابطاً عالي الرتبة قبل إعلان هذا الزواج الغريب بالنسبة لواحدة من آل ده لامول.

ولاحظت ماتيلد أن تعبير الطيبة والمرح اللطيف غاماً بسرعة من وجه السيد ده فريلير، بعد أن اكتشف هذه الأشياء المهمة. ورانت على وجهه حصافة ممزوجة بالزيف العميق والرياء.

ظهر لدى الأب بعض الشكوك، فكان يعيد بهدوء وبطء قراءة هذه الوثائق الرسمية.

ماذا أستطيع أن استخلص من هذه الاعترافات الغريبة؟ ها أنذا فجأة ابدأ صلة حميمة مع صديقة للماريشالة ده فرفاك المشهورة، ابنة أخ المونسنيور الكاهن ده... المشهور القوي الذي يعيّن الكهنة في فرنسا.

ما كنت أراه متأخراً في المستقبل، يحدث الآن. أن هذا قد يقودني إلى كل أهدافي.

في أول الأمر، ارتعبت ماتيلد من التغير السريع على وجه هذا الرجل القوي، تقابله منفردة في شقة منعزلة. ولكنها سرعان ما قالت: ماذا! ألم يكن أملي الأكبر أن لا يكون لي أي تأثير على أنانية قسيس يتمتع بالعز والسلطان؟

وخرج الأب ده فريلير عن تحفظه، سحره الأفق الذي يتفتح أمامه ليصل إلى مركز سام، ودهش لذكاء ماتيلد، ورأته الآنسة ده لامول يكاد يصبح تحت قدميها طموحاً مرتجفاً حتى الارتعاش.

وفكّرت: كل شيء يتضح؛ لا شيء مستحيلاً بالنسبة لصديقة الماريشالة ده فرفاك. ورغم إحساس بالغيرة لا يزال يؤلمها، ملكت الشجاعة لتقول إن جوليان كان الصديق الحميم للماريشالة، وإنه كان يقابل، يومياً عندها، المونسنيور الكاهن ده ...

وقال المبعوث الأكبر ده فريلير بنظرة يتوقد فيها الطموح، وهو يؤكد على كلماته:

ـ عندما تختار، بالقرعة، اسماء المحلفين الستة والثلاثين، أربع أو خمس مرات، بين سكان هذه المقاطعة، اعتبر نفسي قليل الحظ إذا لم يكن لي في كل لائحة ثمانية أو عشرة أصدقاء، يكونون أكثر المحلفين ذكاء. إنني أملك، دائماً تقريباً، الأغلبية. وهكذا ترين يا آنستي بأية سهولة أستطيع أن أبرىء...

توقف الأب فجأة، وكأنه دهش لصوت كلماته؛ كان يعترف بأشياء لا تقال مطلقاً أمام أي كان.

ولكنه، بدوره، أصاب ماتيلد بالذعر عندما قال لها أن ما يدهش ويهم مجتمع بزانسون في مغامرة جوليان الغريبة، إنه أوحى في السابق، إلى السيدة ده رينال، بحبّ كبير، وشاركها فيه طويلاً. ولاحظ الأب الاضطراب الكبير الذي سببته كلماته.

وفكّر: إنني أرد لها الكيل! وأخيراً، ها هي طريقة أسيطر بها

على هذه الفتاة العنيدة. كنت أخاف ألا أنجح. كانت هيئتها الرائعة ومظهرها العنيد يزيدان، في نظره، سحر هذا الجمال النادر الذي يراه متوسلاً أمامه. وعادت إليه كل رباطة جأشه ولم يتردد في إعادة خنجرها إلى قلبها. فقال لها بلهجة مستخفة:

ـ لا دهشة في أن السيد سوريل أطلق، عن غيرة، طلقتين من غدارته على هذه المرأة التي أحبها في السابق. يجب أن تكون غير راضية عنه، بالاضافة إلى أنها كانت غالباً ما تقابل الأب ماركينو في ديجون، وهو جانسيني لا أخلاق له، كبقية الجانسينيين.

كان السيد ده فريلير يشعر بلذة في تعذيب قلب هذه الفتاة الجميلة قدر ما يريد، بعد أن عرف نقطة ضعفها.

ثم قال لها وهو يثبت عينيه المتوقدتين على ماتيلد:

ـ لماذا اختار السيد سوريل الكنيسة، إذا لم يكن بسبب غريمه الذي كان يحيي القداس يومئذٍ هناك؟ الجميع يعترفون بالذكاء بالحذر لدى الرجل السعيد الذي تحمينه. ما كان أهون عليه من أن يختبىء في حدائق السيد ده رينال، وهو يعرفها جيداً؟ هنا، كان باستطاعته أن يكون متأكداً أن أحداً لن يراه ولن يشك فيه ومن هناك كان يستطيع قتل المرأة التي أثارت غيرته.

كان هذا المنطق، الصحيح في ظاهره، كافياً لاخراج ماتيلد

عن هدوئها. هذه النفس المتعالية المشبعة بالحذر الجاف، والتي تعرف كيف تعالج القلب البشري، لم تكن تستطيع أن تفهم بسرعة لذة السخرية من كل حذر قد يكون متوقداً عند نفس نشيطة مشتعلة. ففي المجتمع الراقي الذي عاشته ماتيلد في باريس، كان الغرام غالباً ما يتخلى عن الحرص والحذر، وهناك يلقي العاشق بنفسه من نافذة الطابق الخامس.

وأخيراً، تأكد الأب ده فريلير من سيطرته. فأسمع ماتيلد (وكان كاذباً ولا شك) أنه يستطيع التأثير كما يريد على المدعي العام المكلف بتحضير اتهام جوليان.

وبعد أن تعين القرعة اسماء المحلفين الستة والثلاثين في هذه الدورة، سيقوم باتصالات مباشرة وشخصية مع ثلاثين محلفاً على الأقل.

ولو لم تكن ماتيلد بهذا الجمال في نظر السيد ده فريلير، لما تحدث حتماً بهذه الصراحة إلا بعد اللقاء الخامس أو السادس.

٣٩
المؤامرة

كاستر ١٦٧٦ ـ شاب قتل شقيقته في بيت قريب من بيتي. وكان متهماً بالقتل. لكن والده، وزع سراً خمسماية دوقية على المستشارين، فأنقذ حياة ابنه.

لوك: رحلة إلى فرنسا

عندما خرجت ماتيلد من دار الأبرشية، لم تتردد في إرسال رسالة إلى السيدة ده فرفاك، ولم تخش مطلقاً أن تعرض نفسها للسخرية. كانت ترجو غريمتها الحصول على رسالة للأب ده فريلير، بخط يد المونسنيور الكاهن ده... بل توسلت إليها أن تحضر بنفسها إلى بزانسون. وكان هذا بطولياً لصدوره عن قلب يحس بالغيرة والكبرياء.

تنفيذاً لنصيحة فوكيه، لم تطلع جوليان على تحركاتها هذه، لأن وجودها يثير اضطرابه. كان يحس بتأنيب الضمير ليس نحو المركيز ده لامول فحسب، بل نحو ماتيلد، وأصبح بعد اقتراب الموت منه، رجلاً شريفاً أكثر مما كان طوال حياته.

كان يقول لنفسه: ماذا إذن! تمر بي، وأنا حذّها، لحظات إنساها فيها بل أشعر فيها بالضجر. تضحي بنفسها من أجلي،

وأنا أكافئها بهذا الشكل! هل أنا خبيث إذن؟ كان هذا السؤال لا يوقفه عندما كان طموحاً؛ كان العيب الوحيد في نظره: الفشل.

بات ضيقه الخلقي، قرب ماتيلد، أكثر عمقاً لأنها كانت تعبر له عن غرام مشبوب وتدله غريب. لم تكن تتكلم إلا على التضحيات الغريبة التي تريد القيام بها لانقاذه.

في غمرة شعورها بالحب الذي تفتخر به وتغلّب على كبريائها، كانت تتمنى أن لا تمر بها لحظة دون أن تحاول القيام بعمل قد يساعد على إنقاذه. كانت المشاريع الغريبة، الفائقة الخطورة بالنسبة لها، تأخذ كل وقتها عندما تتحدّث مع جوليان.

السجانون، دُفع لهم المال الكثير، فتركوها تسرح في السجن. لم تكن أفكار ماتيلد تنحصر في التضحية بسمعتها؛ فلم يكن يهمها، على الاطلاق، أن يعرف العالم من هي. كان أقل ما يرد من خواطر على ذهنها الشجاع المدله، الركوع أمام عربة الملك تسير بسرعة لتلفت انظار الأمير، معرضة نفسها للهلاك تحت سنابك الخيل والعجلات، لطلب العفو عن جوليان من الملك، وكانت واثقة أنها تستطيع أن تجد مكانها في بلاط الملك، بواسطة أصدقائها هناك.

كان جوليان يجد أنه لا يستحق كل هذا الاخلاص. تعب

من البطولة. كان يشعر أنه يكتفي بحنان بسيط ساذج، شبه خجول، ليحس بالحنين؛ أما ماتيلد، فكانت، على العكس، تريد دائماً حولها جمهوراً يقدّر قلبها الكبير.

فوسط كل لوعتها وخشيتها على حياة هذا الحبيب الذي لم تكن تريد الحياة بعده، كانت بحاجة خفية لادهاش الجمهور بفرط حبها وروعة ما تقوم به.

وكان جوليان يشعر بالأسى لأنه لا يتأثر بهذه البطولة. كيف كانت حاله لو عرف كل الأعمال الجنونية التي قامت بها ماتيلد، تدهش بها تفكير فوكيه المخلص الطيب، ولكن المعقول المحدود؟

لم يكن فوكيه يعرف تماماً ما لا يعجبه في إخلاص ماتيلد، لأنه هو أيضاً كان على استعداد للتضحية بكل ما يملك، وللمجازفة بحياته لانقاذ جوليان. أثارت دهشته كمية الذهب التي رمتها ماتيلد. وكانت المبالغ التي أنفقتها في الأيام الأولى فرضت عليه احترامها، وهو الذي يحترم المال كأي ريفي.

وأخيراً، اكتشف أن مشاريع الآنسة ده لامول تتبدل دوماً، وعندئذ انشرح صدره كثيراً لأنه اكتشف كلمة يصف بها ما لا يعجبه في شخصيتها التي كانت تتعبه: إنها متقلبة. ولم يكن بين هذه الكلمة وبين كلمة الغباء، وهي قمّة العيوب عند الريفيين، إلا خطوة واحدة.

كان جوليان يقول، ذات يوم، بعد أن خرجت ماتيلد من سجنه: من الغريب أن لا يؤثر فيّ هذا الغرام المشبوب! قرأت أن قرب الموت يجعل الإنسان لا مبالياً بكل شيء، ولكن من البشع أن أحس بالجحود، وإنني لا أستطيع أن أتغير. هل أنا أناني إذن؟ ولام نفسه على ذلك ووصفها بأحط النعوت.

مات الطموح في قلبه، وخرج من الرماد غرام جديد، اسمه الندم على محاولة قتل السيدة ده رينال.

في الواقع، كان جد مدلّه بحبها ويجد لذة فريدة، عندما يتذكر، وحيداً دون خشية من أن يقاطعه أحد، الأيام السعيدة التي قضاها معها في فريير أو فرجي.

كان أقل الأحداث التي وقعت في تلك الأيام التي مضت سريعاً، يعود إلى ذاكرته منعشاً ساحراً لا يقاوم. فكّر بنجاحه هذا في باريس. وأحس لذلك بالانزعاج.

واكتشفت ماتيلد بغيرتها هذه الأحوال الجديدة أو بعضها. شعرت أن عليها مقاومة حب العزلة عنده. وكانت في بعض الأحيان تورد اسم السيدة ده رينال، فترى جوليان يرتجف. ولم يعد لحبّها أية حدود أو قياسات.

كانت تقول بكل إخلاص:

ـ إذا مات، سأموت بعده. ماذا يقولون في صالونات باريس عندما يرون فتاة، من طبقتي، تتدله في حب رجل يسير نحو الموت؟ لكي يعرفوا هذه المشاعر، عليهم أن يعودوا إلى زمن الابطال، أن حباً من هذا النوع كان يثير نبض قلب شارل التاسع أو هنري الثالث.

كانت تقول برعب، وسط هذه الانطلاقات العاطفية، وهي تضمّ رأس جوليان إلى صدرها:

ـ ماذا! هذا الرأس الساحر سوف يسقط!

وتضيف، يشعلها الحماس البطولي الذي لم يكن خالياً من السعادة:

ـ وبعد! إن شفتي الملتصقتين بهذا الشعر، ستتجمـدان بعد أقل من أربع وعشرين ساعة.

كان تذكرها للحظات البطولة هذه وللذة البشعة، يقيّدانها بقيود لا تقهر. فكـرة الانتحار، وهي تشغـل البال إذا أتت منفردة، دخلت إلى هذه النفس المتعالية، ثم تحكمت فيها تماماً. لا، إن دم أجدادي لم يبرد وهو يسري في عروقي. كان هذا ما تقوله ماتيلد بفخر واعتزاز.

وقال لها جوليان ذات يوم:

ـ إن عندي شيئاً أطلبه منك، ضعي ابنك عند مربيّة في فريير، والسيدة ده رينال ستراقب المربية.

وشحب لون ماتيلد وهي تقول:

ـ ما تقوله لي قاس. . .

وصرخ جوليان وهو يفيق من أحلامه:

ـ صحيح، أطلب منك العفو.

ثم ضمها بين ذراعيه.

وبعد أن مسح دموعها، عاد لفكرته، ولكن بمهارة أكبر. أعطى مجرى الحديث طابعاً فلسفياً حزيناً. كان يتكلم على هذا المستقبل الذي سينتهي قريباً بالنسبة له.

ـ يجب أن نعترف، يا صديقتي العزيزة، أن الحب شيء عارض في الحياة، ولكنه لا يصادف إلا عند النفوس المتفوقة. . . إن موت ابني سيكون سعادة لعائلتك. وهذا ما يدركه أي إنسان. . . في لحظة لا أريد تحديدها، ولكن شجاعتي تجعلني أراها، أتمنى أن تقومي بإطاعة نصائحي الأخيرة. ستتزوجين المركيز ده كروازنوا.

ـ ماذا! وأنا مجللة بالعار؟

ـ العار لا يمكن أن يلحق اسماً كاسمك. ستكونين أرملة.

أرملة رجل مجنون. هذا كل ما في الأمر. بل سأقول لك أكثر من هذا: بما أن المال ليس الدافع في جريمتي، لن يكون سبباً في العار. وقد يحدث أن ينجح بعض المشرّعين الفلاسفة في إلغاء حكم الاعدام. وعندها يقول بعض الاصدقاء: لاحظوا مثلاً، كان زوج الآنسة ده لامول الأول مجنوناً، ولكنه لم يكن خبيثاً. كان من السخف أن يقطع رأسه... وعندها لن يكون ذكري مشيناً، على الأقل، بعد مضيّ بعض الوقت... وضعك في المجتمع، وثروتك، واسمحي لي أن أقول، ذكاؤك، مما يتيح لك دفع المركيز ده كروازنوا بعد أن يصبح زوجك، إلى لعب دور، لم يكن يستطيع منفرداً القيام به. إنه لا يملك إلا النبل والشجاعة. وهذه الصفات التي كانت عام ١٧٢٩ تجعل من الشخص رجلاً كاملاً، لم تعد تكفي وحدها الآن. وحتى يستطيع المرء تزعّم الشبيبة الفرنسية يجب أن يملك صفات أخرى غيرها.

ستضعين شخصيتك الحازمة في خدمة الحزب السياسي الذي تدفعين زوجك إليه. تستطيعين خلافة شيفروز ولونغفيل ده لافروند... ولكن النار السماوية التي دفعت لكل هذا، ستخف حدتها في هذه اللحظة.

وأضاف بعد أن مهد لما سيقوله بعدة جمل:

ـ واسمحي لي أن أقول: بعد خمسة عشر عاماً ستتطلعين إلى غرامك الذي أحسست به نحوي، كعمل جنوني، وتغفرينه لنفسك، ولكنه يبقى عملاً جنونياً.

توقّف فجأة وبدا أنه يحلم. عادت إليه، من جديد، الفكرة التي كانت تضايق ماتيلد: بعد خمسة عشر عاماً، السيدة ده رينال ستحبّ ابني، وستنسينه أنت.

٤٠

الهدوء

لأنني كنت مجنوناً عندئذ، أنا اليوم عاقل.
أيها الفيلسوف الذي لا ترى إلا العفوية،
نظرك قصيرا عينك لا تستطيع أن تتابع
عمل الحب الخفي.

غوته

قوطعت هذه المحادثة، باستجواب تبعته مقابلة مع المحامي المكلف بالدفاع. وكانت هذه اللحظات، أزعج ما تكون لانسان غارق في أحلامه الحنونة الهانئة.

قال جوليان للقاضي والمحامي:

ـ في الأمر جريمة قتل، عن سابق تصور وتصميم. وأضاف

وهو يضحك: آسف جداً أيها السيّدان لأن هذا يقلل كثيراً من عملكما.

كان جوليان يقول لنفسه بعد أن تخلّص من هذين المخلوقين: لا بد أنني شجاع، وأكثر شجاعة من هذين الشخصين كما يظهر. ينظران إلى مقابلتي كمبارزة مزعجة ذات نهاية تعيسة، أما أنا فلا أهتم بها إلا يوم وقوعها.

تابع جوليان وهو يتفلسف: قاسيت من تعاسة أكبر؛ كنت أقاسي كثيراً في رحلتي الأولى لبزانسون، عندما ظننت أن ماتيلد تخلت عني... ومع ذلك، غريب، كنت أتمنى هذه المخلوقة الرائعة آنذاك، وهي الآن لا تهمّني على الاطلاق!... أحس بسعادة عندما أكون وحيداً، أكثر من الوقت الذي تشاركني فيه هذه الفتاة عزلتي...

المحامي، وهو رجل قانوني يهتم بالشكليات، ظن انه مجنون، وفكر كالجميع، بأن الغيرة هي التي جعلته يطلق النار. وذات يوم، جازف فلمّح لجوليان أنه سواء كان هذا الادعاء صحيحاً أو مغلوطاً، يصلح تماماً كمادة لدفاعه. ولكن المتهم عاد في لحظة إلى طبيعته الحساسة فصرخ خارجاً عن هدوئه.

ـ أحلفك بحياتك، أيها السيد، ألّا تستخدم هذه الكذبة البشعة. وخاف المحامي الحذر من أن يقتله جوليان.

بدأ في تحضير دفاعه، لأن اللحظة الحاسمة تقترب بسرعة. وكانت بزانسون كما كل المقاطعة، تتحدث عن هـذه القضية المشهورة. كان جوليان يجهل هذه التفاصيل. وطلب من الجميع ألاّ يحدّثوه عن أشياء كهذه.

ذلك اليوم، أراد فوكيه وماتيلد أن يطلعا جوليان على بعض ما يشاع، في صالح جوليان. ولكنّ هذا الأخير قاطعهم منذ الكلمة الأولى:

ـ اتركوا لي حياتي المثالية، حكاياتكم البسيطة وتفاصيلكم عن الحياة الحقيقية، تزعجني في قليل أو كثير، وتنتزعني من السماء. إن الانسان يموت كما يستطيع. وأنا لا أريد أن أفكر في الموت إلا على طريقتي. ماذا يهمني من الآخرين؟ ستنقطع علاقاتي مع هؤلاء الآخرين فجأة. أرجوكم لا تتحدثوا عن هؤلاء الناس. يكفيني ما أسمعه من القاضي والمحامي.

كان يقول لنفسه: يظهر أنني سأموت وأنا أحلم. إن مخلوقاً مجهولاً، مثلي، يثق في أن الجميع سينسوه بعد خمسة عشر يوماً، سيكون مغفلاً، ويجب أن أقر بهذا، إذا استمـريت في لعب لعبتي...

والغريب مع ذلك، أنني لم أعرف فن الحياة إلا عندما أرى نهايتها قريبة مني.

كان يقضي أيامه الأخيرة، في التجوّل على الشرفة الصغيرة في البرج العالي، يدخن أحسن انواع السيجار التي أرسلت ماتيلد في طلبها من هولندا، ببريد كانت جميع المحطات في المدينة تنتظره. كانت أفكاره في فرجي. لم يحدّث أبداً فوكيه عن السيدة ده رينال، ولكن هذا الصديق قال له مرتين أو ثلاث مرات، أن صحتها تتحسن باطراد، وكانت هذه الكلمة ترن في قلبه.

وبينما أفكار جوليان في عالم الأفكار بصورة دائمة تقريباً، كانت ماتيلد، المنهمكة في الأشياء الواقعية، كما يليق بالأشخاص الارستقراطيين، نجحت في إقامة صلات مباشرة بين السيدة ده فرفاك والسيد الأب ده فريلير، لدرجة أن كلمة أبرشية لفظت عدة مرات.

أضاف رجل الدين المحترم لقريبته في إحدى رسائله:

- «هذا المسكين سوريل ليس إلا طائشاً. أرجو أن يعيدوه إلينا.

وعندما رأى الأب ده فريلير هذه السطور، أحس بأنه يخرج عن هدوئه. فلم يعد يشك في إنقاذ جوليان. فقال لماتيلد عشية اختيار لائحة المحلفين:

- لولا هذا القانون اليعقوبي الذي نص على وجوب انشاء هيئة كبيرة من المحلفين، ولا يهدف إلا إلى تعطيل نفوذ النبلاء، لكنت أضمن لك الحكم. نجحت في تبرئة الأب فـ...

وسرّ الأب ده فريلير عندما رأى، في اليوم التالي، اسماء خمسة

من المجمع الكنسي في بزانسون، واسماء السادة فالينو ونوارو وشولان بين أسماء الغرباء عن المدينة. فقال لماتيلد:

ـ أضمن لك أولاً أصوات هؤلاء المحلفين الثمانية. فالينو عميلي ونوارو مدين لي بكل شيء، أما شولان فليس إلا غبياً يخاف من كل شيء.

نشرت صحيفة المقاطعة أسماء المحلفين، وأرادت السيدة ده رينال أن تحضر إلى بزانسون، دون أن تجرؤ على تفسير ذلك لزوجها. وكل ما استطاع السيد ده رينال أن يستخلصه منها، وعداً منها أن تبقى في فراشها، حتى لا تُطلب للشهادة. فقال لها عمدة فريير السابق:

ـ لن تفهمي أبداً موقفي، إنني الآن متحرر كما يقولون؛ إنني واثق أن هذا الرقيع ده فالينو والسيد ده فريلير سينالون بسهولة من المدعي العام والقضاة ما يريدونه ليستطيعا مضايقتي.

واستسلمت السيدة ده رينال دون جهد إلى أوامر زوجها، فقالت لنفسها: لو ظهرتُ في قاعة محكمة الجنايات، لخيِّل للجميع أنني أريد الانتقام من جوليان.

ورغم كل وعودها لزوجها ولقسيسها، بالتزام جانب الحذر، كتبت بخط يدها إلى كل من المحلفين الستة والثلاثين:

«لن أظهر في قاعة المحكمة نهار الحكم، أيها السيد، لأن وجودي قد لا يكون مفيداً لقضية السيد جوليان سوريل. لا

أتمنى في الدنيا إلاّ إنقاذه. لا تشك يا سيدي في أن فكرة موت بريء بسببي سيسمم كل ما تبقى من عمري، وستكون عاملاً في تقصيره. كيف تستطيعون الحكم عليه بالاعدام وأنا لا أزال أعيش؟ المجتمع لا يملك حق انتزاع حياة أي إنسان، وخصوصاً إذا كان مثل جوليان سوريل. كل سكان فريير يعرفون. تمر به لحظات طيش وضياع. إن لهذا الشاب المسكين أعداء أقوياء، ولكن من من أعدائه يشك في مواهبه وعلمه العميق؟ الموضوع الذي ستحكم فيه، ليس موضوعاً عادياً. عرفناه ثمانية عشر شهراً، متديناً عاقلاً مجتهداً. ولكن، تمرّ به مرتين أو ثلاث مرات، فترات تعاسة تفوق الحد، دون سبب، تبلغ بعض الأحيان الضياع. كل مدينة فريير، كل جيراننا في فرجي، حيث نمضي الصيف، كل عائلتي، بل والسيد نائب العمدة نفسه، يقدّرون ورعه الكامل. يحفظ التوراة المقدسة غيباً. فهل يستطيع رجل سيّء أن يثابر خلال سنوات طويلة على حفظ الكتاب المقدس؟ أطفالي يتشرّفون بتقديم هذه الرسالة لك: أنهم أطفال. فتفضّل واسألهم يا سيدي، وسيعطونك كل التفاصيل حول هذا الشاب المسكين، وهي تكفي لاقناعك ببربرية الحكم عليه. إنك بهذا تقتلني بدلاً من أن تنتقم لي.

ماذا يستطيع أعداؤه أن يقولوا عنه؟ الجرح الذي سببه في لحظة من لحظات جنونه الذي كان أولادي أنفسهم يلاحظونه

عنده، هذا الجرح بسيط قليل الأهمية، شفيت منه بعد أقل من شهرين، واستطعت أن أركب العربة إلى بزانسون. فإذا علمت، يا سيدي، أنك تتردّد في إنقاذ مخلوق بريء، من بربرية القوانين، سأخرج من سريري حيث تحتجزني أوامر زوجي، وسأذهب للارتماء على قدميك.

أعلن أيها السيد أن التصميم لم يكن موجوداً، ولن تندم على إنقاذ دم بريء.» الخ... الخ.

٤١
الحكم

ستتذكر البلاد هذه القضية الشهيرة. الاهتمام بالمتهم بلغ أقصى حدته: ذلك أن جريمته كانت مدهشة، ولكنها لم تكن قاسية. هل كان هذا الشاب الجميل قاسياً؟ مواهبه العظيمة غابت بسرعة، وكانت تزيد في العطف عليه. هل يحكمون عليه؟ كان الجميع يتساءلون، نساء ورجالاً، هذا السؤال، وينتظرون الجواب شاحبين.

سانت بوف

اخيراً جاء اليوم الذي تخشاه السيدة ده رينال وماتيلد.

كان مظهر المدينة الغريب يزيد في رعب ماتيلد، ويترك فوكيه

الطيب الحازم في الارتعاش. تراكضت كل المقاطعة إلى بزانسون، لترى نهاية هذه القضية العاطفية.

ولم يعد من مكان في فنادق المدينة. طلبات حضور القضية أغرقت رئيس المحكمة. كانت كل نساء المدينة تريد حضور الحكم. وكان ينادى على صور جوليان في الشوارع... الخ...

كانت ماتيلد تحتفظ حتى هذه اللحظة الحاسمة، برسالة مكتوبة بكاملها، بيد المونسنيور الكاهن ده... وكان رجل الدين هذا يُسيِّر كنيسة فرنسا، ويعيِّن الكهنة، وتفضّل فطلب تبرئة جوليان. وعشية صدور الحكم، حملت ماتيلد هذه الرسالة إلى المبعوث الكبير القوي.

عند انتهاء المقابلة، وكانت ماتيلد تبكي، قال لها، وهو يخرج أخيراً عن تحفظه الدبلوماسي، بعدما قارب على الانفعال:

ـ اضمن لك رأي المحلفين. فبين الشخصيات الاثنتي عشرة المكلفين بالتدقيق إذا كانت جريمة من تحميه مستمرة، وخصوصاً إذا كانت متعمدة، ثمة ستة مدينون لنفوذي بما وصلوا إليه، وافهمتهم أن مستقبلي ككاهن يتعلق بهم. البارون فالينو الذي جعلت منه عمدة فريير، يؤثر على شخصين من التابعين لارادته: السيد موارو والسيد شولان. والقدر أمَّن لنا في هذه الدورة محلفين غبيين، لأنهما رغم تحررهما، يتبعان أوامري في

المناسبات الكبيـرة. طلبت منها أن يصـوّتا كـما السيد فـالينو وعلمت أن محلفاً سادساً، وهو صناعي شديد الغنى، ومتحرر ثرثار، يطمح في السر، لضمان صفقة مع وزارة الحربية. ولا شك في أنه لا يريد إغضابي. قلت له أن السيد فالينو يعرف آخر قراراتي.

وقالت ماتيلد منزعجة:

ـ ومن هو السيد فالينو هذا؟

ـ لو كنت تعرفينه، لما استطعت الشك لحـظة في النجاح. متكلم جريء وقح فظ، خلق ليقـود الأغبياء. انتشلتـه سنة ١٨١٤ من الفقر وسأجعل منه محافظاً. قادر على التعارك مع المحلفين الآخرين إذا لم يصوتوا كما يريد.

وأحست ماتيلد ببعض الاطمئنان.

في السهرة، كانت تنتظرها مناقشة أخرى. قرر جوليان ألا يتكلم حتى لا يطيل مشهداً لا يعجبه. كان واثقاً بنهايته. فقال لماتيلد:

ـ المحامي يتكلم، وهذا يكفي. لا أريد إطالة عرض نفسي أمام أعدائي كلهم. بين هؤلاء الريفيين، يحسدونني على الثروة التي كوّنتها سريعاً بفضلك، ليس من لا يتمنى الحكم علي، ثم

يبكي كالغبي، بعد أن أساق إلى الموت.

وردت ماتيلد:

ـ يريدون رؤيتك مهاناً، صحيح، ولكنني لا أعتقد أنهم قساة. وجودي في بزانسون، ورؤية ألمي أثار جميع النساء، وسيقوم وجهك الجميل بالباقي، فإذا قلت كلمة أمام القضاة، الجميع سيقفون إلى جانبك. الخ...

اليوم التالي، عندما نزل جوليان، في التاسعة، من سجنه ليذهب إلى القاعة الكبرى، في قصر العدل، وجد الدركيون صعوبة كبرى شقّ طريق لهم وسط الجمهور الحاشد في البهو. نام جوليان جيداً، وكان هادئاً جداً، لا يحس إلا بشفقة فلسفية نحو هذا الجمهور من الحاسدين الذين كانوا هنا، ليصفقوا، دون قسوة من جانبهم، لقرار إعدامه. دهش عندما احتجز أكثر من ربع ساعة، وسط هذا الحشد، واضطر للاعتراف بأن وجوده كان يوحي للجميع بشعور من الشفقة الحنون، فلم يسمع أية كلمة مزعجة. فقال لنفسه: هؤلاء الريفيون أقل خبثاً مما كنت أتصور.

وعندما دخل قاعة المحكمة، دهش من أناقة البناء. كان الطراز قوطياً تحوطه أعمدة جميلة صغيرة عديدة منحوتة من الحجر بعناية فائقة. فظن نفسه في إنكلترا.

ولكن سرعان ما أخذ بمنظر اثنتي عشرة أو خمسة عشرة امرأة جميلة، يجلسن تجاه قفص المتهم، ويملأن ثلاث شرفات فوق منصة القاضي والمحلفين. وعندما التفت إلى الجمهور، وجد المنصة الدائرية الموجودة فوق المدرج، مليئة بالنساء: وكانت غالبيتهن فتيات جميلات، عيونهن براقة يبان فيها الاهتمام. وكان الجمهور محتشداً في القاعة، ويتدافع الناس بالمناكب عند الأبواب، ولم يستطع الحراس أن يفرضوا الصمت على الحاضرين.

ولما أحست جميع العيون المشرئبة نحو جوليان، بوجوده، ورأته يحتل مكانه الذي يعلو قليلاً، مكان المتهم، استقبل بهمهمة تعجب واهتمام حنون.

كان مظهره لا يدل، يومها، على أنه تخطى العشرين. ملابسه بسيطة جداً، ولكنها فائقة الذوق، أما شعره وجبهته فكانا ساحرين. أشرفت ماتيلد نفسها على زينته. كان شحوبه قوياً. ولم يكد يجلس في مكانه حتى سمع أصواتاً، من جميع الجهات، تقول: الله كم هو شاب!... ولكنه لا يزال طفلاً... إنه أحسن من صورته.

وقال له الدركي الجالس إلى يمينه:

ـ أيها المتهم! هل ترى هاتيك النساء الستة يحتللن الشرفة؟

وأشار الدركي إلى منصة صغيرة ناتئة على الجدار فوق المدرج، عند مكان المحلفين. إنها امرأة المحافظ، وتابع الدركي: وإلى جانبها المركيز ده م. تحبك جداً، سمعتها تحدث عنك قاضي التحقيق. وبعدها السيدة درفيل...

وصرخ جوليان:

ـ السيدة درفيل؟ وكسى الاحمرار وجهه. وفكر: ستكتب، بعد خروجها من هنا، إلى السيدة ده رينال. وكان يجهل أن السيدة ده رينال أتت إلى بزانسون.

سُمِعت أفادات الشهود بسرعة. وبعد أن تلفظ المدعي العام بكلمات اتهامه الأولى، سالت دموع سيدتين من اللواتي يجلسن في الشرفة الصغيرة، مقابل جوليان. وفكر جوليان: لن تتأثر السيدة درفيل. ومع ذلك لاحظ الاحمرار يكسوها.

وأفاض المدعي العام، بفرنسية سيئة، عن بربرية الجريمة المقترفة. ولاحظ جوليان أن جارات السيدة درفيل، لا يؤيّدن بأيّ حال ما يقول الاتهام. وكان بعض المحلفين يتكلمون معهن، كأنهم أثاروا اطمئنانهن.

فكّر جوليان: هذا لا شك فأل حسن.

كان، حتى هذه اللحظة، يحسّ باحتقار فظيع نحو كل

الرجال الذين حضروا الجلسة. وكانت بلاغة المدعي العام البلهاء تزيد في شعور الاشمئزاز هذا. ولكن هذا الجفاف عند جوليان، بدأ يزول رويداً رويداً رويداً، أمام علامات الاهتمام التي كان موضعها.

سرّ لهيئة محاميه الحازمة. قال المحامي لجوليان، قبل أن يبدأ مرافعته:

ـ ولا جملة! ثم قال المحامي:

ـ الحديث، المسروق عن بوسويه، الذي عرض أمامكم أفادكم ولا شك.

وبالفعل، لم يكد يتكلم خمس دقائق حتى كانت غالبية النساء تمسك محارمها بين أيديها. فوجه المحامي، إذ تشجع تماماً، أشياء قوية إلى المحلفين. وارتجف جوليان. أحس أنه يوشك على البكاء. يا إلهي ماذا سيقول أعدائي!

كاد يستسلم إلى الضعف الذي انتابه، لولا أنه، لحسن الحظ، لاحظ نظرة شامتة من قبل البارون ده فالينو. فقال لنفسه: إن عيني هذا الرقيع مشتعلتان. أيّ انتصار في نفسه! يكفي أن تسبب جريمتي هذه النتيجة فقط، لألعنها وأندم على ارتكابها. الله يعلم ماذا سيقول عني للسيدة ده رينال!

ومحت هذه الفكرة كل الأفكار الباقية. وبعد وقت طويل، عاد جوليان لنفسه، بعد أن رأى الجمهور من جديد أخذه الحنان. وكان المحامي انتهى من مرافعته. فتذكر جوليان من اللياقة أن يشد على يده مهنئاً وكان الوقت مضى بسرعة كبيرة.

احضرت المرطبات إلى المحامي والمتهم. وعندها لاحظ جوليان مناسبة أدهشته: لم تترك أية امرأة الجلسة لتذهب إلى العشاء.

وقال المحامي:

ـ وحق إيماني، أموت من الجوع، وأنت؟

رد جوليان:

ـ وأنا كذلك.

قال له المحامي وهو يشير إلى الشرفة الصغيرة:

ـ انظر، ها السيدة زوجة المحافظ تتناول طعامها. حسناً، تشجع، كل شيء على ما يرام. واستؤنفت الجلسة.

وبينما الرئيس يقوم بتلخيص الوقائع، دقت الساعة منتصف الليل. اضطر القاضي للتوقّف. ورنّت دقات الساعة في القاعة، وسط هذا السكون المهيمن على الجميع.

وفكر جوليان: ها هو يبدأ آخر يوم من أيامي.

وسرعان ما أحس بنفسه يلتهب مفكراً بالواجب. سيطر حتى الآن، على شعوره بالحنان، واحتفظ بقراره فلم يتكلم. ولكنه نهض عندما سأله رئيس محكمة الجنايات، عما إذا كان عنده شيء ليقوله. ورأى أمامه السيدة درفيل، ظهرت له، في النور، متألقة. ففكر: هل من المعقول أن تبكي؟

«أيها السادة المحلفون:

«رعبي من الاحتقار الذي كنت اعتقد أنني سأستطيع تحمله في ساعة موتي، يجعلني أتكلم. أيها السادة، ليس لي شرف الانتماء إلى طبقتكم، إنكم ترون فيَّ فلاحاً، ثار ضد انحطاط حظه.

وتابع جوليان وهو يؤكد على كلماته:

«لا أطلب منكم أية رحمة. ولا أخدع نفسي مطلقاً، فالموت ينتظرني وهو عقاب حق. حاولت الاعتداء على امرأة يجب أن احترمها وأقدرها أكثر من كل النساء. كانت السيدة ده رينال، لي، أكثر من أم.

جريمتي بشعة. وهي عن سابق تصور وتصميم. استحق الموت إذن أيها السادة المحلفون. ولكنني عندما أكون أقل ذنباً مما

أنا، أرى الرجال الذين يريدون معاقبتي، دون أن يستثير فيهم شبابي أية عاطفة، لا يريدون إلا تثبيط همم كل الشبان، الذين ولدوا في الطبقات الدنيا، والذين يسحقهم الفقر نوعاً، ممن قد يجدون بعض الفرص لتلقي تربية صالحة، وبعض الجرأة للدخول إلى ما يدعوه كبرباء الأغنياء: المجتمع.

«هذه هي جريمتي، أيها السادة، ولا شك في أنّ العقاب سيكون أشد، لأن من يحاكمني ليس من طبقتي. لا أرى على مقاعد المحلفين أي فلاح غني، بل بورجوازيين يشعرون أنني أهينهم. . .».

تكلم جوليان، ثلث ساعة بهذه اللهجة والطريقة. قال كل ما كان يثقل على قلبه. المدعي العام، وكان يطمح إلى اكتساب رضى الارستقراطية، قفز فوق مقعده. ولكن جميع النساء كن يبكين، رغم اللهجة الغامضة التي استعملها جوليان، وكانت السيدة درفيل نفسها تمسك منديلها بيدها، وتضعه على عينيها.

وقبل أن ينهي جوليان كلامه، عاد إلى موضوع سبق الاصرار والتعمد، وإلى ندمه واحترامه، وعواطفه البنوية نحو السيدة ده رينال. . . فأطلقت السيدة درفيل صرخة ووقعت مغشياً عليها.

دقت الساعة الواحدة، عندما انسحب المحلفون إلى غرفتهم. ولم تترك أية امرأة مقعدها. كانت الدموع تتلألأ في عيون بعض

الرجال، وكانت المناقشات حامية في أول الأمر، ولكن قرار المحلفين تأخر شيئاً فشيئاً، وبدأ الارهاق يصيب الجميع، فصمتوا، وكانت اللحظة رهيبة. فالأنوار قليلة الضوء، وجوليان يستمع، مرهقاً، إلى المناقشات تدور حوله إذا كان هذا التأخير في قرار المحلفين لصالحه أو لا. ورأى بسرور، أن الجميع يتمنون له الخير: وطال مكوث المحلفين في الغرفة، ولكن امرأة واحدة لم تترك القاعة.

دقت الساعة الثانية. سمعت حركة واضحة. فتح باب غرفة المحلفين الصغير. تقدم السيد البارون ده فالينو، بخطوة وفورة مسرحية، وتبعه جميع المحلفين؛ فسعل، ثم أعلن أنه يقسم بشرفه وضميره بأنّ المحلفين بالاجماع قرروا أن جوليان سوريل مذنب وأن جريمة القتل التي أرتكبها هي قتل مع سبق الاصرار والترصد: وهذا يؤدي إلى الحكم بالاعدام. وأعلن هذا الحكم بعد لحظة. تطلع جوليان إلى ساعته، وتذكر السيد ده لافاليت... كانت الساعة الثانية والربع. وفكّر: اليوم هو الجمعة.

أجل، ولكن هذا اليوم أسعد يوم في أيام حياة فالينو الذي حكم عليّ... إنني محاط بالاعداء لدرجة لا تستطيع ماتيلد أن تنقذني كما فعلت السيدة ده لافاليت. هكذا إذن، بعد ثلاثة أيام، وفي الساعة ذاتها، سأعرف يسمى بالحياة الأخرى.

وفي هذه اللحظة، سمع صرخة أعادته إلى الدنيا. كانت النساء حوله يبكين، ورأى كل الأنظار تلتفت إلى منصة صغيرة أقيمت في أعلى أحد الأقواس القوطية. عرف بعد قليل أن ماتيلد كانت مختبئة هناك. ولما لم تتجدد الصرخة، عاد الجميع للتطلّع إلى جوليان، الذي كان الدركيون وهم يأخذونه يحاولون فتح الطريق أمام أنفسهم.

وفكّر: فلنحاول ألا نثير ضحك هذا الرقيع ده فالينو. بأي هيئة منكرة متشفية تلفظ بكلامه الذي يؤدي إلى الحكم بالاعدام! بينما رئيس محكمة الجنايات المسكين، رغم أنه قاض منذ سنوات طويلة، يكاد يشرق بدمعه وهو يصدر حكمه عليّ. أي سرور يحسه فالينو الآن عندما ينتقم مني، لأن السيدة ده رينال صدّته وفضلتني!... لن أراها إذن بعد الآن!... تم كل شيء... إن وداعاً صغيراً لم يعد ممكناً بيننا... أحس هذا... لكم أكون سعيداً لو استطعت أن أقول لها ما أحسه لهول جريمتي!

واختصر: نلت جزائي الذي استحقه.

٤٢

عندما أعيد جوليان إلى السجن، وُضِع في غرفة معدّة للمحكومين بالاعدام. ولم يلاحظ، هو الذي كان ينتبه إلى أدنى التفاصيل، أنهم لم يعيدوه إلى برجه العالي. كان يفكر في ما سيقوله للسيدة ده رينال، إذا نال سعادة رؤيتها قبل أن ينفّذ الحكم فيه. ويفكر أنها ستقاطعه وستحاول منذ الكلمة الأولى أن تصف له ندمها. بعد حركة كهذه، كيف استطيع أن أقنعها أنني أحبها وحدها؟ لأنني، على كل حال، أردت أن أقتلها لطموحي، أو لحبي لماتيلد.

وعندما ذهب إلى سريره، وجد القماش من النوع البسيط، فتجولت أنظاره حوله وقال:

ـ آه! إنني في غرفة المحكومين بالاعدام. وهذا حق...

روى لي ألتميرا أن دانتون قال، عشية إعدامه، بصوته الجهوري: فعل «أعدم» لا يمكن أن يُصرّف إلّا في المضارع: يستطيع الانسان أن يقول: سأعدم، ستعدم... ولكنه لا يستطيع أن يقول: أعدمت.

وتابع جوليان:

ـ ولم لا، إذا كان من حياة أخرى؟.. يا إلهي، لو أجد إله

المسيحيين هناك، لفقدت كل شيء. انه مستبد، وهو لهذا مشبع بـأفكار الانتقـام. توراتـه لا تتكلم إلاّ على العقـاب القاسي البشع. لم أحبه قط في حياتي، بل لم أصدق مطلقاً أن أحداً يحبه بصـدق. لا رحمة عنـده (وتذكـر عدة صفحـات من التوراة) وسيعاقبني بطريقة مرعبة..

ولكنني إذا وجدت إله فنيلون! فقد يقول لي: سيعفى عنك تماماً، لأنك أحببت بعمق..

ولكن هل أنا أحببت فعلاً بعمق؟ آه! أحببت السيدة ده رينال ولكن تصرفي كان فظيعاً. انني في الآخرة، كما هنا، سأنال عقابي. ولكن أي مستقبل!!!.. كولونيـل في الفرسـان، إذا قامت الحرب، وسكرتير الفرقة خلال السلم، ثم سفير. لأنني كنت سرعان ما اتقن العمليات... وحتى لو كنت غبياً كبيراً الجميع يغفرون لصهر الماركيز ده لامول كل عيوبـه، أو على الأصح يحسبون هذه العيوب، مزايا. وأنا كرجل مميز، سأتمتع بالحياة ولذة الوجود في فيينا ولندن..

ـ ليس تماماً، سيدي، ستعدم بعد ثلاثة أيام.

وضحك جوليان من كل قلبه، لهذه الفكرة الناتئة عن مجرى تفكيره. ففكّر: إن ثمة مخلوقين في داخله. فأي شيطان وسوس له بهذه الفكرة الملعونة؟.

ورد جوليان على صوت نفسه:

- أجل، يا صديقي، ستعدم بعد ثلاثة أيام. وسيستأجر السيد شولان نافذة، يجلس إليها مع الأب ماسلون؛ وبعد، فأي من هذين الشخصين سيسرق الآخر فيتهرب من دفع أجرة النافذة؟.

عاد إلى ذهنه فجأة مقطع من فانسيلاس لمؤلفها روترو:

لاديسلاس

نفسي مستعدة

الملك، والد لاديسلاس

وكذلك المقصلة، فأحمل إليها رأسك.

وفكّر: جواب رائع.

ثم نام. وأيقظه أحدهم في الصباح يشده بقوة. قال جوليان وهو يفتح عينيه:

- ماذا! هل حان الوقت؟

كان يظن نفسه بين يدي الجلاد.

كانت ماتيلد. لحسن الحظ لم تستطع أن تفهمني. وأعادت له

هذه الفكرة كل رباطة جأشه، فوجد أنْ ماتيلد متغيرة كأنها قاست من المرض لشهور كاملة: كان من الصعب فعلاً التعرف إليها.

قالت له وهي تعض على يديها، يمنعها الغضب من البكاء:

ـ خانني هذا الحقير فريليرا

ورد جوليان:

ـ ألم أكن جميلاً، بالأمس، عندما تكلمت؟ ارتجلت كلماتي للمرة الأولى في حياتي. صحيح أنه يخشى ألا تكون المرة الأخيرة أيضاً.

في هذه اللحظة، كان جوليان يتلاعب بعواطف ماتيلد بكل برودة كعازف البيانو الماهر... إن مزايا نبل المحتد تنقصني، وهذا صحيح. وأضاف: ولكن نفس ماتيلد الكبيرة، سمت بحبيبها. هل تظنين أن بونيفاس ده لامول كان أشجع مني أمام قضاته؟

كانت ماتيلد، في هذا اليوم، حنوناً، ولكن دون عواطف، كفتاة مسكينة تقطن الطابق الخامس. ولكنها لم تستطع أن تسمع منه كلمات أكثر بساطة. كان يردّ لها، دون أن يشعر، كل العذاب الذي غالباً ما سببته له.

وكان هو يقول لنفسه: لا أحد يعرف منابع النيـل. عين البشر لم تر مطلقاً ملك الأنهار بشكل ساقية صغيرة: وهكذا لن يتاح لأي عين بشرية أن ترى ضعف جوليان، لسبب واحد أنه ليس ضعيفاً. ولكن لي قلباً تسهل ملامسته؛ أكثر الكلمـات بساطة، إذا قيلت بلهجة صادقة، تستطيع ضعضعة صوتي، بل اسالة دموعي. وكم مرة احتقرتني القلوب القاسية لهذا العيب! كانوا يعتقـدون أنني سأطلب الـرأفة: وهـذا ما لا ينبغي أن أتحمله.

يقال أن ذكرى امرأة، أثارت اضطراب دانتون وهو يصعد درجات سلم المقصلة؛ ولكن دانتون أعطى القوة إلى أمة من الفقراء الطائشين، ومنع العدو من الوصول إلى باريس... وأنا وحدي، لا أعرف ما كان يمكن أن أقوم به... أما بالنسبة للآخرين، فإنني لست إلا «من الجائز».

لو كانت السيدة ده رينال هنا، في غرفتي هذه، مكان ماتيلد، فهل كنت أستطيع أن أضمن نفسي؟ أن ندمي كان يمكن أن يكون في نظر فالينو وبقية الرقعاء مثله، خوفاً حقيراً من الموت. هـذه القلوب الضعيفة، فخـورة بوضعهـا المالي يجعلهـا فـوق التجربة. كان السادة ده موارو وشولان وفالينو الذين أصدروا حكمهم عليّ، يقولون أنظروا ما معنى أن يكون الانسان ابن صاحب منشرة! يمكن أن يصبح عالماً ماهراً، ولكن القلب!...

القلب لا يكتسب أبداً. بل إنني مع ماتيلد المسكينة هذه، التي تبكي الآن، وقال وهو يتطلع إلى عينيها المحمرتين:

ـ على الأصح التي لا تستطيع أن تبكي بعد الآن، وضمها بين يديه: مشهد الألم الحقيقي كفيل بجعلها تنسى منطقها السيء.

وقال لنفسه: من الجائز إنها قضت الليل بطوله تبكي، ولكن في النهار، أي خجل ستحسّه عندما تتذكر هذا! ستتطلع إلى نفسها كالضائعة، في شبابها الأول، لطريقة تفكير رجل حقير من عامة الشعب. إن كروازنوا أضعف من أن يتزوجها، وحق إيماني، معه كل الحق، ستجعله يقوم بدور مهم.

«من الحق الذي يملكه الشخص الحازم في مخططاته

على تفكير البشر العاديين السخفاء».

ـ آه! شيء غريب: منذ أصبح محتّماً أن أموت، تعود إلى ذاكرتي كل أبيات الشعر التي عرفتها طوال حياتي. هذه علامة الانحدار...

وكانت ماتيلد تردد له بصوت منطفىء: إنه هناك، في الغرفة المجاورة. وأخيراً انتبه إلى كلماتها. ففكر: صوتها ضعيف، ولكن شخصيّتها الآمرة لا تزال موجودة في لهجتها. تخفض

صوتها حتى لا تغضب. فقال لها بصوت لطيف:

ـ من؟

ـ المحامي، لتوقّع له طلب الاستئناف.

ـ لن استأنف

قالت وهي تنهض، وفي عينيها بريق الغضب:

ـ كيف لن تستأنف؟ لماذا، ؟

ـ لأنني، في هذه اللحظة، أحس لديّ الشجاعة على الموت دون أن أجعل الناس يضحكون كثيراً على حسابي. ومن يقول لي، إنني سأكون أحسن مني الآن غرفتي هذه، بعد شهرين؟ أتصور مقابلات مع القساوسة، ومع والدي... لا شيء في الدنيا، يمكن أن يكون أكثر إزعاجاً لي من ذلك. فلأمت.

هذه المعارضة غير المتوقعة، أيقظت كل ما في شخصية ماتيلد من كبرياء؛ لم تستطع أن ترى الأب ده فريلير قبل الساعة التي تفتح فيها غرف سجن بزانسون، فانصبّ غضبها كله على جوليان. كانت تعبده، فعاد له، في مدى ربع ساعة كامل، كل تحفظاته من شخصيتها، وفي غمرة ندمه لأنه أحبها، عادت إلى ذاكرته كل الاهانات التي أغرقته بها، في مكتبة قصر ده لامول، فقال لها:

ـ لكنت أمجّد السماء أكثر لو خلقتك رجلاً، لتحفظ جنسك.

وكان يفكر: أما بالنسبة لي، سأكون غبياً، إذا عشت شهرين آخرين بهذا الشكل المزعج، في صراع مع كل ما يمكن لهؤلاء الوقحين أن يخترعوا من إهانات وغضاضة، ولا عزاء لي إلا عناية هذه المجنونة... وبعد، سأتبارز بعد غد صباحاً، مع رجل معروف برباطة جأشه ومهارته الفائقة... وكما يقول المفيستوفيليس: ماهر بشكل لا يمكن له أن يخطىء في تصويبه.

وبعد، يا للحظ السعيد. (وكانت ماتيلد لا تزال تظهر بلاغتها):

ـ لا، لن أستأنف.

اتخذ هذا القرار، وعاد لأحلامه... سيحمل البريد في السادسة تماماً الجريدة كالعادة، وفي الثامنة، ستسير إليزا على أصابع رجليها، وتضعها بعد أن تقرأها، على سرير السيدة ده رينال. وبعد قليل تستيقظ، وفجأة تضطرب عندما تقرأ، وسترتجف يدها الجميلة، فتقرأ حتى آخر كلمة: وفي الساعة العاشرة وخمس دقائق، قضى.

ستبكي بدموع حرّى. أعرفها؛ حاولتُ عبثاً أن أقتلها، وستنسى كل شيء. وسيكون الشخص الذي أردت أن أقتله، هو الوحيد الذي سيبكي لموتي.

وفكّر: آه! هذا تناقض! ولم يفكر في الوقت الذي أمضته ماتيلد عنده. لم يفكر إلا في السيدة ده رينال. ورغماً عنه، رغم أنه كان يرد غالباً على الأسئلة التي توجهها إليه ماتيلد، لم يستطع أن ينتزع من نفسه، ذكرى غرفة النوم في فريير. كان يرى مجلة بزانسون على الحواشي التفتا الليمونية القصيرة. كان يرى تلك اليد الشديدة البياض تمسك بالمجلة في حركة عصبية؛ كان يرى السيدة ده رينال تبكي... ولاحق كل دمعة من هذه الدموع على الوجه الساحر. ولما لم تستطع ماتيلد أن تنال شيئاً من جوليان، أدخلت المحامي، وهو محارب قديم في جيش إيطاليا، سنة ١٧٩٦ وكان زميلاً لمانويل.

ومن ناحية الشكل، حاول المحامي محاربة قرار المحكوم. وكان جوليان يردّ كل استنتاجاته، لأنه كان يريد معاملته باحترام.

وانتهى الأمر بالمحامي فيليكس فانو ـ هذا هو اسمه ـ بأن قال له:

ـ وحق إيماني، يمكن لأحد أن يفكر مثلك. تملك ثلاثة أيام كاملة لتستأنف، ومن واجبي أن أعود إليك كل يوم من هذه الأيام الثلاثة. فإذا انفجر بركان تحت جنبات السجن، في مدى شهرين من اليوم، ستنقذ. ثم قال له وهو يتطلع إليه: ومن الممكن أن تموت من المرض.

شدّ جوليان على يده وقال له: أشكرك. إنك رجل طيب، سأفكر في هذا.

وعندما خرجت ماتيلد أخيراً مع المحامي، أحس أنه يحب المحامي أكثر منها.

٤٣

بعد ساعة، أيقظته من نومه العميق دموع حرى، أحس أنها تسيل على يده؛ ففكّر وهو نصف نائم: آه. إنها ماتيلد أيضاً وأيضاً. تؤمن بالنظريات وجاءت لتهاجم قراري بعواطفها الحنونة. لم يفتح عينيه إذ تضايق من تصوره هذا المشهد الجديد من النوع العاطفي. وعادت إلى ذهنه أبيات بلفغور وهو يهرب من زوجته.

لكنه سمع تنهيدة خاصة، ففتح عينيه ورأى السيدة ده رينال. صرخت وهي ترتمي على قدميه:

ـ آه! ها أنا أراك قبل أن تموت. هل هذا وهم؟

وقال فوراً إذ عاد لنفسه:

ـ ولكن عفواً سيدتي، إنني لست إلا قاتلاً في نظرك.

ـ أيها السيد . . . أتيت أتوسل إليك أن تستأنف. أعرف أنك لا تريد ذلك. . .

واختنق صوتها بالدموع فلم تعد تستطيع الكلام.

ـ أرجوك أن تسامحيني.

فقالت له وهي تنهض لترتمي بين ذراعيه:

ـ إذا أردت أن أسامحك، أستأنف فوراً حكم إعدامك.

وأغرقها جوليان بالقبلات.

ـ وتأتين لرؤيتي كل يوم خلال هذين الشهرين؟

ـ نعم أقسم لك، إلا إذا منعني زوجي عن ذلك.

وصرخ جوليان:

ـ سأوقّع. ماذا! سامحتيني معقول!

وضمّها بين ذراعيه. كان مجنوناً. وندت عنها صرخة خافتة. فقالت له:

ـ ليس شيئاً يذكر. آلمتني.

وصرخ جوليان وهو ينفجر باكياً:

ـ على كتفك. . .

وابتعد قليلاً، ثم أغرق يدها بقبلات حرى.

ـ من كان يقول إن هذا يحدث عندما رأيتك داخل غرفتك في فريير؟

ـ من كان يقول أنني سأكتب هذه الرسالة المخزية إلى المركيز ده لامول؟

ـ إعلمي أنني أحببتك دائماً، وإنني لم أحب أحداً غيرك.

وصرخت السيدة ده رينال منتشية بدورها:

ـ معقول!

واتكأت على جوليان الذي كان راكعاً على ركبتيه، وبكى الاثنان طويلاً بصمت.

لم تمر في حياة جوليان لحظة مثل هذه. وبعد وقت طويل، عندما استطاعا الكلام، قالت السيدة ده رينال:

ـ وهذه السيدة الشابة ميشليه، أو بالأحرى، الآنسة ده لامول، لأنني بدأت أصدق أخيراً هذه الرواية الغريبة!

ورد جوليان:

ـ ليست صحيحة إلا في الظاهر. إنها زوجتي. ليست خليلتي...

وتوصل الاثنان، وهما يقاطع أحدهما الآخر، إلى رواية كل ما كانا يجهلانه. كتب الرسالة إلى المركيز ده لامول، القسيس الشاب الذي كان مرشد السيدة ده رينال، ثم نسختها بيدها بعد ذلك. وقالت له:

- أي إجرام جعلني الدين ارتكبه، رغم أنني خففت من حدة بعض المقاطع البشعة في الرسالة...

كانت كلمات جوليان وسعادته تثبت له أنه غفر لها. لم يكن مجنوناً من الحب في أية لحظة من حياته كما لحظتئذٍ. قالت له السيدة ده رينال خلال الحديث:

- كنت أعتقد أنني متدينة. إنني أعتقد، في صدق، بوجود الله. ثبت لي أن الجريمة التي ارتكبتها بشعة، ولما رأيتك، حتى بعد أن أطلقت عليّ النار...

هنا أغرقها جوليان، رغماً عنها، بسيل من القبلات، فقالت له:

- أتركني، أريد أن أفكر معك، خوفاً من أنسى... عندما رأيتك، غامت من خاطري كل الواجبات، لست إلا محبة لك، أو بالأحرى، إن كلمة المحبة لا تعبر تماماً عما في نفسي. أحس نحوك بما يجب أن أحسه نحو الله وحده: بمزيج من الاحترام والحب والطاعة... والحق إنني لا أعرف تماماً ما توحيه لي. لو

قلت لي أن أطعن السجان، لارتكبت الجريمة قبل أن أفكر فيها. أشرح لي هذا بوضوح قبل أن أتركك، أريد أن أرى بوضوح ما في قلبي، لأننا سنفترق بعد شهرين... ولكن، هل حقاً سنفترق؟

قالت له هذا ضاحكة.

وصرخ جوليان وهو ينهض:

ـ اسحب كلمتي. لن أستأنف الحكم بالاعدام، إذا حاولتِ بالسمّ أو بالسكين أو بالغدارة وضع حد لحياتك.

تغير وجه السيدة ده رينال تماماً، وغام الحنان الفائق أمام الأحلام العميقة. ثم قالت له أخيراً:

ـ لو متنا الآن معاً؟

ورد جوليان:

ـ من يعرف ما سنجده في العالم الآخر. ربما العذاب. وقد يكون العدم. ألا يمكننا قضاء شهرين معاً بطريقة لذيذة؟ شهرين، أي كثيراً من الأيام، سأكون سعيداً أكثر من أي وقت من أيام حياتي!

ـ ستكون سعيداً أكثر من أي وقت من أيام حياتك!

ورد جوليان منتشياً:

ـ أجل، أجل، واتكلم معك كما مع نفسي. والله يمنعني من المبالغة.

قالت وعلى شفتيها ابتسامة خجولة حزينة:

ـ تأمرني بكلامك هذا.

ـ وبعد، أقسمي، بالحب الذي تحسينه نحوي، أن لا تعتدي على حياتك بأية وسيلة مباشرة أو غير مباشرة...

واضاف:

ـ فكّري: يجب أن تعيشي لأبني الذي ستتركه ماتيلد للخدم بعد أن تصبح المركيزة ده كروازنوا.

وردت عليه ببرود:

ـ أقسم. ولكنني أريد أن آخذ استئنافك موقعاً بيدك. سأحمله بنفسي إلى السيد المدعي العام.

ـ إحذري. إنك تخاطرين بنفسك.

وقالت بلهجة متألمة:

ـ بعد الخطوة التي قمت بها لزيارتك في السجن، أصبحتُ إلى الأبد، بالنسبة لبزانسون وكل فرانش كونتيه، بطلة رواية.

تخطيت حدود الخفر القاسي... إنني امرأة فقدت شرفها؛ صحيح إني قمت بهذا لأجلك...

وكانت لهجتها حزينة دفعت جوليان إلى تقبيلها بسعادة جديدة عليه. لم تكن قبلة سكرى من الحب، بل اعترافاً بالجميل. رأى للمرة الأولى في حياته، مقدار التضحية التي قامت بها نحوه.

ولا بد أن متطوعاً أخبر السيد ده رينال عن الزيارات الطويلة التي تقوم بها زوجته إلى سجن جوليان، فأرسل لها عربته، بعد ثلاثة أيام، مع أمر حازم بالعودة فوراً إلى فريير.

كان هذا الفراق القاسي بداية مشؤومة ليوم جوليان. أخبروه، بعد ساعتين أو ثلاث، أن قسيساً مدجلاً، استطاع أن يحشر نفسه بين يسوعيي بزانسون، استقر منذ الصباح قرب باب السجن وسط الشارع.

كان المطر ينهمر بشدة، والقسيس واقف يدعي أنه يقوم بدور الشهيد. وكان جوليان متضايقاً، وازداد ضيقه كثيراً لهذه الحماقة.

في الصباح رفض جوليان استقبال هذا القسيس. ولكن هذا الأخير، كان صمم على أن يأخذ اعتراف جوليان، وعلى أن يكوّن لنفسه اسماً بين نساء بزانسون، بالاعترافات التي سيزعم أنه تلقّاها.

كان يصرخ بصوت عال أنه سيقضي النهار والليل عند باب السجن. أرسلني الله لألمس قلب هـذا الـذي خلع ثـوب الكهنـوت... وبدأ الحثالة من الشعب، أثير فضولهم، في التجمع.

كان يقول لهم:

ـ أجل يا أخوتي، سأقضي هنا النهار والليل، وكل الأيام التالي. صدقّني الروح القدس. لي رسالة. إنني المكلف بانقاذ حياة الشاب سوريل. صلوا معي. الخ... الخ.

خاف جوليان من الفضيحة، ومن كل ما يمكن أن يلفت الأنظار إلى نفسه. كان يفكر في اللحظة المناسبة التي يستطيع أن يترك فيها العالم مجهولاً لا يحسّ به أحد. ولكنه كان يأمل أن يرى مرة أخرى السيدة ده رينال، وهو مجنون بحبها.

باب السجن هو في أكثر أحياء بزانسون اكتظاظاً بالسكان. كانت فكرة وجود هذا القسيس والفضيحة التي يسببها تعذب روحه. لا شك يردد اسمي في كل لحظة! وكانت هذه اللحظة أشد وقعاً عليه من الموت.

مرتين أو ثلاثاً، بين كل مرة وأخرى ساعة، نادى واحداً من حملة مفاتيح السجن كان مخلصاً له، ليسأله عما إذا كان القسيس الشاب لا يزال خارجاً. وكان حامل المفاتيح يقول له دائماً:

ـ راكع على الركبتين، ويصلي بصوت عال، ويتلفظ بكلمات لاتينية على روحك.

وفكر جوليان: الوقح...

في هذه اللحظة سمع ضجيجاً يصم الآذان. كان الشعب يرد على القسيس؛ وزيادة في الشقاء، رأى حامل المفاتيح يحرك شفتيه ويردد الكلمات اللاتينية.

وأضاف حامل المفاتيح:

ـ بدأ الناس يقولون إن قلبك متحجر لرفضك معونة هذا الرجل. القديس.

وصرخ جوليان وهو فائر من الغضب.

ـ اواه! إنك لا تزال بربرياً!

وتابع فكرته بصوت عال دون أن ينتبه إلى وجود حامل المفاتيح:

ـ هذا الرجل يريد تحقيقاً لإحدى الصحف. وها هو الآن واثق من الحصول عليه.

أيها الريفيون الملاعين! لو كنت في باريس لما تعرضت لكل هذا. البشر هناك ماهرون في التدجيل.

وقال جوليانِ أخيراً لحامل المفاتيح، والعرق يتصبب من جبهته:

ـ أدخل هذا القسيس القديس.

ورسم حامل المفاتيح إشارة الصليب وخرج جذلان من الفرح.

كان هذا القسيس بشعاً، ملوثاً بالطين. وكان الطقس الرديء يزيد في ظلامة الغرفة. أراد القسيس تقبيل جوليان، ثم بدأ يلاطفه وهو يتحدث إليه. وكان الخبث واضحاً. ولم يغضب جوليان في حياته كما في هذه اللحظة.

بعد ربع ساعة من دخول القسيس، أحس جوليان بالجبن يعتريه. ظهر الموت، للمرة الأولى، بمظهر مخيف. كان يفكر في حالة الاهتراء التي سيكون فيها جسده بعد يومين من تنفيذ الحكم. الخ... الخ...

أوشك هذا الضعف على الظهور، أو بالأحرى، أوشك جوليان أن ينقضّ على هذا القسيس ليخنقه بسلسلته، عندما خطرت على باله فكرة تكليفه بإقامة قداس رائع بأربعين فرنكاً.

وكان الوقت ظهراً، فسارع القسيس بالرحيل.

ما ان خرج، حتى بكى جوليان كثيراً، وكان بكاؤه من الموت. ورويداً رويداً، قال لنفسه: لو كانت السيدة ده رينال هنا في بزانسون، لاعترف لها بضعفه هذا..

وفي اللحظة التي كان يحس بالأسى لغياب هذه المرأة المعبودة، سمع وقع خطوات ماتيلد.

وفكّر: أقسى تعاسة في السجن ألا يستطيع السجين أن يغلق بابه. ولم تنجح أقوال ماتيلد إلا في زيادة ألمه وحسرته.

حكت له أن السيد ده فالينو كان يملك قرار تعيينه محافظاً، يوم الحكم، فسمح لنفسه بالسخرية من السيد ده فريلير، وانشرح صدره عندما حكم عليه بالاعدام. قال لي السيد ده فريلير:

ـ أية فكرة خطرت على بال صديقك فأيقظ كبرياء هؤلاء البورجوازيين الارستقراطيين الصغار! لماذا تكلم على الطبقات؟ هداهم إلى ما يجب أن يفعلوه لحماية مصالحهم السياسية: ولم يكن هؤلاء يفكرون في هذا. كانوا على استعداد للبكاء. ولكن هذا الحديث عن الطبقات أتى ليغطي أمام أعينهم بشاعة حكم الاعدام. السيد سوريل جديد في هذه الأعمال. إذا لم نستطع

إنقاذه بطلب العفو، سيكون موته نوعاً من أنواع الانتحار. . .

ولم تنس ماتيلد أن تقول لجوليان ما لم تكن تشك فيه: وهو أن الأب ده فريلير، بعد أن رأى جوليان محكوماً بالموت، كان يعتقد من المفيد، لتحقيق آماله، أن يطمح للحلول مكانه عندها.

- هيا، إذهبي واسمعي قداساً لأجلي. واتركي لي لحظة أنعم فيها بالسكينة.

بكت ماتيلد. أحست بالغيرة الشديدة من زيارات السيدة ده رينال لجوليان. وعلمت بنبأ رحيلها.

كان ألمها حقيقياً، وكان جوليان يعرف هذا، ولكنه لم يزده إلا ضيقاً بها. كان بحاجة ماسة للوحدة، وكيف يحصل عليها؟

وأخيراً، ذهبت ماتيلد، بعد أن حاولت جهدها لتلطيف الجو، وتركته وحيداً. ولكن فوكيه ظهر في اللحظة نفسها تقريباً. وقال جوليان لصديقه المخلص:

- إنني بحاجة أن أكون وحيداً. . . ولما رآه يتردد أضاف: أعدّ مذكرة لطلب العفو. أعمل معروفاً، لا تحدثني عن موتي. إذا احتجت لأية خدمة خاصة، في ذلك اليوم، اتركني أبداً أنا الحديث عنها.

وعندما ترك جوليان أخيراً وحيداً، وجد نفسه مهموماً أكثر وأشد جبناً من السابق. محاولاته لاخفاء حالته عن الآنسة ده لامول وفوكيه، استنفذت ما تبقى من قوة في نفسه المستضعفة.

وفي المساء تعزى عندما خطرت على باله هذه الفكرة:

صباح ذلك اليوم، في اللحظة التي يظهر لي الموت بكل بشاعته، إذا أخبروني عن التنفيذ، وأن أعين الناس أصابها القذى، فقد تظهر تصرفاتي كتصرفات الخجول الذي يدخل المجتمع للمرة الأولى. لبعض الأذكياء بين هؤلاء القرويين أن يعتقدوني ضعفت، ولكن أحداً لن يرى ضعفي...

وأحس أنه يتخلص من بعض تعاسته. كان يردد مرنماً: سأكون جباناً عندئذ، ولكن أحداً لن يعرف ذلك.

وكان حدث أكثر إزعاجاً مما مر به ينتظره في اليوم التالي. مضى وقت طويل ووالده يتهيأ لزيارته. يومها، قبل أن يستيقظ جوليان، ظهر صاحب المنشرة العجوز، بشعره الأبيض، في غرفته.

أحس جوليان بالضعف وانتظر اللوم المقذع. وكأنما كان القدر يريد إزعاجه إلى آخر حد، أحس يومها بتأنيب الضمير لأنه لم يحب والده.

كان يقول، بينما كان حامل المفاتيح يرتب الغرفة نوعاً:

ـ وضعتنا الأقدار جنباً إلى جنب على هذه الأرض، سبب كلانا للآخر أكثر ما يستطيع من الشر. هو الآن آتٍ في لحظة موتي، ليضربني الضربة القاضية.

ويدأ لوم العجوز القاسي، منذ اللحظة التي انفردا فيها.

لم يستطع جوليان أن يمنع دموعه. فقال لنفسه بغضب: أي ضعف مشين هذا! سيذهب ويبالغ في جبني، أي نصر لفالينو وكل الخبثاء الذين يحكمون في فريير! إنهم كثيرون في فرنسا، وهم يملكون كل الامتيازات الاجتماعية. كنت استطيع أن أقول لنفسي حتى الآن: يتلقون الأموال. صحيح أن كل الحسنات من نصيبهم، ولكنني أنا، أملك قلباً نبيلاً.

وها هو الآن شاهد، يصدّقه الجميع، وسيشهد لكل فريير، ويبالغ في أنني كنت ضعيفاً أمام الموت! كنت أكون جباناً في هذه التجربة التي يفهمها الجميع!

كان جوليان يقارب اليأس. لم يكن يعرف كيف يصدّ والده. كان فوق قدرته أن يخدع هذا العجوز فيخفي عنه حالته.

كان ذهنه يستعيد كل الوسائل الممكنة. ثم صرخ فجأة.

ـ اقتصدت بعض المال!

وغيّرت هذه الكلمة العبقرية وجه العجوز وموقف جوليان، وتابع جوليان إذ هدأ بعض الشيء:

ـ كيف أتصرف فيها؟ وزال عنه كل إحساس بالوضاعة بعد أن رأى التأثير الذي أحدثته الكلمة.

تحرق العجوز شوقاً للحصول على هذا المال، الذي كان يظهر أن جوليان يريد تخصيص قسم منه لاخوته. تحدث طويلاً وبحماس. واستطاع جوليان أن يكون ساخراً.

ـ أوحى لي الرب بوصيتي. سأعطي ألف فرنك إلى كل واحد من أخوتي، والباقي لك.

قال العجوز:

ـ حسناً جداً. هذه البقية من حقي. ولكن بما أن الله سمح فلمس قلبك، إذا أردت أن تموت كمسيحي طيب، من اللائق أن تدفع ديونك. ثمة مصاريف غذائك وتربيتك دفعتها مسبقاً، وأنت لا تفكر فيها...

ـ هذا هو إذن حب الأب!

كان هذا ما يردده جوليان، وهو يحس بالاشمئزاز، بعد أن أصبح وحيداً. وسرعان ما ظهر السجان:

ـ أيها السيد، من عادتي أن أحضر لضيوفي زجاجة من خمرة الشمبانيا الجيدة، بعد زيارة الأهل. شيء زهيد الثمن، ولكنه ينعش القلب.

وقال له جوليان بتسرع الأطفال:

ـ أحضر إذن ثلاثة أقداح وناد مسجونين من المساجين الذين اسمعهم يتنزهون في الممشى.

وقاد السجان إلى غرفة جوليان إثنين من المحكومين بالأشغال الشاقة، يستعدان للنفي، بعد أن قاما بتمثيل الجريمة كانا شابين مرحين، ذكيين فعلاً، يمتازان بالشجاعة والنكتة والهدوء.

قال أحدهما لجوليان:

ـ إذا أعطيتني عشرين فرنكاً رويتُ لك حياتي بالتفصيل. إنها تشيب شعر الرأس.

وقال جوليان:

ـ ستكذب.

ورد الشاب:

ـ كلا. صديقي هذا الذي يحسدني على فرنكاتي العشرين سيشي بي إذا أخطأت.

وكانت قصة فظيعة، تدل على شجاعة كبيرة، وليس فيها أية عاطفة، إلا حب المال.

وبعد ذهابها، لم يعد جوليان الرجل هو نفسه. زال كل غضبه وحنقه على نفسه. انقلب الألم القاسي، الذي أحاطه بعد رحيل السيدة ده رينال وتحول إلى كآبة.

كان يقول لنفسه:

ـ لو كنت أقل انخداعاً بالمظاهر، لرأيت في صالونات باريس رجالاً مثل والدي أو أذكياء ملاعين كهذين الشابين. يملكون كل الحق. رجال الصالونات لا يستيقظون مطلقاً وهم يفكرون: كيف أتغدى اليوم؟ وهم مع ذلك! يمتدحون فضيلتهم وعندما يكونون محلفين، يحكمون على الرجل الذي يسرق قبضة من المال ليشتري الخبز، بعد أن يشعر بأن قواه تخونه من الجوع.

ولكن ثمة البلاط. وعندما يتعلق الأمر بالوزارة، يرتكب رجال الصالونات الشرفاء هؤلاء، جرائم مماثلة تماماً لجرائم هؤلاء الذين تدفعهم الحاجة إلى الطعام لارتكاب ما ارتكبه هذان الشابان.

ليس من حق طبيعي: هذه الكلمة ليست إلا خرافة تليق بالمدعي العام الذي طاردني ذلك اليوم، والذي اغتنى جده نتيجة لمصادرة قام بها لويس الرابع عشر. لا حق إلا إذا كان قانون

يمنع القيام بهذا العمل تحت طائلة العقاب. وقبل القانون، لم يكن وجود إلا لقوة الأسد، أو لحاجة الانسان الجائع، الذي يحس بالبرد، الحاجة بكلمة مختصرة... لا، الناس الذين يمجدون ليسوا إلا رقعاء حالفهم الحظ فلم يقبض عليهم بالجرم المشهود. اغتنى المتهم الذي أطلقه المجتمع في مطاردتي، من شيء قبيح. قتلت، وحكمت حكماً عادلاً، ولكن فالينو، الذي حكم عليّ، يضر بالمجتمع مئات المرات أكثر مني.

وأضاف جوليان بحزن لا أثر للغضب فيه:

ـ وبعد، والدي، رغم بخله، يساوي أكثر من هؤلاء الرجال. لم يحبني مطلقاً. فأتيت أكمل سوء حظه بعار موتي جباناً. هذا الخوف من قلة المال. هذا الخبث الكبير الذي يسميه الناس بخلاً، يجعله يرى بعض الاطمئنان والعزاء في بضع مئات الليرات التي سأتركها له. ذات يوم أحد، بعد الغداء، سيظهر ذهبه أمام كل حاسديه في فريير. وسيقول لهم بنظراته: أي واحد منكم لا يقبل أن يرى ابنه يعدم على المقصلة بهذا الثمن؟

قد تكون هذه الفلسفة، صحيحة، ولكنها كانت تجعله يتمنى الموت. مرت خمسة أيام كاملة، كان مهذباً لطيفاً مع ماتيلد إذ رأى غيرتها تأكلها. ذات مساء، فكّر جوليان جدّياً في الانتحار. كانت روحه عصبية بعد التعاسة العميقة التي أحس بها بعد رحيل السيدة ده رينال.

لم يعد ما يعجبه، سواء في حياته الواقعية أو في خيالاته. وكانت قلة الحركة بدأت تؤثر في صحته، وتعطيه طباعاً خيالية ضعيفة كطالب الماني شاب. ففقد هذه الرجولة التي تبعد بحيوية بعض الأفكار غير اللائقة التي تخطر في أذهان التعساء.

احببت الحقيقة،... فأين هي؟ الخبث في كل مكان، أو على الأقل الدجل، حتى عند أكثر النـاس فضيلة، وأعلاهم مقاماً. وزمّ شفتيه ليعبر عن اشمئزازه. لا، الانسان لا يستطيع أن يثق بالانسان.

قامت السيدة ده... بحمله لمساعدة أيتامها المساكين، وقالت لي أن الأمير الفلاني دفع عشر ليرات. كذب. ولكن ماذا أقول؟ نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة!... دجل صاف، وتصريح في صالح ملك روما.

يا إلهي! إذا انحط مثل هذا الرجل إلى مثل هذا الدجل، وهو الذي كان على تعاسته أن تذكره بـواجبه، فمـاذا ينتظر الانسان من بقية هذا الجنس؟

أين الحقيقة؟ في الدين...

أضاف وهو يبتسم بمرارة تعبر عن أقصى آيات الاحتقار:

أجل، في فم ماسلون وده فريلير وكستناد... قد تكون في

المسيحية إذا عاش القساوسة كما عاش الرسُل؟... ولكن القديس بولس نال ثمن ما قام به فأمر وتكلم وجعل الناس يتحدثون عنه...

آه! لو كان دين حقيقي... يا لي من أحمق! أرى كاتدرائية قوطية، وزجاجاً ملوناً، فيتصور قلبي الضعيف الكاهن الذي فيها... روحي ستفهمه، لأنها بحاجة لذلك... ولكنني لا أجد إلا غبياً ذا شعر قذر مشعث... أو على الأكثر، واحداً كالفارس ده بوفوازي.

ولكن قسيساً حقيقياً كماسيّون وفنيلون... قدس ماسيّون دوبوا. غابت مذكرات سانت سيمون فنيلون في نظري. ولكن أخيراً، كان قسيساً حقيقياً... عندئذ يكون للأرواح الحنونة مكان لقاء... لن نكون منعزلين... سيحدثنا هذا القسيس الطيب عن الاله. ولكن أي إله؟ ليس إله التوراة، ذلك المستبد الصغير القاسي، المليء بالتعطش للانتقام... ولكن إله فولتير العادل الطيب اللامتناهي.

اضطرب وهو يتذكر كل مقاطع هذه التوراة التي يحفظها. ولكن كيف يمكن أن يفكر الانسان في الرب عندما نجتمع ثلاثتنا؟ كيف يمكن التفكير فيه بعد التعديات التي قام بها قساوستنا؟

أن يعيش المرء في عزلة! أي شقاء هذا!..

وقال جوليان وهو يضرب بيده على جبينه:

ـ أصبح مجنوناً ظالماً. إنني منعزل هنا في هذه الغرفة، ولكنني لم أعش منعزلاً على الأرض. كانت لدي فكرة الواجب القوية، الواجب الذي وضعته لنفسي، عن حق أو عن باطل... هذا الواجب كان كجذع الشجرة الصلب استند إليه وقت العاصفة؛ كنت أتراوح واضطرب، إذ في النهاية، لم أكن رجلاً.. ولكن العاصفة لم تجرفني.

هواء هذه الغرفة الرطب هو الذي يجعلني أفكر بالعزلة...

ولماذا أكون خبيثاً وأنا ألعن الخبث؟ ليس الموت ولا هذه الغرفة ولا الهواء الرطب، بل غياب السيدة ده رينال هو الذي يرهقني. ترى لو اضطررت للعيش في فريير أسابيع كاملة مختبئاً في أقبية منزلها، طمعاً برؤيتها، هل كنت أشعر بالشكوى؟

وقال بصوت عال وضحكة مريرة:

ـ تأثير معاصريّ يتغلب عليّ. اتكلم مع نفسي، وأنا على خطوتين من الموت، ولا أزال خبيثاً... أوه، يا للقرن التاسع عشر!

... يطلق أحد الصيادين طلقة من بندقيته في إحدى الغابات،

فتقع الفريسة، ويركض ـ هو ـ لالتقاطها. وفي طريقه، تصدم رجله بيت نمل يعلو قدمين عن الأرض، فيهدمه ويشتت شمل النمل... ولن تستطيع أكثر النملات ذكاء أن تفهم شيئاً عن هذا الجسم الأسود الكبير المخيف: حذاء الصياد، الذي دخل فجأة بيت النمل بسرعة هائلة، سبقته ضجة صماء، ورافقته شرارات من النيران الحمراء.

...وهكذا، الموت والحياة الأبدية، أشياء بسيطة لمن كان يملك وسائل تمكنه من الاحاطة بها...

ذبابة بدأت حياتها في التاسعة صباحاً، والشمس ساطعة، ثم ماتت في الخامسة بعد الظهر، كيف تستطيع أن تفهم معنى كلمة ليل؟

خمس ساعات أخرى من العمر، وستفهم معنى الليل.

وهكذا أنا، سأموت في الثالثة والعشرين. خمسة أعوام أخرى أعيش فيها مع السيدة ده رينال و...

وبدأ يضحك كما مفيستوفليس. أي جنون هذا في مناقشة هذه المشاكل الكبيرة!

أولاً: أنا خبيث، كأن أحداً يستمع إلي.

ثانياً: أنسى أن أعيش واحب، ولم يتبق لي إلا أيام قليلة

أعيشها... للأسف، السيدة ده رينال غير موجودة. قد لا يتركها زوجها تعود إلى بزانسون وتكلل نفسها بالعار من جديد.

هذا ما يعزلني، لا عدم وجود إله عادل، طيب، قادر، غير خبيث، لا يشتهي الانتقام...

آه! لو وجد...! سأرتمي على قدميه. سأقول له:

ـ استحققت الموت، ولكن يا إلهي، أيها الاله الطيب المتسامح، أعد لي التي أحبها!

وكان الليل تقدم. وحضر فوكيه بعد ساعة أو ساعتين من النوم العميق الهادىء.

وكان جوليان يشعر بالقوة والتصميم كالرجل الذي يرى بوضوح كل ما في أعماقه.

٤٥

قال جوليان لفوكيه:

ـ لا أريد أن أكون سبباً في إزعاج الأب شا ـ برنار المسكين. لن يأكل بعد ذلك لمدة ثلاثة أيام. ولكن حاول أن تجد لي أحد الجانسينيين، من أصدقاء السيد بيرار، الذي يُضمن سكوتهم.

كان فوكيه ينتظر هذه البادرة بفارغ صبر. قام جوليان مؤدباً بما يجب نحو الرأي العام في الريف.

كان جوليان في زنزانته يتمتع بحماية المجلس الكنسي. بفضل الأب ده فريلير، ورغم الاختيار السيء في انتقاء معرّفه، ولو كان لديه قليل من حسن التصرف لاستطاع الهرب. ولكن الهواء الفاسد أثّر على عقله، فبدأ يضعف. وكان في أقصى السعادة عندما عادت السيدة ده رينال.

قالت له وهي تقبله:

ـ واجبي الأول هو واجبي تجاهك. هربتُ من فريير.

ولم يكن جوليان يشعر بالكبرياء أمامها، فحكى لها عن كل ضعفه. وكانت طيبة ساحرة بالنسبة له.

في المساء، بعد خروجها من السجن، دعت إلى بيت عمتها، الكاهن الذي تعلّق بجوليان كما بفريسة. ولما لم يكن يريد إلا أن يكوّن لنفسه إسماً بين نساء بزانسون، أرسلته السيدة ده رينال، بسهوله، إلى دير براي العليا، ليقيم هناك قداساً.

لم يستطع جوليان أن يعبر لها عن مقدار سعادته وحبه الفائق. واستطاعت السيدة ده رينال، بفضل قوة الذهب، وباستغلالها لنفوذ عمتها، وهي متدينة مشهورة وغنية، أن تنال إذناً بزيارته

مرتين في اليوم.

نتيجة لهذا الخبر الجديد، إزدادت غيرة ماتيلد فأعمتها. أخبرها السيد ده فريلير أن نفوذه لا يسمح له بتخطي كل اللياقات فيسمح لها برؤية صديقها أكثر من مرة في اليوم. وأرسلت ماتيلد جواسيس وراء السيدة ده رينال لتعرف كل تحركاتها. وبذل السيد ده فريلير كل مجهوداته ليثبت لها أن جوليان غير جدير بها.

وسط كل هذا العذاب، كان حبها له يزداد، وكان كل يوم يستقبلها استقبالاً مخيفاً.

كان جوليان يريد، بكل قواه، أن يكون رجلاً شريفاً نحو هذه الفتاة المسكينة التي أساء إليها بشكل غريب، ولكن الحب الذي كان يشعر به نحو السيدة ده رينال، كان يتدخل في كل لحظة ويتغلب على ما اعتزمه. ولما لم يكن يستطيع اقناع ماتيلد ببراءة زيارات غريمتها كان يقول لنفسه:

ـ يجب أن تأتي النهاية بسرعة. فيها العذر إذا لم استطع إخفاء مشاعري بشكل أفضل.

وعلمت الآنسة ده لامول بموت المركيز ده كروازنوا. كان السيد ده تالير، وهو الرجل الغني، سمح لنفسه فتلفظ بكلمات تسيء إلى سمعة ماتيلد وتتعلّق باختفائها. ذهب السيد ده

كروازنوا وطلب إليه أن يكذبها. فأطلعه السيد ده تالير على رسائل مغفلة تلقّاها، مليئة بالتفاصيل ومكتوبة بفن رائع جعل المركيز ده كروازنوا يتجاهل الحقائق.

وتلفظ السيّد ده تالير ببعض النكات التي تخلو من اللياقة؛ فطلب المركيز، إذ أعماه الغضب والتعاسة، تعويضات كبيرة فضّل السيد ده تالير بعدها المبارزة. وانتصرت الحماقة، ومات واحد من أجدر شبان باريس بالحياة والحب وهو لما يبلغ الرابعة والعشرين.

نزل نبأ موت ده كروازنوا نزول الصاعقة على نفس جوليان الضعيفة. كان يقول لماتيلد:

ـ ده كروازنوا المسكين عاقل وشريف نحونا، لا بد أنه كرهني عندما كنت تتصرفين دون حذر في صالون والدتك، وتحاولين مخاصمتي، لأن الكراهية التي تأتي بعد الاحتقار تكون، في أكثر الأحيان، شرسة.

كان لموت ده كروازنوا أثره على خطط جوليان المتعلقة بمستقبل ماتيل. فأمضى عدة أيام يحاول إقناعها أن ترضى بده لوز. وهو رجل خجول، كما قال لها جوليان، ويسوعي، وسيصل حتماً إلى الصفوف الأولى. وهو بطموحه الذي لا يكل، مستعد أكثر من المسكين كروازنوا، للزواج من أرملة جوليان سوريل، لأنه ليس

في عائلته دوقية.

وردت ماتيلد ببرود:

ـ أرملة تحتقر الحب الكبير، لأنها عاشت ما يكفيها لترى حبيبها، يفضل عليها، بعد ستة أشهر، امرأة أخرى، كانت سبب كل هذه التعاسات.

ـ إنك ظالمة! زيارات السيدة ده رينال تعطي أحسن الحجج للمحامي المكلف بملاحقة طلب العفو في باريس. إنها تصور القاتل تعتني به ضحيته قد يكون لهذا بعض الأثر، وقد ترينني ذات يوم موضوع بعض الروايات. الخ...

وغرقت ماتيلد في صمت حزين، نتيجة لغيرتها الحانقة يصعب الانتقام لها، واستمرار هذه التعاسة التي لا أمل فيها (إذ حتى لو انقذ جوليان، فمن يضمن لها قلبه؟) والخجل والألم لأنها تحب هذا العشيق الخائن أكثر من أي وقت مضى.

غرقت الآنسة ده لامول في صمت حزين لم تنجح محاولات السيد ده فريلير ولا صراحة فوكيه القاسية في انتشالها منه.

أما جوليان، فكان باستثناء اللحظات التي تسترقها منه ماتيلد، يعيش للحب دون أن يفكّر في المستقبل. وكانت السيدة ده رينال، تشاركه غرامه العنيف الغريب، ولا مبالاته ومرحه اللطيف.

كان يقول لها:

ـ في السابق، عندما استطعت أن أكون سعيداً خلال نزهاتنا في غابات فرجي، كان طموحي العارم يقود نفسي إلى بلاد خيالية. وبدلاً من أن أضم إلى قلبي، هذا الذراع الساحر الذي كان قريباً من شفتي، كان المستقبل يسرقني منك. كنت أعيش وسط المعارك الكثيرة عليّ أن أخوضها لاحصل على ثروة هائلة... كنت سأموت دون أن أعرف السعادة، لو لم تأتِ لرؤيتي في هذا السجن.

حدثان عكّرا هذه الحياة الهادئة. الأول معرّف جوليان الذي لم يسلم من مؤامرات اليسوعيين رغم كونه جانسينياً، فأصبح مطية لهم.

قال له ذات يوم، عليه أن يقوم بكل المساعي الممكنة لنيل العفو، خشية أن يقع خطيئة الانتحار المميتة. ولما كان لرجال الدين نفوذ قوي في وزارة العدل في باريس، الوسيلة السهلة أمامه: أن يتوب علناً...

وصرخ جوليان:

ـ علناً! آه! أمسك بك، أنت أيضاً أيها الأب، لأنك تلعب المهزلة ذاتها.

ورد الجانسيني بوقار:

ـ إن عمرك، ووجهك الجميل وهبتك إياه العناية الالهية، والدافع الـذي دفعك لارتكـاب جريمتـك وبقي دون تفسير، ومساعي الآنسة ده لامـول البطوليـة، كلها تشـدّ من أزرك، بالاضافة إلى الصداقة المدهشة التي تظهرها نحوك ضحيتك. وكل هذا ساهم في جعلك بطلاً لدى نساء بزانسون. نسيت النساء كل شيء، حتى السياسة. . .

احاديثك ترن في قلوبهنّ، انطباعاً عميقاً فيها. قد تكون مهماً جداً بالنسبة للدين، وسأتـردد أنا في تصـديق أن اليسوعيـين يتبعون المساعي نفسها! هكذا، وحتى في هذه الحالة الخاصة، التي تخرج عن نطاق سيطرتهم، يستطيعون الأذى أيضاً! ليكن غير هذا. . . الدموع التي ستنشرها توبتك ستمحو تأثير عشرة من مجلدات فولتير الضارّة.

وردّ جوليان ببرود:

ـ وماذا يبقى إذا احتقرت نفسي؟ كنت طموحاً، ولا أريد أن ألـوم نفسي على ذلـك؛ وعندهـا تصرّفت كـما كانت اللبـاقة تقتضي. أمـا الآن، فـإنني أعيش ليـومي، ولكنني، في نـظر الناس، سأكون تعيساً لو استسلمت لشيء من الجبن.

الحادث الثاني أثار جوليان، أتى من السيدة ده رينال. ذلك أنّ صديقة خبيثة أقنعت هذه النفس الساذجة الخجولة، بـأن

واجبها يفرض عليها الذهاب إلى سان كلو، ترتمي تحت قدمي الملك شارل العاشر.

ضحّت وافترقت عن جوليان، وبعد هذه المجهودات قامت بها، لم تعد التضحية بنفسها أمام الملأ شيئاً معيباً في نظرها، هي التي كانت تعتقد أن الموت أهون من هذا السبيل.

ـ سأذهب إلى الملك، سأصرخ عالياً إنك حبيبي: حياة رجل مثل جوليان سوريل يجب أن تنتصر على كل الاعتبارات الأخرى، سأقول إنك اعتديت عليّ بعامل الغيرة. أعرف أمثلة عديدة على أن الكثير من الشبان أُنقِذوا هكذا بواسطة إنسانية المحلفين أو الملك.

صرخ جوليان:

ـ سأمتنع عن رؤيتك، وسأقفل في وجهك باب سجني، وأقتل نفسي غداً من اليأس، إذا لم تقسمي لي ألا تقومي بأي مسعى يعرّضنا لأقاويل الناس. فكرة الذهاب إلى باريس هذه، ليست من وحيك، قولي اسم المتآمر الذي أوحي بها لك...

فلنكن سعداء خلال الأيام القليلة التي بقيت لنا في هذه الحياة القصيرة. فلنخف وجودنا. جريمتي ليست واضحة. نفوذ الآنسة ده لامول قوي في باريس، وثقي أنها ستقوم بكل ما يستطيع بشر أن يقوم به. هنا في الريف، يقف جميع الناس

الأغنياء المعتبرين ضدي. وسيكون مسعاك سبباً في زيادة قسوة هؤلاء الذين لا يحسون بالتعب في حياتهم... لا تجعلي منا مناسبة لاثارة ضحك ماسلون وفالينو وألوف الأشخاص الذين لا يساوون أكثر منهما.

أحس جوليان أن هواء الغرفة أصبح لا يطاق. ولحسن الحظ، كانت الشمس رائعة في اليوم الذي قيل له أنه سيموت، وكان جوليان في قمة الشجاعة. كان السير في الهواء الطلق إحساساً لذيذاً له، كالنزهة على الأرض الصلبة أمضى أياماً طويلة في البحر. كان يقول لنفسه: هيا، كل شيء على ما يرام، وأنا لا تنقصني الشجاعة.

لم يظهر هذا الرأس في أي يوم شاعراً، كما كان في اليوم الذي سيقطع، عادت إليه دفعةً واحدة وبحيوية فائقة ذكريات الأيام السعيدة قضاها في غابات فرجي.

مرّ كل شيء ببساطة ولياقة، دون أي انفعال لديه.

قال لفوكيه في العشية:

ـ لا أستطيع أن أمنع نفسي من الانفعال. هذه الغرفة البشعة الرطبة، تسبب لي حمى، فأكاد لا أعرف نفسي بعض الأوقات. أما الخوف، فأضمن لك ألّا يراني أحد شاحباً.

واتخذ احتياطاته مسبقاً، فجعل فوكيه يأخذ ماتيلد والسيدة ده رينال صباح يومه الأخير. قال له:

ـ انقلهما في العربة ذاتها. واعمل كي لا تكفّ جياد العربة عن الركض. سترتمي الواحدة في أحضان الأخرى، أو ستظهران كرهاً مميتاً. وفي كلتا الحالتين ستتعزى المرأتان المسكينتان عن ألمهما البشع.

وطلب جوليان من السيدة ده رينال أن تقسم له على العيش بعده لتعتني بابن ماتيلد.

وكان قال ذات يوم لفوكيه:

ـ من يعلم؟ قد نملك بعض الاحساسات بعد موتنا. وأنا أحب أن أرتاح بعد موتي داخل هذه المغارة الصغيرة في الجبل الكبير الذي يشرف على فريير. رويت لـك مراراً أنني كنت أقضي الليل في تلك المغارة، أغرق نظري في البعيد، بين أغنى مقاطعات فرنسا، والطموح يشعل قلبي: كان هذا غرامي... المهمّ، هذه المغارة عزيزة علي، ولا ينكر أحد أنها تقع في مكان يسعد نفس أيّ فيلسوف... وبعد! قساوسة بزانسون هؤلاء، يخلقون المال من كل شيء، فإذا عرفت كيف تتصرف، سيبيعون لك مقرّ جثتي...

ونجح فوكيه فعلاً في هذه المفاوضة الحزينة. وأمضى الليل

وحده في غرفته، حدّ جثة صديقه، ثم دهش كثيراً عندما رأى ماتيلد. كان تركها قبل ساعات قليلة على عشرة فراسخ من بزانسون. وكانت هيئتها ونظراتها تدل على الضياع.

قالت له:

ـ أريد أن أراه.

ولم يجد فوكيه الشجاعة ليتكلم أو ليرفع رأسه. فأشار لها بأصبعه إلى معطف كبير أزرق في أرض الغرفة، يضمّ ما تبقى من جوليان.

ارتمت على ركبتيها. وأعطتها ذكرى بونيفاس ده لامول ومرغريت ده نافار قوة فوق إنسانية، فرفعت المعطف بيدين مرتعشتين. وحوّل فوكيه أنظاره.

سمع ماتيلد تسير بعصبية في الغرفة. أشعلت شموعاً عديدة، وعندما ملك فوكيه الجرأة فتطلع إليها، رأى أنها وضعت رأس جوليان أمامها، على طاولة رخامية صغيرة، وقبّلته في جبهته...

تبعت ماتيلد حبيبها إلى القبر الذي اختاره. وسار وراء العربة عدد كبير من القساوسة، وكانت وحدها، في عربتها المخملية، تحمل على ركبتيها، رأس الرجل الذي أحبته كثيراً.

وصل الجميع بهذا الشكل إلى أعلى نقطة في جبال الجورا

العالية، عند منتصف الليل، إلى تلك المغارة الصغيرة المضاءة بعدد كبير من الشموع، حيث كان عشرون قسيساً يقيمون شعار الموت. وتبع القافلة سكان جميع القرى الصغيرة في الجبل التي اجتازتها تلفت انظارهم هذه الحفلة الغريبة.

ظهرت ماتيلد، بينهم، بثوب حداد طويل. وعند انتهاء الشعائر، وزّعت عليهم عدة آلاف من قطع النقود ذات الفرنكات الخمسة.

ولما بقيت وحيدة مع فوكيه، أصرّت على أن تدفن بيديها رأس الحبيب. وكاد فوكيه يجن من الألم.

وبفضل عناية ماتيلد، زُينت هذه المغارة الموحشة بالرخام الايطالي الثمين المصقول.

أما السيدة ده رينال، فبقيت وفيّة لعهدها: لم تحاول بأية وسيلة أن تعتدي على حياتها، لكنها ماتت، بعد ثلاثة أيام من موت جوليان، وهي تعانق أولادها.

رسم له يعود إلى ١٨٠٧

الملف

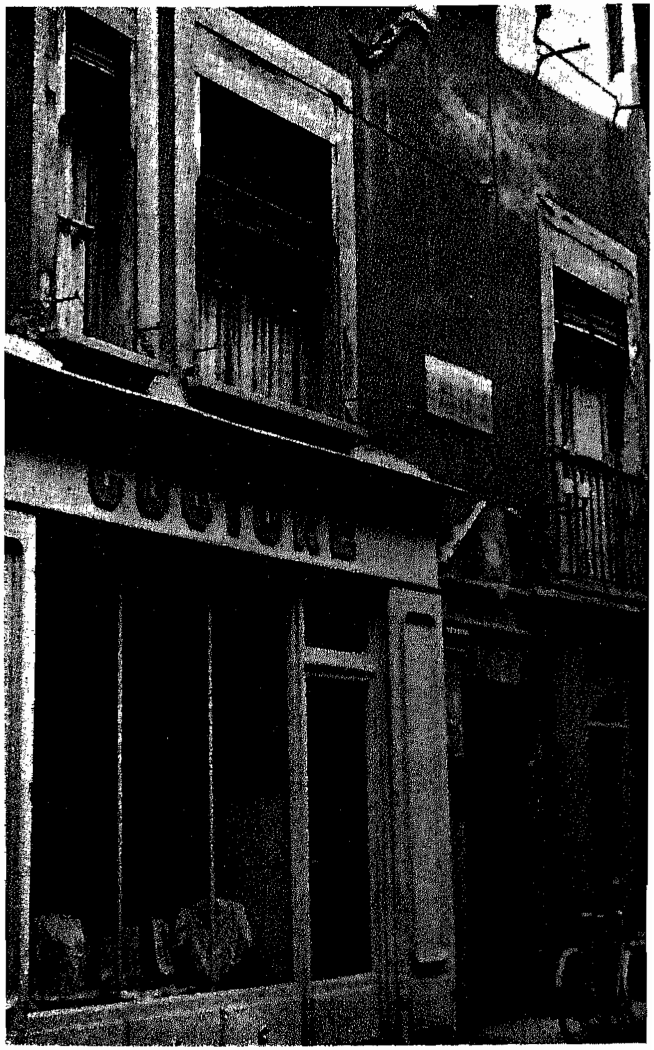

البيت الذي ولد فيه ستندال

تعليق بياتريس ديدييه

١ ـ إشارات تاريخية

ينفر الدارس، مع آثار ستندال (أكثر من أيٍّ آخر) أن يضع شريطاً تاريخياً، حتى لو سهل عليه جمع الوقائع ـ منابع الكتابات ـ، لأن تاريخ الرواية الحقيقي، يبقى خارج تلك الوقائع. لذا، يجب وضع عدة محطات تاريخية معاً، لتكون منها جميعها لملمة الخيط الرئيسي. وإن لم يكن لنصوص ستاندال كلّها، هذا الألق العجيب خارج اللحظة المعيوشة (كما في «صومعة بارما»)، ففي أكثرها طابع نيزك جوّي غريب هابط من كوكب مجهول، لا شبه له مع كوكبنا إلاّ بالصدفة. وهكذا الصدفة بين أحداث «الأحمر والأسود» ودعوى أنطوان برتيه.

ثمة بضعة تواريخ، تلمح لنا عن مرحلة تكوّن هذه الرواية. أولاً

شهادة الكاتب نفسه الذي دوّن ـ بشكل «تنبيه» أنّ «هذا الكتاب كان جاهزاً للصدور، عندما اندلعت أحداث تموز وأعطت الأذهان اتجاهاً لم يعد يتفق مع الخيال الروائي. لذلك نميل إلى الاعتقاد أنه كُتِب عام ١٨٢٧». لكنّ الدارسين لم يقعوا في هذا الفخ، وتنبّهوا أنّ تلك، مجرّد علامة حذر سياسي، إذ في الصفحة التالية، يقرأون عبارة: «وقائع عام ١٨٣٠»، أو تحت عنوان الكتاب. فلنحفظ اذن هذين التاريخين المهمّين: ١٨٢٧ و١٨٣٠.

في مجلة المحاكم، الصادرة أيام ٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ كانون الأول ١٨٢٧، تفاصيل عن دعوى برتيه: اكليريكي سابق، يدعى انطوان برتيه، أطلق النار على السيدة ميشو في كنيسة برانغ، مما دعا المحكمة إلى كشف كامل سيرة برتيه. فإذا هو ابن حرفيّ بسيط، تنبّه كاهنه إلى ذكائه، فأدخله الاكليريكية الوسطى، حيث تهيّأت له الفرصة الوحيدة ليتابع دروسه مجاناً. لكنه غادرها لأسباب صحية، والتحق مدرّس أولاد السيدة ميشو، حتى غدا عشيق السيدة ميشو نفسها. ثم عاد فالتحق بالاكليريكية الكبرى في غرونوبل، لكنه لم يلبث طويلاً، فغادرها وعاد مدرّساً لدى السيده ده كوردون، وارتبط بعلاقة مع ابنته، فطُرِد. وإذ ظن نفسه ضحية الفضح تأكّله الحسد فقرّر الانتقام من تلك الاهانات، فأطلق النار على السيدة ميشو في الكنيسة خلال القداس، ثم على نفسه. العلاقة مع تلك الدعوى، هي التي تصم هذه الرواية بـ«الأحمر». فهذه الدعوى شكّلت نواة رواية ستاندال، دون أن تكون عصبها الرئيس، ولو كان فيها جوهر عقدة القصة

وزمناها: العلاقات مع السيدة ده رينال، ثم مع ماتيلد ده لامول. فثمة اطار كنسي (كاهن، مدير الاكليريكية) وراء الحادثة، وستاندال لا يشيح عنه. وللسيدة ميشو، إلى ذلك، صديقة طفولة: السيدة مارينيي، كانت في الكنيسة ساعة وقوع الحادث، وأغمي عليها، وهي التي صارت السيدة ديرفيل، والتي أهمل ستاندال ذكرها كليًّا. فما كل هذا إذن، إن لم يكن مجرد رسم أوليّ؟.

متى اطّلع ستاندال على مجلة المحاكم؟ ليس من يعرف. إنما لدينا شهادتان مهمّتان من ستاندال. فعلى هامش كتابه «نزهات في روما»، دوّن أن فكرة الرواية جاءته في مرسيليا ليل ٢٦/٢٥ تشرين الأول ١٨٢٨. وعلى هامش كتاب «لوسيان لوين»، دوّن: «في مرسيليا، وعام ١٨٢٨ على ما أظنّ، كتبت مخطوطة «الأحمر» بعجالة موجزة». وطوال الجولة الكبرى التي حملت ستاندال إلى بوردو وتولوز وكاركاسون، قد يكون حطّ في مرسيليا، لدى ذهابه أو ايابه. ويلاحظ رومان كولون، نسيب ستاندال، وجود ملف عنوانه «جوليان» بقي طويلاً على طاولة الكاتب. لذا، من الممكن أن ستاندال، بعد مرحلة كتابية أولى، أوقف العمل به، ليكمل كتابه «نزهات في روما» الصادر عام ١٨٢٩. المرحلة الثانية، قد تكون إذن نحو مطلع ١٨٣٠، وهذا ما يفسّر تلك التلميحات في القسم الثاني، خاصة إلى «هرناني».

في نيسان ١٨٣٠، منح ستاندال، مقابل ١٥٠٠ فرنك، حقوق طبعتين من كتابه، للناشر لوفا فاسّور، الواحدة من ٧٥٠ نسخة، الأولى بقياس وسط في جزءين، والأخرى بقياس صغير في ستة

أجزاء. ولم يعطه المخطوطة كاملة بل تدريجاً، وكلّما صحّح الصفحات المصفوفة، كان يضيف صفحات إلى الفصول اللاحقة. وامتدّ هذا العمل حتى تشرين الثاني، حتى عيّن قنصلاً في ترييستا، فاضطرّ إلى تسريع تصحيحاته وانهاء الرواية. وهذا ما حداه إلى توجيه رسالة لناشره، جاء فيها: «الحقيقة، لم يعد عندي صفاء تصحيح الصفحات، فرجائي أن تعهد بها إلى أحد موثوق به. عسى أن تلقى هذه الرواية رواجاً، فتعوّض لك عن أتعاب اضافية حمّلها إياك المؤلّف». وفي ٦ تشرين الثاني، غادر فرنسا ليتسلّم مركزه الجديد.

بطء ستاندال في تصحيح الصفحات، يدل على أنه كان ينقّح في الأصل، خاصة في فصول ماتيلد، التي غنمت من منبع آخر غير محاكمة برتيه: من مغامرة ماري ده نوفيل، صاحبة الفضيحة الباريسية عام ١٨٣٠. فماري هنرييت ده نوفيل، نسيبة أحد وزراء شارل العاشر، أثارت فضيحة في لندن مع ادوار غراسيه. ورفضت الزواج من الرجل. ستاندال نفسه أشار إلى هذا المصدر، فلماذا الشك في إشارته، والدارسون يذهبون إلى البحث عن مصادر لم يجيء أصحابها على ذكرها مطلقاً؟ ففي ١٧ كانون الثاني ١٨٣١، كتب ستاندال إلى مارست: «أعجبتني هذه النهاية، وكان أمام عينيّ مزاج ماري التي أعبد. اسأل كلارا إن لم تكن ماري ستتصرّف هكذا. إن لآل مونمورانسي من ضعف الارادة، ما يستحيل معه ايجاد حلّ غير مسطح للعقدة. وهكذا ارتأيت في خاتمة روايتي».

إلى هذا، تمتزج قصة برتيه وماري ده نوفيل بقصص أخرى. فيريير

هي برانغ، لكنها أيضاً غرونوبل التي عرف فيها ستاندال الحياة الضاحوية وكرهها، لما فيها من حب الظهور والمنازل الفخمة والخدم (لذا أدخل السيد رينال في خدمته جوليان)، وحب التجسس على أسرار الآخرين، وحبّ الوشاية لدى الخدم، والرسائل المغفلة. وللتفاصيل أكثر: ثمة بين سكان غرونوبل،من بقيت أسماؤهم تقريباً كما هي: الأب شيلان، عالم الرياضيات، غرو، تلميذه شازيل، صاحب المكتبة فالكون، وأمين المكتبة العامة دوكرو. وثمة صديقة لبولين بيل تدعى السيدة ديرفيل، تماماً كما صديقة السيدة ده رينال. والشخص الأصلي لشخصية السيد فالنو، هو ميشال فور، مدير مستودع التسوّل في سان روبير قرب غرونوبل. وربما كان للأب ده فريلير أحد الرسل من مدينة ستاندال. وثمة ملامح من بيغيليون في شخصية فوكيه وشخصية الأب رايّان في الأب بيرار. إنما مع بعض التعديلات التي تمناها ستاندال في طفولته. وكذلك في الشق الآخر من الرواية، شق باريس، لم تعوز المؤلف المصادر. فهو حافظ على اسم السيدة ده روبنبريه، نسيبة ده لاكروا، وكان أحبّها. وربما التاميرا يكون دومينيكو دي فيوري صديق ستاندال.

لكنّ قصة سرّية تضاف إلى كل ما رويناه: ستاندال نفسه الذي مجّد في شخصه الخجل وقوة الارادة والأحلام العاطفية. ففي ١٨٣٠، كان له سبعة وأربعون عاماً. وكانت صدرت له: «حياة هايدن» (١٨١٤)، و«تاريخ الرسم في ايطاليا» (١٨١٧)، و«روما، نابولي وفلورنسا» (١٨١٧)، و«سيرة روسيني» (١٨٢٤). واشتهر بكتاب «راسين

وشكسبير»، و«مذكرات سائح»، و«عن الحب»، ولم يشبع نهمه روائياً من كتابه «آرمانس». كان بقي له أن يكتب روائعه. وربما، لا وعيّاً، صبّ على جوليان كل هذا الطموح. فجوليان هو أيضاً انعكاس لسنوات شباب ستاندال. والاضطرابات التي يواجهها جوليان في باريس، هي نفسها التي واجهها الغرونوبلي الشاب لدى وصوله إليها، متحدّياً إياها (كما لدى وصول الضاحويين إليها): «والآن، إلى كلينا».

لكنّ بين جوليان وستاندال خيوطاً أخرى جامعة، غير الطموح: علاقته مع والده ـ الضاغطة القاهرة ـ تماماً كما وضع بيل الذي فقد أمّه. وثمة خيوط مشتركة بين جوليان وستاندال، في العلاقات العاطفية: فالأول خجول ومتردّد، كما الثاني لدى خروجه من سن المراهقة، وكما هذا الأخير، ينتصر الأول لكرامته. والدارسون لم يجهدوا للبحث عن التشابه بين المرأتين، خاصة في علاقات ستاندال. ففي الفترة التي كتب خلالها ستاندال، كان ينعم بسعادة الحب مع جوليان رينييري، بعد انفصاله عن ألبرت ده روبنبريه. وانعكست سعادته مرحلتئذ على جوليان. فها هو يدوّن في «سيرة هنري برولار»: «كنت في منتهى السعادة، عام ١٨٣٠، حين كتبت «الأحمر والأسود». لكنه لا ينسى ألبرت، بل يمجّدها في شخص ماتيلد ده لا مول، فيرسمها نبيلة على ما كانته ألبرت. وهذه هي خيمياء الأثر الفني، أن يختبىء غير اسم حقيقي وراء اسم الشخصية: ماتيلد فيسكونتي، مثلاً، أو كليمانتين كوريال، أو الكسندرين دارو. جميع هذه الخيالات

النسوية، جاءت تضاف إلى نسيج قصة برتيه والآنسة ده كوردون ـ ولم يعرف ستاندال من تفاصيل قصتهما إلاّ ما نشره التحقيق العدلي ـ، وإلى نسيج مغامرات ماري ده نوفيل الكان يحبها ستاندال. أما صورة السيدة ده رينال، فتراكم من ذكريات قديمة لدى الكاتب. فطبع السيدة ميشو برز أكثر من طبع الآنسة ده كوردون خلال المحاكمة. لكنّ أخصّ ما ضوّأ به ستندال على شخصية السيدة ده رينال، ذكريات علاقاته العاطفية الأولى، وبشكل أكثر سرّيّة: ذكريات أحلام ذاك الصبي المحروم الأم، بأن يعشق سيدة أكبر منه سناً.

*

إلى كل هذه الأضواء، يضاف آخر: صدور الكتاب في منتصف تشرين الثاني ١٨٣٠. لم يستطع النقد عن انكار ابداعية الرواية، لكن الأخلاقيين رفضوا رسم التقاليد بريشة ستاندال، وصدمتهم وصولية جوليان. وصديقات ستاندال، رحن يبحثن عن صورهنّ في شخصيات الكتاب النسائية، وصدمن كذلك. ومن اللافت التعرّف هنا إلى كيف كان ستاندال ينظر إلى كتابه. من خلال نص وصلنا في احدى صفحات «انطولوجيا» فيوسّوا، كما ترجمها سالفانيولي عن نصوص ستاندال نفسه. لم يصدر المقال قط، لكننا ننشره حرفياً في هذه الطبعة (راجع، بعد صفحات، الرقم ٢ من الملف: حول كتابة «الأحمر والأسود»).

على أن الكاتب التزم بعض المسافة. وفي الرسائل المتبادلة بعد صدور الرواية، اضطرّ إلى الدفاع عن كتابه ضدّ صديقاته السابقات،

وضد ميريميه، فركّز على رهافة جوليان التي وجدها ميريميه «فظّة». وفي المقال الذي كتبه ستاندال باسم مستعار (غروفو بابيرا) وأرسله إلى الـ «انـطولوجيـا» الكان مفـروضـاً صـدورهـا في فلورنسـا (بـاللغـة الايطالية)، يبتعد ستاندال. عن هذا النوع من المناقشات حول طبيعة نفسية البطل، ليركّز على تحليل الـوضع الاقتصـادي والاجتماعي. بهذا، تبدو الرواية، أساساً، تصور التقاليد الضاحوية، فالباريسية. ففي الضاحية، امرأة جعلت يدور الكـلام عليها، أمـر يشهّر به المجتمع. وكان ذاك من غير المألوف، إذ أن القرن الثامن عشر عرف تقاليد أكثر ليبرالية. وأبرز المسؤولين عن ضيق التفتح الضاحوي، بنظر ستاندال (عن حق): لويس الثامن عشر وشارل العاشر. وكان نابوليون كسر هذا الاحتشام المتطرّف. وصوّر ستاندال ذاك الطابـع الضاحوي بالعلاقات المالية التجارية البحتة بين أهالي فيريير، وفي الحقبة الباريسية يصوّر صراع الطبقات: «الآنسة ده لا مول تخاف كما أبناء طبقتها، وتحب جوليان لأنها ترى فيه دانتونا جديداً». وفي المقال نفسه، لـ «الأنطولوجيا»، أفكاراً كان ستاندال طرحها في كتابه «عن الحب»، حول المقارنة بين الحب في الضاحية والحب في بـاريس، وكيف تختلف العـواطف بـين وسط اجتمـاعي وآخـر. وفي تلك الدراسة، يتّخذ ستاندال مكاناً وسطاً بين مونتسكيو ومـاركس. وإذ اضطرّ إلى اختصار رواية كاملة في مقال، ركّز ستاندال على هـذه الناحية، مشيحاً عما في روايته من مناح سيكولوجية أو جمالية.

حين يتحرّر ستاندال من زاوية النقد الأدبي، إلى زاوية الفنان،

وحتى الحرفي، أي حين يفكّر في تنقيح كتابه، يركّز على تقنية الروائي. يجد أسلوبه جافاً. ويقول: «رعبي من الثرثرة الحديثة، جعلني أنزلق في الهوّة المقابلة: جفاف عدة مقاطع من الرواية. فكان سطر، من وقت لآخر، في وصف حيّ، يرطّب قليلاً من الجوّ». وفي مكان آخر: «لم أنزلق إلى وصف جسدي للشخصيات الثانوية. ركّزت على جوليان وحده».

وعلى نسخة الأحمر والأسود، كما على سائر نسخه الخاصة من مؤلفاته، ترك ستاندال ملاحظات، ربما للعمل بها في الطبعات اللاحقة، أو لممارسة حسه النقدي الذاتي. وتلك، تساعدنا على استكشاف أضواء جديدة حول روايتنا. منها مثلاً، أنه يهنّىء نفسه على مقطع الاكليريكية. لكنه يعود إلى اتهام نفسه بجفاف الأسلوب: «أسلوب مبتسر، صادم. لا يفكّر الكاتب، إذ يكتب، إلا بالصورة، بالفكرة. وينقصه ذاك التوسّع الجميل كما لدى روسو في «الاعترافات». فرعب دومينيك (هكذا كان ستاندال يسمي نفسه) من طول جُمَل كُتّاب ١٨٣٠، أوقعه في الجفاف والحدّة». وأكثر الملاحظات الباقية، حول هذه النقطة. وعلى هامش كتاب جورج ساند «فالنتين» دوّن: «فيه تصوير رائع لجوّ ١٨٣٠ ـ ١٨٣٥، وهذا ما يجب أن أراعيه في الجزء الثاني من كتابي «جوليان»، لكن هذا سيكون جافاً، كجوّ ١٨٣٠ ـ ١٨٣٥. وهذه سيّئة ذلك». وعلى نسخة روايته الخاصة، دوّن في آخر القسم الأول: «١٦ كانون الأول ١٨٣٨. أعيد قراءة القسم الأول من «الأحمر والأسود»، مقارناً إياه مع الأربعين صفحة

الأولى من «صومعة بارما». يجب أن أنقّح بعض الأمور مما أجده غير مناسب، وهو يذكّر بمطبخ هولندي».

إذن، جميع تنقيحات ستاندال لم تكن فرحة. لذا، ننعم اليوم بطبعة واحدة (١٨٣٠) دون سواها، وهي ملأى بالعبقرية. وطبعة ميشال ليفي (١٨٥٤) لا تثبت أن ما فيها من تغيرات طفيفة هي كلها من ستاندال، بل ربما مرّت على رومان كولون. على أن مارتينو يجد كولون استأنس، لتغييراته، بملاحظات ستاندال، مما يعذره، دون أن يعذر طبعة ١٨٥٤. فستاندال، كجميع المؤلفين، ليس دائماً موفّق التنقيح الذاتي. لذا، على هدي هنري مارتينو (صاحب الاشراف والتنقيح والملاحظات والتحقيق لمؤلّفات ستاندال الكاملة في طبعة «لا بلياد») سنعتمد نحن كذلك طبعة ١٨٣٠، مكتفين ببعض الحواشي والهوامش، مما نجده، في سياق الرواية، ضرورياً وملحّاً لها.

٢ ـ في الشكل والمضمون

خلال كل هذه الرواية، للأماكن أهمية لافتة كما لـلأشخاص. هؤلاء، وإن كانوا أبناء تلك الأماكن، نابعون منها: السيدة ده رينال من فيريير، وماتيلد ده لا مول من فندقها الباريسي. والأماكن لم يأت الكاتب على وصفها لمجرد الرومنطيقية، بل للايحاء بالعلاقـات بين أبنائها. وإذ هذه الأخيرة تترجم بالمال ـ المال الذي يسحق جوليـان ويهينه ـ فهي إذن تترجم وضعاً اقتصادياً. لذا، يغلب في هذه الرواية وصف البيوت والمجمّعات السكنية أكثر من الوساعات في الطبيعة.

استهلال الرواية، بمشهد من فيريير، مع اللونين: الأبيض، وحتى الأحمر. وفوراً يجيء الكاتب على ذكر التحصينات التي من الاسبان. ثم على ذكر السيل، بخلفيته الاقتصادية لا منظره، فهو يحرّك المناشر،

وهي «صناعة بسيطة وتؤمن رفاه العيش لمعظم السكان وهم فلاحون لا بورجوازيين».

ويصل إلى معمل المسامير ـ أساس ثروة السيد ده رينال ـ حيث تندمج طاقة السيل باليد البشرية (إذ تعمل فيه صبايا)، ولا يفوت ستاندال أن يشير إلى طراوة أيديهنّ وقساوة العمل. في هذا الأطار الصناعي يبرز السيد ده رينال. ولا يفوت ستاندال هنا أيضاً أن يركّز على منفوقية ده رينال إزاء السكان. فهو غنيّ بفضل مصنعه، وهو عمدة بفضل غناه، وهو فرض احترامه على الجميع بفضل منصبه كعمدة. ووصفه الجسدي لصيق بغناه (وستاندال بدأ بوصف غناه قبل وصفه الشخصي) حتى أن المقطع الخاص به ينتهي كما الآتي: «مؤهلات هذا الرجل، في أنه يجعل الناس تدفع له ما عليها، فيما يدفع هو ما عليه للناس، في أبعد وقت ممكن».

وبتكنيك ليس بعيداً عن السينمائية، يمشور ستاندال قارئه في فيريير، شوارعها وأحيائها. ثم يأتي وصف بيت عمدة فيريير، وهو كذلك لصيق الكلام بالمال: «وبفضل أرباحه من معمل المسامير، شيّد العمدة بيته الجميل بحجارة مقصوبة».

في هذا الإطار البورجوازي من الملكية العقارية، يتّخذ العمار أهمية بالغة. ونوعاً من المجد على صعيد الحياة الشخصية والحياة الادارية العامة.

جوليان كذلك، سيبدو في ، ذا الاطار. لكنّ القارىء يدرك مكانه

منذ راح والده يبحث عنه حتى وجده قرب المنشار. وكل الرواية انطلقت من هنا: الجميع بدأوا في أماكنهم، إلاّ جوليان، لم يكن حيث يحبّ هو أن يكون. ومن هنا حلمه بالترقي، ونهايته الفاجعة.

إذن، اللحظات الرئيسة في الرواية، مدوّنة في الأماكن، وهذه توحي بعدئذ بما توحيه. فهذه كنيسة فيريير تظهر باكراً في الرواية، إذ هي ستكون المكان الرئيس في الحلّ والجريمة. للمرة الأولى، دخلها جوليان واقشعرّ. والمقعد الذي جلس عليه، يحمل اشارات رينال، والستائر القرمزية تعكس على الأرض لون الدم.

ثمة إذن في هذه الرواية، أماكن المواضيع الستندالية: الأماكن المرتفعة، والحبس. وكما في سائر الآثار الستندالية، الأماكن المرتفعة رمز الفرح والنصر. فحين انتصرت السيدة ده رينال على غضب زوجها، أسرعت تخبر انتصارها لجوليان، شاعرة أنها أسعد النساء، فيما هي ترتقي مئة وعشرين درجة صوب التلة. وجوليان كذلك هو بطل الصعود، لا الاجتماعي فقط، بل صعود السلالم. أول نجاح باهر له هو في صعوده فوق المذبح العالي ليضع خمس باقات من الريش. وفي عشقه، كان بحاجة إلى سلّم لبلوغ مكان ماتيلد والسيدة ده رينال. ويعتاد قارىء ستاندال على هذه الصعودات (كليليا والراهبة كاسترو). فالمكان العالي هو حيث تتم مبادلات الحب، وحيث يبتعد العشاق عن محرّمات المجتمع.

يبقى الحبس، وله مكان أبرز، إنما غامض. فليس فقط ملجأ الحب المجنون والملذات (كما في «صومعة بارما»)، فجوليان كان الأكثر

انعشاقاً حين كان في الحبس، بل في الحبس وجد حقيقة حبّ السيدة ده رينال له، وحين كان في الحبس، أشاحت ماتيلد عن كل اهتمام مجتمعي، وصار يستقبل مرتين في اليوم، السيدة ده رينال، ومرّة ماتيلد، مما كانت الفتاة تعتبره اجحافاً واهانة. فالحبس إذن، مكان جمع الانتصارين العاطفيين اللذين هما جناحا الرواية ومغامرة جوليان. وتوافقاً كذلك مع مواضيع ستاندال، تكتمل السعادة حتى يغيب معها الزمن، فكأنّ الحبس مكان الأبدية. ويكون لجوليان أن يقارن بين سعادته في غابات فيرجي، وسعادته في الحبس، فيفضل هذا الأخير، لأنه في فيرجي كان مهموماً بطموحه، فيما في الحبس يعطي اهتمامه كاملاً لحبّه. وهكذا في «فانينا فانيني»، القصة التي كتبها ستاندال في الوقت نفسه، لا يجد العاشقان طعم السعادة الحقيقية إلاّ في المخبأ. ولم يكن لدى جوليان رغبة في الخروج. ولهذا أسباب نطالعها لاحقاً. وهو يعرف أن هذه السعادة الكاملة لن يذوقها خارج السجن. فكأن هذا الحب البنويّ الذي يدفقه للسيدة ده رينال، في حاجة إلى حبس رحمي.

مع أن لحبس جوليان مأساة ليست في سائر سجون ستاندال، لأن خاتمته هي الموت. بات الهواء الفاسد في الزنزانة يزعج جوليان حتى أن سيره نحو العذاب، بدا له مشواراً صوب الهواء الطلق، صوب الحرية. وسيتيح الموت تبديل الزنزانة غير الطبيعية، بمغارة في خاصرة الجبل ستكون له مقبرة. وإذ هي في الجبل، ومطلّة على السهل، ستكون رمزاً للسجن الهانىء.

الأمكنة، إذن، في ذاتها، اشارات: غنى، ضغط اجتماعي، علاقة حب، انحباس. والرواية ملأى بهـذه الاشارات، فـإذا هي رواية تعليمية، تزخر القصة بما يعلمه جوليان من اشارات، فيما القارىء نفسه يتعلّم الاشارات التي هي عقدة الرواية. فجوليان سيتعلّم تباعاً عدة لغات: البورجوازية الضاحوية، الاكليريكية، النبل، دون أن ينسى، طبعاً، لغة الحب. ولجميع هذه المصطلحات ميزة مشتركة: تسليط الضوء على ما بعد لا يبلغه إلا المقرّبون.

أول صعوبة واجهها جوليان: التخلي عن لغـة المدرّس المـربّي، المهنة/الصفقة التي تمّت بين أبيه والسيد ده رينال. إذن، المال فرض عليه مكاناً اجتماعياً، إذن: لغة معينة. فيما السيدة ده رينال وجوليان يرغبان في الخروج من هذا الاطار الخارجي والمهين لجوليان، اطار العلاقة بين مربّ وأم أولاد. وهنا، اكتشفا فقدان اللغة المشتركة التي تتيح لهما علاقة من نوع آخر. «ففي أول محادثة لمدام ده رينال معه خارج تربية الأولاد، راح يكلّمها عن عمليات جراحية، فشحبت وجنته التوقّف». ذلك أن جوليان لم يدخل في محادثة سابقة قط إلاّ مع الضابط الجرّاح. وغرابته تتجلّى في أنه غالباً ما لم يفهم شيئاً من الحوار الذي يدور حوله. من هنا الصمت الكان يخيّم بين جوليان والسيدة ده رينـال في خلواتهما الأولى. مـع أن هذا الصمت يضـج بـالأفكـار الرومنطيقية المهيّئة للجو بين رجل وامرأة. لـذا، حين كـان أمام حديث حب، مع السيدة ده رينال كما مع ماتيلد، كان جوليان يقف حائراً متلبّكاً. ليس في باله سوى تعابير حفظها من الروايات. وحين

تخونه ذاكرته فيها، يلزم الصمت. فالليلة الأولى مع ماتيلد، كانت له احراجاً كبيراً: ماذا يقول؟ وعبثا معاً بحثاً عن موضوع حوار، فيما حاولت ماتيلد اتخاذ لهجة عادية. ويلجأ جوليان إلى عبارات معلبة من الروايات، فأنشد مقاطع من أشعار. وساعده أن عشيقاته كنّ كذلك غير ذوات خبرة في شؤون الحب: خاصة مدام ده رينال وماتيلد. على العكس، كانتا تخشيان ذلك من المجتمع. السيدة ده رينال تخشى من كلمة «خيانة»، وماتيلد من كلمة «عار». وعجزت ماتيلد تماماً عن البوح بحبها لجوليان، وراحت تخبره عن عواطفها النهمة نحوه، بكلامها على سواه. وفي ابتعاده صوب أخباره عما كانت تحكي لسواه، كانت ترمي إلى تبليغه ما تريد.

ولكن جوليان إذا كان بعيداً عن لغة الحب، فليس بعيداً عن لغة الاكليريكية ولا الصالونات. وعليه أن يتقنه، وهو يبدأ عادة بالعبرية. وراح تعلّمها يتمّ على مراحل، كما أمام لغة أجنبية. وحين بدأ يفهم، لم يكن يستطيع الكلام للمشاركة.

من هنا كان يتجنّب الاختلاف إلى مجتمعات، لن يمكنه أن يشارك فيها محدّثاً بل مستمعاً، وبات يحسّ تجاهها ببعض العداء. وراح دائماً يبحث عن خلفية لكل كلام يقال. وشكّ حتى في الكلام الكاهن شا، وهو يبدي له محبة وصداقة.

ثمة أيضاً لغة أخرى غير الكلمات: لغة اللباس، وهي لصيقة ـ في هذه الرواية ـ بالأشخاص، وبمركزهم في المجتمع وفي علاقتهم بالمال. فكل حقبة من سيرة جوليان تتميّز بتبدّل في الثياب. وكان أوّل همّ

لدى السيد ده رينال، تبديل ملابس جوليان الفلاحية، وخشي أن يكون أحد الخدم شاهده على هذا الشكل، حتى أكّدت له زوجته ذلك فاطمأنّ. وكان ضرورياً له أن يلبس الأسود، كي يستحق لقب «السيّد». ولباسه الجديد أذهله بفرح شديد. وشعر كأنه عاش سنوات طويلة من الخبرة. وكلما بدّل في ثوب، انسحب إلى غرفته ليختلي. وكذا حين حدّثته السيدة ده رينال عن ثوب أزرق كما في استقبال الملوك والأمراء.

في كل حقبة من حياته، ثمة ثوبان لجوليان: الذي يصنّفه اجتماعياً (رمز التزاماته)، والذي يحرّره صوب العيد والفرح والانفلات والالتزامات التي تفرضها عليه المظاهر الاجتماعية. فقبل دخوله الاكليريكية، بحث جوليان عن نزل يضع فيه «ثيابه البورجوازية». مع أن هذه ستتيح له، في ما بعد، التفتح الزمني والمغامرة العاطفية (لرؤية الآنسة آماندا). لكنّ أغرب ما في تغيير الثياب، هو لدى السيد ده لا مول، الذي ـ ابعاداً للعار في ابنته ـ راح يختلق قصصاً غريبة عن مولد جوليان. فهداه ثياباً زرقاء، مذ لبسها، راح الكونت ده لا مول يعامله معاملة الندّ للندّ، فيما جوليان يجد فارقاً هائلاً بين الثوب الأسود والثوب الأزرق.

وهكذا، نجد أنّ ثياب التحوّل والعيد لدى جوليان، هي زرقاء، سواء لدى السيدة ده رينال أو لدى السيد ده لا مول. ويعود الأزرق في ختام الرواية: فوكيه يدل ماتيلد، بعد تنفيذ الاعدام، على معطف أزرق كان فيه رفات جوليان.

ثمة أيضاً أهمية لافتة لثياب البطلات. هندامهنّ يثير رعشة جوليان. لما فيه من رفعة الطبقة الاجتماعية. فلفتته في ماتيلد الأناقة، وثياب حدادها السوداء. لبستها مرّة أولى في ذكرى غياب بونيفاس ده لا مول يوم ٣٠ نيسان ١٥٧٤. وطابع ذاك الأسود سيكون ذا شأن في تعلّق جوليان بماتيلد. وهذا الثوب نفسه ستعود ماتيلد إلى لبسه في ختام الرواية بعد موت جوليان، بعد أن دفنت رأسه بنفسها. لهذا الثوب الأسود إذن، مدلول رمزي ونبوئيّ ينقذ الرواية من طابعها القاتم.

أيّ أسود هو الأبرز في الرواية؟ أسود الحداد أم أسود الجبّة أم أسود ثوب المربي؟ ومهما يكن فالأسود ضالع حتى في عنوان الرواية، ولصيق بالأحمر. وحول هذين اللونين دار كلام كثير. على أنّ ستاندال لم يهتد إلى هذا العنوان إلا في ما بعد، اكتشفه فجأة (عن رواية رومان كولون) في أيار ١٨٣٠ وكان النص تحت الطبع. ويقال أن هذا النوع من التضادّ في لونين، كان رائجاً عهدئذ، وانشدّ ستاندال إلى ذلك، وكان كتب قبلاً: «الزهريّ والأخضر»، وكان سيعنون كتابه «لوسيان لوين» بـ«القطيفي والأسود»، أو بـ«الأحمر والأبيض». على أنّ في خلفية اللونين رمزية عميقة. عن فاغيه أن الأحمر يدل على كون جوليان، في عصر آخر، كان سيكون جندياً، والأسود يدل على وضعه الكنسي. وثمة من رأى تفسيراً سياسياً لتضادّ الألوان، في التضادّ بين اليسار الليبرالي والجمعية الرهبانية. على أنني أجد التفسير أبسط من هذا بكثير، دون أن ألغي ما يتضمّن من تأويلات، أخصّها الاحالة

إلى لعبة الروليت حيث يدور اللعب على الأحمر والأسود: أليست حياة جوليان وميتته من قبيل الصدفة؟ في رأيي، أن الأسود يرمز بالطبع إلى ثوب جوليان، إنما أيضاً إلى حداد ماتيلد، فيما الأحمر إلى دم الجريمة الأخير، دم تنفيذ الاعدام، وإلى كل اللمح الدموية في الرواية: منذ دخول جوليان إلى كنيسة فيريير، وانعكاس الستائر الحمر على المياه المقدسة، مما أوحى لجوليان بالدم. ثم، في مشهد الجريمة، حين يدخل جوليان إلى الكنيسة، يركّز ستاندال على أن جميع الستائر القرمزية كانت مسدلة. وهذه اشارة حاذقة جداً، إذ يترك ستاندال قارئه يحدس هو نفسه بدم السيدة ده رينال، دون أن يسمّيه هو، كما لا يسمّي دم جوليان المهدور على المقصلة. لكنّ هذا الدم حاضر في أينما كان: في ألوان الستائر، في جراح جوليان وهو يرتقي إلى غرفة ماتيلد، في احمرار البطلتين، في اسم بونيفاس ده لا مول أو اسم دانتون. إن جوليان، في كل الرواية، يدخل ويخرج على اسم الدم. وأوّل ظهور له في الرواية، كان في المنشرة، مدمّاً.

من هنا أن المراحل الأساسية في الرواية، مصبوغة بطقسوية خاصة: تغيير اللغة، تحوّل الثياب، نفرة الدم، الاغماء. ولم يمرّ هذا النمط دون مخاطر. فكثيراً ما أغمي على أشخاص في الروايات، أما ستاندال فيعطي هذه الظاهرة لدى أبطاله أهمية خاصة. فالاغماء، كتغيير الملابس، علامة ولادة جديدة، وانتقال إلى حالة جديدة. واللافت في دخول جوليان إلى الاكليريكية: انزعاجه، ودنوّه من السقوط شحوباً. كانت نظرة الأب بيرار رهيبة فلم يحتملها جوليان،

فوقع أرضاً، الظاهرة التي جعلت الكاهن يظن طالبه الجديد يقع في النقطة. وفي الطرف الثاني من الرواية، اغماء ماتيلد يدلّ على تخلّي البطلة عن كبريائها، وانتصار جوليان حتى يقول في نفسه: «هي هذي، المتكبّرة، تخرّ على رجليّ».

في الرواية، بشكل واضح، تتالي مراحل نموّ البطل وولاداته المتعاقبة. وإذ هي رواية تعليمية (كما «التربية العاطفية»، و«الشهوة»، و«الزنبقة في الوادي»)، هي أيضاً رواية مستقبلية، مبنية على تطوّر جوليان. من هنا هيكليّتها الواضحة: لا رجوع إلى الوراء مطلقاً. كل فترة زمنية معبّأة، والوقت ذو ايقاع خاص ممتلىء فيه عدد من الأحداث وفيه تغيير مكان. وكل قسم لصيق بمنزل: بيت رينال، وفندق ده لا مول.

محرّك هذا التدرّج التصاعدي: طموح جوليان، حبّه للحركة، وتشبهه بنابوليون، سيّد الحركة. بهذا، تتعلّق الرواية بهذه الهالة الرومنطيقية الروائية. ولم يتنبّه الدارسون عادة للوجه الآخر من الأشخاص والأحداث. صحيح أن خاتمة الرواية استلهمها ستاندال من قضية برتيه. وأنّ هرب جوليان من السجن كان جعل الرواية على خاتمة مبتسرة جمالياً. ولكان جوليان بذلك، سادياً، يحب إهانة النساء الأرفع منه اجتماعياً وهنّ فوق الشبهات. لكنه مسكون بالفكرة المسيحية في أن الخطيئة أن تعاقب. لذا، خلال مرض ابن السيدة ده رينال، يرجوها أن يعاقب نفسه، شاعراً بالخطأ. إنه مسكون بهالة السقوط. ويقال أنه قتل السيدة ده رينال، خوفاً من أن يشهد مكانتها

الاجتماعية مهددة. ولو أنه أراد التصرّف بوصولية، لما أقـدم على جريمته العلنية. ويبدو طموحه، منذ ألبدء، على غموض: هل عن طموح، أنه عرف علاقتين مع امرأتين أرفع منه اجتماعياً؟ حتماً. لكنه أيضاً عن انتقام عن الشعور بالاذلال فيه. فموقفه ازاء منافسيه مع ماتيلد، فيه من المازوشية. وحتى اللحظة الأخيرة، كـان يحتمل الاهانات، ويرميها إلى غد يعرف أنـه لن يبلغه قط. وفي زنـزانة السجن، راح يتخيّل ماتيلد يتأكّلها الندم.

إلى هذا، لم يفكّر جوليان قط بالهرب من المقصلة. وعبثاً حاول محاميه والسيدة ده رينال اقناعه بطلب العفو عن عقوبة الاعدام، لأنه لم يحس بالحاجة للهرب مما كان يقوله قدراً. ورفض وساطة السيدة ده رينال لدى الملك. كانت فيه ارادة عميقة للموت.

ثمة سقوط آخر ينهش جوليان، وقد يكون أساس انشـداده إلى الموت: سقوط علاقته مع أهله. طبعاً لم يلجأ ستاندال، في هذا، إلى النظريات السيكولوجية المتداولة اليوم، لكنه ألقى على بطله بعض ما يختلج في نفسـه هـو: طمـوح ممزوج بهـاجس السقـوط الأدبي والعاطفي ـ من هنا صدور روائعه متأخرة ـ ، وكل هذا ممزوج بطفولة محرومة الوالدة وذات اطار أبوي بارد. لكنّ جوليان يبحث عن صورة أمه في نساء أحبّهنّ أكبر منه سناً، وهو حال أكثر المراهقين، ثم في رفعة ماتيلد اجتماعياً. لكنّ بحثه عن صورة الأب، أكثر اثارة. فهو لم يحبّ والده قط، وتعذب من ذلك. إذ كان يعتبر ذاك نقصاً فيه بل نقيصة. من هنا، تلفت زيارة والده له في السجن. كان ينتظر لوماً

وتقريعاً، ويحس بندم وتوبة. وهذه حالة ستاندال. ثم جوليان يحث شعور الأبوة في الآخرين: الطبيب الجرّاح، الأب بيرار، والمركيز ده لا مول. منذ وفاة الأول، لم يعد أحد يخاطبه بلهجة حنون. من هنا يواجه تقريع المركيز بفرح. ويعترف لدى الكاهن بحذاقته. وربما لأنه يتعذب من كونه لم يعرف أباً حقيقياً، يحمل جوليان لولده في المستقبل حناناً عظيماً. وهذا الطفل، يظهره لنا ستاندال حيّاً، رغم أنه لم يوجد قط. فجوليان، وهو يفكر في تتابع الأحداث، يفرز له مكاناً، ولا يعود يفكر في الانتحار، مؤمّناً لابنه وجوداً، ويرجو السيدة ده رينال أن تبقى حية لتربي له ولده.

اختار ستاندال، كشكل روائي، اطار سرد الأحداث. فوضع عنواناً جانبياً لروايته: «وقائع أحداث عام ١٨٣٠». وهذا يدل على القيمة السوسيولوجية لشهادة عن حقبة معينة، ويذكّر بالأصل القضائي لقصة جوليان. لكن هذا العنوان يستجيب لظاهرة مهمة لدى ستاندال العبقري، في «الأحداث الايطالية» و«صومعة بارما»، وهي تتويج سرد الأحداث عن عائلة فارنيز. وليس هذا، كما اتهمه أخصامه، نقصاً في قدرته على الخلق الروائي بل هو حب في استقاء الواقع، وحب ستاندال للعلوم ولذوق القرن الثامن عشر: استعادة حدث من خلال الوثائق.

واعتناق أسلوب السرد، يفترض الكلام بصيغة الغائب: هو. من هنا، لا كلام مميزاً على أحد من الأشخاص بصيغة الـ«أنا». ولم تمرّ الأحداث بغربال نظرة ذاتية واحدة. كل شخص يمرّ بصيغة الغائب:

هو. وإذا جميع الأحداث موصوفة من الروائي خارجياً، فهي تكتسب جوّانية خاصة في الحوارات الذاتية الداخلية التي يجريها الأشخاص مع أنفسهم على انفراد. وهنا، لا يعود التساوي واحداً، في الحوار الجواني. حتى أن بعضهم لا حوار داخلياً لهم أبداً. لأن ما يحسونه داخلياً لا يهم ستاندال ولا جوليان ولا القارىء. كما فالنو أو مثلاً كروازنواه. بالكاد لهم الحق في الكلام، لا التفكير الجواني.

من هنا، يدخل جوليان الرواية من باب الصمت: لا يسمع صوت أبيه منادياً. ثم يبدو الفرق في المعاملة بين الأشخاص: بم يفكر الوالد العجوز وهو يرمي ولده أرضاً؟ لا يهمّ القارىء ذلك. بل يدخل فوراً إلى قلب جوليان، الذي يحكي أكثر من والده ذي العبارات البذيئة الدائمة على لسانه.

والقارىء، ولو لم يسمع قط بالسيدة ده رينال، كان حدس بها، بالصدفة تماماً، وفهم أهمية اللقاء بينها وبين جوليان (في الفصل ٦ من القسم الأول)، لمجرّد أن السيدة ده رينال تملك ملكة الحوار الجواني. من هنا، تلفت هذه الجلسة الأولى: طوال اللحظات الحاسمة في الرواية، الأسلوب المباشر دائماً مبطّن بحوار آخر: ما يقوله كل شخص لذاته جوانياً. اطمئنان السيدة ده رينال إلى مربّ غير فظ. مقابلة جوليان بين معاملة السيد ده رينال لأولاده، ومعاملة والده العجوز سوريل له. هذا، إلى تعليقات المؤلف بين الحين والآخر لتثبيت الصورة.

ولكن لتعابير المؤلف وأشخاصه، مستويات عدة، أبرزها الذي

يستعيره الكاتب للحوار مع شخص حاضر أبداً هو القارىء. وتدخّلات المؤلف، أحياناً قد تكون مفيدة للتعليق أو لمرور فترة زمنية. أو رسم اطار للعصر والبيئة. وخاصة لرسم صورة لاحقة ستأتي، ولا يعرفها القارىء، بل وحده المؤلف. وأحياناً يناهض المؤلف فكرة عامة سائدة في الرواية ممثلة البيئة أو العصر. وربما أومأ لنا عن لمحات من حياة يريدها ستاندال، ولا يريد اقحامها في جو الرواية. من هنا، يعتذر للقارىء مباشرة ويتجاوزها مشيحاً عنها.

هكذا، تتناغم الأحداث في هذه الرواية مع تناغم الأصوات فيها. وفيما جوليان يتعلّم عدة لغات، يتعلّم القارىء أن يسمع عدة حوارات معلنة ومبطنة، وهمسات المدن والصالونات، وانطباعات المؤلف، تارة بلهجة عالم الأخلاق، وتارة أخرى بلهجة الخبير بلغة الروايات. وينتهي القارىء إلى الشعور بالحوار بينه وبين المؤلف مباشرة حول وجود شخص أو ضرورة حذفه. ولكن ستاندال لا يترك الحرية مطلقة للقارىء في الجدال. فالقارىء لا يملك حرية أن يجد نهاية للأحداث، لأن التاريخ يفرضها عليه كما فرضها على الروائي نفسه. من هنا، على خياله أن يتأقلم مع طابع الرواية، وطابع تسلسل أحداثها، الذي يحمل جوليان من دم فار عند ضرب أبيه له في المنشرة، إلى دم فار عند سخط المجتمع عليه، حتى أودى به إلى المقصلة.

بياتريس ديدييه

تعليق روجيه نيمييه

في ٢٣ شباط ١٨٢٨، قَطَعَت المقصلة رأس انطوان برتيه، لأنه أطلق النار في كنيسة، على امرأة. والمقصلة آلة ضيقة لا يكاد المحكوم يسجى عليها حتى تنقض شفرة فولاذيّة ثقيلة على نقرته، تسحقه، ولا يلحق أن يفكر حتى تقسمه إلى قسمين.

وفي ١٠ أيار ١٨٣٠ أعطى هنري بيل، (كان يكتب تحت اسم «ستاندال»)، الإذن للمطبعة بطبع «الأحمر والأسود» وهو الإذن الذي أرسل بطله «جوليان سوريل» إلى المقصلة. واقتفى جوليان سوريل آثار انطوان برتيه تماماً: كان متعلقاً بالنساء المتزوجات، ودخل الدير دون أن يحس بالإيمان أو أن يشك في التجربة، وحاول قتل عشيقته الأولى بعد أن وشت به.

وكان ستاندال عهدئذ، كبير الجسم، في السابعة والأربعين، فخوراً بعضلاته، تعلو رأسه قبضة من الشعر الخفيف القاتم، ذا خدّين منتخفين وشفتين رقيقتين وأنف حاد أنيق، مشهوراً بخفة

دمه، من موظفي الامبراطور نابليون، كثير الأسفار، يلقى التقدير في الصالونات، كثير الأكل وصديق النساء. ولما لم يكن يمثل دور الرجل الشهير، ظنّ بعض النقاد أنه كان مجهولاً في عصره. ولكن العكس هو الصحيح؛ فأيٌّ من بلزاك وبيرون وغوته، أو أيٌّ من معاصريه، لم تلفت نظره عبقريةُ ستاندال التي كانت غريبة في نظرهم وكانت تثير حسدهم. كان شجاعاً أمام سيدات البيوت، يعجب النقاد به في الخفاء. فأيٌّ مجد أشرف من هذا: من جهة، بعض جمهور المساوين له، لأن قلائل يساوونه، ومن أخرى، سيدات أو رجال يجهلونه ولكنهم ينتهون للزواج، لإنجاب أطفال يعبدونه عندما يصبحون كباراً.

وتتابع أطفال ستاندال، فحملوا منظار «تين» وشوارب «بورجيه» وقبعه «لاربو» الأميركية وغليون «جيونو». وهم يتحملون في عصرنا الحاضر ثقل شهرتهم كطائشين.

ومع ذلك، من يقرأ «الأحمر والأسود» يجد أن كل القضية في وصف منشرة خشب في «فرانش ـ كونتيه» وحياة شاب يافع فقير يخرج من هذه المنشرة ليجد نفسه مربّياً، ويغري أم تلاميذه، فيُبعَد، ويدخل الدير فلا يعجبه الأمر، فيأتي باريس، ويغري شابة شقراء من علية القوم، نحيفة طويلة، ويقترب من النجاح الكبير، إذ قد يصبح قائداً في فرقة الفرسان، ولكن عشيقته الأولى تشي به وتتهمه بالرشوة فيقفز إلى الحصان ويحاول قتلها،

ثم لا يدافع عن نفسه أمام القضاة، فيقطع رأسه.

هذه الحوادث لم يعد لها اليوم من معنى. لكن حدوثها كان ممكناً في ظل حكومة «الإصلاح» حين كان يخشى من هؤلاء المربين الفقراء الذين كانوا يهددون دائماً بثورة أو بخَبَل. وبمقدار ما لاقى ستاندال من النجاح، تعدى الشباب كل الاحتمالات.

في النصف الثاني من القرن العشرين تجري، فعلاً، حوادث «الأحمر والأسود» ولكن بشكل آخر. السيد ده رينال، عمدة «فيريير» في فرانش كونتيه، يسخر من الشاب سوريل، الأعوج التفكير الذي يعدّ نفسه للتفتيش المالي، فيتركه يلعب كرة المضرب مع امرأته التي تشدّ على أسنانها، وتخسر وتشرب أحياناً بعض الويسكي، وتهتمّ بالأدب، بستاندال مثلاً.

ويفكر جوليان سوريل بالحزب الشيوعي. ولكن الوضع لا يبدو له تام النضج. ثم يصادف صورة حلوة في شخص الأب بيرار، الذي كان قسيساً عاملاً في الوقت الذي بقي عالماً دينياً متعمقاً.

يرسله الأب إلى باريس، فيحيط به بعض عديمي الأخلاق والتربية، ويقيمون له احتفالاً محاولين إفساده. فيسأم من هذه الثرثرات، من هذه العلاقات الجبانة، من هؤلاء الأطفال الذين يقلّدون الشيطان ولا يتحملون المشروبات. ويحاول أن يخلّص

من قبضتهم شابة تدعى ماتيلد ده لامول، ولكنه بات متقدماً في طريق الفساد إلى درجة لم يتمكن معها من الوصول تماماً لهدفه. وتقص ماتيلد شعرها ذات يوم لتعرّفه أنها تخلت عن البلاهة ودوافعها. ولكن عبثاً، فالنجاح أقوى، وسيصبح جوليان رئيس ديوان وزير. ولم يهتز له جفن عندما أخبرته ماتيلد أنها حامل. وبأناقة، يقترح على نفسه الزواج منها، والترشح للنيابة عن فريير حيث مكان شاغر. وعندما يعلم أن عشيقته الأولى، السيدة ده رينال، تقوم بحملة ضده، يأخذها في السيارة ويسرع لأنه يحس لا يزال يحبها، فيصطدم بشجرة.

ويجتلب عطف النساء وجهه المغطى بـربـاطـات «الشاش». وكان آخر ما قالته السيدة ده رينال، قبل أن تموت، إنه لم يكن بينهما إلا تشابك أيد وطلقات طائشة.

في المجلس، كان أول اهتمامات جوليان: المطالبـة بإلغـاء حكم الإعدام. ولم يعد متواجداً في شقته، على ضفة السين في حي «موبيت»، لأن أعمال الدولة تتطلب عنايته. ولكن جبينه الضيق الخبيث بقي معه.

هذا الجبين، عند ستاندال، ليس خبيثاً إلا في حالة الغضب. وهو في اختراعه لهذا الشـاب، الذي كـان يوحي لمعـاصريـه بالشفقة وعدم الواقعية، والذي لم يعرف كيف يقاوم اغراءات العصر، وضع ستاندال كل ما كان ذهنه يحمل من تنظيم، وكل

ما كانت تحبه روحه بحماس. كريم، أجل أكثر من أي مذلّه، الثورة عنده كجنة علماء الأرض وليس طغيان البلهاء ومطلقاً الجبن، وزوارق الحوار تدور بفعل الأمواج التي تأتي من القلب.

هل كان يعلم ذلك؟ ستاندال، الذي يُدرَس بحماس منذ مئة سنة، كل غسالة معدودة، كل رسالة حب موزونة، تظهر لنا على أنها عاشت في الانتظار، في التوق، في التطرف، في اللذة، في المأساة. العقل والمنطق كانا مع ذلك حجتيه الأساسيتين. فهل كان مخدوعاً؟ نقرأ رسائله البائسة التي أرسلها إلى ماتيلد أخرى، ماتيلد دمبوسكا التي لم تكن تحبه، وننسى أنه كان يقوم سنة ١٨٣٠، باغراء ايطالية عمرها سبعة عشر ربيعاً: جـوليا رينيري. إن ستاندال من جميع نواحيه يدعو للتأمل. إنه قلب من الصعب اختراقه. ولكنه كان سعيداً حقاً عندما كتب أشهر روائي في أوروبا عن رأيه في «صومعة بارما»[1].

ونتيجة لخطأ المؤلف، يمكننا أن نقرأ «الأحمر والأسود» قراءات مختلفة. نستطيع أن نشتّمّ ستاندال، إذ نجد القرن التاسع عشر على طاولة عمليات، وسكان الريف في الهواء، والرجال الشرفاء ممتلئي الصحة تحت أنظار الجرّاح، وكذلك دراسة للحب المتقدم بين جدران المجتمع.

ويبقى أن الرواية، بشكلها الغريب، كتبت سريعة بقلم رجل

---

(١) راجعها لدى منشورات عويدات في سلسلة ماريان.

كانت واضحةً في رأسه، ولم يكن يفكر في الاختراع (لأننا عندئذ نقلد كما نرى جيداً). بل قد يفكر في الاسترسال لأن الدوخة تأتيك وأنت في الشارع. ولكن إذا كان ستاندال قد مات فإنه لم يمت إلا بالنسبة لنفسه.

كان يحلم بأن يكون موليير آخر، مع كل نجاحات الهزل والجد، وهي ليست إلا فرنسية. وعلى البعد، وفي قربه، كانت الممثلات والحياة على شكل تصفيقات. وفي هذا الميدان فشلت كل مشاريع ستاندال. وبينما يكفينا أن نقرأ محاوراته بصوت عالٍ لنعرفه كاتباً مسرحياً كبيراً، لم يستطع أن يطوِّع التفعيلات.

جميع الناس يتكلمون في «الأحمر والأسود»، فالشخصيات، بجدتها ومزاجها في كل لحظة، والتي تُفاجأ هي نفسها لأنها قامت بعمل ما، تضطرنا في حساباتنا لاحترام الحياة. إنها تتكلم والحمَّى تصعد. أو بالأحرى: الحديث جمل موزونة، معادلة: ليس من كلمة نائمة.

ودون أن يتعمد ستاندال، اختراع الحوار الداخلي، وأظهر السيد ده رينال وجوليان سوريل وماتيلد يفكرون، يحلمون، يركضون وراء أفكارهم، يسكرون من عقولهم سواء كانوا مجانين أو عقلاء. والكاتب يتتبع، بحماس كحماسهم، كل هذه الأفكار التي ليس لديه الوقت الكافي للحاق بها، والتي تشير دون

انقطاع إلى النساء والسياسة والعصور والرجال العظماء والعواطف الرائعة والمناظر الطبيعية.

وهذه الحساسية، في التركيز أو في الضياع بين الدروب المختلفة، ملحوظة في الرواية الفرنسية. السيد ده رينال يلعن السيدة ده رينال. ويتنقل كالذئب من جملة إلى جملة: «... وعندما صادف، في منعطف الوادي، هذه المرأة التي أرادها أن يراها ميتة».. هنا يجب على المخرج أن يضرب رأس الممثل بقطعة من الديكور. وقد يكون هذا هو السبب الرئيسي لإعجاب بلزاك بستاندال: فعند هذا أو ذاك، وكلاهما كان يحلم دون انقطاع، تستيقظ الشخصيات.

ولكن بلزاك، مدافعاً عن النظام والملكية، كان يحكي عن مجتمع آخر؛ راستينياك وروبامبريه يجتازان اليأس والوحل قبل أن يستطيعا الوصول إلى أمل بمستقبل اجتماعي يقود الأول إلى كرسي الوزارة والثاني إلى درجة المحكوم بالإعدام. المحركات الحقيقية ظاهرة كلها: كل الخوف، كل الحقد؛ عند ستاندال، الأمر يجري بسهولة أكبر، فجوليان سوريل يكره ويعلو على نفسه، يقفز الحواجز ويتقبل بغضاضة ما يأتيه، يشك عندما يحب، يبحث عن ارضاء قلبه ومكره، يقوم بتحليلات قاسية: «ودهش جوليان مما فعل. ليس شيئاً يذكر، قال في نفسه، يقتضي أن أقوم بظلامات عديدة أخرى، إذا أردت أن أصل،

ومن المهم أيضاً أن أعرف كيف أداريها بقناع من الكلمات العاطفية الجميلة».

هل كان يريد أن يصل؟ ترك راستينياك نفسه ينجرف في حركة اجتماعية لا تقاوم. جوليان سوريل لا ينتظر حتى ثورة تموز. إنه مثال الرجال المسرعين، اخترعه رجل عازب قاس ذو شعر رمادي، كان دائمًا مرآة للكاتب وبقي مرآة لقارئيه.

وتراكمت الآراء في القرن العشرين. ليون بلوم عندما يتعرض لستاندال يتجه ذهنه خصوصاً للنظرية، لطريقة في اختيار الحياة، في تنظيمها وقيادتها نحو اللذة أو الفكرة، وفي منع الحياة من أن تُضيع نفسها كأية نزعة جارية تحملها.

أما آلان فيعجب عندما يتكلم على هذا الجواد الجامح، بثورته وكرمه، ويكتب عنه: «الصعب أن لا يخدع الإنسان قط، وأن يبقى له مع ذلك إيمانه بالإنسان».

وقابل موريس بارديش بين جوليان سوريل ومهزومي بعد الحرب، مشيراً إلى نقاط التشابه بين حكم الإصلاح: والجمهورية الرابعة. وهذا ما يذكرنا بجملة لمدام ده رينال: «قالت لزوجها: تصور أنك اشتركت سنة ١٨١٦ في بعض الاعتقالات».

وأخيراً شبّه اراغون جوليان سوريل بتارتوف: دخل مجتمعاً

معادياً له، بسلاح وحيد: الكذب.

إضافةً إلى هذه الصور الأربع، نلاحظ دور الصداقة في حياة جوليان سوريل. في الماضي، في أحلامه، كان صديقه نابليون أو روسو، أما في الواقع فإنه فوكيه وتاجر الخشب والأب شيلان والأب بيرار أو المركيز ده لامول. والنساء عقبات يجب اجتيازها. ولكم يحس المرء بالخلاص عندما يمتلكهن، وبالحرية عندما يحتقرهن أو يستغني عنهن!.

فإذا ثُرنَ، فلا بد من قتلهن دون ندم، ثم في السجن، في حماية الحائط الضخم، يستطيع المرء أن يحبهن بحنان، عندما يكون رأسه جاهزاً للقطع.

ذكر بلزاك في إحدى «رسائله من باريس» سنة ١٨٣١: «ان ستاندال لامس القلب الإنساني». وبلزاك كان يكتب للنساء، لقارئاته الشغوفات اللواتي كن يردن أن يحكمن كالملائكة الاجتماعيين. ومن الممكن أن يكون «الأحمر والأسود» كتاباً للرجال، بالدرجة الأولى، إضافةً إلى كونه بياناً للشبان. من هنا، كان لا بدّ للنساء حتى يفهمنه من لبس البناطيل وتقصير شعورهن.

روجيه نيمييه

مدفنه في مونمارتر

سيرة ستاندال

١٧٨٣ ـ ٢٣ كانون الثاني ـ ولادة هنري بيل (ستاندال لاحقاً).

١٧٩٦ ـ ٢١ تشرين الثاني ـ دخوله المدرسة المركزية في غرينوبل.

١٧٩٩ ـ الجائزة الأولى في الرياضيات بعد أن كان حصل في العام المنصرم على الجائزة الأولى في الأدب.

٣٠ تشرين الأول: انتقل من غرينوبل إلى باريس.

١٨٠٠ ـ أخذه بييردارو ابن عمه، في الأسبوعين الأولين من السنة إلى وزارة الحربية.

ـ في ٧ أيار أُرسِل إلى ايطاليا.

ـ في حزيران انتقل إلى ميلانو، وعيّن في أيلول ملازماً أول في فوج الفرسان.

ـ في كانون الأول، ذهب إلى غرينوبل لقضاء فترة نقاهة.

١٨٠٢ ـ ١٨٠٣ ـ اقامة في باريس. جرّب نفسه في المسرح، عاد إلى غرينوبل، في حزيران لمدة تسعة أشهر.

١٨٠٤ ـ نيسان ـ عاد إلى باريس مغرماً بالممثلة الهزلية ميلاني غيلبير المعروفة باسم سانت آلبر وسيتبعها إلى مرسيليا في السنة المقبلة.

١٨٠٦ ـ عاد الى باريس واستأنف علاقته بِـدَارو وحصل منه على

مهمة في بروسيا، وفي تشرين الأول عُيِّن مساعداً مؤقتاً مع مفوضي الحربية وأرسل إلى برونشفيك ثم ثبت بهذه الوظيفة في الصيف الذي تلا.

١٨٠٩ ـ عاد إلى باريس منذ سنة وأُرسِل إلى ستراسبور ثم رافق دارو إلى فيينا. لم يحضر معركة واغرام بسبب مرضه (ربما يكون فابريس مجدداً شهد هذه المعركة). اشتدت أواصر صداقته بالكونتيسة دارو.

١٨١٠ ـ عاد مجدداً إلى باريس. بدأ الفترة الاجتماعية من حياته وهي لامعة ولبقة ولطيفة. وخالية من الهموم وسعيدة، ولن يعيشها ثانية. كان يحلم دائماً بالوصول إلى المجد عن طريق المسرح. وعيّن على التوالي في مجلس استشارة الدولة ومفتش أساس ومبانٍ.

١٨١١ ـ ربطته علاقة بانجلين بيريتر. ستدوم أربع سنوات. ولكن هذه العلاقة لم تكن بالتأكيد مقتصرة عليها. فأنجيلا بييترا غروا كانت عشيقته في ميلانو. وكان ذهب إلى ايطاليا أواخر الصيف. وقام برحلة إلى بولونيا وفلورنسا وروما ونابولي.

١٨١٢ ـ باشر بكتاب «تاريخ الرسم في ايطاليا». في شهري آب وأيلول سافر إلى موسكو ثم كان الانسحاب من روسيا.

١٨١٣ ـ خيبة أمل. لم ينل أية جائزة عن مسلكه الرائع خلال الانسحاب. اقامة متعاقبة في ايطاليا وباريس وغرينوبل.

١٨١٤ ـ يفتش عن مركز. باشر بكتابة «حياة هايدن» وموزار ميتاستاز. بدء اقامة لمدة سبع سنوات في ميلانو سئمته انجيلا. وكان و ضجراً من كل شيء. تفكير بالانتحار.

١٨١٧ ـ آب ـ نشر كتاب «تاريخ الرسم في ايطاليا».

أيلول: روما، نابولي، وفلورنسا عام ١٨١٧.

١٨١٨ ـ حبه لمتيلد دومبوفسكي.

١٨٢٠ ـ ١٨٢١ ـ نتائج هذا الحب التعيس. استخلص منه كتاب عن الحب». فقد المخطوطة. عاد فوجدها وأعاد كتابتها.

١٨٢٢ ـ نشر كتابه «عن الحب».

١٨٢٣ ـ «راسين وشكسبير» وحياة روسيني.

١٨٢٤ ـ في روما. باقي السنة في باريس. علاقته بالكونتيسة وريال.

١٨٢٦ ـ نهاية العلاقة: هي التي قطعت علاقتها به.

توفيت ماتيلد دمبوفسكي السنة السابقة، في ميلانو ـ رحلة إلى نكلترا اقامة ثالثة في لندن. باشر تأليف رواية ستكون آرمانس.

١٨٢٧ ـ شباط ـ طبعة جديدة لكتاب «روما، نابولي وفلورنسا».

آب: آرمانس.

ـ سافر إلى ايطاليا في تموز. ذهب إلى نابولي واسكيا وروما وفلورنسا (حيث التقى لامرتين) ثم انتقل إلى ميلانو.

١٨٢٨ ـ قضى السنة في باريس وفتش فيها عن وظيفة.

١٨٢٩ ـ علاقة بألبرتين دي روبنبري (التي وجد إلى قربها خصماً مخيفاً بشخص أوجين دولاكروا).

ـ هوى وحسد: انطفأ بعد ثلاثة أشهر.

ـ أيلول: نزهات في روما.

كانون الأول: فانينا فانيني في مجلة باريس.

١٨٣٠ ـ هامت به امرأة لأول مرة في حياته ومع هذا تطلبت جيوليا رينيرا شهرين للاستسلام. في ٦ تشرين الثاني، يوم ذهابه الى ترييستا طلب يد جيوليا من الوصي عليها فرفض طلبه.

ـ ١٣ تشرين الثاني: «الأحمر والأسود».

ـ رفضت الحكومة النمسوية القبول به فعين قنصلاً في تشيفيتا ـ فيكيا.

١٨٣٢ ـ قام برحلات في ايطاليا وكتب ذكريات نرجسية.

١٨٣٣ ـ اكتشاف نسخة من المخطوطات التي ستوفر له موضوع الحوليات الايطالية.

ـ نيسان: زواج جيوليا.

- ١٥ كانون الأول: لقاء في ليون مع جورج صاند والفرد دي موسه وكانا في طريقهما إلى ايطاليا حيث كان هو نفسه بعد اقامة في باريس. نزلوا سويّة الرون.

١٨٣٤ - تشيفيتا فيكيا يعني روما. باشر بكتابة «لوسيان لوين».

١٨٣٥ - توقف عن كتابة روايته «حياة هنري برولار».

١٨٣٦ - اجازة ثلاث أشهر، في باريس، حيث سيبقى ثلاث سنوات.

١٨٣٧ - يجرب أن يستعيد حياته المتألقة التي عاشها عام ١٨٢٠. ولكن الزمن تبدّل. بدأ ينشر الحوليات الايطالية في المجلات.

١٨٣٨ - «مذكرات سائح».

- صادف جوليا.

- تابع نشر الحوليات الايطالية وفكران يضع حولية جديدة مستمدة من شباب الكسندر فارنيز. اتخذ المشروع هيكلاً ثمّ توسع وأصبحت القصة رواية. اعتزل ابتداء من ٤ تشرين الثاني، في ٨ شارع كومارتان، في ١٥ منه كان كتب ٢٧٠ صفحة من مخطوطته. وفي ٢ كانون الأول ٦٤٠ صفحة.

- عيد الميلاد: أنهى ستاندال تأليف «صومعة بارما أو دير الشارتريين».

في اليوم التالي ٢٦ كانون الأول سلّم المخطوطة إلى رومان كولومب الذي دفعها إلى الناشر ا. دوبون.

١٨٣٩ ـ أول شباط وأول آذار «نشرت» رئيسة دير كاسترو على دفعة في مجلة «العالمين».

ـ من ٢٦ شباط إلى ٢٦ آذار ستاندال يصحح مسودات المطبعة لرواية «صومعة بارما».

ـ في ٢٦ نشرت جريدة «الدستوري» حلقة واغرام.

ـ في ٦ نيسان نشر «صومعة بارما».

ـ حزيران: ذهب إلى تشيفيتا فيكيا، متّبعاً الطريق الطويل فلم يصل إليها إلا في آب. يقضي وقته خاصة في روما حيث التقاه ميريميه. باشر بتأليف «لاميه».

ـ ٢٨ كانون الأول: «رئيسة دير كاسترو» التي هي الحوليات الايطالية.

١٨٤٠ ـ كل الأسباب مقبولة لديه للهرب من تشيفيتا ـ فيكيا، لا يزال في روما. عرف حباً جديداً لايرلين الغامضة. وسيكون هذا حبه الأخير. أدرك ذلك وسمّاه: «آخر أغنية حب».

ـ ١٥ تشرين الأول وصله مقال بلزاك عن «صومعة بارما». وسينقح روايته طيلة ثلاثة أشهر.

١٨٤١ - ١٥ آذار - نوبة دماغية «فتنازع والعدم».

- أيلول: فرصة في باريس. أجبر نفسه على العمل بانتظام ربما كان عمله على لاميه.

١٨٤٢ - ٢٢ آذار - نوبة دماغية جديدة في شارع نوف دي - كبوسان لم يستعد وعيه.

- ٢٣ آذار: وفاته في الثانية صباحاً.

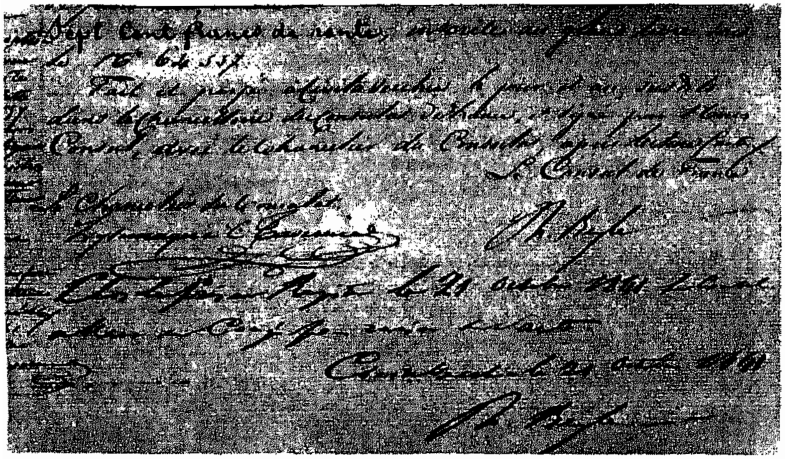

آخر توقيع له على سجل القنصلية

فهرس

الأحمر والأسود، تقديم كلود روى ٥
تنبيه ١٨

القسم الأول

١ ـ مدينة صغيرة ٢١
٢ ـ عمدة ٢٦
٣ ـ خير الفقراء ٣١
٤ ـ والد وولد ٣٩
٥ ـ مفاوضة ٤٥
٦ ـ الضجر ٥٧
٧ ـ الصلات الانتخابية ٧٠
٨ ـ أحداث صغيرة ٨٦
٩ ـ سهرة في الريف ٩٩
١٠ ـ قلب كبير وثروة صغيرة ١١٢
١١ ـ سهرة ١١٨
١٢ ـ رحلة ١٢٦
١٣ ـ جوارب ١٣٦
١٤ ـ المقص الانكليزي ١٤٤
١٥ ـ صياح الديك ١٤٩

١٦ ـ اليوم التالي ١٥٥
١٧ ـ المعاون الأول ١٦٢
١٨ ـ ملك في فريير ١٧٠
١٩ ـ التفكير يوجع ١٩١
٢٠ ـ الرسائل المغفلة ٢٠٥
٢١ ـ محاورة مع سيد ٢١١
٢٢ ـ من تصرفات ١٨٣٠ .... ٢٣٤
٢٣ ـ أحزان موظف ٢٥٣
٢٤ ـ عاصمة ٢٧٦
٢٥ ـ الدير ٢٨٨
٢٦ ـ العالم أو ما ينقص الغني ٣٠٠
٢٧ ـ أول تجربة في الحياة ٣١٦
٢٨ ـ الموكب ٣٢٢
٢٩ ـ التقدم الأول ٣٣٤
٣٠ ـ طموح ٣٥٨

القسم الثاني

١ ـ ملذات الريف ٣٩١
٢ ـ الدخول إلى العالم ٤٠٩
٣ ـ الخطوات الأولى ٤٢١
٤ ـ قصر ده لامول ٤٢٧
٥ ـ الحساسية وسيدة عظيمة متدينة ٤٤٨
٦ ـ أسلوب الحديث ٤٥٢
٧ ـ داء المفاصل ٤٦٣

٨ ـ ما هي المدالية التي تميز؟ ٤٧٦
٩ ـ الحفلة الراقصة ٤٩٣
١٠ ـ الملكة مرغريت ٥٠٩
١١ ـ نفوذ فتاة ٥٢٢
١٢ ـ هل يكون كدانتون ٥٢٨
١٣ ـ مؤامرة ٥٣٧
١٤ ـ تفكير فتاة ٥٥١
١٥ ـ هل هي مؤامرة؟ ٥٦٠
١٦ ـ في الواحدة صباحاً ٥٦٨
١٧ ـ سيف قديم ٥٧٩
١٨ ـ لحظات قاسية ٥٨٧
١٩ ـ الأوبرا الايطالية ٥٩٥
٢٠ ـ الوعاء الياباني ٦١٠
٢١ ـ المذكرة السرية ٦١٩
٢٢ ـ المناقشة ٦٢٧
٢٣ ـ رجال الدين، الغابات، الحرية ٦٤١
٢٤ ـ ستراسبور ٦٥٦
٢٥ ـ وزارة الفضيلة ٦٦٦
٢٦ ـ الحب المعنوي ٦٧٧
٢٧ ـ أجمل أماكن الكنيسة ٦٨٢
٢٨ ـ مانون ليسكو ٦٨٨
٢٩ ـ السأم ٦٩٤
٣٠ ـ مقصورة الأوبرا ٧٠٠

٣١ ـ يجب أن أخيفها ٧٠٧
٣٢ ـ النمر ٧١٦
٣٣ ـ جحيم الضعف ٧٢٤
٣٤ ـ رجل مفكر ٧٣٣
٣٥ ـ عاصفة ٧٤٣
٣٦ ـ تفاصيل محزنة ٧٥١
٣٧ ـ البرج ٧٦٣
٣٨ ـ رجل قوي ٧٧٠
٣٩ ـ المؤامرة ٧٨٠
٤٠ ـ الهدوء ٧٨٧
٤١ ـ الحكم ٧٩٣
٤٢ ـ ٨٠٥
٤٣ ـ ٨١٤
٤٤ ـ ٨٢٤
٤٥ ـ ٨٣٦

الملف

تعليق بياتريس ديديه ٨٤٩
١ ـ اشارات تاريخية ٨٥١
٢ ـ في الشكل والمضمون ٨٦١
تعليق روجيه نيمييه ٨٧٥
سيرة ستاندال ٨٨٥

منشورات عويدات ١٩٨٣/٨٦١

Stendhal

Le rouge et le noir

Préface de Claude Roy

Nouvelle traduction dirigée

par

Henri ZOGHAIB

MARIANNE / OUEIDAT

Beyrouth

Stendhal

Le rouge et le noir

Bibliotheca Alexandrina
03351304